آذانُ

الأنـــــعـــــام

دراسة قرآنية علمية لنظرية داروين في الخلق والتطور

تأليف

الدكتور/عمـاد محـمـد بابـكر حـسـن

بالاشتراك مع

المهندس/ علاء الدين محمد بابكر حسن

الطبعة الأولى: دارعزة للنشر، الخرطوم، فبراير 2007

الطبعة الثانية: أوثر هاوس، لندن ـ الولايات المتحدة الأمريكية، أغسطس 2007

إهـــــــــــــــــــــداء

إلى روح القسيس الذي اعتنق الإسلامَ وهو في الثانية والستين من عُمُره، يوم الاثنين 27 يونيو، ولقي ربَّه يوم الجُمُعة 19 أغسطس 2005...

Terence Sidney Casey15 th December 1943 -19 th August 2005

www.shajaracode.com

﴿........وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ " **المائدة 82-85**".

شكر و تقدير

نتقدم بالشكر أجزله إلى الدكـتور:

هـشــام عـمـر مـحـمـد عـمـر

رئيس قسم الشريعة الإسلامية – كلية القانون بجامعة جوبا بالسودان، على قراءته للكتاب في مرحلته الأوَّليَّة، وعلى ملحوظاته القيِّمة.

كما نشكر المدقق اللغوي الأستاذ خالد "محمد وليد" إبراهيم، على مراجعته للغة الكتاب.

و نتقدم بالشكر الجزيل إلى مؤسس ملتقى أهل التأويل في الشبكة العنكبوتيه الأستاذ جمال شرباتي على استضافتهم لنا، وإتاحة الفرصة للحوار حول محتوى الكتاب مع كوكبة من العلماء والمفكرين الذين أثروا الحوار والنقد الهادف على مدى عامين كاملين، ممَّا نتج عنه تعديلات و إضافات كثيرة تضمنتها هذه النسخة التي نقدِّمُها للأمة المسلمة كبداية لحوار واسع حول مفهوم الخلق والتطور وليس نهاية له.

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾" 20 العنكبوت"

قصة هذا الكتاب:

لمَّا اخترنا اسمَ "آذان الأنعام" ليكونَ عُنوانًا لهذا الكتابِ الذي يناقش قضايا غامضةً وخطيرةً في عقيدةِ الإنسانِ وتاريخ البشرِ، لم يكن يخفى علينا أنَّ بعضَ الأنفسِ ربَّما تستغربُ من كتابٍ يُقدَّمُ له باسمٍ لا يصفُ إلا أُذني حيوانات بهائم، يسخرها الإنسانُ لمصلحته كيف يشاء ويقتلها كيف يشاء. و لعلَّ كثيرًا من الناس لا يعلمون أنَّه لمَّا نزلت سورة الأنعام، وهي من طوال السور التي نزلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - دفعة واحدة، خرَّ النبيُّ ساجدًا لله من رهبة ما احتوت عليه من أسرارِ الكونِ والخلق والخالق. و لعله من حِكَمِ الله - سبحانه و تعالى- أنَّ العقلَ البشريَّ عندما يعتادُ على شيءٍ يفقدُ القدرة على تذوقه سلبًا أو إيجابًا، وهكذا كثيرًا ما نتعاملُ مع القرآن إنْ لم نتدبرْهُ كلَّ يوم، لنكتشفَ فيه سرًّا جديدًا يجدِّدُ نشاطَنا وانفعالَنا معه. فسورةُ الأنعام ما عادت تسترعي انتباهنا لنتدبر آذان الأنعام، وسورة البقرة نمرُّ عليها مرورَ الكرام، لا نكاد نسأل أنفسَنا: ما سرُّ البقرة تلك؟ ورغم أنَّ كثيرًا من الناس يعلمون أنّها تحكي قصةَ بقرةِ بني إسرائيل، إلَّا أنَّنا لا نسألُ عن السرِّ في بقرة بني إسرائيل تلك، رَغمَ أنَّ اللهَ أفرد لها أطولَ سورةٍ في القرآن تخلد قصتها إلى يوم يقوم الأنام. فضلًا عن أنَّ اللهَ - جلَّ وعلا- قد جعل كلَّ معجزاتِ موسى تتحقق بعصاه، فلما جاءت معجزةُ إحياء الموتى كانت من نصيب جزءٍ من البقرة:

﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ "73 البقرة".

تمرُّ الإنسانيةُ اليومَ باحتقان فكريٍّ واجتماعيٍّ وخُلُقيٍّ وبالتالي سياسيٍّ رهيب، لا يدري ما قد يؤدي إليه الانفجارُ بعد الاحتقان إلا اللهُ - جل وعلا- . قبل عشرِ سنوات فقط كانت كلُّ أمَّةٍ تعيش في عالمها إلا قليلًا، قانعينَ بحظِهم فيمَا آتاهم اللهُ، يظنون أنَّ الدنيا كلّها في ظلامٍ إذا ادلهمّ الليلُ، أو كلّها حَرٌّ إذا قاظتِ الشمسُ، أو كلَّها جليدٌ إذا غضِبَت الطبيعةُ. أمَّا اليوم، فمعظمُ الناسِ يتنقلون في بيوتهم من أقاصي الغربِ إلى أقاصي الشرق، فقط بالضغط على زر

التحكم الآلي في جهازِ التلفاز والفضائيات التي أصبحت معلِّمَ البشرية الأولَ، فلا تدري أمٌّ ماذا يتعلم أبناؤها وهم في عُقر دارِهم، ولا يدري أبٌ كيف يسدُّ أبوابَ بيته عن هذا العالم الذي يلازم أطفاله في غرفهم.

هذا التداخل بين الأمم لن يؤديَ إلى تبادلٍ ثقافيٍّ فقط، ولكنَّه سيؤدي كذلك إلى زوال أفكارٍ ومعتقداتٍ ما كان لها أنْ تسودَ عبر العصور إلا لأنَّ معتنقيها ما وجدوا غيرَها، وأنَّها ما كان لها أن تسودَ إلا في مجتمع ذي مواصفاتٍ ضيقةٍ و محددةٍ. ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ العولمة الإعلامية، والتطورَ الهائلَ في تكنولوجيا الاتصالات الذي فاق قدرة الإنسان العادي على التأقلم بمراحلَ كثيرةٍ، بدأ في هَدْمِ كثيرٍ من تلك الأفكارِ والمعتقداتِ التي تفتقد القدرةَ على الصمود في وجهِ خياراتٍ كثيرةٍ بديلةٍ، أكثرَ إقناعًا للعقل، أو أكثرَ إثارةً للشهواتِ ونقاط ضعف الإنسان، ولذا فإنَّ للعولمةِ ضحاياها هنا وهناك، في الجوانبِ الفكريةِ والاجتماعيةِ والخُلُقية. أمَّا في الجانب العَقَدِي، فإنَّ الواقع اليومَ يؤكدُ لنا أنَّ أمَّة الإسلام قد حصَّنها اللهُ بعقيدةٍ تخاطبُ العقلَ قبل العاطفة، وتصفُ أسرارَ الكون لا الجزيرةَ العربية، وتخاطب بني آدم وليس بني إسماعيل، وتربط الماضي بالحاضر والمستقبل، ممَّا يجعل حضارة الإسلام أقدرَ الحضاراتِ على الصمودِ في وجه العولمة، وأكثرَها قدرةً على اختراق غيرها.

ولعلَّ القرآنَ الذي جعله الله - سبحانه و تعالى- كتابًا ينطِقُ بالحقِّ، ما كان لأحدٍ أن يتحداه، إلَّا إذا استوفى ذلك الشخصُ مواصفاتِ الكمال لتحديه، ولا كمالَ إلا لله، وذلك بأنْ يكونَ أولًا عالمًا في كلِّ جوانب المعرفة، من أحياء وفيزياء وكيمياء وفلك وتاريخ وعلم نفس... وغيرها من العلوم، التي تشكِّل ناموسَ الكون الذي قدَّره الله في خلقه للكون كلِّه. فكتابُ الله وهو المنزَّل من عند خالق الكون، يناقشُ كلَّ شيءٍ في خلقه. و مَن جمع قدرًا من تلك العلوم ودرس كتاب الله لا بُدَّ وأنْ ينتهيَ به الأمرُ إلى الإسلام؛ لذلك فالإسلام ينتشرُ في صمت وبتدبيرٍ من خالق الكون، في فراغات الحضارات التي تهوي من وراء الكواليس. والعولمة جسرٌ بناه الغربيون؛ لينقلوا عليه حضارتَهم إلى كلِّ العالم، فشاء الله أن تنتقل عليه عقيدةُ الإسلام إليهم رغم سلبية المسلمين. فالإسلام لا ينتشر من حسن أداء المسلمين، إذ إنَّهم غثاءٌ كغثاء السيل، ولو كان للإسلامِ اليومَ عيبٌ لكانَ عيبُه الأولُ في جهل بنيه و حماقتهم وضعفهم وذلهم، الذين لا يعرفون من الإسلامِ إلا اسمه، ومن القرآنِ إلا رسمَه، فقد أصبح القرآنُ عند كثير من المسلمين كالوثن يقدِّسون صفحاتِه، ويكثرون من تقبيله، وينفضون عنه الغبارَ كلَّ يومٍ، ولكنْ قلَّما ينفضون الغبارَ الذي ران على قلوبهم وعقولهم، وهم يجهلون معظمَ ما يحويه القرآنُ من علومٍ وحِكَمٍ وأحكام، في عالمٍ وفي زمانٍ تتعطش فيه الإنسانيةُ إلى ما ائتمننا اللهُ عليه من علمٍ بأسرار الخَلق والخالق، والموت والحياة والبعث، ممَّا فصله في كتابه الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه.

ولعلَّ كتابًا ابتدأ نزولَه على نبيٍّ أمِّيٍّ في مجتمع أمِّيٍّ يبدأ بـ :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾

ما كان له أن يكون فقط لأُمَّةِ ذلك النبي، إذ إنَّ العِلمَ بالقلم لم يكن من مزايا مجتمعِه، ولا كانت "العلق" من اكتشافات علمائه، وما كان نصُّ الكتاب - أصلًا- موجهًا للمسلمين، وإنَّما للإنسان حيثما كان وفي كلِّ الأزمان. هذه الآية فيها

جوانبُ ما تطرّق إليها العلماءُ من قبل إلا قليلا، ونظنُّ أنَّ أوان فهمها بصورةٍ أوسعَ قد آن. فعلومُ الغيب التي أتى بها الوحيُ وفصَّلتها السنةُ ما كان للقلم دورٌ فيها، إذ إنَّها علومٌ نزلت شَفاهَةً على النبيِّ الأمِّيِّ ونقلت عنه شفاهة، ولم يؤدِّ القلمُ دورًا إلا في تدوينها بعد وفاة النبيِّ الأمِّيِّ - صلى الله عليه وسلم - .

فالقلمُ هو أداة الكتابة التي يحتاج إليها مَن يبحث في علوم الكون، من رياضيات وكيمياء وفيزياء وأحياء، وما يتفرعُ منها من علومٍ تخصصية، مثل: الطب والهندسة والزراعة والفلك وعلم الجيولوجيا، وغيرها من العلوم التي تحتاج لتعليمٍ نظامِي، ودراسةٍ منهجية، وبحوثٍ مستمرة، يستمرُّ فيها كلُّ عالم من حيث انتهى غيرُه. وقد كان لعلماء المسلمين الأوائل- الذين فهموا أنَّ الله استخلفنا في الأرض لنعمُرَها، وآتانا العقلَ لنبحث في أسرارِ خلقِه ونخرج آياته للناس- السبقُ في وضع حجر الأساس لعلوم "القلم". فقد وضع ابنُ سينا أولى لبنات علوم الأحياء، التي قادت إلى علوم الطب والصيدلة والبيطرة والزراعة وغيرها ممَّا أبحر فيه علماءُ الغرب اليوم، و وضع ابنُ حيان أولى لبنات علوم الجبر والرياضيات، التي قادت إلى علوم الهندسة، ومن ثَمَّ المعمار والتكنولوجيا الحديثة، وعلوم الفلك التي أخذ الغربيون أسسها منّا ثمَّ طوَّروها. كلُّ هذه أمثلة للعلم الذي علَّمه اللهُ للإنسان بالقلم بدليل المثال الوحيد الذي أبرزته الآية، وهو "العلق"، الذي ما كان للإنسان أن يفهمه قبل اكتشاف المجهر في زماننا هذا.

قصة هذا الكتاب فيها قـدْرٌ من المصادفات كبير، و إلهامٌ من الله - سبحانه و تعالى- ما كان له أن يكون بغيره، ونرجو أن يكون لبنةً في الطريق الذي يحول مسار البشرية ويعيد الناسَ، كلَّ الناس، إلى بيتِ أبويهم الأول كما أذَّن فيهم إبراهيمُ يومَ رفع القواعدَ من البيت هو وإسماعيل. و كاتباه ليسا من الفقهاء ولا يدَّعون الفقه، ولكنَّهما يؤمنان أنَّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها، ولا يستحيي أن يلهم أضعفَ خلقه ليكشف للعالم أسرارًا من أسرار الكون أودعها كتابه الذي لا تنتهي معجزاته، وجعل مِفتاح ذلك السرِّ في "آذان الأنعام" التي هي من أضعف مخلوقاته وأكثرها خضوعًا للإنسان. ولقد استأذنت أخي علاء الدين في أن أقوم بصياغة هذه المقدمة بلفظ المفرد حتى تسهلَ على القارئ المتابعة؛ لأنَّ هذا الكتابَ يحتاجُ إلى عقلٍ متفتحٍ وتركيزٍ عميق في كلِّ صفحة من صفحاته، و لأنِّي أعلمُ من علم النفس الذي أمتهنه أنَّه كلما فهم القارئُ شيئًا عن الكاتب وظروف الكتاب سَهُلَ عليه متابعة الأفكار و الفِكَر، ومن ثَمَّ الإدلاء برأيه فيها بصورةٍ موضوعية، سواء اتفق مع الكاتب أم اختلف. ونسألُ الله - جلَّ وعلا- أن يؤديَ "آذان الأنعام" دورًا فعَّالًا في مسار حياة الفتيان الذين بدأوا يمشون على خُطى الحبيب محمد - صلى الله عليه وسلم-؛ ليصنعوا حياة جديدة للإنسانية جمعاء. وسأذكر - بإذن الله - بعضَ الملابسات التي أدت إلى خروج هذا الكتاب من شخصين تفصل بينهما آلاف الأميال، سَلكا طريقين مختلفين، ثمَّ كان اللقاءُ على غيرِ ميعادٍ في آخر المطافِ عند الطواف حول البيتِ العتيق، وهما يبحثان في سر "الهَدْي" و يفحصان آذان الأنعام هناك، فكان كشفًا تهتز له أركانُ الكون، بإذن الله.

منذ أن سكنتُ بريطانيا قبل ستَ عشرةَ سنةً خلت، اشتغلت - بحمد الله وتوفيقه - في الدعوة لغير المسلمين، وهذا ليس فخرًا وإنَّما هو واجبٌ شرعيٌّ، ويكون فرضَ عين على من اختار طواعية مجاورةَ غير المسلمين في ديارهم . والدخولُ في حواراتٍ مستمرةٍ مع أهل الديانات الأخرى يكشفُ للمسلم جوانبَ جهله ونقاط ضعفه، ويفتحُ له آفاقًا جديدة من التدبُّرِ والبحث؛ لأنَّ ما نظنُّ أنَّه من المُسلَّمات عندنا يخضع للسؤال من أهل الديانات الأخرى، ولا بُدَّ

للإسلام أن تكون عنده الإجابة المقنعة. ولعلَّ أكثرَ الأمور التي تُطرَحُ للنقاش - في هذا الزمن- هي قضيةُ خلق الإنسان وأصل الكون، والتي بدورها تمهِّدُ لمصير الإنسان بعد الموت، وليس في هذا جديد، فقد ظلت الإنسانية عبر العصور في حَيرة ممَّا كان قبل الخلق وما يؤول إليه مصيرُنا بعد الموت. ولأنَّ هناك تشابهًا في قصة خلق آدم وزوجه في القرآن والتوراة، التي تشكل العقيدة و الثقافة للمجتمع الغربي من يهود ونصارى، كان لزامًا عليَّ أن أبحث عن الفوارق في القصص التي يرويها القرآن والتوراة؛ حتى لا أقولَ على الله ما لم يقله، ولكن لكلِّ جوادٍ كبوة.

جلست على مائدة الغداء في أحد المستشفيات البريطانية مع طبيب إنجليزي على قدر من الثقافة والانفتاح، ودار بيننا حوارٌ عامٌّ عن الثقافات المختلفة، ولكنَّه فاجأني بقوله إنَّه مطمئنٌ إلى نظرية داروين في الخلق والتطور، ويعتقدُ أنَّ أصل الإنسان قرد . شعرت حينها بغثيان وتقزز، وبدا لي الفتى، وسيمُ الطلعة، وكأنَّ رأسَه رأسُ قرد له سبعة رؤوس، طلعها كأنَّه رؤوس الشياطين، وحِرْتُ من هذا الذي أكرمه الله بالعلم وحسن الخَلق، لكنَّه ينكر فضلَ الله عليه وينتسب طواعية إلى أسلاف القردة. ثمَّ أخرجني من شرودي سؤالُه لي عن أصل الإنسان في القرآن، فسارعتُ بعزة المؤمن وكبريائه لأصف له أصل الإنسان من كتاب الله الذي لا يضاهيه مكتوبٌ في المنطق والحكمة والحق...ولكنَّ الكلمات تجمدتْ في لساني، وتسمَّرَ لساني في حلقي، والتوى حلقي في عنقي فما استطعت النطق لا بالطين و لا بالتراب. وأسعفني الله حينها بأن قلت له: إنَّنا نؤمن أنَّ الله يخلق ما يشاء، كيف يشاء، ومتى ما شاء، فالأصل عندنا الإيمان بقدرة الله المطلقة على الخلق وليس كيفية الخلق. فكان رده : " إنَّ قرآنكم يبدو أكثرَ حكمةً من "العهد القديم" عندنا، والذي يصفُ أنَّ الربَّ خلق آدم من تراب، علمًا بأنَّ القرد مخلوقٌ حيٌّ ويشابِهُ الإنسانَ في كثير من صفاته، وأنَّ تطويره إلى إنسان أقربُ إلى التصديق من تصديق قصة النفخ في كتلة طين لتصبح بشرًا". فحمدتُ الله الذي أجرى على لساني وصْف قدرته، وحرم عليه رفع شأن الطين الذي خلقنا منه، وعزمت أن يكون لي مع الطين والتراب شأنٌ آخرُ وكثيرٌ من البحث.

ولا أنسى -أبدًا- حوارًا دار بيني وبين باحثةٍ أمريكيةٍ على مدى شهور، نجحتُ فيه في استدراجها للنقاش، وظننت أنَّني قاب قوسين أو أدنى من إقناعها بعقيدة الإسلام، ولكنَّها سألتني ذات يوم: كيف تكوَّن الجنسُ البشريُّ بعد أن خلق الله آدم؟ فكانت إجابتي نقلًا عمَّا توارثناه من كتب المفسرين من غير تدبُّرٍ، فقلت: إنَّ ابنَي آدم التوأمين تزوج كلٌّ منهما توأمة أخيه، فما كان منها إلا أن قالت: "هذا قول التوراة الذي رفضته من قبل، وإنَّني لا أؤمن بربٍّ يبدأ سلالة خلقه من زواج أخٍ بأخته"، وضاع كلُّ المجهود الذي بذلته معها؛ نتيجة جهلي بحقائقَ مهمةٍ في كتاب الله. وبدأت قصةُ خلق آدمَ تسبب لي إشكالًا على إشكالها، إذ إنَّ النصوص القرآنية التي تروي القصة فيها من الغموض ما يشكك في صحة التفاسير المتداولة، ولكن ما كان لي بديلٌ من العلمِ أقدمه لغير المسلمين سوى ما تعلّمناه منذ الصغر ممَّا تتداوله كتب التفاسير، وهذه شبه مطبقة على رأي التوراة الذي رفضه الغربيون بالفطرة أفرادًا وجماعات .

ودارت الأيامُ وبدأت قصصُ النبيين تتعرض لامتحاناتٍ الواحد تلوَ الآخر، وأنا أجد نفسي في موقف صعب، إذ إنَّني أُردد تفاسيرَ متعارفًا عليها بين المسلمين، وإنْ كنت لا أستسيغها؛ لأنَّها تنطبق حرفيًّا على تأويل نفس القصص في توراة اليهود، الذين رفضوا المسيح وقتلوا الأنبياء وحرَّفوا كتبهم، فكيف نتفق معهم فقط في تفاصيل قصة نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وقصة خلق آدم؟!

وتبين لي - وأنا أتدبَّرُ هذه الإشكالاتِ في تفسير قَصص الأنبياء في القرآن- أنَّ المشكلة عامة بين المسلمين، لدرجة أنَّ العجز في فهمها قد أدَّى إلى أن يحوِّل المسلمون قَصصَ الأنبياء في القرآن إلى ما يشبه قصص الأطفال، وكأنَّ قصة آدمَ وشجرة الخلد، أو قصةَ صالح والناقة، ما ذُكرتا في القرآن إلَّا من باب الترويح عن النفس وإمتاع الأطفال. وتبين لي - مع الزمن- أنَّ مثل تلك التأويلات التي تسربت إلى كتب التفسير من الإسرائيليات، ما كان لها أن تبقى جزءًا من فهم المسلمين رغمَ تغيُّرِ كثير من المفاهيم، لولا أنَّها كانت تُعَدُّ من المسلَّمات التي لا تقبل النقاش أو البحث. وسألتُ نفسي مراتٍ عدة عن سرِّ الإعجاز في ناقة صالح، علمًا بأنَّ قوم صالح كانوا لا تنقصهم نياق، كما لا يفتقد العربُ الرمال، فما الحكمة في أن تكون معجزةُ نبيٍّ من أنبياء الله ناقةً إضافيةً لقومه الذين لا يمتلكون شيئًا أكثرَ من النياق؟ ولكنِّي لم أصل إلى إجابة مقنعة قبل أن أتواضعَ لله وأنحنيَ لأفحصَ آذانَ الأنعام. وكانت لي مع قصة نوح - عليه السلام- وقفاتٌ كثيرة، إذ إنَّ فيها من العجائب ما يجعلها صاحبةَ السبق في أفلام الكرتون التي يعرضها النصارى واليهودُ والمسلمون على الأطفال؛ لأنَّهم جميعًا يتفقون على تفاصيلها وطريقة إخراجها، ممَّا يجعلها أقربَ إلى قصص السيرك أو حديقة الحَيَوان.

و تساءلتُ مراتٍ عديدةً عن الحكمة من سفينة نوح، وأنا أشاهدُ برامج دينية موجهة من قنوات إسلامية للأطفال، تعرضُ قصةَ السفينة كما يفهمها اليهودُ تمامًا. و لعلَّ ما يجعل منها أشهرَ القَصصِ لإمتاع الأطفال أنَّ فكرة السفينة التي تحمل من كلِّ المخلوقات زوجين قصةٌ مثيرةٌ. ولعلَّ أكثرَ المناظر فيها إثارةً أنَّ ميمون(القرد) دائمًا يدخلُ السفينة ممتطيًا ظهرَ الفيل، بينما الزرافة تعاني من لَيِّ عنقها الطويل حتى تدخله من الباب الصغير، وتحت أقدامها سُرعان ما يشتبك الكلبُ مع القط والقط مع الفأر؛ مما يضحك الأطفالَ ويسرُّ الكبار، ويصلي الجميع على نوحٍ ومَن معه من الأخيار، وتضيع مع الطوفان قصة النبي ونظرية الأطوار.

وسألتُ نفسي مرات عديدة: إنْ كان نوحٌ قد حمل كلَّ هذه المخلوقات التي نراها في أفلام الكرتون، وتشتمل عليها كتب التفاسير القديمة نقلًا عن الإسرائيليات، فهل أيضًا جمع الخنافسَ والصراصيرَ والعناكب؟ ولِمَ لا.. والله لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها. ثمَّ ماذا كان من شأن الجرذان والثعابين والعقارب؟ وماذا عن الحمير والحُصُن و الذئاب والثعالب؟ وتمتد القائمة بأسماء المخلوقات التي يوحي تعدادُها أنَّ نوحًا احتاج السنوات الألف إلَّا خمسين عامًا كلَّها؛ ليجريَ في الوُدْيان والأحراش يجمع أزواجَ القطط والفئران والأرانب. وتزداد حَيْرتي إلى أن فتح الله علينا وهداني وأخي علاء الدين لننحني معًا ذات يوم - هو في الخرطوم وأنا في لندن- لنفحصَ آذان الأنعام، فنكتشف أنَّ نوحًا - عليه السلام - ما حمل معه إلا ثمانية أزواج فقط من البهائم، وأنَّه - عليه السلام - كان يمثل مرحلة خطيرة من مراحل التطور في خلق الإنسان والحَيَوان وتاريخ وجود الأحياء على الأرض؛ ولذلك كان من أبرز حُججه على قومه في القرآن:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ "13- 14 نوح".

ثمَّ شاء الله -جلَّ وعلا- أن يكون لي مريضٌ له علة نفسية، لا تنقصُ من ذكائه شيئًا، وكان يحاورُني في قضايا مختلفة من أسرار الخلق، وكان كلما سألته عن أمرٍ حدث في الماضي قال لي: "حدث منذ أن كان آدمُ صبيًّا "، فسألته ذات يوم: ومن أدراك أنَّ آدم كان يومًا صبيًّا؟ فأجابني بكلِّ ثقة: "ومن أدراك أنَّه ما كان يومًا صبيًّا؟"، فرحت أبحث

في كتاب الله فلم أجد أيَّ دليل على العمر الذي وجد فيه آدم، فازدادت حَيرتي التي ما شفاها إلا السرُّ الذي أودعه الله - سبحانه و تعالى- في آذان الأنعام، لأعلمَ أنَّ آدم - عليه السلام - كان يومًا ما صبيًّا وكانت زوجه صبية أيضًا، ولكنَّنا لم نقرأ كتابَ الله إلا تحت تأثير الإسرائيليات، متجاهلين الدرس الذي علمه "الغراب" لابن آدم و للبشرية جمعاء .

وكانت آخرُ المصادفات غريبة جدًّا، وقد تركت في نفسي وفؤادي أثرًا عميقا، وهي من جملة التجارِب التي أعتقد أنَّ من واجب المسلم أن يرويها؛ لِمَا فيها من عبرةٍ تزيد المؤمنين إيمانًا. فقد جمعني القدرُ بقسيسٍ من النصارى في الثانية والستين من عُمُره، احتاج إلى نصيحةٍ طبيةٍ عابرةٍ، فتحول لقاؤنا لصداقة تطورت لتبادل العلوم في أمر الدين والدنيا، وسُرعان ما صارحني بأنَّه موحدٌ على ملة إبراهيمَ - عليه السلام -، وأنَّه ما قام بتدريس عقيدة الثالوث لتلاميذه على مدى واحدٍ وأربعين عامًا، و هي عُمُر مهنته في الكنائس المختلفة التي تنقَّل بينها، ولم يستطع التعايش مع أيٍّ منها، فاختار أخيرًا المعاش الاختياري؛ ليواصلَ بحثه عن الحقيقة التي ما وجدها في كتب قومه. وفي مسار نقاشنا أهديته كتابي باللغة الإنجليزية في نبوءات محمدٍ في الكتب السماوية القديمة "أميرة مصر وذلك النبي الغامض"، وأهدى هو إلي نسخة من الكتاب المقدس تجمع العربية والإنجليزية معا، وطلب مني طلبًا غريبًا في حينه، وهو أن أبديَ له رأيي في بعض المواقع التي يظنُّ أنَّ الترجمات أدت دورًا في اختلاف الآراء حولها. وأخبرني - حينها- أنَّه يؤمن أنَّ الله قد ائتمن بني إسماعيل وبني إسرائيل على دينه، وقد ثبت له بالدليل القاطع عبر السنين أنَّ علماء بني إسرائيل قد خانوا الأمانة وقتلوا أنبياءَهم وحرَّفوا كتبهم، وكان يسأل الله دومًا أن يجمعه بعربيٍّ يحكي له وجهة النظر الأخرى قبل موته عسى أن يكون الحق معهم، وظنَّ أنَّ الله قد استجاب لدعائه أخيرًا يوم التقاني، وما كان يدري أنَّ لقاءَه مع الموت نفسِه قد دنا. ودارت بيننا حواراتٌ حول إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ والبيتِ العتيق، وكان الشيخُ يقبل رأيَ الإسلام في تواضع وبساطة لم أرَها في حياتي، وهو عالمٌ من علماء النصارى وكان يُعدُّ مرجعًا عند قومه.

ولم يمضِ شهران على تعارفنا الذي ظننا أن يقود إلى صداقة تمتد سنين عددا، ولكنَّ قدرَ اللهِ كان الأسرع، فقد أُصيب فجأة بسرطان في البلعوم، وقدَّر الأطباءُ ما تبقى من عُمُره بأربعة أشهر فقط . وكان اليوم الحاسم في حياته وحياتي يومَ اجتمعنا لتبادل الآراء حول كتابي، وحول الكتاب المقدس الذي أهداه إلي، وكان ممَّا عرضتُ عليه من التحريفات التي وقفت عليها هو تغيير اسم "وادي بكة" الذي ورد هكذا في زبور داود باللغة الإنجليزية، إلى "وادي البكاء" في الترجمة العربية. وكان الشيخ قد قرأ معظم كتابي عن نبوءات محمدٍ - صلى الله عليه وسلم - في التوراة والزبور والإنجيل، فسألته عن رأيه في محمد؛ فصمت حينًا من الوقت ظننته دهرا، خاصة وأنَّني أعلم أنَّ السرطان قد انتشر في جسده الضعيف، وما تبقى له من أيامٍ في الدنيا قليل جدا، ثمَّ قال لي حرفيًّا :" أصدقك القول - يا أخي في العقيدة - أنَّني قد ظللتُ أبحث طَوال عمري عن النبيِّ الخاتم، وهأنذا أصل إليه وأنا على فراش الموت". فقرأت عليه آياتِ سورة المائدة التي تعد القسيسين والرهبان الذين يقبلون محمدًا نبيًّا بجناتٍ تجري من تحتها الأنهار. والذي لا إله إلا هو، لقد فاضت عيناه من الدمع ممَّا عرف من الحق، وقال لي: "ومالي لا أؤمن بالله وما جاءني من الحق، وأطمع أن يدخلني ربِّي مع القوم الصالحين". ولم تمضِ أسابيعُ قليلة حتى فاضت روحه إلى بارئها، ثمَّ فاضت عيناي من الدمع وأنا أشهد يوم تشييعه الذي فُتحت فيه وصيته، وفاجأ قومَه بأنَّه مات على الدين الحق الذي اكتشفه في آخر أيام حياته، وأشار إلى شخصي الضعيف في وصيته من غير أن يجرح شعورَ قومه، ففهم الجميع أنَّ القسيس "تِرى" قد مات مسلمًا على دين محمد - صلى الله عليه مسلم- . و طلب مني أهلُه - بكلِّ تواضع - أن أصليَ عليه صلاة الجنازة، فصليت عليه وحيدًا يوم25-8-2005 في قريته النائية في أقصى غرب بريطانيا على مشهدٍ من أكثر من ثلاثمائة من

قومه. مضى " تِرى" إلى ربِّه مسلمًا -عليه رحمة الله وعلينا -، فما صام وما صلى، ولكنه صدَّق وما تولَّى، وترك لي كتابَه الذي أهداه إلي وعليه دعاء ظلَّ يلازمني كلما ذكرته: " إلى أخي وصديقي عماد، أسأل ربَّ إبراهيم أن يبارك فيك و يعينك في عملك، و يزيدك علمًا، ويلهمك كتابةً تنفع الناس أجمعين".

بعد شهرين من رحيله الذي تركني في دوامةٍ من الصراعات الفكريةِ والعاطفيةِ والحزنِ والشعورِ بحجم المسؤولية في الدعوة، والشعور المرير بضآلة نفسي وعظم ذنوبي مقارنة بفضل الله علي، ذهبتُ إلى السودان صلةً للأرحام ففوجئت بأنَّ أخي علاء الدين - وهو مهندس ميكانيكي واستشاري في التكييف المركزي، ولا علاقة أكاديمية له بالفلسفة ولا مقارنة الأديان- قد نشر كتابًا يناقشُ فيه قصة الحَجِّ بوصفه مشهدًا من مشاهد التطور ويدعو المسلمين للتدبُّر فيه. وكان محتوى الكتاب الذي طرحه للنقاش الفكري في السودان مفاجأة لي، إذ إنَّه أكمل لي بحثي في قصة الخلق وتطور الإنسان التي تراكمت عندي عبر السنين؛ فاكتملت في ذهني القصة التي كنت قد بدأتها، وهي تصف كيف بدأ الله خلْقَ كلِّ الكون من الماء إلى أن وصلت إلى مرحلةٍ أقربَ إلى خلق الإنسان من طين، وكنت أطوف بأفكاري و فِكَري حول إبراهيمَ والبيتِ العتيق مع أخي "تِرى"- عليه رحمة الله وعلينا - قبل أن يمضي إلى جنته -بإذن الله- ، فكان في كتاب علاء الدين تكملةٌ لأفكاري من غير اتفاق سابق، وكان مولدُ هذا الكتاب الذي أظنُّ أنَّه استجابة لدعاء الراحل "تِرى"، أن يلهمني ربُّ إبراهيم علمًا ينفع الناس.

وحتى تكتملَ الصورةُ أسوق ملخصًا للمقدمة التي قدَّم بها علاء الدين كتابه " الحج: مسيرة الإنسان الأول من جنة عرفات إلى بيته المحرم":

(أول ما بدأت التفكير في معرفة حقيقة الحج، استفزتني مقولة سيدنا عمر بن الخطاب وهو يقبِّلُ الحجرَ الأسودَ طاعةً لرسول الله فقط ، قائلًا:{أعلمُ أنك حجرٌ لاتنفعُ ولا تضر ولولا أنني رأيت رسول الله يقبلك لما قبلتك}.

رفض الخليفةُ العادلُ اللاعقلانيةَ حتى في العبادات، ومارسها طاعةً لله ورسوله... سألت نفسي: لماذا أبقى رسولُ الله - صلى الله عليه و سلم - وبتكليف من الله - جلَّ وعلا - على ممارسة عبادة كان يمارسها كفارُ قريش، و ذلك بعد أن هذَّبها وأضاف إليها بعض الإضافات وأبقى على أكثرها ؟. محمد الخاتم - صلى الله عليه و سلم - الذي قد أُرسل بأكثر العبادات انسجامًا مع عقل الإنسان الحديث، عبادة التجريد (الصلاة)، التي أزالت كلَّ الصلات التشخيصية ما بين العبد والربِّ، وربطت المسلمين في كلِّ مكان وزمان مع الخالق الأعلى من دون واسطة – يُبقِي على عبادة تشخيصية امتدادًا لممارساتٍ وثنيةٍ هذَّبَها وأبقى على المشخصات(الكعبةِ وجبلي الصفا والمروة وجبل عرفات والحجر الأسود) إلى أن استفزت سيدنا عمر، وبلغ قلبه حنجرته، ورفض الفكرة جهرًا، ومارسها طاعة لله ورسوله ...

أول ما فكرت فيه أنَّ هنالك علاقة جيولوجية مابين الحجارة التي تربط هذه الممارسة: الحجر الأسود، وحجارة الكعبة، وحجارة جبلي الصفا والمروة، و حجارة جبل عرفات، وحجارة رجم الشيطان. وقلتُ : إنَّ هذه العلاقة جيولوجية تحتاج إلى باحثٍ في الحجارة، يأخذ عينة من كلِّ حجر، ويحللها ويدرس تركيبها، وكنت واثقًا - ثقتي بالله وبكتابه المعجز وبآياته القرآنية - أنَّ هنالك رابطًا علميًّا ومعجزة...

صرت أتململ سنويًّا ... ما يزيد على ست سنوات، كلما جاءت مناسبة الحَجِّ أقف مشدوهًا أمام هذا المبنى الضخم، وأقسم بالله - ما بيني وبين نفسي- أنَّ هؤلاء الحفاة العراة الذين يتشبثون بأستار البيت العتيق، من ورائهم سرٌّ عظيم... كلما أراهم حفاة عراة متسخين، أظافرهم وشعورهم طويلة، منظرهم يتناقض تناقضًا كاملًا مع الإسلام، دينِ

النظافةِ والاحتشام والاحترام، كلما رأيتهم في ممارساتهم البدائية أرتجف؛ لأنَّني أؤمن إيمانًا قاطعًا أنَّ الرسول الخاتمَ محمدًا - صلى الله عليه وسلم- مهذِّبُ البشرية، و القائل :"النظافة من الإيمان"، هو من أمره اللهُ بهذه الممارسة البدائية، وأزدادُ ارتجافا؛ لأنَّني أعلمُ علمَ اليقين أنَّ من ورائها معجزةً علميةً أعظمَ منا جميعا...

صرت أتململ سنويًّا، وأنشغلُ بمشاغل الحياة لتدور الدائرة، وأجد البيت الأسود الضخم أمامي، والحفاة العراة يهرولون حوله ويلبون إلى الله؛ فأرتجف... إلى أن عقلتها.

فتح اللهُ عليَّ بالممارسة العلمية العظيمة التي يمارسها هؤلاء العراةُ سنويًّا؛ فارتجفتُ أكثرَ لعظمةِ الله ، ومعجزة الإسلام ، وصِغَرِ أنفسنا أمام الله...

قمت بتجميع كلِّ الآيات التي تخصُّ كلَّ موضوع على حدة، فجعلتها أرتالا، ثمَّ استعنت بمعجم مقاييس اللغة لأحمد بن فارس لمعرفة معاني أصول كلمات الآيات، وبعد ذلك قمت بدراسةِ كلِّ آيةٍ وحدةً متكاملة، مستنبطًا معناها من السياق الكامل للآيات المرتلة، مستندًا إلى المعنى المنطقي والعقلي والعلمي...عندها خرجت ببحثٍ متكاملٍ لقصة الخلق وسيدنا إبراهيم وعبادة الحج...).

وكان كتابُ علاء الدين مقتصرًا على تأويل مشاهد الحَجِّ بأنَّها تمثيلٌ لحياة الإنسان الأول، بعد أن طوره الله - تعالى - إلى إنسان عاقل، فقمنا معًا بدمج ما توصل إليه كلٌّ منا في بحثه لننتهيَ بنظرية آذان الأنعام في الخلق والتطور.

إنَّ مفهوم "رجال الدين" مفهومٌ دخيلٌ على الإسلام؛ لأنَّ كلَّ المسلمين رجالُ دين و نساءُ دين، ويتفاوتون في مستوى علمهم وعملهم بما يعلمون، وما رجالُ الدنيا إلا من جعل اللهُ الدنيا أكبرَ همِّهم ومبلغَ علمهم، وشغلهم بها عن دينهم فخسروا الدنيا والآخرة. ونحن نؤمن أنَّ المسلم مَن شهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسولُ الله، والمؤمن من آمن بالله وكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والمحسن من عبد الله كأنَّه يراه ... وفي هذه المراحل المتباينة فليتنافس المتنافسون باختلاف مهنهم و وسائل رزقهم. ونحن نؤمن كذلك بأنَّه لا يوجد شيءٌ اسمه "علوم الدين" مناقضًا "العلوم الدنيا"، إذ إنَّ الدنيا ليست إلَّا خلقَ من أوحى القرآن وعلَّم الإنسان ما لا يعلم . فالباحثُ في القرآن لا يخفى عليه أنَّ الله يصف أحكامه المنزلة بالآيات القرآنية، ويصفُ خلقه للكون بالآيات الكونية، ممَّا قسم علماء المسلمين إلى قسمين: قسم اختصَّ في البحث في آيات القرآن، وقسم اختصَّ في البحث في آيات الكون. فصلُ العلوم إلى علوم دين ودنيا أشبهُ بالقول بأنَّ هناك ربًّا للمسلمين هو الله وأربابًا لغير المسلمين، وهذا شركٌ صريح؛ لأنَّ الله ربُّ العالمين، وهو ربُّ مَن آمن به وربُّ من كفر به ، ولكننا نقول: إنَّ الله علَّم الإنسان علومًا من **عالم الغيب** لا يمكن معرفتُها إلا بوحي من الله - جل وعلا- ؛ لأنَّها لا يمكن أن تخضع لبحوث الإنسان، إمَّا لأنَّها تقعُ خارجَ متناول يده في هذه الدنيا، أو لأنَّها وقعت في الماضي واندثرت آثارها، أو لأنَّها من أحداث المستقبل والآخرة. وهو أيضًا علَّمَ الإنسانَ علومًا من **عالم الشهادة**، وهذه تمت بوحي للأنبياء والمرسلين، أو بإلهامٍ للعلماءِ والصالحين، أو توفيقٍ لكلِّ بشرٍ مجتهدٍ يبحث في آيات الله الكونية ونظام الخلق، ويستوي في ذلك المسلمُ والكافرُ. وقد بعث اللهُ لابن آدم الظالمِ غرابًا ليعلمَه كيف يواري سوءة أخيه. وقد آتى آلَ فرعون، على كفرهم، مُلكًا عظيمًا، كلُّه علوم ما زالت تحير الناس إلى اليوم. وما يأتي به النبيُّ من علمٍ سابقٍ لأوانه أو عملٍ خارقٍ يُسمَّى معجزةً، وما يأتي به الصالحون يُسمَّى كرامة، وما يهَبُه اللهُ لغير المسلم يُسمَّى آيـة، والله يُري آياتِه لمن يشاء لعلهم يهتدون، قال الله - جلَّ وعلا- :

﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾"53 فصلت".

والقول بأنَّ الاكتشافاتِ العلميةَ التي يصل إليها الكافرُ قبل المسلم لا تدخل في تفسير آيات الله، فيه جهلٌ كبيرٌ بخلق الله الذي خلقَ السماواتِ والأرضَ وخلَق كلَّ الناس. ولعلَّ من التناقضات في هذا القول أنَّ بعض المسلمين الذين يتحرجون من النظر إلى كثير من الاكتشافات العلمية الحديثة، ويرفضون الاستدلال بها في فهم الغامض من آيات القرآن، لا لشيء إلا لأنَّ مكتشفها غيرُ مسلم - نفس هؤلاء العلماء أو العامة يذهبون طواعية لإجراء عملية جراحية معقدة جدًّا، كنقل كُلى أو كبد أو قلب على يد طبيب بارعٍ في علمه، ولكنَّه غير مسلم، أو يركبون طائراتٍ ويسلمون أمرهم لبراعة مهندسين صمَّموا هذه الطائراتِ، ناسين أو متناسين أنَّ صانعي الطائرة لا يؤمنون بالله، وفي هذا تدخل كلُّ تفاصيل المدنية الحديثة و التكنولوجيا المستوردة التي أصبحت من ضرورات حياتنا اليومية، وأغلبها صنع بأيدٍ غيرِ مسلمة. فإذا كنَّا نأتمن هؤلاءِ الأطباءَ والمهندسين والعلماءَ غيرَ المسلمين فيما توصلوا إليه من اكتشافاتٍ في أسرار الخلق والكون، لا لشيء إلا لأنَّه ثبت لدينا بالدليل القاطع أنَّ ما صنعوه يجري على سَنَنِ الخالق وإنْ لم يؤمنوا به- فكيف بنا نرفضُ حقائقَ علمية تشرحُ أسرارًا في القرآن فقط لأنَّ من اكتشفها غيرُ مسلم؟ إنَّ دورنا - مسلمين - هو أن نقول: "صدق الله العظيم" كلما اكتشف الإنسان، أيُّ إنسان، آيةً من آيات الله الكونية، تشرحُ آيةً غامضةً في كتاب الله؛ لأنَّ كلَّ الناس من خلق الله، والله يؤتي علمَه من يشاء، ولا يشترط في ذلك الإيمان، وإنَّما العلم نفسه هو وسيلة للإيمان بالله. فكم من عالمٍ نزيهٍ اكتشف آية من آيات الله في الكون، ثمَّ عَلِم أنَّ القرآن سبقه بذكرها، فكان ذلك الاكتشافُ مفتاحَه للإيمان بالله، وكم من مسلمٍ"يقدِّس" القرآن على أنَّه كتابٌ منزلٌ ويحمله كما يحمل الحمارُ أسفارًا.

إنَّ بحثنا في قضية الخلق والتطور يقوم على دراسة عميقة لمعاني ألفاظ القرآن وقواعد اللغة العربية، مع الاستفادة من اكتشافات العلوم التطبيقية الحديثة؛ لتصحيح تفسير المفسرين الذي توارثه المسلمون على مدى قرون من غير سؤال، فليس كلُّ ما في كتب المفسرين حقًّا لا يقبل الخلاف، علمًا بأنَّ كلَّ المفسرين القدامى الذين نرجع إلى جهودهم الجبارة لم يكن إدراكُهم للكثير من حقائق الكون إلَّا محدودًا جدا، لا يتجاوز معرفةَ كلِّ الناس في زمانهم بأسرار الكون. وعليه، فإنَّ تفسيرَهم لكلِّ الآيات التي تصف حقائق كونية، ما كان له أن يعكس إلا الفهمَ القاصرَ لتلك الحقائق لأيِّ إنسان في زمانهم، من غير أن ينقص ذلك من أقدارهم شيئًا، ولكنَّه يضع على عواتقنا الكثير من المسؤوليات؛ لكي نعيد فهمَ كلِّ الآيات التي تصف مثل هذه الحقائق الكونية التي نفهم عنها اليومَ أكثرَ ممَّا أتيح لهم . فالقرآنُ لا يخضع لافتراضات العلماء الاجتهادية، ولكنَّه نبراسٌ يوجِّه بحوثَ العلماء إذا خفي عليهم شيءٌ أو اختلطت عليهم حقائق، وهو أيضًا يوجه علماءَ المسلمين للبحث في قضايا جديدة تقود لمزيد من الإيمان، طَرَحَها اللهُ علينا في كتابه بصورة مختصرة جدًّا، وكما قال العالم المصري زغلول النجار:(...فإنَّ الأمور الكونية المقسوم بها في القرآن، تشهد للخالق - سبحانه و تعالى- بطلاقة القدرة وكمال الصنعة والحكمة وشمول العلم، ومن هنا فلا بُدَّ لنا من إعادة النظر في مدلولاتها كلما اتسعت دائرةُ المعرفة الإنسانية بالكون ومكوناته، وبالسنن الإلهية الحاكمة له؛ حتى يتحققَ وصفُ المصطفى - صلى الله عليه وسلم - للقرآن الكريم بأنَّه :"لا تنتهي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد"، وحتى يتحققَ لنا جانبٌ من أبرز جوانب الإعجاز في كتاب الله وهو ورودُ الآية أو الآيات في كلمات محدودة، يرى فيها أهلُ

كلِّ عصر معنًى معينًا، وتظل هذه المعاني تتسعُ باتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد، ولا يوجد مثيل لهذا التناسق بين المعرفة التي يكتشفها الإنسان ومكتوب آخر إلا كتاب الله).

إنَّ آياتِ "الإعجاز العلمي في القرآن" ملأت فراغًا في فهم الناس لأسرار الكون؛ لذلك وجدت استحسانًا وقبولًا عند المسلمين، ومثال ذلك آية قسم الله بالبحر المسجور، والتي يُفهم منها الآنَ أنَّها تصف البراكين الملتهبة في قيعان البحار والمحيطات. ولكنَّ الاكتشافات والنظريات التي ارتبطت بالخلق وبالذات "خلق الإنسان و تطوره" تتعرضُ لهجومٍ شديدٍ، لا لشيء إلَّا لأنَّ هذه الفكرةَ محسومةٌ في أذهان الناس بفهم خاطئ، لكنَّه لا يقبل النقاش، حتى وإنْ كان ذلك الفهم ليس إلا تقوُّلا على الله ورسوله وتحميلًا للقرآن ما لا يحتمل من معانٍ. سببٌ مهمٌ آخرُ في ذلك: هو أنَّ الآيات التي وصفت تفاصيلَ خلق الكون لم يكن لها مقابل في الإسرائيليات؛ لذلك كان القرآن متميزًا فيها، وكان المفسرون من السلف الصالح عاجزين عن إبداء رأي محددٍ في فهمها، فلما جاءت العلومُ الحديثةُ قبَِل الناسُ تلك الاكتشافاتِ تفسيرًا لِمَا كان غامضًا في القرآن. لكنَّ قصة خلق "آدم وحواء" والأكل من شجرةِ الخلد والهبوط من الجنة، تُشابه القصة ذاتَها في التوراة مع اختلافٍ كبير في التفاصيل، إلَّا أنَّ الإسرائيليات التي تُعبِّر عن فهم اليهود لها قد انسابت من غير حدود إلى تفاسير القرآن، لتُكَوِّنَ في أذهان المسلمين على مرِّ العصور قصةً شبهَ إسرائيلية عن خلق آدم وزوجه تُنسب زورًا وبهتانًا للقرآن والإسلام، وأصبح من الصعوبة زحزحتها رغم أنَّها لا أصل لها، لا من القرآن ولا من السنة. وليس أبلغ في ذلك مثلًا من أنَّ عامة المسلمين لا يتحرجون من ترديد أنَّ "حواء" هي التي أخرجتنا من الجنة، وهم لا ينتبهون إلى أنَّ القرآن ما ذكر "حواء" نهائيًّا، وكان الخطابُ كلُّه موجهًا لآدم، من السجود إلى الخروج من الجنة.

هذا الكتاب كُتِبَ معظمُه بعد تبادل الأفكار عبر "التليفون" و"الإنترنت" بين الكاتبَين، وكان اليوم المشهود يوم تبادلنا الأفكارَ و الفِكَرَ في مكالمةٍ هاتفية طويلة، في محاولتنا لأنْ نفهم لماذا صبَّ إبليسُ جامَ غضبه على آذان الأنعام في القرآن؛ فقررنا أن نفحص آذانَ الأنعام بصورة علمية أُذُنـًا تلوَ الأخرى، وبدأنا ننظر في آذان المواعز فلم نجد شيئًا مثيرًا، ثمَّ نظرنا في آذان الخِراف فلم يكن هناك ما يثيرُ الدهشة أيضًا، ثمَّ نظرنا في آذان البقر فبدأت الصورةُ تتضح لنا، ولمَّا نظرنا في آذان الإبل ذهلنا... ثمَّ صمتنا قليلا... ثمَّ ضحك علاءُ الدين - أولًا- ضحكةً رددتْ صداها أمواجُ النيلَين عند الملتقى في الخرطوم، وسألني: هل رأيتَ ما رأيت؟ فضحكت بذهولٍ ولسانُ حالنا يردد:

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾" 16 النمل".

إذ إنَّه ما كان لنا أن نصل إلى ما وصلنا إليه لو لم يُلهمنا الله - سبحانه و تعالى- أن نميز بين "لغة الغراب" و"لغة الهدهد" في القرآن، وسجدنا لله شكرًا، وقررنا أن يمجد اسم كتابنا هذا الكشف؛ ليكونَ ذلك تعضيدًا للجهود التي يبذلها علماءُ المسلمين اليومَ في سبيل استعادة دورهم الرائد في قيادة البشرية علميًّا وفكريًّا، بعد أن أصبحوا منقادين ينتظرون غيرهم ليكتشفَ شيئًا جديدًا، أو يقترحَ نظرية جديدة في خلق الله، ولا يكون لنا دورٌ إلَّا أن نتبعهم بأن نُثبت أن ما اكتشفوه موجودٌ في كتابنا.

لقد انشغل بنو آدم بركوب الأنعام ولحومها وشحومها وألبانها وجلودها وأصوافها و أوبارها، فدُفن السرُّ الذي أودعه اللهُ في آذانها تحت الأكـارع طوال الـقرون من بعد آدم، وما كنَّا ذَيـلًا لأحدٍ في كشفه، ولكنَّها نعمةٌ من الله وفضلٌ منه وتوفيق. إنَّ كتاب الله وحدَه هو الذي يشهد على نظـرية آذان الأنـعام اليوم.

إنَّ " **نظرية آذان الأنعام في الخلق والتطور**" تطرحُ فكرةً قرآنيةً علميةً متناسقةً لخلق السماوات والأرض وسائر الأحياء، فقد خلق الله - جل وعلا- الماءَ أولا، ثمَّ فرض سلطانه عليه، فخلق منه السماواتِ والأرض، وجعل فيه سرَّ الأرواح، وخلق منه كلَّ الأحياء، من ملائكة، وجن، ونبات، وحيوان. وقد كان الكونُ يوم خُلِق كتلة واحدة فُتقت فيها السماواتُ عن الأرض، ثمَّ بدأ رفع السماوات عند مركز الكون في مكة، بقوى طردٍ و شدٍّ مغناطيسية مُكوِّنة عَمَدًا لا نراها. وقد كانت السماءُ عند بَدء الخلق دخانًا، يحكمه ناموسُ الكون فقط، فاستوى الله إليها، ثمَّ تطور الناموس إلى منظومتي: حكم الوجود "الكرسي"، و"العرش"؛ فاتسع كرسيه - أولا- بنظام بديع ليسَعَ من كلِّ الوجود ما وسع، و ما زال يتسع. ثمَّ اكتمل خلقُ السماوات السبع في ستِ مراحلَ، فتكونت منظومة العرش الذي دخلت تحت سلطته طواعية إدارةُ السماوات والأرض، ثمَّ استوى عليه الرحمنُ، رحمةً بكلِّ الموجودات، ورحمةً بعقل خليفته المرتقب في الأرض لينطلقَ قانونُ التطور الأزلي حينها ، ثمَّ بدأ خلق الأحياء من نبات وحيوان من أصل واحد عند مركز الكون في مكة، و تطور إلى أشكال مختلفة عبر ملايين السنين: فمنهم من زحف على بطنه، ومنهم من مشى على أربع، ومنهم من مشى على اثنتين؛ ثمَّ تميزت المخلوقات المختلفة في سُلَّم التطور وفقًا لقانون "مندل" المعروف في علم الوراثة، فما استقرت أمشاجُه منها تناسبت صفاته واتصلت في سُلَّم التطور، وما استُودِعت أمشاجُه منها انصهرَ فطَفر إلى أشكالٍ أخرى، وتكونت بذلك النباتات والحيوانات والإنسان.

وكانت بشائرُ خلق البشر مخلوقات بدائية، نبتتْ من الأرض نباتًا في شكل خلية واحدة انقسمت على نفسها فخلق منها زوجها أولا، ثمَّ تطورت مع مرور الزمن ليجعلَ منها زوجها ثانيًا، فظهر الذكر والأنثى، وأتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، و تطور عبر ملايين السنين، إلى أن أخذ شكلًا أقربَ من شكل الإنسان الذي مشى على أربع مكبًا على وجهه كالقِرَدة، وظلَّ فاسدًا مفسدًا يسفك الدماء، قبل أن يرفعه الله ويعدله في مشيته في صورةٍ أقربَ إلى شكل الإنسان الحالي، ثمَّ اصطفى اللهُ من بينهم فصيلًا " آدمـًا" ملائمًا للتغيير من اثنين وثلاثين فردًا، ذُكرانًا وإناثًا، سكنوا حول مكة التي كانت أولَ بقعة في الأرض خرجت من تحت الماء، ثمَّ جمعهم من مِساحة تحدِّدُها مواقيتُ الإحرام المكانية اليومَ في وادي "منى" ، فنفخ اللهُ في ذلك الفصيل الملائم للتغيير من روحه وطَفَر بهم إلى إنسان عاقل، ثمَّ سكنت تلك المجموعة جنة المأوى في عرفات، وما أكل أحدٌ من أية شجرةٍ محرمةٍ - كما نفهم- ولكنَّهم عصَوا ربَّهم، ثمَّ هبطوا منها ليأووا إلى أول بيتٍ وضع لهم ببكة، ثمَّ اصطفى الله من بعدهم نبيه الأول "آدم" ليكونَ أولَ رسولٍ للإنسان. ولأنَّ قصة الخلق و "التطور" كانت وما زالت أمرًا يصعب على الناس استيعابُه، فقد أنزل الله - تعالى - الأنعام في "منى" يومَ طَفَر بالإنسان إلى إنسان عاقل، وجعل في آذانها مِفتاحًا علميًّا لفهم تلك المعجزة، ولمَّا كان إبليسُ شاهدًا على ذلك فقد مضى بحقده إلى بيت القصيد وتوعد:

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ...... ﴿١١٩﴾ ﴾ "119 النساء"

حتى يطمث هذا السر، وقد نجح لقرون طويلة، ولكنَّ اللهَ غالبٌ على أمره، إذ ألهمنا أنْ نكشف بلغة الغراب ذلك السرَّ الذي نذيعه بلغة الهدهد على الناس جميعًا، بحمد الله وتوفيقه.

إنَّ العالم اليومَ يقفُ على شفا جرفٍ هارٍ يكاد ينهارُ به في نار جهنم، ولا راد لقضاء الله إذا أتى إلا الله . فقد انهارت عقيدة الشيوعية والإلحاد، وأفلس الغرب المسيحي الرأسمالي فكريًّا، وتصدع خُلُقيًّا واجتماعيًّا حتى أصبح لسانُ حاله ينادي: وا محمداه! بعد أن اختار معظمُ سكان العالم محمدًا أعظمَ شخصية خالدة في التاريخ الإنساني بمناسبة الألفية الثالثة، ولكن لا مجيب لندائهم إلا مِن صدى صوت الصدِّيق في الصحراء يجيبهم: "من كان يعبد محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبدُ اللهَ فإنَّ الله حيٌّ لا يموت".

وفى هذا الخِضَمِّ المرعب من تكاثر أمارات الانهيار في كلِّ مكان، يتباكى المسلمون على ظلم الغرب لنا؛ لأنَّه بَخِلَ علينا ببعض التكنولوجيا، ولأنَّه نهب ثرواتنا وزاد نكباتنا، ناسين أو متناسين أنَّ ثرواتِنا منحناها لهم بكلِّ ذُلٍ وهوان، وعلومهم درسناها منهم لكنَّنا أصبحنا نستهلكُ أكثرَ ممَّا ننتجُ ولا نستفيدُ ممَّا نتعلم، وأنَّ أغلبَ نكباتنا ليست إلا من صنع أيدينا، حكامًا أو محكومين.

نعيبُ زمانَنا والعيبُ فينا وما لزماننا عيبٌ سوانا

فلا بُدَّ أن نفيق من هذا الوهم، ونتذكر أنَّ الغرب لو آتانا كلَّ ما يملك من علوم وصناعة وسلاح، لَمَا أفادتنا إلا أيامًا معدوداتٍ في هذه الدنيا الفانية، ولكنَّ بأيدينا أن نمنحهم علومًا تنقذهم وتنقذنا ممَّا نحن وهم فيه في هذه الدنيا، وتمنحنا جميعًا خلودًا خيرًا وأبقى في جنات تجري من تحتها الأنهار. إنَّ خيانة المسلمين للإنسانية اليومَ لهي أعظمُ بكثير من خيانة الإنسانية للمسلمين مهما تكالبت علينا المحن، إذ إنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم- إنَّما بُعث رحمةً للإنسانية جمعاء، وقد ترك بين أيدينا ما إنْ تمسكنا به فلن نضيع من بعده أبدا، فتجاهلناه فضعنا وأضعنا غيرَنا.

إنَّ في كتاب الله علومًا يجبُ أن نطرحها على الناس ،كلِّ الناس؛ لأنَّ الله وجَّهها للناس وائتمننا على ذلك، وهذه العلومُ لا تحتاج لتكنولوجيا ولا أموال، وإنَّما تدبر في كتاب الله، وشفقة على الإنسانية الحائرة المعذبة واستشعار بمسؤولية الدعوة، وجرأة في البحث والتفكير وطرح الآراء وتبادل الأفكار، بدلًا من الاستسلام للهزيمة وانتظار الرحمة من غير الله. ونسأل الله - سبحانه و تعالى - أن يجعل "آذان الأنعام" من تلك العلوم التي تعيدُ الناس إلى أول بيت وضع للناس.

مواضيعُ الكتاب متداخلةٌ جدًّا ويصعب تقسيمها، لكنَّ هذا - عمومًا - وصفٌ للأبواب المختلفة التي يستحسنُ قراءتُها حَسْبَ الترتيب؛ لأنها تحكي قصة واحدة يمهد فيها كلُّ باب للباب الذي يليه:

1- الأبواب الثلاثة الأولى: تناقش مفهوم التطور، وتتابع خلق البشر وتطوره إلى ظهور الإنسان العاقل .

2- الأبواب من الرابع إلى السادس :تتابع الخُطُوات الأولى للإنسان العاقل، من وادي مِنى إلى جنة المأوى في عرفات، ثمَّ هبوطه إلى المزدلفة في طريقه إلى البيت العتيق .

3- الباب السابع: يقودنا في رحلةٍ استكشافيةٍ داخلَ سفينة العجائب للتعرف على كلِّ من كان أهلًا للنجاة مع نوح وإنْ لم يكن من أهله، ومن لم يكن أهلًا لذلك وإنْ كان أقربَ أهله إليه.

4- الأبواب من الثامن إلى العاشر: تناقش مِلَّة إبراهيم الحنيفية وعودة إبراهيم إلى أرض الخلق والتطور؛ لربط الإنسان الحديث بأرض الآباء، وبَدء عبادة الحَجِّ بوصفها حُجَّةً على الإنسانية جمعاء.

5- الباب الحادي عشر: هو أطول الأبواب، و يناقشُ أصولَ الخلق من ماء، وعالم الأرواح، وقضايا دقيقة في فلسفة علم الوجود، ويفسر مفهومَ "العرش" و " الكُرسي"، وجوانبَ حساسة في ناموس الكون، وعقائدَ البشر وتناسخ الأرواح وعبادة البقر، و يطرحُ الأساسَ العلميَّ القرآنيَّ لنظرية آذان الأنعام في الخلق والتطور.

6- الباب الثاني عشر والأخير: يناقش أرضَ التطور، وموقعَ مكة وسط الأرض، ومركز توازن السماوات السبع فوق البيت العتيق، ومفهوم الاستواء على العرش، ويكشف أسرارًا مثيرةً عن سدرة المنتهى.

وختامًا، فإنَّنا نرجو من كلِّ قارئ أن يعيد قراءة كتابنا هذا مرة أخرى بعد أن تتكامل كلُّ الأبواب، قبل أن يسارع فيصدر أحكامًا علينا، و ما توفيقنا إلَّا بالله عليه توكلنا وإليه أنبنا وإليه المصير.

د/ عماد محمد بابكر حسن

لندن في 25 اكتوبـــــر 2010

البـــــاب الأول

قِصَّــة التَـطَـوُّر

كلُّ الكشوفِ الأثرية عن الأمم الغابرة تدل على أنَّ الإنسان ظلَّ - على مر العصور - يتفكر في خلق الكون وأصل الإنسان. فالرسومُ الموجودةُ في معظم الآثار القديمة تشير إلى عَلاقةِ الإنسان بالكواكب، ومحاولته ربطَ وجوده على الأرض بوجودها في السماء كما هو الحال في الديانات المصرية القديمة وغيرها. في العصر الحديث، ظل هذان السران محطَّ بحثٍ لعلماء الفلك والطبيعة كما كان الحال بالنسبة لقدماء المصريين وغيرهم.

أدت الدياناتُ السماوية دورًا في توسيع أفق الإنسان لفهم بعض الحقائق عن أصل الكون و أصل البشرية، إلا أنَّ فضول الإنسان ظل يدفعه للبحث في تفاصيل الخلق، أبعد مَّما صرَّحت به الكتب السماوية، التي أتت بإشارات مبسطة عن هذه الأسرار من غير تفاصيل.

فالتوراةُ والقرآنُ - مثلا- أشارا إلى مراحل تطور خلق السماوات والأرض كما هو واضح في قول الله - عز وجل : -

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ " 30 الأنبياء".

هذه الآيةُ - مثلا- وغيرُها لم توضح بالتفصيل كيفية بداية خلق الكون، ولكنَّها وضحت المرحلة الأخيرة التي وُجِدت فيها الأرضُ ملتصقةً بأجرام السماء قبل أن يفتق الرتقُ وتنتشرَ الكواكبُ والنجومُ في الفضاء. على أنَّ الله - سبحانه و تعالى - أشار في آية أخرى إلى أنَّ عملية خلق الكون تمت في ستِ مراحلَ مختلفةٍ:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ "38ق".

إذنْ، فإنَّ الله - تعالى - قد أخبرنا ببعض أسرار خلق الكون، ولكنَّه ترك لنا الباب مفتوحًا للتدبُّر والبحث في التفاصيل، بل وجعل ذلك التفكُّرَ عبادةً ساميةً كما في قوله - سبحانه و تعالى - :

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ " 191 آل عمران".

ولمَّا كان أمرُ الخلق أمرًا معقدًا جدا، ويصعب على العقل البشريِّ البسيطِ استيعابُ تفاصيله -علمًا بأنَّنا لا نستطيعُ أن نستوعب قدرات الله- فقد انزلق بنو إسرائيلَ في تأويل آياتٍ مشابهةٍ وردت في التوراة، تشيرُ إلى مراحل تطور خلق الكون في ستة أيام، ففسروا تلك المراحلَ الستَ تفسيرًا حرفيًّا بأنَّها أيامٌ كأيام السبت والأحد، فقادهم ذلك التأويل الخاطئ للخلاصة بأنَّ الله لا بُدَّ وقد أُجهد من هذا العمل الشاق؛ فاستراح في اليوم السابع، ليكتملَ أسبوعُ العمل إلى ستة أيام ويوم سابع للراحة. فقد نَسب اليهودُ في التوراة الحالية إلى الله ما يأتي:

(هو بيني وبني إسرائيل علامة عهد إلى الأبد؛ لأنَّه في ستة أيام صنع الربُّ السماء والأرض، وفي اليوم السابع فرغ من العمل واستراح) "سفر الخروج 18:31".

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ هذه الأيام الستة إنَّما هي مراحلُ لتطور الخلق، و ربَّما كانت كلُّ مرحلة أو يوم يساوي ملايين السنين ممَّا نعد. ولكنْ ، لأنَّ اليهود حاولوا تجسيم قدرة الله وطريقة الخلق في صورةٍ تشابهُ قدراتِ البشر وطريقتهم في الصناعة، وصلوا إلى طريق مسدود، وهو أنَّ الصانعَ لا بُدَّ له من استراحة من هذا العمل المضني؛ فأضافوا اليوم السابع ليكون يومًا لراحة الربِّ - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا- .

جاء العلم الحديث ليؤكِّدَ هذه الحقيقة القرآنية، وهي أنَّ السماواتِ والأرضَ كانتا رتقا ففُتقتا في مرحلةٍ لاحقة من مراحل التطور، لتتكون الأرضُ وبقيةُ الكواكب والأجرام السماوية، وهذا ما يُعرف بنظرية الانفجار العظيم عند علماء الفلك. هذه النظريةُ تمثل - في يومنا هذا - العمودَ الفقري لعقائد العلمانيين في الغرب، إذ إنَّهم يؤمنون بأنَّ الكون وجِدَ على شكل كتلة واحدة، انفجرتْ وخرجتْ منها بقيةُ مكونات الكون من غير أن يجهدوا أنفسَهم بالتساؤل عمَّن خلق تلك الكتلة قبل أن تنفجر.

و رغم أنَّ النظرية نفسَها لا تشيرُ إلى مصدر الخلق الأول، ولم تستطع أن تفسِّرَ مِن أين أتت الكتلة الأولى التي انفجرت، إلا أنَّ الكثيرين من العلماء العلمانيين الذين ضاقت صدورُهم بضيق أفق حماةِ الكنيسة ودعاةِ الكهنوت في الغرب، انزلقوا المنزلقَ ذاته الذي انزلق فيه اليهود، وبدل أن يتفكروا فيمن خلق هذه الكتلة الأولى ومن الذي فجرها، خلصوا من غير دليلٍ نقليٍّ أو منطقٍ علميٍّ إلى أنَّ الكون قد وُجد وَفقًا لتطور تلقائي، و عليه فلا يوجد إلهٌ وخالقٌ للكون. و روَّجُوا لمعتقدهم الجديد هذا، الذي وجد قَبولًا لدى الكثيرين من العامة الذين عانوا الأمرَّين من ضيق أفق رجالات الدين، لدرجة أنَّ الإلحادَ أصبح عقيدةً يسندُها العلم في ظنِّ الكثيرين الذين لا يفهمون الدين ولا العلم .

ورغم أنَّ نظرية الانفجار العظيم جاءت إلى حدٍ كبيرٍ مصدقةً لوصف الله - سبحانه و تعالى - لفتق الرتق بين السماوات والأرض، وبالتالي مؤكدة أنَّ القرآن ما كان أن يُفترى من دون الله، إلا أنَّها لا تفسِّرُ كيفية بَدء خلق الحياة من حَيَوان ونبات على ظهر الأرض. و لأجلِ ذلك فإنَّ رفْضَ العلمانيين لوجود خالقٍ مطلقٍ للكون والحياة بناءً على نظرية الانفجار العظيم، يعكسُ قصورًا كبيرًا في استيعاب هؤلاء الملحدين لعظمة الخلق واتساع أوجهه و اختلافها، ويعكس إنكارَهم أنَّ خلق الإنسان نفسه يشكِّل معضلة قائمة بذاتها تختلف عن خلق الكون و تطوره ... ونسبة لقصور الفكرة فإنَّ الكثير من العلماء الذين لا تطمئن قلوبُهم إلا إلى المنطق والحقائق الملموسة ، ما لبثوا أن أبحروا في البحث عن أصل الحياة بصورة منفصلة عن أصل الكون رغم إيمانهم بنظرية الانفجار العظيم.

كما هو الحال في خلق الكون، فإنَّ وجود الإنسان في الأرض قد شغل علماء الديانات وعلماء الطبيعة كثيرًا على مر العصور والدهور، وفي كلِّ الحضارات القديمة والحديثة. ورغم كثرة ما افتُرض في تفسير وجود الإنسان إلا أنَّه لا

توجد حتى الآن نظريةٌ متكاملةٌ تفسِّرُ هذه العملية؛ لذا نجدُ أنَّ الناس قد انقسموا ما بين رأي أهل الديانات (الدين الإسلامي واليهودي-الإسرائيليات)، و رأي علماء الطبيعة... كلٌّ يختار ما يطمئن إليه قلبُه من تفسيرٍ لظاهرة وجود الحياة على الأرض.

و بناءً على ماسبق، فإنَّنا سنقوم بعرض مبسط للرأيين في هذا البحث. ونودُّ أن نوضح هنا قبل أن ندخل في التفاصيل أنَّ المسيحية دينٌ سماويٌّ واسعُ الانتشار في العالم، إلا أنَّها في هذه القضايا تستقي تفسيراتِها من الديانة اليهودية، إذ إنَّها كانت امتدادًا طبيعيًّا لها، والإنجيل لم يُبرز تفسيرًا منفردًا لأصل الكون وخلق الإنسان، وإنَّما استمد ذلك ممَّا وصفته التوراة من قبل . و لذلك فسنناقش رأيَ الإسلام واليهودية والإسرائيليات التي تمثل تأويلات اليهود لدينهم، الشيء الذي استقى منه بعضُ المسلمين تفسيرَهم لبعض آيات القرآن التي سكت النبيُّ الخاتمُ - صلى الله عليه وسلم- عن الخوض في تفاصيلها؛ فأصبحت المصادرُ الإسرائيلية تؤدي دورًا في فهم المسلمين لهذه القضايا الغيبية من غير أن يشعروا، ومن غير دليل قاطع على صحة نسبتها إلى الله -جل وعلا- أو أيٍّ من أنبيائه.

تطورُ الإنسان عند علماء الطبيعة:

ممَّا لا شك فيه أنَّ علماء الطبيعة والعلوم التطبيقية ظلوا يعانون- قديمًا وحديثًا وفي كلِّ المجتمعات والديانات- من النظرة الضيقة التي ينتهجها أهلُ الديانات، وإصرارهم على أنَّ أية فكرة أو اكتشاف يعارض أحد تفاسير الدين يُعدُ كفرًا، في الوقت الذي لا يتركون فيه مجالًا لإعادة فهم الدين إذا ثبت بما لا يدعُ مجالًا للشك أنَّ الفهم الديني للنصوص فيه قصور.

حينما أعلن العالمُ الفلكيُّ الإيطاليُّ جاليلو(1564- 1642) اكتشافَه الباهرَ آنذاك، وهو أنَّ الشمس هي مركزُ المجموعة الشمسية، وليس الأرض كما كان يظنُّ رجال الدين المسيحي، لم تتردد الكنيسة في الحكم عليه بالكفر والنفي، إذ إنَّ فهمَهم لبعض نصوص التوراة - آنذاك - كان يشيرُ إلى أنَّ الأرضَ هي مركزُ الكون كلِّه، و لذا فمَن يفتري على الربِّ غير الحق فقد كفر. وللأمانة العلمية نقول: إنَّ الأرضَ هي مركزُ الكون، ولكنها ليست مركزَ المدار الحلزوني ولا المجموعة الشمسية التي تتوسطها الشمس وتدور حولها الأرض، كما سنناقش ذلك في باب "سدرة المنتهى".

هذه الحادثة أصبحت الآن نسيًا منسيا، بعد أن أصبح كلُّ رجال الدين ينعمون بالطيران حول الكرة الأرضية بمختلف الطائرات ويتدبَّرون في عظمة الله، بعد أن أتاح لهم العلمُ الحديثُ رؤية ما لم يكن ليُرى من عظمة الكون في زمان مضى .

على أنَّ نفس علماء الدين اليومَ الذين يستنكرون على أسلافهم خطأهم في تحميل كلام الله ما لا يحتمل، وظلمهم للعالم (جاليلو) على اتهامهم له بالكفر، في الوقت الذي لم يفعل فيه جرمًا غير تفكُّره في شكل الأرض الكُرَويَّة، و وضعها في مكانها الصحيح بين أجرام السماء كما أراد لها اللهُ أن تكون- يقفلون البابَ أمام علماء لا يختلفون عن جاليلو في نيتهم، وربَّما لا يختلفون عنه في اكتشافاتهم لمزيد من قدرات الله - عز و جل - وأسرار كونه. المشكلة هي أنَّ رجال الدين دائمًا يسارعون إلى التكفير، ثمَّ يضطرون إلى الاعتذار مؤخرًا بعد أن يثبت خطأ فهمهم للدين وجهلهم التام بالدنيا.

البحث في أسرار الفضاء، وإثبات كُروية الأرض، ووضعها الصحيح بين أجرام السماء لم يكن أمرًا صعبًا ، إذ إنَّ هذا المجالَ يدخل في إطار البحث التجريبي المباشر، ولكنَّ البحثَ في أصل خلق الإنسان والحياة على الأرض عمومًا أكثرُ صعوبة؛ لأنَّه يعتمدُ على تحليلٍ منطقيٍّ لأحداثٍ وقعت في الماضي، ولا يمكن مشاهدتُها وإجراء التجارِب عليها في المعمل إلا في حدود ضيقة، ممَّا أطال أمد الصراع بين الكهنوت و علماء الطبيعة في قضية أصل الحياة، وإنْ كان الصراعان يتشابهان كيفًا ويختلفان كمًا.

المدرسة الداروينية:

يعتمدُ علماءُ الطبيعة على المعيار الاستدلالي في قضية وجود الإنسان؛ لأنَّها حدثت في زمان غابر وغير قابلة للبحث المختبري، وبذا فإنَّ النتائج التي يعتمدون عليها استدلالية واستنباطية، ولا يمكن إثباتُها أو نفيُها في المعمل بشكل قاطع. ومن أشهر النظريات العلمية في هذا الموضوع، وأكثرها معارضة من أهل الديانات، هي نظريةُ الانتخاب الطبيعي لشارلس داروين، الذي لم يحكم عليه بالموت أو النفي؛ لأنَّه عاش في زمن انهزمت فيه الكنيسةُ وفقدت سلطانَها، إلا أنَّ النصارى و اليهود و المسلمين حكموا عليه بالكفر، وربَّما أهلُ دياناتٍ أخرى أيضًا. و رغم صلابة رفض رجال الدين لنظرية داروين، وإجماعهم على اختلاف مشاربهم على تكفيره، فإنَّ العلماءَ والمفكرين اليومَ يقولون: إنَّه لم تعد هناك شبهةٌ في أنَّ نظرية التطور هي الوسيلةُ المنطقيةُ الوحيدةُ التي يمكن بها فهمُ عملية ظهور الإنسان العاقل على الأرض و تفسيرُها.

الغريبُ في الأمر أنَّ داروين الذي عاش في بريطانيا بين سنتي(1809-1882)، والذي عُدَّ إمامَ الكفار و زعيمَ الإلحاد في نظر كلِّ أهل الديانات، الذين غالبًا ما لا يتفقون في تكفير شخص بعينه، لم يكن في نيته الخوضُ في قضايا عَقَدِيَّة، ولم يكن بحثه - أصلا- لإثبات أيِّ شيءٍ غير ملاحظات منطقية على وجود كائنات متشابهة، تتغيَّر تدريجيًّا عبر العصور، إلى أن أصبحت أشبه بالقِرَدة، ثمَّ فجأة وُجِدَ الإنسانُ العاقلُ على الأرض. الأعجبُ من ذلك أنَّ داروين لم يكن ملحدًا، ولم يدعُ إلى إنكار وجود الخالق على الإطلاق، بل على العكس كان شأنه شأنَ الكثيرين من العلماء الذين لم يُرِح بالهم أن يتعبدوا إلى إله الكنيسة الذي يجهل ويناقض الكثير من أسرار الكون التي أصبح لا خلافَ حولها في نظرهم، فكان رفضُه لعقيدة الكنيسة دليلَ فطرةٍ تقترب من معرفة الخالق الحق. المؤسف هو أنَّ دعاة الإلحاد في القرن التاسع عشر، والذين كانت فطرتهم أيضًا قد هدتهم إلى تحدي ما وصلت إليه المسيحية من تحريف وتناقض مع الواقع، قد قاموا بتأويل نظريته العلمية، وحمَّلوها ما لا تحتملُ من قيم إلحادية، واستغلوها كدليل علميٍّ زعموا أنَّه يثبت عدم وجود الخالق، مع أنَّ داروين قد أشار صراحة في كتابه المشهور إلى الخالق. وكما أنَّ دعاة الإلحاد الذين كوَّنوا المدرسة الداروينية من بعده، و ربطوا اسمه بإلحادهم من غير وجه حق قد ظلموا داروين، فقد سارع أهل الكهنوت من مسيحيين ويهود إلى وصفه بالإلحاد من غير أن يتحققوا ممَّا قال، ومن غير أن يكون لديهم دليلٌ قطعيٌّ على أن ما قاله يتعارض مع ماعُلِم من الدين بالضرورة. المؤسف جدًّا أنَّ علماء المسلمين لم يترددوا- على اختلافهم مع كهنوت اليهود والنصارى- في أنْ يسلكوا السلوك نفسه، ناسين أو متناسين أنَّ دينهم يهيمن على الدين كلِّه، وهو أولى بمناصرة العلماء والتثبت من صحة اكتشافاتهم قبل إصدار الأحكام الجائرة عليهم . فبينما لم يتورط المسلمون في وصف جاليلو بالإلحاد، انزلقوا في تكفير داروين، لا لشيء إلا لأنَّ الشيوعيين كانوا أولَ من روَّج لنظريته لتسويق إلحادهم من غير وجه حق.

الشيوعية والرأسمالية الغربية:

من المهم أنْ نسلط بعض الضوء على دور المعسكرين الشرقي والغربي في ترويجهم المغلوط للنظرية الداروينية وأفكار كارل ماركس، إذ إنَّ هذا التداخل قد أدى دورًا مهمًا في أنْ يتجاهلَ المسلمون مفهوم التطور. عندما قامت الحركة الشيوعية على يد لينين {1870-1924} ومن بعده جوزيف ستالين {1879-1953} في الاتحاد السوفيتي في بداية القرن الماضي، قام هذان الرجلان باستغلال سيِّئ لاسم داروين وماركس؛ لترويج إلحادهم المعلن، والذي فُرض بقوة الحديد والنار على كلِّ شعوب الاتحاد السوفيتي آنذاك. فقد نُسب إلى داروين إثباته العلمي أنَّه لا يوجد خالق وأنَّ الحياة بدأت وَفقًا لقانون التطور، الأمر الذي لم يدَّعِه داروين ولم يكن من ضمن أفكاره و فِكَرِه لا من قريب ولا من بعيد. و بالخبث ذاته نسبوا إلى كارل ماركس أنَّه دعا إلى منع دراسة الديانات، لأنَّها "أفيون الشعوب" وتحول دون تقدم الإنسانية.

الطريف في الأمر أنَّ كارل ماركس والذي ارتبط اسمه في أذهاننا بالإلحاد والشيوعية المندحرة، ينحدرُ من أسرة يهودية ألمانية اعتنقت المسيحية، وقد كان مفكرًا اقتصاديًّا طرح فلسفة للعدالة الاجتماعية اصطدمت بالنظرة الضيقة لإله الكنيسة، فلم يتردَّد ماركس في رفض ما قدمته الكنيسة باسم الله . ورغم أنَّ ماركس كان رافضًا لمفهوم الدين مطلقا، إلا أنَّنا نعتقدُ أنَّ كلَّ الذين يتجرَّأون على "الربِّ" في الغرب إنَّما يقصدون رفض المفهوم المغلوط للدين الذي قدمته لهم الكنيسة، وليس بالضرورة أنَّهم سيرفضون الإسلام إذا قُدِّم إليهم بصورة منطقية. أمَّا مقولته الشهيرة في أنَّ "الدين أفيون الشعوب" ، فقد اختلفت الروايات في ما قَصَدَه بها ، ومن ثَمَّ استغلها لينين وستالين استغلالا سيّئًا؛ لتسويغ قهرهما للمسلمين واليهود والنصارى في دول الاتحاد السوفيتي، وفرضِ إلحادهما قسرًا على أولئك.

كارل ماركس{1818-1882} الذي مات كما مات داروين زمنًا قبل ظهور الشيوعية، دخل في حوارات مع أهل الديانات بطبيعة الحال، وكان رأيه مناقضًا لِمَا كانت الكنيسة تطرحه حينذاك، وبالتالي أصبح رافضًا لإله الكنيسة الذي يعرفه. في مقولته المشهورة تلك، يقال إنَّه كان يشيرُ إلى أنَّ الفقراء الذين لا تتحقق آمالهم في الدنيا يجدون في الإيمان بالربِّ وانتظار الجنة "مُسكِّنًا" لآلامهم في الدنيا كما يسكِّنُ الأفيونُ آلام الجسد. بقي أنْ نشير إلى أنَّ كلمة "أفيون" التي لها وقعٌ مقزِّز على آذاننا الآن، كانت كلمة عادية في عهد ماركس و مجتمعه؛ لأنَّ الأفيون في زمان ماركس كان يباع في الصيدليات بلسمًا كما يباع "الأسبرين" في زماننا. إذنْ ، فماركس ربَّما لم يتهم الديانات بأنَّها تحطم حياة الشعوب كما تحطمها المخدِّرات حَسْبَ ما اختلفت الآراءُ في مقصده من تلك المقولة، وإنَّما أراد بكلمته تلك أن يشرح دور الدين في حياة الفقراء الذين يرجون عند الله ما لم يجدوه في الدنيا، فتسكن آلامهم ويزداد صبرهم، رغم اعتراضه المبدئي على هيمنة رجال الدين وأفكارهم على مسار الحياة بناءً على تجرِبته المريرة مع اليهودية والمسيحيَّة المنحرفتين.

فبعد أنْ أساء لينين وستالين لأقوال العالِمَين، واستغلا أفكارَهما لفرض إلحادهما من غير وجه حق بقوة الحديد والنار، جاء الدور الخبيث للمعسكر الغربي في ترويج سلعته على حساب الشيوعية التي روَّجت إلحادها على حساب ماركس وداروين زورًا وبهتانًا.

حينما بدأ المعسكر الغربي هيمنته على الشرق الأوسط وبالذات على بلاد المسلمين، كانت ورقتهم الرابحة هي التقارب بين المسيحية الغربية والإسلام. من هذا المدخل روَّجت الاستخباراتُ الأمريكيةُ أنَّ الشيوعية خطرٌ محدق بالمسلمين والمسيحيين؛ لأنَّها تقوم على نظريتي داروين وماركس الإلحاديتين، ولذا فمن الحكمة أن يتحالف المسلمون مع الغرب وأمريكا حماية لدينهم من انتشار الإلحاد الشيوعي. من هذا الباب وصل اسم داروين إلى بلاد المسلمين على أنَّه داعيةُ إلحادٍ أنكر وجود الخالق وأنَّ أصل الإنسان قرد، الشيء الذي لم يدعِه داروين، والتصق ذلك أيضًا باتهام ماركس بالدعوة لتحريم الديانات لأنَّها تحطم الشعوب كما يحطم الأفيون جسد الإنسان. وهكذا ابتلع المسلمون طُعم الاستخبارات الأمريكية؛ فنبذوا الشيوعية بصورةٍ عنيفةٍ، ونبذوا معها نظرية داروين العلمية التي تشرح كيف بدأ الله الخلق، و فِكَرَ ماركس التي تدعو للعدالة الاجتماعية في توزيع الثروة، وارتموا بكلِّ عمًى في أحضان **الأفيون** الأمريكي الحقيقي الذي سمَّمهم أيَّما تسميم، وما زالوا يستنشقونه بعد أن تمَّ إدمان كلِّ ألوان الأفيون الأمريكي حتى بعد زوال الاتحاد السوفيتي وانكشاف هذه الحقائق.

موت داروين على الفطرة السليمة:

ليس غريبًا - إذنْ- أنَّ السوادَ الأعظمَ من المسلمين، علماء وعامة، ممَّن يحلو لهم وصف دراوين بالإلحاد، لا يعرفون من هو داروين وماذا قال. فليس غريبًا أبدًا أن تجد من لا يستطيعُ التمييزَ بين داروين عالم الأحياء البريطاني المسيحي، ولينين وستالين وغيرهما من أقطاب العقيدة الإلحادية الشيوعية السوفيتية. ولعلَّ من العوامل الأساسية التي خلقت نفورًا عامًا لدى المسلمين ممَّا طرحه داروين، وبالتالي أدى إلى جهلٍ وسذاجة في التعامل مع نظريته، هو أنَّ فكرة أنَّ الإنسان أصله قرد فكرةٌ منفرةٌ لمن يظنُّ أنَّ الإنسان خُلق بقدرة الله إنسانًا عاقلًا من أول يوم في شخص آدم، وبذلك فإنَّ الفكرة ترفض جملةً وتفصيلًا من غير دراسة، ومن ثَمَّ يوصف صاحبُها بالإلحاد. على أنَّ المسلمين أنفسَهم لو تدبروا القرآن لوجدوا أنَّ أصل الإنسان في القرآن "طين"، وهذا أمرٌ لا يدعو للتقزز وإنَّما للتدبُّر، بيد أنَّ القرد بوصفه مخلوقًا له مستوى من الذكاء وكثير من القدرات أرقى بمراحلَ كثيرةٍ من مجرد طين. و أخيرًا و ليس آخرًا؛ فإنَّ داروين - أصلا- ما زعم أنَّ أصل الإنسان قرد، ولا حتى ادَّعى أنَّه وصل إلى اكتشاف أصل الإنسان، بالإضافة إلى أنَّ غير المسلم لا يكفر مرتين، وداروين -أصلا- لم يكن مسلمًا بالمعنى المفهوم لا قبل نظريته و لا بعدها، وإنَّما كان مسيحيًّا قبلها، و لا يشكُّ أحدٌ أنَّه مات موحدًا على الفطرة السليمة بعد أنْ رفض كلَّ تناقضات الكتاب المقدس علنًا، و وجَّه وجهه للذي فطر السماوات والأرض. هذا الرفض للكنيسة وعقيدة الثالوث هو الذي جعل الكنيسة تكفِّره، و كان الأجدر بالمسلمين أن ينظروا إلى ذلك بمعيار مختلف، آخذين في الحُسبان أنَّ القرآن ذكر في مواقعَ كثيرةٍ أنَّ الله يُري آياته للذين كفروا، كما في آية "إنَّ السموات والأرض كانتا رتقا" الشيء الذي لا يقللُ من قدر آيات الله الكونية وإنْ كان مكتشفها غير مسلم. ولعلَّ من الأمانة هنا أن نسوق بعض ما أدى إلى حكم الكنيسة على داروين بالكفر، أنَّ أحد المفكرين النصارى دعاه إلى حوار ديني سنة 1880 فردَّ عليه داروين بهذه الكلمات: (يا صديقي أنا ما عدت أؤمن أنَّ التوراة هو عينُ كلام الربِّ الذي خلق الكون، وما عدت أؤمن بأنَّ عيسى ابنُ الله لذلك لا أجدُ داعيًا للحوار). هذا القول يؤكِّدُ أنَّ داروين قد كفر في نظر الكنيسة، ولكنه - بمنظور إسلامي- قد رأى من آيات الله الكونية ما يجعله يرفض بالفطرة ما أضافه اليهودُ إلى كلام الله وما نسبوه إليه، وإنْ لم يتقدم إليه مسلم ليدله على القرآن ويفتح له ذراعيه؛ لأنَّ قوله هذا يجعله - بلا شك - قد تقدم نحو الله أذرعًا كثيرة وإنْ كان قد صَبَأ في نظر الكنيسة.

من خلال رحلتنا الطويلة في دراسة أفكار الفلاسفة والعلماء حول قضية الخلق والتطور، درسنا الكثير عن حياة داروين ونشأته وتطور أفكاره، فما وجدنا إلا أنَّ الرجل كان متدبِّرًا في عظمة الخالق الحق وآياته الكونية، ولم يكن ملحدًا أو باحثًا لإثبات عدم وجود خالق كما يحلو للنصارى تصويره . هذا السلوك في تقديرنا يشابه سلوك كلَّ من يرفض دين آبائه المتناقض بالفطرة السليمة ويبدأ رحلة البحث الطويلة عن الخالق الحق، الأمر الذي ينطبق على مفهوم "ملة إبراهيم" ورحلة البحث عن الحقيقة التي سنناقشها بالتفصيل في باب "ملة إبراهيم".

وقد يُصاب الكثيرون بالدهشة إذا علموا أنَّ فكرة التطور نفسها كان " شارلس داروين" قد اكتسبها من جده "إيرازماس داروين"، والذي كان قد تعلمها من ترجمات ابن عربي في (عقلة المستوفز) وابن خلدون في (المقدمة) اللذين عاشا قرونًا قبل عهد داروين. بل إنَّ فكرة **أنَّ** "الحيوان الراقي كان مرحلة بين طور النبات والإنسان" كانت من أفكار ابن عربي وابن خلدون، في زمان كانت فيه حرية الفكر متاحةً بقدر ما كانت عقول المسلمين و قلوبهم مفتوحة للتدبُّر في أسرار الكون وعظمة خالقه.

نـظريــة داروين:

من الأمانة العلمية أنْ نشير إلى أنَّ نظرية داروين كأيِّ نظريةٍ علميةٍ قد ثبت أنَّ فيها نقاطَ ضعفٍ وحلقاتٍ مفقودةً كثيرة، وليس حلقة واحدة كما كان يظن داروين. ولكنَّ كلَّ تلك الحلقات المفقودة لا تشيرُ إلا إلى تدخل قدرة الله المباشرة للتحكم في مسار الخلق والتطور، الشيء الذي لا يعتمده العلم على أنَّه حقيقةٌ واقعية ، وبالتالي تزداد الفجوات في النظرية كلما اتسعت دائرة المعرفة، مادام علماء المادة قد أصرُّوا على أنَّ التطور تمَّ بصورةٍ تلقائية في غياب خالقٍ ومدبرٍ للكون.

من أهم الأسس التي ترتكز عليها نظرية التطور عند داروين ما يأتي:

أولًا: إنَّ دراسة الأحياء تؤكد أنَّها تضم أنواعًا أعلى وأخرى أدنى، ابتداء من مخلوقات تتألف من خلية واحدة إلى حيوانات تتألف من ملايين الخلايا.

ثانيًا: بمقارنة هذه المعلومة مع المشاهدات والحقائق التي كشفتها الحفريات نرى أنَّ هنالك ترتيبًا ارتقائيًّا بحَسْب الزمن، فالحيوانات التي وُجدت في الأرض قبل ملايين السنين كانت بسيطةَ التركيب، ثمَّ ظهرت أنواعٌ أكثرُ تعقيدًاعلى مر الزمن.

ثالثًا: النظام الجسماني لكلِّ الأحياء متشابه جدًّا، إذ إنَّها جميعًا تتكون من ملايين الخلايا الحيوانية والنباتية ذات المواصفات الثابتة، وبناءً على هذا الاكتشاف يحتمل أن تكون كلُّ الأجسام الحية منتهية إلى أسرة واحدة وأصلها من خلية واحدة .

رابعًا: تتطورُ أجيال الأحياء و الحيوانات نحو الأمام ونحو الأفضل؛ للتعايش مع الطبيعة المتغيرة وَفقًا لقانون الانتخاب الطبيعي، عندها تحدث فروقاتٌ في الحيوانات التي خرجت من أصل واحد، وهذه الفروقاتُ تكبرُ بصورةٍ مدهشةٍ بعد ملايين السنين. وقانونُ الانتخاب الطبيعي يعني أنَّه في ظروف متشابهة تكون الحيوانات الأقدر على المنافسة ومقاومة الأمراض وتحديات الطبيعة، هي التي تستمر في التناسل لتحفظ العنصر، بينما الحيوانات الضعيفة من نفس النوع تنقرض.

قامتْ أسسُ النظرية على بحوث أُجريت على مخلّفات مختلف الأحياء التي عُثرَ عليها في حفريات أثرية ما زالت تجري في أماكنَ متفرقةٍ من العالم. ومن هذه الحفريات والبحوث استنتج علماءُ الطبيعة أنَّ الإنسان تطور من حَيَوان أدنى، وتمَّ تشبيهه بالقردة اليوم نسبة إلى أنَّ عظامه دلت على أنَّه كان يمشي مكبًا على وجهه وكان يتسلقُ الأشجار، ومن هنا جاء الافتراض الأول أنَّ أصلَ الإنسانِ قرد.هذا الحَيَوانُ البدائي أو الشبيه بالقرد تطور مع مرور ملايين السنين، إذ لاحظ العلماءُ في كلِّ مرحلة من مراحل التطور أنَّ جمجمته تكبر، ممَّا يدل عندهم على تطوره العقلي. وقد استطاع علماء الطبيعة إثباتَ عملية تطورِ هذا الحَيَوانِ البدائيِّ من غير مفاجآت عبر ملايين السنين، إلى أنْ وجدت مُعضِلة لم يستطع أحدٌ تفسيرها علميًّا حتى الآن.

فقبل نحو حَوالَي سبعة آلاف سنة فقط حدث تغيُّرٌ مفاجئ في سلوكه وتَغيَّرَ إلى إنسان عاقل، من دون أن يكتشف العلماءُ - إلى يومنا هذا- السببَ وراء هذا التغيُّر والتطور الفجائي. ولأنَّ هؤلاء العلماءَ - أصلا- لم يكن همهم هو إثباتَ عدم وجود خالق، علمًا بأنَّ معظمهم كان من أهل الكتاب الذين يؤمنون بوجود خالق بصورة أو بأخرى، فقد قاموا بتسمية هذه القفزة بـ "الحلقة المفقودة" في نظرية داروين، أي أنَّهم قبلوا علميًّا أنَّ أصل الإنسان العاقل مخلوقاتٌ أشبه بالقردة تطورت تدريجيًّا، لكنَّهم فَشَلوا في الفهم والتفسير للكيفية التي نقلتْ هذا المخلوقَ الذي تم تشبيهُهُ بالقردة إلى إنسان عاقل، ولكنَّهم أثبتوا أنَّ هذا التغيير تمَّ بصورة فجائية مخالفة لقانون التطور الطبيعي، الذي استغرق ملايين السنين في نقل المخلوق الأدنى من مرحلة المشي على أربع إلى مرحلة تسلق الأشجار مثلا.

هذه الخلاصة ما عادت ملكًا لأحد، إذ إنَّ تواتر الاكتشافات كلَّه يشيرُ إلى النتيجة نفسها، و يمكن متابعةُ كثير من اكتشافات الحفريات القديمة، التي أثبتت أنَّ الإنسان بشكله الجسماني وهيكله العظمي قد تطور من حَيَوان يمشي على أربع ويتسلق الأشجار ويفترس الحيوانات وذلك قبل ملايين السنين، ثمَّ تطور واعتدل في مشيه وصار يمشي على اثنتين، وقبل حَوالَي سبعة آلاف سنة وُجد الإنسانُ العاقل.

وحتى نكون منصفين لداروين بوصفه عالمًا لا داعيةَ إلحاد، إذ إنَّه لم يدعُ إلى إلحاد في نظريته، لا بُدَّ لنا أن نشير إلى أنَّ نظرية التطور ليست نِتاج بحث واحد أو فكرة رجل واحد، وإنَّما هي سلسلةٌ متصلةٌ من البحوث كلُّها تؤكِّدُ النظرية الأولى، حتى بعد مُضي ما يقارب القرن ونصف من عهد داروين. فقد نشرت مجلة الطبيعة العلمية واسعة الانتشار في أوروبا وأمريكا وبقية أنحاء العالم، والتي تحظى باحترام العلماء والباحثين في كلِّ مجالات الطبيعة، نشرتْ سنة 2006 بحوثًا لخصت ما يظنُّه العلماءُ إلى الآن في أمر تطور الإنسان كما يأتي:

1- أقدم جمجمة تجمع بين صفات القرد والإنسان يرجع تاريخها إلى ما بين ستة إلى ثمانيةِ ملايين سنة.

2- يرجع عمر أقدم هيكل عظمي أقرب إلى الإنسان إلى خمسة ملايين و نصف مليون السنة ، وقد سميت هذه الفصيلة من المخلوقات بألـ {أرديبيثيدكس}.

3- عاش ما يُعرف بـ { أرديبيثيدكس راميدس} قبل أربعة ملايين ونصف مليون السنة، وقد تميَّز بأسنان نصفها أسنان إنسان ونصفها أشبه بأسنان القرود.

4- وُجدت عظامُ ألـ {أوسترالوبيثيكس أنامينس} سنة 2006 ، وقد عاش هذا المخلوقُ قبل أربعة ملايين ومائتي ألف سنة، وتميز بطقم أسنان إنسان متكاملة، بالإضافة إلى فقرات تساعد على المشي في اعتدال وليس منحنيًا.

5- قبل ثلاثة ملايين ومائتي ألف سنة عاش ألـ {أوستر الوبيثيكس أفارينسس}، وتميَّز بأصابعَ كبيرةٍ في قدميه تساعد على المشي المعتدل السريع، بالإضافة إلى مرونة في مفصل الساعد والأصابع تساعد على القبض كما يقبض الإنسان يده.

6- قبل مليوني سنة عاش ألـ {أوسترالوبيثيكس روبستس} الذي تميز بوجه أكثرَ تسطحًا و أقربَ إلى وجه الإنسان، لكنَّه لم يكن لديه ناصية. وتجويف جمجمته لا يزيد على 500 سم مكعب ممَّا يدلُ على صغر المخ.

7- قبل مليون سنة عاش ألـ {هومو ايركتس} الذي مشى معتدلًا، وتميز بفك بارز لكنْ من غير حنك، بالإضافة إلى أنَّ تجويف جمجمته زاد إلى 1100 سم مكعب، أي أنَّ حجمَ مخِّه تضاعف خلال مليون سنة.

8- قبل مائتين وثلاثين ألفَ سنة عاش ألـ {هومو نيناردير ثالينسيس} الذي تميز بجمجمة أكثر استدارة، وأكتاف متسعة أشبه بأكتاف الإنسان، ومشية معتدلة، كما ثبت أنَّه عاش في مجتمعات عشائرية، و وجدت بقاياه في أماكنَ متقاربةٍ ممَّا يدللُ على شبه المجتمع القروي.

9. وقبل أربعين ألف سنة عاش أول إنسان في شكل مجتمع يبدو منتظمًا، واتصف بصفات إنسان اليوم، من حيثُ: الشكل، وحجم الجمجمة، والمخ. رغم ذلك فهذا المخلوق لم يترك أثرًا واضحًا يدلُّ على امتلاكه للعقل البشري.

10. قبل حَوالَي سبعة آلاف سنة تقريبًا وُجد الإنسان العاقل الذي ترك حضارات واضحة وعمرانا، معلنًا بذلك وجود الجنس البشري العاقل وبَدء الحضارة الإنسانية على الأرض. هذه النقلة المفاجئة في سلوك الإنسان وتحوله فجأة إلى مخلوق جبارٍ في الأرض، هي ما سمَّاه داروين بالحلقة المفقودة، إذ إنَّه ومن سار على خطاه لم يستطيعوا معرفة السرِّ الذي حوَّلَ الإنسانَ فجأة إلى إنسان عاقل بهذه الصورة المفاجئة.

على أننا لنا نظرٌ في هذا التاريخ، فظهورُ الحضارة الملموسة ليس بالضرورة أنَّه كان بداية العقل؛ لأنَّ الانسان العاقل لا بُدَّ وقد سلك طريقا طويلًا قبل أن يبدأ فى بناء حضارات تترك آثارَها على الأرض لآلاف السنين الآتية. وقد اقترحنا حسابًا للسنين بين آدم ويومنا هذا بطريقة أخرى، سنطرحها في باب سفينة نوح- إن شاء الله-.

ما يهمنا هنا هو أنَّ علماء الطبيعة لا شأن لهم في بحوثهم بالخالق، وإنَّما هم يعرضون صفات الخلق حَسْبَ ما وجدوها. هذا بالإضافة إلى أنَّهم اعترفوا بأنَّ كلَّ المراحل السابقة لظهور الإنسان العاقل كانت مفهومة، وحدثت نتيجة تطور فرضته ضروراتُ الطبيعة القاهرة بصورة بطيئة، إلا أنَّ ظهور الإنسان العاقل فجأة ظلَّ حلقةً مفقودةً في بحوثهم وسرًّا لم يزعموا أنَّ لديهم تفسيرًا له.

من هذا نصل إلى أنَّ قصة خلق الإنسان مازالت مفتوحةً على مصراعيها من ناحية علمية؛ لأنَّ علماء الطبيعة لم يحسموها، إذ إنَّها غيرُ قابلةٍ للتجرِبة والاختبار المعملي، إنَّما للملاحظة والاستنتاج. ويتضح لنا جليًّا أيضًا أنَّ حماقة علماء الدين في الغرب ، هي التي فتحت الباب على مصراعيه لدعاة الإلحاد لإلصاق نظرية التطور- التي لم تُطرح أصلا بديلًا للدين ولا دليلًا على عدم وجود الخالق- بعقيدة الإلحاد، بصورة فتنت الكثيرين ممَّن يعولون على العلم، وتضيقُ صدورُهم بضيق أفق دعاة الديانات على اختلاف عقائدهم.

الصراع بين الدين والعلم:

لمَّا كان الإسلام هو الدينُ الوحيدُ الذي يشجع على العلم ويمجِّدُ العلماء، كان لزامًا على علماء المسلمين وعامتهم أن يسارعوا في التثبت من حقيقة اكتشافات العلماء ونظرياتهم ، وإعطائها فرصة للبحث والنظر والدراسة المنطقية قبل أن ينزلقوا في منزلق الكنيسة التي تسارع في تكفير كلِّ من يأتي باكتشاف لا يتفق مع كتبهم المحرفة، وإنْ كان في القرآن ما يسنده. ولأنَّنا نؤمنُ أنَّ الفهمَ السليمَ لنصوص القرآن والعلم المادي المثبت لا يتناقضان أبدًا، فإنَّنا سنحاولُ أن نجد مدخلًا توفيقيًّا بين رأي علماء الطبيعة وتفسيرِ علماء الدين في قضية خلق الإنسان.

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الله - سبحانه و تعالى - ما أنزل كتابًا سماويًّا إلا قصَّ فيه قصصَ الأمم السابقة، ودعا الناس للتدبُّر فيما حدث لهم حتى نعتبر منهم . بمعنًى آخرَ ، فإنَّ علم الآثار فيه من العبادة والتفكر في قدرة الله - عز وجل - ما يدعو للإيمان وليس الكفر، إذا دُرس دراسة عاقلة. فالتوراة والإنجيل والقرآن مليئة بقصص من قبلنا وإنجازاتهم ومصيرهم أيضًا، والقرآن أكثر صراحةً في دعوة المؤمنين للاعتبار بقصص من قبلنا، بل إنَّ القرآن صرح بأنَّ الله - تعالى - قد نجَّى فرعون بجسده - مثلا- ليكون آية للناس:

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢ ﴾ " 92 يونس".

إذنْ فدراسةُ تاريخ الفراعنة ومصيرهم عبادةٌ؛ لأنَّ فيها آياتٍ من آيات الله، وليس بالضرورة تقود للكفر، وقد لفت الله - تعالى - انتباهنا إلى مساكن عاد وثمود وغيرهم وما صار إليه أمرهم:

﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨ ﴾ " القصص 58 ".

و قوله: ﴿ وَعَادٗا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ٣٨ ﴾ " العنكبوت 38" .

وفي قوم لوط أخبر الله - سبحانه و تعالى- أنَّنا نمرُّ على آثارهم:

﴿ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ ﴾ " الصافات137".

بل وصف اللهُ - تعالى - سورةَ يوسف - وهي أكثرُ السور في القرآن تفصيلًا لقصص من قبلنا - أنَّها أحسنُ القصص:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾ " يوسف3 ".

ويُذكّرُنا الله أن نعتبر من قصصهم:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾"يوسف111".

وتوجيه هذه الآية بالخطاب إلى أولي الألباب يدلُّ على أنَّ في قصص مَن قبلنا حِكمًا يجب أن نعقلها، وليس أن نتفاعل معها عاطفيًّا بجهل.

حينما بدأت أوروبا تخرج من العصور المظلمة، لم تتردد في ترجمة كلِّ ما أُتيح لها من علوم الحضارة الإسلامية التي كانت في قمة ازدهارها، وطوّروها ليبنوا على أساسها حضارتهم اليوم. وكان شأنُ المسلمين في بداية عهد النهضة مشابهًا، إذ إنَّهم استفادوا من كلِّ ما وصلت إليه الحضارة الرومانية و اليونانية والفارسية... وغيرها في كلِّ ما يفيد الناسَ في دينهم ودنياهم من غير حرج، رغم اختلافهم العَقَدي مع الذين بنَوا تلك الحضارات. لكنَّ المسلمين اليومَ غيرُ آبهين بما آل إليه حالهم من تخلفٍ وتبعية وتمزق وابتعاد عن دينهم وضياع في دنياهم، واعتمادٍ تام على كلِّ ما تنتجه المدنية الغربية في العلوم والتقنية، بل وحتى القوانين والسياسة، ولكنَّهم لم يخطوا أية خُطوات جادة في الاستفادة من تقدُّم الغربِ في العلوم المادية والبحوث العلمية في آيات الله الكونية لتطوير فهمهم لكتاب الله أو تطوير دنياهم بصورة مستقلة.

إذنْ، فالتفكُّر في خلق الكون وأصل الإنسان وأحداث الأمم السابقة عبادةٌ وليس كفرًا. على أن هذه العبادة لا بد أن تُؤخذُ مأخذًا منطقيًّا يمحِّص استنتاجات العلماء وأدلتهم من ناحية، ويفسح المجال للتدبُّر في آيات القرآن لاستنباط معانٍ أقربَ إلى الواقع من ناحية أخرى، إذ إنَّ هذا هو شأن أولي الألباب. وبناءً على ذلك فقد اجتهدنا في أن نسخِّر العلوم التي علَّمَنا إياها اللهُ عن الظواهر الكونية في إيجاد قواسمَ مشتركةٍ بين ما تطرحه الديانات وما توصل إليه الباحثون من علماء الطبيعة؛ لتكون أساسًا للمقارنة حتى نكون أكثرَ واقعية في طرحنا لقضية التطور هذه، ولا نبتغي في ذلك إلا وجهه - سبحانه و تعالى- .

ولعلَّ أفضل ما يمكن البداية به هو تحديد الجغرافية الزمانية والمكانية، اللتين وُجد فيهما الإنسان العاقل من ناحيةٍ علميةٍ ومن ناحيةٍ دينية.

جغرافية التطور:

كما أسلفنا، فإنَّ علماءَ الطبيعة خلصوا إلى أنَّ أقدم آثار الإنسان العاقل ترجعُ إلى حوالَي 7000 عام. بمقارنة هذه المدةِ الزمنية بما طرحه الإنجيلُ من نَسَب المسيح - عليه السلام- على ما فيه من علل، نجد أنَّ المدة الزمنية تقريبًا متقاربة. فقد ورد في إنجيل لوقا أنَّ المسيح - عليه السلام - قد انحدر من آدم بعد خمسةٍ و سبعين جيلا من الأجداد. فإذا افترضنا أنَّ كلَّ رجل عاش بين ستين وسبعين عامًا تقريبا؛ فإن الفترةَ الزمنية بين عيسى وآدم - عليهما السلام- تكون 5000 سنة تقريبًا. و لمَّا كان المسيحُ قد ولد قبل نحو ألفي سنة، فإنَّ الفترة الزمنية بين جيلنا اليوم وجيل آدم، وهو أولُ إنسان عاقل حسْبَ الديانات السماوية تصبح 7000سنة، وهذا ما افترضه علماءُ الطبيعة بملاحظاتهم وحفرياتهم. ولو طبقنا نفسَ القياس البسيط على نَسَب النبيِّ - صلى الله عليه وسلم - في سيرة ابن هشام، والتي نظنُّ أنَّها - أصلا- مقتبسة من الإسرائيليات فيما بعد إبراهيم - عليه السلام -، لوصلنا إلى نتيجة مشابهة. هذه مقارنة تقريبية فقط، إذ لا يمكن إحصاء أجداد المسيح بالضبط ؛ لأنَّ نسبه في الإنجيل فيه من العلَّات والتناقضات ما يكفي للتشكيك في صحته والتي لا ينكرها أهلُ الكتابِ أنفُسُهم، وهذا ما ناقشناه باستفاضة في كتابنا باللغة الإنجليزية "ثالوث يوسف"، و لكنَّه ليس مجال بحثنا هنا. ومن ناحية أخرى لا يمكن تحديدُ عُمُرِ الإنسانية باليوم والساعة؛ لأنَّ هذا ما لم يدَّعِهِ علماءُ الطبيعة، ولكنْ على الأقل هناك تقاربٌ في الفترة الزمنية التي وُجد فيها آدمُ أبو البشر، وَفْقًا لنسب المسيح في الإنجيل ونسب النبي - صلى الله عليه وسلم- في السيرة، و ما وصل إليه علماءُ الطبيعة من تاريخ ظهور الإنسان العاقل على سطح الأرض.

أما بالنسبة للموقع الجغرافي فالأمرُ أيضًا مدهشٌ، إذ إنَّ معظم تلك الهياكل العظمية التي أشارت إلى نظرية التطور وُجدت في دولة أثيوبيا وما حولها من بلاد السودان القديم. ورغم أنَّ علماءَ الغرب وعلى رأسهم الأمريكان يحبون أن يُنسب كلُّ شيء إلى أرضهم، حتى المتدينون منهم يظنُّون أنَّ المسيحَ سينزل في أمريكا، إلّا أنَّ علماء الطبيعة الذين يطرحون الحقائق كما وجدوها أثبتوا أنَّ أقدم عظام بشرية وُجدت في منطقة شرق أفريقيا، ولا يخفى على أيِّ إنسان عاقلٍ التقاربُ الجغرافي بين أثيوبيا والجزيرة العربية، التي تشير الدياناتُ السماوية إلى أنَّ آدم ظهر فيها وانحدرت سلالاته الأولى فيها، ويظنُّ كثيرٌ من المسلمين أنَّ مدينة جِدَّة قد سُمِّيت بهذا الاسم لأنَّ حواء جدة البشر مدفونة فيها.

من هذا يمكن أن نَخلُصَ إلى أنَّ هناك تشابهًا كبيرًا في رأي علماء الطبيعة والدين في تحديد الزمان والمكان اللذين ظهر فيهما أول إنسان عاقل، وهاتان نقطتا اتفاقٍ يجبُ التعويل عليهما في مواصلة البحث، والمقارنة بين رأي الدين والعلم في هذا الأمر.

على أنَّ الخلاف بين الفئتين يكمنُ فيما إذا كان آدم هو فقط أولَ إنسان عاقل حَسْبَ رأي علماء الطبيعة، أو أنَّه أولُ إنسان على الإطلاق حَسْبَ ما يفسر أهل الديانات. فنظرية داروين تتفق مع الديانات في أنَّ الإنسان العاقل وُجد فجأة في عصر آدم أي نحو حوالَي 7000 سنة، ولكنَّها تضيف أنَّ هذا الإنسان أتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، و مرَّ بمراحلَ كثيرةٍ جدًّا من الأطوار إلى أنْ وصل إلى هذه المرحلة، بل إنَّه كلما تطور العِلم تراكمت الأدلة على أنَّ الإنسان - أصلا- قد نبت من الأرض نباتًا، وهو بذلك يشترك مع جميع الأحياء على الأرض في أصله .

هذه الإضافة من أهل العلم تسبب حرجًا كبيرًا لأهل الديانات في الغرب، أشبه بحرج الكنيسة من وصف جاليلو بأنَّ الشمس هي مركز المجموعة الشمسية وليست الأرض، في زمان كان تفسيرُهم للنصوص التي بين أيديهم لا

يحتمل ذلك الاكتشاف، ومن عارض ذلك كفر. فالديانة اليهودية ومِن بعدها النصرانية التي تستقي فهمَها لأصل الخلق من توراة اليهود، لا تقبلان مناقشة احتمال وجود سلالة الإنسان قبل آدم على الإطلاق، وما ذلك إلا لأنَّ الدين والمنطق عندهم شيئان مختلفان لا يمكنُ التوفيق بينهما . وما يزيد الأمر تعقيدًا في الغرب المسيحي واليهودي، هو أنَّ الكتب السماوية التي يرجعون إليها لا يمكن إعادة تأويلها؛ لأنَّ الأصول الحقيقية قد اندثرت، وما بين أيدي الناس ليس إلا تراجمَ لا يستطيعُ الإنسان تأويلها بطبيعة الحال.

وهكذا اتهم أربابُ الكهنوت الغربي داروين بالكفر من غير أن يتفكروا فيما وصل إليه بحثه، ومن ثم تبعهم علماءُ المسلمين بكلِّ بساطة رغم أنَّ دينهم يدعو إلى التدبُّرِ واحترام المنطق، ورغم أنَّنا نقرأ القرآنَ العربي المحفوظ كما نزل على النبي - صلى الله عليه وسلم-، ومِن حقنا - بل من واجبنا- إعادة فهم النصوص التي تشير إلى قضايا كونية لم يرد فيها نصٌ ثابتٌ عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- في التفسير. ونسبةً لاتباع المسلمين لليهود في ضيق أفقهم هذا، فقد عجزوا حتى الآن من إقناع الرأي العام العالمي بأنَّ الإسلام حق؛ لأنَّهم اتبعوا أسلوب الكهنوت الغربي في تكفير علماء الطبيعة، من غير فهمٍ علمي لبحوثهم، ومن غير مراجعة منطقية لتفسيرهم لآيات القرآن التي وصفت تطور الإنسان و خلقه من طين.

إذا نظرنا في تاريخ تطور العلوم التطبيقية، وربطناها بفهم رجال الدين و سلوكهم، فسنجدُ أنَّ هناك حقائقَ علميةً أخرى، مشابهة إلى حد كبير لنظرية داروين لكنَّها لم ترتبط بالكفر؛ لأنَّ دعاة الإلحاد لم يسرقوها لتكون برهانًا لإنكارهم وجودَ الله، ومن ثَمَّ لم تثرْ غضب رجال الدين، ممَّا أتاح لها فرصة كافية لتبحث وتثبت وتصبح من أبسط المعلومات التي يتعامل بها الكهنوت والرجل العامي كما يتعامل معها العالم . مثلًا حينما اكتشف الأطباءُ أنَّ السائل المنوي يحتوي على ما يقارب مائة مليون حيوان منوي، و واحد فقط منها ينجح في تلقيح البويضة، وأنَّ مبيضي الأنثى يحتويان على حوالَي خمسمائة بويضة، واحدة فقط تنضج كلَّ شهر- لم يؤدِ هذا الاكتشاف للظنِّ من قريب أو بعيد أنَّ الله غير موجود، وأنَّ الأبوين هما اللذان يخلقان الأطفال. فالاكتشاف أخذ ببساطة على أنَّه دليلٌ على عظمة الله - سبحانه و تعالى-، وأخذه المسلمون كتفسير للكثير من الآيات التي وصفت الإخصاب وتكوين العلقة والمضغة ثمَّ الجنين كما وصف القرآن، فقالوا: "صدق الله العظيم".

حينما يصل الاكتشاف أو النظرية العلمية إلى المسلمين قبل الملحدين، فإنَّهم قد يبحثون لها عن تأكيد من القرآن، ثمَّ يقبلونها بوصفها آية من آيات الله بهدوء بل وفخر، ولكن إذا التقط المعلومة أو النظرية دعاةُ الإلحاد أولًا وربطوها من غير وجه حق بإلحادهم، فإنَّ رجالَ الدين - مسلمين ونصارى ويهود- يسارعون إلى رفض الفكرة جملةً وتفصيلا، وتكفيرِ مكتشفها وإنْ لم يكن ملحدًا، وتحريم حتى التدبُّر في آيات الله الغامضة التي ربَّما تكون تفسيرًا لها، وكأنَّ الله - تعالى- قد أوكل إليهم التحدث باسمه، و تأويل كلماته - التي لا يعلم تأويلها إلا هو- بمعنًى محدودٍ دون غيره.

وقبل أنْ ننتقل لمناقشة قضية خلق آدم من وجهة نظر دينية، يستحسنُ بنا أن نلخص الاحتمالات المنطقية لمدى صحة نظرية التطور لدى داروين أو عدم صحتها، مستهدين في ذلك بحكمة الله - تعالى- في طرح الاحتمالات المنطقية في كلِّ حوار أو بحث:

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٨ ﴾ "24 سبأ "

ففي أيِّ خلاف هناك احتمالان، يجب أن يدرسهما أيُّ باحث حكيم قبل إصدار الأحكام، ويجب عليه ـ بنصِّ القرآن- أن يدخل الحوار متقبلًا لاحتمال أن يكون هو المخطئ وليس بالضرورة نظيره . ومن هذا المنطلق فإنَّ الاحتمالات المنطقية في قصة التطور هي:

الاحتمال الأول: أن يكون العلم التجريبي مخطئًا تمامًا، وأنَّ الإنسان العاقل وُجد في شخص واحد وهيئة واحدة وعقل مكتمل منذ أنْ دبت فيه الحياة، وأنَّ ما وصفه علماءُ الطبيعة ليس إلا هراءً وفسقًا لا يقبل حتى النظر فيه.

هذا الاحتمالُ يرسِّخُ الطلاقَ الأحمقَ بين الدين والعلم ويجعلُ أهلَ الكهنوت في حرج دائم، إذ إنَّ علماء الطبيعة لديهم من الأدلة ما يكفي على الأقل في إثبات أنَّ الإنسان مشى على الأرض ملايين السنين قبل عهد آدم. قَبولُ هذا الاحتمال من غير نقاش يُبرِزُ الدينَ بصورة متحجرة ممَّا يزيد من معتنقي الإلحاد، إذ إنَّه يترك بين أيديهم أدلة علمية مادية يضللون بها العامة، في وقت يرفض فيه أهلُ الديانات حتى مراجعة فهمهم للنصوص المنزلة على ضوء ما توافر للإنسان من علم بآيات الله الكونية. ونظنُّ ـ والله أعلم- أنَّ مثل هذا التفكير المتحجر يعارض قول الله ـ تعالى-:

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠ ﴾ "20 العنكبوت".

الاحتمال الثاني: أنْ يكونَ الإنسانُ حقيقةً قد خُلق في أطوار متلاحقة، وعاش حينًا من الدهر كحيوان أدنى و لم يكن شيئًا مذكورًا، ثمَّ تطور إلى أن أصبح مخلوقًا أقربَ إلى القِرَدَةِ في هيئته؛ فأفسد في الأرض وسفك الدماء، ثمَّ قفزت به قُدرةٌ ما ـ وهي ما يشيرُ إليها داروين بالحلقة المفقودة- إلى إنسان عاقل بعد أن طُوِّر عقلُهُ إلى عقل إنسان.

في الاحتمال الثاني يترك علماءُ الطبيعة البابَ مفتوحًا لكلِّ من لديه دليل ليثبتَ أنَّ الخالق الأعظم هو الذي طوَّر هذا المخلوق إلى إنسان عاقل قبل أقل من سبعة آلاف سنة؛ ليكونَ تفسيرًا للحلقة المفقودة، الشيء الذي يمكن أن يُحدِثَ تزاوجًا طبيعيًّا بين العلم والدين، ويقطعَ الطريقَ أمام دعاة الإلحاد من أنْ يسوقوا الناسَ إلى إنكار الله من غير دليلٍ علميٍّ أو منطقيٍّ.

في بحثنا هذا نؤمن أنَّ المؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين، ونؤمن أنَّ الحكم على "جاليلو" بالسجن كان خطأً كبيرًا؛ لأنَّ الشمسَ هي مركزُ المجموعة الشمسية، والله بريءٌ من تفسير الكهنوت الضيق لكلماته في الكتب السماوية السابقة. وكذلك نظنُّ أنَّ في كتاب الله من الدلائل على أنَّ قصة خلق آدم أكبر بكثير ممَّا توارثه المسلمون وما تناقلوه من الإسرائيليات. ونؤمنُ كذلك أنَّ الإسلام يحثُّ على العلم ويشجعُ الإنسانَ على البحث والتدبر في آيات الله الكونية، ولا

عيب في فهم جديد لآيات القرآن ما لم يتعارض ذلك مع نصٍّ قطعيٍّ، أو تفسيرٍ مُؤكدٍ من الرسول - صلى الله عليه وسلم-.

إنَّ قرآنًا ابتُدِىء بسورة العلق :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝ ﴾ لا يمكن أن يحجر إعجازاتِه العلميةَ كائنٌ من كان.

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝ ﴾ :

قبل أنْ نبحث في مفهوم التطور في القرآن، من الضروري أنْ نلقي ظلالًا على عروبة القرآن و بيانه اللذين أشار الله -عز وجل- إليها، كما في آية سورة يوسف أعلاه. عروبة الكتاب وبيانُه يقتضيان بالضرورة الرجوعَ إلى أصول اللغة العربية؛ لفهم ما كان غامضًا من ألفاظه، خاصة في الآيات التي لم يرد فيها تفسيرٌ من الرسول - صلى الله عليه وسلم-، وتلك التي تناقش آياتٍ كونيةً وظواهرَ طبيعية ما كان للسلف علمٌ بها أو قدرة على فهمها، فضلًا عن فهم ما قاله القرآن عنها. وهنا لا نتحدث عن علم التأويل الذي لا يعلمه - بطبيعة الحال- إلا الله - جلَّ وعلا-، وإنَّما نتحدث عن معاني الكلمات العربية التي يستعملها اللهُ ليصف لنا أمرًا محددًا في القرآن.

اللغة العربية هي أولُ لغة تحدَّث بها الإنسانُ حَسْبَ أغلب الآراء، وتطورت ألفاظها مع الزمن من القياس على أصول المعاني، ممَّا يجعل كلَّ الألفاظ العربية ترجع إلى أصول قد تبدو لا علاقة لها بها من الوهلة الأولى. ونضرب مثالًا لذلك بلفظ "شجرة"، وهو لفظٌ مستعملٌ في الفصحى والعامية و في كلِّ لهَجَات العرب اليوم ، وله معنًى واحدٌ لا خلافَ حوله ولا غموضَ فيه. على أنَّنا إذا رجعنا إلى أصول اللغة فسنلاحظ أنَّ لفظ "شجرة" البسيط هذا ليس أصلًا، وإنَّما هو فرعٌ مشتقٌ من الأصل " شَجَرَ".

"شجر" : لها أصلٌ واحدٌ يفيد التداخل والعلو. وقياسًا على هذا الأصل جاءت كلمة "مشاجرة" التي تعني العِراك، وما ذلك إلّا لأنَّ المتشاجرين تتداخلُ أياديهم وأرجلهم وتعلو أصواتهم. وقياسًا على هذا الأصل جاءت كلمة "شجرة"؛ لأنَّ فروعها تتداخل باستمرار، ولأنَّها عالية.

هناك خلطٌ بين حقيقة أنَّ القرآن نزل بلغة العرب وكونه يحوي علمَ الله الذي لا يعلمه إلا هو؛ فالعربُ كانوا يستعملون من الألفاظ ما يعبرون به عن حياتهم اليومية البسيطة وما هو داخل في إطار معرفتهم، ولكن من الطبيعي أنَّ علمهم بأسرار الكون كان محدودًا جدًّا، و لذا فإنَّ الألفاظ والمعاني التي كانت متداولة بينهم لم تكن تعكس إلا علمَهم

بالحياة ولكنْ ليس كل أصول اللغة. فلمَّا نزل القرآن بلغتهم يكشف أسرار الكون، اشتمل على قدرٍ من القياسات اللغوية من أصول المعاني العربية؛ ليشرحَ لنا بها ما لم تكن العرب تعرفه.

من مثال "الشجرة" البسيط - أعلاه - نلاحظ أنَّ إرجاع الألفاظ إلى أصولها يفتح بابًا واسعًا لاتساع المعاني، وبالتالي زيادة البيان في مضمون الآيات القرآنية خاصة تلك التي تبدو ألفاظها غريبة أو إعرابُها غامضًا، وتلك التي تشرح آياتٍ كونية صَعُبَ على السلف استيعابها ، كما سنرى مرارًا في هذا الكتاب ونحن نبحث في قصة التطور في القرآن. و يجدر بنا أنْ ننوه إلى أنَّ السلف لم يجتهدوا في إرجاع الكثير من القياسات - التي سنتطرق إليها في هذا الكتاب - إلى أصولها؛ لأنَّهم - أصلا- ما كان بوسعهم استيعابُ مضمونها حتى ولو رُويت لهم بأبسط لغة، وما ذلك إلا لمحدودية علمهم بأسرار الكون آنذاك.

لا بُدَّ من التنويه أيضًا فى هذه العجالة إلى أنَّ قواعد اللغة العربية والنحو- المعروفة لدينا الآن- كانت قد استنبطت باستقراء الشعر الجاهلي والقرآن الكريم؛ لتعينَ العجمَ على دراسة اللغة العربية، لكنَّها لا يمكنُ - بأيِّ حال - أن تكون المقياسَ الوحيدَ الذى تقاس به مفاهيمُ القرآن الذي نزل بالسليقة العربية، وليس وَفقًا لقواعد اللغة التى استنبطت منه لاحقا.

تطور الإنسان عند أهل الديانات:

لعل من الحكمة هنا أن نجمل في نظرة سريعة ما تفرَّد به القرآنُ دون غيره من الكتب السماوية، في سَبْقِ العلماء بطرحه لقضية التطور نفسِها. ولعلَّ من الضروري جدًّا أنْ نؤكد على أنَّ كلمة " أطوار" نفسَها كلمةٌ قرآنية قبل أن تكون داروينية كما التصق بأذهان كثير من المسلمين وهم يتلون القرآن.

الطرح القرآني للتطور:

من اللافت للنظر أنَّ الله - سبحانه وتعالى- حينما يصف ظاهرة كونية أو حقيقة علمية يستدرجُ العقلَ البشريَّ بالتدبر فيها، ومن ثَمَّ الاستزادة من البحث، وذلك بطرح الحقيقة بكلمات مختصرة جدًّا، ولكنَّها منتقاة من اللغة العربية بحكمة بالغة، ممَّا يوحي بأبعاد عميقة جدًّا تستفز العقلَ البشريَّ وتثيرُ الفضول، وهكذا كانت سورة " الإنسان ".

فاختيار اسم "الإنسان" ليكون اسمًا للسورة نفسِها يثيرُ قشعريرةً في جسد من يتدبرون في أسرار الكون. الإنسان ذلك المجهول الذي يولد ضعيفًا، ثم ما يلبث أنْ يفرض سلطانَه على كلِّ المخلوقات. الإنسان الذي يُخلق من حيوان منوي وبويضة، ثم ما يلبث أنْ يتحكم في قوانين الطبيعة القاهرة، بل ويعدِّل في نظام خلقه بتدخله في الجينات وأطفال الأنابيب ونسخ الحياة. الإنسان ذلك المخلوق الذي تفوقه معظمُ الحيوانات بقدرة حواسها سمعًا وبصرًا وشمًّا وصرعة، ولكنّه بسلطان العقل يفرض سلطانه عليها ويسخرها لخدمته. الإنسان ذلك الحيوان الذي لا يستطيع إلا أن يمشي أو يجري على الأرض، لكنَّه يفرض سلطانه في جو السماء وعمق البحار بسلطان العقل والعلم. الإنسان بحرٌ عميق مليءٌ بالأسرار و المجاهيل التي لا يعرفها ،كمًا وكيفًا، إلا الذي خلقه فسواه فعدله - سبحانه و تعالى- .

بدأت هذه السورة بآية مدهشة ، لو عرف الإنسان أبعاد مدلولاتها التي لا يعلمها إلا الله - جلَّ وعلا- لربَّما تغيَّر مسارُ البشرية جمعاء، قال - تعالى- :

﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝ ﴾ "1الإنسان" .

كلمة "حين" في اللغة تعني الفترة الزمنية المحددة التي يمكن أنْ يستوعبها الإنسان، لكنَّ كلمة "الدهر" - والتي وردت في القرآن مرتين فقط - لها أكثر من معنى: الدهر هو القهر والقسوة لغةً، وحينما تستعمل كلمة "دهر" في موضع الزمن فتعني الزمن القاهر القاسي، أيضًا فالدهرُ هو الزمان بمعناه المطلق، إذ إنَّ هناك زمنًا يمكن للإنسان أن يقيسه بالليل والنهار، لكنَّ الدهرَ يشيرُ إلى امتداد الوجود من غير حدود؛ ولذلك كانت عقيدة المشركين حينما رفضوا قضية البعث بعد الموت:

﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ "24 الجاثية".

أي أنَّ الطبيعة هي التي أوجدتنا، والطبيعة القاهرة على مرِّ العصور هي التي تهلكنا .

فكأنَّ الله - جلَّ وعلا- في هذه الآية لا يسألنا: "هل يا ترى أتى على الإنسان..."، وإنَّما يخبرنا أنَّ الإنسان قد وُجد حينًا من الدهر في زمان قاهر وقاسٍ لم يكن بوسعه قياسه أو فهمه أو مقاومة قسوته، ولم يكن له - حينذاك- دورٌ في الوجود، كأنَّه لم يستحق الذكر. فمتى كان هذا الحينُ من الدهر الذي ما كان للإنسان فيه قيمة تذكر؟

إذا افترضنا أنَّ الإنسان وُجد فقط في عصر آدمَ كما يفهم علماءُ الدين، فإنَّ آدم - عليه السلام- كان نبيًّا مصطفى:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ "33 آل عمران".

إذنْ من غير المعقول أنْ يكون آدمُ المصطفى وجيلُه وذريتُه الأولى غيرَ جديرين بالذكر.

المنطق نفسه ينطبق على كلِّ ذرية آدم، إذ إنَّ التكليف بالخلافة أمرٌ متوارث لكل الإنسانية إلى آخر الجنس البشري، ولا يُعقل أنْ يجعل الله خليفة في الأرض لا يستحق الذكر، علمًا بأنَّ بني آدم ما تُركوا من غير نبيٍّ أو رسول على مر العصور، منذ عصر آدم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين كما في قوله - عز وجل - :

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ ﴾ "24 فاطر".

فهل يستقيم - منطقًا - أنَّ هذا الحين من الدهر الذي وُجد فيه الإنسان بلا قيمة تذكر، قد حدث بعد عصر آدم المصطفى والرسلُ تُبعث رسولًا بعد رسول؟! أو أنَّ الآية تشير إلى حينٍ من الدهر سبق عصرَ الرسل والأنبياء، وسبق عصر آدم المصطفى حينما كانت السلالة التي أنشأ الله منها الإنسان تصارع الطبيعة القاهرة، ولا تملِك سلطانًا عليها كما امتلك الإنسان العاقل مؤخرًا هذه القدرة.

فإنْ كانت الآية الأولى هذه تلمح إلى عمليةِ تطورٍ نقلت الإنسانَ - بوصفه جنسًا من المخلوقات- من دهر لم يكن له فيه قيمة إلى زمن أصبح فيه خليفة لله في الأرض، فإنَّ سورة الإنسان "ذلك المجهول" تستمر في سَبْر غواره ووصف جوانبَ أخرى من جوانبِ تطور الإنسان أكثر صراحة ووضوحًا، وهي قضية تطور الإنسان الفرد من عناصره الأولية إلى بشر:

﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ ﴾ "2 الإنسان".

ولمَّا كان السمعُ والبصر صفاتٍ يشترك فيها الإنسانُ مع كثير من الحيوانات غيرِ العاقلة وغير المكلفة، فقد أكمل الله - سبحانه و تعالى- مراحل تطور الإنسان بمنحه العقلَ موضعَ التكليف:

﴿ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ " 3 الإنسان".

فكأنَّ الله في هذه الآيات الثلاث يطوي بكلمات سريعة جدًّا ثلاثة أشكال من التطور مر بها الإنسان، فقد وُجد الإنسان مخلوقًا غيرَ جدير بالذكر في زمان قاهر، فحافظ الله - سبحانه و تعالى- على وجوده بتطورٍ داخليٍّ مستمرٍ في تركيبه البيولوجي، إذ إنَّ "النطفة" هي قطرة الماء، و "الأمشاج" تعني "المتداخلات"، ويظنُّ علماءُ الطب في زماننا أنَّ الأمشاج يمكن تفسيرُها بالكروموسومات (الصبغيات)، وهي أمشاج من الأحماض النووية المتداخلة، وهي التي تحدد العنصر وتنقل الصفات الوراثية ،وهي أيضًا مسؤولةٌ عن عملية التطور الداخلي للعنصر الواحد بتركيز الصفات الحسنة وإزالة الصفات السيئة، أو ما يعرف بـ (الصفات السائدة والمتنحية). فحافظ الله - تعالى- على استمرار وجود الإنسان - رغم قهر الطبيعة- بتطوير صفاته الوراثية إلى أنْ منحه الله العقلَ ، ودخل الطور الأخير من رحلة التطور، وهي مرحلة التكليف والخلافة.

ومن المواقع المثيرة للفضول والتدبر أيضًا، ربْطُ الله - سبحانه وتعالى- لمفهوم التطور بقوم نوح - عليه السلام - :

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ ﴾ "13-14 نوح".

وحتى نفهم المعنى العميق لمفهوم "الأطوار" هنا، لا بُدَّ لنا من وقفة مع نوح وقومه وزمانه. المعروف أنَّ نوحًا - عليه السلام- هو أبو البشرية الثاني بعد آدم، إذ إنَّ الله أغرق كلَّ من لم يتبع نوحًا، ولم ينجُ إلا من ركِب معه في الفُلك، ثمَّ جعل الله ذرية نوح فقط هي الباقية من بين من رَكِبوا معه في الفلك: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ "77 الصافات". فالبشريةُ اليومَ تنحدر من ذرية سام وحام وجافث، أبناءِ نوحٍ الثلاثة باتفاق اليهود والنصارى والمسلمين . ثم إنَّ نوحًا - عليه السلام- عاش بعد آدم بحوالي عشرة أجيال كما ورد في إنجيل لوقا واتفق معه صاحب سيرة ابن هشام، الأمر الذي يجعله وقومه أقربَ إلى عصر آدم من عصرنا. فإذا كان آدم يمثل طورًا أساسيًّا في وجود البشرية من عدم، فإنَّ نوحًا يمثل طورًا لا يقل أهمية، وهو امتداد البشرية بعد أن انقرض كلُّ من كان على الأرض من بشرٍ سوي من ذرية نوح.

هذه الصفات التي اتصف بها نوحٌ وعصرُه تدفعنا للتفكُّر في أسلوب الخطاب الذي يمكن أن يخاطب به نبيٌّ مثل نوح قومَه، ولعلنا هنا لا نستحيي من أن نستقي الحكمة في الخطاب من أحدِ أضعفِ خلق الله وهو هدهد سليمان؛ لنفهم لماذا قال نوح: "وقد خلقكم أطوارا". فحينما أبدى الهدهد استغرابه من شرك أهل سبأ قال:

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ " 25 النمل".

ففي مفهوم الهدهد، إنَّ من أعظم آيات الله هي قدرته على إخراج الحبوب المختبئة في السماء أو الأرض لطعامه. إذن فقدرة الله يراها كلُّ مخلوق من زاوية حوجائه وعلمه المحدود. وإذا تتبعنا خطاب الرسل لأقوامهم نجد أنَّ السياق ذاته يتكرر، وهو مخاطبة القوم بما يعلمون أنَّه آية من آيات الله. فالله - جلَّ وعلا- خاطب بني إسرائيل مثلا بـ:

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ "141 الأعراف "

وخاطب نبيُ الله صالحٌ قومَه بذكر الناقة:

﴿ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ ﴾ "64 هود"، وخاطب الله - عز وجل- أصحابَ النبيِّ الخاتم - صلى الله عليه وسلم - بـ:

﴿ ... إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ... ﴿١٠٣﴾ ﴾ " 103آل عمران" ،

وخاطب الله جيلنا بـ:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ "30 الأنبياء" .... إذن فالخطاب يعكس مستوى علم المخاطب، في نفس الوقت الذي يدعوه لتذكر عظمة الله وفضله عليه.

فإذا عدنا إلى خطاب نوح الذي عاش بعد عشرة أجيال فقط من عصر آدم، فإنَّنا نعتقد أنَّ قومَه كانوا بسطاء من حيثُ التطورُ العلمي ، وآيات الله التي يفهمونها محدودة. أيضًا فإنَّهم كانوا قليلي العدد، بدليل أنَّ سفينة واحدة ومن صنع رجل واحد كانت كافية لحمل من اتبعه، مضافًا إليهم زوجان اثنان من كلِّ أصناف المخلوقات التي أمره اللهُ بحملها. هذا يدلُّ على مدى صغر عدد البشر في زمانه، وبالتالي يؤكِّدُ قرب عصره من عصر آدم وبداية الإنسان العاقل. هنا نطرح السؤال: لماذا خاطبهم نوحٌ في سياق دعوته ذلك الخطاب مذكرًا إياهم بأنَّ الله خلقهم أطوارا؟ هل يكون ذلك الخطاب دليلًا على أنَّ قوم نوح كانوا على علم بأصلهم بوصفهم بشرًا، وأنَّ المراحل التي مرَّ بها الإنسان في رحلته من الدهر القاسي إلى الزمن المحدود ممَّا تتوارثه الأجيال مازالت عالقة بأذهانهم من غير حاجته لكشوف داروين وغيره؟!

كلمة "أطوارا" تحتمل أوجهًا كثيرة، أشهرها في زماننا هي فكرة تطور الجنين من حيوان منوي وبويضة إلى خلية ثمَّ ملايين الخلايا في الإنسان الكامل. و لكنْ ممَّا لا شكَّ فيه هو أنَّ قوم نوح لم يكونوا على علم بهذه الحقائق المجهرية المعملية الدقيقة؛ ولذلك ما كانت الآية لتكون ذات مغزى لهم، إنْ كان هذا هو تفسيرها الوحيد . أغلب الظنِّ

أنَّ الأطوار التي كانوا يعرفونها ويمكن أن تكون حُجَّة عليهم في نظر نوح، هي شكلٌ أوسعُ من الأطوار. فهل كان نوح يشير إلى تطور الإنسان من حيوان أدنى مشى منحنيًا كما تمشي القردة ، ثمَّ اعتدل في مشيته، ثمَّ توسعت جمجته، ثمَّ كبر عقله ، ثمَّ كُلّف بالخلافة؛ فامتلك سلطانًا على قسوة الدهر بفضل الله وأصبح خليفته في الأرض؟ إنْ لم يكن الأمر كذلك، فما الأطوار التي كان قوم نوح على علم بها ولكنهم لم يقدروها قدرها ؟

ومضى نوحٌ مخاطبًا قومه بآية أخرى من آيات التطور وأصل الخلق الغامض:

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ ﴾ "17-18 نوح".

الفهم المتعارف عليه أنَّ "أنبتكم" هنا تعبير مجازي لتقريب المعنى، وهو أنَّنا خُلقنا من طين الأرض، ولكنَّ المجاز لا يُؤكد بمجازٍ آخرَ في اللغة. التكرار في: {أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا} لا يفيد إلا التأكيد على أنَّ الإنسان - أصلا- خرج من الأرض أول مرة تمامًا كما تنبت النباتات. فهل يشيرُ هذا التأكيد إلى الحقيقة العلمية أنَّ كلَّ المخلوقات - أصلا- بدأت كنباتات، ثمَّ تطورت إلى مخلوقات مختلفة ؟ الافتراض أنَّ معنى "الإنبات" - هنا - ليس إلا معنًى مجازيًا، يحتاجُ أولًا إلى دليل نقليٍّ ثابت عن الرسول - صلى الله عليه وسلم-، أو نصٍّ آخرَ من القرآن يفيد أنَّ المعنى هنا مجازيٌّ وليس المقصود أنَّ أصل الإنسان والحيوان والنبات واحد. ولكنَّنا لم نجد في بحثنا في القرآن إلا ما يؤكد هذا الفهم من وجوه عديدة جدًّا، و ليس هناك ما يعارضه إلا التأويلات الإسرائيلية التي سنتعرض لها كثيرًا في هذا البحث.

إنَّ هذه الآية وحدَها تكفي لتأكيد مصداقية نظرية داروين. من المنطقي جدًّا أنَّ التأويل المجازي يُفترض حينما يكون المعنى الظاهري للآية غامضًا وغريبًا. لو قيل للعرب - مثلا- قبل ألف عام إنَّ كتلة الشمس تساوي أكثر من ثلاثمائة ألف مرة من كتلة الأرض؛ لفهم الناسُ أنَّ المقصود - مثلا- أنَّ حرارة الشمس تكفي لتدفئة هذا الكمِّ الهائلِ من الكواكب في حجم الأرض، ولكنَّه ما كان لهم أنْ يستوعبوا أنَّ الشمس التي تبدو في حجم قبضة اليد الواحدة تساوي هذا الحجم الهائل. هذا الفهم المجازي يكون مقبولًا إلى أنْ يثبت علميًّا أنَّ كتلة الشمس - حقيقة- تساوي أكثر من 333000 كتلة الأرض، وحينها يبطل الفهمُ المجازي . إذا نظرنا إلى آية نوح - أعلاه - بذات المنظور؛ فإنَّنا نقبل أنَّ التأويل المجازي لمفهوم: {أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا} لم يكن ليعني للمفسرين في عصر السلف أيَّ شيء غير المعنى المجازي، وهو أنَّنا نأكل ممَّا يخرج من الأرض ونموت وندفن في الأرض.

هذا الفهمُ المجازيُّ كان مقبولًا فقط إلى أنْ اكتشف علماءُ الطبيعة أنَّ الإنسان نبت من الأرض نباتًا بالمعنى الحقيقي وليس المجازي، وحينها يسقط التأويل المجازي ويصبح لزامًا على علماء المسلمين أنْ يعيدوا فهمَهم لنصوص القرآن وَفْقًا لِمَا اكتشفه الإنسان من أسرار الخلق اليوم، وليس وَفقًا لِمَا جهله السلفُ الصالحُ في ذات المجال. رفضُ الحقيقةِ العلمية الحديثة التي تنطبق مع النصِّ القرآنيِّ البسيط لن يكون إلا حماقة وهجرًا لكتاب الله الذي يدعونا للبحث والعلم ويحذرنا من الجهل. ما يجب على العلماء في هذا المجال بعد أن ثبت علميًّا أنَّ الإنسان نبت من الأرض نباتًا، هو محاولة إعادةِ فهم قصة آدم وموقعها من قصة الخلق، وليس التنطع والإصرار على تأويلات مجازية لأممٍ سابقة ما آتاهم الله ما آتانا من علمٍ بأسرار كونه.

ويدهشنا القرآن مرة أخرى وهو يتناول قضية تطور الإنسان(ذلك المجهول) تناولَ الخالقِ الذي يعلم سرَّ الخلق، وليس تناول الباحث الذي يبحث ويفترض فقط، إذ يقول الله - سبحانه و تعالى- في سورة الأنعام:

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ " 133 الأنعام ".

هذه الآية لا تخاطب جيلًا بعينه أو فئة دون فئة، ولكنَّها تحذيرٌ من الخالق لكلِّ الإنسانية، إذ إنَّه خاطب في الآيات السابقة لها معشرَ الإنس والجنِّ. الآية في ظاهرها تحذِّرُ من أنَّ الله قادرٌ على إزالة الإنسانية جمعاء والإتيان بعباد آخرين مكاننا، إنْ نحن تقاعسنا عن حمل مسؤولية الخلافة في الأرض. على أنَّ معانيها العميقة لا يعلمها إلا هو - جلَّ جلاله-، ولكننا نجتهد في فهمها بقدرِ ما أوتينا من عقل وعلمٍ لنصلَ إلى حقيقة مهمة.

من البديهي أنَّ كلَّ أمة خرجت من ذرية آبائها، ولكنْ في خطاب الله - تعالى- للجنس البشري أو "معشر الإنس" - كما في الآية- يكونُ الخطاب موجهًا في نفس اللحظة للأجداد والآباء والأبناء والأحفاد من غير تمييز؛ لأنَّنا كلنا نمثل الإنسانية والجنس البشري على مرِّ العصور، أصلنا واحدٌ و وظيفتنا في الأرض واحدة. فضلًا عن أنَّ الخطابَ في الآية ارتبط بقضية الاستخلاف، وهي وظيفةُ كلِّ فرد من الإنس؛ لأنَّ آدم جعل خليفة في الأرض يوم وُجد إنسانًا كاملًا وعاقلًا ، وهكذا انحدرت سلالته يحملون ذات التكليف بالاستخلاف إلى آخر الزمن. فكأنَّ الله يقول لبني آدم جميعًا: إذا فشلتم في تحمل مسؤولية الخلافة التي من أجلها وجدتم، فالله قادرٌ أنْ يذهبكم ثمَّ يأتيَ بخلفاء جدد، بالطريقة نفسِها التي "أنشأكم" بها يوم استخلف آدم من ذرية قوم آخرين.

"أنشأ" في اللغة تختلف عن "خَلقَ "، فالخلق هو تقدير الوجود من عدم، أمَّا الإنشاء فهو رفعُ الشيء المنخفض إلى أعلى، و"إنشاء المباني" يعني: رفعها عن سطح الأرض، "ونشأ الفتى" يعني: نما عظمه وطال وارتفعت قامته. فكيف - إذنْ - أنشأنا الله - جلَّ وعلا- من ذرية قوم آخرين؟

هل كان أسلافُنا يمشون منحنين فعدل الله أجساد بعضهم وأذهب الباقين، ثمَّ أنشأنا من ذريتهم قبل أنْ يكلف آدم بالخلافة ؟!

نحن لا ندَّعي هنا تفسيرَ آيات الله بمعنًى محددٍ، ولكنَّنا نتعبد إلى الله - جلَّ وعلا- بالتدبُّرِ في آيات قرآنية ذات معانٍ أعمقَ ممَّا فهمها الأولون؛ لأنَّ بين أيدينا من العلم بآيات الله الكونية ما يدفعنا للتفكر في خلق السماوات والأرض، والتبصر في أنفسنا وخلق الإنسان أكثر ممَّا أتيح لأسلافنا.

فإذا كان هناك احتمالٌ أنَّ الله - جلَّ وعلا- قد أنشأ آدم من ذرية قوم آخرين قبل أنْ تسجدَ له الملائكة ويُستخلف في الأرض، فإنَّ آدم بهذا المعنى كان امتدادًا لنطفة وأمشاجٍ من آباء سبقوه، ممَّا يجعل علاقة آدم بالطين جديرة ببحوث جديد؛ حتى يتم التوفيق بين الوصفين، وهذا ما سنتطرق إليه في باب "قصة الخلق".

في عصر نزول القرآن كان المجتمعُ الإنسانيُّ بسيطًا جدا، و لذا فإنَّ كمًا كبيرًا من آيات القرآن التي تصف الكون لم تكن ذاتَ مدلولٍ واضح للناس، ولكنْ مع اتساع دائرة المعرفة أصبحت كلُّ حروف القرآن ذاتَ مدلولاتٍ علميةٍ خطيرة. هذه الحقيقة تدفعنا للتأمل في هذه الآيات:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ " 65 البقرة ".

﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ

وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ ﴾ " 60 المائدة ".

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ "166 الأعراف".

في قصة هؤلاء أورد القرطبيُّ والطبريُّ والبغويُّ أحاديثَ تشير إلى أنَّ الله مسخ فئةً من بني إسرائيلَ حقيقةً إلى هذه المخلوقات؛ عقابًا لهم على صيدهم الحيتان يوم السبت، فجعل الشبابَ قردةً والشيوخَ خنازير ثمَّ هلكوا جميعًا بعد ثلاثة أيام. لا شكَّ أنَّ الله الذي حوَّل عصا موسى إلى حية تسعى يمكنه أنْ يفعل ما يشاء، ولكنَّ في مَسخهم قردةً وخنازير سرًّا يثيرُ الدهشة مع الاكتشافات العلمية الحديثة. فالخِنزير هو الحَيَوانُ الوحيدُ الذي أثبت العلم - إلى الآن - أنَّ حمضَه النووي أقربُ إلى الإنسان، وأنَّه يمكن أن تُنقل أعضاؤه إلى جسم الإنسان، ولكنْ لمَّا يُجرِ الأطباءُ تَجْرِبة كهذه بعدُ لأسباب خُلقية. أمَّا القرد فهو أقربُ الحيوانات إلى الإنسان في شكله وروحه وتعابيره وهيئته، وبطبيعة الحال فالقردُ هو المخلوقُ الذي افترضت المدرسة الداروينية أنَّه يمثل أصل الإنسان في سلم التطور. ما يثيرُ التساؤل المشروع هنا هو: لماذا كان المَسْخُ إلى هذين المخلوقين وليس إلى غيرهما، علمًا بأنَّ معظم أهل الأرض غيرِ المسلمين يستسيغون أكلَ لحم الخِنزير، وأنَّ كلَّ أهل الأرض يجدون في القرد حَيَوانًا لطيفًا مرحًا، ولا يُستعمل أيٌّ منهما في الذم كما يصف الناسُ بعضَهم بعضًا بـ " الكلب" من باب التحقير مثلاً. أ يكون هذا الاختيار فيه إشارة إلى أنَّه نوعٌ من التنكيس في سُلَّم التطور، وفيه إشارة إلى العَلاقة القريبة في هذين المخلوقين بخلق الإنسان في مراحل تطوره الدنيا ؟ هذا ما سندرسه حينما نبحث في أصول الخلق في باب "آذان الأنعام".

ابن خلدون والتطور:

لعلَّ من الحكمة هنا أنْ ننقل رأي الإمام ابن خلدون في مسألة خلق الكون و تطوره من غير تعليق، تلك الفكرة التي يُقال إنَّ داروين كان قد اطلع عليها قبل أنْ يبدأ بحوثه التي انتهت بنظريته المشهورة. تحت عنوان (تفسير حقيقة النبوة) أورد ابن خلدون فى "المقدمة" ما يأتي :

{ولنذكر الآن حقيقة النبوة على ما شرحه كثيرٌ من المحققين، ثم نذكر حقيقة الكهانة، ثم الرؤيا ثم شأن العرافين، وغير ذلك من مدارك الغيب، فنقول:

اعْلَمْ – أرشَدَنا الله وَإيَّاكَ- أنَّا نُشاهدُ هذا العالمَ بما فيه من المخلوقات كلِّها على هيئة من الترتيب والإحكام، وربط الأسباب بالمسببات، واتصال الأكْوانِ بالأكْوان، وَاسْتِحالَةِ بَعضِ الموجودات إلى بعض، لا تنقضي عجائبه في ذلك ولا تنتهي غاياته. وأبدأُ من ذلك بالعالم المحسوس الجثماني. **وأولا:** عالم العناصر المشاهَدَة كيف تَدَرَّجَ صاعدًا من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلا بعضها ببعض. و كُلُّ واحدٍ منها مستعدٌ إلى أن يَسْتَحيلَ إلى ما يليه

صاعدًا أو هابطًا، ويَسْتَحيل بعض الأوقات. والصاعدُ منها ألطفُ مِمَّا قبله إلى أن يَنْتَهِيَ إلى عالَمِ الأفلاكِ، وهو أَلْطَفُ من الكلِّ على طبقاتٍ اتَّصل بعضُها ببعضٍ على هيئةٍ لا يدرِكُ الحسُّ منها إلاَّ الحَرَكَاتِ فَقَط، وبها يهتدي بعضُهُم إلى معرفة مقاديرها وأوضاعها، وما بعد ذلك وجود الذوات التي لها هذه الآثارُ فيها. ثم انْظُرْ إلى عالمِ التَّكْوينِ كَيفَ ابْتَدأَ مِنَ المعادنِ ثم النباتِ ثم الحَيَوان على هيئَةٍ بَديعةٍ من التدريج. آخرُ أفُقِ المَعَادنِ مُتَّصلٌ بأوَّلِ أُفُقِ النباتِ مثلِ الحَشائِشِ، وما لا بَذرَ له، وآخِرُ أُفق النَّباتِ مِثْلِ النَّخْلِ وَ الكَرْمِ مُتَّصِلٌ بأَوَّلِ أُفُقِ الحَيَوان مثل الحلزونِ والصَّدَفِ، وَلَمْ يوجَدْ لَهُما إلا قُوَّةُ اللَّمس فَقَط. وَمَعْنى الاتِّصالِ في هذه المُكَوِّناتِ أَنَّ آخِرَ أُفُقٍ مِنْها مُسْتَعِدٌّ بالاسْتِعْدادِ الغَريبِ لأنْ يَصيرَ أَوَّلَ أُفُقِ الذي بَعْدَه. واتَّسَعَ عالمُ الحَيَوانِ وتَعَدَّدَتْ أنْواعُهُ، وانْتَهى في تَدريجِ التَّكْوينِ إلى الإنسانِ صاحِبِ الفِكْرِ والرَّوِيَّة، تَرْتَفِعُ إليه من عالَمِ القُدْرةِ الذي اجْتَمَعَ فيه الحسُّ والإدْراكُ، ولم يَنْتَهِ إلى الرَّوِيَّة والفِكْر بالفعلِ، و كانَ ذَلكَ أوَّلَ أُفُقٍ من الإنسانِ بَعْدَه. وهَذا غَايَةُ شُهودِنا.}.

(مقدمة ابن خلدون، ص 105، تقديم وتحقيق : إيهاب محمد إبراهيم – مكتبة القرآن للطبع والتوزيع).

ابن عربي والقرد:

أمَّا محيي الدين بن عربي فقد كان أولَ مَن صرح بأنّ القرد هو آخر الحيوان وأول الإنسان في كتابه (عقلة المستوفز). مهما قيل عنه فإنَّه مفكرٌ إسلامي، ونظريته تلك كانت نتاجَ تدبُّر مسلم في أسرار الخلق والقرآن قبل أكثر من ثمانية قرون من داروين. وتقول بعض المصادر الغربية :إنَّ داروين نفسَه كان قد اطلع على هذه الترجمات وسرق منها فكرةَ أنَّ القرد أصلُ الإنسان، ونسبها لنفسه لينال بها شهرته العالمية.

من عقلة المستوفز في باب(النكاح والتوالد) الذي يلي باب الاستحالات، و الذي يلي باب خلق الدنيا. ذكر ابن عربي:

(...ثم إنَّ الله - تعالى- خلق الدوابَّ التي تعمر البحر الذي بين السماء والأرض، ثمَّ جبال البرد والثلج الذي دون البحر ممَّا يلي الأرض بقوله - تعالى-:﴿ ......وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ " 43 النور". وكوَّن فيها حيات بيضاء صغار، و قد يصل إلى هذه الجبال بعض الطيور، وربَّما تصيد من هذه الحيات الشودنيقات، الفره البَلَنْسية، و رأينا من ذلك حيوانًا يُسمَّى "السَّمَنْدَل" وله خاصية عجيبة في ترك نبات الشعر، وما زال التكوين ينزل إلى أن وصل إلى الأرض. فأولُ تكوين في الأرض المعادنُ، ثمَّ النبات، ثمَّ الحَيَوان، ثمَّ الإنسان. وجعل آخرَ كلِّ صنف من هذه المكونات أولًا للذي يليها، فكان آخر المعادن وأول النبات الكمأة، و آخر النبات وأول الحيوان النخلة، وآخر الحيوان وأول الإنسان القرد.

فلنذكرْ نشأة الإنسان خاصة الذي هو المقصود في هذا الباب، ولنضربْ عن ذكر ما سواه إذ لا حاجة لنا بذكره في هذا الموضع.
{ والله يقول الحق وهو يهدى السبيل}.) صفحة 124.

التطور عند علماء الديانات الأخرى:

من المعلوم أنَّ كلمة "تطور" التي انفرد بها القرآنُ على مدى قرون طويلة، لم تجد من يحاولُ فهمَها في زمانٍ كان من الصعب على الإنسان استيعابُها، فلمَّا تطور العلم لدرجة أنَّ مفهوم التطور أصبح قضيةً مهمةً في البحث العلمي، انفرد بها الملحدون ووقف أهلُ الديانات في الغرب موقفًا متصلبًا منها وتبعهم في ذلك المسلمون، رغم أنَّ المسلمين يمرُّون على آيات التطور في القرآن صباحَ مساءَ. ولعلَّ من الأدب هنا أنْ نذكر أنَّ علماء السلف لم يُقحِموا أنفسَهم في أية قضيةٍ تحتاج إلى علم تطبيقي لفهمها إلا بقدرِ ما أُتيح لهم من علم؛ ولذلك ليس بأيدينا إلا أنْ نَبِرَهم ونشهدَ أمام الله والملائكة والناس أجمعين أنَّهم ما عبثوا بالقرآن، ولا أقحموا عدم علمهم فيه، ولا حرَّفوه كما حرّف اليهودُ كتب أنبيائهم و رسالاتهم، حتى وصلنا مُعجِزًا في قضية التطور وقضية الخلق كإعجازه في مسألة خلق الكون، وغيرها من القضايا التي تجعل من القرآن كتابًا يتحدى العقلَ في كلِّ العصور ولا تنتهي معجزاتُه. وعليه، فسنطرح في الباب التالي "**قصة الخلق**" عند أهل الديانات بديلًا لقضية التطور، إذ إنَّ علماءَ الديانات - على اختلافهم - لم يتفقوا في أيِّ دين على مفهوم محدد للتطور يُؤخذ للمقارنة، ولكنْ وُجدت اجتهاداتٌ فردية هنا وهناك لا تمثل رأيًا واحدًا متفقًا عليه في أيِّ ديانة.

البـــــاب الثـانـــي

قــصــة الخَــلْق

في هذا الباب سنناقشُ مفهومَ خلق الإنسان من طين، ونتطرق بشيءٍ من التفصيل للعَلاقة الأزلية بين مكونات الطين واستمرارية الحياة في الإنسان والحَيَوان والنبات. لكنَّنا سنناقشُ بداياتِ خلق كلِّ الأحياء من ماء في باب "آذان الأنعام" - إن شاء الله-.

إنَّ فكرة خلق الإنسان - كما أسلفنا - من عدم في شخص "آدم"بوصفه أولَ إنسان هي المفهومُ الوحيدُ السائدُ لدى أهل الديانات السماوية عمومًا. وفي الإسلام، فإنَّ وصف خلق الإنسان قد ورد في كثيرٍ من الآيات القرآنية التفصيلية غامضة المعنى، التي توحي باختلاف كبير عن فهم اليهود والنصارى لقضية خلق آدم .إلّا أنَّنا نجدُ أنَّ معظمَ الأحاديث التي وصفت تفاصيل خلق آدم أقربُ إلى الإسرائيليات منها إلى الصحيح الموثَّق عن رسول الله، ممَّا يوحي بأنَّه رغم الفوارق الأساسية بين التوراة والقرآن إلا أنَّ القرآن في هذا المجال قد تمَّ تأويله بإيحاءٍ من الإسرائيليات ونُسبَ إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم- .

اشتملت الرواياتُ المتداولة عند علماء الدين على أوصاف مختلفة لخلق آدم من طين في شكل تمثالٍ بُني ثمَّ نفخت فيه الروح، وجوانب أخرى تصف سكنَه وزوجَه في الجنة إلى حين هبوطه منها. والمتفحص لهذه القصص لا يخفى عليه مقدارُ الخيال الإنساني في معظم الروايات، الشيء الذي يُبرز القصة بصورة تشعر بأنَّ الخالق كأنَّه إنسانٌ محدود القدرات، وأنَّ خلقه للبشر لا يمكن أن يتمَّ إلا بالطريقة الوحيدة التي يمكن أن يتخيلها الإنسان، وهي عجنه من طين وبناؤه في شكل تمثال، ثم نَفخُ الروح في أنفه أو فمه، ممَّا يوحي بأنَّ معظمَها إسرائيلياتٌ تشبه وصْفَ اليهود لخلق السماوات والأرض في ستة أيام واستراحة الربِّ في اليوم السابع .

وحتى لا ينفذ الشيطان إلى قلوبنا بسهامه، فلا بُدَّ أن نذكر بأنَّ عقيدة المسلمين هي: أنَّ الله - جلَّ وعلا- إنَّما يخلق ما يشاء بفعل "كُنْ" الذي لا رادَّ له. فمشيئته المطلقة هي التي قدرت خلق آدم من طين في شكل تمثال إنْ كانت هذه هي الرواية الصحيحة، أو خلقه في أطوار انتهت بشكل البشر المعروف إنْ صحت الرواية الأخرى التي يظنُّها علماءُ الطبيعة. الخلق يتم بفعل "كن" وما نقوم به هنا هو تمحيصُ الروايات المختلفة التي وصفت كيفية الخلق، ومحاولة ربطها بما وصفه القرآن من ناحية، وما ادَّعاه علماءُ الطبيعة من ناحية أخرى. وهذا الكتاب بحثٌ لمحاولة فهم الكيفية التي تم بها الخلقُ حَسْب وصف القرآن، وليس محاولة لقصر قدرات الله - جلَّ وعلا- على شكلٍ دون غيره من طرق الخلق. وهو أيضًا بحثٌ لتبرئة الخالق ممَّا نُسب إليه من قصورٍ في فهم الآيات، التي وصفت تفاصيل بيولوجية ما كان للمفسرين أن يفهموها من غير إدراكٍ عميق بتفاصيل الإنسان كما وصل إليه علمنا في هذا الزمن. إذنْ فإنَّنا لسنا بصدد إثبات صحة آراء علماء الطبيعة، وإنَّما بصدد فهم أسرارِ آيات كثيرة في القرآن؛ لأنَّنا نؤمن أنَّ الله - تعالى- ما أوحى إلى رسوله حرفًا في القرآن من غير معنى .

وحتى نكون موضوعيين في بحثنا هذا فسننقل ما اشتهر من تفاصيل قصة الخلق من التوراة المتعامل بها بين اليهود والنصارى اليوم، ثمَّ نعرج إلى المتداول من أحاديثَ في نفس الموضوع قبل أنْ نبحث في وصف الخلق في القرآن، إذ إنَّ قضيةَ خلق الإنسان قضيةٌ تهمُّ البشرية جمعاء بكلِّ دياناتها وليس أتباع ديانة معينة.

الـخلق في التـوراة:

وصفت التوراةُ المتداولة اليومَ خلقَ آدم كما يأتي :

{ثم جبل الإلهُ آدمَ من تراب الأرض ونفخ في أنفه نسمةَ حياة، فصار آدمُ نفسًا حية. وأقام الربُّ الإله جنة في شرقي عدن ووضع فيها آدمَ الذي جبله}" سفر التكوين 2:8-9". وتمضي التوراة تصف خلق المرأة: {ثمَّ قال الربُّ الإله:" ليس مستحسنًا أنْ يبقى آدمُ وحيدًا. سأصنع له معينا نظيره" وكان الربُّ الإلهُ قد جبل من التراب كلَّ وحوش البرية وطيور الفضاء وأحضرها إلى آدم ليرى بأي أسماء يدعوها، فصار كلُّ اسم أطلقه آدم على كلِّ مخلوقٍ حيٍّ اسمًا له. وهكذا أطلق آدمُ أسماء على كلِّ الطيور والحيوانات والبهائم. غير أنَّه لم يجد لنفسه معينًا نظيره. فأوقع الربُّ الإلهُ آدمَ في نوم عميق، ثمَّ تناول ضلعًا من أضلاعه وسدَّ مكانها باللحم، وعمل من هذه الضلع امرأة أحضرها إلى آدم، فقال آدم: "هذه الآنَ عظمٌ من عظامي، ولحم من لحمي، فهي تدعى امرأة؛ لأنَّها من امرئ أُخذت} "سفر التكوين 2:19-24" .

وصف الخلق في الحديث:

علماء المسلمين لم يكن لديهم الكثيرُ في فهم قضية الخلق غير أحاديث بعضها صحيح ومختصر، ولكن يُنسب أغلبُها إلى الإسرائيليات لتعود وتردِّدَ الوصفَ التوراتي نفسَه بلغة مختلفة. فنقلًا من (البداية والنهاية) لابن كثير نجدُ رواياتٍ كثيرةً منها:

1.عن أبي موسى عن النبيِّ - صلى الله عليه وسلم- قال:" إنَّ الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك". (رواه أبو داود في سننه عن أبي موسى الأشعري برقم 4693 و سكت عنه، و الترمذي في سننه من نفس الطريق برقم 2955 وقال: هو حديث حسن صحيح، و صححه الألباني في سلسلته.).

2.عن ناس من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قالوا: {فبعث الله -عز وجل- جبريلَ في الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشينني، فرجع ولم يأخذ وقال: ربِّ إنها عاذت بك فأعذتها، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها، فرجع فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت فعاذت منه، فقال : وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض وخلطه ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربةٍ بيضاءَ وحمراءَ وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به فبلَّ الترابَ حتى عاد طينًا لازبا}.

هذا الحديث غير واضح في سنده و غريب في مضمونه، إذ كيف ينصاع جبريلُ الروحُ الأمينُ ومن بعده ميكائيل لاستعاذة الأرض فيعصيان الله ولا ينصاع لأمر الله إلا ملك الموت؟

3. خلقه بشرًا فكان جسدًا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجُمُعة، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لمَّا رأوه وكان أشدهم منه فزعًا إبليس، فكان يمرُّ به ويضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة، فذلك حين يقول "من صلصال كالفخار"، ويقول لأمر ما خلقت، ودخل من فيه، وخرج من دبره، وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإنَّ ربَّكم صمد، وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه، فلما بلغ الحين الذي يريد الله - عز وجل - أنْ ينفخ فيه الروح قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس، فقالت الملائكة: قل الحمد لله، فقال: الحمد لله. فقال له الله : رحمك ربك، فلمَّا دخلت الروحُ في عينيه نظر إلى ثمار الجنَّة، فلمَّا دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، وذلك حين يقول الله -

تعالى-: "خلق الإنسان على عجل". وذكر تمام القصة. ولبعض هذا السياق كثير من الأحاديث وإنْ كان كثير منه متلقى من الإسرائيليات . " البداية والنهاية ، الجزء الأول، ص 86 ".

هذا الوصف فيه إفراط في التجسيد الذي يشابه خيال البشر أكثر ممَّا يشابه سنن الله في الخلق.

4. أمَّا سكن الجنة ففيه أيضًا خلافات، فمنهم من يقول: إنَّها جنة المأوى بالسماء وحاولوا أن يجدوا تفسيرًا لوجود إبليس مع الملائكة، فقال شهر بن حوشب: "إبليس كان من الجن فلمَّا أفسدوا في الأرض بعث الله إليهم جندًا من الملائكة فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار وكان إبليس ممن أسر، فأخذوه معهم إلى السماء فكان هناك، ولمَّا أمرت الملائكة بالسجود امتنع إبليس منه." "البداية والنهاية،الجزء الأول، ص 73".

5. وهناك من يقولون: إنَّ آدم كان في الأرض وإنَّ الجنة في الأرض، والهبوط ليس من السماء كما ورد في البداية والنهاية، الجزء الأول ص 76-77: الهبوط لا يدلُّ على النزول من السماء، قال - جلَّ وعلا - :

﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ..... ﴿٤٨﴾ ﴾ "48 هود" .

وقال - تعالى- :﴿ ... ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ.. ﴾"1 6 البقرة" وفي الأحاديث واللغة من هذا

كثير. قالوا: إنَّ الجنة التي أسكنها آدم كانت مرتفعة من بقاع الأرض ذات أشجار وثمار وظلال ونعيم وسرور ... فلمَّا كان منه ما كان من أكله من الشجرة التي نُهي عنها أُهبط إلى أرض الشقاء والكدر والسعي ... ولا يلزم من هذا أنَّهم كانوا في السماء {البداية والنهاية}.

من هنا ندرجُ ملحوظاتٍ مهمةً جدًّا في قضية خلق الإنسان التي تمثل محورًا مهمًا في تفكير الفلاسفة بل وهاجسًا لعلماء الطبيعة، أنَّ الرسول - صلى الله عليه وسلم- لم يتحدث عنها كثيرًا، ولم يُنسب إليه من الأحاديث الصحيحة إلا القليلُ العام الذي لم يشرح الآيات الكثيرة جدًّا التي وصفت خلق الإنسان وتطوره من جوانبَ مختلفة. ونحن نظنُّ أنَّ أصحَّ ما ورد من حديث في قصة خلق آدم هو الحديثُ الذي أخرجه مسلم في صحيحه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : "خُلقت الملائكةُ من نور، وخُلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وصف لكم."(أخرجه مسلم في صحيحه – كتاب الزهد و الرقائق – باب في أحاديث متفرقة ص 2294)

فلعلَّ الله - تعالى- ترك قضية الخلق لآياته الكونية تكشفها للإنسان حينما يتطور عقله، ويصل علمُه بالكون لمستوى يمكنه من استيعابها واستيعاب ما ورد في القرآن من شأنها، من غير أنْ يتطرقَ النبيُّ لتفسيرها في زمانٍ ما كان الإنسان قادرًا على فهم تفاصيل الخلق وإنْ شُرحت له.

قـصة الخـلق والسياســة:

قبل أن ندخل في قصة الخلق المثيرة هذه لا بُدَّ لنا أنْ نفهم كلَّ أبعادها على تفكير البشر وتطور الإنسانية، إذ إنَّ مسألة خلق الإنسان قد أدَّت دورًا خطيرًا في تشكيل العالم إلى مدارسَ فكريةٍ متباينة، وبالتالي نتج عنها تكتلاتٌ فكريةٌ هي التي تحدِّدُ تشكيل العالم سياسيًّا اليوم. فاليهود والنصارى اختلفوا أول ما اختلفوا على حقيقة خلق المسيح من غير أب، ممَّا أدى إلى ظهور المجتمع المسيحي الذي آمن بأنَّ عيسى هو المسيح، وتمَّ رفعُه إلى مرتبة الأُلوهية بناءً على معجزاته وغموض خلقه من غير أب، بينما استمرت الديانةُ اليهوديةُ كما كانت عليه قبل المسيح بعد أن رفض علماءُ

بني إسرائيل قَبولَ مسوغاتِ مريمَ - عليها السلام - لحقيقة ابنها الذي لا أب له، وقالوا عليها بهتانًا عظيمًا. ثمَّ جاء الإسلام متفقًا مع اليهود والنصارى في معظم قصص الأنبياء والمرسلين، ولكنّ خلافَه الأساسيَّ كان في حقيقة خلق المسيح، إذ إنَّ الإسلامَ أكَّد أنَّ عيسى هو المسيح ولكنَّه نفى عنه الربوبية، ممَّا حال دون اعتناق الكثير من المسيحيين للإسلام وبقائهم كمجتمع له دين يميزه عن اليهودية والإسلام. وهكذا برز الإسلام كمدرسة فكرية أو فلسفية ثالثة موازية للمسيحية واليهودية، وكلٌّ له رأيٌ مميزٌ فيما يخص حقيقة خلق المسيح. من ناحية أخرى نجد أنَّ هذه المدارسَ الثلاثَ تتفقُ على أنَّ آدم هو أبو البشر الأول، ولكنَّها تختلف في حقيقة خلق المسيح، والثلاثة معا يشكلون أكبر تجمعات عَقَدِيّة في العالم اليوم. إذنْ فمسألة خلق آدم وخلق المسيح ليست مسألة جانبية من ضروب الترف الفكري، ولكنّها تمثل جوهر الخلافات العَقَدِيّة التي شكَّلت المجتمعات التي تؤدي دورًا فاعلًا في كلِّ ما يجري في العالم اليومَ من خلافاتٍ سياسيةٍ وحروبٍ وغيرها.

و ممَّا لا شك فيه أنَّه لا اختلاف حول حقيقة أنَّ عيسى بن مريم بوصفه إنسانًا، قد ولد في بيت لحم في فلسطين، وعاش إلى أنْ رُفع وترك آثارًا كثيرة على الأرض وعلى صفحات التاريخ، تجعلُ إنكارَ وجوده أمرًا غيرَ مقبول. و لكنْ رغم ذلك نجد أنَّ اليهود والنصارى والمسلمين قد اختلفوا اختلافاتٍ جذريةً حول كيفية خلقه وطبيعة رسالته. بينما نجدُ أنَّ "آدم وحواء" ليسا إلا شخصين أبرزتهما الدياناتُ السماوية على اختلافاتها، إذ لا يوجدُ دليلٌ ماديٌّ أو أثرٌ تاريخيٌّ على حقيقة وجودِهما يومًا ما على الأرض، ولا يدري أحدٌ أين ومتى وُجدا، فضلًا عن أنَّ وجودَهما لم يترك أيَّ تأثير مباشر على مسار الإنسانية يمكن أنْ ننسبه لآدم مباشرة كما تُنسب المسيحيةُ للمسيح، ممَّا يجعل قصة "آدم وحواء" ضربًا من ضروب الغيب، يؤمنُ بها الناسُ بقدر إيمانهم بالمصدر الذي يرويها. ولكنْ رغم ذلك نجد أنَّ هناك اتفاقًا شبهَ كامل - ولكنه جدُّ مريب- على تفاصيل خلق آدم من تراب بلا أب أو أم، وخلْق حواء من ضلعه وسكنهم الجنة، وأكلهم من شجرة الخلد، والهبوط من الجنة، وكأنَّ مصدر هذه القصة واحدٌ من غير القصص التي اشتملت عليها كتبُ اليهود والنصارى والمسلمين. هذا الاتفاق حول خلق آدم من غير أبٍ أو أم - وهو من الغيبيات التي لا توجد إلا في كتب الديانات، في الوقت الذي يختلف فيه الناس حول خلق المسيح الذي وُجد في عالم الشهادة وله مصادرُ تاريخيةٌ تؤكده من خارج الكتب السماوية - يثيرُ ريبة تستحق وقوفًا طويلا ،إذ إنَّ الأمر أقربُ إلى أنْ يَمَسَّ عقيدةَ المسلمين وهم لا يدرون.

إذا نظرنا إلى مصادر النصارى فيما يخصُّ خلق آدم، فسنجدُ أنَّ مصدرَهم الوحيد هو توراةُ اليهود اليوم، وعلى ذلك فالرأيان، اليهودي والنصراني، في قضية خلق آدم ليسا متفقين فحَسْب، وإنّما يستقيان أدلتهما من مصدر واحد هو التوراة المتداولة اليوم. وإذا نظرنا إلى مصادر المسلمين في أصل القصة فسنجدُ غموضًا شديدًا تتميز به الآياتُ القرآنيةُ التي وصفت خلق آدم، بينما تُنسب معظمُ الأحاديث فيه إلى الإسرائيليات، وهذا يؤدي إلى نتيجة واحدة، وهي أنَّ القصة المتداولة اليومَ عن خلق آدم وحواء مصدرُها واحدٌ هو تأويلاتُ اليهود لكتبهم، والتي انتقلت منهم إلى المسلمين الذين جاوروهم؛ فأصبحت من المتفق عليه من القصص رغم التباين الواضح في عقائد الديانات الثلاث. من هنا نستطيع أنْ نفسِّر لماذا يصف المسلمون "تفاحة آدم" في مقدمة العنق، ويرددون من غير وعي أنَّ حواءَ هي التي أخرجتنا من الجنة، رغم أنَّ القرآن - أصلا- ما ذكر اسم حواء، بل ولم يذكر حتى لفظ "المرأة" في وصفه لخلق آدم وقصة شجرة الخلد. إذنْ يتضح لنا أنَّ قصةَ آدم وحواء المتداولة اليوم توراتيةُ الأصل، وقد انتقلت إلى عقول المسلمين من غير أنْ يشعروا، لا لشيء إلا لأنَّ السنة لم تشرح تفاصيلَ القصة الغامضة في القرآن، ولأنَّ غموض القصة لم يتح

الفرصة لعلماء المسلمين أنْ ينتبهوا لخطورة انتقال الإسرائيليات إلى ديننا في قضيةٍ من أهم القضايا الفكرية والفلسفية التي شغلت رأيَ الجنس البشري على مرِّ العصور.

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الاتفاق بين الدياناتِ الثلاثِ ظاهرةٌ حسنة، ولكنَّ الاتفاقَ على باطل يكون أكثرَ خطورة على عقيدة المسلمين، وفيه تقصير لا يُغتفر من المسلمين الذين اؤتمنوا على نشر علوم القرآن. ممَّا يزيد الأمر خطورة أنَّ الغالبية الساحقة من أهل الكتاب اليومَ قد رفضت فكرة الخلق التقليدية التي لا مصدر لها إلا الإسرائيليات، كما رفضت عقيدة الثالوث بالفطرة من قبل، في حين الحقائق العلمية المذهلة التي فصَّلها القرآن، والتي تتفق مع العلم الحديث ومع المنطق، أصبحت في طيِّ النسيان بعد أنْ استسلم المسلمون طواعية لتأويلات الإسرائيليات.

قصة الخلق في القرآن:

خلق البشر وجعل الإنسان

في أيِّ بحث علمي ومنطقي لا بُدَّ للباحث أنْ يُبرز الحقائقَ المتفقَ عليها أولا؛ ليصنعَ منها خلفية واقعية على ضوئها يبدأ في التفكُّر لاستنباط ما خفي من أسرار. ومن هذا المنطلق العلميِّ لا بد أنْ نتذكر أنَّه قبل أنْ يُخلق آدم كان الله موجودًا، وكانت الملائكةُ موجودة، وكان إبليسُ والجنُّ موجودين، وكانت الأرضُ قد فُتقت عن السماء، وكانت الحياة قد دبَّت في الأرض وقُدِّرت فيها الأقواتُ، وانتظمت فيها كلُّ قوانين الطبيعة التي تجعل حياة الإنسان والحَيَوان والنبات ممكنة.

ولذلك ففي بداية قصة الخلق في القرآن نجدُ أنَّ الله - سبحانه وتعالى- خاطب الملائكة؛ لأنَّ خلقهم قد سبق خلْقَ الإنسان، وبالتالي فإنَّ لهم عِلمًا بما يجري في الكون والأرض سبق خلْق آدم. ونلاحظ أيضًا أنَّ الله - تعالى- قد خاطب الملائكة خطابين مختلفين فيما يخصُّ خلقَ البشر: الخطاب الأول كان بخصوص خلقه، والخطاب الثاني كان بخصوص تنصيبه خليفة لله في الأرض. المتدبِّرُ للخطابين يلاحظ اختلافات ذات أهمية كبيرة في صيغة الخطاب، وفي تعامل الملائكة مع الخبر، فعندما خاطب الله - عز وجل- الملائكةَ بخبر خلق البشر خاطبهم بصيغة المفرد بأنَّه سيخلق بشرًا من طين، كما نلاحظ في الآيات الآتية:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ "71-72 ص" .

نلاحظ هنا أنَّ الملائكة لم يكن لها ردٌ أو تعليقٌ على هذهِ الإرادة الإلهية، فاللهُ هو العزيزُ الحكيمُ و الخلاق العليم الوحيد، وله أنْ يخلُقَ ما يشاء، وما على الملائكة إلا السمعُ والطاعة.

ثمَّ يأتي خطابٌ آخرُ في نفس الأمر وأيضًا بصيغة المفرد، ولكنَّنا نلاحظ أنَّ تجاوب الملائكة مع هذا الخبر اختلف :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً .... وهنا ردَّت عليه الملائكةُ مباشرة متسائلين:

قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ...} "30 البقرة ".

هذه الآية في أول جزءٍ في القرآن وفي بداية سورة البقرة، والعمقُ الفكري لها غير محدود، إذ إنَّ المسلمين في عهد الانحطاط أصبح تعاملهم مع الدين أشبهَ بتعامل المسيحيين، الذين يؤمنون أنَّ الدينَ يُؤخذ من غير عقل وما على المؤمن إلا التسليمُ بأمر الكنيسة التي يُفترض أنَّها تتحدث باسم الربِّ الذي لا يُناقش. هنا يخبرنا الله - تعالى- أنَّه **حتى الملائكة تسأل** فيما إذا أحست بغرابة الأمر الإلهي، ليس استهانةً بحكمة الله ولكنْ لتستزيد علمًا من العليم الخبير. ليس ذلك فحَسْب وإنَّما سياق الآية يدلُّ على أنَّ السؤال الموضوعيَّ لا يثيرُ غضبَ الله، وإنَّما يتكرم الله - جلَّ وعلا- بتوضيح الأمر للسائل. فكيف بنا لا نتساءل ونبحث عن إجابات في حدود الأدب ونحن قد أُعطينا حرية الاختيار {إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}، بل وأُمرنا بعبادة التدبُّر والتفكُّر التي - بطبيعة الحال- تعني طرح أسئلة موضوعية والسعي للوصول إلى إجابات منطقية لها ؟

والآية أيضًا توحي بأمرين يحق لنا أنْ نتساءل عنهما طالما كانت الملائكة تسأل والله يجيب. فالملائكة كما هو معروف في صفاتهم أنَّهم لا يعلمون الغيب ويفعلون ما يؤمرون، ويتحدثون فقط عمَّا هو داخل نطاقهم المعرفي، فكيف عرفوا ما سيفعله هذا الخليفة مستقبلًا في الوقت الذي كان الله يخبرهم بأمر مستقبليٍّ وليس ماضيا **؟!** كيف عرفوا أنَّ هذا الخليفةَ المرتقبَ الذي يتحدث عنه الله سيفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ ولنا أيضًا أنْ نتساءلَ: لماذا لم تستغرب الملائكةُ من **خلق** البشر من طين - كما في الآية الأولى- في حين أنَّها استغربت من **جعله** خليفة؟

من اللغةِ نجد أنَّ كلمة "الخلق" تعني: تقدير الشيء وإيجاده من العدم، أمَّا "الجعل" فهو: تخصيصٌ وظيفيٌّ للمخلوق الموجود أصلا. بمعنًى آخرَ فإنَّ الله - تعالى- عندما قال للملائكة: {إِنِّي خَـٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ}، يعني أنه يريد تقدير قانون جديد يؤدي إلى خلق كائنٍ جديد سمَّاه " بشرا"، ولفظ "**بشر**" في اللغة يعني: ظهور الشيء مع حسن وجمال، واستُعيرت لتعني الإنسان؛ لأنَّه أبرز المخلوقات وأحسنها خَلقا. وفي الآية استعمل الله - جلَّ وعلا - اللفظ في صيغة النكرة؛ لأنَّ البشر لم يكن معروفًا لدى الملائكة بعد، ولذلك ما كان لهم أنْ يسألوا عن مسوغات الخلق؛ لأنَّ الله يخلق ما يشاء. ولكنَّه حين أراد "جعل" ذلك البشر خليفةً استغربت الملائكة أنْ تُوكل تلك المَهمَّة لمن يعرفون جيدًا أنَّه وُجد وأفسد في الأرض وسفك الدماء، إذ إنَّهم هنا لم يفهموا حكمةَ الله - جلَّ وعلا- من هذا الاستخلاف. و لتوضيح الفرق بين "الخلق" و" الجعل" يمكن أنْ نقارنَ المعنى في قول الله - تعالى- :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ "13الحجرات".

فخلقُ الناس هنا هو تقديرُ كيفيةِ وجودهم، أمَّا الجعلُ فهو تحديدُ وظيفتِهم بعد أنْ وُجدوا. والآيات التي وردت فيها كلمة "جعل" لتحدد وظيفة المخلوق الموجود - أصلا- كثيرة جدًّا في القرآن، منها مثلا:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً .... ﴿٢٢﴾ ﴾ "22 البقرة ". فالأرضُ والسماءُ كانتا موجودتين قبل الإنسان، وجعْلُهما هنا يشير إلى تسخيرهما لمنفعة الإنسان.

{... من لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ..}" 60 المائدة".

هؤلاء الكفرة خُلقوا أولا، فكفروا ثانيا، وعقابًا لهم جعل منهم القردة والخنازير.

﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا ..... ﴿٤﴾ ﴾"4 القصص".

فرعون لم يخلقهم وإنَّما قسم قومَه إلى شِيَع ...

﴿ ..... إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾" 20 المائدة " .

هؤلاء خُلقوا وكَبِروا ثم جُعلوا ملوكًا ... وهكذا فالجعلُ دائمًا لفظٌ يحدد الوظيفة لمخلوقٍ موجودٍ أصلا.

وما لم يكن معلومًا لدى الملائكة أنَّ ذلك البشرَ كان خاضعًا لقانون تطور يعلمُه اللهُ وحدَه، إذ أودع قانون التطور ذلك في "نطفة أمشاج" التي فُهم حديثًا أنَّها - أغلب الظن- تشير إلى الحمض النووي المسؤول عن الطفرات الجينية إلى اليوم، ولذلك عندما قال الله -عز وجل- للملائكة:(إِنِّي جَاعِلٌ في الأَرْضِ خَلِيفَةً)، ربَّما عنى أنَّني أريد أنْ أغيِّر في طبيعة هؤلاء البشر ليُصبحوا خلفاءَ لي في الأرض. وهذا يفسِّرُ تساؤلَ الملائكة، تساؤلَ العالم بطبيعة البشر الظاهرة آنذاك: (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ)؛ لأنَّه لم يكن لديهم علمٌ كيف سيتم التغيير "الجعل" وإلى أيِّ نتيجة يؤدي، ولكنَّهم كانوا على علمٍ بسلوك هذا البشر وفسادِه من سابق تجربَتِهم معه .

إلى هنا نرى تقاربًا كبيرًا بين ما تحتوي عليه هذه الآيات من معانٍ نادرًا ما تُطرح للنقاش، وما توصّل إليه العلمُ الحديث بعدما تطور عقلُ الإنسان ووصلَ إلى مستوى أمكنه أنْ يقرأ آياتِ الله الكونيةَ ويكتشف أنَّ السماواتِ والأرضَ كانتا رتقا ففتقتا، وأمكنه أيضًا أنْ يقرأ التاريخَ البعيدَ لجنسه، ولازَمَ ذلك تطورٌ مماثلٌ في فهم المسلمين لآيات القرآن، ساعَدَنا في استنباط معانٍ واضحةٍ جدًّا في هذه الآيات، لكنَّها كانت بعيدةً عن تفكير الناس في الماضي .

إلى هنا يمكنُ أنْ نختلفَ مع علماء الطبيعة في أنَّ الإنسان لم يكن قردًا في يوم من الأيام، ولكنَّه خُلقَ "بشرًا" بفعل كُنْ، وقضى ذلك البشرُ البدائيُّ بنص القرآن حينًا من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، وربَّما كان في سلوكه وفسادِه وسفكِه للدماء في ذلك الدهر أقربَ إلى الحيوانات الدنيا، وربَّما كان أيضًا في هيئته غيرِ المعتدلةِ وعظامه أقربَ إلى القِرَدة، الشيء الذي التبس على علماء الطبيعة في استنتاجهم. يجب أنْ نذكُرَ هنا - من باب الأمانة العلمية- أنَّه في الزمن الذي عاش فيه داروين لم يكن العلمُ قد وصل إلى أيَّة وسيلة يمكن بها التمييزُ بين رُفات الإنسان والحيوانات الشبيهة من أحماض نووية وغيرها، وبالتالي ما كان يبدو لهم كالقرد من هيئته ظنوه قردًا، ولكنَّ معظمَ العلماء الذين ما زالوا يؤمنون بهذه النظرية يعترفون أنَّ الأصلَ ليس قردًا، ولكنَّه حَيَوانٌ غامضٌ يشبه القرد في هيئته ومشيته.

إذا افترضنا - جدلا- أنَّ "البشر" هم مخلوقاتٌ عاشت حينًا من الدهر، وأفسدت في الأرض وسفكت الدماءَ قبل أنْ "يجعلها" اللهُ خلفاءَ له في الأرض بتغيير في تركيبها و وظيفتها، فما علاقةُ هؤلاءِ البشر بـ "الطين"، وكيف نفهمُ خلق الإنسان من طين إنْ لم يكن آدمُ قد بُني في شكل تمثال كما ظلَّ الناس يفهمون زمانًا طويلا؟ للوصول إلى بصيص من المعرفة حول هذا الأمر، لا بُدَّ لنا أنْ نسلكَ النهجَ العلميَّ ذاتَه، وندرسَ كلَّ الآيات التي وصفت خلقَ الإنسان من طين.

خلق الإنسان من طين:

اللافت للانتباه أنَّ الله ـ جلّ وعلا ـ كرَّر آيات خلق الإنسان من تراب ثمَّ من طين في مواقعَ كثيرةٍ ومختلفة، وكأنَّه يدعونا للتدبر فيما يقول، وليس الإسراع بالافتراض من غير علم، إذ لا توجد آية واحدة في القرآن تصفُ أنَّ آدم بُني في شكل تمثال، وإنَّما هو انطباعٌ في أذهان الناس تسببت فيه الرواياتُ الإسرائيلية من ناحية، وعجْز المسلمين عن فكِّ طلاسم علاقة التراب والطين بقضية الخلق من ناحية أخرى. فإذا وضعنا تلك الآيات معًا وتدبرناها ربَّما نستنتج طبيعة ذلك الطين وعَلاقته بالخلق الأول:

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ " 7 السجدة ".

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ "26 الحجر" .

﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلۡصَـٰلٍ مِّنۡ حَمَإٍ مَّسۡنُونٍ ﴿٢٨﴾ ﴾ " 28الحجر" .

﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ ﴾ "71 ص " .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلاًۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ أَنتُمۡ تَمۡتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾ " 2 الأنعام " .

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ " 12المؤمنون "

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَـٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ "11 الصافات " .

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ ﴾ "37 الكهف " .

﴿ ..... فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ....

﴿٥﴾ ﴾ "5 الحج "

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا .... ﴿١١﴾ ﴾ "11 فاطر" .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ..... ﴿٦٧﴾ ﴾ "67غافر ".

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ "14 الرحمن" .

هذه الآيات تحتوي على كلمات إذا أمعَنَّا في معانيها فلربَّما نستطيعُ فهمَ مراحل تطور الإنسان من تراب إلى طين ثم إلى بشر:

الخلق: هو تقدير الشيء وإيجاده من عدم.

صلصال: الصلّ يدلُّ على صوت، وسُمِّي الخزف "صلصالا" ؛ لأنَّه يصوِّت ويصلصل.

حمأ: الأصل "حم"، ولها معنيان: أحدهما الاسوداد، والآخر الحرارة.

مسنون: أصلها من "سن"، وتعني: جريان الشيء و اطراده في سهولة، ومنها "سننت الماء على وجهي"، إذا أرسلته إرسالا. و الحمأ المسنون كأنَّه قد أُرسل إرسالا، كأنْ تقول "حرارة متصلة ومستمرة".

نُطفة: من "نطف" و تعني: نداوة وبلل. و"النطفة" :الماء الصافي، وليلة نطوف : أي ليلة ممطرة.

لازب: لزب يدلُّ على ثبوت شيء ولزومه، ومنها صار هذا الشيءُ ضربة لازب، أي لا يكاد يفارقه.

سلالة : "سل" معناها: مدَّ الشيء في رفق وخفاء.

الفخار: هو الجرار.

من الآيات ـ أعلاه ـ يمكننا أنْ نسلسلَ عَلاقة البشر بالتراب والطين الذي خُلقوا منه على النحو الآتي :

1. خلقكم من تراب.
2. خلقكم من طين.
3. خلقناهم من طين لازب.
4. خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون.
5. خلق الإنسان من صلصال كالفخار.

من هذا التسلسل للآيات ولخلق الإنسان يمكن أن نستنتج الآتي :

التراب إذا أضفنا إليه ماء تحول إلى طين.

الطين إذا لزِم مكانَه وثبت يتحول إلى طينٍ لازب، ولا يكون كالطِّمْي تحركه المياه، ولكنَّه كالطين الذي يلزم ضفاف الأنهار.

الطين اللازب إذا عرَّضناه إلى حمأ وحرارة تُرسل له إرسالا، أو لنقل أشعة شمس أو حمم البراكين، فإنَّه يتحولُ إلى صلصالٍ كالفخَّار كالطين الجاف الذي يوجد على ضفاف الأنهار.

هذا الصلصال الذي قد قَتلتْ فيه الحرارةُ وحممُ البراكين الحشراتِ والديدان التي عليه، إذا خلطته بالماء فسيتحول مرة أخرى إلى طين لازب .

نلاحظ هنا أنَّ هذه الصفات تنطبق على الطين الخصب الذي يكون على ضفاف الأنهار وفي الجزر البركانية، وهو أخصب أنواع الطين الذي يُستعمل للزراعة الطبيعية الناجحة.

ونلاحظ من ناحية لُغوية أيضًا أنَّ الله - جلَّ جلاله- في كلِّ تلك الآيات التي ربطت أصل الإنسان بالتراب والطين قد استعمل كلمة " خلق"، والخلقُ - كما رأينا - هو تقدير الشيء وإيجاده من عدم، وهذا يحدث في المشيئة الإلهية بفعل "كُنْ" المطلق. أي أنَّ بَدءَ الخلق قد يكونُ في شكل جسدٍ متكاملٍ أُوجد من الطين بفعل "كُن"، أو قدر تركيبه في مراحل تطور أيضًا أُوجدت بفعل "كُن" كما هو الحال في خلق السماوات والأرض بفعل "كُن" ولكنْ في ستة أيام، كل يوم منها كان يُقدّر بملايين السنين مما نعد ونفهم. ونلاحظ أيضًا في كل آيات خلق البشر أو الإنسان من ماءٍ وترابٍ وطين أنَّه لم يرد اسم آدم إطلاقا، وكأنَّ اسم "آدم" يشير إلى مرحلة لاحقة من مراحلِ تطورِ البشر وليس بداية خلقه.

الآياتُ كلها تشيرُ إلى أنَّ الطينَ يتحولُ إلى نُطفة في عملية الخلق، أي أنَّ مكونات البشر من بروتين و كربوهيدرات ودهون ومعادن تأتي من التراب الذي يتحول إلى طين خصب، ثمَّ تُخلق منه النطفةُ التي تحمل "الأمشاج" التي تواصل امتداد سلالة المخلوق، فما العَلاقة بين الطين و النطفة؟

خلق النطفة:

لنصلَ إلى فهم مشابه علينا أنْ نتدبر في الآيات التي وصفت خلق النطفة:

1.﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ .

2.﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَـٰهُ نُطۡفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً ....﴿١٤﴾ ﴾.

3.﴿ ..... خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ ﴾ " الكهف 37".

4.(﴿ .... فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ....﴿٥﴾ ﴾ " الحج 5".

5.﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿١١﴾ ﴾ " فاطر 11 ".

6.﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ..... ﴿٦٧﴾ ﴾ " غافر67".

إذا تدبرنا هذه الآيات فإنَّنا نجدُها تربط ربطًا مباشرًا ما بين التراب أو" الطين" و نطفةِ الإنسان "الحيوان المنوي والبويضة"، مع ملاحظة أنَّ في كلِّ الآيات تأخيرًا زمنيًّا ما بين التراب أو الطين و النطفة، وذلك باستعمال حرف العطف "ثم".

إذنْ نستنتج أن هنالك عَلاقةً مباشرة، بتأخير زمني، مابين الطين الخصب كالذي يوجد حول الأنهار والجزر البركانية، و نطفة الإنسان. أي إنسان ومنذ أن يكون طفلا إلى أن يكبر يتغذى على النبات والحَيَوان. النبات يتغذى على الطين الخصب، والحيوانات التي يأكلها الإنسان تتغذى على الأعشاب. بالتالي فإنّ مركبات الطين تنتقل إلى جسم الإنسان منذ طفولته إلى جسمه عن طريق النبات والحَيَوان آكِل النبات.

مركبات الطين تعمل على تنشئة جهاز الخصوبة في الإنسان. وبتراكم مركبات الطين في مدّة زمنية معلومة، تتولد لدى الإنسان إمكانية استخراج النطفة، وهذه النطفة تمكنه من خلق إنسان جديد، وذلك عن طريق التكاثر الطبيعي الذي قدّره الله في الجهاز التناسلي؛ لتكون عملية خلق الإنسان من طين عملية مستمرة، وقانونًا ونظامًا يتم به خلق أيِّ إنسان جديد، وليس بالضرورة عملية بنائية بُني بها جسد آدم فقط كما يظنُّ كثيرٌ من الناس. بمعنًى آخرَ حتى لو كان البشرُ الأولُ قد بُني بناءً كاملًا من طين، فإنَّ عَلاقة الإنسان بالطين ظلت قانونًا مستمرًا يربط الطين مباشرة بخلقِ كلِّ طفلٍ جديد إلى آخر الزمن، وليس علاقة انتهت بخلق أولِ بشرٍ فقط .(انظر لوحة دورة الموت والحياة في آخر الكتاب).

هذه الملاحظة قد تقودنا إلى فهم أحدِ عوامل زيادة خصوبة ساكني ضفاف الأنهار والجزر البركانية مقارنةً بسكان الصحاري والمناطق الجليدية، إذ إنَّ توافر الطين اللازب الذي تتغذى عليه النباتات، ومن ثَمَّ الحيوانات، والتي يتغذى عليها الإنسان تزيد من الخصوبة.

من الملاحظات الغريبة أنَّ هذا الطينَ تعشقه النساءُ الحواملُ في السودان، ويأكلنه وهو في حالته الصلصالية، وكأنَّ هناك عَلاقةً مباشرة بين نمو الجنين في بطن أمِّه وشهيتها لمكونات خفية في هذا الطين الصلصال.

ونلاحظ أنَّ أكل المواد غير الطبيعية والتي بها أسمدة، قد أدَّى إلى التقليل من خصوبة الإنسان الأوربي، ممَّا جعل النباتات الطبيعية التي قد تغذت على طين طبيعي مرغوبةً عالميًّا. ولعلَّ في هذه الملاحظة فائدةً لعلماء المسلمين الذين يؤمنون أنَّ كلَّ ما في القرآن حق، ليبحثوا في أسرار الطين التي ربَّما تكون علاجًا لبعض أمراض العقم أو نقص الخصوبة.

فإذا قبلنا هذا التفسيرَ للعَلاقة المستمرة بين خلق الإنسان من طين واستمرار وجوده بالطين أيضًا، فهل هناك مانعٌ منطقيٌ من أن تكون بداية الخلق نفسُها عمليةً تدريجيةً تطورت مع الزمن لتنتهي بتكوين الإنسان في مراحلَ مختلفةٍ كلها ارتبطت بالطين بوصفه مصدرَ مكوناتٍ بنائية، وليس بناءً واحدًا وُجد ككتلةٍ وجسد واحد؟ هذا الاحتمال يدعمه قول الله ـ تعالى- :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ۝ ﴾ " 7السجدة". إذ نلاحظ في هذا السياق أنَّ الله بَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ، ولم يقل أكمَلَه من طين، ثمَّ واصل سلالته من ماء مهين ينتج من مكونات الطين.

هذا التفسير لعَلاقة الإنسان بالطين يمكن أنْ يفسر لنا علميًّا حديث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم- : " إنَّ الله خلق آدم من قبضةٍ قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والخبيث والطيب، والسهل والحزن وبين ذلك".(رواه أبو داود و الترمذي و غيرهما، و صححه الألباني).

فبما أنَّ آدمَ خُلِق من خلائطَ من أطيان مختلفة؛ فقد تكونت في أمشاجه صفاتٌ مختلفة لمن يخرجون منه، إذ إنَّ كلَّ الصفات التي يتصف بها البشرُ على اختلاف أجناسهم وطبائعهم جُمعت في مصدر الخلق الأول، وينتقي الله من بينها ما يشاء ليودعه في كلِّ نُطفة تكون إنسانًا جديدًا.

"جميع الأرض" في هذا الحديث، يمكن أنْ يكون لها أحدُ مدلولين علميين: أحدهما هو تجميع عينات من كلِّ أطراف الأرض، والثاني هو أنَّ الخلق بدأ في بؤرة انسابت منها بقية الأرض. ونحن نرجح الاحتمال الثاني بعد أن خلصنا إلى أنَّ الخلق بدأ في مكة التي كانت أول بقعة خرجت يابسة من تحت الماء ثمَّ دَحا اللهُ الأرضَ من حولها، وسنناقش ذلك بالتفصيل في باب "سدرة المنتهى" ـ إنْ شاء الله-.

هذا الحديثُ يمكن أن نفهم منه أيضًا أنَّ اختلاف أنواع الأكل الطبيعي، المأخوذ من نباتات مزروعة في أماكن مختلفة أو طين مختلف، يؤدي إلى اختلاف الألوان واختلاف الطبائع الإنسانية. وقد ثبت علميًّا أنَّ النباتيين عادة ما يكونون أكثر هدوءًا من الذين يكثرون من أكل اللحوم، ممَّا يدلُّ على أنَّ مكونات الطين التي تدخل في تركيب اللحوم تختلف عن تلك التي تدخل في تكوين النبات، وبذلك تؤثر تأثيرًا مباشرًا في سلوك الإنسان الذي يبني جسده من أيٍّ منها. ويمكننا أن نفترض أيضًا أنَّ مكونات الطين ربَّما تكون هي المسؤولة عن جين اللون، وبالتالي يمكن أن نبحث عن علاج للأمراض الجلدية من مركبات الطين، والله أعلم.

لدينا هنا ملحوظةٌ مهمةٌ يجبُ أن نتدبَّر فيها منذ الآن، ولكنَّنا سنفهمها أكثرَ عندما نفحص آذان الأنعام في الباب العاشر، وهي أنَّ الحيوانات التي يُباح أكلها هي الأنعام وتشمل: الإبل والبقر والضأن والماعز وكلها نباتية. أمَّا الطيور المباحة فكلها تتغذى على ثمار الأشجار أو مخلوقات تعيش داخل الطين أيضًا، بينما صيد البحر حلال على إطلاقه، إذ إنَّ الماءَ -أصلا- هو سرُّ الحياة الأول. فيما عدا ذلك فكلُّ الحيوانات المحرمة تأكل اللحوم، ممَّا يدلُّ على أنَّ هناك صلة لصيقة بالطين تدخل في حكمة الحلال والحرام في طعام الإنسان.

إلى هنا لا يخفى على أيِّ عاقل أنَّ الآيات التي وَصفت خلقَ الإنسان من تراب وطين في القرآن كثيرة جدًّا، وتدخل في تفاصيلَ احتاجت إلى باحثين في الكيمياء والأحياء والطب والبيطرة لكشف بعض أسرارها. هذا التفصيل القرآني في عَلاقة الإنسان -عمومًا- بالطين له حكمته التي يجب أنْ لا يتجاهلها علماء المسلمين، وهو أيضًا جعل

علاقة خلق البشر بالطين في القرآن تختلف اختلافًا جذريًّا عن النصوص القليلة جدًّا في التوراة التي وصفت خلقَ آدم من طين، ممَّا كوَّن الصورة المجسمة في أذهان اليهود والنصارى لبناء آدم في شكل تمثال نفخت فيه الروح، ثمَّ انتقلت تلك الفكرة إلى أذهان المسلمين من غير تدبُّر في الطرح القرآني.

لا بُدَّ أن نتذكر دائمًا أنَّنا نجتهد فقط في فهم النصوص القرآنية بعيدًا عن تأثير الإسرائيليات، فإنْ اختلف تفسيرُ القرآن عنها لا غرابة في ذلك، إذ إنَّ الاختلاف مع الإسرائيليات في العقيدة وفي فهم قصص كلِّ الأنبياء والمرسلين هو الأصل، وما الاتفاق في تأويل آيات خلق آدم إلا نشازٌ.

قصدنا من هذه العجالة أنْ نوضح حقيقة بينة في القرآن، وهي أنَّ خلق الإنسان من طين أمرٌ منسجم مع قوانين الطبيعة، بل هو أمرٌ بديهي وليس فيه من الأوهام والأساطير شيء، ولكننا سندرس بمزيدٍ من التفصيل المراحلَ الأولى لخلق كلِّ الأحياء في باب "آذان الأنعام" - إنْ شاء الله-.

إنَّ استنتاج أنَّ قانون خلق الإنسانِ، أيِّ إنسانٍ، هو الطينُ وليس آدم فقط، وعدم وجود دليل مباشر في القرآن على أنَّ آدم تم بناؤه بالصورة التمثالية المذكورة في الإسرائيليات، والتي نقلناها وتعاملنا معها على أنَّها من أصول الدين الإسلامي، يعيننا أيضًا على فهم الآية التي وصف الله - تعالى- فيها خلْقَ عيسى - عليه السلام- من "تراب" وشبهه في خلقه بخلق آدم، رغم أنَّ عيسى حملته أمُّه كرهًا ووضعته كرهًا كبقية البشر:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ "59 آل عمران".

هذه الآية تطرح أسئلة مشروعة كثيرة:

1- ما وجه الشبه بين آدم الذي لا أمَّ ولا أب له، وعيسى الذي حملته أمُّه ووضعته في مخاض طبيعي؟

2- إذا افترضنا أنَّ عَلاقة آدم بالتراب كانت علاقة بنائية مباشرة، فما علاقة عيسى بالتراب ؟

3- لماذا استعمل الله - جلَّ وعلا - في الآية لفظ "يكون" بصيغة المضارع، في الوقت الذي يتبادر إلى الذهن أنَّ الأصح أنَّه لو قال له كن "فكان" بصيغة الماضي، علمًا بأنَّ هذا إخبارٌ لنا في القرآن عن خلقٍ تمَّ في زمانٍ ماضٍ وليس في زمان حاضر.

نتخذ هذه الآية مدخلًا لفك طلاسم **"الحلقة المفقودة"** في نظرية داروين في الباب القادم- إن شاء الله-.

البـــــاب الـثـالـث

الحــلقــة الـمـفـقـودة

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ المسلمين وغيرَ المسلمين أجمعوا على أنَّ القرآن هو معجزةُ النبيِّ الخاتم الأولى، التي ظلت تتحدى العقل البشري بالمفاجآت، مهما أُوتي من قدرات وسَطوة على قوانين الطبيعة على مر العصور. فكلما تطور العقلُ اكتشف في القرآن أسرارًا لم تكن تُفهم من قبل. وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ وجود هذه الأسرار الجديدة يؤكدُ أنَّ القرآن محفوظ بالحرف، إذ إنَّ الصحابة لو كانوا تجرّأوا على تغيير شيء ولو بحسن النية، لغيَّروا ما لم يكنْ يحملُ معنًى في نظرهم، أو يبدو فيه خطأ لُغويٌّ نسبة لمحدودية علمهم بأسرار الكون آنذاك، ولكنَّهم أوصلوه إلينا كما هو لنتعبد إلى الله بكشف أسراره ونسبح بحمده.

المـثل الـقـرآنـي:

ممَّا يلفتُ النظرَ في القرآن، أنَّ الله - تعالى- قد جعل من ضرب الأمثال وسيلةً مهمةً في الخطاب؛ حتى يَسْهُلَ على العقل البشري المحدود استيعابُ معانٍ بعيدة عن خياله كدليلٍ على احترام الخالقِ للعقل الذي خلق، ودعوة منه - سبحانه و تعالى- لنا للتدبُّر فيما يقول وليس الاطلاع فقط. ونقدم مثلًا لأمثال القرآن بالمثل المشهور في مضاعفة الحسنات:

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾" 261 البقرة " .

يظنُّ الكثيرون أنَّ الأمثال في القرآن إنَّما هي لتسهيل المعنى فقط، ولكنْ كلما تطور العلم اكتشفنا أنَّ علم الأمثال في القرآن بحرٌ عميق لا يَعرف أسرارَه إلا اللهُ، إذ إنَّه وسيلة مختلفة اتخذها الله - جلَّ وعلا - لإخبارنا بأسرار الكون حينما نحاول أن نفهم العلاقة بين الأمرين اللذين ربطهما بمثل. فيضرب الله مثلًا ظاهرُه بسيط، وباطنه أكثر تعقيدًا من الأمر الذي نظنُّ أنَّ المثل إنَّما ضُرب ليسهل فهمه. وحتى تزيد الفائدة في هذا العلم المهم في لغة القرآن، نطرح مَثلين هنا ظاهرهما بسيطٌ يسهل المعنى، و باطنهما فيه سرٌّ إعجازي لم يكن ليفهم في وقت نزول القرآن.

*نأخذ مثلًا آية بيت العنكبوت:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ "41 العنكبوت".

فالعَلاقة الظاهرة في هذا المثل هي أنَّ صلة المشركين بأوليائهم من دون الله واهنة وضعيفة كضعف بيت العنكبوت، ولكنَّ اللافتَ للنظر أنَّ الله أصدر حكمًا غريبًا، وهو وصْفه لبيت العنكبوت أنَّه أوهن البيوت، بل وختم الآية بصيغة تستفز العقل ليستزيد من العلم في أمر بيت العنكبوت {لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}. وقد فهم الناس لزمن طويل أنَّ بيت

العنكبوت هو الخيطُ الواهنُ الضعيفُ الذي ينسجه العنكبوت، ويراه الناس ويسمُّونه مجازًا "بيت العنكبوت". هذا الفهم كان كافيًا في زمن لم يكن الإنسانُ يعرف الكثيرَ عن خيط العنكبوت أو بيته، ولكنَّ هذا التفسير في زماننا هذا يكون قاصرًا بل ويسبب إشكالًا علميًّا، إذ إنَّ نسيج العنكبوت ليس أضعفَ الأنسجة بدليل أنَّه يصطادُ به حشرات كبيرة ويقتلها، وبدليل أنَّ العين المجردة تراه من بعيد، علمًا بأنَّ هناك من المخلوقات ما هو أصغرُ من العنكبوت وأكثرُ ضعفًا، وبالتالي فبيوتها أصغرُ وأضعفُ من نسيج العنكبوت. جاء علم الحشرات في العصر الحديث ليكشفَ سرًّا غريبًا ربَّما يكون هو المقصود مِن وَهن بيت العنكبوت وليس خيطه القاتل.

فكلمة "بيت" لها معنى البناء الذي نأوي إليه ونبيت فيه ويجمع شمل الأسرة، وهي أيضًا تعني العَلاقة الاجتماعية التي تربط أهل بيت واحد بدليل قول الله - تعالى-:

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ﴿٧٣﴾ ﴾

"73 هود"

فأهل البيت هنا ليس بالضرورة الذين يبيتون فيه، وإنَّما الذين ينتمون إلى نسيجه الاجتماعي، واللهُ أعلم. ولمَّا كان مضمونُ الآية السابقة هو تشبيهَ العَلاقة الروحية بين المشركين وأوليائهم وليست علاقة تشابه في السكن، فإنَّ بيتَ العنكبوت المقصود يمكن أن يكون مجازًا عن الصلات الاجتماعية في بيت أو أسرة العنكبوت وليس خيطه كما يفهم.

أثبت العلم أنَّ كثيرًا من الحيوانات تقتل بعضها بعضًا في البيت الواحد لأسباب مختلفة. منها على سبيل المثال أنَّ الأسد الذكر يمكن أن يقتل صغارَه إذا لم يجد أنثى أخرى يلقحها غير أم صغاره، التي تتوقف رغبتها في العلاقة الجنسية مادامت ترضع صغارها، فيقتلهم لتهتم به الأم، ولكنَّ الأم في بيت الأسد تحمي الصغار. وفي مخلوقات أخرى يأكل الأبوان صغارَهما إذا لم يجدا طعامًا، ولكنْ في كلِّ فصيلٍ من فصائل الحَيَوان يكون الاعتداء من طرف على طرف آخر إلا في بيت العنكبوت، فإنَّ الأب والأم يقتلان بعضهما بعضًا وكلاهما يقتل الصغار، وصغارهما يأكلون أمهم وأباهم متى ما أتيحت لهم الفرصة؛ ممَّا يجعل العلاقة الاجتماعية في بيت العنكبوت أوهن العلاقات مقارنة بالمخلوقات الأخرى. هذا المعنى في ضعف الصلة و انعدام الحماية والأمان بين المشركين وأوليائهم، وتشبيهه بغياب الأمن في بيت العنكبوت أقربُ إلى الواقع من الظن أنَّ المقصود في الآية هو خيط العنكبوت الظاهر، علمًا بأنَّ نسيج العنكبوت -أصلا- ليس بيتًا يسكنه، وإنَّما هو شَرَك يصطاد به طعامه، والله أعلم .

وفي مثل البعوضة حكمة أخرى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ " 26 البقرة".

هذه الآية تُبرز معانيَ ظاهريةً، منها :أنَّ الله حرٌ في اختيار المثل الذي يضربه، وأنّ المؤمنين يقبلون اختيار الله للأمثال كيفما يكون، ولكنها أيضًا توحي بأنَّ بعض الأمثال إنْ لم تُفهم ربما تقود إلى ضلال الفاسقين. وكما في مَثل بيت العنكبوت، فإنَّ الآية تضمنت غموضًا لغويًّا يتناقض ظاهريًّا مع الحكمة من المثل. فما يبدو ظاهريًّا أنَّ الله - جلَّ وعلا- قد اختار البعوضة لتكون مثلًا، بوصفها من أصغر المخلوقات وأدناها التي تراها العين، ورغم ذلك فالله لا يستحيي من اتخاذها مثلا، ولكنَّ سياق الآية استمر ليؤكدَ أنَّ الله يمكن أن يضرِب مثلا بما هو "فوق" البعوضة، في الوقت الذي كان السياق اللغويُّ والمنطقيُّ يتطلب أن يكون ما هو "أدنى" منها أو ما هو "تحتها" لمزيد من التأكيد. هذه اللغة نجدها مثلًا في قوله - تعالى- :

﴿ ..... وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ " 61 يونس".

فهذه الآيةُ تشيرُ إلى أنَّ الذرة من أصغر ما يقيسه الإنسان وحتى ما هو أصغر أو أكبر منها كله في كتاب مبين. فما بال البعوضة -إذنْ - يَضرب الله بها مثلا فما فوقها فقط وليس ما هو دونها؟ جاء العلم ليضيف روعة لهذا المثل بإثبات أنَّ البعوضة توجد "فوقها" حشرةٌ أصغرُ منها بمراحلَ كثيرة تسكن على ظهرها، وهي ملازمة لها وضرورية لحياتها، كعَلاقة كثير من الحشرات والطيور بالحيوانات الكبيرة مثل الفيل والزرافة. إذنْ يمكننا الآن أن نفهم أنَّ الآية تؤكد لنا أنَّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما هو أدنى منها، وإنْ كان في صغر الحشرة التي تسكن "فوقها"، وسبحان الذي خلقهما وأنزل القرآن.

من هذه الأمثلة نستخلص أنَّ ضرب المثل في القرآن أمرٌ خطير، و ذو مدلولات علمية وتعليمية أبعد كثيرًا من تبسيط المعنى الذي ضرب المثل من أجله. فالمثل في القرآن قد يُضرب ليزيلَ حَيرة، ولكنه يخلق حَيرة جديدة حتى لا ينتهي الإعجاز ولا يتوقف التدبُّر فيه.

مثل عيسى عند الله:

هنا نعود إلى قصة خلق آدم والمثل الذي طالما ظنَّنا أنَّ الله قد ضربه لنا لعلَّنا نفهم ولو القليل من سرِّ الخلق. المعروف أنَّ القرآن ربط خلق آدم بالمثل فقط بخلق عيسى - عليه السلام- من دون سائر البشر والنبيين. وقد ورد ذلك في آية واحدة هي قوله - تعالى-:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ "59 آل عمران".

هذه الآية أيضًا هي الآية الوحيدة في القرآن التي ارتبط فيها خلق "آدم" بهذا الاسم "بالتراب"، إذ إنَّ كلَّ الآيات التي وصفت بداية الخلق من ترابٍ وماء وطين، إنَّما أشارت إلى خلق "البشر" أو "الإنسان" وليس شخص آدم.

الغريب في هذا السياق أنَّ المثل الذي ضُرب لنا ليسهل علينا أنْ نفهم كيف خلق الله عيسى من غير أب هو مثل خلق "آدم"، وكأننا نفهم كيف خلق آدم - أصلا- من غير أب ولا أم. بمعنًى آخر، حينما ضرب الله مثلًا ليبينَ مضاعفة الحسنات ضرب مثلا بالحبة التي تنبت سبعَ سنابلَ في كلِّ سنبلة مائة حبة، وهو مثل يُسهِّل فهم عملية البركة وزيادة الأجر في أعمال الخير، ولكنَّ المثل الذي ضرب ليوضح لنا كيف خلق عيسى من أمٍ فقط هو مثل آدم الذي خلق من غير أم ولا أب، و ما يجعل هذا المثل أكثر غموضًا أنَّه يوحي أيضًا أنَّ عيسى نفسَه خُلق من تراب وليس آدم وحدَه، وسبحان الذي خلقنا وخلقهم.

نحن لا نظن أنَّ التمثيل هنا مقلوب، ولكنَّ هناك حِكَماً خفية عديدة يمكن استنباطها من لغة هذه الآية:

1. الآية لم تقل " ضرب الله مثلا للناس..." وإنما نصت على: " إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ"، وهذا يعني أنَّ الله يصف لنا كيف قدر الله خلق عيسى، ولكنه لم يضرب لنا مثلاً ليسهل علينا فهم المعنى كما نظن من الوهلة الأولى.

2. الآية تستفز العقل والمنطق ، وكأنَّ الله يقول لنا: ما بالكم تستغربون خلق عيسى من أم معلومة في الوقت الذي تجهلون فيه الكثير عن آدم الذي انحدرتم منه من غير أن تعلموا شيئًا عن أمٍ له أو أب. سواء كنتم مؤمنين أم باحثين أكاديميين فالأجدر هو التدبر في أصل الذي ما علمتم له لا أم ّولا أب وليس الذي وُجد من أمٍّ معلومة.

وحتى نبحث بصورة علمية في أصل آدم - مستهدين بما نعلمه عن أصل عيسى- فإنَّ البَدء بوضع الحقائق المتفق عليها هو الوسيلة العلمية السليمة لاستنباط معلومات عمَّا لم يُتفق عليه، وهذا كان مدخلَنا العلميَّ في البحث في قضية التطور أصلا. إذا اتبعنا ذات الأسلوب العلميِّ في المقارنة بين خلق آدم وعيسى، فإنَّ بين أيدينا من القرآن ومن الواقع عن خلق عيسى في عالم الشهادة أكثر ممَّا لدينا عن خلق آدم في عالم الغيب؛ لذلك سنحاول أن نطرح الحقائقَ المعروفة عن خلق عيسى - عليه السلام- لنرى ما صفات التشابه بين خلقه وخلق آدم- عليهما السلام- .

خلقُ عيسى تمَّ داخل النظام الأزلي لخلق البشر، ولم يكن فيه استثناء إلا في كونه جاء من غير أب. فعيسى قد حملت به أمه حملاً عادياً قدّره الله بفعل كن، بمعنى أنَّ الحلقة الوحيدة المفقودة في حمله كانت غياب الحَيَوان المنوي من الرجل، ولكن بعد أن تمَّ الحمل بفعل كن، استمر في رحم أمه حملاً عادياً وتطور جنينُها تطوراً عاديا، و كانت مريم - وهي بشر عادي- شاهداً على حملها به، وشهد أهلها، واستترت منهم ساعة المخاض، وحاجُّوها في هُوِيّة الطفل الذي أنجبت. عيسى ولد بمخاض طبيعي ووضع طبيعي، بدليل أنَّ الله - تعالى- تتبع سلوك مريم وحزنها من الحمل الذي كان كالفضيحة لها ، ممَّا يؤكِّدُ أنَّه حمل عادي يثير الريبة في مجتمع لا يقبل حملاً من غير زواج، ثمَّ وصف لنا عملية المخاض وصفاً طبيًّا وأنَّه - تعالى- أطعمها رطباً جنيا ساعة المخاض، إذ إنَّ الرطب يحتوي على هرمون "الريلاكسين" الذي يساعد على ارتخاء المفاصل والعضلات، مما يسهل عملية الوضع؛ ليؤكد لنا أنَّ عيسى لم يتمّ بناؤه كتمثال من طين أُهدِي إلى مريم ، كما نفهم أنَّ آدم بُني من تراب وطين، وأنَّ حمله وولادته لم يكونا إلا حملًا طبيعيًّا ووضعًا طبيعيًّا ، فقط لم يكن للأب دورٌ فيه .

إذنْ فخلقُ عيسى سرٌّ من حيثُ الكيفية البيولوجية، ولكنّه كحدثٍ اجتماعي كان حملاً ووضعاً شهده شهودٌ من البشر، أمّا خلقُ آدم فسرٌّ لم يشهده إلا الله جل وعلا والملائكة. ولمَّا كان مَثَلُ الخلقين عند الله واحدًا فإنَّه يمكننا أن نتدبر في القليل الذي نعرفه عن خلق عيسى في عالم الشهادة؛ لنتخذه وسيلة لمحاولة فهم خلق آدم الذي تم كليةً في عالم الغيب، وليس لدينا أيُّ تفاصيل عمليةٍ أو شهودٍ أو وصف اجتماعي لعملية خلق آدم.

ومن هذا المنطلق نطرح أسئلةً منطقيةً مستوحاةً من خلق - عيسى عليه السلام- :

* عيسى خُلق جنينًا في رحم أمه مريم،فهل هذه صفةُ تشابهٍ أو اختلاف مع خلق آدم؟

* عيسى خرج من بطن أمِّه في مخاض طبيعي، فهل هذه صفة تشابه أو اختلاف مع خلق آدم؟

* كان عيسى يومًا ما صبيًّا ، فهل كان آدم يومًا ما صبيًّا أيضًا؟

* بافتراض أنَّ آدم قد خلق من تراب، فما علاقة عيسى وهو جنين في رحم أمِّه بالتراب إذنْ؟

ثم أخيرًا وليس آخرًا، إنْ كان عيسى قد خلق بفعل "كن" فكان، فلماذا يصف الله - جل وعلا- أنَّه قال لآدم كن "فيكون" ؟ إذ إنَّ كلمة "يكون" في الآية جاءت بعد ذكر مثل آدم، ممَّا يُوحي بأنَّ الذي "يكون" هو آدم ونفترض لغة أنَّ عيسى "كان".

بعد التدبر - فيما سبق ذكْرُه - يمكننا هنا أن نستنتج أوجهَ التشابه بين الخلقين كما يأتي:

1. إنَّ الله يخلق ما يشاء بفعل "كن"، سواء تشابهت طريقة الخلق البيولوجية أم اختلفت فإنَّ أصلَ التشابه هو قدرة الله على أنْ يخلق ما يشاء كيفما يشاء.

2. معلوم أنَّ عيسى خُلق من تراب وطين ، تكوَّن به جنيناً في رحم أمّه كسائر البشر كما شرحنا في باب "قصة الخلق"، ولكنه لم يُبْنَ من طين في هيئة كاملة، وهذا أمرٌ شهده الناسُ ووصفه القرآنُ في وصْفِ الحمل والمخاض، وبالتالي فإنَّ عَلاقة آدم بالتراب يمكن أن تكون شبيهةً بعَلاقة عيسى به. بمعنًى آخرَ أنَّ هذا التمثيل يمكن أنْ يكون دليلاً قاطعاً على أنَّ آدم خلق من مكونات التراب و الطين بقانون التطور الذي قدّره الله لخلق كل البشر، ومن بينهم عيسى الذي خُلق من غير أب. بمعنىً أبسط ، فكأنَّ الله يقول لنا : لقد خلقتُ آدم من مكونات التراب بفعل (كن) ، كما رأيتم رأيَ العين كيف خلقتُ عيسى من مكونات التراب في رحم أمِّه، ولكنْ لم يُبنَ أيٌّ منهما في شكل تمثال كما تتخيلون.

3. عيسى لم يُنجب ذرية ، وبذا فإنَّ خلقه من طين "كان" وانتهى بخلقه، ولكنَّ آدم أنجب ذرية تتكونُ كلَّ يوم من ذات الطين، ولذا فإنَّ عَلاقتَه بالطين كائنةٌ في تكرارِ خلق سلالته إلى يوم القيامة ،وهذا يمكنُ أنْ يفسر كلمةَ "يكون" في أمر خلقِ آدم.

هنا يطرأ سؤالٌ عن أمرٍ آخرَ مهمٍ جدًّا وقد يصيبُ بعضَ الناس بالدهشة وهو هُوِيَّة "آدم" المقصود هنا، هل هو نبيُّ الله المصطفى "آدم" أو هو اسم جنس مأخوذ من كلمة (أُدْم) في اللغة ؟

أدْم: تعني الموافقة والملاءمة ، تقول : "أَدَمَ الله بينكما" أي : لاءم ووافق بينكما، ومنها ما ورد في الحديث المشهور في النصح للخطيبين أن يرى كلّ منهما الآخر: " فإنَّه أحرى أن يُؤْدَمَ بينكما"(رواه الترمذي). أي يحدث بينكما تآلف وتوافق وملاءمة. فهل يمكن أن يكون معنى الآية هو أنَّ مثل عيسى عند الله كمثل كلِّ جنس آدم "الملائم الموافق"، وهو جنس يكون كل يوم إلى يوم القيامة؟ هذا السؤال تجيب عنه آياتٌ كثيرةٌ وصفت سكن "آدم" الجنة، سنتطرق إليها في باب "في جنة المأوى"، ولكننا نظنُّ أنَّ أوجه المقارنة بين خلق عيسى و خلق آدم أكبر من أن نقف عليها عند هذا الحد.

لعلَّ من أبرز ما تسبب في تشخيص خلق آدم في شكل تمثالٍ مجسم نُفخت فيه الروح هو وصف الله - تعالى- لخلق البشر بـ ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ "29الحجر". إذ إنَّ فهم هذه الخُطوات قد يوحي بأنَّ الله سواه بيديه حتى اكتمل شكله، ثمَّ قام بالنفخ فيه ، وهذا ما فهمه اليهود من وصفٍ مشابهٍ في التوراة. لا بُدَّ أن نذكر هنا أنَّ هذه الآية تصف خلق البشر وتسويتهم ولكنها لم تصف آدم بهذا الاسم رغم أنَّ المتعارف

عليه هو أنَّ المقصودَ هو آدم. فإذا افترضنا أنَّ آدم لم يتمَّ بناؤه كجسدٍ قبل نفخ الروح، فما سرُّ الروح التي نُفخت في آدم بعد أن سواه الله جلت قدرته ؟

الإجابة عن هذا السؤال المشروع يمكن استيحاؤها من مثل عيسى نفسِه، إذ إنَّ نفخ الروح ورد في القرآن في هذا السياق في أمر خلق عيسى تماماً كما نُفخت الروح في آدم، ممَّا يؤكد أنَّ الله ما ضرب مثلاً بخلق آدم كوسيلة لفهم خلق عيسى إلا لأنَّه ترك لنا أدلة متناثرةً مرتبطةً بخلق عيسى إذا رتَّلْناها ترتيلًا أي تدبرنا المتشابه منها والذي يتناسقُ مع بعضه بعضا منها، تكونت لنا صورة أكثر وضوحًا عن أمر خلق كليهما. اللافت للنظر أنَّ مفهوم "النفخ" في القرآن ورد في النفخ في "البشر" وفي "مريم"، كما أنَّ عيسى نفسَه نفخ في "الطير" ، وكذلك فإنَّ النفخ في "الصور" يؤدي إلى انفجار الكون عند قيام الساعة كما سنناقش ذلك في باب "سدرة المنتهى"، أمَّا هنا فسنحاول فهم النفخ في البشر من تدبرنا في النفخ في مريم ونفخ عيسى في الطير.

النفخ في مريم:

﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا **فَنَفَخۡنَا** فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَـٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ " 91 الأنبياء".

﴿ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٲنَ ٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا **فَنَفَخۡنَا** فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّہَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ ﴾" 12 التحريم".

هنا يجب أن نعترف أن الأمر غامضٌ غموضَ فهم الروح التي جعلها الله –عز وجل - سراً من أسراره كما في قوله - تعالى- :

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ‌ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٨٥﴾ ﴾ " 85الإسراء".

فأمر الروح يظل أمرًا يمكن أن نتدبره، ولكنْ لن نعلمَ عنه إلا القليل، على أنَّ من الحكمة أن نتدبرَ في عَلاقة نفخ الروح في وصف خلق عيسى ونفخ الروح في قصة خلق البشر، ففي الآيات -أعلاه - وصف الله - تعالى- تلك العَلاقة في حالة عيسى كما يأتي:

الوصف الأول: أنَّه نفخ من روحه في مريم التي أحصنت فرجها. من المعلوم أنَّ مريم كانت حية وبالتالي لها روحُها المستقلة، ورغم ذلك فالروحُ هنا لم تنفخ في جنينها بل نفخت "فيها" قبل أنْ تحمل عيسى - عليه السلام- ، قال - تعالى-:" فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا". فهل أصبح لمريم روحان أم أنَّ "النفخ من الروح" هنا له مدلولٌ آخر؟

الوصف الثاني: هنا نَفَخَ الله بالتحديد في فرجها من روحه، وللمرة الثانية لم يشمل النفخُ عيسى، وإنْ كان مفهومًا أنَّ خلق عيسى هو المقصود بنفخ الروح.

فإذا كان فهمنا لآية {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} في قصة خلق البشر تعني الفهم المتوارث ، وهو أنَّ الله قد خلق آدم من طين ولكنْ من غير روح، ثم فتح فمه أو أنفه ونفخ فيه الروح فدبت فيه الحياة، فهل يمكن أن نتخيل أنَّ الله نفخ في فرج مريم الروح بالطريقة التجسيدية ذاتها ليخلق عيسى؟! أي أنَّ الروح نُفخت قبل أن يخلق عيسى من تراب. أغلب الظنِّ أنَّ العَلاقة بين" نفخ الروح" والخلق في الحالتين هي عَلاقة معنوية تشير إلى فعل "كن" الذي ينفذ به القدر فيقضي به الله ما يشاء من غير حوجاء إلى عَلاقةٍ جسديةٍ محددةٍ بين النافخ والمنفوخ.

لا بد وأن نذكِّرَ أنَّ المفسرين أجمعوا على أنَّ "فرجها" في الآية تشير إلى أنَّ جبريل قد نفخ في "جيب درعها"، إذ إنَّ كلمة "فرج" تعني : أي شق في أي جسم، والشق في أعلى الجيب يسمَّى فرجاً. إلا أنَّنا نجد غرابة في هذا التأويل الذي لم نجد له حديثا يسنده؛ وذلك لأنَّ الله - تعالى- قد مهَّد للنفخ في هذه الآية بأن وصف مريم العذراء بأنَّها أحصنت فرجها، أي كانت عفيفةً طاهرةً وهذه صفة ملازمة لمريم -عليها السلام-، ومن هذا يُفهم أن "فرجها" هو موضع العفة المعروف، وهو أيضا أول عضو يبدأ عنده الحمل، وليس هناك منطق أبداً يسوِّغ تفسيرَ الفرج هنا بالجيب أو أعلى القميص. إذا تدبرنا لغة الآية وجدنا أنَّ"النفخ" قد تم عطفه على الفرج المحصن، الشيء الذي يُبرز حمل مريم كمعجزة بدليل التأكيد على طهرها وعفتها، فكيف يكون النفخُ قد تمَّ في أعلى الجيب؟ أغلب الظنِّ أنَّ كلَّ المفسرين الذين لم يدعموا تأويلهم بحديث واحد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قد أخذوا رأي مجتهد واحد ظنَّ أنَّ نفخ الروح إنَّما يكون من أعلى الجسد؛ لأنَّ فهمهم للروح هنا هو أنَّها سر الحياة، ولما كان هناك أصلاً خطأٌ سابقٌ في فهم نفخ الروح في فم آدم، فقد ذهبوا جميعاً إلى تأويل الفرج بأعلى الصدر أو الجيب لقربه من فم مريم أو أنفها . ونحن نظنُّ أنَّ "النفخ" نفسَه له مدلولٌ آخرُ، ونُدلِّل على ذلك بأن نرتل آيات النفخ في مريم مع آيات نفخ عيسى في الطين:

﴿ ..... أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ....(٤٩) ﴾ " 49 آل عمران".

﴿ ...... وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِي ..... (١١٠) ﴾ "110 المائدة".

في هاتين الآيتين نلاحظ أنَّ عيسى - عليه السلام- لم ينفخ من روحه وإنَّما نفخ في الطين فقط ، فكان الطينُ طيرًا بإذن الله .

من هذه المقارنات يمكننا أن نستنتج أنَّ عملية "النفخ" يمكن أن تكون إيذانا من الله لينفذ فعل "كن" في الأمر، وليست بالضرورة نفخاً للروح التي تحمل سرَّ الحياة، إذ إن الخالق هو الله، وإنّ تحول الطين إلى طير يتم بإذن الله وليس بنفخ عيسى. نفخ عيسى في الطير هنا لا يعدو عن كونه وسيلة معنوية لإثبات المعجزة تماما كما أمر الله موسى أن يضرب بعصاه البحر لينفلق.

ومن هنا يمكننا أن نستنتج أيضا أنَّ "روح الله" ربَّما تعني المعنى اللغوي لكلمة الروح، وليس الروح التي هي سرُّ الحياة الغامض.

روح: من معانيها السَّعة والفسحة والاطراد، وهي أيضا تعني الريح ، وتعني الروح التي هي سرُّ الحياة الذي لا يعلمه إلا الله - جلَّ وعلا- .

نفخ: لها معنىً واحدٌ وهو الانتفاخ ، أي : التضخم والعلو، والمنتفخ هو الرجل السمين.

مما سبق يمكن أن نستنتج أنَّ النفخ في مريم يمكن أن يدل على انتفاخ الحمل، وأنّ " روح الله" كناية عن رحمته وفضله على مريم، إذ إنّه أكرمها من سعته بعيسى ، وبالتالي يمكن أن يكون مدلول { التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا} هو أنَّ الله قد أذِن لبَدء حملها بعيسى بكل خُطُوات الحمل ابتداءً من الفرج وهو أول عضو في جسد المرأة تبدأ به عملية الحمل، ثم يكون مدلول "َنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا " إشارة إلى أنَّها حملت حملا عاديًّا بفضل الله ، وانتفخ بطنها كأي امٍ حامل وليس أسبوعًا أو أيامًا معدودة كما أوردت بعض التفاسير. هذا التأويل أيضا يسهل الجمع من غير إشكال بين النفخ "فيها" والنفخ "في فرجها" كما ورد في الآيتين، إذ إن النفخ هنا هو الانتفاخ الطبيعي الذي يتبع الحمل ، وكله تم بفضل الله ورحمة منه وسعة، ويبدأ انتفاخ الحمل عند الفرج وسُرعان ما ينتفخ كلُّ جسد الأم مع تطور الحمل.

ونحن نظنُّ أنَّ حمل مريم -عليها السلام - كان حَمْلاً عادياً استغرق ما يستغرقه الحملُ العادي، وإلا لما كانت مريم ستخشى قومَها إنْ كان في ظاهر حملها شيءٌ إعجازي، كسرعة في الحمل وسرعة في الوضع كما قدم بعض المفسرين، وندلل على ذلك بأنَّ قومها قالوا لها:﴿ يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ﴿٢٨﴾ ﴾ " 28 مريم"، وهذا يدلل على أنَّ حملها ومخاضها كانا عاديين يمكن أن يشتبه في أنَّه حمل سفاح ، ولذلك قالوا عليها بهتانا عظيما. ومن هنا نفهم أنَّ بطنها انتفخ بالحمل واستغرق من الزمن ما يستغرق أيُّ حمل، لكنّ الفرق الوحيد- والله أعلم- هو أنَّ حملها ابتدأ بـ"إذن الله" وليس بوجود ماء الرجل .

من المفيد علمياً هنا أنْ نشرح مفهوم {يَا أُخْتَ هَارُونَ} وهو لا عَلاقة له بموضوعنا ، ولكنَّه يفيد القارئ بإذن الله. درج اليهود على تسمية بناتهم بـ مريم تيمناً بمريم أخت موسى وهارون -عليهما السلام- وهي التي تبعت موسى بعد أنْ التقطه فرعون ، ونجحت في إقناعهم بأنْ تأتيَ أمُّها لترضعه ، وهكذا ردَّ الله موسى لأمه كي تقرَّ عينها. أخته تلك كان اسمها مريم (سفر الخروج20:15)، ولمَّا كانت قد أدت دورا خطيراً في إنقاذ موسى وإعادته لأمها وأمه فقد تيمن اليهود باسمها، وأصبح متعارفاً بينهم أنَّ كلَّ فتاة تسمَّى مريمَ يقال لها {يَا أُخْتَ هَارُونَ} كما يصف المسلمون كلَّ فتاةٍ اسمها فاطمة بـ "الزهراء" تيمناً ببنت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- . ذكرنا هذه المعلومة عَرَضاً ؛ لأنَّ الكثير من المسلمين يدخلون في حرج حينما يتهم النصارى القرآن بأنَّه خلط مريم بنت عمران مع هارون وموسى، ولا يجد أغلب المسلمين إجابة عن هذا الاتهام.

من المهم جداً أنْ نفهم عملية "نفخ الروح" في مريم؛ لأنَّ مثل عيسى شبه بمثل آدم، علماً بأنّ القرآن أصلاً لم يصف في أيّ موضع أنَّ الله نفخ في آدم بهذا الاسم، وإنَّما تمَّ النفخ في البشر من غير تسمية. عملية النفخ في البشر تمت بعد أن كان قد خُلق وعاش ملايين السنين ، وتناسل بصورة غير معلومة ، ثم تناسل جنسيًّا إلى أن نفخ الله فيه من روحه. وكانت عملية النفخ تلك هي اللحظة التي مُنح معها خاصية العقل الذي أهَّله لأنْ يكون خليفة لله في الأرض،

ولكنها لم تكن بَدء حياته ولا بدء خلقه. بعد أن أصبح البشر عاقلاً فقط سمَّاه الله آدم في التوراة و القرآن، ولكن جميع الآيات التي وصفت مراحل الخلق الأولى في التوراة والقرآن تحدثت عن "البشر" وليس آدم.

وقبل أن نحاول فهم قضية النفخ من روح الله في البشر - وهي موضوع البحث- يستحسنُ أنْ نلخص ما نظن أنه استنتاجٌ موضوعي عن أمر خلق البشر حتى الآن:

1. قدر الله - جلت قدرته -أن يخلُقَ البشر من طين فأخبر الملائكة بذلك، وما كان للملائكة علمٌ بطبيعة هذا المخلوق الجديد فلم تستغرب، فله أنْ يخلُقَ ما يشاء وهو الحكيم الخبير.

2. خلق الله الإنسان من مكونات الطين بفعل "كن" ، وأتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً، ولا ندري هل بدأ وحيدَ الخلية أم متعددَ الخلايا، في هيئة نمل أو هيئة قرد، لا أحد يدري غير أنّه لم يكن شيئاً مذكورا. إلى هذه المرحلة نحن لا نفترض أيّ افتراض ، ولكننا لا نحدد لله أيَّ كيفية للخلق فهو يخلق ما يشاء كيف يشاء.

3. كانت الملائكة على علمٍ بوجود البشر في هيئته الدنيا تلك، كعلمها بوجود كثير من مخلوقات الله، وكانت تعلم أيضا أنه يُفسِدُ في الأرض و يسفك الدماء.

4. أودع الله في ذلك البشر سرَّ التطور في " نطفة أمشاج" الأمر الذي كان خافياً على الملائكة، ولكنّه أدى إلى تطور طبيعة البشر تدريجياً وعبر ملايين السنين عبر أطوارٍ مختلفة مجهولة لنا.

5. عاش البشر في الأرض في صورة أدنى من حالهم الحالي، و أفسدوا فيها وسفكوا الدماء والملائكة تشهد ولكنها لا تستغرب، إذ إنَّ هذا البشر كان مثله مثل الحيوانات الأخرى لا يستحق الذكر ولا وظيفة معلنة له.

6- تطور البشر وَفقاً لنظام الجينات التي تطور الصفات الحسنة وتزيل الصفات السيئة حتى وصل إلى مرحلة أقرب إلى إنسان اليوم، ولكنه ظل فاسدًا مفسدًا لأنَّه كان بلا عقل.

7- قدَّر الله - جلت قدرته - لهذا البشر قدَرًا آخرَ بعد أن أصبح موافقًا و ملائمًا "آدمًا" لأنْ يقفز به إلى وضع إنسان عاقل. ذلك القدر هو تكليفه بمنصب الخلافة في الأرض.

8- أخبر الله الملائكة بهذا القَدَر قبل أن يقضيه فاستغربت الملائكة هذا الأمر، وكان استغراب الملائكة بلفظ:

" **أَتَجْعَلُ** فِيهَا " وليس " أتخلق فيها" إذ إنَّ البشر كان قد خلق وكان معلوماً لهم.

9- قضى الله قدره بأن نفخ فيه من روحه قافزاً به من حَيَوان إلى إنسان عاقل، ثمَّ علمه الأسماءَ كلَّها ممّا أثبت جدارته أمام الملائكة التي أُمرت بأن تسجد له بعد أن تولى منصبه خليفة لله في الأرض.

إذا افترضنا جدلاً أنَّ هذا التسلسلَ مقبولٌ للنقاش، أصبح أمامنا أمران لا بُدَّ من فهمهما:

أولاً: مَن هو هذا البشر الذي نفخ الله فيه من روحه؟

ثانياً: إنْ كان المقصود هو آدم الذي شبه الله خلقه بخلق عيسى، فكيف تم النفخ فيه علمًا بأنّه في أمر عيسى قد نفخ الله من روحه في فرج أمه قبل أن يخلقه؟

نحن هنا لا نطرح هذه الافتراضات من باب التشكيك في الفهم الذي توارثه المسلمون على مدى قرون، و لكنْ لأنَّ الآيات فيها غموضٌ في المعنى ومتسع للتدبر، بالإضافة إلى توافر حقائقَ علميةٍ كثيرة تؤكد تأويلنا الجديد، علمًا بأنَّ معظم الآراء المتوارثة ليست إلا إسرائيليات ليس فيها ما يلزم المسلم عدم مخالفتها مهما اعتاد الناس عليها وقبلوها من غير تدبر.

ظـهـور الإنـسان العـاقـل:

جاءت اللحظة الحاسمة في تاريخ التطور في الأرض عندما نَفَذَ قضاء الله - جلَّ وعلا- في البشر الملائم للتطور(مجموعة آدم)، وذلك بتحويله من حَيَوان يعيش وَفقاً لقانون بابلوف للفعل المنعكس الشرْطي إلى إنسان يحكمه قانون جدل الإنسان. بمعنى أنّه قبل أن يُطورّ اللهُ ذلك البشرَ إلى إنسان عاقل، كان يتعامل بصفات الحيوان الذي يصارع فقط من أجل العيش والبقاء، ويتعامل مع الطبيعة بردود الأفعال كبقية الحيوانات. ولكنْ يبدو أن تدخلا مباشرًا من الله - تعالى- نقله نقلة بعيدة إلى مخلوقٍ عاقلٍ قابلٍ للتكليف والتعامل الفكري والجدلي مع قوانين الطبيعة. هذه النقلة غيرُ المفهومة لعلماء الطبيعة هي ما أسمَوه بـ "الحلقة المفقودة" ، إذ إنها حدثت خارجَ قانون الطفرات التي تقوم بها الجينات في الأمشاج، وظلت موضعَ حَيْرة لعلماء الطبيعة الذين لا يؤمنون بأن الخلق كلّه بيد الله، وأنَّ الله جل وعلا قادرٌ على أن يعطّل قانونَ الطبيعةِ ويفرض سلطانه المباشر، لإحداث تغيير جذري في كلِّ الوجود. فقد أثبتت الآثار العلمية أنَّ الفترة الزمنية التي يرى العلماء أنَّ التغيُّر الذي حدث للإنسان نتيجة لامتلاكه العقل، كانت فترةً متناهية في القِصَر، مقارنة بملايين السنين التي مرَّ بها، ليعتدل في مشيته ويكتسب مهاراتٍ خاصةً في استعمال أطرافه؛ لذلك ظلَّ ذلك السرُّ حلقةً مفقودةً في نظرهم إلى اليوم.

الحلقة المـفـقـودة:

لعلَّ القرآن يشير إلى هذه الحلقة المفقودة حينما يصف أنَّ الله نفخ فيه من روحه، والتي أيضاً كانت غيرَ مفهومة للملائكة لولا أنَّ الله أقام عليهم الحجة العملية كما سنرى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ " 4-9 السجدة" .

ولعلَّ من المهم هنا أنْ نفهم مدلولاتِ الألفاظ التي استُعملت لتصف تلك الطفرة:

نسل وسلالة: الأصل فيها "سلَّ" بتشديد اللام، وتعني : مدّ الشيء في رفق وخفاء ، وتعني امتداد الذرية عبر الأجيال.

سوّى: كلمة تدل على استقامة واعتدال بين شيئين.

نفخ: انتفاخ وعلو، بمعنى ازدياد في الحجم وتضخم.

روح: كلمة روح لها معانٍ كثيرةٌ منها الروح التي تحمل سر الحياة، وقد سكت الله - جلَّ وعلا- عنها ومازالت سرًّا من أسراره. لكنَّ روح أيضًا تعني سعة وفسحة واطرادًا.

سمع: لها معنى واحد هو الإيناس بالشيء أي الإحساس بوجوده.

بصر: لها معنيان: الأول هو العلم بالشيء ومنها البصيرة، وهي القدرة على إدراك الأمور الخفية، والثاني هو تغليظ الشيء كأنْ يخاط طرف الثوب.

فؤاد: الأصل " فأد " وتعني حمي وشدة الحرارة، وقد سُمِّي القلبُ مجازًا بالفؤاد لحرارته.

نلاحظ أنَّ هذه الآيات قد لخصت كلّ نظريات التطور بصورة لا ينكرها إلا مكابرٌ في هذا الزمان. المفسرون القدامى – رضوان الله عليهم - عاشوا في زمان كان الإنسان يظنُّ فيه أنَّ الأرضَ مسطحة؛ لذلك أدَّوا ما عليهم من أمانة بأن اجتنبوا الخوض في تفاصيلِ تفسيرِ هذه الآيات، لعلمهم أنَّ فيها علماً يتطلب معرفةً بأسرارِ الكون التي لم تكن متاحة لهم. ولكن في زماننا هذا ، فإنّ المنكِر أنَّ الآيات الأولى هنا تصف أن خلق السماوات والأرض تم في ستِ مراحلَ كلّ مرحلة ربما كانت ملايين السنين ، يكون منكرًا للنص الصريح في القرآن، ومنكراً لحقائقَ وقفَ عليها العلم الحديث. الله - جل وعلا- لم يترك لنا مجالاً واسعاً لنجتهد في المدة الزمنية التي تأخذها خُطُوات التطور، فقد أعطانا مثالاً للأرقام الفلكية ، وهي أنَّ يوماً عند الله في حالة نزول الأمر ورجوعه إليه يساوي ألف سنةٍ مما نعد.

مستهدين بمحتوى هذه الآيات التي لخصت نظرية "الانفجار العظيم " في خلق الكون و "النظرية النسبية" لآينشتاين في مفهوم الزمن المطلق وسرعة الضَّوء، لا بد و أن نتوقع أنَّ الآياتِ التي تليها في وصف خلق الإنسان إنَّما تصف خُطُوات التطور في خلقه أيضا، إذ إنَّ الخالقَ واحدٌ و بيده مقاليدُ السماوات والأرض، و إنَّ المضمون واحدٌ وهو طرحُ آياتٍ من آيات الله الكونية لم يكن الإنسان على علمٍ بها يوم تنزُّل القرآن. إذنْ لا غرابةَ أنَّ الآيات التالية تحتوي على كلِّ السرِّ الذي ظلَّ علماء الطبيعة يبحثون عنه عقوداً طويلة، وظلت الإنسانية في شوق لمعرفته على مدى آلاف السنين، إذ إنَّها تلخصُ كلَّ عملية التطور منذ بَدء الخلق إلى ظهور الإنسان العاقل وتحلُّ مشكلة "الحلقة المفقودة" في نظرية داروين في التطور. وحتى نستوعب محتوى الآيات من ناحية لغوية لا بُدَّ من ملاحظة أحرف العطف التي تحدِّدُ مراحلَ التطور في هذه الآيات:

{ وَبَدَأَ....* ثُمَّ جَعَلَ...* ثُمَّ سَوَّاهُ... وَنَفَخَ ...وَجَعَلَ.. السَّمْعَ.. وَالأبْصَارَ.. وَالأفْئِدَةَ}

ولمّا كانت كلُّ آيةٍ منها تحكي طوراً منفصلاً من مراحلِ التطور فيستحسن أن نناقش كل طورٍ على حدة:

الطور الأول:

﴿ .... وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾" السجدة 7 " هذه الآية وصفت بَدء خلق الإنسان من طين وليس

كماله، ممَّا يوحي بأنَّ هناك مراحلَ أو مكوناتٍ في عملية الخلق نفسِها من غير الطين. هذه الآية لم تدخل في تفاصيلَ

دقيقة وإنما أجملت إجمالا، وهذا طبيعي إذ إنَّنا كلما رجعنا نبحث في تاريخ الكون البعيد أصبحت الحقائقُ مبهمةً ويصعب فهمُها، و بالتالي فقد أجمل الله - جلَّ وعلا- تلك المرحلةَ في حقيقةٍ واحدةٍ هي أنَّ بَدء الخلقِ كان من طين. ولأنَّ بَدء خلق الإنسان كان متداخلاً مع قوانين خلق الكون الأولى، وخلق جميع الكائنات الحية بما فيها الملائكة والجن، فإنَّنا سنناقش هذه المرحلةَ بالتفصيل في وقت لاحق بعد أن ندرس كيف كان عرشُه على الماء ومن ثَمَّ نفحص آذان الأنعام.

ما يُهمنا في هذه المرحلة هو الإجابة عن هذه الأسئلة المشروعة:

* هل كان الإنسان المقصود هنا ذكراً أم أنثى أم كليهما؟

* هل كان الإنسان في هذا الطور كائناً حياً أم كان كتلة من الطين لا حياةَ فيها؟

* هل كان الإنسان يتناسل بأيِّ شكل من الأشكال في هذا الطور؟

الإجابة عن هذه الأسئلة نستنبطها من الطور الثاني:

الطور الثاني:

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ " السجدة 8 هنا نلاحظ أنَّ الله - سبحانه وتعالى- وصف حقيقة حيوية مهمة جدًّا لعلماء الأحياء، وهي انتقالُ الإنسان إلى طور التكاثر الجنسي، وهو ما تشرحه {مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ} إشارة إلى ماء الرجل والمرأة الذي يفرز في الأعضاء التناسلية والإخراجية مما يجعله ماءً مهيناً. علماء الطبيعة يقسمون التناسل أو التكاثر إلى قسمين: التكاثر اللاجنسي وهذا يتم في المخلوقات البدائية من حيوان ونبات، سواء كانت أحاديةَ الخلايا التي تنقسم على نفسها، أم متعددة الخلايا لكنَّ لها جهازاً عصبياً بسيطاً، ويمكن لبعض الأعضاء منها أن تتطور إلى كائن كامل. أما التكاثر أو التناسل الجنسي فهو الذي يتطلب التقاء ماء الذكر مع ماء الأنثى، وهذا يتم في الكائنات الراقية كالحيوانات ومنها الإنسان. إذنْ ففي هذه المرحلة التي تصفها الآيةُ أصبح الإنسان يتناسل بصورة جنسية، وتميز إلى عضو في المملكة الحيوانية. نلاحظ أنَّ الفارق الزمني بين الطور الأول الذي كان التناسلُ فيه غامضاً والثاني الذي أصبح التناسلُ فيه تناسلاً جنسيًّا فارقٌ طويلٌ، بدليل أنَّ الرابط بين المرحلتين هو حرف العطف "ثـــم".

حروف العطف تدل على المدة الزمنية بين حدوث المعطوف و المعطوف عليه. "الواو" هي واو العطف تدل على مطلق الاشتراك، و"الفاء" تفيد تتابع شيئين الفاصلُ بينهما مدة زمنية بسيطة فهي تفيد الترتيب مع التعقيب ، أمَّا " ثـمَّ" فتفيد التتابع مع التراخي أي أنَّ هناك فارقاً زمنياً طويلاً نسبياً بين الحدثين. هذه الفترات الزمنية تفهم بقانون "النسبية" أي أنَّ طبيعة الأحداث هي التي تحدد الفترات الزمنية، ففي حالة خلق السماوات والأرض في ستة أيام، يمكن أن يساوي كلُّ يوم منها ملايين أو بلايين السنين ممَّا نعد. وهذا ليس اجتهاداً، وإنَّما إذا نظرنا للآيات السابقة - أعلاه - فسنجدُ أنَّ الله قد وصف أنَّ الأمر يعرج إليه في يوم كان مقدارُه ألفَ سنة ممَّا نعد، وقد قدَّم لذلك بحرف "ثـمَّ". إذنْ فاستعمال الله - جلَّ وعلا - لحرف العطف "ثمَّ" هنا له مدلولٌ علميٌّ مهم جداً ، وهو أنَّ الفارقَ بين المرحلتين من مراحل التطور كان طويلاً نسبياً أي ربَّما ملايين السنين.

لا بُدَّ أن ننتبه هنا إلى كلمتين مهمتين في الآية: الأولى هي كلمة "**جعل**" وهي تفيد تغيير وظيفي في شيء موجود أصلاً، والأخرى هي كلمة "**نسله**" وهي تعني عملية التكاثر التي هي من أولى صفات الأحياء. أذنْ " ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ" تعني أنّه أصلاً كان يتناسل ، ولكنّه تم تغيير وظيفة التناسل إلى تناسل جنسي. هذا بالضرورة يفرض علينا فهمَ خصائصَ إضافيةً في الآية الأولى وهي أنَّ طور الطين كان فيه تناسلٌ لاجنسي، وإلا لما قال "جعل نسله". ولمَّا كان التناسلُ هو أهمّ صفات الأحياء، فإنَّ هذا بالضرورة يعني أنَّ الإنسان ومنذ طور الطين عند بدء الخلق كان كائناً حياً له الروح التي هي سر الحياة ،وكان يتناسل بصورة لا جنسية ، وبالتالي فقد كان أُحاديَّ الجنس أي لا ذكر ولا أنثى.

الطور الثالث:

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩ ﴾" السجدة 9 ".

هذا هو الطور الحاسم الذي أوجد الإنسان العاقل، ولأنه أقربُ إلى زماننا نجد أنَّ الله - سبحانه و تعالى- ذكر فيه مزيداً من التفاصيل التي نفهمها. نلاحظ في وصف هذا الطور أنَّ التطور شمل تغييراً تشريحياً في أعضاء، وتغييرًا وظيفيًّا في أعضاء أخرى. فقد قدمت الآية بتغيير تشريحي وصف بالتسوية والنفخ، وقد تم في نفس اللحظة تغييرٌ وظيفي يدل عليه لفظ "جعل" أدى إلى ظهور خواص السمع والبصر، ممَّا يدلُّ على أنَّ الأذنين والأعين كانت موجودةً لدى الإنسان، ولكنْ من غير وظيفة.

عملية "التسوية" و "النفخ" أو الانتفاخ هذه تمت في عضوٍ محددٍ من جسد الإنسان ، وهو بطبيعة الحال العضو الذي يحمل خواصَّ السمع والإبصار والعقل وهو الجمجمة.

عمليةُ التسويةِ ربما تكون تعديلاً تشريحياً في شقي المخ ومساواتهما ، وربما اشتملت على تفاصيلَ أخرى لا يعلمها إلا اللهُ بطبيعة الحال، لكنَّنا نعلمُ أنَّ مخَّ الإنسان يحتوي على بطينين كبيرين وثالث أصغر، تحتوي جميعاً على السائل المخّيّ الذي عن طريقه تتم معظمُ التفاعلات ونقل المعلومات من مراكز الالتقاط من سمعٍ وبصرٍ إلى مراكز التحليل والفهم، وهذه تختلف كثيراً عن التركيب التشريحي للمخ في الحَيَوان. ما يهم هنا هو أنَّ الله تدخل مباشرة ونفَّذ النفخ، أي أنَّ الانتفاخ والتوسعة وقعا في نفس اللحظة التي تمت فيها عملية المساواة لأجزاء المخِّ ، وهي نفس اللحظة التي حدثت فيها خواصُّ السمع والأبصار عند الإنسان، وبالتالي تكوَّن مفهومُ العقل الذي جعل من الإنسان مخلوقاً جباراً في الأرض له القدرة على استيعاب قوانين الطبيعة وتطويعها لمصلحته، وأيضا امتلك القدرة على فهم سلوك الحيوانات والمخلوقات الأخرى والسيطرة عليها، ممّا يجعله جديراً بمنصب خليفة الله في الأرض.

ونلاحظ أيضا أنَّ لفظَ {مِنْ رُوحِهِ} بطبيعة الحال لا يعني الروح التي هي سرُّ الحياة، إذ إنّ هذا الإنسانَ كان قد خُلق كائناً حياً منذ ملايين السنين، وتكاثر بطريقة لم تُفصحْ عنها الآيةُ الأولى، ثـمّ تطوّر وتميز إلى ذكرٍ وأنثى، وأصبح يتكاثر تكاثراً جنسياً كما في الآية الثانية ، ممّا يفيد تلقائياً أنّ التكاثرَ في الطور الأول كان تكاثراً لاجنسيا، ثم جاء طورُ نفخ الروح هذا بعد ملايين السنين ؛ لأنَّه قُدِّم له بحرف العطف "ثـمَّ" أيضًا. وكما رأينا في مَثَلِ خلق عيسى

أنَّ مريم قد نفخ الله فيها من روحه وهي حية، ممَّا يدل على أنَّ الروحَ هنا وهناك تعني السَّعة والاطراد وليس روح الحياة.

نلاحظُ هنا أنَّ حرفَ العطف الذي استُعمل مكررًا بين أحداث الآية، هو حرفُ "الواو" الذي يفيد مطلق الاشتراك في الحكم، وربما يفيد حدوث الشيئين معًا هنا. هذا يعني أنَّه فورَ التسوية والنفخ في الرأس أصبح الإنسان سميعًا بصيرًا وعاقلًا. هنا أيضًا نفهمُ أنَّ كلمة "جعل" تعني أنَّ الآذان كانت موجودةً وأنَّ العينين كانتا موجودتين وأنَّ المخَّ كان موجودًا، ولكنَّ الذي لم يكن موجودًا هو مفهومُ العقل الذي يستعمل وظائف هذه الأعضاء؛ ولذلك تمَّ تغييرٌ وظيفيٌّ في آلات السمع والبصر ولكنْ بعد أنْ تمت تسوية المخ، فسبحان الذي سواه! بطبيعة الحال فإنَّ الحديث هنا - بل ومن ملايين السنين قبل هذا الطور- كان عن الإنسان ذكراً وأنثى معا، إذ لا يعقل أنْ يكون نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ وهو ذكر من غير أنثى .

قد يبدو هذا التحليل مدهشاً للكثيرين، ولكنّ القرآن الذي لا تنتهي عجائبه لم يصف مرحلةَ الحلقة المفقودة كما رأينا فقط، وإنما قدّم إلينا اللهُ - جلَّ وعلا- وصفًا تشريحيًّا لطبيعة مخٍّ هذا البشر قبل أنْ ينفخَ اللهُ فيه فيصبح عاقلًا. ولمَّا كان هذا السرُّ المدهشُ يحتاج أولاً إلى فحص آذان الأنعام فإنّنا سنقوم - بإذن الله تعالى - بأول عمليةِ تشريحٍ في تاريخ العالم لمخّ البشر قبل أن يتطور إلى مخّ إنسان عاقل، وذلك في الباب الحادي عشر من هذا الكتاب.

ما نودُّ أنْ نَخْلُصَ إليه هنا هو أنَّ السمع والبصر هما أهم أدوات التقاط المعلومات عن العالم المحيط بالمخلوق، و من ثَمَّ خزنها وتحليلها في المخّ لتشكلَ المرجعية لقدرات العقل في استيعاب أحداثِ الحياة والتعامل معها بذكاء. ومن هذا نفهم أنَّ عملية التسوية لمخّ الإنسان والنفخ التي تمت بتدخل مباشرٍ من الله – جل وعلا- كانت اللحظةَ الحاسمةَ التي نقلته إلى إنسان عاقل مكلَّف، وهذه هي الحلقة المفقودة في نظرية داروين .

اجتهدنا في أنْ نجدَ أصلًا لغويًّا لكلمة " نافوخ" التي تُستعمل في العامية لتشيرَ إلى الرأس، ولكننا لم نوفق في الوصول إلى أصلها، إلا أنَّ استعمالها وصفاً للدماغ الذي هو أصلب عظم في جسم الإنسان ولا يمكن أن ينتفخ، أمر يثير الدهشة في ضَوء ما توصلنا إليه من أنَّ الله قد نفخ في دماغ الإنسان البدائي ليمنحه العقل .

ما يقوله علماء الطبيعة هو أن جمجمة البشر تضخمت تدريجيًّا، ولكن فجأة ظهر الإنسان العاقل قبل حَوالَي سبعة آلاف سنة ، وهي نفس الفترة التي وُجد فيها آدم تقريباً -كما ذكرنا في باب " قصة التطور"- ممّا يقارب بين الرأيين، وأنّ هذا التغيير الذي أدى إلى العقل هو الفرق الرئيس بين الإنسان والحيوان، ما كان له أن يحدث إلا بحدثٍ خارق لقانون الطبيعة وتدخل مباشر من الله ؛ لذلك لا يمكن فهمُها من علم الآثار والحفريات فقط. فضلاً عن أنَّ هذه التغييرات والتسوية التي وصفها القرآن قد تمت بطبيعة الحال في المخِّ وليس في العظام، و بحوثُ علم الآثار لا تجد مخاً ولا قلباً ولا لحماً وإنَّما تبحث في عظام أسلافنا، لذلك ظلت هذه التغييرات سرّاً غامضاً وحلقةً مفقودة.

وعليهً يمكننا أن نستنتج أنّ العقل يفسُد وظيفياً عند جنون الإنسان، و ربَّما ينكمش حجم المخ أو القلب أو تضيق البطينات فيه عند نومه، لذا يرفع القلم عن النائم ويرفع التكليف مؤقتا. وبالتأكيد فهو يتأثر بالخمر والمخدِّرات؛ لذا حرمهما الله – حل وعلا- لأنَّها ترد الإنسان - كما هو معروف- إلى صورته الحَيَوانية . وقد يكتمل المخ تشريحياً ويستوي عند البلوغ لذلك يبدأ التكليف مع البلوغ. وممّا لا شك فيه أنَّ حجم مخ الإنسان ينكمش مع تقدم السن، الشيء

الذي يؤدي دورا في تنكيس الخلق وفقدان العلم الذي تعلمه طول عُمُره مع الشيخوخة، وبالتالي يرفع القلم أيضا عن المسن الذي يفقد القدرة على عقل الأمور، والله أعلم.

نلاحظ أيضًا في آيات النفخ هذه أنَّ الله - تعالى- يتحدث عن الإنسان ولم يُدخل "آدم" في الصورة بعد، إذ إنَّ اسم آدم ذُكِر في القرآن ليصف الإنسان الذي تطور بعد النفخ وليس قبله.

ولعله من المفيد أن ننظر في آية أخرى وصفت مراحلَ التطور الثلاثَ بصورة مقتضبة جداً ولكنّها واضحة:

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾ "11الأعراف".

التصوير لغةً : هو تحديد الشكل وهيئة الخلق.

لا شك أن طَوْرَ التصوير في هذه الآية يختلف اختلافاً كبيراً عن طور الخلق، إذ إن العَلاقة بين الاثنين تمت بحرف العطف "ثمّ" الذي يفيد وجودَ فارقٍ زمنيٍّ كبيرٍ نسبياً بين الحدث الأول والثاني، وليس من المنطقي - بالطبع- أن نفترض أنَّ الإنسان خُلق ولكنه لم يكن كائناً حياً، ثمَّ صوره الله أي أعطاه هيئة محددة في الخلق ، ولكنَّه أيضاً لم يكن حيا إلى أن تمّ نفخ الروح فيه ، الشيء الذي سبق السجود لآدم. الفهم المنطقي والواقعي لهذه الآية هو أنَّ الإنسان خُلق وظلَّ في حالةٍ متغيرةٍ من الهيئة والشكل إلى أن وصل إلى مرحلة محددة من التطور، فصوره اللهُ أي أعطاه هيئة الإنسان المعروفة لدينا. بين طورِ الخلق الأول وطور التصوير فارقٌ زمني لا يعلم به إلا اللهُ ، ولكنه طويلٌ نسبيًّا بدليل حرف العطف "ثم". واستمر الإنسان في صورة إنسان أيضاً لمدة طويلة من الزمن لا يعلمها إلا الله – جل وعلا- إلى أن جاء الطورُ الأخيرُ الذي أُمرت الملائكةُ فيه بالسجود لآدم، وهو الطور الذي اشتمل على النفخ فيه وإعطائه السمع والبصر والعقل كما في الآيات السابقة.

بالإضافة إلى إبراز مراحل التطور بصورة واضحة، نجدُ أنَّ هذه الآية تحتوي على سرٍّ مثير للدهشة نفهمه من التدبر في لغتها. المعروف في لغة القرآن أنَّ الله يستعمل لفظ "الجمع" حينما يكون الأمر مرتبطاً بالذات الإلهية، وذلك من باب التعظيم، ولله العزةُ جميعا. فألفاظ "خلقنا" و"صورنا" و"قلنا" كلُّها تشيرُ إلى الله الواحدِ الأحد، ولكنَّ الغريبَ أنَّ الخطاب - وهو أصلاً موجه إلى الإنسان اليوم- جاء أيضًا بصيغة الجمع "كم". ما يُفهم عادة هو أنَّ الله يخاطب بني آدم اليوم؛ ولذلك يجمعهم في لفظ "كم" ولكنَّ في هذا الفهم خلطاً بيّناً. فتسلسلُ الأحداث يشيرُ إلى أنَّ هذه مراحلُ الخلق والتطور التي سبقت سجودَ الملائكة لآدم وهو فرد واحد كما هو الفهم الإسرائيلي السائد. وظاهرٌ أيضًا أنَّ الوصفَ حينما وصل إلى مرحلة السجود لآدم أصبح خطابًا مفردًا "اسجدوا لآدم"، فلماذا تمَّ الخطابُ بصيغةِ الجمع فيما هو قبل آدم، ثمَّ أفرد لفظَ الخطاب عند مرحلة آدم؟ هناك احتمالان منطقيان لهذا الأسلوب في الخطاب:

1. أن يكون الحديث أصلًا عن مجموعة كبيرة من الخلق ، خلقها اللهُ ثمَّ صورها ، ثمَّ اصطفى منها فرداً واحداً هو آدم الذي سجدت له الملائكة.

2. أن يكون السياق كلُّه صيغةَ جمع ، وهنا يكون لفظ "آدم" يشير إلى اسم جنس وليس فرداً كما نفهم، أي أنَّ آدم هو اسم أو صفة لمجموعة من البشر خلقها اللهُ ثمَّ صورها ثمَّ قال للملائكة اسجدوا لهم، أي أنَّ آدم هنا تقوم مقام "جنس البشر" أو "جنس الإنسان" وليس شخص نبيِّ الله الأول آدم - عليه السلام- .

من هنا فقط يمكننا التأكيد على أنَّ القرآن وصف وجودَ الإنسان على الأرض في مراحلَ متباينةٍ ومتباعدة، ممّا يؤكد مفهوم "الأطوار" الذي أشار إليه نوح - عليه السلام- لكننا سنبحث بالتفصيل في "مفهوم الجمع" ومفهوم آدم الذي أشارت إليه الآية في باب "في جنة المأوى" وما بعده إنْ شاء الله.

الحَيَوان يغير في تكوينه الفسيولوجي ليلائم متغيرات الطبيعة ، ولكنَّه يظل خاضعاً لها بكل عجز، وذلك ربَّما يكون التفسير لحقيقة الحين من الدهر الذي أتى على الإنسان و لم يكن شيئًا مذكورًا. أمَّا الإنسان العاقل فصار يغير قوانين الطبيعة ويطوعها ويخضعها لمصلحته. الإنسانُ يتطور بدراسة واقعه ويضع مخططاً لمستقبله، ويبدأ في تنفيذ المخطط ليصلَ إلى واقعٍ جديد ليس كل المستقبل المخطط ، وليس كل الواقع الماضي، و إنَّما إضافة من هذا وهذا، ولحظة تحققه يصبح ماضياً واقعاً ليخططَ لمستقبل جديد... وهكذا، وهذا ما يُسمَّى بقانون جدلِ الإنسان.

هذا يعني أنَّ أيَّ إنسانٍ ليتطورَ ويمارسَ الجدل يجبُ أن يمتلك معلوماتٍ عن واقعه. والبشر قد كانوا حيوانات قبل القفزِ بهم إلى إنسان عاقل، وعندما تمَّ تحويلهم إلى إنسان عاقل ملَّكهم الله أول شِقّي قانون الجدل، وهو معرفة الواقع الذي بناءً عليه يمكنهم التخطيط للمستقبل.

مرحلة السجود لآدم سبقها إثباتُ آدم جدارتَه بمنصب خليفةِ الله في الأرض أمام الملائكة التي استغربت تكليفه بهذا المنصب قبل أن تعلم أن الله سينقله إلى إنسان عاقل. هذه الجدارة نالها آدم بعد أن نقل اللهُ إلى عقله علوماً أساسية تميز الإنسانَ العاقلَ عن بقية المخلوقات بما فيها الملائكة.

نـقل السُلطـات الإلـهـية:

لَمَّا أصبح مخ الإنسان العاقل قابلاً لأنْ تنتقل إليه علومٌ لا يعلمها إلا ربُّ العالمين، بدأت عملية نقل بعض السلطات الإلهية إليه تمهيداً لتنصيبه خليفةً لله في الأرض ، وأطلق على هذه المجموعة من ذلك الحين فقط اسم آدم:

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣ "31-33 البقرة".

هذه الآيات تحكي لحظةً مهيبةً من تاريخ الكون، جمعت خالقَ السماوات والأرض في حوار مفتوح مع الملأ الأعلى، وهم الملائكة المقربون الذين ينفذون أعلى أوامر ربِّ العالمين، وخليفتِهِ المرتقبِ في الأرض. ما نلاحظه في

هذا الحوار أنَّ الملائكة سألت الله سؤالاً مشروعاً، وأنَّ الله - تعالى- لم يجبهم فقط بأنه يعلم ما لا يعلمون، وإنَّما قدَّم إليهم دليلًا عمليًّا، وهو أنَّه عرَّضهم لامتحان فاعترفوا بحدود علمهم، ثمَّ نقل علومًا لا يعلمونها وربَّما ليس بوسعهم - بطبيعة خلقهم- أن يستوعبوها، إلى عقل الإنسان الذي أجاب عن الأسئلة ذاتها التي أعجزت الملائكة العالية. هذا الوصف ربما يوحي بأنّ عقلَ الإنسان خُلق بقدرة خارقةٍ تمكنه من استيعاب أمورٍ غيبية لا تستطيع الملائكةُ استيعابَها بطبيعة خلقها، إذ إن وظيفتها فقط هي الطاعةُ المطلقةُ وليس التفكيرَ والتخطيط، ممّا يجعل الإنسان جديرًا بأن يكون الخليفةَ لله في الأرض وليس غيره. هذه الأسماءُ التي علَّمها لآدم اختلف المفسرون والعلماءُ في سرّها، فمنهم من قال: إنها أسماءُ ذريته، ومنهم مَن قال: إنَّها أسماءُ كلِّ شيء، ومنهم مَن قال: إنها كلُّ لغات الأرض ...وهكذا، ممَّا يدلُّ على أنَّ الرسول - صلى الله عليه وسلم- لم يفسرها ؛ لذلك تُركت للاجتهاد.

على أنَّ الفهمَ السائدَ الذي يفيد أنَّ آدم أصبح حينها عالمًا بكلِّ شيءٍ لدرجةٍ فاق فيها علمُه علمَ الملائكة، فهمٌ يتناقض تماماً مع كونه لم يَدفن أيًّا من نفاياه، وإلى جيله الثاني لم يكن يعلم حتى كيف ينبش الأرض ليواريَ جثث موتاه. هذا القصورُ في علمه الذي أوردته قصة "الغراب" - التي سننظر إليها بشيءٍ من التفصيل لاحقاً- يفيد أنَّ علمه بالطبيعة كان بِدائياً جداً إلى جيل أبنائه. من هنا نظنَّ أنَّ مفهوم الأسماء التي علّمها له اللهُ لها مدلولٌ آخرُ غير العلم العام الذي طالما افترضه الناس.

"أسماء" هي جمع "اسم" وقد ورد في المعجم أنَّ أصل "اسم" ربما جاء من "سمو" وتعني العلو ، أو من "وسم" وتعني "الأثر والمَعْلم". و بهذا يمكننا أن نفترض أنَّ تلك الأسماء هي السمات المميزة لخصائص الكون وليست أسماءَ أشياء بعينها. في زماننا هذا صمم الإنسان جهاز" الكمبيوتر" مستنيراً بالقليل الذي اكتشفه عن خصائص العقل البشري، فصنع فيه "الذاكرة" لحفظ المعلومات ، وصنع فيه آلاتٍ وأجهزةً تقارن بين المعلومات المخزونة وتحللها وتصنفها وهكذا. و جهاز الكمبيوتر لا يعملُ ما لم تنقل إليه ملفاتٌ تحتوي على علومٍ مصنفة ، تقوم باستعمال خواصه الفيزيائية وتحويلها إلى لغة مفهومة يتعامل بها الإنسانُ من كتابة ورسم وتصميم وتحليل ...الخ. قياساً عليه ، فلربما كانت تلك الأسماءُ التي تعلمها آدم هي سماتِ استيعابِ مقوماتِ الوجودِ وخواصِّها ، من قدرةٍ على استيعاب مفهومِ الزمانِ ماضٍ وحاضر ومستقبل ، والأبعاد والأحجام ، والقدرة على ربط الأسباب بالمسببات ، ومن ثمّ تحليل الأحداث واستيعاب خواصّ الطبيعة ، ومن ثم التفكير والتخطيط للمستقبل. هذه السماتُ ربما لا تمتلكها الملائكةُ التي خُلقت لتنصاع لأمر خالقها من غير تخطيط لحياتها. بهذا التفسيرِ يمكننا أن نوفق بين "الأسماء" التي عَلِمَها آدم وجهلتها الملائكة، وبين جهل ابن آدم في كيفية نبش الأرض ليدفن سوءة أخيه. إذ إنَّ "الأسماء" هنا تفيد القدرات العقلية على التعلم ، ولكنها لا تفيد اكتسابَ علومٍ بعينها، إذ إنَّ ذلك يتراكم بطبيعة الحال مع امتداد الخبرة في الحياة. ما يهمنا هنا هو أنَّ الله علَّم آدمَ شيئاً لا تعرفه الملائكة ليبدأ بهذا العلمِ خلافَتَه لله في الأرض.

ولعلَّ القدراتِ الفائقةَ للعقل البشري التي يستطيع بها أن يمتلك كثيراً من صفات الألوهيةِ في حدود، هي التي أهلَّته ليكون خليفةً للهِ في الأرض، إذ إنَّ جميع المخلوقات الأخرى ظلت على الأرض لملايين السنين ولم يتغير نمطُ حياتها قيد أنملة، مقارنة بالطفرات الهائلة للإنسان في شتى مجالات الحياة بعد أن نقله اللهُ إلى إنسانٍ عاقل، وكأنّه امتلك بعضاً من قدرات الخالق أودعت في عقله ؛ فأصبح يتحكم في بعض جوانب الطبيعة ويسخرها لمصلحته.

هنا نشير مرة أخرى إلى أن كلمة "آدم" تعني اسم جنس " الجنس الموافق والملائم للتغيير" وليس "آدم" كشخص واحد بعينه، فيصبح مفهوم الآية تعليمًا جماعيًّا لجنسِ آدمَ كما في قوله - تعالى- في سورة العلق :﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥ ﴾ " العلق 5 " وعلَّم آدم الأسماء كلها، فـ "آدم" و "إنسان" هما مترادفان يشيرُ كلاهما إلى جنس الإنسان العاقل لا إلى شخصٍ واحدٍ بعينه، وسنناقش ذلك باستفاضة في باب "في جنة المأوى".

تنصيب الخليفة:

بدأ خلقُ البشر على هيئة مخلوقاتٍ من ترابٍ نبتتْ من الأرض نباتاً، ثم تطوّر هذا البشرُ أو بعضٌ منه إلى أنْ أصبح ملائماً للتغيير وهو جنس آدم، ثم نُقل هذا الفصيلُ الملائمُ بفعل "كن" إلى وضع إنسان عاقلٍ بتغيير تشريحي سُوّي مخُّه وامتلك عقل الإنسان العاقل و حواسّه، ليكلفَ بعد ذلك بوظيفة خلافةِ الله في الأرض. وتمّ تعليم الخليفةِ الجديد بسِماتِ كلّ الأشياء التي في واقعه ؛ليتمكن من ممارسة الجدل والبحث والتدبر، ممّا يؤهلُهُ لأنْ يكونَ نائباً عن الخالق في الأرض متحكماً في مخلوقاته، ومتحكماً في قوانين الطبيعة في حدود ما أُوتي من قدرات عقلية. ولكي يثبتَ أهليته في أنْ يشغلَ منصبَ خليفةِ الخالقِ في الأرض، جعله الله - تعالى- يجيب عن استفسار الملائكةِ من قبلُ:

﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ۝٣٣ ﴾ " البقرة 33 " وهنا جاءت مرحلةُ تنصيب الخليفة وذلك برفعه إلى موضع التكريم على كلِّ المخلوقات التي ستخضع له ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٣٤ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥ ﴾ "34-35 البقرة" .

نلاحظُ في القرآن أنَّ كلَّ الآيات التي وصفت حالَ البشر قبلَ النفخ، تحدثتْ عن البشر أو الإنسان بينما يرد اسم "آدم" فقط بعد النفخ ونقله إلى إنسان عاقل. هذه الملاحظة التي يشترك فيها القرآن والتوراة توحي بأنَّ وصفَ "البشر" يشملُ كلَّ من صَعِدَ نفس السُلَّم من التطور، بينما كلمة "آدم" تصف المجموعةَ الملائمةَ للتغيير التي سوّى اللهُ عقلَها ونَقَلَها إلى إنسان عاقل.

هنا لا بُدَّ أنْ نتوقف كثيراً عند صيغة المخاطبة للملائكة بعد أنْ جُعِل البشر خليفة، إذ نلاحظ أنَّ الصيغة قد ظلت بصيغة المفرد "وإذ قال ربك.." في آية الخلق، ثم استمرت بصيغة المفرد طَوال الحوار الذي أثبت فيه آدم أهليته ليكون خليفة " قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ..." و" قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ ...." لكنّها تغيرت إلى الجمع " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ

.." في آية السجود. هذا الاختلاف في السياق يطرح تساؤلاتٍ عديدةً جديرة بالبحث! فممّا لا شك فيه أنَّ الله يستعمل لفظَ الجمعِ ليعظّم نفسَه في مواقعَ كثيرةٍ جداً في القرآن تكاد تكون هي الغالبة وهذا فهم جمهور العلماء، على أنّ إفراد الله لذاته في سياق الخطاب ارتبط بمواضعَ محددةٍ في القرآن بصورة يبدو منها تعظيمُه للطرف الآخر وكأنه يبرز علاقة مباشرة معه. فمثلاً حينما خاطب موسى في الوادي جاء السياقُ مفرداً ومباشراً:

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ ﴾

"11-13 طه ".

السياقُ المفردُ هنا يدل على تقريب موسى إلى الله ورفعِه لمستوى رفيعٍ وهو ما تؤكده آية ﴿ **وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ** وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ ﴾ " 164النساء ".

فلعلَّ في صيغة المفرد في التعامل مع خلق آدم تعظيماً مشابهاً للخليفة المرتقبِ حتى قبل أنْ تعرف الملائكةُ أنه سيكون خليفةً لله في الأرض، ولكنْ إنْ كان هذا التفسيرُ منطقياً فإنَّ صيغةَ الجمع المصاحبة لأمر الله - تعالى- ملائكتَهَ بالسجودِ لآدمَ تصبح غريبة ؛ لأنَّ السجودَ هو قمةُ التعظيم ولعل هذه اللحظةَ كانت أجدرَ باستعمال اللفظ المفرد حتى تعلمَ الملائكةُ قدرَ الخليفة الذي يسجدون له، ولكنّ الأمرَ بالسجودِ جاء بصيغة الجمع" وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ " في حين أنَّ الخلق كان مفرداً: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ..". هذا التساؤل يُضافُ إليه سؤالٌ آخرُ مشروعٌ وهو :كيف تسجدُ الملائكةُ العالية المقام - التي لا تسجد إلا لله - لهذا الإنسان غيرِ المعصوم؟!

انصياع الملائكة للأمر يزيدُ الأمورَ تعقيداً، إذ إنَّ وصفَ القرآنِ لسجودهم ارتبط بواحدة من أكثر الآيات القرآنية إثارةً للجدلِ والخلاف بين المفسرين منذ عهد السلف إلى يومنا هذا، وهي حقيقةُ وجودِ إبليسَ وسط الملائكة وهو من الجنّ كما أوضح الله - تعالى- صراحة:

﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴿٥٠﴾ ﴾ " 50 الكهف ".

فما السرُّ وراءَ صدورِ الأمرِ للملائكة بالسجود بصيغة الجمع، رَغمَ أنَّ خلقَ البشرِ صَدَرَ بصيغة المفرد دلالةً على تعظيمِ ذلكَ المخلوقِ، ثمَّ ماذا كان إبليسُ يفعل مع الملائكةِ، ولماذا شَمَلَه الأمرُ بالسجود رَغمَ أنَّه كان من الجنَّ؟
قبل أنْ نبحثَ في الإجابة عن هذه الأسئلةِ يُستحسن أنْ ننقل رأيَ التوراةِ في مسألة السجود لآدم؛ لأنَّ النظرَ إلى ذات القصة الغامضة من روايتين مختلفتين غالباً ما يوحي بمدخلٍ سليمٍ للبحث:

{فخلق الله **الإنسان** على صورته. على صورة الله خلقه. ذكراً و أنثى خلقهم. وباركهم الله قائلاً لهم:" أثمروا وتكاثروا و املأوا الأرض وأخضِعوها. وتسلطوا على سمك البحر، وعلى طير السماء وعلى كلِّ حَيَوانٍ يتحرك على الأرض} "سفر التكوين 1: 29 ".

نلاحظُ من هذا الوصفِ التوراتي أنَّ الإنسانَ حينما خُلق أُعطي سلطاتٍ تسلُّط على قوانين الأرض ومخلوقاتها من سمك في البحار وطير في الجو. بطبيعة الحال لا يمكنُ الجزمُ بأنّ النصَّ في التوراة الأصلية كان على هذا المنوالِ ، ولكنَّ المعروفَ أنَّ اليهود حرَّفوا عن قصدٍ النصوصَ التي تتعارضُ مع هواهم أو تتنبأ بأنبياء لا رغبةَ لهم فيهم. وأغلبُ الظنِّ أنَّ الكثيرَ من محتوى التوراة يعكسُ المضمونَ الأصلي ما لم يتعرض إلى خلل لُغويٍّ نتيجةَ سوءِ الفهمِ وسوءِ الترجمة.

مضمونُ هذا النصِ يفيدُ أنَّ سلطة الإنسان فُرضت على قوانين الأرضِ ومخلوقاتها ، وليس سجوداً للملائكة كما نظنُّ أنّه المقصودُ من النصّ القرآني . فهل يمكن أن يكون مفهومُ "قوانين الأرض ومخلوقاتها" التي تسلط عليها الإنسان كما في التوراة، مضمناً في مفهوم "سجود الملائكة" الذي حيّر المفسرين والعامة كما في القرآن، علماً بأنَّ الإنسان وبعد بضعةِ آلافِ سنة من "سجود الملائكة" له قد فَرَضَ سلطاتِه على قوانين الأرضِ ومخلوقاتِها بَراً وبحراً وجواً ، بينما ظلت فكرة "سجود الملائكة" له وكون إبليس كان بينهم مشكلةً نكادُ نجزمُ أنّها خطرت على بال كلِّ من قرأ القرآنَ بتدبر؟

"ملائكة" في اللغة لها مصدران: إذ إنّها يمكن أن تكونَ من الأصل "ملك" وهو أصلٌ يدلُ على قوة في الشيء وصحةٍ فيه، ولكنّ علماءَ اللغةِ يرجّحون أنْ تكونَ من الأصل "ألك" وتعني حمل الرسالة أو الرسول...

سجد: لها معنىً واحدٌ يدل على تطامن وذل... سجد الرجل: إذا طأطأ رأسَه وذل. وهذا المعنى لا يعني بالضرورة السجودَ الجسديّ من وضعِ الوجهِ على الأرض كما نمارسه في الصلاة، ولكنْ يمكنُ أنْ يعني الخضوع طواعية.

هنا لا بُدَّ أنْ نستدركَ أنَّ مفهوم "ملائكة الرحمن" الذي يشكّلُ الإيمان بهم ركناً أساسياً من عقيدة المسلمين، لم يكنْ معروفاً لدى العرب في الجاهلية ،إذ إنَّ القرآن استغرق ثلاثةَ عشرَ عاماً من عُمُرِ نزوله في مكة يرسّخُ مفهومَ وَحْدانية الله وصفاته وأسمائه الحسنى ، ممَّا يؤكد أنَّ الله وملائكتَه ورسلَه كلَّهم كانوا مفاهيمَ جديدةً على المجتمع العربي. قياساً على ذلك، فإنَّ لفظَ "ملائكة" الذي لا يعني إلا "ملائكة الرحمن" في فهم المسلمين من الجيل الثاني إلى يومنا هذا، لم يكن يحمل إلا مدلولَه اللغويَّ بالنسبةِ للمجتمع العربي حين تنزّل القرآنُ . ولمَّا كان القرآنُ قد طوَّعَ المصطلحاتِ العربيةَ لتوصيل الرسالة إلى الإنسان فقد استعمل بعضَ المصطلحاتِ لتشيرَ إلى ما يفهمُهُ النّاسُ حينها، واستعمل بعضَها ليشيرَ إلى حقائقَ كونيةٍ كانتْ غامضةً على الجيلِ الأول، ولكنها ظلت سرًّا من أسرارِ القرآنِ إلى حين يصل علمُ الإنسانِ بأسرارِ الكونِ قدرًا يسمحُ له أنْ يفهمَ المفاهيمَ التي كانت غامضة عليه.

من تلك الألفاظِ القرآنيةِ التي حيّرت الناسَ زمنًا مفهومُ "آذان الأنعام" الذي التبس على الناس طَوال القرونِ واتخذناه اسما لكتابنا هذا . وهنا نظنُّ أنَّ "الملائكة" التي أُمِرَت بالسجودِ ليست ملائكةَ الرحمن التي لا تسجدُ إلا لله، وإنَّما هي صنفٌ آخرُ من رسلِ اللهِ التي تتحكم في مخلوقاته، وقد جعل اللهُ تطويعَها لإرادة الإنسان جزءاً من صلاحياتِ خليفةِ الله في الأرض، ولكنَّها ما كان لها أنْ تفهم إلا حينما يتطور عقل الإنسان إلى مستوى يُعينه على فهم تلك "الملائكة" وحينها فقط يتضحُ هذا الإعجازُ اللغويُّ في القرآن .

بناءً على ذلك فإنّنا نظنُّ أنَّ هنالك ملائكةً أو رسلاً ما بين اللهِ والإنسان غيرِ ملائكة السماء الذين قال عنهم الله :

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝ ﴾ "1 فاطر".

الاختلاف في مدلول لفظ "ملك" يتوقف على نوع الرسالة، إذ إنَّ اللهَ يرسل رسلاً برسائلَ تشريعيةٍ للإنس والجن المكلَفين، تحملُها الملائكةُ المعروفةُ ، ولكنّه أيضا يتحكم في الكون تحكماً مباشراً في كلِّ مخلوقاتِه أحياءً وأمواتاً وجماداتٍ، بل ويخاطبُهم ويخيّرهم فيختارون ولكنّنا لا نفهم كيف .

هذا المفهومُ يتضحُ لنا أكثر حينما نتدبرُ أسلوبَ مخاطبةِ الله لمخلوقاتِ الكونِ غيرِ العاقلة. فمثلاً حينما اكتمل خلقُ السماءِ والأرضِ وَصَفَ اللهُ سيطرتَه عليهما بقوله: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ۝ ﴾ "11 فصلت" .

ففي أمرِ الخضوعِ له - سبحانه وتعالى- خيَّرَ السماءَ والأرضَ وهما في مفهومنا غيرُ ناطقتين، وكان التخيير في كيفية الخضوعِ وليس في حريةِ الخضوعِ وعدمِه، فردتا عليه باختيار الخضوع طواعيةً. لا أحدَ بطبيعة الحال يسأل كيف تفهم الأرضُ وكيف تُخيّر وكيف تُجيب، ولكنّ اللهَ يخاطب كلَّ مخلوقاتِه وكلُّها تجيبه.

فإذا كان الخالقُ قد خاطبَ كلَّ الكونِ قبل أنْ يخضعه له، فإنَّنا يمكن أنْ نقيسَ على ذلك أنَّه - تعالى- قد أَمَرَ جزءًا من قوانين الكونِ أنْ تخضعَ لخليفته. من هنا نفترضُ أنَّ أمْرَ الخضوعِ لآدمَ كان موجهاً للقوانين النوعيةِ التي تحكمُ حركةَ الكونِ؛ لتدخلَ في إطارِ معرفةِ الإنسانِ وقدرتِه على دراستِها وفهمِها وتطويعِها لمصلحته. هذه القوانينُ أُشيرَ إليها بلفظ "ملائكة"؛ لأنَّه في علم الله مقدَّرٌ أنَّ كلَّ الكونِ بجماداتِه وأحيائه تتحكم فيه "رسل" كيميائية وفيزيائية هي التي تحدد خواصَّ كلِّ موجودٍ و قدراته وتتحكمُ فيه ، وهذه هي التي أُمرتْ بالخضوع لآدم، وليس ملائكة السماء العالية . هذه المعلومةُ ما كان يمكنُ أنْ تخطرَ على بال إنسانٍ قبل زمننا هذا الذي اكتَشَفَ الإنسانُ فيه الكثيرَ من تلك القوانينِ التي تحكمُ حركةَ الوجودِ، ومن عجبٍ سمّاها "ملائكة" أو "رسلا" بناءً على واقعها ووظيفتِها. فكلُّ حركةِ الأحياءِ يتحكم فيها " مسنجر" مثل المسنجر RNA الذي يعمل بلا كلل في نسخ الصفاتِ الوراثيةِ من حمضٍ إلى آخرَ ، والتي تشكّلُ كلَّ خواصّ المخلوقِ إنساناً كان أو حَيَواناً أو نباتا . هذه الرسلُ أو "الملائكة" التي يتحكم اللهُ بها في مخلوقاته هي التي تحكم كلّ حركةٍ و وظيفةٍ في الخلايا الحية من الوسائط أو الرسل التي تتحكم في دخول المعادن والأيونات وخروجها من وإلى الخلية إلى الناقلات العصبية " نيورو ترانسمترز" التي تتبادلها بلايين النهايات العصبية في الجسم الواحد ، وإلى "المسنجر" الذي ينقل بلايين الرسائل الإلكترونية عبر العالم في الإنترنت، ويُسمَّى كلٌّ منها "المسنجر" أي الرسول وهو المعنى الآخر لكلمة مَلَك. وسنعرف بمزيد من التفصيل كيف يرتبط كلُّ الكون ببعضه بعضا وتتبادل مكوناته التأثير والفعل ورد الفعل عبر "الرسل" الفيزيائية والكيميائية والحيوية كأنّه جسمٌ واحدٌ حينما ندرس مفهوم الكرسي والعرش في "آذان الأنعام".

إذنْ كانت حادثة السجود لآدم أو "التطويع" هي اللحظة التي أدخلت القوانين التي تحكم مخلوقات الله في إطار معرفة الإنسان ،وقدرته على التحكم فيها ،وتسخيرها لمصلحته متى ما استطاع معرفتها. فالسجود هنا ليس السجودَ المجسدَ وإنّما الخضوعُ والتسخيرُ لقدرات تحكم الإنسان. و حتى يسهل فهمُ ذلك نضرب مثالاً بـ" الماء"، إذ إنَّ الإنسانَ أُوتي القدرةَ على فهم قوانين الماء ، وبالتالي أصبح بمقدوره أنْ يغليه فيتبخر أو يبرده فيتجمد وهكذا. فقوانين الماء النوعية أو "ملائكته" أو "المسنجرز" التي تتحكم في خواصِّه الفيزيائية والكيميائية طوعت لقدرات الإنسان أنْ يتحكم فيها. وبذات المثال فإنَّ القوانينَ التي تحكم النباتاتِ والطبيعةَ والدوابَّ كلّها أُخضعت لقدرات الإنسان أنْ يستكشفَها ويطوعَها ويتحكم فيها. المخلوق الوحيد الذي رفض أنْ يكشفَ قوانينَه النوعية وبالتالي يخضعها لتحكم الإنسان كان إبليس، وهو يمثل فصيلاً من الجنَّ وليس الجن كله، بدليل أنَّ سليمان -عليه السلام- تحكّمَ في فصائلَ مختلفةٍ من الجنِّ ، ولكنَّه لم يتحكم في إبليس؛ لأنَّه كان قد رفض إخضاع نفسِه وقوانينه النوعية "ملائكته" لسلطان الإنسان. بهذا يمكنُنا أنْ نفهمَ أنَّ الله أخضعَ كلَّ الكونِ لقبضته المطلقة التي لا تحتاج لقانون، وهذا ما عبر عنه بـ { فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا}، ولكنَّه أعطى خليفتَه صلاحياتٍ أدنى من ذلك وهي التحكم في القوانين أو الرسل أو الملائكة التي تحكم حركة مخلوقاته و سكونها ، وجاء هذا الإخضاعُ بتخيير تلك القوانين والرسلِ في أنْ تخضع أو ترفض بلفظ { قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ } أمّا كيف "قال" و "قلنا" وكيف تفهم الأرضُ وتطيع وكيف تفهم مكونات الكون الكيميائية والفيزيائية، فأمورٌ يعلمها اللهُ الذي يمكنه أن ينطِقَ كلَّ شيءٍ كما ستنطق جلودُ الكفار يوم القيامة وتشهد عليهم:

﴿ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ "21 فصلت ".

إذنْ فقصة السجود لآدمَ تشيرُ إلى أنَّ الإنسانَ أُوتي القدرةَ على الفهم ،وبالتالي التحكم في القوانين التي تخضع لها كلُّ المخلوقات، ولمَّا كان إبليسُ قد رَفَضَ السجود، فذلك يعني أنَّه هو وقبيله فقط أصبحوا خارجَ متناول قدراتِ الإنسان على معرفة قوانينهم النوعية وبالتالي التحكم فيهم.

هذا الفهمُ للفظ "ملائكة" لا يحل الإشكالَ في فهمِ كيفيةِ سجودِ ملائكة اللهِ للإنسان فحَسْب، ولا يحل الإشكال في فهم عَلاقة إبليس - الذي هو من الجنِّ- بملائكة الرحمن، وإنَّما هو استقراءٌ لآيات الله الكونية التي وصل إليها علمُ الإنسانِ، وأخضَعَ بموجبها جُلَّ قوانين الطبيعة، جماداتٍ وأحياء، لإرادته ومصلحته والتي أصبحت من المسلماتِ في حياتنا اليومية. فهذا الكتابُ في مراحلِ كتابته المختلفة نقلته الملائكة "المسنجر" التي أُدخلت في إطار قدرات الإنسان العقلية، عبر الإنترنت عشرات المرات بين لندن والخرطوم وأمريكا ومصر وفلسطين. فإذا كان الله قد خيَّر السماءَ والأرضَ صراحةً في اختيارِ كيفية الخضوع فاستجابتا له، فليس مُستغرَباً أنْ يخيِّر قوانينَ الطبيعة التي تحكم مخلوقاته أنْ تخضع أو لا تخضع لسلطان خليفته، وقد فعلت ما عدا إبليس .

إذا أعدنا قراءةَ الآيةِ مرةً أخرى بهذا الفهمِ ، فإنَّه يمكننا أنْ نلاحظ أنَّ إبليس - أصلاً- لم يُوصفْ بأنّه من الملائكة، وإنَّما كان هذا لبْساً في الفهم نتجَ عن غرابةِ القصة وسرعة القراءة:

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ: هذا أمرٌ من ربِّ العالمين إلى قوانين كلّ مخلوقاتِ الأرض أنْ تخضع لإرادة آدم.

فَسَجَدُوا: أي أنَّ كلَّ المخلوقات انصاعتْ لأمر ربّها وأخضعت قوانينَها النوعية "ملائكتها" لتَصَرُفِ الإنسان و أقدرته التحكم فيها، وهذا يشملُ الدوابَّ والنبات والطبيعة وكلَّ ما يمكنُ للإنسان أنْ يكتشفَه ويتحكمَ فيه.

إلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ: هنا نلاحظ أنَّ إبليسَ لم يوصف بأنَّه من الملائكة، وإنَّما وُصفَ بأنَّه فصيلٌ من الجنِّ رَفَضَ أنْ يكشفَ وبالتالي يُخضِعُ قوانينه النوعية "ملائكته" لمعرفةِ الإنسان و تحكمه ، وبذاك فَسَقَ عن أمرِ ربِّه في أنَّه رفض الخضوعَ لقدرات الإنسان.

من هنا يمكنُ أنْ نفهمَ أنَّ خليفة الله قد مُنحَ القدرةَ على أنْ يمارسَ السلطات الإلهية في التحكم في مخلوقاتِ الله بتحكمه في القوانين التي صمّمها اللهُ لتسيير هذه المخلوقات. الاستثناءُ الوحيدُ بطبيعة الحالِ هو قانونُ إبليس ؛ ولذلك ذكّرَنَا اللهُ مراراً أنّه يرانا ولا نراه ويمكنه أنْ يضلنا من غير أنْ نشعر.

من ناحية أخرى، نجدُ أنَّ الملائكة العالية التي تساءلتْ في موضوع خلافة آدمَ قد وصفت بالملأ الأعلى:

﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ " 69 ص " .

هناك شبهُ إجماعٍ بين المفسرين يؤكدُهُ حديثٌ عن الرسول - صلى الله عليه وسلم- أنَّ الملأ الأعلى هنا يشيرُ إلى الملائكة التي اختصمت في حقيقة آدمَ ، وسألت اللهَ عن تكليفِه بالخلافة وهو يفسد في الأرض ويسفك الدماء، وهي نفس الملأ الأعلى الذي كانت شياطين الجن تتنصت عليها:

﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ ﴾ " 7-8 الصافات".

إذنْ يمكننا أنْ نفهمَ الآنَ أنَّ ملائكة الرحمن المعروفة لم تكن معنيةً بالسجود، وإنّما كانت هي التي حملت أوامرَ ربِّ العالمين لقوانين الأرض لتخضع لمقدرات هذا الخليفة. ولعلّ من الحكمة أنْ يتنبه بعضُ الخطباء الذين تدفعهم العاطفةُ في المبالغة والتصريح بأنّ إبليسَ الخبيثَ رفض السجود لآدمَ في الوقت الذي سجد فيه جبريلُ وميكائيل وعزرائيل، وإنْ كانت مثل هذه المبالغة تصدر بحسن نيةٍ إلا أنَّ فيها تجاوزاً ربما يمسُّ عقيدة المسلم ،علماً بأنَّ الله لم يصف أنَّ إبليس كان من الملائكة أصلاً وإنّما كان الأمر "للملائكة" بالمفهوم اللغوي من غير تسميةِ جبريلَ وغيره، ثم استثنى إبليسَ ووصفه أنَّه من الجن.

إنْ كان هذا الافتراضُ صحيحًا يمكنُ أنْ نستنتجَ أنَّ اللهَ عندما خاطب الملائكة بخلق البشر، إنَّما خاطبَ ملائكةَ السماءِ العاليةَ بصيغة المفرد؛ لأنَّ الخطابَ منه وحدَه مباشرة، ولأنَّ في ذلك رفعةً لشأن هذا المخلوق الجديد، أمَّا عندما صدر الأمر "للملائكة" بالسجود "لآدم" فقد كان أمرًا من الله - تعالى- حملته ملائكةُ السماء " الملأ الأعلى" إلى "ملائكة " أو "قوانين الأرض"، كلُّ ملكٍ حملَ الأمرَ إلى ما يدخل في مجال اختصاصه من مخلوقات الأرض وقوانينها بما فيها قوانين الجن، ولذلك جاء الأمرُ بصيغة الجمع من اللهِ وملائكةِ السماء العاليةِ إلى "ملائكة الأرض" أي القوانين والرسل الكيميائية والفيزيائية والحيوية التي صمّمها الله لتكونَ وسيلةَ خطابِ مخلوقاتها.

هذا الافتراضُ لا يفسّرُ فقط الحكمةَ من صيغة الجمعِ والمفردِ في الخطابين، وليس فقط يشرحُ كيف كان إبليسُ من الجنِّ وطُلب منه أنْ يسجدَ مع الملائكة، وإنّما يفسرُ أيضا سؤالَ الله - تعالى- لإبليسَ حينما رفض أنْ يسجد :

﴿ قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ "

75ص" .

هنا نلاحظ أنَّ الله- جل وعلا- قد أفردَ احتمالين لرفض إبليس السجود: إما الاستكبارُ وهو الغرورُ الشخصيّ، أو أنّه ظنّ أنّه من العالين، أي أنّه مستثنى من إخضاع قوانينه كاستثناء ملائكةِ السماءِ "الْعَالِينَ" الذين لا يسجدون إلا لله. وكان ردُّ إبليسَ واضحاً وهو أنَّ سببَ تمرده **ليس** لأنَّه ظنَّ أنَّه من ملائكة الرحمن العالية وإنَّما هو الاستكبار؛ لأنَّ القوانين التي تحكمه هي " قوانين النار" أرفع شأناً من القوانين التي تحكم الإنسانَ وهي "قوانين الطين" ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ ﴾ " 76 ص ".

نلاحظ أنَّ كلَّ الاصطلاحات القرآنية التي سببت إشكالاً في الفهم على مر العصورِ ، أنَّها "شفرة" موقوتةٌ لا تُفهم إلا حينما يصل علمُ الإنسان بآيات الله الكونية مستوى يسمح له باستيعاب مضمونِها. هذه الشفراتُ القرآنيةُ، مثل : " **تلكما** الشجرة" و " سجود **الملائكة**" و" قال يا نوح إنَّه ليس من **أهلك**" في قصة ابن نوح، و "كان **عرشه** على الماء" و " **آذان** الأنعام" وغيرها ممّا سنناقشه في هذا الكتاب تفيد حِكَماً عديدة منها:

1. أنَّ هذا القرآن ما كان له أنْ يُفترى من دون الله؛ لأنَّ هذه المفاهيمَ كانت غريبةً على المجتمع الذي نزل فيه القرآنُ وظلت غريبة إلى يومنا هذا.
2. أنَّ هذا القرآنَ محفوظٌ بالحرف؛ لأنَّ الصحابة لو أرادوا تحريفَ شيءٍ فيه لكان الغامضُ عليهم أولى بالتحريف.
3. كل هذه المفاهيم الغامضة ارتبطت بمفهوم **التطور** الذي ما كان الإنسانُ ليفهمه قبل أن يتطورَ عقلُه إلى ما وصل إليه في زماننا هذا.
4. أنّه لا حدودَ للمعاني الخفية لكلمات الله، وإنْ كان البحرُ مداداً لها فسينفدُ البحر قبل أن تنفدَ كلماتُ الله ولو جئنا بمثله مدداً.

الخلاف حول الخليفة والسجود له:

اختلف أهلُ العلم في مدلول خلافة الإنسان في الأرض، فمنهم من قال: إنَّ الإنسانَ خُلق ليخلف قوماً سبقوه على الأرض، ممَّا يدلُّ على أنَّ رأيَ استمرارية الخلق قبل نبيِّ اللهِ آدمَ واردٌ من قديم. على أنَّ الرأي الغالبَ - وبه نأخذ - هو أنَّ الإنسان كُلف بأنْ يكونَ خليفة لله أي ينوب عن سلطانه في الأرض، وندلّل على ذلك بعدة وجوه:

1. كلمة "خليفة" في اللغة تحملُ معنى الخلف "عكس أمام" ، وأيضا معنى "التناوب" أي ينوب أحدٌ عن الآخر. القرآن استعمل الكلمة وفروعها بكثرة، لكنّ أبرز الاستعمالات وأقربها إلى موضوع خلافة الإنسان لله هو:

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ " 26 ص" .

وهنا لا نظنُّ أنَّ الله يعني غير أنَّ داود قد كُلِّف بأن ينوب عن الله في تنفيذ حكمه وسلطانه في الأرض، إذ إنّ داود كان نبياً اصطفاه الله وآتاه الملك، ولم يخلف أحداً على الملك، وإنَّما كان سليمان هو الذي وَرِث داود وليس العكس.

عندما ذهب موسى إلى ميقاته مع ربِّه كَلّف هارونَ بأن يخلفه:

﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَـٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ " 142 الأعراف".

هنا أيضاً نلاحظ أنَّ لفظ الخلافة يشير إلى تنفيذ حكم من استخلفه و سياسته. ويتضح من استعمال اللفظ في الآيتين السابقتين أنَّ الخليفة لا يُشترط فيه أنْ يحل محل الذي غاب من غير رجعة أو مات، وإنَّما تشير إلى إعطاءِ شخصٍ آخرَ صلاحيةَ تنفيذِ سياسةٍ وحكمٍ وقانونٍ، سَنَّه ووَضَعَهُ صاحبُ الأمر الأول في استمرار وجوده، وهو الله في حالة داود وموسى في حالة هارون.

2. من يتولى الحكم بعد زوال سابقه إنَّما يوصف بأنَّه وَرِثَ الأمرَ كله ، وليس أصبح خليفة كما في قوله ـ تعالى- :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيۡمَـٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ " 16 النمل".

ولذلك نلاحظ أنَّ ملكَ سليمان اختلف كماً وكيفاً عن ملك داود؛ لأنَّه لم يخلفه وإنَّما وَرِثه بعد أن مات وانتهى سلطانه وقدرته على التشريع والتنفيذ معا، وأصبح الأمرُ المطلقُ لوريثه سليمان. علماً بأنَّ سليمانَ أيضاً كان خليفةَ الله لأنَّه نبيٌّ يُوحى إليه وليس خليفةً لنبي.

3. الخليفة محدود الصلاحيات ،إذ إنَّه ملزمٌ بتنفيذ حكم من استخلفه و سياسته؛ لذلك سُمِّيَ كلُّ من قاد الأمةَ الإسلاميةَ بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بالخلفاء الراشدين وليس" الورثاء"، إذ إنَّ الميراثَ يعطي حرية التصرف المطلق، أمَّا الخلافةُ فهي فقط تكلّفُ الخليفةَ بالسير على هَدْيِ مَن استخلفه وحُكْمِه وحِكْمَته، وفي حالة الخلفاء الراشدين فإنَّهم لا حقَ لهم في تشريع جديد يخالف شِرعة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم- وكأنّه حيٌّ إذ إنَّه كان ـ أصلاً- خليفةً لله في الأرض.

4. إذا كان الإنسانُ خليفة لمخلوق سبقه على الأرض، فقد كان من المفترض أن يسيرَ على سُنة من خَلَفَه ولا يجدد في أمره شيئاً، وهذا مغايرٌ للواقع؛ لأنَّ الإنسانَ كُلّف بتنفيذ حكم الله في الأرض في نفسِه وفي رعيته وفي باقي خلقه، ولكنْ

لم يُعرف في الشرع أنَّنا إنَّما نمشي على خُطى قومٍ سبقونا وننفذ سياستهم لنحقق أمر خلافتهم، وإنَّما نحكم بما أنزلَ الله لنؤديَ دورنا في خلافة الله في الأرض.

هنا يُستحسنُ أن نذكّر بأنَّ القرآن قد وصف استمرار وجود الإنسان الجسدي من ذرية قوم آخرين، إذ إنَّ الآية وصفت: {كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آَخَرِينَ}" 133 الأنعام". و الإنشاءُ هنا يعني الاستقامة والاعتدال في المشي بعد أنْ كان أسلافُ البشر يمشون منحنين على أربعٍ كالقِرَدة، ولكنّ مفهوم الخلافة يرتبط بالعقل موطن التكليف، وهذا حدث فقط بعد أن نفخ الله في البشر ونقلهم إلى إنسان عاقل. إذنْ فالخلق قد تطور من ذرية قوم آخرين أمّا الخلافة لله فقد ابتدأتْ بعد العقل الذي أعطاه اللهُ لجنسِ آدمَ فقط بتدخل مباشر منه وليس كل البشر.

5. الخليفة كالنائب، له وضعٌ سامٍ يستمده من سمو مَن يخلفه، ولكن موقعه يظل أدنى منه وإنْ كان مرتبطا به ، فالخلفاء الراشدون أدنى من الرسول صلى الله عليه وسلم ولكنهم أرفعُ مكاناً من بقية المسلمين، إذ إنّهم اؤتمنوا على تنفيذ سياسة حكم الله وشريعته بعد موت الرسول الذي كان دوره -أصلاً- أنه خليفةٌ لله في الأرض.

6. لو كان الإنسان خليفة لمخلوق سبقه لجُعل ذلك المخلوقُ السابقُ أرفعَ مكاناً من آدمَ الذي خلفهم، وهذا مغاير للواقع ،إذ إنَّ الله أمر الملائكة بالسجود لآدم ، أي سخّر له مكونات الكون، وليس من سبقه من البشر.

7. القرآن أخبرنا أنَّ الإنسان قبل طواعية حمل الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها، وهذه الأمانة هي مسؤولية تنفيذ حكم الله في الأرض ،وتحمل تبعات تلك المسؤولية من حساب وجنة ونار يوم القيامة، وبالتالي فإنّ الخلافة هنا لله وليست لمخلوقٍ سابق للإنسان.

8. من استقراء الواقع نجدُ أنَّ الإنسان هو المخلوق الوحيدُ الذي أوتي سلطان العقل وحرية التصرف معا، إما شاكرًا أو كفورًا، ممَّا مكنه أنْ يبسطَ سلطانه على قوانين الطبيعة وبقية الخلق عدلاً أو ظلما، وكأنه يمارس صلاحياتٍ إلهيةٍ امتدت إلى محاولاته حتى في التدخل في شؤون الخالق ومحاولة تعديل الخلق ،من استنساخ المخلوقات على الأرض إلى السعي للتحكم في أجرام الفضاء، ممَّا يؤكّدُ أنَّ مفهوم الخلافة هنا هو خلافة الله، أي استعمال كثيرٍ من قدراته بِحُرِّية يُحاسَبُ عليها يوم القيامة.

9. الإنسان يشتق أسماء من أسماء الله الحسنى تدلُّ فقط على أنَّه أدنى منه في كلِّ صفة: فاللهُ هو الحكيم والإنسان حكيم، واللهُ هو القديرُ والإنسان قدير، واللهُ هو السميعُ والإنسانُ سميع، والله هو البصيرُ والإنسانُ بصير وهكذا، ممَّا يؤكّدُ أنَّ خلافة آدمَ إنَّما كانت لله، إذ إنَّه ارتبط بصلاحيات الربوبيَّة وصفاتها، ولكنَّه فقط في وضعٍ أدنى من الله في تلك الصفات.

10. إذا كان الله –جل وعلا- هو مالك الملك ذو الجلال والإكرام الذي يسجد له كلُّ مَن في السماوات والأرض، فقد جاءتْ حادثةُ السجود لآدمَ لتؤكدَ أنَّ آدم إنَّما رُفع بذلك لعَالَم السيادة الذي استحق بموجبه الخضوع والانصياع ، الذي يمنح فقط لصاحب الجلال والإكرام ونائبه أي خليفته.

11. القول بأنّ الله لا يحتاجُ إلى خليفةٍ ليس إلا مغالطةً، كالقول بأنّ الله لا يحتاج إلى ملك الموت وملك الجبال وملك الأرزاق وغيرهم، فالملكُ لله وحدَه ولكنّه كما شاء أنْ يمنح جزءًا من ملكه لمخلوقاتٍ اختارها لتنفذ أوامرَه التي إنّما تنفذ بفعل كُنْ، فله مطلقُ الحرية أن يمنحَ الإنسان صلاحياتِ الابتكارِ والتنفيذ في نطاقٍ محدودٍ من ملكوته، جاعلاً منه مخلوقاً يمكنُ أن يخلُقَ ولكنْ في حدود، ويمكنُ أنْ يسخّر الطبيعةَ والمخلوقاتِ لخدمته ،ولكنْ أيضا في حدود ما تكرم الله به عليه.

12. التمحيصُ في تمرد إبليس على السجود يدلنا على أنَّ إبليسَ كان يظنُّ أنَّه أرفعُ شأناً من الإنسان؛ لأنَّه خُلق من نار بينما خُلق آدمُ من طين، ممَّا يدل على أنَّ الخلافَ كان على رِفعة الشأن، و هذا يعني أنَّ آدمَ مُنِح وظيفةً وتكريمًا لا يستحقهما في نظر إبليس، وكأنَّه يقول لله: أنا أولى بأنْ أكون خليفتك منه؛ لأنَّني أرفعُ منه شأناً وأكرمُ منه أصلاً وأولى منه بهذا المنصب. و لو كان تكبرُ إبليسَ ناتجاً فقط من عناده لَما احتاج أن يُسوِّغَ ذلك بقوله:

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ " 62 الإسراء".

من هنا يتضح لنا جلياً أنَّ إبليسَ تمرد ورفض السجود؛ لأنَّ الإنسانَ المخلوق من طين قد كُرِمَ عليه بالخلافة لله، وهذا ينفي أنَّ إبليسَ كان سينتابه نفس الغضب لو كان الإنسان جُعل خليفةً لحَيَوان أو مخلوقٍ سابقٍ له. الأمرُ كان صراعَ مناصب، والمنصبُ هنا خلافة الله أي من يأتي بعد الله في الوجود، إبليس أو آدم . فلمَّا اختارَ اللهُ آدمَ تمرَّدَ إبليسُ.

15. إنَّ الخلافة نفسَها ـ كما ذكرنا سابقاً ـ اختلفتْ عن الخلق، إذ إنَّ اللهَ لم يأمر الملائكة بالسجود للبشر حينما خلقه، إنَّما جاء أمرُ السجود حينما جعله خليفةً له وحينها فقط سمَّاه آدمَ، وقد بيَّنَّا أنَّ لفظ "الجعل" لا يدلُّ على خلق جديد، وإنَّما تغيير في وظيفة مخلوق موجود أصلاً.

إذنْ فالسّجودُ لم يكن لآدم بوصفه شخصاً، وإنَّما للوظيفة التي رُفعَ إليها آدمُ وهي وظيفة سيادية في الكون، تكتسبُ هيبتَها من سيادة مالكِ الملكِ وليس من شخص آدم. ويمكن أن نفهم ذلك من أنَّ رجلاً عادياً بسيطاً يُنتخبُ رئيساً لبلاده، فحينها فقط تُؤدى له التحية العسكرية ليس لشخصه وإنَّما للوظيفة التي أصبح يَشْغُرُها، فإذا كان السجودُ والخضوعُ لله وحدَه فإنَّ من جعله الله نائباً وخليفة له جديرٌ بالخضوع له تعظيماً لله وليس لشخصِ النائب.

بناءً على ما تقدم فإنَّنا نظنُّ ـ والله أعلم ـ أنَّ الرأي القائل إنَّ الإنسان هو خليفة الله في الأرض، هو الأرجح لغةً ومنطقاً و واقعاً.

ولعلَّ الالتباسَ في الظنِّ بأنَّ السجودَ لآدمَ قد تمَّ بالسقوط على الأرض كما نسجد نحن لله، قد نتج من فهم هذه الآية التي نظنُّ أنَّ لها معنىً آخرَ:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

"71-74 ص".

نقفُ في هذه الآياتِ عند كلمة " **فَقَعُوا**"، ونحنُ نعتقد أنَّها ليست "فعل أمر" من الفعل "وقع"؛ لأنَّ اللفظ لو كان فعلَ أمرٍ لما احتاج أنْ يُقدَّمَ له بحرف العطف الفاء، وإنَّما هي فعلٌ ماضٍ بلفظ الجمع من الفعل "يـفقع"، والرجل الفَقِع هو

الرجل الطيّع الذليل، و"الفقاعة" هي انتفاخٌ ضعيفٌ في سطح الماء سُرعان ما يزول، و الرجال الذين "فَقَعُوا" هم الذين تذلّلوا لغيرهم.

هنا يخاطب الله - تعالى- ملائكةَ السماءِ بأنَّه سيقدِّرُ قانونًا يؤدي إلى خلقِ كائنٍ جديدٍ أسماه "البشر" ،سيتمُ تطورُ هذا البشرِ إلى أن يستويَ ويعتدل على قدميه، وحينما يسوي عقله و ينفخ فيه من سَعة "روح" الله وفضله ، ستذل وتطأطئ له "فقعوا" أي سيفقعُ ملائكةُ الأرض، أي كأنَّه في الآية الأولى يصفُ لهم ما سيحدث: "فإذا سويته ونفخت فيه من روحي سجدوا له أجمعين"، وفي الآية التالية استثنى من شذَّ عن ذلك الأمر: " فسجد ملائكة الأرض كلهم أجمعون.. إلا إبليس استكبر عن الانصياع للخليفة الجديد...

من هنا يتضح لنا أنَّ لفظ السجود لا يعني بالضرورة السقوط على الأرض، و وضع الجبهة تحت أقدامِ آدمَ، وإنَّما يعني إخضاع جميعِ المخلوقاتِ في الأرض لإرادةِ آدمَ. ومن هذا يمكننا أن نستنتجَ أنَّ الإنسانَ يمكنه أن يكتشفَ القوانين النوعية لكلِّ المخلوقاتِ والموجوداتِ بما فيها الجنُّ نفسُه، وتطويعهم لخدمته وتسجيدهم له، ما عدا إبليسَ وقبيلَه إذ إنَّه أخرج نفسَه من هذا الانصياع منذ أول يوم. و ربَّما كان سلطانُ سليمانَ الذي فرضه على الجنِّ بقدرة الله، و وضعهم في وضعِ إذلالٍ ومهانةٍ إلى ما بعد موته، لَيؤكد لنا أنَّ سلطانَ خليفةِ الله يمتد على كلِّ المخلوقات باستثناء إبليسَ وقبيلِهِ؛ لأنَّ هذا تمردٌ وقَبِلَ اللهُ رجاءَه أن يبقى إلى يوم الدين ويكون عدوًا للإنسان .
فبينما أُخْضِعَ كلُّ الجنِّ لآدمَ والجنسِ الإنساني، ظلَّ إبليسُ حرًّا طليقًا إلى يوم الدين:

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ "74-83 ص".

هذه الآياتُ توضحُ لنا أنَّ إبليسَ قد ربط نفسَهُ بهذا المخلوقِ الجديدِ ،و وضعَ لنفسه هدفاً إلى يوم القيامة، وهو غواية الإنسانِ عن الصراط المستقيم؛ لذلك عندما يُؤمر الإنسانُ بأن يسكن الجنة أو يهبط منها إلى الأرض لا نحتاج لأنْ نسأل عن إبليس؛ لأنَّه سيكون حيثما وُجدَ الإنسانُ ، فهذا هو هدفه الذي مُنح من أجله الخلودَ إلى يوم الدين.

إذا افترضنا أنَّ كلَّ هذه الاستنتاجاتِ منطقيةٌ، فلا بُدَّ لنا إذنْ أن ندخل الجنة مع " آدم" لنرى هل كان زوجاً واحداً أو مجموعة من البشر هو جنس آدم . و لكنْ قبل دخولنا الجنةَ يُستحسنُ أن نسترجع الأسئلةَ المحرجةَ التي خطرت على بال الكثيرين من أهل الديانات السماوية - مع اختلافهم- عمَّا حدث في الجنة:

1. اشتمل السياقُ القرآنيُّ في وصف أحداث الجنة على آدم و زوجه بصيغة المثنى، من غيرِ مقدماتٍ لوجود الأنثى، فمن أين جاء زوجه؟

2. لو كانت لفظة "آدم و زوجه " تشير إلى رجل وامرأة هما أولُ أبوين في تاريخ البشر، لصحَّ لنا أن نسأل: من أين تزوج ابنا آدمَ ليواصلا النسل؟ الإجابةُ الشائعةُ وأصلها من الإسرائيليات وليست حتى موجودة في التوراة المحرفة ، هي أنَّ آدمَ ولد زوجين من التوائم، ولداً وبنتاً، في كل حالة. فهل يكون الله قد بدأ نسلَ البشرِ من زواج أخ من أخته؟

3. الشيطانُ أقسم أمام اللهِ قسماً فريداً من نوعه في تاريخ الكون، ممَّا يدلُّ على أنَّه قمّةٌ في المكرِ والدهاء، فلماذا يستدرج آدمَ بخدعةِ "شجرة الخلد وملك لا يبلى" في أولِ يومٍ دخل فيه الجنة، وهو ليس لديه تَجْرِبةٌ بَعْدُ مَعَ الموتِ، وبالتالي لا خوفَ لديه منه بعدُ . ما طبيعة تلك الشجرةِ وما عَلاقتُها بالخُلد لدرجة أنَّ آدمَ ينخدعُ في الإغراء؟

4. قبل أن يأكلا منها نزعُ الشيطانُ عنهما "لباسهما"، و حينما أكلا منها بدت لهما "سوءاتهما" حَسْبَ نصِ القرآن والتوراة، فما العلاقةُ المباشرةُ بين "الأكلِ من شجرةِ الخلد" و نزعِ اللباسِ و ظهور السَّوءة للدرجة التي يكرِّرُها الله - تعالى- بصورةٍ بارزةٍ جداً في التوراةِ والقرآن؟!

* * * *

ما جرى في جنة المأوى يحكي أُولى تصرفاتِ الإنسان الأول ،الذي لمَّا تكنْ لديه بعدُ أيَّةُ خبرة في التعاملِ مع الحياةِ بوصفه إنساناً عاقلاً، ولكنَّه نسي أنَّ الشيطانَ على ربِّه قد افترى، فَقَبِلَ نُصحَهَ بسذاجةِ الإنسانِ العادي إلى اليوم فغوى. وما جرى في جنة المأوى أمرٌ غامض ومعقد، ومن حكمة اللهِ أنْ لا أحدَ من البشر غير آدمَ قد رأى ما جرى؛ لذلك ما روى الله ما جرى إلا بلغةٍ تعكس مستوى فهمِ الإنسانِ في ذلك الحين. وحتى نستطيع أن نفهمَ ما جرى لا بد لنا أن نستدعيَ "الغراب" ليترجمَ لنا ما جرى ،إذ إنَّ الإنسانَ نفسَه ما درى حينها ماذا جرى... و ما جرى رُوي بمنطق الإنسان الأول الذي كان يتعلم من الغراب بالمشاهدة، وليس منطقنا نحن بعد آلاف السنين ممَّا جرى. فلندخلْ معَ آدمَ إلى جنةِ عرفات لنكشف - ولأول مرة في تاريخ البشرية- ماذا جرى "**في جنة المأوى**".

البـــــاب الرابـع

في جـنَّـةِ المأوى

منذ أن أقسم إبليسُ بعزة الله لَيُغْوِيَنَّ آدمَ وذريتَه وهو بارٌ بقسمه ومجتهدٌ في إغواء الإنسانِ في كلِّ زمان ومكان. ولعلَّ من الحكمة أن نتدبرَ قسمَ إبليس، الذي شكَّل أكبرَ خطرٍ على آدمَ وذريتِه منذ ذلك اليوم، إذ إنَّه ما زال اللاعبَ الرئيسَ في خريطة العالم:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ "82-83 ص".

المتدبّر لهذا القسمِ والوعدِ الحاقد لابُدَّ وأن يستحضرَ الصورةَ الحقيقية للحظة حدوثِه؛ فالشيطانُ لم يكن يشك في وجود الله ولا عزته، ولا يحتاج إلى رسول يهديه، أو معجزاتٍ تثبتُ له أحقيةَ الله - سبحانه و تعالى- في الملك. ورغم ذلك اختار معاداتِه عَلَناً بهذا الفجور الذي يمثلُ أعظمَ تمردٍ في تاريخ الكون. فقد روى لنا القرآنُ أنَّ فرعونَ - وهو من أكثر جبابرة الأرض فجوراً- قد حاولَ إظهارَ إيمانِه حينما انطبق عليه البحرُ فقال: {قَالَ أَمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلا الذي أَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ}. و لكنَّ إبليسَ هنا يتحدّى و يتوعدُ ، وليس بينه وبين اللهِ رسولٌ أو ملائكةٌ تتوسطُ في نقل الحوار. أهميةُ هذا القَسَمِ تكمنُ في أنَّ أسلوبَ هذا المَرِيدِ في استدراج الإنسانِ سيكونُ في منتهى الخبثِ والمكرِ والعزيمةِ التي لا تلين كما سنرى ؛ ولذلك فإنَّ الله –جل وعلا- يذكّرُنا بأنَّ الشيطانَ لنا بالمرصاد في كلِّ زمانٍ ومكان، حتى لا تكونَ لنا حُجَّةً أنَّ اللهَ ما حذَّرَنا من مكره.

رغم وضوحِ نيةِ الشيطانِ في إضلال الإنسان، إلا أنَّ الله –جل وعلا- قد وصف لنا أولَ معصيةٍ ارتكبها الإنسانُ ، بعد خداع الشيطانِ له في الجنة، بِلغةٍ فيها من الغموض ما يحيِّرُ كلَّ متدبرٍ لكلمات القرآن. ويبدو أنَّ غموضاً مماثلاً روى اللهُ به نفسَ القصة في التوراة، هو الذي أَلْبَسَ على بني إسرائيل؛ فقاموا بتأويل الألفاظ حتى تصبحَ مفهومةً في نطاقِ علمِهم المحدودِ حينها، ثم كُتِب تأويلُهم في التوراة ونُسِبَ إلى الله؛ فأفسدوا الحكمةَ من غموضِ الألفاظِ وخلقوا معانيَ جديدةً لا عَلاقةَ لها بالقصة. ولأنَّ الوصفَ القرآنيَّ لا ينقصُ غموضًا، فقد انتقلتْ تلك التأويلاتُ الإسرائيليةُ إلى المسلمين على أنَّها تفسيرٌ لغموضِ آياتِ القرآنِ المحفوظِ من التحريف، لدرجة أنَّها أصبحت من المسلَّماتِ التي لا تُناقَش، ممّا يدل على أنه لا أحد استطاع أن يقدّمَ لها تفسيرًا غيرَ تأويل الإسرائيليات. تلك المعصيةُ الغامضةُ هي الأكلُ من الشجرةِ المحرمةِ .

من المهم أن نذكرَ هنا أنَّ شريعةَ الله - تعالى- منذ آدمَ إلى يومِ القيامةِ لم تُحَرّمْ شيئاً إلا لحكمة، حتى و إنْ كان الإنسانُ لا يعرفُها. فقائمةُ المحرماتِ اشتملتْ على الخبائثِ وقائمةُ الحلالِ اشتملت على الطيبات ،وإنْ كان الإنسانُ أحيانا لا يفهمُ الحكمةَ من وراءِ التحريم. أما هُوِيَّةُ شجرةِ الخُلد التي حُرِّمتْ على آدم، والحكمة من تحريمها، فقد ظلت أمراً مُبْهَماً على كل أهل الديانات السماويّة. ولأنّ المعصيةَ وقعت في عهدٍ مبكرٍ من حياة الإنسانِ العاقلِ ،وفي أولى أيامه في الجنة، فنظنُّ أنّه من الحكمةِ محاولةُ فهمِ الظروفِ التي حدثت فيها ،والمستوى الفكري للإنسان آنذاك ،ومن ثَمَّ اللغةِ التي كان يمكنُهُ أن يعبّرَ بها عن نفسه أو يُخَاطَبَ بها؛ لأنّ وصفَ القرآن عادةً ما يَعكِسُ المستوى الفكري لأيِّ مجتمعٍ يقصُّ علينا قصصَهُ. ولأنّنا نظنُّ أنَّ التداخلَ مَعَ الطبيعةِ من أهم وسائلِ فهمِ عقليةِ الإنسان في أيِّ مجتمعٍ، فسنحاولُ فهمَ لغةِ الغُرابِ الذي تعلّمَ منه ابنُ آدمَ ؛ لتعكسَ لنا منطقَ خطابِ المجتمع الأولِ ولغتَهُ من ناحية، ولغة الهدهد الذي خاطب سليمانَ في أمر العقيدةِ والسياسة، لتعكس لنا لغة الخطاب بعد نضج العقل البشري؛ لأنّ اللغتين في

القرآن تمثلان مرحلتين متباعدتين جداً من تطورِ البشر، ممّا سيمكّنُنا من فهمِ مراحلِ تطورِ العقلِ البشريِّ عبر العصور منذُ عهدِ قصةِ شجرةِ الخلد في القرآن و التي وُصفتْ بلغة الغراب.

لغة الغراب:

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ "31 المائدة ".

ظاهرُ هذه الآية يخبرنا أنَّ ابنَ آدمَ ،وبالتالي كل المجتمع الإنساني حينها، لمَّا يكنْ يدري بعدُ كيف يدفن موتاه، ولمَّا يكتشفْ بعدُ كيف يتعاملُ مع الأرضِ والطبيعة. أما باطنُها فيوحي بما هو أهم، وهو أنَّ الإنسانَ كان يفهمُ فقط بالمشاهدةِ التصويريةِ والوصفِ الحركي. وظيفةُ الغرابِ هنا لا تدلُّ على أنّه طائرٌ عاجزٌ لا يمكنُهُ التعبير، ولكنَّها إنَّما قُصدَ منها أن تكونَ كالمرآةِ تعكسُ مستوى فكرِ الإنسانِ وفهمِهِ حينها، والذي لم يكنْ يفهمُ إلا الحركاتِ والمجسماتِ، ولكنَّها لا تعكسُ حالَ الغرابِ، إذ إنَّ ابنَ آدمَ هو المقصودُ بالقصة وليس الغراب.

لغة الهدهد:

بعد آلافِ السنين من عصرِ آدمَ وعلى العكس من الغراب ،نجدُ هدهدَ سليمانَ في منتهى الفلسفةِ والجراءة:

﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ﴾ "22-26 النمل".

هذهِ المحاضرةُ العصماءُ عن قوم سبأ ونظامِ حكمهمِ وعقيدتِهم الفاسِدة، يقسمُ الإنسانُ أنَّها من نظم بروفيسور في الفلسفة والعلوم السياسية وليس طائراً بسيطاً. القصةُ هنا - بطبيعةِ الحال- تعكسُ مستوى وعي سليمانَ وامتداد سلطانِه واهتمامه بعقائد البشر، وليست - بالضرورة- دليلاً على أنَّ الهدهدَ كان أشدَّ ذكاءً من الغراب، أو أنَّه كان بليغاً في اللغة العربية الفصيحة. قصةُ الهدهدِ هذه تسببُ لبساً في فهمِ كثيرٍ من الناس الذين يمعنون في تخيُّل الهدهد يلقي خطاباً بليغاً باللغة العربية الفصيحةِ أمامَ الملأ. الواقعُ أنَّ سليمانَ هو الذي عُلِّم منطقَ الطير، وليس أنَّ الطيرَ عُلّم منطقَ سليمان؛ وهذا يعني أنَّ الهدهد عبّر عن هذه الأمورِ بلغته هو، التي لم يفهمها - بطبيعة الحال- إلا سليمان، ولكنَّ اللهَ روى لنا مضمونَ ذلك الخطابِ بلغة القرآن الفصحى.

فالروايتانِ ليستا إلا ضرباً من ضروب الإبداعِ الفنِّي في القرآن، إذ إنَّ اللهَ I قد عكس لنا حالَ الإنسانِ في عصرِ قابيلَ وهابيلَ وعصرِ سليمانَ بأسلوبِ تعاملِ الطيرِ مع كِلَيهما، وكأنَّ الغرابَ والهدهدَ ليسا إلا مِرآتين تعكسانِ حالَ مَنْ ينظرُ إليهما. من هنا نستنتجُ أنَّ مجموعةَ آدمَ ،وإلى جيلهم الثاني في الأرض ،كانوا يفهمون الأمورَ فقط من هيئتِها الحركيةِ، ويعتمدون على المشاهدةِ والوصفِ الحركي للأشياء، وليس التفاصيل الفلسفية أو الخُلُقية أو العَقَدِيّةِ المجردة.

شجرة الخلد:

بهذا الفهمِ نحاول استنباطَ المعاني الخفيةِ من قصة شجرة الخلد وما جرى في الجنة. ولأنّ تلك المعصيةَ تمثلُ أولَ مراحلِ وفاءِ الشيطانِ بوعده في إغواء الإنسان، فقد كرّرَ القرآنُ تذكيرنا بها حتى نَحْذَرَ مكائدَ الشيطان، ولكنْ كلما ذُكرت القصةُ كانت اللغةُ غامضةً جداً:

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ " 27 الأعراف ".

لباس: من لَبْس، وتعني: مداخلة ومخالطة ،ومنها: لِبس الثوب الذي يختلط بالجسد، ومنها :اللَّبْس في الفهم وهو اختلاط الأمور وعدم وضوحها .

سَوءة: من سُوء، وأصلها القبح في الشيء.

نحن لا نشكُّ أنَّ معظمَ العرب والمسلمين يراودُهم شعورٌ أنَّ هذه الآية الغامضة، كأنَّها تصف حدثاً له عَلاقةٌ بالعمليةِ الجنسية، إذ إنَّ "اللِّباس" تعني: الملابس في أحد معانيها، ولكنَّنا إذا أضفنا إليها "النزع" كما في الآية " يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا " ازدادت صورةُ التعريةِ في ذهن القارئ؛ لأنَّ النزعَ يعني الخلع بقوة. مما يزيدُ الأمرَ تعقيداً أنَّ نَزْعَ اللِّباس يؤدي إلى انكشاف العورة وهي السَّوءة، وهذا ما حدث حينما نزع إبليسُ عن أبوينا لباسهما وأراهما سوءاتهما. الآيةُ لا تصرِّحُ بأكثرَ من هذا، ولكنَّ في هذا الوصفِ من الغموض ما يدلُّ على أنَّ ما حَدَثَ في الجنة من معصية، كان أمراً أبعدَ ما يكونُ عن الأكلِ من شجرةِ تفاحٍ محرمة. نلاحظُ أيضاً في هذا التحذير لبني آدم أنَّ الشجرة نفسَها لم تُذكر، وإنَّما اقتصر التحذيرُ على تذكيرنا بهدفِ الشيطانِ الأساسي وهو نزع "اللباس و إبداء السَّوءة". ممَّا يزيدُ الإنسانَ حَيْرةً في فهم طبيعةِ تلك الشجرةِ هو أنَّها كانت الشيءَ المُحرَّمَ الوحيدَ على آدمَ في الجنة، لكنَّه لم يسلمْ من غدر الشيطانِ واستدراجِه للأكل منها. وتزدادُ الحَيْرةُ إذا انتبهنا إلى أنَّ آدمَ وزوجَه - أصلاً- لم يلبسا شيئاً قبل أوراقِ الجنةِ ، وبالتالي لم يكن حينها عليهما ملابسُ لينزعها الشيطان، وكانت سوءاتهما عاريةً ظاهرةً لهما ولغيرهما. و حتى نفهمَ ما حدث بالضبط لا بُدَّ لنا من دراسةِ القصةِ من كلِّ جوانبها التي وُصفت في القرآن.

هناك ملحوظةٌ مهمةٌ يجبُ أن ننتبهَ إليها في هذه المرحلة، وهي أنَّنا قد تابعنا وجود "البشر" منذُ أن خُلق من ترابٍ ثمَّ من طينٍ ثمَّ من نطفةٍ، ثمَّ مرَّ بمراحلَ مختلفةٍ إلى أن نَفَخَ اللهُ فيه من روحه ونقله إلى إنسانٍ عاقل، ثمَّ بدأ تكليفه فأمره

الله –جل وعلا- بعدم الاقترابِ من الشجرة، وفي هذه الرحلةِ سمعنا اسمَ "آدم" أولَ مرةٍ عندما علّمه اللهُ الأسماءَ كلّها ،أي بدأ أولى مراحلِ تنصيبِهِ خليفةً للهِ في الأرض. ولكنْ هنا، و حينما صَدَرَ الأمرُ بالسكن في الجنة، جاء الخطابُ فجأة إمَّا عن "أبوينا" أو موجه لآدمَ وزوجِه، رغم أنَّ القرآنَ لم يُخبرنا لا هنا ولا في أي موقع آخر من هو آدم بالضبط ،ولا من أين أتى زوجُ آدم . ولقد رأينا في باب "قصة التطور" في تفسير آية: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝ ﴾ " الانسان 1 " أنَّ الافتراضَ بأنَّ ذلك الحين من الدهر قد تم بعد عصرِ نبي الله "آدم" المصطفى افتراضٌ غيرُ واقعي؛ لأنَّ الإنسان منذ عصر آدم ظلَّ في تطور مستمر، و وجود ظاهر ومؤثر على الأرض بوصفه خليفةً لله فيها. من هذا يمكن أن نفترضَ أنَّ كلمة "زوج" هنا لا تعني إلا أنَّ "آدم" لفظٌ يشملُ الذكرَ والأنثى، ولذلك حينما اقتضى السياق الإشارة إلى وجود ذكرٍ وأنثى مضمنين في لفظ آدم، جاء لفظ "أنت وزوجك". أي أنّ الحكمةَ من "أنت وزوجك" هنا هي أن نفهمَ نحن أنَّ "آدم "هذا كان ذُكراناً وإناثا، وليس لتخبرنا فجأة أنَّ حواءَ قد خلقت منه كما يُفهم من الإسرائيليات.

بهذا المعنى فإنَّ "آدم" يكون اسمَ معنى مطابقاً لكلمة "إنسان"، وبالتالي عندما يذكر اللهُ - تعالى- اسمَ آدم، لا يلزم أنَّه يتحدث عن ذكرٍ ولا عن أنثى، ولا عن مفردٍ ولا عن جمع، إنَّما فقط يمكنُ أن نستنتجَ ذلك من سياق الآياتِ ومعناها العام. ويجب أن نلاحظ أيضاً أنَّ لفظَ "آدم" لا يعني بالضرورة "آدمَ" النبيَّ المصطفى أبا الأنبياء - عليهم أفضل الصلاة والتسليم-، إنَّما يعني: "البشر الملائم للتغيير".

سنناقش- بإذن الله- اصطفاءَ آدم (النبي الأول) في باب "سفينة نوح" عندما نتدبر اصطفاءَ الرسل الذي يمثل نقلةً أخرى في عمليةِ تطورِ الجنس البشري، ولكنَّه لمَّا كان الخطابُ هنا قد أَدخل مفهومَ "الزوج" في سياق القصة فمن الحكمةِ أن نلقيَ بعضَ الضَوء على خلق الأنثى.

خــلق الأنثى:

إنَّ خلقَ الأنثى في فهم المسلمين فيه قصورٌ كبيرٌ، لا يدعمه أيُّ دليلٍ شرعيٍّ ولا نقليٍّ ولا لُغويٍّ ولا منطقيٍّ ولا علميٍّ، وكلُّ ما يردده المسلمون ليس إلا تأويلاً غيرَ موفقٍ للحديث المجازي الذي وصف أنَّ المرأةَ خُلقت من ضلع أعوج. ولأنَّ الحديثَ مجازيٌّ فقد قاد المسلمين إلى اعتماد تأويل الإسرائيليات لهذا الوصف، وقبولهم من غير سؤال للفكرة القائلة: إنَّ المرأةَ خُلقت بعد خلق "آدم الذَكَر" وخُلقت من ضلعٍ منه. أبرزُ الأسباب التي أدت إلى هذا الَّلبسِ هي أنَّ المجتمعين اليهودي والعربي - اللذين قاما بتأويل الغامض من التوراة والقرآن- كانا وما زالا مجتمعين ذكوريين، ممَّا أدى إلى قَبول التأويل على مرِّ العصور من غير تدبر. الحديث المذكور لا يختلفُ عن الحديث الذي وصف المرأة بأنَّها ناقصةُ عقلٍ ودين، ولكنْ لأنَّ هذا الأخيرَ دخل في إطار التشريع الإسلامي الذي أعطى المرأة كلَّ حقوق المساواة في الإنسانية، والحقوق الشخصية والشرعية، تمَّ فهمُه فهماً صحيحاً؛ وذلك أنَّه يشير إلى أنَّ الأنثى أكثرُ عاطفةً من الرجل، وأنَّها تسقط عنها بعض التكاليف الشرعية في حالة الحيض والنَفاس، من غيرِ أنْ ينقصَ ذلك من قدرها عند الله شيئا. أمَّا الحديثُ الذي وصفَ خلقَ الأنثى من ضلع أعوج فلم يجد نفسَ القدرِ من الاهتمام ومن ثمّ البحث؛ لأنَّ خلقَ الإنسان -أصلاً- لم يكن مفهوماً، ولم يكن من القضايا التي بذل العلماء جهداً في فهمها. ولعلَّ الله - جل وعلا - ما كلَّف

رسوَله أنْ يدخلَ في تفاصيلِ خلق الأنثى؛ لأنَّه - أصلاً- ما دخل في تفاصيل خلق الذكر، وما ذلك إلا لأنَّ مسألةَ الخلقِ تتطلبُ علماً دقيقاً بحقائقَ فسيولوجيةٍ وبيولوجيةٍ وتشريحيةٍ ،يشترك ويختلف فيها الذكرُ والأنثى، ويؤدي فيها كلٌّ دوراً أساسياً في خلق الآخر، ما كان لها أن تُفهمَ حين تنزّلَ القرآنُ لا في خلقِ الأنثى ولا الذكر.

نحن نعلمُ الآن - بفضل الله علينا- أنَّ الأنثى هي المسؤولةُ عن استمرارِ الحياةِ أكثرَ من الرجل، ليس فقط لأنَّها تحملُ الجنين، وإنَّما أيضاً لأنَّ الجنين يتكون - أصلاً- من مكونات الأنثى والبويضة أكثر من الذكر وحيوانه المنوي . فممَّا لا خلافَ حوله في علم الأجنّةِ و النساءِ والتوليد أنَّ ما تحمله أولُ خليةٍ تتكون بعد تلقيح البويضة من مكونات الأنثى أكثرُ بكثيرٍ ممَّا تحمله من مكونات الذكر، وما ذلك إلا لأنَّ الحَيَوان المنوي - أصلاً- أصغرُ حجماً، وأنَّه يفقدُ ذيله في التلقيح، وأنَّه ليس لديه نواةٌ مكتملة، وأنَّ "السيتوبلازم" فيه لا يحتوي على "مايتوكوندريا" ، وبالتالي فإنَّ معظمَ الحمضِ النووي الذي تحويه نواةُ أول خلية يتكون منها الجنين يأتي من نواة الأنثى. إذنْ فدورُ الأنثى في استمرار الخلق أهمُ بكثير جداً من دورِ الذكر، للدرجة التي أغرت العلماءَ في هذا الزمنِ بمحاولة نسخِ الحياة من بويضة الأنثى من غير وجودِ حيوانٍ منوي، فكيف إذنْ يكونُ دورُها في بدء الخلق أقلَّ من دور الرجل كما يُفهمُ في كل الديانات السماوية؟ الإجابة الوحيدةُ هي أنَّ كلَّ الآياتِ التي وصفت مراحلَ خلق "البشر" أو "الإنسان" وتطوره في التوراةِ والقرآنِ ،إنَّما تصفُ الجنسَ البشري بشقيه الذكر والأنثى، اللَّذين لا يمكنُ فصلُهما في قضية الخلق. فلمَّا جاءت مرحلةُ التكليفِ استعملت التوراةُ و القرآن لفظَ "آدم" ، وهو لفظٌ يشمل الذكر والأنثى؛ للتمييزِ بين سلالات البشرِ التي لم تتطورْ وسلالة الجنس الملائم للتغيير، الذي نفخ فيه ليكونَ إنساناً عاقلاً ذُكراناً وإناثا. بمعنىً آخرَ فإنَّ ذِكْر "آدم" لا يدلُّ على الذكورة؛ لأنَّ "آدم" يشمل الذكرَ والأنثى، وكلاهما تم نقلُهُ إلى إنسانٍ عاقلٍ بعملية النفخ، وتمَّ تكليفهما معا وبالتساوي.

هناك رأيٌ متداولٌ بين خطباءِ المسلمين يقول: إنّ أوجهَ الخلقِ عند الله أربعةٌ: خلق الله آدمَ الذَكَرَ من غير أبٍ أو أمٍّ، وخلق من ضلعه حواءَ الأنثى، ثمّ خلق بني آدم من ذكر وأنثى ،ثمَّ خلق عيسى من أنثى دون ذكر. وهذا الرأي ليس إلا اجتهاداً لا أصلَ له من الشرع. ونحن نظنُّ أنَّ اللهَ يخلق ما شاء كيف يشاء، ولا يمكن قصرُ قدراتِه على عدد من الأوجه ،علماً بأنَّه جعل عصا موسى تتحول إلى حيةٍ تسعى، وبمقدوره أن يَخْلُقَ أيَّ مخلوقٍ كيف يشاء. أمَّا وصفُ القرآن لخلقِ البشر فلم يُحدّدْ فيه لا ذكرٌ ولا أنثى، وإنَّما هما متكاملان ابتُدئ خلقُهما معاً من نفسٍ واحدة. ولقد رأينا في باب (الحلقة المفقودة) أنَّ اللهَ "﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ زمناً قبل أن يَنفُخَ فيه من روحه ويمنحه العقل، ممَّا يؤكدُ أنَّ الذكرَ والأنثى صَعِدَا سُلَمَ التطور يوماً بيوم بوصفهما مخلوقين متكاملين لا يمكن لأحدهما أن يوجدَ بدون الآخر.

من هذا نفهم أنَّ الإنسانَ(ذكرا وأنثى) قد خُلقَ وتطوَّرَ بذات المراحلِ من غير تمييز، وأنَّهما تميّزا في مرحلةٍ من مراحلِ الخلق إلى أنثى وذكر، فأخذت الأنثى عواملَ تؤثرُ على العواطف أكثر ممَّا أخذ الرجل، ولكنْ ليس هناك منطقٌ علميٌّ أو دليلٌ شرعي يدعمُ الفكرةَ المجسدة لخلق حواء من ضلع آدمَ كما وصفت الإسرائيليات. وسنناقشُ هذه القضيةَ الملتبسةَ حينما نبحثُ بالتفصيل خُطُواتِ خلقِ النفسِ الواحدةِ من ماءٍ في باب "آذان الأنعام"، ولكنّنا أردنا هنا فقط أنْ

ندللَ على أنَّ لفظ ﴿ ..... ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ .... ﴿٣٥﴾ ﴾ لا يشيرُ إلى آدمَ وحواء ،وإنَّما هو أمرٌ عامٌّ

لجنس آدم(ذُكرانا وإناثا)، وأنَّ لفظ "زوجك" هنا يفيد التنبيه إلى أنَّ مَن سكن الجنةَ كانوا أزواجاً(ذكرانا وإناثا) متساوين في العدد والمسؤولية، وليس آدم وحواء. إنَّ الحقائقَ القرآنية العلمية الإعجازية أرقى من أن نتجاهلها فقط اتباعاً لجهل بني إسرائيل وتحريفهم لكتبهم .

إبليس حالة استثنائية:

قبل أن ندخلَ مع آدمَ الجنةَ لا بُدَّ أن نوضحَ شبهةَ "هبوط إبليس" و"خروجه منها" التي كثيراً ما تُفهم أنَّها كانت هبوطاً من الجنة، وخروجاً من الجنة التي سكن فيها آدم.

أدخل الله-جل وعلا- كلَّ المخلوقات في رحمته من غير شرط. وهذه الرحمةُ تشملُ كلَّ مقوماتِ الحياة ونعمها التي يشترك فيها العاقلُ وغيرُ العاقل، الكافرُ والمؤمنُ، ما داموا أحياءً يُرتجى إيمانُهم. ورحمةُ الله درجاتٌ، يدخل المؤمنون في رحمةٍ أعلى ممّا يشترك فيه بقيةُ الخلق:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾ ﴾ " 175 النساء".

والدخولُ لا يعني الدخولَ إلى مكان أو موقع، وإنّما يعني أنْ يشملَهم الله برحمته. وعليه فإنّ الخروجَ يمكنُ أنْ يكونَ من رحمة الله ونعمه التي كان قد أنعمها على الإنسان فلم يشكر:

﴿فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٥٨﴾ ﴾ " الشعراء57-58 "

والذين أخرجهم اللهُ من رحمته في الحياة الدنيا حقّرَهم وأهبَطَهم من مقام التكريم الذي كانوا فيه، وتبعَ ذلك انتقامُه منهم فكانت نهايتُهم كما في قصة فرعونَ وهامانَ وغيرهما.

الموتُ حقٌ على كلّ الأحياء ،وكلُّ فصيل من الأحياء له عُمُرٌ افتراضي لا يتجاوزه. كلّ الإنس والجن متاحٌ لهم الدخولُ في رحمة الله الشاملةِ إذا آمنوا قبل أن يأتيهم الموت. فإذا جاء أجلُهم مع كفرهم فلا رحمة بعده. كغيره من الجنّ كان إبليسُ في رحمة الله سواءٌ آمن أم كفر ... لكنّه بعد أن استكبر (هبط) بأمرِ الله من مقام التكريم الذي كان فيه، و (أخرجه) الله من رحمته. خروجُ الأحياءِ من رحمة الله يعقبه الموتُ؛ لأنّ استمرارَ الحياة نفسها - وَفْقاً لنظام الكون- رحمةٌ مستمرةٌ من الله - تعالى- على الأحياء. إذا نظرنا إلى الذين اجتمعت فيهم صفاتُ إبليسَ في القرآن، أي الاستكبار الذي تبعه إذلالٌ و إهانةٌ وخروجٌ من رحمة الله، فسنلاحظ أنَّ ذلك تبعه موتهم عقاباً؛ لتكبرهم وكفرهم. فرعونُ وهامانُ وقارونُ جميعُهم كانوا في رحمة الله ، وجميعُهم كانوا مُكرّمين، لكنَّهم استكبروا وتعالَوا في الأرض،

وجميعهم أماتهم اللهُ بعدَ أن أذلهم وأخرجهم من رحمته كما سبق. تلك هي سُنّةُ الله الباقية لكنَّ إبليسَ كان استثناءً. و إذا قارنا بين فرعونَ وإبليسَ فسنجدُ أنَّ فرعونَ استدرك وتاب لكنْ بعد فوات الأوان؛ لذلك سرى عليه القانونُ الثابتُ وهو أنَّ الخروج من رحمة الله يتبعه الموت. أمَّا إبليسُ فقد ازداد كِبرا وهو لا يشكُّ في وجود الله و عزَّته ، أي ازداد في الكِبر ولم يستغفرْ أو يطلب العفو --- فلنتدبر الآيات بهدوء:

﴿ قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

"(75) ص"

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

"(12)الأعراف".

في الآية الأولى نلاحظ أنَّ الله سأله عن سببِ رفضِهِ السجودَ وخيَّرَه بين احتمالين:
الاستكبار --- أم أنَّه ظنَّ أنَّه من الملأ الأعلى الذين لا يسجدون إلا لله.
وكانت إجابته أنَّه ظنَّ نفسَه أكرمَ ممن خلقه اللهُ من طين أي تكبر، ولكنّه كان يعلمُ أنَّه من الجنِّ وليس من العالين.

فرعون تبعته لعنةٌ إلى يوم الدين --- أمَّا إبليسُ فقد ظلَّ ملعوناً ،وهو حيٌّ خارجٌ من رحمة الله لكونه حالةً استثنائيةً في استمرار الحياةِ مع اللعنةِ خارجَ رحمة الله.

اللعنة إلى يوم الدين:

إبليسُ كان من الجنِّ . الجنُّ كانت أكرمَ من الإنسان قبل العقل؛ لأنَّه كان فاسداً مفسداً في الأرض من فصيل الدوابِّ. كرَّم اللهُ الإنسانَ بالعقل وجعله خليفةً له، هذا التكريمُ أغضبَ إبليسَ ودفعه للتكبر. تكبره أخرجه من رحمة الله. خروجُهُ من رحمة الله تبعه هبوط بأمر الله من مرحلة التكريم، التي تمتعت بها الجنُّ فوق الدوابِّ وتحت الإنسان. خروجُهُ من رحمة الله أيضاً اقتضى موته الفوري. كان بوسعه أن يتوبَ ويستغفرَ، ولكنَّه بدلاً من ذلك طلب الإنظارَ إلى يوم الدين فأُجيبَ طلبُه ،ولكنَّه استمر حياً بهذه الصفات:
1- يكون في عذابٍ مستمرٍ خارجَ رحمةِ الله، التي يتمتع بها الكفار من الإنس والجن إلى يوم موتهم.
2- هَبَطَ من مرحلة التكريم رغم أنَّه ما زال من الجنِّ؛ لأنّ بابَ التوبةِ مقفولٌ أمامَه فأصبح من الأذلاء المحتقرين الصاغرين إلى يوم الدين.
إذنْ فقد نال البقاءَ الذي نشده ، لكنَّه سيظلُ في عذابٍ ولعنةٍ من الله إلى يوم الدين لأنّه حيٌّ فقط ، لكنَّه خارجٌ من رحمة الله التي يتمتعُ بها الكفارُ الذين يُرتجى إيمانُهم قبل موتهم.
إذنْ:

إبليسُ كان مكرماً مثل بقية الجن، فظنَّ أنَّ الله ارتكب خطأً فكرّم عليه مَن هو أدنى منه، واستكبر ورفض الانصياع لأمر ربِّه. جزاء هذا التكبر حقّره الله (أهبطه من الوضع الذي كان فيه) وأخرجه من رحمته. ولمَّا كان الخروجُ من رحمة الله يقتضي الموتَ فقد استجاب اللهُ لطلبه أن يُنظرَهُ إلى يوم الدين، لكنَّه سيكون مطروداً مذءوماً مدحوراً من رحمته إلى يوم القيامة.

نلاحظ أنَّه بعد أن قُفلَ ملفُ إبليسَ نهائياً، جاء أمرُ الله لآدمَ بالسكن في الجنة:

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ "الأعراف".

و هذه الجنة - كما سنرى- كانت غابةً في الأرض لا عَلاقةَ لها بجنَّات السماء. ولا يُعقلُ أنَّ إبليسَ كان بمقدوره الدخولُ إلى جَنَّة السماءِ بعد أن أخرجه اللهُ من رحمته. لكنَّه- بطبيعة الحال- كان حُراً في الدخولِ إلى أيَّة غابةٍ أو جَنَّة في الأرض مع آدم.

السكن في الجنة:

﴿ وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ "35البقرة".

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ "19الأعراف".

جنّة: أصلها من "جنَّ" بتشديد النون، وتعني: السَّتر والتغطية. وسُمِّي البُستانُ جنةً لأنَّ أشجارَه تستر ما وراءه، والجنين هو الولد مستوراً في بطن أمِّه، والجنون هو تغطيةُ العقل، والجانُّ هو المخلوق المستترُ عن الإنسان. إذنْ فلفظ "جَنَّة" وحدَه لا يشترط أن تكون إحدى جنان السماء، وإنَّما هي الحديقة ذاتُ الأشجار الكثيفةِ التي تستر ما وراءها حيثما وجدت .

بعد أن سُخِّرَت مكوناتُ الأرضِ لعقل الإنسان (سجود الملائكة) ورفض إبليسُ السجود، تقلَّد آدمُ- العنصر الملائم للتغيير- منصبَ خليفة الله في الأرض كما أُريدَ له أن يكون، وربط الشيطانُ قدَرَهُ به كما أقسم أمام الله . ولما كان آدمُ - أصلاً- قد خُلق من ترابِ الأرض ،ونبت منها نباتاً بصريح اللفظ، ولمّا كان قد خُلق ليكون خليفةً لله في الأرض ،فليس من المعقول أن يُرفعَ الخليفة بعد تولِّيه منصبَه وسُخِّرت له قوانينُها ومخلوقاتُها، أنْ يُرفع ليسكنَ في جَنَة السماء. فسفيرُ

السودان إلى بريطانيا مثلا، لا يُعقل أن يسكن في البرازيل بعد تسلّمِه أوراقَ اعتماده، وكذلك فليس هناك منطقٌ أن يسكنَ خليفة الله في الأرض بعد تسخيرِ مخلوقاتها له، في جَنّة السماءِ التي لا تكليفَ ولا عصيانَ فيها ،وإنّما نعيمٌ مقيم دائم . أضف إلى ذلك أنَّ إبليسَ كان من الجنِّ، وأنَّ الجنَّ - أصلاً- مخلوقاتٌ سكنت الأرضَ قبل الإنسان، فلا يُعقلُ أن يصعدَ إبليسُ من الأرض ويدخلَ جَنّة السماء بعد أن طُرد من رحمة الله ليوسوس لآدم هناك.

إذنْ فالافتراضُ أنَّ الجنة التي سكنها آدمُ كانت في السماء ليس إلا لَبْسَاً لا أصلَ له، لا في المنطق ولا تسلسل الأحداث ولا حتى في اللغة، وهو ليس إلا من "فضائل" بني إسرائيل علينا. أمّا في القرآن فقد ورد استعمالُ كلمة جَنّة في أكثر من مكان لتعنيَ البستان والحديقة ذات الأشجار الكثيفة، كقوله:

﴿ ۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا

بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ "32 الكهف" .

بحثنا في آراء السلف فلم نجد دليلاً يُنسبُ لمن لا تجوزُ معارضته يدلُّ على أنَّ "الجنة" المقصودة هنا كانت في السماء، إذ إنَّ كلَّ الآراء الواردة ليست إلا اجتهاداتٍ اعتمدت على أنَّ اللفظَ جاء مُعرَّفاً بالألف واللام، وهذا في تقدير بعضِهم يدل على أنَّها جَنّةٌ واحدةٌ هي جنة السماء، وما هذه الاجتهاداتُ والاختلافاتُ في الرأي إلا نتاجُ غموضِ القصةِ كلِّها والتأثر بالإسرائيليات. والأحداث التالية - ونحن نمشي على خُطى الإنسانِ الأول - ستقدمُ الكثيرَ من الأدلةِ على أنَّ كلَّ شيءٍ تمَّ في الأرض.

نعودُ الآنَ لنتدبر خُطُواتِ الإنسانِ الأولِ بعد التكليف، فبعد تنصيب " آدمَ" خليفةً صَدَرَ "إليهم" أولُ أمرٍ شرعي وأول تحريم ، وهما محتوى الآيتين أعلاه. بِهاتين الآيتين بدأ "البشر" المرحلةَ الثالثةَ في رحلة وجودِهِ بعد "الخلق" بوصفه حَيَواناً في الأرض ، ثمَّ "التطوير" لإنسان عاقل "آدم"، إذ إنَّه الآن بدأ مرحلة التكليف والأوامر والنواهي، فكان أولُ ما أُمِرَ بـه "اسكن أنت وزوجك"، ثمَّ أول ما نُهِيَ عنه "لا تقربا" .

كلمة "آدم" في اللغة - كما قدمنا- لها أصلٌ واحدٌ وهو "الموافقة والملاءمة"، وحديث الرسول- عليه السلام- المشهور "فإنَّه أحرى أن يُؤدم بينكما "(رواه الترمذي). يعني أن يَحْدثَ توافقٌ بينكما. وقد افترضنا - سابقاً- أنَّ الخليفة سُمّي آدمَ؛ لأنَّه كان أكثرَ البشر ملاءمةً وموافقةً للتغير في خلقه وجعله إنساناً عاقلاً، وستأتي براهين كثيرة تؤكِّدُ ذلك الافتراض. وهذا المعنى يقودنا إلى المعنى الأصلي لكلمة "زوج" في اللغة وهي مقارنةُ شيءٍ لشيء، ومن ذلك أنَّ الرجلَ زوجُ المرأة، والمرأة زوج الرجل، إذ إنَّ كلمة زوج لا تعني الرجل أو المرأة، وإنَّما تعني أنَّ كُلاً منهما زوجٌ للآخر كما ورد في كل معاجم اللغة. ولعلَّ ورودَ لفظ "زوجك" هنا فيه تنبيهٌ إلى أنَّ الاقترابَ من تلك الشجرة أمرٌ يستوجبُ مشاركةَ الذكر والأنثى وليس أحدهما فقط.

"السكن" في اللغة :هو حالة الهدوء والسكون أي عكس الحركة والاضطراب، وليس بالضرورة المسكن، كما في قول الله - تعالى- :

﴿ وَمِنۡ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَـٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ "21 الروم" . فالأزواجُ هنا تعني: الرجال والنساء معا، و "تسكنوا" تعني: تشعروا بالسكينة والراحة والاستقرار.

و بالتأمل في الأمر بالسكن في الجنَّة، يتضح لنا أنَّ آدمَ وزوجَه" الجنس" قبل السكن في الجنة كانوا في حالةِ حركةٍ واضطراب. الحركة من أجل البحث عن الرزق، والاضطراب في صراعاتهم المختلفة مع بقية الحيوانات قبل أن يُمنحوا سلطانَ العقل والقدرة على التحكم فيها وفي قوانين الطبيعة. هذه الحالة من الحركة والاضطراب ربَّما تكون سببَ فسادِهم في الأرض وسفكهم للدماء قبل أن يُنقلوا إلى إنسان عاقل. ورغم أنَّ اللهَ آتاهم العقلَ ،فاللهُ يعلم أنَّ العقل الذي يفتقرُ الخبرةَ في الحياة يحتاجُ إلى عونٍ كبير في أول أيامه؛ لذلك وفَّر لهم سكناً آمنا تتوافر فيه كلُّ احتياجاتِ الإنسانِ ،ودلّلَ على ذلك قول الله - عز وجل- : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴿١١٨﴾ ﴾ " 118 طه" توافر الأكل والسترة ، وقوله - تعالى- :﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ﴿١١٩﴾ ﴾ " 119 طه"، توافر الماء والظل، وقد وصف ذلك المكان بالجنة إشارة إلى حديقة أو غابة معروفة لديهم.

يجب أن ننتبه هنا إلى أنَّ لفظ "لا تعرى" لا يعني أن تكون عارياً من الملابس؛لأنَّ آدم أصلاً كان عارياً، وإنَّما تعني أنْ "لا تكون مكشوفاً في العراء لأخطار الطبيعة". هذا المعنى شبيهٌ بمنِّ اللهِ على قريش {الذي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}، إذ إنَّه هنا جمع بين الجوع والخوف تماماً كما جمع بينهما في تَفضُّلِه على آدم بـ: أَلا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى .

هنا لا بُدَّ من التنويه إلى حقيقةٍ علميةٍ مهمةٍ ترتبط بتوفير الأمن، من حيثُ المأكلُ والمسكن، مباشرة بعد منح الإنسان العقل. المعروف أنَّ جميعَ البشر في كلِّ العصور يشغلون معظمَ وقتهم في العمل الشاق؛ من أجل توفير المسكنِ والمأكلِ والمشربِ لهم ولأسرهم، ولا يجدون وقتاً كافياً للتفكُّر والتدبُّر في عظمة الكون وخالقه. توفير هاتين الضرورتين- من غيرِ جهدٍ لآدمَ - في هذه المرحلة فيه دعوةٌ غيرُ مباشرة لهم للبَدء في استعمال العقل والتأمل في الطبيعة وقوانينها، من غير خوفٍ من جوعٍ أو عدوٍ يتربص بهم غير العدو الوحيد الذي حذرهم الله منه. هذه الحقيقة ما زالت عاملاً أساسياً في نجاح وتقدم أممٍ على غيرها، إذ إنَّ البلاد المتقدمة تهتم بتنمية عقول المبدعين من أبنائها وبناتها، و توفّر لهم دخلاً عالياً يغنيهم عن البحث عن لقمة العيش والمسكن؛ حتى يتفرغوا للابتكار والبحث والإبداع. وهكذا كان شأنُ آدمَ من أول يومٍ فقد وفر الله له معظمَ احتياجاته الحيوانية ليترك له مجالاً واسعاً لإطلاق العِنَانِ لعقله.

ورد في كتب التفسير أنَّ الآراءَ التي تذهب إلى أنَّ الجنة إنَّما هي جنة السماء، تستندُ على تعريف اللفظ بالألف واللَام ،ممَّا يدللُ على أنَّها جَنّة واحدة، وهذا الرأي فيه نقصٌ من وجهين:

1. سَمَّى القرآنُ جناتٍ عديدةً بأسماء مختلفة، مثل :الفردوس وعدن والنعيم. ولذا فليس هناك جنةٌ واحدة في السماء يمكن أن يُدللَ عليها فقط بالتعريف بالألف والَّلام.

2. التعريف لا يشترط أن يكون دليلاً على أن المعرَّفَ واحدٌ فقط ، وإنَّما يمكنُ أن يفيدَ أن المعرَّف بالألف واللَّام معروفٌ للمخاطب، وهذا يفهم من صيغة الخطاب.

من تعريف الجَنّة بالألف واللَّام يمكنُ أن نفترضَ هنا أنَّ مجموعة البشر تلك، كانت تعيش في مِنطقةٍ جغرافيةٍ محددة، تتصارعُ وتتقاتلُ وتتوالدُ وتتطورُ وتموت، وذلك وَفْقاً لقانون الانتخاب الطبيعي في عالم الحَيَوان. هذا القانونُ لا خلافَ عليه، إذ إنَّه الذي يحكم حياةَ الغاب اليوم حيث يأكلُ القويُّ الضعيفَ. هذه المجموعة كانت تعيش قريباً من تلك الجنة أو الغابة التي عرَّفها لهم الله. وحتى تسهل علينا متابعةُ الأحداث بصورة سَلسةٍ نصرِّحُ بمعلومة سابقة لأوانها، وهي أنَّنا قد خلصنا بأدلةٍ كثيرة إلى أنَّ عملية النفخ والتطوير إلى إنسان عاقل تمت في وادي "مِنى" ، وأنَّ الجَنّة المقصودة كانت في وادي عرفات، ولكنّنا سنناقشُ تلك الأدلةَ كلٌّ في حينه بإذن الله. هنا فقط نودُ الإشارةَ إلى أنَّ تعريفَ الجَنّة يدل على أنّهم كانوا على علمٍ بجنة عرفات التي تبعد بضعة أميال من وادي منى.

سكن الإنسانُ العاقلُ داخلَ الجنة ذُكراناً وإناثا، و سمح الله لهم أن يعيشوا كيفما يشاءون داخلها ويأكلون من حيثُ شاءوا ،ولكنَّه نهاهم عن فعلِ شيءٍ واحدٍ هو ﴿ ....وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ .....٣٥ ﴾" البقرة 35" وجاء الخطاب هنا بلفظ المثنى، وكأنَّ اللهَ ينبههم إلى تساوي المسؤولية بين الإناثِ والذكورِ في عدم الاقتراب من الشجرة، أو كأنَّ الاقترابَ منها فعلٌ مشتركٌ لا يمكن أن يقوم به ذكرٌ دون أنثى. هذا الخطابُ المزدوجُ يجعل الوصفَ القرآني مختلفاً تماماً عن الوصف التوراتي حيث وجَّه الخطاب في النهي لآدم فقط ، وفهم اليهودُ أنَّ آدم هذا كان ذَكَراً، ثمَّ كان إغراءُ الشيطان للأنثى التي أكلت أولاً ثم أعطت زوجَها ليأكل، وما ذلك إلا لأنَّ بني إسرائيل أوَّلوا الشجرة إلى شجرة تفاح، وبالتالي ضاع قدرٌ مهمٌ جداً من أصل القصة. ومن هذا التحريف نتجت لعنة اليهود على المرأة التي انتقلت إلى التقاليد الإسلامية والعربية ، وأصبحنا نردد أنَّ المرأة هي التي أخرجتنا من الجنة من غير أن نفكِّرَ لحظة في أننا إنَّما نردد تأويلاً شاطحاً من تأويلات الإسرائيليات لا علاقة له بنصِّ القصة في القرآن. قلنا إنَّ الله وفّر لآدمَ كلَّ احتياجاته الحيوانية في الجنة حتى يتفرغ لاستعمال العقل في التدبر... ولكنْ بقيت حاجةٌ حيوانيةٌ واحدةٌ تمّ تحذيرُه من الاقتراب منها....تلك هي شجرة الخلد.

الدُّخْلة الأولى:

بعد تلك الإيضاحاتِ نعود لنتدبرَ الآية مرة أخرى، فنلاحظ أنَّ الله ـ تعالى- حينما يذكِّرنا بما فعل الشيطان بأبوينا يختصرُ القصةَ إلى أهمّ مقوماتها، فتختفي كلمةُ الشجرة وتبقى ألفاظٌ محيرة جداً:

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٢٧ ﴾ " 27 الأعراف ".

نلاحظ في هذه الآية أنَّ كلمة "سَوْءة" قد وردت جمعا لمثنَّى وليس مثنَّى فقط. فالواحدة " سَوْءة "، والاثنتان "سوأتان" والجمع "سوءات"! فإذا كان الشيطان قد فتن رجلاً وامرأةً فإنَّه يريهما "سوأتيهما"، أمَّا إذا فَتَنَ مجموعةً غيرَ محددةٍ فإنَّه يريهم "سَوْءاتِهِم" بلفظ الجمع فقط. لكنَّ اللفظَ القرآني هنا فريدٌ من نوعه و هو "سَوْءاتِهِمَا" الذي هو جمع مثنى . هذا يعني(لغةً) أنَّ الشيطانَ كشف عن سوءات صنفين أو مجموعتين من جنس آدم، الشيء الذي يفسِّرُه التصريحُ بـ "أنت وزوجك". ونحن نظنُّ أنَّ اللفظَ غالباً ما يعني سوءات مجموعة الإناث من ناحية، وسوءات مجموعة الذكور من ناحية أخرى؛ ليستقيمَ المعنى مع جمع المثنى المستعمل في الآية "سَوْءاتِهِمَا". جمع المثنى في اللغة يشير إلى ستة فما فوق، إذ إنَّ أدنى عدد يمكنُ الإشارةُ إليه بجمع المثنى إمَّا أن يكون مجموعتين من ثلاثةِ أفرادٍ ، أو ثلاثَ مجموعاتٍ من زوجين، غيرَ أنَّه لا حدودَ للعدد الأقصى الذي يشيرُ إليه جمعُ المثنى.

هنا يتضح لنا أنَّ الشيطان إنَّما فَتَنَ مجموعة من البشر ، وليس رجلاً وامرأة فقط كما هو مفهوم من غير دليل. وأيضاً يتضحُ لنا من حذف كلمة "شجرة" أنَّ الشجرة إنَّما هي وصفٌ مجسمٌ أو حركيٌّ للمعصية التي استدرج لها الشيطانُ ذكور مجموعة آدم و إناثها، ولكنَّها ليست شجرةَ تفاحٍ كما فسَّرت الإسرائيليات، وتبعها في ذلك المسلمون من غير تدبُّر.

نحن نعلم أنَّ هذا التوضيحَ لأمر واضحٍ جداً في ألفاظ الآية له وقعُ الصاعقة على كثير من الناس، ولكنَّ من المهم جداً أن نتذكر أنَّ هذا التفسير الذي ستؤكِّده دلائلُ أخرى، لا يتناقض مع ما عُلِمَ من الدين بالضرورة، ولا يعارضُ تفسيراً صريحاً من النبيِّ صلى الله عليه وسلم للآية، و كذا لا يعارض اتفاقاً عاماً بين علماء المسلمين على هُوِيَّة الشجرة. كلُّ ما يعارضُه هو التأويل المتوارث الذي أصبح من المسلَّمات كالعقيدة ، وإنْ كان أصله من الإسرائيليات.

هذه الألفاظُ لا تمهِّدُ إلا لأنْ نكتشفَ أنَّ أول معصية ارتكبتها مجموعة آدم هي ممارسةٌ جنسية قبل أن يشرِّع الله لهم العلاقاتِ الزوجيةَ، وما كان ذلك إلا حرصاً منهم على الخلود بإنجاب الأولاد، وهذا يفسِّرُ لنا مضمونَ وسوسة الشيطان للذكور والإناث:

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ "20 الأعراف". ..وفي آية أخرى:

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ "120 طه".

من هذا يتضح جليًّا أنَّ الشجرة لم تكنْ مقصودةً لذاتها، وإنَّما كان إبليسُ قد استدرجهم (مجموعة آدم) إليها بعد أن قدَّمها إلى آدمَ على أنَّها وسيلة للخلود واستمرار الوجود وامتداد الملك، ممَّا يجعلُ البحث في معنى كلمة "شجرة" أمراً ضرورياً لفهم القصة.

ولأنَّ إعادةَ فهم هذا اللفظِ يشكِّلُ حجرَ زاوية في فلسفة "نظرية آذان الأنعام في الخلق والتطور"، ننقل هنا معنى الكلمة حرفياً من معجم "مقاييس اللغة" لأبي حسين أحمد بن فارس بن زكريا الرازي المتوفى سنة 395 هجرية:

شجر:"الشين والجيم والراء أصلان متداخلان، يقرب بعضُهما من بعض، ولا يخلو معناها من تداخلِ شيءٍ في شيء وارتفاع، وقد جمعنا بين فروع هذين البابين، لما ذكرناه من تداخلهما". ويمضي أحمدُ بن فارس الرازي يشرح أوجهَ استعمال الشجر: " فالشجر معروف و واحده شجرة وهي لا تخلو من ارتفاع وتداخل أغصان. وسمِّيت "مشاجرة" لتداخل كلامهم بعضه في بعض، وسمِّي المُشَجَّر مُشَجَّراً لتداخل بعضه في بعض، وتشاجر القومُ بالرماح إذا تطاعنوا بها ".

فإذا رجعنا إلى حال آدمَ الاجتماعي والفكري ، واستحضرنا الحكمة في "لغة الغراب" ،والتي تعني أنَّ الإنسان الأول كان لا يفهم الأفعال إلا بوصفها الحركي ، فإنَّ استعمالَ لفظ "شجرة" هنا يكون وصفاً للمداخلة بين الإناث والذكور والتي كانت مفهومة لآدمَ من سابق تَجْرِبة، وإنْ لم يكن لديه بعدُ مصطلحاتٌ اجتماعيةٌ أو فلسفيةٌ أو خُلُقيةٌ يفهمها بها.

الشيطانُ ـ كما قلنا- مخلوقٌ ماكرٌ وداهية، ولذلك نفترض أنَّه كان عالماً بما يدور في خَلَدِ آدم في تلك اللحظة من وجودهم في الجَنّة بعد أن رُفِعوا إلى مستوى خلافةِ الله في الأرض، وربَّما استمع إليهم من حيث لا يرونه كما وصف الله. وليس جديداً أنَّ غريزة حبِّ البقاء والاستمرارية في الأرض غريزةٌ في كلِّ الحيوانات تشبعها بالتناسل من غير تفكير، ولكنَّ آدمَ الآن أصبح مخلوقاً عاقلاً يمكنه أن يَدخلَ في حوار ويستدرجَ في إشباع غرائزه وتحقيق طموحاته، إلا أنَّه حُظر عليه الاقترابُ من سلوكٍ واحدٍ وصفه الله له بصفته الحركية ، وهو حالة التداخل بين الإناث والذكور من غير أن يعرف السِّرَّ في ذلك، غيرَ أنَّه لو اقترب منه فسيكون من الظالمين . وهنا نلاحظُ أنَّ الشيطانَ ربط له هذه الشجرةَ الممنوعةَ بالخلود أو اتساع ملكه وبقائه. هذا الوصفُ من شأنه أن يُحرِّكَ فيه غريزةَ البقاء والشعورَ بالأمان، الذي كان أحوجَ ما يكون إليه في هذا العالم الجديد المرعب. وتجدر الإشارةُ هنا إلى أنَّ لفظ "مَلَكَيْنِ" لا تعني أن يصبحا من الملائكة، ولكنَّها تعني امتلاكهم للملك كما في آية سورة طه: {وَمُلْكٍ لا يَبْلَى}. أي أنَّ الاقترابَ من هذه الشجرة سيقودُهم إلى استمراريةٍ في الوجود وإلى اتساع ملكهم.

من هذا نفهم لماذا كان الاقترابُ من تلك الشجرة يتطلب أن يَنزِعَ الشيطانُ عنهما لباسَهما ويبدي لهما سوءاتهما، ونفهم أيضا كيف يقودُ **الأكلُ** منها على المدى البعيد للخلود في ملك لا يبلى. من ناحية أخرى لو كان وصفُ الشيطان لها بأنَّها ﴿ ..... شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ وصفاً يجافي الحقيقة أو لا منطق فيه، لَمَا كان آدمُ قد خُدع

. بمعنى أنّه لا يُعقل أن يخدعهم بأنَّ الأكل من شجرة تفاحٍ سيقود إلى الخلود، إذ إنَّه كانت لديهم خبراتٌ في الممارسات الجنسية قبل التطور بصريحِ الوصف القرآني، الذي وصف أنَّ الله جعل نسلَ الإنسان من سلالةٍ من ماءٍ مهين زمناً قبل أن ينفخ فيه من روحه، كما ناقشنا في باب "الحلقة المفقودة". ولكنْ لأنَّ الإنسانَ لم يكن مخلوقاً عاقلاً حينها، فقد كانت ممارساتُهم تلك عشوائية، ولم يربطوا بينها وبين الإنجاب الذي يبحثون عنه؛ فجاء الشيطانُ يهديهم لما كان غامضاً عليهم. إذنْ لا بُدَّ أن تكون هناك علاقةٌ ـ وإنْ كانت غيرَ كاملة ـ بين هذه الشجرة الممنوعة و الخلود والملك بشكل أو بآخر؛ حتى يبدو إغراء الشيطان منطقياً لآدمَ فينخدع به ذُكراناً وإناثا .

ممَّا يؤكِّدُ مدى انسيابِ الأفكار والتأويلات الإسرائيلية في عالمنا العربي والإسلامي، هو أنَّنا نسمِّي البروز في مقدمة العنق بـ "تفاحة آدم"، وما ذلك إلا لأنَّ اليهودَ أمعنوا في الخيال، وظنوا أنَّ آدم "الذَكر" ـ حَسْبَ فهمهم- لمَّا أكل من الشجرة وناداه ربه وقفت التفاحةُ في زوره فخلقت ذلك البروز.

ولا شكَّ أنَّ الله ـ تعالى- يَخْلُقُ ما يشاء، ويحلُّ ما يشاء، ويحرِّمُ ما يشاء، ولكنَّه ـ سبحانه وتعالى- شاء أن يكون كلُّ شيءٍ في خَلْقِهِ منطقيًّا ومنسجمًا مع نظام الكون، وأنَّ وصْفَهُ لِمَا خلق في القرآن منطقيٌّ أيضًا ومنسجمٌ مع اللغة، وهكذا كان حالُ المعصية التي وقعت. وقد رأينا كيف أنَّ الله ـ عز وجل- قد وصف أنَّ جنس البشر، وقبل أن ينفخ اللهُ فيهم وينقلهم إلى إنسانٍ عاقلٍ، كانوا يتناسلون جنسيًّا، ولكنَّه لمَّا كان ذلك التناسلُ ليس معه عقلٌ يفهم الوظائف ويربط بين الممارسة والحمل الذي يحدث بعد فترة من الزمن، فقد كان الشيطانُ لهما (ذُكرانا وإناثا) بالمرصاد هنا؛ ليزيلَ عنهم ذلك **اللَّبس** قبل أن يُشرِّع الله لهم الزواج الشرعي .

وحتى نستوعبَ كيف علَّم الشيطانُ مجموعةَ آدمَ أول ممارسةٍ جنسيةٍ صحيحةٍ، لا بُدَّ من محاولةٍ لفهم السلوك الجنسي لتلك المجموعةِ قبل أن يرتقوا إلى مرحلة الإنسان العاقل، إذ إنَّ من المنطقي أن يسعى الشيطانُ أول ما يسعى إليه أن يزلقهم إلى معصية الله في أمرٍ كان يعلم أهميته لهم، ممّا يسهل عليهم نسيان تحذير الله لهم من اتباع الشيطان.

لا يُستغربُ أنَّ العمليةَ الجنسيةَ السليمةَ كانت ملتبسةً على البشر في مرحلتهم الحيوانيةِ قبل أن ينتقلوا لمرحلة الإنسان العاقل، وأغلبُ الظنِّ أنَّها كانت تتم بصورة عشوائية، كيفما توافرت وسيلة لإدخال أدواتِهم يدخلونها، وذلك بغض النظر عن المكان أو نوع المدخل فيه "ذكراً كان أو أنثى". هذا الالتباسُ ربما يكون لأنَّ فطرتَهم -أصلاً- كانت متقلبة ومتغيرة؛ نتيجةً لطبيعةِ خلقِهم وقابليتِهم للتطور بتناسب وتصاهر الجينات الذي سندرسه في باب آذان الأنعام. هذا السلوكُ يميِّزُهم عن بقية الحيوانات التي لا يلتبسُ عليها الإيلاجُ الجنسيُّ السليمُ ما عدا الخِنْزير. وهنا لا بُدَّ أن نشير إلى أنَّ الخِنْزير ذلك الحَيَوان القذر الغامض ،هو الحَيَوانُ الوحيدُ الذي يأكل اللحومَ والأعشابَ معا كما يأكلُها البشر، وهو الحَيَوان الوحيد الذي أثبت علم الجينات أنَّه يمكنُ أن تُنقل أعضاؤه إلى جسم الإنسان، من كُلىً ورئتين وغيرهما؛ لتلاؤمه التام مع مكونات الإنسان، وبالطبع هو الحَيَوان الوحيدُ الذي حرَّم الله أكل لحمه بالاسم، وليس بصفات عامّة كبقية اللحوم المحرمة، وما ذلك إلا لحكمة يعلمها الله ـ تعالى- . وهو أيضا الحَيَوانُ الوحيدُ المعروف الذي له ممارساتٌ جنسيةٌ شاذةٌ وعشوائية.

نتيجة لعملية الإدخال العشوائية بين إناثِ آدمَ وذكورهِ هذه، يحدث حملُ الأنثى عن طريق الصدفة، فيصدف أن يكونَ الإدخالُ صحيحاً ما بين ذكر وأنثى، ثمَّ يصدف مرة ثانية أن يكون في المكان الصحيح للحمل ، ثم يصدف مرةً ثالثةً أن يكون في الزمن الصحيح والطريقة الصحيحة، وعند اجتماع كلِّ هذه الصدف غيرِ المقصودةِ فقط يحدث الحمل، وتحدث الولادةُ بعد تسعةِ أشهرٍ ومن دون أن يستطيع ذلك البشرُ الفاسدُ الربطَ ما بين هذه المصادفات السابقة والحمل والولادة، وهي الوسيلةُ الطبيعةُ لاستمرار النوع والخلود وبسط الملك والسلطان.

"آدم" الذكرُ والأنثى، وليس نبي الله آدم المفرد كما فهم اليهود فاتبعناهم، كان يعلمُ جيداً وَفقاً لخبرته السابقة أنّه سيموت، ويرغبُ في تعويض الموت بالتحكم في الإنجاب والإكثار منه ،ولكنه لا يعرف كيف. والعملية الجنسية معروفة لديه من خبرته السابقة بشكل ممارستها الحركي أي "شجر" أو إدخال شيءٍ بعضه في بعض؛ لأنّه لم تكن لديه مرجعياتٌ خُلُقية أو لُغوية أو عقلية تمكنه من أن يضع لها مُسمّى خاصاً أو يربط بينها وبين الحمل.

إذنْ فوصفُ العملية الجنسية في تلك المرحلة البدائية لجنس آدم بالشجرة، وصفٌ يتفق تماماً مع مستوى التطور الاجتماعي والفكري لآدم حينها. ولعلنا لا نذيع سراً إذا قلنا إنَّ المجتمع البشري ،عموماً و بكلِّ أجناسه ولغاته، يستعملُ مصطلحاتٍ مجازيةً متعددةً للإشارة لسلوكين طبيعيين في حياة الإنسان إلى اليوم ، وهما : قضاءُ الحاجةِ والمُمارسةُ الجنسيةُ؛ فليس من الأدب في أيِّ مجتمعٍ أن يقول إنسانٌ أمام جمعٍ من النّاس: " إنِّي ذاهبٌ لأتبول أو أتبرز" رغم أنَّ

الأمر طبيعي، ولكنَّنا نقول : " ذاهب إلى الخلاء" أو "قضاء الحاجة" وهكذا من باب الحياء. أيضاً لا نصف الممارسة الجنسية بين الزوج والزوجة بألفاظٍ صريحةٍ رغم أنَّها حلال، بل وعبادة فيها صدقة لأنَّها تعفُّ عن الحرام، و لكنْ رغم ذلك ما زلنا نتحاشى وصفَها وصفاً لفظياً صريحاً، ومن عجبٍ ما زلنا نسمِّيها "الشجرة" فقط بتعديل في الألفاظ! فالقرآنُ وصفها بـ "الدخلة"، كما في قول الله - تعالى- :

﴿ ...... وَرَبَـٰٓئِبُكُمُ ٱلَّـٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّـٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ .... ﴿٢٣﴾ ﴾ " 23 النساء" .

و في معظم الدول العربية تُسمَّى الليلةُ التي يجتمع فيها العروسان - بالحلال - لأولِ ليلة بليلة "الدُّخْلة"، وما أصل الدُّخْلة إلا المداخلة أو "الشجر" التي أحلت في تلك الليلة . وهكذا خاطب اللهُ - تعالى- آدمَ فقط باستعمال لفظٍ أقربَ إلى فهمه، فاستبدل كلمةَ "دخلة" بكلمة "شجرة" لِما في الشَّجْر من وصفٍ حركي أقرب إلى فهمه. و لأنَّنا سنلاحظ ألفاظاً ذاتَ مدلولاتٍ حركيةٍ كثيرةٍ في ما تبقى من بحثنا هذا، فإنَّنا سنشيرُ إليها بمصطلحات "لغة الغراب"، أي اللغة التي إذا ما وردت في القرآن فهي تشيرُ إلى لسانِ حالِ فهمِ الإنسان الأول ومستواه الذي انتقل لتوِّه إلى إنسان عاقل. وسنشيرُ إلى المصطلحات الفلسفية التي تعكس مستوى تفكير الإنسان المتطور في زمان متقدم بـ "لغة الهدهد"؛ من هذا المنطلق فإنَّ "الدخلة" في لغة الهدهد تقابلُ "الشجرة" في لغة الغراب.

إذنْ فاستعمالُ اللهِ كلمةَ "شجرة" أو "مداخلة" في تلك المرحلة البدائية من تطور العقل البشري، يمكنُ فقط أن نفهَمَه بمقارنةِ الألفاظ التي نستعملها الآنَ بعد مراحلَ كثيرةٍ جداً من تطور العقل. فاستعمالُ "اسم الحالة" و"المفاهيم المجردة" بديلاً للوصفِ الحركي للفعل كان يتطلبُ رُقِيّاً في العقل البشري ما كان ليصلَ إليه بعدُ في تلك الأيام الأولى . إنَّ آدم في تلك المرحلة لم يكن يفهم الأشياءَ إلا بسماتها العملية تماماً كالأطفال، ولكنْ عندما تطوَّرَ اجتماعياً بدأ يضعُ له مسمّياتٍ ذاتَ معنىً مجردٍ تكون مرجعياتٍ له، مثل:{وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}" 5 الأنعام" ، والفاحشةُ هي القبحُ في الشيء وشناعتُه ، وكلُّ شيءٍ مكروهٍ فات قدرُهُ فهو فاحش. فمفهومُ الفاحشةِ مصطلحٌ مجرَّدٌ، يتطلبُ وعيَ المُخاطَب وقدرتَه على الربط بين المفهوم المنهي عنه و الأفعال التي توصف به. هذه المخاطَبَةُ ما كانت لتتمَّ مع آدمَ، ولكنْ عندما يقول اللهُ لنا :وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ نعرف - نحن- ما هو الزِّنى(الزنا بالرسمين) بالمفهوم القانوني، و لكنْ لماذا لا نقربه؟ ﴿ ..... إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ﴿٣٢﴾ ﴾ "32 الإسراء". تمَّ تعريفُه باللفظ الخُلُقي المجرد المعروف سابقاً لنا.

ومن المُلاحظِ أنَّ الله I يستعمل كلمة "لا تقرب" في النهي عن الزنى؛ لأنَّ الممارسةَ الحركيةَ إنَّما تقع بعد أن يتخطى الإنسان خطوطاً حمراءَ عديدةً، فينهانا بلغة الهدهد :وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ .... ﴿ ۞ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ ...... ﴿١٥١﴾ ﴾ "151 الأنعام" ، بينما كان نفس النهي لآدم قد تمَّ بلغة الغراب: ﴿......وَلَا تَقۡرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ

..... ﴿٣٥﴾، ممّا يدلّل على أنَّ المنهيَّ عنه في الحالتين شيءٌ واحدٌ ، و إنَّما اختلفت الألفاظُ باختلاف المستوى الفكري للمخاطب في كلِّ حاله .

ولا بُدَّ أنْ نذكر هنا أنَّ هذا الاستنتاجَ الذي ينسجم تماماً مع ما تقدَّم من ألفاظ "اللباس و السَّوْءة"، الواردة في الآيات والتي عَجَزَ المفسرون القدامى أنْ يجدوا لها تفسيراً منطقياً متفقاً عليه، وسكت الرسول صلى الله عليه وسلم عن شرحها، هذا الاستنتاج ليس مجردَ اجتهادٍ عشوائي، وإنَّما ناتجٌ من أنَّ الآيات ـ كما سنرى- تضيفُ تفاصيلَ دقيقةً ، وتصف مِهْرَجاناً اجتماعياً لا يمكن استيعابُه إلا بهذا التأويل . ولعلَّ في استعمالِ كلمة "سَوْءة" نفسِها هنا وهناك إشارةً ربانيّةً إلى أنَّ آدمَ كان في تلك المرحلة يُقسّمُ الأحداث إلى الكلمة وضدِّها فقط ، فهو مثلاً في هذه الحالة يفهم كلمة "سيء" و"حسن"، فالقتل عنده "سوءة" والجنس الممنوع "سوءة" مهما اختلفت التفاصيل الخُلُقية والقانونية بين السوأتين في مفهومنا نحن الذين نفهم لغة الهدهد الفلسفية .

الشيطانُ ـ كما قلنا من ناحيةٍ وظيفية- لم يكنْ في حاجةٍ لأنْ يُؤمر بالدخول في الجنة (الغابة) ما دام آدم قد سبقه إليها؛ لأنَّه قد ربط نفسَه به إلى يوم الدين، فحيثما كان آدم كان الشيطان. وقد كان يعلم أنّ آدم "الذكر والأنثى"، منذ حالته الحيوانية، يرغبُ في معرفة كيفية الحصول على مولود بإرادة حُرة ؛ وذلك ليعوضَ الموتَ ويخلدَ في الأرض ويمتد ملكه، وبالتأكيد فإنّ رغبتَه تلك قد زادت بعد أن أصبح خليفة لله في الأرض وسخرت له مخلوقاتها انصياعا لأمر خالقها بالسجود له.

والشيطان كان يعلم جيداً أنّه ليس من السهولة أن يغويَ آدمَ ،الذي ما احتاج إلى رسول يكلمه عن ربه، ولا احتاج إلى معجزة تدله على وجود إلهٍ ووجوب طاعته، إذ إنّه في نفسه كان معجزةَ زمانِه ،وقد خاطبه ربُّه من غير وحي. نقطةُ الضعف الوحيدة التي كان يمكن أن يغويَهُ بها هي إغراؤه بالخلود والملك الذي لا يبلى، ولكن ليس من المنطقي أنّ آدم الذي مُنحَ الحريةَ في أن يأكلَ من كلّ أشجار الجنة إلا شجرةً واحدة ، ليس من المنطق أنّ يستجيبَ لإغراء الشيطان، إلا إذا كانت هذه الشجرةُ أمراً آخرَ وليست طعاماً لديه من الحلال منه ما يفيضُ عن حاجاته.

استغل فيه الشيطانُ هذه الرغبةَ ، وبدأ في إغوائه كما وصف القرآن، ليزلّه عن النهي الربّانيّ الأوّل. و الإغواء في اللغة له معنيان: أحدهما خلاف الرشد وإظلام الأمر، والآخر يدل على فسادٍ في الشيء. و إظلامُ الأمر هو حقيقةُ ما فعل الشيطان، ولكنْ ما كان للشيطان أبداً أن يدعوَ الناسَ للهلاك والضياع بصريح اللفظ ،وإنّما يزينُ لهم الخطأ حتى يقعوا فيه. ولذلك جاء لآدمَ من مدخلٍ مختلفٍ وهو مدخل الخلود: ﴿ ... قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ " طه 120 "ولم يقل له: "هذه الشجرة"؛ لأنَّه يعرف أنَّه لن يقربَها خوفاً من الله، ولكنَّه تحدث له عن شجرةٍ نكرة "أظلمَ له الأمرَ الممنوع"، وأضافها إليه، علاوة على رغبته الفطرية في الخلود، وبالتالي فإنَّ آدمَ (ذُكرانا وإناثا) لم يربط بينها وبين الشجرة الممنوعة عنهما . ولعلَّ وقفة مع هذا الصياغة تزيد من التأكيد على أنَّ اللهَ ما حرَّم على آدمَ شجرةً محددةً في طرف الجنة ذات فروع وأوراق مميزة، وأنَّ الشيطان ما استدرجه ليأكلَ من ثمار شجرة محددة؛ لأنَّه لو كان الله ـ تعالى- قد حدد له شجرة بعينها لَمَا كان للشيطان أن يخدعه في أن يأكلَ منها بالاسم، ولكنَّ كلمة "شجرة" كانت إشارةً إلى "فِعلة" معروفةٍ لآدمَ بهيئتها الحركية، لذلك جاءه

الشيطان بمفهوم جديد وهو "شجرة الخلد" ،الأمر الذي جعل آدم ينسى تحذير الله، وفات عليه أنَّ الفعلة هنا وهناك واحدة. وعلى دأبه إلى اليوم فالشيطانُ يلبس ويخلط للإنسان المحرماتِ ويظهرُها له في صورةِ الحلال .

فأكلا منها:

ويمضي القرآنُ يصف لنا كيف علَّم الشيطانُ جنسَ آدمَ ممارسةَ الجنس الطبيعي لأول مرة ؛رغبةً منهم في الخلود ومن غير أن ينتبهوا إلى أنّهم مُقدِمينَ على ممارسةِ نفسِ الشجرة أو المداخلة أو الدُّخلة كما نُسمّيها اليوم، والتي كانوا من قبلُ يمارسونها بطريقة عشوائية، ولكنّها حُرّمت عليهم في الجَنّة . فبدأ في تعليمهم عمليّاً :

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ "

121طه".

"أكل" في اللغة لها فروعٌ كثيرة، ومعناها الرئيس هو التنقيص . و لأنّ هذا اللفظَ يسبب إشكالاً كبيراً في فهم قصةِ الشجرةِ لا بُدّ أن نعطيَه اهتماماً خاصاً: فأكْلُ الطعام يعني إنقاصه... و"تأكلُ النارُ الحطبَ" يعني تنقصه...
إذا شرب أحدُهم نصفَ كوبٍ حليباً، وأكل نصف تفاحة؛ فإنَّ نصفَ كوب الحليب الذي شربه هو ذاك الذي مضى في جوفه، أمَّا نصفُ التفاحة الذي أكله فهو الذي بَقِيَ في يده مأكولاً أي منتقصاً، وليس النصف الذي مضغه وبلعه. ومن هذا يمكننا أن نفهم قولَ الله ـ تعالى- :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ

وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ .....﴿٣﴾ ﴾ " 3 المائدة"

فإذا هجم السّبُعُ على مِعْزاةٍ وقطع كراعها وتركها تنزف؛ فإنّ تذكيتها أي تحليل ما تبقى منها من لحم يتم بالإسراع بذبحها حتى تموت بالذبح وليس من جرح السّبُع. وما أكل السَّبُع هنا هو البهيمة التي انتقص كراعها وتركها تنزف، وليس الكراع التي مضغها وبلعها .
.فماذا تعني "أكلا منها" في الآية؟

تلكما الشــجرة:

إنّ البشر قبل الارتقاء بهم عقلياً و أخلاقياً ـ كما قلنا- ربما كانوا يمارسون كلَّ أنواع الشجر {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا }، أي أنّهم كانوا يمارسون الجنس، ذكراً مع ذكر، أنثى مع أنثى ، ذكراً مع أنثى بصورة طبيعية، ولكنْ في وقت غير ملائم للحمل ، ثم ذكراً مع أنثى بصورة طبيعية في وقت ملائم للحمل، وربّما فوق ذلك كلِّه ذكراً أو أنثى مع أيِّ حَيَوانٍ آخرَ موجود في ذلك المكان. لا بُدّ أن نشير هنا إلى حقيقة علمية مهمة ،وهي أنّ كلَّ الحيوانات تمارس الجنس من أجل البقاء، وفي مواسمَ محددةٍ فقط تتحكم فيها هرمونات و ظروف مُناخية معينة، ما عدا الإنسانَ والخِنْزيرَ اللذين يمارسانه طَوال العام من باب الشهوة، وما الحملُ إلا وظيفةٌ إضافيةٌ للعملية الجنسية. إذنْ ليميزَ البشر بين "الشَجْر" على عمومه ـ كما عرفوه في مرحلة الفساد الحيوانية ـ و شجرةِ الخلد أو الوسيلة الوحيدة للإنجاب

واستمرار الوجود واتساع السلطان، يجبُ عليهم إنقاصُ كلِّ الممارسات الأخرى "أي أكلها" ؛ لكي تبقى الشجرة الوحيدة التي ستؤدى إلى الخلود. أي أنَّه يعلمهم بالتجربة ما يجب أن ينتقصوا ممارسته حتى يدلَّهم على الطريقة الوحيدة للمداخلة بين اثنين منهم، و التي تقود إلى حمل يقود إلى الخلود.

ولأنَّ الله -جل وعلا- يعلم أنَّ الإنسان خُلق في أحسنِ تقويم وسيرد بعض الناسِ إلى أسفل سافلين، فقد كان اللفظُ الذي وصف به سلوكَ الشيطان هو حثُّهم حينها على "انتقاص" الممارسات العشوائية وليس إلغاءَها تماما؛ لأنَّ قصد الشيطان حينها كان أن يدفعَهم للوقوع في عين ما حُرِّم عليهم في تلك اللحظة، وليس دعوةَ خيرٍ منه ليهذِّبَ سلوكَهم الجنسي للأبد .

فالشيطان يُدخلُ الفتورَ بين الأزواج في عَلاقتهم حتى يدفعَهم للتفكير في الحرام، حتى إذا ما ذهبا إلى الحَجِّ حيث يُحرم الجماعُ بين الزوجين، وجدنا الشيطانَ ذاتَه يوسوس لهما بالجماع؛ لأنَّه هنا فقط محرم. وعليه، لا بُدَّ أنَّ نفهم أنَّ انتقاص المُداخلات الأخرى لم يكن القصد منه هو إبعادهم عن ممارساتٍ عشوائية، ولكنْ كان لاستدراجِهم للوقوع في عين الحرام الذي وُصفَ لهم. و هنا لا بُدَّ أن نلاحظ أنَّه إذا استعمل القرآن لفظاً يدلُّ على "الإلغاء" وليس الإنقاص"الأكل"، فلربَّما لم تظهر الممارساتُ الجنسيةُ الشاذةُ والممارسات الجنسية مع الحيوانات مرة أخرى، وظهورُها في مجتمعات الإنسان اللاحقة وإلى اليوم، كان سيقود إلى خللٍ في استعمال ألفاظ القرآن، والله أعلم .

ولا بُدّ أن ننتبه هنا إلى أنَّ الله - أصلاً- لم يُحرّم عليهم "الأكل" من تلك الشجرة، ولكنَّه نهاهم عن الاقتراب منها، وإنَّما ورد لفظ "أكلا" ليصف ما حدث منهما. فلفظُ التحريم يدلُّ على أنَّ الله نهاهم عن الاقتراب من بعضهما بعضاً مطلقاً؛ حتى لا يحدثَ بينهما تداخلٌ جسدي مُحرَّم، وما وقع منهما هو أنَّهما اقتربا وتداخلا ولكنْ بهيئة واحدة، منتقصين بذلك من هيئات التداخل العشوائية الكثيرة التي كانت تقع بينهما، ولكنَّهما وقعا في عين المحرم حينها.

و يمضي الشيطان شارحاً لهما(ذُكرانا وإناثا) تفاصيلَ دقيقةً حتى لا يدعَ مجالاً للشكِّ أنَّه إنَّما علمهم الممارسة الجنسية، ونظنُّ أنَّه إذا استوعب القارئُ معنا ما نعنيه بـ "لغة الغراب" فسيصابُ بالذهول وهو يتدبر هذه الآيات وكأنها نزلت أول مرة:

﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ " 27 الأعراف" .

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ

بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ " 20-22 الأعراف".

القَسْم في اللغة هو تجزئة الشيء. والنصحُ في اللغة يدلُّ على ملاءمة بين شيئين وإصلاح لهما ،كما ورد في معجم مقاييس اللغة.

قبل أن ندخلَ في تفاصيلِ هذه الآيات، لا بُدَّ أن نلاحظ مقدارَ الجهدِ الفكري والعملي الذي بذله الشيطانُ للوصول إلى ما أراد الوصول إليه، الأمر الذي يؤكدُ أنَّ ما جرى في الجنّة لم يكن أكلاً من شجرةِ "تفاح"، وإنَّما كان "مِهرجانا" لوصف عملية بيولوجيةٍ معقدةٍ اجتماعياً وخُلُقياً، وتطلَّب استدراج البشر إليها لفًا ودورانًا ومجهودًا لا يحتاجُ إليه أحد ليلتقطَ تفاحةً من شجرة نائية في الجنة. من الآيات - أعلاه- يمكنُنا أن نرتبَ ما جرى في هذه الخُطُوات:

{وسوس لهما - نزع عنهما لباسهما - أراهما سوءاتهما - قاسمهما - دلاهما - ذاقا الشجرة - بدت لهما سوءاتهما - طفقا يخصفان - ناداهما ربهما}.

إذا استهدينا بلغة الغراب الحركية ، فإنَّه يمكننا أن نفهم أنَّ البشر كانوا شيئاً واحداً من ناحيةٍ جنسيةٍ قبل أن يُطوروا إلى إنسان عاقل، أي أنَّهم لم يكونوا قادرين على التمييز بين الذكر والأنثى من ناحية وظيفية. لذلك نلاحظ أنَّ أولَ ما فعله الشيطانُ عندما أراد أن يدلَّهم على شجرة الخلد، هو أنَّه نزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما، أي أنَّه أزال عنهما الالتباسَ واختلاطَ الأمر في التمييز بين الذكر والأنثى، و تمت هذه الخطوة بأنْ جعلهم يرون الفرق بين سوءات الذكور والإناث. وبعد أن أصبح في مقدورهم تمييزُ الذكر من الأنثى:.... قاسمهما .

بطبيعة الحال فإنّ المفسرين القدامى وجدوا صعوبةً في تفسير ألفاظ هذه الآيات. ففي شرح لفظة "قَاسَمَهُمَا" ظنَّ المفسرون أنَّ الشيطانَ قد أقسم لهما بالله إنَّه لمن الناصحين، وهذا ليس إلا اجتهاداً منهم لغموض القصة. أمَّا "لباسهما" فكان فيها إشكالٌ أكبرُ لاتفاق المفسرين على أنَّ آدمَ وحواء - كما يظنون- كانا عاريين بدليل أنَّهما طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة بعد الأكل وليس قبله، فكيف إذنْ يَنْزِعُ عنهما لباسَهما ليريهما سوءاتهما قبل أن يلبسا أصلا ؟!

لحلِّ هذه المعضلة، أورد بعضُ المفسرين أنَّ "آدم وحواء" لم يكن أحدُهما قادراً على رؤية عورة الآخر؛ لأنَّ اللهَ كان قد غطّاها بنورٍ يوم خلقهما، فزال ذلك النورُ بعد أن أكلا من الشجرة. هذه التفاسيرُ ليست إلا من التأويلات الإسرائيلية التي مضت تصف أنَّ ذلك النور تقلص حتى أصبح موجوداً فقط في لَمَعَان أظافر آدم وحواء إلى اليوم، ولكنّه انكشف عن كل أجسادهم. هذه التأويلاتُ لم تستطع - بالطبع- أن تقدم عَلاقةً منطقيةً بين ظهور السَّوْءة والأكل من شجرة التفاح. أيضاً استعصى على المفسرين ترتيب الأحداث منطقيا، إذ إنَّ الشيطان قد قام بنزع لباسِهما أولاً حَسْبَ نص الآية كخطوة استدراجية للأكل من الشجرة " لِيُرِيَهُمَا سَوْءاتِهِمَا" ولم يحدث نتيجةً للأكل. بمعنى أنَّ نَزْعَ اللباس كان وسيلةً للأكل من الشجرة وليس من نواتجها! ثم إنّ الآيات وصفت رؤية السوءات أولاً من غير حدوث اضطراب لدى آدم، ولكنّ الاضطرابَ حدث بعد أن ذاقاها ﴿ .... ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا

﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ .... ﴾ . هذه التفاصيلُ يستحيلُ فهمُها بافتراضِ أنّها شجرةُ ثمارٍ عادية ،وبافتراض أنّهما كانا مستورين بنور ربّانيّ زال بعد المعصية ؛لأنّ الآيةَ تصفُ زوال اللباس قبل المعصية وليس بعدها .

ولا بُدَّ أن ننبه هنا لاستعمال لفظ "يَنْزِع"، إذ إنَّ له مدلولاً لغوياً خطيراً جداً في بحثنا هذا. و ممَّا لا شك فيه أنَّ الله - تعالى- هنا يصفُ لنا نيةَ الشيطان، أو ما سعى إليه لاستدراجهم للوقوع في المعصية. فإذا افترضنا أنَّ "آدم وحواء" كانا عاريين يغطي سوءاتيهما نورٌ كما ورد في التفاسير، فإنَّ استعمالَ لفظ "يَنْزِع" فيه غرابةٌ ؛ لأنّه لفظٌ حركي يدل على عنف في إزالة الشيء لا ينسجم مع طبيعة النور المفترض. وأيضا إذا كان افتراضُنا صحيحاً وهو أنَّ الشيطان إنّما أزال عنهم لباسَ النوع أي الالتباس الجنسي بين الذكر والأنثى، فإنَّ لفظ "ينزع" أيضا لفظٌ حركيٌّ عنيفٌ لا ينسجم مع إزالة الالتباس المعنوي. التفسيرُ الوحيدُ لاستعمال هذا اللفظِ الحركيِّ العنيف نستنتجه من استعمال لفظ مشابهٍ جداً، ولا عجب أنّه كان من الشيطان نفسِه وفي نفس الظروف حينما توعد ﴿ .... وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ إذ إنّ "يبتّك" تعني: ينتف و ينزع أيضا . ولأنّ في آذان الأنعام سراً رهيباً من أسرار الخلق والتطور، ولكنّ فهمه يتطلب تمهيداً طويلاً ويتطلب قدراً اكبرَ من فهم لغة الغراب- فإنّ الحكمة من استعمال هذين اللفظين على لسان الشيطان ستكونُ واضحةً حينما نفحص آذان الأنعام إنْ شاء الله.

بعد أن أصبح مفهومُ الذكر والأنثى واضحاً لمجموعة آدم "قاسمهما" ولم "يقسمهما"...فما الفرق لغةً بين "قسمهما" و"قاسمهما"؟ القَسْم :هو تجزئة الشيء إلى قسمين، أمّا "المقاسمة" فهي على وزن مفاعله ،وتعني: تكرار الفعل أكثر من مرة، كأن تقول "قتل" و "قاتل" .

ونحن نظنُّ أن الشيطان قسمهم أولاً إلى : مجموعة إناث و مجموعة ذكور بأن أراهما سوءاتهما. ثم قسمهم مرة أخرى إلى مجموعة مطيعة ومجموعة رفضت الانصياع له. وهكذا تكرر التقسيم. هذا يفسرُ القسمة البسيطة إلى مجموعتين أولاً، وسنرى أنَّ العقابَ قد وقع لاحقاً على المجموعة العاصية فقط. بعد هذه القسمة الأولى عاد الشيطانُ ليستدرجَ المجموعةَ التي استجابت له ليستقيم المعنى مع لفظ تكرار القسمة "قاسمهما". وحتى لا ننسى أنّنا هنا نتعامل مع فطرةٍ بشريةٍ ساذجةٍ في سذاجة الأطفال، لا بدَّ أن نتخيل شعورهم النفسي، و ربما الغبطة والنشوة باكتشاف حقائقَ خطيرةٍ عن أجسادهم، وأنّهم فجأة - ومن بركات العقل الذي أكرمهم الله به- أصبحوا مجتمعاً متميزاً يتكون من ذكور وإناث. هذه الخُطُوات الاستدراجيةُ هي من طبيعة الشيطان، الذي يبسط الأرضَ بالورود والإثارة إلى أن يقع الإنسانُ في الحرام، ولكنَّ تلك الورودَ تختلفُ كمَّا وكيفاً حَسْبَ نوع المعصية التي يقود الإنسان إليها .هنا كانت نوعيةُ الورودِ هي إثارةُ العقل، والشعورُ بالاكتشاف الباهر والمفاجآت وإصابتُهم بالدهشة ؛ لذلك اشتملت الخُطُواتُ البطيئة على أن يريَهم سوءاتهما أولاً ... ثم قاسمهما...وربما أوقفهم في صفين متقابلين ليروا هذا الإعجازَ في التمييز بين الذكر والأنثى، وهذا يعكس أسلوبَ الشيطان في الخداع ،كما سنرى في باب "آذان الأنعام" كيف استدرجهم لعبادة الأنعام في مِهْرَجان "النعاج الحُمَّل"، إذ إنّ الشيطانَ لا يُقسِمُ للإنسان أنّه ناصحٌ له، وإنّما يستدرجه حتى ينسى تحذيرَ الله... و في خِضَمِّ هذه النشوة وذلك المِهْرجان فقط نفهمُ كيف نسي آدم تحذير الله أنَّ الشيطان لهما عدو مبين :

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾ " 115-117 طه".

ولا بُدّ أن نتوقف قليلاً مع كلمة "عزما" هنا ،إذ إنّ لها ارتباطاً وثيقاً مع ما جرى بعد إفاضة هذه المجموعة من عرفات إلى المزدلفة لاحقا . "عزم" في المعجم تعني: الإصرار والإرادة، ولكنّها أيضا تعني: قدرة الإنسان الروحية على دفع الجنّ . ولعلّ ما تشيرُ إليه في هذه الآية هو أنَّ آدم ما كان بعدُ قادراً على أن يستعيذ من غدر الشيطان، لذلك سقط في حبائله. بناءً على هذا العجز الروحي ، فقد أنزل اللهُ لهم رجوم الشياطين من السماء إلى أرض المَشْعَرِ الحرام؛ ليرجموه بها جسدياً في لقائهم الثاني معه في وادي مِنى كما سنرى في الأبواب القادمة .

إذنْ فالنسيانُ تطلّبَ جرَّهم تدريجياً إلى هذه الحالةِ من الانتشاء بهذه الاكتشافات الباهرة واحدة تلوَ الأخرى..........

وَقَاسَمَهُمَا إِنّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ: والنصح هو الملاءمة بين شيئين. ويمكننا الآنَ أن نتخيلَ أنّ الشيطانَ وبكل هدوءٍ لاءم بينهما، أي جعل مع كلِّ ذكرٍ أنثى مناسبة . قسم المجموعة التي أطاعته إلى مجموعةِ ذكورٍ ومجموعةِ إناث ... وصار يزاوجُ بينهما بأن يختارَ من مجموعة الذكور ذكراً وينصحه مع أنثى من مجموعة الإناث، وهم في نشوتهم تلك لمّا يرتكبوا مُحرَّماً بعد، وإنّما يخطون خُطُوات نحو شجرة الخلد ... ثم بعد ذلك : فَدَّلاهُمَا بِغُرُورٍ" :

"دلّ" لغوياً تعني: إبانة شيء تتعلمه بأَمارة.. أما الغرور فهو من **"غرَّ"**، ولها ثلاثة معاني: المثال والنقصان والكرم .

وهنا "غرور" أخذت أصلين من أصولها الثلاث، المثال والنقصان**...**" فدلاهما بغرور" يمكن أن تعني أنّه علّمهم الفرقَ الجنسيَّ بينهما بأمارة "دلاهما"، ثمّ مثل "بغرور" لهم العمليةَ الجنسيةَ الصحيحةَ التي تؤدي إلى الحمل والإنجاب ومن ثَمَّ الخلود المنشود ... وإلى يومنا هذا نعلم أنَّ الممارسةَ الجنسيةَ الصحيحةَ لا تُعرفُ إلا بالتعلّم من آخرَ، فيتعلم الصبيان من أقرانهم وممَّا يتناقلونه عمَّن هو أكبرُ منهم سناً، وتتعلم الفتياتُ من غيرهن ومن خالاتهن وعماتهن في غالب الأحيان ... إذنْ نخلصُ إلى أنّ أوّلَ من ربط بين الممارسةِ الجنسيةِ السليمةِ والإنجابِ في عقل الإنسان هو الشيطانُ ؛ ليدفعَهم لممارستها قبل أن يشرّع اللهُ لهم الزواج و ينظم لهم العلاقاتِ الجنسيةَ بصورةٍ تناسب وضعَهم الجديدَ بوصفهم أناساً عاقلين . فكانت المعصيةُ في أنّها مورست في مكانٍ محرّم"عرفات"، وفي زمان محرّم أي قبل أن يشرّع الله لهم الزواج .

﴿ .... فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ.... ﴿٢٢﴾ ﴾ عندما تذوقا طعمَ الممارسة التي علّمها لهما الشيطانُ ، اكتشفا أنّه هو نفسُ طعم الشجرة الممنوعة الملتصق بذاكرتهم. وكلمة "ذاقا" هنا تدلُّ على سابقِ معرفةٍ بهذه الشجرة... والذوق لا يعني التذوق باللسان فقط ، وإنّما هي عمليةُ الإحساس التي تدل على المحسوس كما في قول الله I :﴿ لَا يَذُوقُونَ

فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ ﴾ " 56 الدخان"..إذنْ فالتذوقُ يفيد سابقَ

معرفةٍ بالأمر، ويفيدُ استدراك حقيقة الأمر منذ الوهلة الأولى ... فعندها عرفوا جريمتهم . ﴿ ...بَدَتْ لَهُمَا

سَوْءَٰتُهُمَا ﴿٢٢﴾ ﴾

"بدو" تعني : ظهور الشيء، و "السوء" **:**هو القبح في الشيء، أما كلمة "سوءة" فهي لفظة تشخيصية للعمل القبيح. فعندما قتل ابنُ آدمَ أخاه، سمّى جسده كله بقبح الفعل "القتل" المُمَارس عليه "سوءة أخي.."، ولم يعرف كيف يواري سوءة أخيه إلا بمشاهدة الغراب. وهنا عندما مارس آدمُ الفعلَ القبيحَ بأن خالف أمرَ الله سُمِّيت أدواتُ الممارسة بالسَّوْءة. نلاحظ هنا أنَّ ردة فعلهم بعد التذوق كانت مختلفة تماما عن ردَّة فعلهم حينما أراهم سوءاتهما، مما يدلُّ على أنَّ مجموعة آدم كان لها سابقُ خبرةٍ عمليةٍ بالممارسة الجنسية ، و لكنْ بصورةٍ عشوائيةٍ لم تسعفْهم إلى الانتباه إلى أنَّ الشيطانَ إنّما يستدرجُهم للوقوع في ذات المحرّم " الشجرة" إلا بعد التذوق وليس عند الرؤية فقط .

لا بُدَّ أن نذكر هنا أنَّ سابقَ تجربتهم في هذه الممارسات كانت قبل أن يمنحهم الله "البصر" ، والذي تمّ عند تطويرهم إلى إنسان عاقل. والبصرُ لا يعني الرؤية ،وإنّما هي كلمة جامعة تعني: فهم ما يراه ويسمعُه ويحسُّه الإنسانُ وإدراكه بكلِّ وسائل الإدراك وليس العينين فقط. ومنها جاءت كلمة "البصير" وهي تعني: الحكيم الذي يستخلص الحكمةَ والعِبَرَ من كلِّ ما يصلُ إليه من علم بكل حواسِّه. إذنْ فممارساتُهم قبل أن يمنحَهم اللهُ البصرَ لم تسعفْهم إلى استدراك أنّ ما أراهم الشيطان من سوءاتهما ،هو نفسُ العضو الذي مارس نفسَ الشجرة المحرمة من قبل، ولكن بعد أن تمت الممارسة وذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما أي شعرا بقبح المعصية. عندما بدت لهما سوءاتهما فقط أفاقا من نشوة الاكتشافات الباهرة و وهم الخلود، فطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ليواريا أدواتِ الممارسة التي أصبحت سوءة في نظرهما. ونلاحظ أنَّ القرآن لم يقلْ ورق أشجار الجنة، إذ إنَّه استعمل لفظ "شجرة" فقط ؛ ليصفَ بها أسلوبَ فهم آدمَ للأفعال من شكلها الحركي، ونظنُّ أنَّه اجتنب تَكرار لفظ "الشجرة" في وصفه لورق الجنة لعدة أسباب سنناقشها في باب "في وادي المزدلفة".

كلمة "سوءة" مفردة، ومثنَّاها سوأتان وجمعها سوءات، ثمَّ بعد ذلك تمت تثنية الجمع إلى جمع مثنى "سَوْءاتُهُمَا" دلالةً على عدد الذين مارسوا هذه الممارسةَ من إناثٍ وذكورٍ - كما أسلفنا- والذين لا يعلم تعدادهم إلا الله ، ولكنَّ اللفظ لغةً يدلُّ على أنَّهم ستة فما فوق.

تعلّم الإنسانُ طريقةَ التناسل وأسلوبَه ، والمحافظةَ على نوعه، وبالتالي فإنّ إنجابَ الأطفال أعطاه خلودَ النوع ،ولكنه لم يعطِهِ خلودَ الحياة؛ لذا فقد كان تعليمُ الشيطان له ناقصاً "بغرور"... وهو المعنى الثاني للكلمة أي دلاهما **بتمثيل** العملية، فوصلا إلى نتيجة **ناقصة** هي الإنجاب، ولكنْ لا مفرَّ من الموت.

سنرى لاحقاً أنَّ ممارسةَ شجرة الخُلد قد أدى بالفعل إلى حملِ بعضِ الإناث من مجموعة آدم، وهو-أصلاً- الهدف الذي أغراهم به الشيطانُ لارتكاب المعصية، ولكنْ لمَّا كانا قد ندما فقد كان أولئك الأطفالُ غيرَ مرغوبٍ فيهم لأنّهم ارتبطوا بالمعصية والندم، فجاء الشيطان من جديد ليضلَّهم فيقتلوا أولادَهم سَفهاً بغير علمٍ، بعد أن زيّن لهم أنّ قتلَهم فيه قربةٌ

إلى الله لتكون البدايةَ لجريمة قتل الأبناء منذ الجيل الأول للإنسان العاقل، وهذا ما سنناقشه بمزيد من التفصيل في باب "آذان الأنعام" .

ولعله من المفيد أن نذكرَ هنا أنّ في تراث السومريين قصةً عن الذكر و الأنثى في الجَنّة حينما حرَّم الربُّ عليهما الاقترابَ من السلوك الحَيَواني الشهواني الذي أشير إليه بلفظ {بروسيا أو فروسيا}، ولكنّ الشيطان أغواهم ، فوضع الذَكَرُ {ثمرةَ الخطيئة} في رحم الأنثى، وثمرة الخطيئة سميت {مـِيرا مِتعايا}، وهذه الألفاظُ قديمةٌ جداً ربما تشتركُ في أصول النطق مع {ثمرة المتعة}، وقد يكون هذا أصلَ قصةِ الثمرة التي تحولتْ بمرور الزمن إلى مفهوم شجرةٍ وثمرةٍ حقيقيةٍ ، ثمّ أصبحت شجرةَ تفاح . وقد قدَّمَ د/ أحمد داود حلقاتٍ قيمةً جدًّا في هذا المجال في بَرْنَامَج "تاريخ الحضارة" في فضائية سلطنة عُمان في صيف 2006.

ولما كان اللهُ عالماً بحالهما فقد ناداهما بالعتاب :

﴿.....وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾

﴾ " 22الأعراف" .

هنا نلاحظُ أنّ فهمَ القصةِ - كما قدّمنا- يَحِلُّ معضلةً أخرى في فهم لغة القرآن، التي لا نشكُّ أنَّ فهمها استعصى على الكثيرين، وهي تثنيةُ اسم الإشارة" تِلْكُمَا". فبدل أن يقول "تلك الشجرة" كما سمّاها قبل الممارسة بلفظ المفرد "هذه الشجرة" ،أصبحت الآن "تِلْكُمَا" للدِّلالة على أنَّ الشجرة بعد الممارسةِ أصبحت معروفةً بالنسبة لآدمَ بأنّها ثنائية، مرتبطة بالنوعين الذكرِ والأنثى . بمعنى أنّه لمّا كان الفرقُ بين الذكر والأنثى ملتبساً عليهم قبل الممارسة، كان النهيُ عن فعل شيءٍ واحدٍ وُصفَ بصيغة المفرد "مداخلة" أو "هذه الشجرة" من غير الإشارة إلى أداتيها، ولكنْ بعد أن نزع الشيطان عنهما لباسَ النوع أصبح في علم آدمَ - بالتجربة مع القدرةِ على عقل الأمور- أنّ هذه الشجرةَ لا تكتمل إلا بمشاركة أداتين من الذكر ومن الأنثى، وُصفت تلك المداخلةُ بعد الممارسة بـ " تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ " .

هذا اللفظ "تِلْكُمَا" لم يَذكر أيٌّ من المفسرين سبباً لتثنيته، رغم أنّهم جميعاً تحدثوا - بطبيعة الحال- عن شجرةٍ فاكهة، وما ذلك إلا لأنّ أغلبَ الرواياتِ التي اعتمدوا عليها ليست إلا إسرائيلياتٍ انتقلت من اليهود الذين جاوروا المسلمين حينا من الزمن. تَجنُّبُ المفسرين القدامى الخوضَ في تأويل الغامض من ألفاظ القرآن ، يدعو دوماً للإعجاب ومزيد من الإيمان بحفظ القرآن لفظاً وتفسيراً، إذ إنَّ السلفَ نقلوا ما توافر لديهم من علم واجتنبوا ما كان غامضاً عليهم؛ لأنَّ مجرَّدَ محاولة تأويل مثل هذه الألفاظ تطلّبَ فهماً تفصيلياً لطبيعة الذكر والأنثى من ناحيةٍ بيولوجيةٍ وفسيولوجيةٍ ما كان متاحاً لهم، بالإضافةِ إلى غموض قصة الشجرة ،و التي أصلاً تحكي مرحلةً من مراحل التطور التي كانت -بالطبع- غائبةً عن كلِّ البشرية .

هذا التفسيرُ - الذي قدمنا بالطبع- لم يكن ليخطرَ على بال المفسرين القدامى، ولكنَّه لا يتعارضُ إلا مع تأويل الإسرائيليات. وهو لا يطرح فهماً جديداً لقصة شجرة الخلد وتحويلها من شجرةِ تفاحٍ إلى ممارسةِ علاقةٍ جنسيةٍ سابقةٍ لأوانها فحَسْب، وإنّما يفتح باباً واسعاً جديداً من الإدراك لحقيقة قصة خلق الإنسان وتطوره، يُعينُنا على فهم تَبِعات ما حدث في جنّة عرفات، ويفسرُ لنا آياتٍ كثيرةً ارتبطت بقصة إبراهيمَ - عليه السلام- لمّا أتى إلى هذه البقاع المقدسة التي تحمل بين وُدْيانِها وجبالِها تاريخَ خلق الإنسان وتطور البشرية، بل ويربط قوانين الخلق والقلائد في الأرض

بمقاليد السماوات والأرض، ويكشف أسراراً كثيرة من أسرار عبادة الحج التي جعلها الله ـ عز وجل ـ حُجَّةً على الإنسانية جمعاء لا على المسلمين فقط .

بعد أن تحوّل مفهومُ آدمَ و زوجه من شخصين هما "آدم وحواء" إلى اسم جنس يجمع ذكوراً وإناثاً كما رأينا، يمكنُنا أن نلخص الحقائق المهمة التي ترويها هذه القصة ؛حتى تكون مِفتاحاً لنا ونحن نمشي على خطى الإنسان الأول من جنّة المأوى في عرفات إلى البيت العتيق:

1. عندما قالَ الرَّسولُ صلى الله عليه وسلم :"حدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج" ما قصد "بلِّغوا عنهم ولا حرج" لأنّ الحديثَ ليس إلا نقلَ الروايات، كما حدثنا القرآن أنّ فرعون قال :"أنا ربكم الأعلى" ، ولكنّه لم يبلِّغْنا أنّ فرعون كان إلها . البلاغ هو: نقلُ الأحكام الشرعية والحقائق الواجب اتباعها، أما الحديث فهو: نقلُ الأخبار للعلم بالشيء . وبالتالي فإنَّ العلم برأي بني إسرائيل في قضايا متشابهة في التوراة والقرآن لا يعني أخذ تأويلاتهم كأنّها حقائقُ لا تُناقش .

2. لقد سكت الرسول صلى الله عليه وسلم عن تفسير كثيرٍ من آيات القصص القرآنية، والآيات التي تصف ظواهرَ كونيةً ما كان للجيل الأوّلِ أن يفهمها ؛لأنّها تتطلب إدراكاً بكثير من الأمور التي لمّا تكنْ بعدُ معلومةً للبشر. فممّا لا شك فيه ـ مثلاً- أنَّ النبي كان يعلم أنَّ الأرض هي التي تدور حول الشمس، وهو الذي أُسرِي به ورأى من آيات ربِّه الكبرى، ولكنْ لم يُعرفْ أبداً أنّه ألمَحَ في تفسير أيٍّ من الآيات التي وصفت حركة الشمس و الأرض، وما ذلك إلا لأنَّ هذه الحقائقَ الكونية إنّما ذُكرت لتكون إعجازاً للجيل الذي يصلُ علمُه بأسرار الكون مستوىً يعينه على استيعابها. و أيضاً لم يَدخلْ النبي ρ في تفاصيل الخلق، وإنّما اكتفى بالنصوص القرآنية، وما ذلك إلا لأنّ هذه القضيةَ شائكةٌ جداً، وتتطلّبُ إدراكاً بحقائقَ كثيرةٍ في علم الأحياء ما كانت متاحة لقومه. مثلاً حينما سُئل عن الخلق كانت إجابتُه كما أوردها مسلم في صحيحه كما يأتي:

عن عائشة ـ رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "خُلقت الملائكةُ من نور، وخُلق إبليسُ من مارج من نار، وخُلق آدمُ مما وصف لكم"(أخرجه مسلم في صحيحه- كتاب الزهد و الرقائق- باب في أحاديث متفرقة ص 2294).

3. إنَّ القرآنَ محفوظٌ بالحرف كما نطق به جبريل ، وإنْ احتوت تفاسيرُه على قصورِ فهمِ الإنسان لكثير من الحقائق الكونية ، ولكنّ تلك التفاسيرَ لم تؤدِّ بأيِّ حال من الأحوال إلى تغيير نصوص القرآن كما حرَّف اليهودُ كتبَهم لتتوافق مع فهمهم القاصر عبر العصور.

4. إنَّ آياتِ الله القرآنيةَ تنطبقُ على آياتهِ الكونيةِ ، ولكنَّ النبيَّ ما فسَّرَ للناس إلا ما يدخل في الأمور التشريعية. أمَّا الآيات التي تصفُ الكونَ فقد تُركت لبحث الإنسان لتجعل من الكون كلِّه كتاباً ربَّانيّاً لا ينتهي وحيه، يثبتُ حفظ القرآن كلما اكتشف الإنسانُ سراً من أسرار الكون يشرحُ ألفاظاً قرآنية غامضة.

5. إنَّ آدمَ في القرآن هو اسمُ جنس، يشيرُ إلى مجوعةِ البشر الذين طوَّرهم الله ـ تعالى- إلى إنسان عاقل، ثم اصطفى من بعدهم نبيَّه الأوّلَ آدمَ كما سنرى لاحقاً .

6. الظنّ أنَّ لفظة "آدم" تشيرُ إلى الذكر دون الأنثى ، لا يدلُّ إلا على طبيعة المجتمعات العربية واليهودية الذكورية التي قامت بتأويل الألفاظ هكذا، ولكنَّ اللفظ القرآني كان متعادلاً في وصف المراحل الأولى لخلق "البشر" و"الإنسان" من غير تذكيرٍ أو تأنيث، ثم جاء اسمُ آدمَ بعد التطور ليكون اسماً للجنس الملائم للتغيير و الذي تطوَّر ذُكوراً وإناثا،

واستعمل القرآنُ لفظ "زوجك" للإشارة إلى وجود الذكر والأنثى ، ولم يرد في القرآن اسمُ حواء مطلقاً . أغلبُ الظنِّ أنَّ اسم حواء يشير إلى زوجة نبي الله آدم المصطفى الذي لمّا يأتِ زمانُه بعدُ .

7. إنَّ لغةَ المجسّماتِ واللغةَ الحركيةَ هي اللغةُ التي يمكن أن نفهم بها الآياتِ التي تحكي قصصَ الإنسان الأول، تماماً كما كان هو يتعلمُ بالمشاهدة من الغراب .

8. إنَّ الجنَّة كانت في الأرض، وإنّما تمّ تعريفُها بألف وَ لام ؛لأنّ آدمَ كان مُدرِكاً لوجود هذه الجنّة، أمّا السماءُ ففيها جنّاتٌ عديدةٌ ولا يمكن تعريفها جميعاً بألفٍ ولامٍ واحدة .

9. إنَّ المعصيةَ الأولى للإنسان كانت ممارسةَ العملية الجنسية ؛ من أجل الإنجاب قبل أن يشرع الله لهم الزواج.

11. إنَّ الأراضيَ المقدسةَ التي تجري فيها شعائرُ الحج تحملُ كلَّ أسرار البشرية من خلق وتطور، وإنّ كلَّ العبادات التي يمارسها الحجيجُ إنَّما هي تمثيلٌ و مشيٌ على خطى آباءِ البشرية كما سنرى بالتفصيل.

12. إذا كانت الممارسةُ الأولى قد وُصفت بطبيعتها الحركية لتعكسَ مستوى فهم الإنسان آنذاك، فمن الطبيعي أنَّ توبتَه تمت بطريقة حركية مجسَّمة، وإنَّ عباداتِه الأولى أيضاً كانت عباداتٍ حركيةً؛ ولذلك فإنَّ كلَّ هذه الأحداث لا يمكنُ فهمُها إلا بلغةِ الغراب كما سنرى .

13. لمَّا كان الشيطانُ لهم بالمرصاد ،فإنَّه من المنطقي جداً أن تعاملَهم معه في الأرض سيكون بطريقة حركية مجسمة ، وليس استعاذات تتطلب "عزما" لمّا يمتلكْه آدمُ بعد، كما نفعل نحن الذين نتعامل معَ أمورِ الدين والدنيا بلغة الهدهد الفلسفية ذاتِ المعاني المتباينة والعميقة .

بعد أن أُسقط في أيديهم، وقفت كلُّ مجموعةِ آدمَ تلك الوقفة التاريخية في عرفات، نادمين عمَّا فعلوا طالبين الغفرانَ بكلِّ ما أُوتوا من مقدرات على التعبير، إذ إنّه ما كان لهم (ذكرانا وإناثا) إلا الاعتراف بالذنب حينها وقد قدّم الله لهم بالتحذير:

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ "23 الأعراف".

فهل تمَّ العفو المطلقُ أم العقابُ ثمَّ العفو؟

لنهبط الآن من جنَّة المأوى في عرفات مع الرَّعيل الأول من جنس آدم الذي تطور إلى إنسان عاقل، وهما (ذكرانا و إناثا) لا تستر سوءاتهما إلا أوراقُ الجنة، إلى وادي المزدلفة ليلاً في طريقهم إلى مِنى ليضحوا على الأرض ضَحاء اليوم التالي كأول يومٍ في تاريخ الإنسانية العاقلةِ على الأرض. ولكنْ قبل أن نهبط، نظنّ أنَّ القارئَ ربما اتفق معنا في كثيرٍ من تأويلنا إنْ لم يكن كله، وهذا يعيننا على أن نرى من الآن فصاعداً في القرآن ما لم نكن نرى، إذ إنَّ القرآن كتابٌ لا تنتهي معجزاتُه وهو يوحي لكلِّ جيلٍ علماً جديداً يناسب تطوره وقدرته على استيعاب أسرار الكون. و إذا قرأنا آياتِ الهبوطَ الآنَ فلن تخفى علينا واوات الجماعة، التي تكررت في كلِّ الآيات التي تصف لحظة هبوط الرعيل الأول من جنس الإنسان العاقل:

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .....﴿١٢٣﴾ ﴾ "123 طه"

﴿ ..... وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ..... ﴿٣٦﴾ "36 البقرة"

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ..... ﴿٣٨﴾ "38 البقرة"

﴿ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ "24 الأعراف"

ولما كانت القصةُ طويلةً جدًّا وكلُّ خُطوة تكشف سرًّا ،فإنّ العدد التقريبي لجنس آدم الذي طُوِّر إلى إنسان عاقل لا يمكن إحصاؤه بسهولة ،ولكنّنا لا نشكُّ في أنَّ أيَّ إنسان يراوده كثير من الفضول لمعرفة عددهم، الأمر الذي لا يمكن تحقيقُه إلا باجتهاد منطقي، وانْ شاء الله سنقترح وسيلةً لعدهم بعد أن نفحص آذان الأنعام من إبلٍ وبقر وماعزٍ وخرافٍ؛ لأنَّ الله - عز وجل- ترك لنا هناك طرفاً من الخيط أمكننا به إشباع هذا الفضول الطبيعي ،الذي أصابنا بالذهول حينما اكتشفنا أنَّ عددهم في القرآن مطابقٌ لِمَا ظنَّ علماء الطبيعة أنَّه العددُ الأدنى الذي أمكن أن تبدأ به حياة المجتمع الإنساني. هذا بالطبع يتطلب أن نمشيَ على خطى إبراهيم بعد أن وصل -عليه السلام - و إسماعيل إلى البيت العتيق وأذَّنَ في الناس، كلِّ الناس بالحَجِّ.

كلُّ ما يمكن أن نلاحظه إلى الآن هو أنَّ الهبوط من جنة عرفات - وهم جميعاً في حالة أشبه بالإحرام اليوم- يؤكد أنَّهم كانوا جمهرة من البشر دَلَفَتْ بهدوءٍ في الليلة السابقة لأول يوم يضحي فيه الإنسان العاقل على الأرض.... فإلى **وادي المزدلفة** في ليلة الوقفة لعيد الإنسانية الأول.

البـــاب الخــامس

في وادي المُزدَلِفَة

اشتُهر عن عليٍّ –رضى الله عنه - قوله :"لو كان الدين بالرأي لكان باطنُ الخُفّ أولى بالمسح من ظاهره" وذلك في وصفه لحكمة المسح على الخفين في الوضوء. فالمعروف أنَّ الوضوء نوعٌ من الطهارة الجسدية كما هو طهارةٌ روحية، غيرَ أنَّه إذا استعصى على الإنسان نزعُ النعلين فإنَّه يمكن أن يمسحَ عليهما، ولكنْ ومن عجبٍ يمسح على المكان النظيف منهما .

في عبادات الإسلام - أحيانًا - حِكَمٌ تستعصي على المنطق، وإنَّما تُؤَدَّى بالطاعة لله ورسوله متى ما ثبت صحتُها عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ، وشأنُ المؤمن في ذلك أنَّ الحكيمَ العليمَ يعلم الحكمة فيما لا نعلم.
وقد رُوي عن النبيِّ - صلى الله عليه وسلم- أنَّه قال: "ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم"(رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة برقم 2262) ممّا يستوجبُ على أيِّ باحث ذي بصرٍ وبصيرة أن يتوقف كثيرًا في أسرار هذه المهنة، التي لا يمكن أن تكون قد ارتبطت عشوائيًّا بالأنبياء، علماً بأنَّ منهم من كان ميسورَ الحال مثل إبراهيم -عليه السلام- ، ومنهم من آتاه اللهُ ملكاً لم يؤتِهِ أحداً من العالمين مثل سليمان وداود، ولكنْ يظلُ القاسم المشتركُ بينهم في المهنة هو رعي الأغنام. وقد كنَّا نظنُّ أنَّ الحكمة من رعي الأغنام هي العزلةُ والتدبرُ في الطبيعة والرحمة على هذه المخلوقات الضعيفة، حتى مَنَّ اللهُ علينا بأنْ نرفعَ آذان الأنعام لنرى من آيات ربِّنا آياتٍ كبرى .

و لعلَّ من أكثر تلك الحِكم الخفية استعصاءً على الفهم ،هي الحكمة من الكمِّ الهائل من الاتساخ في أكبر العبادات أثراً في المجتمع الإسلامي، لما فيها من مدلولات اجتماعية واقتصادية وسياسية، ألا وهي عبادة الحج. قبل عهد السيارات والطائرات كان الناسُ يُحْرِمون أسابيع ،قبل أن يكملوا الفريضةَ وهم مسافرون على ظهور الإبل في غبار الصحراء و حَرِّها أياماً ولياليَ طويلةً، يُحَرَّم عليهم فيها قصُّ الأظافر التي تمتلئ بالأوساخ كلما استطالت، ويحرم عليهم قص الشعر ونتف الإبطين حيث يسيل العرق ويختلط بالتراب وربما يتحول إلى طين مقزز، ولكنّه لا استثناء في الحكم، إذ إنَّ الاستحمامَ و استعمالَ الطيب من المحرمات في الإحرام. وفوق ذلك كلِّه فالذكور لا يلبسون إلا قطعتين فقط من اللباس الأبيض، وهو الإحرام الذي لا يكاد يستر عوراتِهم إذا لم يحذروا أن يسقط. ويزيد الأمرَ غرابةً أنَّ قطعتي الإحرام هاتين يَحْرُمُ على الحاج خياطتُهما أو حتى ربطُهما بحزامٍ محيطٍ يَحولُ دون سقوطِهما وسط الزحام والتعاصر، وكأنَّ هناك حكمةً مقصودةً في أن ينزلق الإحرام فيرفعه الحاج ثم ينزلق فيرفعه وهكذا. ورغم أنَّ عهد الطائرات قد قصر مدة الإحرام إلا أنَّ كل من أنعم الله عليه بنعمة الحج، لا بُدَّ أن يسأل نفسَه عن الحكمة من هذه الأحكام الصارمة التي تجعل من أغلب الناس في يوم عرفات، الطويل بزِحامه المخيف، و حرّه الرهيب، وغباره الذي يلون السماء والأجساد بلون الأرض، تجعلهم متساوين في الاتساخ، مهما اختلفت طبقاتُهم وتباينت أجناسُهم ومستوياتُهم الاجتماعية، مما يجعلهم أشبهَ بالإنسان البدائي الذي كان يتوسَّد الأرضَ ويلتحفُ السماءَ ، ولا يعرف عن النَّظافة والأناقة والاحتشام و الزينة وحسن المظهر إلا شيئاً قليلا. الحجُّ -بلا شك- أيامٌ يسمو فيها الحاجُّ روحياً إلى أرقى مراتب السمو، في الوقت الذي يتدنى فيه الإنسانُ في جسده ومظهره إلى أدنى مستوى، حتى يكاد التمييزُ يصعب بين الإنسان الراقي المتحضر والإنسان البدائي الذي يعيش على أبسط هبات الطبيعة. الحجُّ تَجْرِبة يجتمع فيها نقيضان يصعب على أيِّ مفكرٍ التوفيق بينهما ،وهو أنّه كلما ازداد الحاجُّ ورعاً وحرصاً على

طاعة الله والتزام كلِّ الأوامر واجتناب كلِّ النواهي، كلما ازداد في ذلك اقترب في هيئته من هيئة الإنسان الأول، وذلك باجتنابه كلَّ مظاهر المدنية الحديثة، و هنا يكون الحاجُّ أقربَ ما يكون إلى الله - سبحانه و تعالى- وكأنَّ الاقترابَ من هيئة الإنسان الأول في المظهر وأسلوب الحياة يقابله اقترابٌ أكثرُ من الله ، وكأنَّ الرحلة كلَّها إنَّما هي عودةٌ إلى الجذور البعيدة إلى يومٍ لم يكن فيه حاجزٌ كبيرٌ بين الله والإنسان.

والغريب أنّه حتى الأحكام الشرعية التي تحكم سلوك الإنسان في العبادات تتغير في أيام الحج، فأجسادُ النساء والرجال تختلط وتحتكُّ بل وتتعاصر، والنساء هنا فقط يحرم عليهن تغطية الوجوه ،على عكس ما يتوقع المسلمُ من عبادة فيها من الروحانيات ما فيها وعند بيت الله الحرام. بل حتى أحكام الصلاة تتغير؛ فتزول الحواجز بين الرجال والنساء لدرجة أنَّ الرجال يصلون خلف النساء بلا سؤالٍ أو حرج، وأنَّ كثيرًا من الصفوف يصطفُّ فيها نساءٌ ورجال جنباً إلى جنب، حتى تكاد الفوارق بين الشعوب والقبائل وبين الذكور والإناث، كلُّها تتلاشى فلا يبقى رابطٌ يجمع كلَّ هؤلاء البشرِ إلا قولُ الله -تعالى- :﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ ....﴿١٣﴾ ﴾ " الحجرات 13" وكأنَّه يريد بنا أن ننحدرَ إلى تلك المرحلة من عمر الإنسانية التي سبقت{.. وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ .... ﴿١٣﴾ " 13 الحجرات".

ولما كنَّا نظن أن عبادة الحجِّ ما هي إلا تمثيلٌ سنوي من كلِّ بني آدم لتلك اللحظة الحاسمة في تاريخ الإنسانية ، وهي هبوط آبائهم من جنة المأوى إلى الأرض، ابتداءً بالاستغفار من كلِّ الذنوب في عرفات، ثم النزول محرمين إلى المزدلفة ليلاً، وجمع الجمرات من المَشعر الحرام ،ثمّ رمي الشيطان في أول أيام عيد الأضحى ،ثم الطواف حول البيت العتيق ،ثم التطوف بين الصفا والمروة؛ فإنّنا سنحاول أن نرسم في الصفحات القادمات لوحةً فنيةً مستوحاة من روعة السياق القرآني، تحكي قصة خلق الإنسان وتطورِه في الأراضي المقدسة، وهي -بلا شك- حكمة كبرى من حكم الحج، تلك العبادة الإسلامية الوحيدة التي خاطب الله - تعالى- فيها "الناس" وليس المؤمنين لما فيها من إرثٍ يخصُّ البشريةَ جمعاء :﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ ﴿٢٧﴾ ﴾ "27 الحج".

طفقا يخصفان:

نعود فنتدبر الآيات التي وصفت اللحظاتِ التي تلت ارتكابَ المعصية:

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٢٢﴾ ﴾ ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

﴿ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٢٤﴾ ﴾ ﴿ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ "الأعراف22-25".

"طفقا" تعني: الاستمرار في مزاولة الشيء ... و"الخصف" لها أكثر من معنى ،أهمها : التصاق الشيء بالشيء، وأيضا تعني: صب الحليب على اللبن الرائب، وكذلك مزج اللونين الأبيض والأسود، ومن مشتقاتها "الخصيف" وهو الحبل المنسوج من لونين أبيض وأسود كما في معجم (مقاييس اللغة) وغيره من مراجع اللغة العربية.

وَرَقِ الْجَنَّةِ: لا شك أن كل متدبر لألفاظ القرآن يقف طويلاً عند هذا التعبير ،الذي يُخفي وراءه سراً ربما لا نستطع اكتشافه. الانطباع الذي يتبادر إلى أذهاننا أنَّ ورق الجنة هو ورق الشجر، ولكنّ هذا ليس النصَّ القرآني، وما كان الله يعجزه أن يصف ورق الشجر بهذا اللفظ الصريح. قد يُفاجأ الكثيرون بأنَّ كلمة "ورق" في اللغة لها أصلان: أحدهما يدل على خيرٍ ومال، والآخر يدل على لونِ الرماد ولون الأرض الجدباء. وسمِّيت أوراق الشجر لأنّ الشجر لا قيمة له ولا خير فيه من غير ورق. واستعمل العرب كلمة ورق لتعنيَ المال، ومن ذلك قول الله - تعالى- في سورة الكهف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثۡنَٰهُمۡ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمۡ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ فَلۡيَنظُرۡ أَيُّهَآ أَزۡكَىٰ طَعَامٗا فَلۡيَأۡتِكُم بِرِزۡقٖ مِّنۡهُ وَلۡيَتَلَطَّفۡ وَلَا يُشۡعِرَنَّ بِكُمۡ أَحَدًا ﴿١٩﴾ ﴾ " 19 الكهف". مما لا شك فيه أنّ أصحاب الكهف لم يكن معهم جنيهات أو ريالات أو أيّة عملة ورقية، ولكن وَرِقِكُمْ تعني مالكم.

استعمال القرآن لعبارة {**وَرَقِ الْجَنَّةِ**} ربما يحمل أحد احتمالات ثلاث:

الأول: أنَّ المقصود هو ورق الشجر المتساقط على أرض الجنة، وليس أوراق الأشجار الخضراء. الورق المتساقط في أرض الجنة جاف ، و لونه اصفر لأنَّه لا حياة فيه. وصفُه هنا بأنَّه ورق الجنة وليس ورق الشجر -ربَّما- يفيد أنَّ لون الورق كان مصفراً أو مائلاً للابيضاض وليس أخضرَ كأوراق الشجر.

الثاني: أنَّ ورق هنا أتت بمدلولها اللوني وليس مدلولها المالي. ذلك يعني أنَّهما قاما بتغطية سوءاتهما بتراب أرض الجنة؛ فتحولت أجسادهما إلى ألوان مختلطة في محاولة منهم لطمث آثار الممارسة. هذا الاحتمال فيه قدر من المنطق؛ لأنَّ سكان البوادي- وإلى اليوم- يغطون مواقع الأذى والجروح في أجسادهم بالتراب كأول غطاءٍ يخطر على بالهم.

الثالث: أنَّ ورق هنا تشيرُ إلى أيِّ شيءٍ له قيمة في أرض الجنة، مثل: جلود حيوانات ميتة، أو لحاء أشجار، أو ما شابه ذلك. مهما يكن من أمر، فالنصُّ القرآني يستوقف المتدبر كثيراً قبل أن يخلص إلى نتيجة.

حينما نتدبر معانيَ هاتين الكلمتين **"طَفِقَا يَخْصِفَانِ"** ونتخيل لحظة الحدث، نشعر وكأنَّ الآية تشير إلى هرج ومرج أصابهم فسارعوا في التقاط أوراق الجنة بسرعة وإلصاقها على عوراتهم، فتتساقط فيلصقونها ثانية، وتسقط

فيكررون المحاولة وهكذا باستمرار؛ لأنَّ هذا ما توحي به كلمة "طفقا". ويبدو من استعمال كلمة "يخصفان" أنَّ ورق الجنة كان مائلاً للبياض؛ لأنَّ كلمة "آدم" من معانيها لون أديم الأرض الأسمر، ويُقال: إنّ "آدم" كان أسمرَ اللون فلمَّا التصق الورق على لون أجسادهم السمراء أصبحت كالخصيف، وهو الحبل المنسوج من لونين أبيض وأسود. فكأنِّي بهم حينها قد أصبحوا أجساداً سمراءَ، يغطي بعضها ورقٌ أصفرُ باهتٌ من ورق الجنة، يتساقط فيلصقونه ثانية وهكذا، وكأنِّي بالحجيج اليوم ممثلين مبدعين يمشون على خُطى آبائهم، فيرفعون قطعتي الإحرام البيض اللتين غطاهما الغبار، فتتزلقان فيرفعونهما فتتزلقان وهكذا. فما أبدعَ وصفَ البديع الذي أبدع خلق السماوات والأرض وأنزل القرآن! ولأنَّه بعد هذه الحادثة انتقل السياق القرآني إلى مسألة التوبة؛ فإننا نحتاج أن نقف على مفهوم العبادة والتوبة في عصر القرابين أولاً.

عصـــــر القرابـــــين:

مفهوم تقديم "القرابين" ارتبط في أذهاننا بالعبادات الوثنية، التي يتقرب فيها الوثنيون بقرابين مادية إلى آلهتهم طلباً لرضاهم. ولكنَّ كلَّ العبادات الوثنية -أصلاً- تطورت من ديانات سماوية تم تحريفها عبر القرون، فتحولت العبادة فيها تدريجيا إلى أصناف من الطقوس بعيدة كل البعد عن المصدر الأصلي. فما لا شك فيه أن الله علّم الإنسان الأول ديناً سماوياً بسيطاً يعبر به عن طاعته لله، وعن توبته إذا أخطأ في حق الله. هذا الدين البسيط ظلَّ يتطور عبر الرسل إلى أن ختم الله الديانات بالإسلام، الدين العقلاني الروحي الفلسفي الذي يعكس علاقة خليفة الله في الأرض بربِّه، بكلِّ ما آتاه من ملكات تعبير لغوية وروحية وعقلية وجسدية.

إذا رتلنا آياتِ القرآن التي تحدثت عن "القرابين"، فسنجدُ أنَّ اللفظ لم يرتبط بالوثنية وإنَّما أيضاً بالرسل، إذ يظل مفهوم الإله والقربان الذي يقدم إليه هو الذي يحدِّدُ صحة العبادة من بطلانها، وليس لفظ القربان وحده:

{وَمِنَ الأعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الأخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ألا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }" 99 التوبة"

﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ ۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡ ۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ "28 الأحقاف".

إذنْ فكلُّ ما يُخرج أو يُنفق بنية التقرب إلى الأوثان يُسمَّى قرباناً، كما يطلق نفس اللفظ على الإنفاق المادي أي الصدقات العينية بنية التقرب إلى الله - تعالى-. إذا رجعنا إلى الوراء قليلاً إلى عصور أنبياء بني إسرائيل فسنجدُ أنَّ القرابين كان لها مفهومٌ ومعاملة أخرى:

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ

جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

" 183 آل عمران".

أورد ابن كثير ما يؤكِّد أنَّ الأنبياء قدموا قرابين أكلتها النار كآية لإثبات صدقهم، رغم ذلك قتلهم اليهود، لكنَّه لم يشرح طبيعة القربان وكيف ولماذا تأكله النار. ما يميِّزُ هذه الآية أنَّ القربان هنا ليس عبادة وإنَّما آية لإثبات نبوءة النبي، أي عمل خارق يرد الله عليه بإرسال نارٍ تأكله.

إذنْ فمِن القرابين ما هو آيات من الله أو عبادة تقرب إلى الله، كما أنَّ منها ما هو عبادة وثنية تقرِّبُ إلى آلهة الضلال.

السؤال الذي يطرأ على ذهن كلِّ مفكر هو: كيف عبد الإنسانُ الأوَّلُ ربَّه سواء في تقربه إليه أم في توبته بعد المعصية؟ القرآن ذكر لنا شيئًا من عبادة الإنسان الأول مضمنًا ذلك في القصة التي تعرضنا لها كثيرًا، وسنتعرض لها مزيدًا في هذا البحث، وهي قصة الغراب الذي أرى ابنَ آدم كيف يواري سَوْءة أخيه وعلَّمنا سلوكَ الإنسان الأول وحياتَه:

﴿ ۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ

لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾" 27 المائدة".

من هذه الآية نفهم أنّ الجيل الثاني من آدم كان يتقرب إلى الله بالقرابين، لكنَّنا لا ندري أيَّ صنف من القرابين، وكيف كانت تُقَرب إلى الله، وكيف تقبلها الله أو رفضها... هل كان القربان طعاماً يقدم للطير فتأكله دلالة على تقبل

الله، أم كان صنفًا من الأحجار يضعها في مكان فتأخذها الملائكة، أم أنَّه كان قربانًا تأكله النار كدليل قبول الله؟ لا أحد يدري، ولكنَّ القرابين عبارة عن ماديات تُقدَّم تعبيرًا عن الطاعة. إذنْ فعبادة الجيل الثاني من آدم كانت قرابين مشروعة، تقبل الله منها ما شاء ورفض ما شاء.

لا بُدَّ أن نتذكر أنَّ الآية التالية قد وصفت كيف قتل ابنُ آدم العاصي أخاه، وكيف عَجَزَ عن التخلص من جثته إلى أن بعث اللهُ إليه غرابًا ليريه كيف يواري سَوْءة أخيه:

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ "31 المائدة".

هذه الآية تجعل من ابن آدم إنسانًا بدائيًّا، يتعلمُ من أضعف خلق الله كيف يتعامل مع الطبيعة. وقد استلهمنا منها - كما أسلفنا - أنَّ الجيل الثاني من آدم كان لا يفهم لغة الخطاب التي نفهمها، وإنَّما يتعلم بالمشاهدة والرؤية فقط، وهو ما أسميناه بلغة الغراب.

إذا قبلنا هذه الملاحظات الموضوعية فمن المنطقي أن نفترض أنَّ الجيل الأول من آدم (العنصر المتطور) لا بُدَّ وقد كان أكثرَ بدائية من جيل أبنائه، وبالتالي فإنَّه في أحسن الافتراضات كان يتعبد إلى الله بالقرابين المادية، و ليس بالصلاة والصيام والتسابيح كما تطورت أساليب العبادة في الديانات السماوية اللاحقة.

فإذا كانت عبادة الإنسان الأول بتقديم القرابين، فإنَّ توبته من أول معصية لا بُدَّ و أن تكون بصورة مادية تشابه القرابين.

من هذا المدخل الموضوعي ننظر إلى توبة آدم، وماهيَّة الكلمات التي تلقاها من ربِّه.

هبـوط التـوبـة الأول:

وصف القرآن لنا تتابعَ الأحداث بعد ارتكاب المعصية وصفًا يدلُّ على أنَّ أحداثًا كثيرة جرت قبل الهبوط من الجنة. فممَّا لا شك فيه أنَّ مجموعة آدم قد عبَّروا عن ندمهم وطلبوا العفو، وممَّا لا شك فيه أنّ دينَ الإسلامِ لا يتغير، وأنّ التوبة دائمًا لها شروط، وهكذا وصف لنا الله - سبحانه وتعالى- قصة التوبة وصفًا مفصلًا بلغة الغراب التي ما كان آدمُ ليفهمَ أكثرَ منها، وما كانت له قدرة على التعبير بأبلغَ منها:

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ "37 البقرة".

هذه الآية يسهل فهمُها لُغويًّا إذا كتبناها حَسْبَ المعنى الذي نظنُّه:

فَتَلَقَّى آَدَمُ كَلِمَاتٍ مِنْ رَبِّهِ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ...

هناك خطأ منهجيٌّ في فهمنا للآيات يقودنا دومًا إلى نتائجَ خاطئةٍ؛ وذلك لأنَّنا نتعامل مع أحداث الآيات من دون فهمها وَفْقًا للزمن الذي وقع فيه الحدث الذي تسرده الآية، بل نقوم بتفسيرها وفقا لظروفنا ومفاهيمِ زماننا. وهذه المشكلة تكون عادةَ في آيات القصص؛ لأنَّها -أصلاً- تقصُّ أحداثًا وقعت في عهودٍ ماضية، عاش الناسُ فيها ظروفًا مختلفةً بإمكاناتٍ عقليةٍ وعلمية ومادية واجتماعية مختلفة تمامًا عنا.

ففي بداية حياة الإنسان العاقل، كان الواقعُ الاجتماعيُّ والتطورُ العقليُّ للبشر بسيطًا جدًّا، وأقربَ إلى تعامل الأطفال مع أحداث الحياة اليومية سواءٌ كان في فهمهم أم في كلامهم أو أفعالهم؛ وذلك لأنَّ البشر كانوا قريبين جدًّا من المملكة الحيوانية، بل ولم يشتمل التشريع الربَّاني لهم بعد إلا على الأمر بالسكن في الجنة و النهي عن الاقتراب من الشجرة ،ثمَّ تبعه الأمر بالهبوط من الجنة. هذا يقودنا إلى أنَّ رواية الأحداث ستكون بكلمات مبسطة وتشخيصية، وذلك ليدلنا اللهُ - سبحانه وتعالى- على شكل الواقع الاجتماعي في ذلك الزمن. ولذلك عندما نحاول تفسير مثل تلك الآيات وَفقًا لعقلنا التجريدي وفهمنا للأمور سنقعُ في أخطاء كبيرة؛ فنحن نعيش في زمان تنظم الحياة فيه قوانين ونظم اجتماعية وخُلُقية ودينية تراكمت عبر آلاف السنين، وتطورت مع تطور العقل، وتعارف عليها الناس حتى أصبحت من المسلَّمات، وإنْ كانت تختلف من مجتمع إلى آخر. وهذا التباين يفرز معه كمًّا هائلًا من المصطلحات اللغوية والفلسفية والقانونية والروحية والعلمية التي تزيد كلَّ يومٍ يتطور فيه علم الإنسان بأسرار الكون.

ونضرب مثلًا بالتجارة البكماء التي سادت في عصور بائدة، يوم كان الإنسان لا يعرف المال، وليس لديه مصطلحات اقتصادية أو تجارية، وبالتالي ليس لديه عملة يمكن تبادلها بدلًا عن تبادل البضائع. فكان الناسُ - مثلا- يتبادلون كمًّا من القمحِ مقابل كمٍ من الفاكهة أو العسل، حتى إذا ما تراضى الطرفان اكتمل البيعُ والشراءُ من غير كلام ولا عملات. تلك كانت تجارة مجسَّمة؛ لأنَّ العقل ما كان يفهم إلا المجسمات.

ويضرب لنا علمُ الآثار مثلًا آخرَ، وهو أنَّ الإنسانَ حينما ابتكر الكتابة كان يرسم صورًا في تسلسل، بحيث تدلُّ كلُّ صورةٍ على مخلوق أو كائن أو جماد أو أيِّ شيء يمكن فهمُه من الصورة، وبالتالي تتكون فكرة أو قصة من مجموعة الصور المتسلسلة كما نرى عند قدماء المصريين. تلك الأمثلة عبَّر الله عنها بصورة فنية بسيطة رائعة في سرده لقصة الغراب مع ابن آدم كما أسلفنا، وهي لغة المشاهدة والمتابعة الحركية والتعبير بالتصاوير.

ونضرب مثلًا أخرَ على ذلك، وهو أنَّ مفهومنا - في زماننا هذا- لممارسة العبادة، قد أخذ الطابعَ التجريدي الروحاني والفلسفي بالصلاة والتسبيح والاستغفار والحمد، وبالتالي فإنَّ التوبة تكون بتكرار كلمات منطوقة تعني الاستغفار، مثل: "أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه"، والإكثار من العبادات وأفعال الخير وما إلى ذلك ممَّا يوجب رحمة الله وعفوه. لغتنا – نحن، وبلا شك -هي لغة الهدهد الذي أبدع في وصف نظام ملك سبأ وعقيدتهم.

من هذا المنطلق فإنَّ توبة الإنسان العاقل في لحظاته الأولى على الأرض، لا بد وقد حملت طابعًا يعبر عن بساطته في التعامل مع معطيات الواقع آنذاك. تلك التوبة كانت أقربَ إلى التجارة البكماء في التعامل مع الواقع بلغة

المجسمات وليس المنطوقات؛ لأنَّها -أصلا- كانت توبةً من حرامٍ ارتكبوه، وقد وصف لهم هذا الحرام بصفته الحركية، وليس بمضمونه الأخلاقي " وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ"، وليس "لا تقربوا الفواحش". على أنّنا لو أخطأنا في تحميل الآيات -التي وصفت توبة آدم- معانيَ وفقًا لحالتنا الاجتماعية والفكرية وليس حالته في زمانه ذاك، لأفسدنا كثيرًا من المعاني في القصة. بمعنًى مبسطٍ جدًّا فإنَّ توبة آدم لا بُدَّ أن تُفهم بلغة زمانه وهي لغة الغراب، وليس لغة زماننا وهي لغة الهدهد.

فوفقًا لعقولنا نفهمُ "الكلمات" المقصودة في الآية بأنَّها كلماتٌ منطوقة قالها الله لآدم ليرددها، وهنا نسينا أنَّ آدم -وَفقًا لواقعه الاجتماعي- لم تكن له لغة متكاملة بَعدُ يمكنه على ضوئها أن يفهم المعانيَ المجردة للكلمات الروحية. هذا الخطأ قادنا إلى الظن بأنَّ الذي تلقى كلمات التوبة هو آدم، وبالتالي لم نلاحظ أنَّ الاسم "آدم" في الآية مرفوعٌ بالضمةِ الظاهرة على آخره، مما يعني أنه فاعلٌ "للتلقي" وليس مفعولًا به كما تخيلنا.

فإذا رجعنا إلى الواقع الاجتماعي والمستوى الفكري لآدم في تلك اللحظة، فلا بُدَّ وأن نفترض أنّ آدم سيمارس عملاً ما ليعبر به عن توبته، ولكنَّه لن يرددَ أيَّ تسبيح أو كلمات روحانية ذات مدلولات أبعد من أن يستوعبها هو فضلاً عن أن تصدر منه.

هذا الخطأ المنهجي قادنا إلى خطأ آخرَ، وهو أنَّ آدم "المفعول به كما تخيلنا" هو الذي تاب إلى الله، بعد أن قال الكلمات التي قد تلقاها منه، عندها وصلنا إلى أنّ آدم عندما ارتكب خطيئته طلب من الله أن يغفر له، فعلمه الله -سبحانه- كلمات عندما قالها تاب إليه. ولكن هل هذا هو المعنى الحقيقي لهذه الآية إذا انطلقنا من اللغة العربية التي بها روى الله لنا القصة، ومن واقع آدم الاجتماعي في ذلك الزمان؟

لكي نصل إلى فهم أقربَ إلى الواقع لا بد أن نتدبر معانيَ الألفاظ في تلك الآية:

أولاً: **كلمات** الله هي عينُ مخلوقاته، لأنَّ أمره إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون. بمعنى أنَّ ما أراده اللهُ - عز وجل- يحدث من غير نطقٍ لأمر. إذنْ فكلُّ ما يكون من مخلوقات وموجودات مشخصة ومحسوسة، إنَّما هو أمرٌ من الله - تعالى- للشيء ليكون فكان. هذا يختلف عن كون الله - جل جلاله- يخاطبنا بلغتنا التي نفهمها؛ لأنَّ هذه هي قدرتنا على الفهم، وهذه تكون لغتنا نحن وليست لغة الله. فمثلاً عندما قال الله I للسماوات والأرض أن تأتيا طوعاً أو كرهاً، لا يشترط أنّه نطق تلك الكلمات باللغة العربية الفصحى؛ لأننا لا ندري كيف تتحدث الأرض، ولكنّ المفهوم أن إرادة الله فُرِضت على السماوات والأرض كيفما شاء، ولكن حتى نفهم نحن هذا الأمر رواه لنا بلغتنا نحن وليس لغته هو.

هنا نذكر قول الله I : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ " الإسراء 44". فكلُّ تلك موجوداتٌ غيرُ ناطقة في فهمنا ،ولكنها تسبح بحمد الله بطريقة لا نفهمها.

ثمَّ إنَّ الله - تعالى- قد استعمل "كلمة الله" في موضع آخرَ؛ لتعنيَ شيئاً مجسماً وليس أحرف متصلة لتكون صوتاً له معنىً بالنسبة لنا كما نفهم مضمون "كلمة" كما في قوله - تعالى- :

﴿ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ " 45 آل عمران"، وقوله: ﴿ ...... إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ ...... ﴿١٧١﴾ ﴾ "171النساء".

فكيف يكون المسيح كلمة من الله بجسده ولحمه ودمه إذنْ؟ إنْ كان ذلك يعني أنَّ وجوده هو نتاج كلمة من الله -تعالى- وهي "كن"، فكلُّ شيء قد وُجد بذات الكلمة - أصلا- وليس المسيح وحده. نحن لا ندعي العلم، ولكننا نظنُّ - والله أعلم- أنَّ الله حينما يصف مجسماً بأنَّه **كلمة،** إنَّما يلفت انتباهنا إلى أنَّ هذا المجسم قد وجد بصورة خارجة عن المألوف من نظام الكون، الذي خلَقه، كآية مادية من آيات الله، فالمسيح -إذنْ- خُلق بطريقة خارجة عن المألوف في نظام الخلق؛ ليكونَ شاهداً على قدرة الله في الخلق، وأنَّ وجوده في عالم مريم قد أُدخِلَ بكيفية لا يفهمها إلا الله، لذلك نجد استعماله للفظ "وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ"، ولكنه ما قالها وما نطق بها وما أوحى بها وما ألهمها لمريم، وإنَّما **"أَلْقَاهَا"** وهذا لفظ تجسيمي له مدلولات كثيرة كما سنرى في شرح **"تلقى".**

إذنْ فالكلمات التي تلقاها آدم أغلب الظنِّ أنَّها كانت مجسماتٍ انزلها الله له، وهي بالطبع ذات مدلول معين مرتبط بمبدأ التوبة. إذ إنَّ الواضح أنّ الله لم يكلِّم آدمَ تكليماً كما كلَّم موسى، ولم يوحِ إليه تلك الكلمات، ولم يُذكر أنَّ آدم سمع كلماتٍ من الله، ولكن النصَّ القرآني هو: "فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ.." علما بأنَّ الله قد وصف آدم بعدم "العزم" وهو القدرة الروحية والفكرية على منازلة الجن، مما يؤكد عجزه الفكري والروحي آنذاك: ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴿١١٥﴾ ﴾ "115 طه".

وثانيا: **"لقي"** في اللغة لها ثلاثة أصول، أحدها: طرح الشيء أو إلقاؤه، أمّا الثاني فهو: توافي شيئين، ومنها "اللقاء" أو توافي شخصين أو شيئين اثنين متقابلين، أما الأصل الثالث فهو: يدل على عوج، والعقاب الطير سمِّي **"لقوة"** لاعوجاج منقاره.

تلقى**:** التاء تاء الشِّدة إذا دخلت على الفعل دلَّتْ على أنَّه يتم ببذل مجهود، مثل: "خرج وتخرَّج" و "لهى و تلهَّى".

وثالثاً: التوب في اللغة هو الرجوع.

إذا أخذنا في الاعتبار هذه المفاتيح اللغوية، بالإضافة إلى واقع آدم الاجتماعي ولغة الغراب التي تعامل بها وليس الهدهد، فإنَّه يمكننا إعادة قراءة الآية السابقة بإمعانٍ أكثر لنستخلص الآتي:

﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ " البقرة 37 "

أولا:"كلمات" نكرة بالنسبة لآدم، ولكنَّ مصدرَها معروفٌ لديه إذ إنَّها "من ربِّه". وكما قلنا فإنَّ كلمات الله هي أشياء محسوسة وليست ألفاظا، فكأنّ الله ـ تعالى- قد أنزل إلى آدم مجسمات غريبة عليه ولكنَّه فهم فقط أنها من ربِّه.

ثانيا: آَدَمُ هنا فاعل، نلاحظ أنَّ الاسم به ضمة، وهذا يقودنا إلى أن من فعل "التلقِّي" هو آدمُ وليس الله. بمعنى أنَّ الله لم ينطِقْ بالكلمات كما نفهم، وإنما آَدَمُ هو الذي تلقى تلك الكلمات.

ثالثا: أنَّ التلقِّي الذي فعله آَدَمُ قد بذل فيه مجهودًا؛ لذلك استعملت تاء الشدة في "تَلَقَّى" وليس " لقي"، وإنَّ "كلمات" هي المفعول به. والآن نحاول أن نفهم معنى الآية من الأصول الثلاثة لكلمة "لقِيَ":

الأصل الأول: إلقاء الشيء أو طرحه على الأرض. وهذا يقودنا إلى الافتراض أنَّ آدم طرح تلك المجسمات على الأرض بعد أن حملها بصعوبة.

الأصل الثاني: توافي شيئين اثنين متقابلين، وهذا يقودنا إلى استنتاج أنَّ آدم قد وضع تلك المجسمات في وضعين متقابلين.

الأصل الثالث: يدلُّ على عوجٍ في الشيء، وهذا المعنى قد استعمله الله في وصفه لخلق الجبال حينما قال :

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ ﴾ " 15 النحل".

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ ﴾ " 19 الحجر".

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ ﴾ "7 ق".

أي أنَّ الرواسي "الجبال" شكلُها معوجٌ وهي على الأرض، ولكنَّ ذلك لا يعني أنَّ الجبال قد قُذفت من السماء كما نفهم من كلمة "ألقى"، وإنَّما حنيت على الأرض حتى تقوم بوظيفة الإرساء وأن تمنع الأرض أن تميد بنا. وسنشرح -بإذن الله- مضمونَ { وَكَلِمَتُهُ **أَلْقَاهَا** إِلَى مَرْيَمَ} في باب آذان الأنعام تحت عنوان: " ويكلم الناس في المهد وكهلا".

من هنا يمكننا أن نستخلص أنَّ آدم تعرض إلى عقوبة جسدية، أشبه بعقوبات الحدود التي نعرفها الآنَ بعد أن اكتمل الإسلام، وهي أنَّ الله - تعالى- أنزل إليه مجسماتٍ ثقيلةً حملها بصعوبة ورصها في مكانين متقابلين في شكل فيه اعوجاج، كما أرسى اللهُ الجبالَ معوجة على الأرض.

في هذا العصر عندما تكون هناك مجموعة من المجرمين محكوم عليهم بالأشغال الشاقة، فإنَّهم يُساقون إلى أماكنَ جبليةٍ لكسر صخورها كنوع من العقاب، بأدائهم لعمل مرغوب فيه ولكنَّه شاق جداً. فما هو الأسلوب الذي عاقب الله به مجموعة "آدم" ،الذكور والإناث، على ذنب اتباع الشيطان وارتكاب ذنب ممارسة الشجرة؟

الظاهرُ -والله أعلم- أنَّه قد أنزل لهم حجارة من خارج نطاقهم المعرفي؛ لذلك وصفها بأنَّها "مِنْ رَبِّهٍ"، وقد بذلوا مجهوداً شاقاً في طرحها على الأرض، وجمعها على مكانين متقابلين، ثمَّ رصَّها في شكل جبلين... ولأنَّ آدم كان قد تَلَقَّى مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ، أي بصفة النكرة؛ فإنَّ ربَّه وحدَه هو الذي كان يعلمُ الحكمة والسرَّ وراءَ هذه المجسمات التي رصَّها آدمُ على الأرض. ما كان يخصُّ آدم هو أنَّها كانت عقاباً له وشرطاً للتوبة، ومن ثَمَّ فقد تاب الله عليه.

نعود لنتدبرَ تفاصيل الآيات التي وصفت تلك الأحداثَ بعدما تبين لنا نوعُ العقاب وأسلوبُ التوبة:

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ "36-38 البقرة".

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ " 121-123طه".

"جبى" لغة: تدلُّ على جمع الشيء، والتجمع بعد التشتت، ومنها جباية الزكاة أي جمعها من أناس متفرقين. "اجتبى" تدلُّ على بذل جهد في الجمع على وزن فعل و افتعل.

ولمَّا كانت الآيات -أعلاه- تحكي قصة طويلة جداً في بضع كلماتٍ فقط، كان من المستحسن أن نرتب الأحداث ترتيباً زمنياً حَسْبَ ما ورد في الآيتين:

البقرة: المعصية ـ هبوط ـ فـ تلقى ـ فـ تاب عليه ـ هبـوط جماعي.

طه: المعصية ـ ثـــــــمَّ اجتباه ــ فـ تاب عليه ــ هبـوط جماعي.

من هنا يمكن أن نرتب الأحداث كما يأتي:

1. ارتكب آدم المعصية حَسْبَ آيات سورة البقرة وطه.
2. صدر أمر لبعضهم بالهبوط، إذ لم تصف الآية "جميعاً"...هذا الأمر الأول ورد في آية البقرة فقط.
3. فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فور هبوطه "حرف العطف فاء" كما في آية سورة البقرة فقط .
4. سورة طه وصفت المعصية أولاً ...ثـــم.... اجتباه ربه. حرف العطف "ثم" يفيد التتابع مع التراخي أي وجود فترة زمنية طويلة بين المعصية والاجتباء، ومن هنا نفهم أنّ آية سورة طه لم تصرح بالهبوط الأول وتَلَقِّي الكلمات التي صرحت بها آيات سورة البقرة، وإنما اكتفت بالإشارة إلى فترة زمنية طويلة بين المعصية والاجتباء.

5. كلمة "اجتباه" في سورة طه تؤكد أنّ الهبوط الأول لم يشمل كل مجموعة آدم، وكأن العقاب كان جزئياً قام به بعضُ مَن ارتكب المعصية، كما رأينا حينما شرحنا كلمة "فقاسمهما"؛ لذلك جمعه الله للحظة التوبة التي سبقت الأمر الأخير بالهبوط الجماعي كما في الآيتين.

6. بعد أن تلقّى الكلمات كما في سورة البقرة والاجتباء في سورة طه، تاب عليه ربُّه كما في السورتين.

7. بعد التوبة صدر الأمر الأخير بالهبوط، وهنا كان الأمر مصحوباً بلفظ "جميعاً" في السورتين؛ ليتميز هذا الهبوط الجماعي الأخير ،من هبوط التوبة غير الجماعي الذي وصفته سورة البقرة حين تلقى آدم الكلمات.

إذنْ وبعد فترة محددة من ممارسة العقوبة على بعض جماعة آدم، جمعهم الله من تشتتهم؛ ليرجع إليهم ويرحمهم من العذاب الذي أوقعه عليهم، والتوب هو الرجوع. ومَن تاب هنا هو الله وليس آدم؛ لأنّ الله هو التواب الرحيم الذي دوماً يرجع إلى عباده ليرحمهم، وهو غني عنهم ولو كفر أهل الأرض جميعا.

ونحن نظن أن هذين الجبلين، هما: جبل "الصفا" من الصفاء والنقاء، وجبل "المروة" وتعني البريق، وهما جبلان صغيران بجوار البيت العتيق لا يلتصقان بجبال مكة المعروفة، ويبدو من صغرهما وطبيعة حجارتهما أنهما من وضع إنسان، كأنهما مجموعة من قطع الحجارة ألقيت فوق بعضها، وهما الجبلان اللذان سعت بينهما الأميرة هاجر لتمارس أول عبادة جسدية حينما تركها إبراهيم، وإسماعيل رضيعها، جوار البيت قبل أن يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعدَ من البيت كما سنرى. ولعل هاجر تطوفت بينهما لعلمها أن تلك كانت صلاة الإنسان الأول عند البيت. وسنناقش الصفا والمروة حينما نناقش "شعائر الله" المنزلة في باب "عيد الإنسانية"، ثم نناقش السعي في باب " الحج حجة على الناس". أمّا صيغة اعترافهم بالذنب فقد أصبحت الدعاء الذي سنَّه رسول الله- صلى الله عليه وسلم - عند التطوف بين الصفا والمروة :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ "23 الأعراف".

التمحيص في لفظ "الاجتباء" يدلنا على أن الفعل هو "اجتبى" وليس "جبى"، والتاء ربما تدل على الشدة والمجهود في جبي آدم. وهذا بطبيعة الحال لا يدلُّ على أنَّ الله - تعالى- يبذل جهدًا فيما يشاء أن يكون، كما أنَّ خلْقَ السماوات والأرض في ستة أيام لا يعني أنَّه لم يستطع أن يخلقها في لمح البصر، ولكنَّه يخاطبنا بلغتنا ويخبرنا أنَّ آدم ربَّما تفرق وانتشر لدرجة أنَّ ربَّه اجتباه بقدر ما تفرق للحظة التوبة. و لربَّما يدلُّ هذا الوصف على حالة من الذعر أصابتهم فكأنَّهم كانوا يخشون التجمع، إذ إنَّهم لا يعلمون هل في انتظارهم عقابٌ آخرُ أم توبة، فتطلب الجمع بلغة الإنسان اجتباء وليس جبيًا، والله اعلم.

نعود ونمعن في آيات القرآن مرة أخرى في محاولة لإكمال الصورة:

بعض**:** تجزئة الشيء.

عدْو**:** أصل واحد يدل على تجاوز في الشيء وتقدم لما ينبغي أن يقتصر عليه، ومنها العدو وهو الجري السريع والعدَّاء هو الذي يمتهن الجري.

فكأن الله هنا يؤكد لنا ما ذهبنا إليه من فهمٍ سابق، في أن بعض المجموعة كانت قد عصت وبعضها رفض الاستجابة للشيطان. فقد رأينا أن الفهم اللغوي السليم لكلمة" فقاسمهما" هو تكرار التقسيم، وظننا أن الشيطان قسمهم أولاً إلى : مجموعة إناث و مجموعة ذكور بأن أراهما سوءاتهما. ثم قسمهم مرة أخرى إلى مجموعة مطيعة

ومجموعة رفضت الانصياع له. وهكذا تكرر التقسيم. فلما جاء الأمر بالهبوط وجدنا ما يؤكد ذلك التحليل، وهو أنَّ الهبوط كان محددًا للمجموعة العاصية أولا وهي التي تلقت الكلمات، ثم اجتباهم ربُّهم للتوبة، ثم تبع ذلك الأمر بالهبوط الجماعي الذي - أصلا- كان قدر الإنسان الذي من أجله خلق، ليكون خليفة لله في الأرض. وهنا نجد وصف بعضهم بالعداء لبعض تأكيدًا لذلك الانقسام الأول، إذ إنَّ هذا الوصف يشير إلى طبيعة البشر فالبعض ربَّما يقترف ذنبًا يتسبب في الأذى لمن لم يقترف الذنب.

من هنا أوضح الله للإنسانية أنَّ بعضهم سيكون عدوًا لبعض، بارتكابهم حماقات ربَّما تتسبب في أذى من لم يرتكبها، وفي هذا تقرير لحال عدم التساوي بين بني الإنسان في مستقبل الأيام أيضًا، وأنَّ الله سيتقدم لإرشادهم "هُدًى" بالرسل لتعليمهم سبل التعبد والتقرب إليه، وبالأنبياء لتعليمهم قوانين الكون، فمن تَبِع هداه من غير جهد - لاحظْ عدم استعمال تاء الشِّدة في آية البقرة- {..فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ..} فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ومن يبذل مجهودًا ﴿ .... هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾" طه 123" -لاحظ تاء الشدة في آية طه - لا يضل من حيث العبادة، ولا يشقي أي لا يعاني ويتعب في التعامل مع قوانين الطبيعة المادية، مشيرًا إلى مرحلة أعلى في اتباع الهدى فيما يخص عالم الغيب والشهادة معًا.

و بهذا يمكننا القول: إنَّ من الناس من تَبِعَ هدى الله في أمر العبادات فقط، وهؤلاء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ولكنْ ربَّما يشقون في هذه الدنيا، أمَّا من اتَّبَعَ هداه في أمر الدين وهداه في فهم قوانين الكون التي سخرها الله للإنسان، فلن يضلَّ في هذه الدنيا من حيث العبادة وسيكون له فيها أيضًا رغدُ العيش من غير شقاء.

بعد أن اجتباه ربُّه تمت التوبة وغُفر الذنب، ولكن لمَّا كان الإنسان -أصلاً- قد خُلِق ليكون خليفة الله في الأرض فما كان هناك بدٌّ من الهبوط الجماعي.

الهبوط الجماعي الأخيـر:

وقع الإنسان في شَرَك الشيطان وانكشفت سوءاتهما(أي جنس آدم ذكورا وإناثا)، اعترفا بذنبهما و استوفيا شروط التوبة ثم دَعَوا الله أن يغفرا لهما:

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ " 23 الأعراف".

مما لا شك فيه أن لغة الاعتذار هنا كانت لغة جماعية من ذكور آدم وإناثه. فلو كان شخصاً واحداً لقال: " ظلمتُ نفسي" ولو كانا اثنين لقالا:" ظلمنا نفسينا"، لكنهما أي مجموعتي الذكران والإناث الذين ارتكبوا المعصية قالتا: " ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا". و لا يعقل أبداً أن الجمع هنا يشمل آدم وزوجه وإبليس كما هو الفهم العام للآية. لفظ الجمع يشير لعدد الأنفس من جنس آدم التي ظلمت وطلبت العفو، ولا يعلم عددها إلا الله - تعالى- .

يوم عرفات... ذلك اليوم الذي ينزل الله - جلَّ جلاله- فيه إلى السماء الدنيا؛ ليغفر لعباده ويباهي بهم الملائكة، وهم في أسوأ حالاتهم ضيقاً وإرهاقاً واتساخاً...هذا الموقف لا بُدَّ وأنَّ فيه سراً كبيراً جداً، إذ إنَّه ينقلُ الإنسانَ نقلة

بعيدة إلى الحالة البدائية مهما تطور ومهما امتلك من نعم الدنيا وزينتها، ورغم ذلك يقرِّب الإنسانَ إلى الله ـ تعالى- أكثر من أيِّ يومٍ آخرَ في أيِّ مكان آخر.

المعروف أنّ أهمَّ حدث في يوم عرفات، هو الوقوف مدةً من الزمن بعد الزوال أي العصر، والاستمرار إلى أن يسجي الليل من ذلك اليوم، ليبدأ الناس في الهبوط والإفاضة من عرفات، ويشترط عليهم الهدوء والسكينة الشديدة في هبوطهم، وكأنهم يودون الرجوع إليه، وليس الخلاص من ذلك الزحام والغبار كما في وصف هبوط النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع في حديث جابر بن عبد الله {...ودفع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد شنق القصواء الزمام حتى رأسها لتصيب مورك رجله ويقول بيده اليمنى :أيها الناس السكينةَ السكينةَ ... وكلما أتى جبلاً من الجبال أرخى قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة....}(رواه مسلم في صحيحه باب الحج). فما الحكمة من كلّ ذلك الحدث الغريب؟ وما الحكمة من الهبوط بسكينة وهدوء كاد أن يشنق ناقة النبي "القصواء" كما في الحديث؟ فعند أدائنا لعبادة الحَجّ فنحن نعلم أننا نمشي على خطى الحبيب محمد كما مشى في حجة الوداع. ولكن على خطى من كان الحبيبُ محمدٌ يمشي ويسنُّ للناس الهبوط من عرفات بسكينة، تلك السُّنة التي ستمضي إلى يوم القيامة سواء أعرف الناس ذلك السرَّ أم لم يعرفوه ؟!

أيكون هبوط الحجيج من عرفات هو تمثيل وتكرار لذلك الحدث المهم واللحظة الفاصلة في تاريخ الإنسانية وعلاقتها بخالقها؟ فبعد أن تاب الله عليهم، وهم في الجنة التي أَوَوا إليها أول مرة، صدر إليهم الأمر بالهبوط الجماعي منها بنص هذه الآيات:

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ .... ﴿١٢٣﴾ ﴾ " 123 طه".

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا .... ﴿٣٨﴾ ﴾ "38 البقرة".

﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ " 24 الأعراف".

"هبط" في اللغة كلمةٌ تدلّ على الانحدار كما في معجم مقاييس اللغة، وقد وردت في القرآن في مواقعَ مختلفةٍ كلها تدل على الهبوط من مكانٍ مرتفع في الأرض إلى آخر منخفض:

﴿ ..... ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ .... ﴿٧٤﴾ ﴾ " 74 البقرة".

﴿ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ .... ﴿٤٨﴾ ﴾ " 48 هود".

﴿ ۗ....ٱهْبِطُواْ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ ....﴿٦١﴾ ﴾ " 61 البقرة".

إذنْ فليس هناك رابطٌ على الإطلاق بين كلمة "الهبوط" في قصة آدم و أيٍّ من جنّات الله في السماء. فضلاً عن أنَّ الإنسان لو كان في جنة السماء ما هبط وحده، وإنَّما لا بُدَّ أن يحمله الله إلى كوكب الأرض بطريقة خارقة، يعبُرُ

بها حواجز الكون المختلفة التي نعرفها الآن، والتي يستحيل معها اختراق الإنسان من السماء إلى الأرض وحده، وهذه حقيقة لم تكن معلومة للمفسرين القدامى ولكنْ لا يقبلها العقل الآن، علماً بأنَّ القرآن -أصلاً- لم يصف وسيلة خارقة لنقل آدم إلى الأرض. الأمر لآدم بالهبوط هنا يدل على أنَّ آدم كان قادراً على الهبوط بإرادته الحرة، ولا يحتاج إلى براق يحمله في الفضاء من جنة في السماء إلى كوكب الأرض. اللفظ لا يدل إلا على أنّ الجنة أو الغابة كانت في منطقة مرتفعة "جبل" على الأرض، وعندما عاقبهم الله أمرهم بالخروج من الجنة واصفاً اتجاه الخروج من ناحية الجبل إلى الوادي المنحدر.

الملاحظ أيضاً أنَّ صيغة الأمر هنا تكررت بلفظ الجمع في كل الآيات، مع الاحتفاظ بالمثنى الذي يفيد "المؤنث والمذكر" كما في آية سورة طه أعلاه. اهبطا " الذكران والإناث" جميعاً "كل المجموعة "، إذ لا يستقيم أن يُوصف شخصان فقط بـ "جميعاً" بل كان الأنسب أن يقال "كليكما" أو شيء من هذا القبيل لو كان المخاطب هما نبي الله (آدم) وزوجته (حواء) والله أعلم .

ويستمرُّ التركيز على لفظ الجمع، فيخبرهم الله بعداوتهم بعضهم لبعض. ولا يستقيم في اللغة أيضاً أن يكون الخطاب موجهاً لشخصين فقط، ثمَّ يقسمهما الله - تعالى- إلى مجموعتين بعضهم يعادي بعضًا، إذ إنَّ "التبعيض" يعني جزءاً من كلٍّ لا كل. لا يستقيم لغةً أيضاً أن يكون المقصود هو أنَّ بعضاً من "آدم" أصبح عدوًا لبعضٍ من "حواء" بافتراض أنَّ المخاطَبَيْن هنا هما آدم وحواء. هذا بالإضافة إلى أنَّ لفظ التبعيض لا يعني أنَّ بعضهم أصبح عدواً لبعضٍ فقط، وإنَّما يعني أيضاً أنَّ بعضهم لم يكن عدواً لبعض. فكم - إذنْ- كان عددُ آدم وزوجه لحظة الهبوط من جبل عرفات؟ إنَّ هذه الآياتِ لا تدعُ مجالاً للشكِّ في أنَّ آدم المخاطب هنا ليس إلا اسمَ جنس "آدم" الذي طوره الله إلى إنسان عاقل (ذكرانًا وإناثا) وليس شخصًا واحدًا وزوجته.

يلتبس على كثيرٍ من الناس أنَّ الخطاب هنا موجه لآدمَ وحواء وإبليس، أي ثلاثتهم، ولكنَّ في هذا الفهم خللاً من عدة وجوه:

الأول: أنَّ إبليسَ كان قد طُرد من رحمة الله يوم رفض السجود لآدم، قبل أن يسكن آدم الجنة و يرتكب المعصية، ولذا فإنَّ العقاب هنا لا يشمله ويؤكد ذلك قوله - تعالى-:

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ "الأعراف12-13".

الهبوط هنا يفيد التحقير والهبوط من مرتبة التكريم الرفيعة التي كان فيها إلى ما هو أدنى منها، أمّا الخروج فهو خروج وطرد من رحمة الله:

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ "18 الأعراف". أمَّا آدم فقد سكن الجنة بعد أنْ طُرد إبليس من رحمة الله.

الثاني: أن إبليس -أصلاً- ما أمر بأن يسكن الجنة ولا أن يجتنب الشجرة، وأن باب التوبة قد قفل أمامه إلى يوم القيامة بعد أن طُرد من رحمة الله. إبليس اختار أن يكون عدواً لآدم، وسيكون حيث كان آدم من غير توجيه أو أمر من الله.

فإذا سكن آدم الجنة تبعه إبليس وحينما هبط منها هبط إبليس من غير أمر. إذنْ فخطاب السكن كان موجهاً لآدم وحده " ذكرانا وإناثا"، ومن ثمَّ كان خطاب الهبوط أيضاً.

الثالث: أنّ إبليس عدو لكلّ الناس، ولا يمكن أن يدخل في معادلة التبعيض. فالذين يتبعون إبليس إنما يخدعهم، ولكنّه يظل عدواً لهم جميعا ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ..... ﴿١١٧﴾ ﴾ " 117 طه"، والذين يجتنبونه يظل أيضاً عدواً لهم، يبذل كل جهده ليزلقهم متى ما وجد فرصة لذلك. أما{بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ} فتشير إلى العداوات التي ستحدث في الأرض بين أفراد جنس آدم أنفسِهم كما أسلفنا، والله أعلم.

الرابع: أن السكن في الجنة و عدم الاقتراب من الشجرة ثم الهبوط من الجنة، كل ذلك كان بدايةَ التشريع الإسلامي لآدم والطاعة للأوامر واجتناب النواهي التي كانت تمثل أولى عباداته، أما إبليس -أصلاً- فقد تكبر وكفر وطرد من رحمة الله وسبق عليه الكتاب، وبالتالي لم يكن معنيا بأي تشريع أو اختبار.

الخامس: أن الإنسان حينما يرتكب معصية، فإن الله يحذره من تكرار اتباع الشيطان، ولا يعقل أن يأمره الله أن يأخذ الشيطان معه في الخروج من موقع المعصية.

إذنْ فلفظُ الجمع في الأمر بالهبوط إنَّما هو دليلٌ إضافيٌّ على أنَّ المخاطب هنا هو جمهرة آدم، ذكورًا و إناثا، قد هبطوا من جنة مرتفعة عند حافة الجبل من الناحية المنحدرة إلى الوادي في انكسارٍ وأسف وندم، لا يغطي سوءاتهما التي بدت لهما إلا ورق الجنة، ليواجهوا مصيرًا مجهولاً وعالمًا مرعباً عركوه يوم كانوا جزءًا منه قبل أن يُرفعوا إلى مستوى الإنسان العاقل ويسكنوا الجنة. ويعودون إليه اليوم أشد خوفًا ورعبًا من أخطاره وشقائه وتحدياته التي يفهمونها الآن أكثر لما أوتوه من عقل وقدرة على فهم الأمور.

المزدلفة:

نحن لا ندري الهيئة التي هبطوا فيها إلى الأرض، ولكنَّ كلمات القرآن الساحرة، أحيانًا ترسم لوحةً مجسمةً بل وفيلمًا سينمائيًّا يجعل من الخيال صورةً واقعيةً مرئيةً للقارئ. ولو حاولنا الإمعان في وصف لحظة المواجهة مع الله والأمر بالخروج، لأمكننا أن نتخيل هيئتهم في تلك اللحظة الرهيبة من تاريخ البشر. أهمية فهم "لغة الغراب" تأتي في مثل هذه القصص من قصص القرآن ، إذ إنَّ الآيات تسردُ لنا أحداثاً كثيرة بكلماتٍ قليلة جدا تأخذ معانيَ أوسعَ وصورةً أبلغ إذا تدبرناها وتخيلنا ما كان يجري أكثر من أن نصفها بكلمات فلسفية.

إذا أردنا أن نطبق أبسطَ أبجديات علم النفس لنتخيل كيف كانت حالتهم وماذا كان يدور في خَلدهم ، فسنكون واقعيين إذا افترضنا أنهم كانوا يدعون ويستغفرون بإلحاح وبكاء، وكلهم أمل أن لا يخرجهم الله من الجنة... ولعلَّ بكاءَهم وعويلهم ودعاءهم واضطرابهم كان طويلا جدا، و ربَّما استمروا بعضاً من نهار على سفح الجبل لا يتوقفون عن البكاء والدعاء بإلحاح، ولا يتوقفون عن التقاط الورق الذي يتساقط فيرفعونه، وهكذا إلى أن دنت الشمس نحو الغروب ثمَّ غابت، فانتظروا حتى سجى الليل فغاب معه الأمل في البقاء في الجنة تمامًا، ونزل ربهم إلى السماء الدنيا ليقبل توبتهم، وصدر إليهم الوعد بالعفو ولكن لا مبدِّل لكلمات الله، إذ إنَّهم إنَّما طُوروا لإنسان عاقل؛ لِيَشْغُروا منصب خليفة الله في الأرض، وما كان السكن في الجنة إلا مرحلة انتقالية في حياتهم، وقد حان وقت الهبوط إليها فصدر إليهم الأمر بالهبوط جميعاً إلى ارضٍ ذات أهوال ومحن، وأمامهم وعدٌ ثقيل بأنَّ لهم فيها مستقراً ومتاعاً إلى

حين، وأنهم فِيهَا سَيَحْيَوْنَ وَفِيهَا سَيَمُوتُونَ وَمِنْهَا يُخْرَجُونَ تارةً أخرى، ويا له من مصيرٍ مرعب ينتظرهم بعد أن كان أملهم أن ينالوا الخلود وملك لا يبلى.

ومما لا شك فيه أن الإنسان لا ينقطع رجاؤه في الله، وأغلب الظن أنهم بعد غروب الشمس بدأوا الهبوط بسكينة وهدوء وانكسار، يقدمون رِجلا ويؤخرون أخرى، كالطفل الذي يطرده أبوه من البيت فيتردد في الخروج على أمل أن يناديه ليرجع ...وتراخوا في الهبوط بسكينة ووقار ولكنْ كان الأمر الأخير واضحاً وصريحاً يتردد صداه المرعب بين جبال مكة التي هبطوا إلى وُدْيانها.."اهبطوا منها جميعاً"..."فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون"...إنه شعور مرير كشعور إنسان حُكم عليه بالإعدام يوم ميلاده وهو عاقل يفهم ماذا تعني هذه الكلمات..
ولا شك أنَّ خوفهم من هذا المخلوق الذي ما عرفوه من قبل قد زاد من رعبهم وهم يهبطون، وربَّما كان واضحاً مرئياً لهم يهبط معهم خطوة بخطوة...وفي خَلده منزلقات أخرى ينوي أن يزلقهم فيها، ولا شيء في خلدهم إلا الرعب؛ لأنَّهم لا يعرفون كيف يواجهون هذا العدو غير المادي الذي تسبب لهم في أول كارثة، ويا لها من كارثة...
وهبطوا نحو المصير المرعب، منهكين منهزمين تائبين نادمين، يخيم عليهم الوجوم والصمت الرهيب بعدما لم يُجْدِ الدعاءُ ولم يُحققْ لهم أملُ العودة إلى الجنة، وإنْ كان الله قد سامحهم على معصيتهم تلك وتاب عليهم.

فلو تصورنا أجسادهم السمراء يخالطها ورق الجنة الأبيض كالخصيف وهم هابطون بكلِّ بطء، لَمَا وجدنا اسماً أفضل للوادي الذي هبطوا إليه من جنة المأوى في عرفات من اسم (المزدلفة). فالدليف في اللغة: هو المشي الرويد في رفق وبطء، والمزدلفة: هم القوم الذين يمشون في بطء شديد، وهكذا هبطوا ليلاً إلى وادي المزدلفة الذي يحمل إلى اليوم وصفاً لحالة أول جمهرة من الإنس هبطت عليه أول مرة، والتحفوا العراء بأجسادهم السمراء يغطيها ورق الجنة الأبيض كالخصيف.

نحن نظنُّ أنَّ اسم المزدلفة ليس إلا ابتكاراً قرآنياً نتج من الجمع بين "دلف" وتعني المشي ببطء، و "زلف" وتعني الاقتراب، إذ إنَّ بعض المفسرين يرى أنّ المزدلفة سميت كذلك؛ لأنَّ الحاج فيه يقترب من مكة، ولكنَّ التصريف اللغوي لا يقبل أن يكون لفظ المزدلفة على وزن مفتعلة من زلف فقط، فضلاً عن أن (المزدلفة) الذي دلف إليه آدم أولًا أقرب إلى عرفات من مكة، حيث يوجد وادي مِنى بين المزدلفة ومكة.
من الناحية الروحية، فإنَّ المعلوم أنَّه لمَّا هبطوا كان الله قد غفر لهم ذنبهم فهبطوا كيوم خلقوا لا ذنب لهم، وهذا ما يفسر لنا أنَّ يوم عرفات تُغفر فيه كلُّ الذنوب كما غُفرت لآبائنا من قبل. ولكن قد يقول قائل: إنَّ آدم غفرت له معصية واحدة فقط، فما علاقة ذلك بغفران الذنوب جميعاً كما هو الحال في يوم عرفات؟

من المعروف -لغةً وشرعًا- أنَّ الإسلام هو دينُ الله الوحيد كما قال -تعالى- : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ.... ﴿١٩﴾ ﴾ " 19 آل عمران"، فهو دينُ كلِّ الكون بما في ذلك السماوات والأرض:﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ "11 فصلت".

والمعروف أيضًا أنَّ الله قد جعل لكلِّ أمة شِرعةً ومنهاجًا ﴿ ...... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ....

﴿٤٨﴾ "48 المائدة". هذا المنهاج هو الذي تُسلم به كلُّ أمَّة إلى الله، إلى أن اكتمل التشريع الإسلامي في وادي

عرفات في حجة الوداع يوم أنزل الله على النبيِّ الخاتَمِ آخر آية اشتملت على حلالٍ وحرام ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ " 3 المائدة". ولنا هنا أن نسأل ماذا عمَّا صدر

من التشريع الإسلامي لآدم منذ أن أصبح مكلفًا حتى اللحظة التي عصى فيها ربَّه؟ الإجابة بسيطة وهي أنَّ الله ما نهى آدم حينها عن شيء إلا الاقتراب من تلك الشجرة. ولمَّا كان آدم قد اقترب منها فإنَّه يكون بذلك قد عصى اللهَ -سبحانه وتعالى- في كل ما نهاه عنه. بمعنًى آخرَ فالإنسان الذي يعصي أمرًا واحدًا من عشرة أوامر يكون قد عصى في عُشْرِ دينه، والذي عصى في أمرٍ واحدٍ هو كلُّ دينه فقد عصى الله في كلِّ الدين، وهكذا كان حجم معصية آدم.

ولأنَّ الله كان قد غفر له في لحظة التوبة والبكاء والاستغفار؛ فإنَّه بذلك يكون قد غفر له كل ذنوبه حتى الآن. وهكذا نزل آدم من جنة عرفات إلى وادي المزدلفة وقد غفرت له جميع ذنوبه، بعد أن تلقى من ربه كلمات فتاب عليه... غُفرت له كل ذنوبه فعاد كيوم خُلق وكيوم ولدته أمُّه، إذ إنَّ آدم -ولا شك- كان يوماً صبياً، وكان يوماً وليداً رضيعاً قبل التطور... وهكذا جرت سنة الله في بني آدم الذين يقفون ذات الموقف، فيغفر الله لهم كلَّ ذنوبهم في يوم عرفات كيوم ولدتهم أمهاتهم.

وهنا لا بد أن نُذكِّر بأمر ما زال مرتبطاً بالوقوف بعرفة، لكنه حتماً سيحمل مدلولاً جديداً اليوم. المعروف أنَّ النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - وصف لنا أنَّ الله ينزل إلى السماء الدنيا في عصر عرفات فيباهي الملائكة بعباده، إذ إنَّهم أتوه طائعين مستغفرين وتائبين. هذه المباهاة مرتبطة باستفسار الملائكة يوم قال لهم الله إنَّه جاعل في الأرض خليفة، فاستغربوا أن يجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؛ فعلَّم آدم الأسماء كلَّها وجعله يردُّ على الملائكة حينها، وقال لهم : ألم أقل لكم إنّي أعلم غيب السماوات والأرض. واستمرت مباهاة الله للملائكة بجنس آدم إلى يوم القيامة في ذات الموقع والعيد الذي تاب فيه الله على آبائهم. فهاهم آدمُ(الجنس الملائم للتغيير) وبعد آلاف السنين يعودون إلى ذات المكان ليُحيوا ذكرى وقوف آبائهم في ذات الموقع تائبين مستغفرين من كل ذنوبهم يرددون ذات الدعاء "رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ". إذنْ فكل العبادات ترتبط بمنطق و واقع وتاريخ ذي معانٍ عميقة، وعبادة الحج ترتبط بمعانٍ تهمُّ البشرية جمعاء، مسلمهم وكافرهم لأنها تحكي قصة آباء الإنسانية وليس المسلمين فقط.

ولمّا كان كلُّ شيء من صنع الله الذي أحسن كلِّ شيءٍ خلقه، فقد شاء الله أن يكون أول تشريع للإنسان قد تم في هذا المكان، يوم أمَر آدم وزوجه أنْ يسكنا الجنة ولا يقربا الشجرة، فعصى آدمُ ربَّه فهبط منها، ثم بعث الله أنبياء ورسلًا وأنزل كتبًا، ولمَّا اكتمل مسلسل الرسالات السماوية وأتمَّ اللهُ نعمته على الناس ورضي لهم الإسلام دينا، خطا

سيد الخلق و خاتم الأنبياء والمرسلين آخرَ خُطُواته في هذا الوادي في حجة الوداع، لتنزل عليه آخر آيات التشريع الإسلامي في ذات المكان والزمان الذي صدر فيه أولُ تشريع إسلامي لأول إنسان عاقل...فالبداية الرهيبة كانت هنا، وهنا كانت النهاية المهيبة أيضًا... هنا كان أول عهد السماء بالأرض حينما صدر الخطاب إلى أقل البشر تطوراً، وهنا كان الختام أيضاً حينما نزلت آخر آيات القرآن على أرقى البشر تطوراً الحبيبِ محمدٍ؛ ليكون الحج شاهدًا على تاريخ البشر وحُجَّةً على الإنسانية جمعاء.

إذنْ فدين آدم حينما هبط من عرفات ما اشتمل إلا على أمر ونهيٍ ثم تاب الله عليه. فيما عدا ذلك فدين آدم لمَّا يحتوِ بعدُ على أيِّ أحكام تنظم حياته، أو تهذب هيئته كما هو حال الإسلام بعد أن اكتمل في حجة الوداع. وأغلبُ الظنِّ أنَّ مجموعة آدم حينها كانت ما تزال في هيئتها البدائية، وكانت شعورهم طويلة، وأظافرهم متسخة، ولا يميزهم عن الحيوانات في الوادي إلا بعض ورق الجنة البيضاء التي تغطي أجزاء من أجسادهم السمراء كالخصيف، وربَّما بدأ بعضها يتساقط من شدة الإعياء والهموم وانكشفت سوءات بعضهم ولكن لا ساتر لهم إلا تلك الأوراق، تختلط بأجسادهم السمراء كالخصيف و تنزلق فيرفعونها فتنزلق و يرفعونها "طفقا"، وما أبدعَ وصفَ البديع الذي أبدع صنع السماوات والأرض، وخلق الإنسان ثمَّ طوره، وأنزل القرآن يصف لنا فيه ما كان من أمر آبائنا في غابر الزمان، وفرض علينا عبادة تجعلنا نتقمص هيئتهم و نمشي على خطاهم في ذات المكان إلى آخر الزمان.

ولعلَّ هذا المشهد الذي تصوره صياغة الآيات ومحاولتنا لتصور هيبة الحدث، يبعث بصيصًا من نور لإضافة أبعادٍ جديدة إلى بعض آيات القرآن الغامضة التي ما اتفق الناس على معنىً محددٍ قاطعٍ لها، والتي تحمل حجمًا كبيرًا في العبادة والتقرب إلى الله .

قَسمُ الله بظهور الإنسان العاقل:

من المعلوم من الدين بالضرورة أنَّ الله - سبحانه و تعالى- لا يحتاج إلى أنْ يُقْسِم لنا إذا أراد إخبارنا بأيِّ شيء، ولكنَّ القرآن اشتمل على مواقعَ كثيرةٍ يقسم اللهُ فيها ببعض مخلوقاته العظيمة، الأمر الذي يدعونا للتفكُّرِ في عظمة المقسم به، إذ إنَّ القسم لا يدلُّ إلا على عظمة المقسم به. والمخلوق لا يجوز له إلا أن يقسم بالخالق، ولكنَّ الخالق ينتقي من مخلوقاته العظيمة ما يقسم به ليس لأنَّه يحتاج إلى ذلك، ولكنْ لأنَّ في القسم -دائمًا- سرًّا يرتبط بالمقسم عليه مما يدلل على عظمة الله، ومهما حاولنا أن نفهم عظمة ذلك الأمر فالله وحده هو الذي يعلم السر من وراء صياغة القسم.

فلنقرأ سورة العصر -مثلاً- وهي من قصار السور التي سنَّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لنا أن نتلوها قبل أن نفضَّ أيَّ مجلس لأنّها تمحو الذنوب التي نقترفها في لغونا وإنْ حرصنا:

﴿ وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣ ﴾

"العصر" لها أربعةُ معانٍ: فهو الزمان المطلق كالدهر. والعصر ثانيًا تعني ضغط الشيء حتى يتحلب، ومنها "العصير الذي نشربه من الفواكه"، والناس يتعاصرون في الزحام. وثالثاً تعني التعلق بالشيء والإمساك به ورابعًا فهي موعد صلاة العصر. والاستعمال الغالب لها في الإسلام ارتبط بفترة ما بعد زوال الشمس وهي فترة صلاة العصر، وهي من أخطر الصلوات التي لا يُقبلُ إدخالُها فيما بعدها. فقد وصَّى الرسول - صلى الله عليه وسلم - بالحرص على صلاة الفجر والعصر، على أنّ الفجر يرتبط بالاستيقاظ لأنّ القلم رفع عن النائم حتى يستيقظ، ولكنّ العصر لا يبقي في إهماله وتأخيره عذرٌ أبدًا. على أنّ هذا الفهم لم يكن ذا معنًى قبل أن تفرض صلاة العصر أصلا، وبالتالي فإنَّ كلمة العصر في هذه السورة تظل تحمل مدلولها اللغوي أكثر من ارتباطها اللاحق بصلاة العصر.
"خُسْر" في اللغة تعني: النقصان، ويقال: خسرت الميزان يعني أنقصته كما في المعجم. وهي مشابهة لكلمة **(غرور)** كما رأينا حينما ناقشنا **"**فدلاهما بغرور**"**، وكان أحد معانيها النقصان في الوعد، إذ إنَّ الشيطان وعدهم الخلود، والله كتب عليهم الموت فكان وعدُ الشيطان ناقصاً.
فهل يقسم الله - تعالى- هنا بوقت العصر أي بعد الزوال، وهو وقت الركن الأهم في الحج، وهو الوقوف بعرفة بعد الزوال إلى جزء من الليل؟ إذا كان هذا هو "العصر" الذي يقسم به الله، فباقي المعاني تستقيم، ويمكن أن نتخيل معنى السورة كما يأتي:
أقسم بالعصر الذي وقف فيه الإنسان في الجنة نادماً، وربَّما أقسم باللحظة التي تعاصرت فيها الإنسانية في الجنة سائلة الغفران بعد أن ظنُّوا أنَّهم بعصيانهم لي سينالون الخلود، إنَّ الإنسان إلى يوم القيامة في نقصان متعة وأحلام؛ لأنَّ الموت هادم الملذات قدرٌ لا يتغير، وما كان وعد الشيطان لهم بالخلود إلا وعدًا ناقصًا. على أن الطريق إلى الخلود فقط للذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

ما نرمي إليه هنا ليس الربط بين القسم وقصة خسران الإنسان فهذا أمر معلوم، ولكن بين فترة الزوال "العصر" التي يتعاصر فيها الحجيج في عرفات كأهم ركن من أركان الحج، وهي لحظة فراق عرفات التي تسبق الهبوط، وبين اختيار كلمة "العصر" بكل معانيها للقسم. فكأنما الإنسان الأول وقف تلك الوقفة، يعصر بعضهم بعضًا، وهو يدعو الله أن يغفر له قبل أنْ يهبط منها بعد أن سجى الليل. وكأنَّ الله يُذكِّرنا بهذه السورة، التي تحدث السلف كثيرًا عن قيمتها وأهميتها في الاستغفار، بقصة الاستغفار الأول في عصر عرفات. وكأنّ الله يذكرنا بالمغفرة الأولى وليس الخطيئة الأولى، إذ إنَّ غفرانه أوسع من معاصينا. توبة الإنسان الأول في عصر عرفات وهبوطه إلى الأرض كانت لحظة رهيبة في تاريخ الإنسانية، بل وكل مخلوقات الأرض، إذ إنها كانت بداية نفوذ سلطان خليفة الله على مخلوقاتها وقوانينها بعد أن سجدت له الملائكة، فلا غرابة إذنْ أن يقسم الله بتلك اللحظة الرهيبة. ولا بُدَّ أن نتدبر في حكمة السنة من تلاوة هذه السورة حينما يهم مسلمان بالافتراق، وكأنَّها تحكي قصة الفراق الأول الرهيب للجنة بعد عصر عرفات.

فإذا قبلنا هذه المعاني الإضافية لسورة العصر، فيمكننا أن نفسر سورة الضحى أيضاً على هذا المنوال. سورة الضحى نزلت بعد أسابيع من انقطاع الوحي عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - في بداية عهده بالوحي. وقد عرف عن النبي أنَّه أصيب بالقلق وظنَّ أنَّ ربَّه غضب عليه، علماً بأنَّ قريشَ بدأت تسخر منه ممَّا زاد شعوره بالحرج والحَيرة من غياب الوحي. التوقيت الذي نزلت فيه السورة يدل على أنَّ النبيَّ كان أحوجَ ما يكون إلى لمسة حنان رقيقة تثبته وتطمئنه أنّه خير الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين، فكان مضمون السورة منسجماً مع تاريخ الإنسانية

جمعاء، وكأن سورة الضحى بهذه المحتويات جاءت لتذكره أنَّ نبوءته ما هي إلا امتدادٌ لعهدٍ بين الله والإنسانية قديم قِدَم الإنسان نفسه:

﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١ ﴾

"الضحى" تعني الظهور والبروز، وما سُمِّي ضَحاء النهار بهذا الاسم إلا لأنَّ الشمس تبرز فيه، ولكنَّ الكلمة لا علاقة لها بالنهار نفسه. "والليل إذا سجى" تعني: إذا ادلهم وسكن. "قلى" تعني: بغض وجفاء.

فهل يشير قسم الله هنا أيضًا- وفي ذلك الظرف الخاص جدًّا الذي كان النبيُّ يتساءل فيه عن علاقة الله به- إلى قضية الإنسان الأول الأبدية، ولحظة أن ضحى وبرز على الأرض هابطاً من الجنة بعد أن انتهى عصر عرفات وادلهم الليل. وهل يقسم الله - تعالى- هنا بلحظة ضحاء الإنسانية و بروزها على الأرض بعد أن سجى الليل، ويذكرنا أنَّ ذلك لم يكن الوداعَ الأخير، وأنَّ لقاء الآخرة خيرٌ ودائم، وأنَّ ربَّ الإنسان سيعطيه الكثير في الأيام والسنين والقرون والألفيات القادمة على امتداد عُمُر الإنسانية في الأرض؟ وهل كانت مناسبة نزول السورة على النبي - صلى الله عليه وسلم - بعد أن انقطع الوحي أسابيع عديدة، أنّ الله أراد أن يخبره أن قضيته معه ليست قضية شخصية، وإنما هي امتداد لقضية الإنسان منذ أن ضحى على الأرض بعد أن سجى الليل من يوم عرفات؟

إن كان هذا المعنى مقبولاً، فإنه من الطبيعي أن السورة التي نزلت بعد سورة الضحى، هي سورة المزمل التي مهَّد الله -تعالى- فيها فِكْرَ النبيِّ إلى تلقي قولٍ ثقيلٍ استمر نزوله ثلاثة وعشرين عامًا، قصَّ للإنسانية فيه كلَّ ما يمكنهم استيعابه من قضايا الكون والخلقِ والخالقْ في عالم الغيب والشهادة، وأمر النبي ومن بعده المسلمين أنَّ هذا القول الثقيل يتطلب ترتيل القرآن ترتيلا:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلاً ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلاً ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِى عَلَيۡكَ قَوۡلاً ثَقِيلاً ۝٥ ﴾ " 1-5المزمل".

رتْل: بسكون التاء تعني المتشابه والمتناسق من الأشياء كما ورد في معجم لسان العرب. وترتيل الكلام ربَّما يعني قراءة المتشابه منه لفظًا أو معنًى مع بعضه بعضًا حتى تتكامل المعاني ويفسر بعضه بعضا. الترتيل يختلف من التلاوة، إذ إنَّه يعني جمع الأرتال المتشابهة معًا، بينما التلاوة تعني أن يتغنى القارئ بالآيات كل آية تلو الأخرى. وقد اختلف المفسرون في تعريف القول الثقيل، واتجهت معظم الآراء إلى كونه أمرَ العبادةِ من صيام وصلاة

وطاعات، ولكنَّنا نظنُّ أنَّ العبادات لا تكون ثقيلة إلا على المنافق، وقد كان النبيُّ يقول لبلالٍ حينما يحين وقت الصلاة: "أرحنا بها يا بلال" ممَّا يدل على أنها تريح المؤمنين، وأيضًا فإنَّ المسلمين يتوحشون رمضان في أيامه الأخيرة، ممَّا يدلُّ على حبهم له وراحتهم فيه. القول الثقيل الذي ينتج من ترتيل القرآن هو كشف أسرار من أسرار الكون تهز الإنسان وتخلب عقله، وربما تشكك في إيمانه إنْ كان إيمانه قائمًا على معلومات خاطئة. ونحن نظن أنَّ الكثير مما احتوى عليه كتابنا هذا ليس إلا قولًا ثقيلًا على معظم الناس، إذ إنَّه تأويلٌ جديدٌ لبعض قصصِ القرآن ينزل على الكثيرين نزول الصاعــقة.

إنَّ إضافة هذا الفهم المعقول إلى سورة الضحى، ينقلها من سورة فيها كثير من الغموض -كما هو الحال- إلى كلمات تهتز بها أركان بكَّة وما فيها من "شعائر الله" و أول بيت وضع للناس. كلماتها ربَّما اهتزت لها قمم الجبال التي هبط منها، والوديان التي مشى فيها الإنسان الأول قبل آلاف السنين، وكأنَّه يتيمٌ فقد معيله ومعينه وهو يهوي في البرية بلا حماية أو أمان. فكأنَّ الله - تعالى- يقول لمحمدٍ في تلك اللحظة:

أقسم لك يا محمد، و أنا الذي لا أحتاج إلى أنْ أقسم، أقسم لك بلحظة ضَحاء الإنسان الأول بعد أن سجى الليل من يوم عرفات إلى وادي المزدلفة وهو يظنُّ أنِّي ودعته وقليته، وأنَّ خروجه كان نهاية علاقتي به، وأنَّ وداع الجنة كان الوداع الأخير، فشعر بالمرارة كما يشعر اليتيم وهو يفقد عائله وراعيه. أقسم لك يا محمد بتلك اللحظة الرهيبة في تاريخ الإنسان إنّ اصطفائي لك لتكون رسولي للناس كافة أمرٌ قديم قدم الإنسانية نفسها، وأن اختياري لك يا محمد لتكون خاتم الأنبياء والمرسلين إنَّما هو امتدادٌ لوعدي القديم للإنسانية أن لا أتركهم بلا هدًى، وأنَّ خروجهم من جنة المأوى ما كان إلا لأني أعددت لهم خلودًا في جنات الآخرة خيرًا وأبقى. وقد سألوني -يومها- الغفران فغفرت لهم، وخافوا اليتم فكنت عائلا لهم، وآويتهم إلى البيت الذي تراه، فهو أول بيت وضع لأولئك الناس. وإني يا محمد، سأقص عليك وعلى بني آدم قَصَصَ آبائهم وما كان من حالهم حتى تعرف الإنسانية جمعاء أنِّي إذا وعدت فلا أخلف الميعاد، وإذا أردت فليس لأمري راد، فاسأل الهضاب التي هبطوا منها، والوديان التي ساروا فيها، و الجبال التي سعوا بينها، والبيت الذي آويتهم إليه. فتلك آثارُهم باقية جعلناها شعائر يحج إليها أبناؤهم إلى يوم القيامة وحرمنا عليها الاندثار، وذلك بيتهم الأول شاهدٌ عليهم والطائفين حوله ليلا ونهار. وإنّي يا محمد، أفعل ما أريد كيفما أريد ؛ولذلك فكل الذي أوصيك به الآن في بداية نبوءتك أن تستشعر مرارة اليتم فلا تقهر اليتيم الحزين، وأنْ تستشعر مرارة الحوجاء فلا تنهر السائل المسكين، فقد كنت نفسك يتيماً فيسرت لك المأوى وأنت ضعيف، ووجدتك مع كل الإنسانية تبحث عن هادٍ فهديتك، وهديتُهم بك و أنا بالعالمـين لطيف، فتذكَّر نعمي عليك وحدّث بها.

ونحن نشهد يا محمد، أنَّه لا إله إلا الله وأنك يا محمد رسول الله، ونشهد أنك قد أديت الأمانة وبلغت الرسالة وحفظت القرآن كما نطق به جبريل، ليصلنا كما هو بغموضه ووضوحه وإعجازه، فلا رفعت منصوبًا ولا نصبت مرفوعًا، ولا أضفت رأيك لكلمات الله الخالدات المعجزات كما فعل بنو إسرائيل في توراتهم. وإنَّا يا محمد، ونحن نكتشف اليوم في القرآن وحيًا جديدًا مذهلًا مزلزلًا، لَنشهدُ أنَّه لو أنَّ ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، وأنَّه لو كان البحر مداداً لكلمات ربنا التي جئت بها يا محمد لنفد البحر قبل أن

تنفد كلمات ربنا ولو جئنا بمثله مددا... وإنَّا لنشهد يا محمد، أنك علمت الناس تفاصيل الحج من سنن وأركان كما أمرك الله؛ ليكون الحج حجة على الإنسان وامتداداً لإعجاز القرآن على مر الزمان، وإلا لمَا فهمنا لِمَ فرضت عليهم الإحرام قطعتين بيض تنزلقان وتنزلقان وتنزلقان. ونحن -الحجيجَ -لا ندري أننا حينما نمشي على خُطى الحبيب محمد إنما نمشي على خطى آبائنا، ونتشبه بهم حينما طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ومازالا يخصفان. ولو أنَّك يا محمد، اندفعت من عرفات إلى المزدلفة كما يفعل الناس اليوم جهلاً منهم لَمَا فهمنا كيف ولماذا دلف الإنسان الأول في هذا الوادي ...فعلى خطاهم كنت تمشي يا محمد، وعلى خطاك وخطاهم تمشي الإنسانية إلى يوم القيامة، وهي لا تدري أنَّها إنَّما تمشي في أرض آبائهم، وأنَّ حجهم إنَّما هو استرجاع لقصة خلق الإنسان و تطوره في هذه البقاع المقدسة. ما أعظمَ دينَك يا محمد، وما أعظم القرآن الذي جئت به!

وإنّا لنعلم يا محمد، أنَّ الإنسانية اليوم في مشارق الأرض و مغاربها لا تنتظر خبراً أعظم من هذا الخبر، ولا تحلم بنبأ أعظم من نبأ اكتشاف أصل الإنسان وموقع خلقه وتطوره وأول بيت أوى إليه...

لقد أجمع الناس يا محمد، في بدء الألفية أنَّ الخالدين مائة أولهم محمد نبي الإسلام، فكيف بهم لو عرفوا أنك رسولٌ إلى الإنسانية كلها ووريث آبائهم، وأنَّك يا محمد من كشف للناس أصل الخلق وأرض التطور وأول بيت أوى إليه الإنسان...

فيا فخر من يمشي على خطى الحبيب محمدٍ في سيرته ...ويا فخر من يمشي على خطى الحبيب محمدٍ وهو يعلم أنَّه إنما يمشي على خطى الإنسان الأول...و يا فخر من طار بخياله إلى تلك البقاع المقدسة واستنشق من عبير التاريخ منذ أن خطا الإنسان الأول عليها ...ويا فخر من رتل القرآن ترتيلا؛ ليرى من آيات ربِّه آياتٍ كبرى ويتلقى من ربِّه قولًا ثقيلا... ويا فخر من وقف في وادي عرفات حيث بدأ تكليف الإنسان ثمَّ دلف إلى وادي المزدلفة؛ ليجمع جمرات المصابيح المنزلة لرجم الشيطان وهو يعلم أنَّه إنَّما يجمع جمرات منزلة من السماء منذ عهد آدم ...يا فخر من رجم الشيطان بوادي مِنىً حيث نبت الإنسان نباتًا وسعى ملايين السنين، وحيث نفخ الله فيه من روحه، وحيث سجدت الملائكة لآدم، وحيث طرد إبليس من رحمة الله وحيث نزلت الأنعام..يا فخر من فهم أنَّ الحجَّ حُجة على عقل الإنسان، واتبع "ملة إبراهيم" حنيفا وتبع كل النبيين رعاة الأغنام ... يا فخر من فهم قصة نوحٍ والسفينة التي استعصى على نوحٍ فهمها؛ فاختار أن يكون من الجاهلين... يا فخر من ميز بين أهله الذين كانوا أهلا للصعود معه وأهله الذين ما كانوا أهلا لذلك، وإنْ كانوا أقربَ أهله إليه... يا فخر من استوعب قانون الاصطفاء الرباني في سفينة نوحٍ؛ فسجد لله شكرًا كلما تحسس الكرسي وعرش الرحمن، ثـمَّ رفع بكلِّ كبريـــــــاءٍ آذان الأنـــــعام.

يا فخر من خَطا على خُطى أميرة كل الأزمان هاجر، فصعد الصفا والمروة، وتذكر يوم تلقى آدم من ربه كلمات فكانت له متابا... يا فخر من تطوف بين الجبلين وهو يذكر آباءه ذهابًا وإيابًا... يا فخر من طاف حول أول بيتٍ وضع للناس ببكة ليكون لأول أناسٍ أمنا، ثم جاء إبراهيم فكان البيت لكل الناس مثابا... ويا فخر من عرف أنَّه إنَّما يسعى في وسط الأرض، وفي مركز تتقاطع فيه أقطار السماوات والأرض ويتوازن عنده الكون...

بعد أن سجى ليل عرفات دلف آدم (ذكرانا وإناثا) ببطء حتى أضحى في وادي المزدلفة، كأول موقع له على الأرض منذ أن طُوِّر إلى إنسان عاقل، وكان شبه عارٍ لا تستر (سوءاتهما) إلا أوراق الجنة البيضاء فتبدو أجسادهم السمراء كالخصيف. ولأنَّ الإنسان العاقل كان قد هبط إلى الأرض أول مرة ليلا، فقد بدأ الزمان في مفهومه ليلا؛ ولذلك فالليل سابق النهار في كل الديانات السماوية، فضلا عن أن الله -أصلاً- قد خلق الظل أولاً ثم جعل الشمس

عليه دليلا. و لأنَّ اليوم الذي يأتي بعد هذه الليلة هو أول يومٍ يضحى فيه الإنسان العاقل في الأرض؛ فقد كان ذلك اليوم هو يوم عيد الأضحى، ولأنِّ مَن ضحى على الأرض في ذاك اليوم هم آباء الناس جميعاً فهو أجدر أن نعدّهُ عيد الإنسانية جمعاء.

ولأنَّ الله -أصلاً- ما وجد لآدم عزماً في مواجهة الجن بالقوة الروحية، فكان لابد لآدم أن يتعلم بلغة الغراب فقط كيف يواجه الشيطان في يوم عيد الإنسانية كما سنرى. ولأنَّ إبليس كان -وما زال- بارًا بقسمه: ﴿ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧ ﴾ " 17 الأعراف"، فكان لا بد لآدم أن يحمل بيديه سلاحًا فتاكًا يرجم به الجنَّ إلى أن تتعلم ذريته الاستعاذة بلغة الهدهد.

ولأنَّ إبليس كان من الجن، فلنستمع لشهادة الجنِّ فيما جرى. ولأنَّ الجنَّ سكنت الأرض والسماء زمنا قبل الإنسان، فلنَدَعِ الجنَّ تحدثنا كيف تطورت الأحداث في عالمها بين الكواكب و النجوم و شهب السماء التي تهوي، وكيف تطور قانون الكون نفسه بعد أن برز وضحى خليفة الله ليفرض سلطانه على الأرض برا وبحرا وجوا.

الجنُّ أمرها غريب، فقد سكنت الأرض قبل الإنسان وعاصرت كل الرسالات وقصص النبيين إلى النبي الخاتم. ولكن ومن عجبٍ، فانَّ الجنَّ الذين سمعوا بالقرآن أول مرة من فم الحبيب محمد تحت الشجرة فرّوا إلى قومهم منذرين، فقالوا: يا قومنا " إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحد" ....و قالوا إنا سمعنا كتابا أُنزل من بعد موسى. فهل غاب عنهم أن القرآن إنَّما أُنزل من بعد عيسى، أم أنَّ في قولهم سرًّا جديداً لا يمكننا فهمُه إلا من عالم الجن...

لنرى كيف كان اللقاء الثاني بين الإنسان العاقل وشيطان الجنِّ في يوم عيد الأضحى الأول...**عيد الإنســانــية !**

البــــــاب الســادس

عيــدُ الإنســانـيــة

الذين يهاجرون من بلادهم إلى بلاد غريبة من غير أمل في العودة، يعرفون كم هو مرير شعور الإنسان حينما يحط في دارٍ غير داره وعالم غير عالمه، تحاصرُه ظروف لا يكاد يفهمها، وتخفي له الأيام أقداراً لا يستطع أن يتكهن بها، وفوق ذلك فطريق العودة قد قُطعت، وليس أمامه إلا التعامل مع الواقع الجديد مهما كان مرعباً ومريراً.

اليوم الذي هبطت فيه مجموعة آدم من جنة عرفات إلى وادي المزدلفة، هو أول يوم يظهر ويبرز فيه الإنسان العاقل على الأرض ليمارس سلطاته عليها، ويصير خليفة لله فيها كما أراد الله له أن يكون. هبوطه كان بعد أن سجى الليل، ولكنْ -كما أسلفنا- فإنّ الليل سابقُ النهار في قانون الكون وشريعة السماء؛ ولذلك فإنّ هبوطه كان قد تم في ليلة يتلوها نهارُ يومٍ هو اليوم الأول للإنسان العاقل على الأرض. ومن المنطقي إذنْ أنْ نعدَّ ذلك اليوم يوم (1-1 من عمر الإنسانية)، هو اليوم الذي برز وضحى فيه خليفة الله على الأرض، ليبدأ رحلته الطويلة للإمساك بزمام الأمور وفرض سلطانه على قوانينها ومخلوقاتها.

وعندما فرض الله الحج بوصفه رُكْناً من أركان الإسلام يُمارَسُ إلى أن يَرِثَ اللهُ الأرضَ وما عليها - جعله مرتبطاً ، زماناً ومكاناً ، بالعلامات و الآثار المتعلقة بخلق الإنسان و تطوره. وأَمَرَ اللهُ رسولَه الخاتم - صلى الله عليه وسلم - أن يجعلَ هذا اليوم يومَ عيدٍ للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها. هذا العيدُ أخذ اسمه من بروز الإنسان وانكشافه على الأرض وهو عيد الأضحى.

"ضحى" في اللغة تدل على بروز الشيء، والشيء هنا هو الإنسان الأول يوم دلف من جنة عرفات وبرز إلى العالم في وادي المزدلفة، وهذا يفسر لنا لماذا يقع عيد الأضحى في منتصف شعائر الحج بعد عرفة وقبل رمي الجمرات، إذ إنّ مراسم الحج شيء والاحتفال بالعيد شيء آخر للذين لا يحضرون الحج. فالحج عبادة اكتملت شعائرها لتعكس معانيَ كثيرة، من ضمنها المشي على خطى آبائنا الأوائل يوم هبطوا أول مرة، ولكنَّه أيضاً يعكس أحداثاً أخرى وقعت في عهد إبراهيم وإسماعيل وهاجر الذين أعادوا إحياء الحدث؛ ليكون حُجةَ الله على الإنسانية جمعاء كما سنرى.

إنَّ ربط الشيطانِ قَدَرَهُ بخطى الإنسان أمرٌ يجب أن لا يغيب عن بالنا، فحيثما كان آدم كان الشيطان. ولعلَّ من المنطقي جداً أن يكون إبليس قد خطا مع الإنسان الخُطُوات ذاتها، وبدأ يحشد جنده من شياطين الجنِّ؛ ليواصل إغواءه للإنسان كما وعد أن يأتيَهم عن أيمانهم وعن شمائلهم. وبناءً على ذلك فمن المنطقي جداً أنَّ الله - جل وعلا- قد علَّم آدم وسيلةً لمواجهة الشيطان، تتناسب مع المستوى الفكري البسيط للإنسان الذي لم يكن له "عزم" حينها، ومع طبيعة الجنِّ نفسه. ولعل من الحكمة هنا أن نستدعيَ الجنَّ للإدلاء برأيهم في قضية تطور الإنسان وتطور قوانين الكون؛ حتى نستوعب لماذا كانت المناسك التي يؤديها الحاجُّ بعد هبوطه من عرفات هي جمع الجمرات ليلا من المزدلفة، ثمَّ رمي الجمرات صباح اليوم التالي في مِنى، إذ إنَّ هذه المناسك لابُدَّ و أن تكون لها عَلاقة بصراع شيطان الجن مع الإنسان في طريقه إلى موقع أول بيت وضع لهم كما يبدو من تتابع مسار الأحداث الجغرافي على أرض مكة.

شـهادة الـجـن:

يوم هبط رسول الله - صلى الله عليه وسلم- من الطائفِ عائدًا إلى مكة، كان جسدُه الطاهرُ ينزف دماً من قسوة ما لاقاه من أهل الطائف، وقد ورد في الحديث أنّه وصف ذلك اليوم بأنّه أسوأ أيام حياته. ولعل تراكم الابتلاءات عليه زاد من الشعور بالمرارة حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وما عاد يستطيعُ أن يتخيلَ كيف تنتشر الدعوة. فقد ماتت خديجة الفاضلة ومات أبو طالب، وأصبح وحيدًا لا يجد من ينصره، وأتْباعُه من الإنس ضعافٌ مستضعفون لا حول لهم ولا قوة. وفوق ذلك كله كان النبيُّ قد بعث رسلًا إلى ستٍ وعشرين قبيلة فما قبلت دعوته ولا واحدة منها. ثبت عن النبيِّ - صلى الله عليه وسلم- أنَّه قال دعاءه المشهور هذا في طريق عودته من الطائف: " اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، و قلة حيلتي وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني. إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إنْ لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي ..." إلى آخر الحديث.(حديث أخرجه الطبراني في الكبير 73/13، و ابن عساكر في تاريخ دمشق 49/ 152، ضعفه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي، برقم 126)

ولأنَّ الله - تعالى- عنده علمُ الغيب وملك السماوات والأرض، فإنَّه كان قد أعد للرسول - صلى الله عليه وسلم - مفاجأة ما كان له أن يتوقعها، ألا وهي إسلامُ الجنِّ. فبينما كان يتلو القرآن تحت الشجرة استمع إليه سبعةُ نفر من الجنِّ من أهل نصيبين، كانوا في طريقهم على غير ميعاد مع النبي، وهكذا دخلت الجنُّ بعلمها في عالمِ عِلْمِ الإنسان، لتضيف إلى علمنا في أمر التطور شيئًا ما كان لنا أن نتوصل إليه بالتدبر أو الافتراض:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾ " 29-33الأحقاف".

هنا نلاحظ أمرًا مثيرًا للانتباه، وهو أنَّ الجنَّ وجدت في الآيات التي سمعتها من رسول الله - صلى الله عليه وسلم- تصديقًا لأمورٍ وردت في توراة موسى، وليس إنجيل عيسى، مما أثار تساؤلاتٍ كثيرةً لدى المفسرين عبر العصور. وقد تضاربت أقوال المفسرين في هذا الأمر، فمنهم من قال: إنَّ هذا النفر من الجنِّ كانوا يهودًا، ومنهم من قال:إنهم

لم يسمعوا بعيسى، ومنهم من قال: إنَّ المسيح - أصلا- ما بُعِثَ إلى الجنِّ. ولنا رأي في هذا القول الأخير، إذ إنَّه ورد في إنجيل "مَتَّى "عن المسيح - عليه السلام- أنَّه عالج مريضًا كان قد مَسَّه جانّ، وخاطب الجنَّ في ذلك الحدث.

على أنَّ التمحيصَ في ألفاظ الآية يُوحي بأنَّ الجنَّ قد قارنوا بين محتوى القرآن ومحتوى التوراة، فوجدوا تقاربًا كبيرًا بين ما كان يتلوه الرسول - صلى الله عليه وسلم - و ما علموه من التوراة سابقا. والمطَّلع على التوراة والزبور والإنجيل والقرآن يلاحظُ التقاربَ الكبيرَ بين التوراة والقرآن في وصفهما للقرون من قَبْلِ موسى، ووصفهما لأصل خلق الكون والإنسان. فلعل الجنَّ هنا ربطت بين الكتابين كون مصدرهما إله واحد يصف بدء الكون والخلق برواية متشابهة، والله أعلم.

المعروف من السيرة أنَّ الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك أوفد للجنِّ عبدَ الله بن مسعود - رضي الله عنه- ليُفَقِهَهُم في الدين، حيث كان يلتقي بهم عند الشجرة؛ لأنَّ الرسول إنَّما بُعث للإنس والجن، ولذلك نلاحظ أنَّ الآياتِ التي وصفت حالهم في سورة الجنِّ اشتملت على تفاصيلَ أكثر عن رأيهم في القرآن والعقيدة الإسلامية بعد أن عرفوا عنها الكثير:

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ ﴾ "1-3الجن".

أورد الإمام الطبري حديثًا صحيحًا مفاده أنَّ الشياطين شكت إلى إبليسَ أنَّ الله سلط عليهم الشهب والنجوم فجأة، وأنَّهم مُنعوا من التَّنَصُّتِ على الملأ الأعلى، فقال لهم: إنَّ أمرًا جللا لا بُدَّ وقد وقع في الأرض، فبعث إبليسُ نفرًا من الجن يبحثون في مكة لعلمه أنّ الأمر سيكون فيها، فكان ذلك النفر مَن استمع إلى النبي و آمن به. وقد أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - أنْ يعلّمهم القرآن، فمضى إليهم في مرحلة تالية يقرئهم القرآن ومعه عبد الله بن مسعود. ما نلاحظه في هذه الآيات أنّ الجنَّ أعلنوا براءتهم من الشرك، وقد غلبت الآراء على أنّهم كانوا يشيرون إلى إبليس في أمر الشرك هذا، ثم إنّهم أيضا أقرّوا بتوحيد الله وأقروا أنّه لا صاحبة له ولا ولد، وكأنّهم هنا يشيرون إلى علمهم بما آل إليه حال النصارى في ذلك الزمن من ظنِّهم أنَّ المسيح هو ابن الله. فربما يكون في هذه الآية إشارة إلى أنّ الجنَّ كانت على علم بالعقيدة المسيحية ولكنها لم تتبعها؛ لذلك كان في مفهومهم أنّ القرآن قد أنزل من بعد موسى، والله أعلم.

وتمضي الجنُّ تخبرنا عن أسرار تطور قانون الكون:

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ

بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴿١٣﴾ ﴾ " 6-13 الجن".

وفى سياق آخرَ يصف الله عالمَ الجنِّ كما يأتي:

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴿٨﴾ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴿١٠﴾ ﴾ " 6-10الصافات".

إذنْ فالجنُّ في عصر من العصور كانت لهم حرية أكبر في التنقل في السماء، وإنَّهم ربما كانوا يتنصتون على الأوامر التي تصدر من ربِّ العرش العظيم للملائكة، أو ربَّما يتنصتون على حديث الملائكة مع بعضهم بعضا فيلتقطونها، ولكنْ في مراحل لاحقة من تطور الكون تزامنت مع بعثة النبيِّ الخاتم - صلى الله عليه وسلم - مُلِئت السماءُ حرساً شديدًا وشهبًا جعلها الله رجوماً للشياطين، وبذلك عزل الله الجن من الصعود للتنصت على ما يدور بين الملأ الأعلى.

ولعل علاقة الجن بالإنسان نفسَها مرت بمراحلَ مختلفةٍ لا ندري أسرارها، ولكن الواضح من الآيات السابقة أن علاقاتٍ نشأت بين رجالٍ من الإنس و رجالٍ من الجن، وأيضا نعلم أنّ الله قد أخضع الجنّ لنبيه سليمان - عليه السلام- لدرجة أنّه لما مات لم يعلموا بموته:

﴿ فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾ "14 سبأ".

فإنْ كانت تلك علاقة الإنسان المتأخرة بالجنِّ، مسلمِهم وكافرِهم، وهي علاقة رجالٍ تزيد رجالا رهقا، ورسلٌ تهدي وشهبٌ تهوي وملوكٌ تملك وعذابٌ مهين، فكيف بدأت علاقة الإنسان الأول بالجنّ ساعة أن دلف إلى وادي المزدلفة، وضحى في أرض الله سلطاناً عليها وخليفة لله فيها؟

كما ذكرنا سابقا، فإنَّ الإنسان حينها ما كان بعد قد امتلك علوم الفلسفة والكلام، وملكات التعبير ووسائل العبادة الروحية، فقد وصفه الله بأنَّه لم يكن له عزمٌ؛ ولذلك ما كان له أن يعوذَ "... بِرَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الذي يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ"، كما نستعيذ نحن الآن. مثل هذه العبادة

كانت سابقة لأوانها في نظام التطور الفكري. وكما رأينا في عصر القرابين، فإنَّ عبادة الإنسان الأولى للتعبير عن استغفاره كانت أنَّه ﴿تَلَقَّى مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾، أي تلقى أفعالاً مجسمة. لو كان فهمنا سليماً لكان من المنطقي جداً أن يتعامل الإنسان، وهو يخطو أولى خُطُواته على الأرض مع شياطين الجن، بـ"المجسمات" بذات الصورة التي استغفر بها ربَّه حين تلقى كلماته فتاب عليه. هنا نفهم لماذا أمره الله - تعالى- أن يجمع الحصى من وادي المزدلفة ويرمى به الشيطان الذي سيواجهه غدًا يوم يضحى على الأرض نهارًا. ولكنْ ما علاقة هذه الحصى التي تجمع من المزدلفة وقهر الشيطان؟ لفهم تلك العلاقة الغامضة لابد من استعمال علم الفيزياء النووية لفهم بعض آيات القرآن.

الفيزياء النووية:

إذا تدبرنا قولَ الجنِّ- أعلاه- وهو أنَّ الله - تعالى- قد خلق شهبًا قاتلة للجنِّ التي تسعى للتنصت على الملأ الأعلى، فلا بُدَّ لنا أن نسأل أنفسنا كيف خُلقت الجنُّ حتى نستوعب كيف تقتل. من المعروف أنَّ الجنَّ قد خلقت من نار كما نصَّ على ذلك القرآن، قال اللهُ - تعالى- :

﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾ " 15 الرحمن".

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ " 27 الحجر".

مرج: تفيد المجيء والذهاب والاضطراب. سموم: من سمَّ وتفيد دخول شيء في شيء والسَموم هو الريح الحارة لأنها تداخل الأجسام بقوة.

فإذا حاولنا الجمع بين الوصفين لخلق الجن، فسنخلص إلى أنَّ الجن مخلوق من طاقة ناتجة عن حركة عنيفة لمصدرٍ ناري. أي أنَّ الخلق ليس من لهب النار، وإنَّما من السموم الذي ينتج من حركة واضطراب النار. هذا المعنى يمكن فهمه من الفيزياء النووية بأنَّه يشيرُ إلى طاقة حرارية خاصة لا يعرف سرَّها إلا الذي خلقهم.

فإذا كان خلق الجنِّ من طاقة حرارية مضطربة ومتذبذبة، فمن المنطقي أن نفهم أنَّ حجارة الشهب التي ترجم الجنَّ لا بُدَّ وأن تكون مصدر طاقة نووية مضادة لطاقة خلق الجن، ومن خصائصها تعطيل طاقة الجنِّ وإبطالها. هذه المفاهيمُ ما كان للسلف أن يفكروا فيها، ولكنَّنا اليومَ نتعاملُ بمثل هذه الطاقاتِ الخفيةَ في كلِّ وسائل الاتصال: المرئية والمسموعة، و"الرادارات" وأجهزة التحكم عن بعد وغيرها. ونعلم أيضاً أنَّه في الأسلحة الحربية تشوش الرادارات بعضها على بعض بالتداخل في موجات الإرسال والاستقبال، بل وأنَّ استعمال "الهواتف النقالة" ممنوع داخل الطائرات؛ لأنَّها ربَّما ترسل طاقات تبطل أجهزة الطائرة التي تتحرك بطاقات وذبذبات مشابهة. ولهذا يمكننا أن نفهم أنَّ الشهب التي تقتل الجن، إنَّما لها خاصية تعطيل الطاقة الحرارية التي خلق منها الجن. وهذا المعنى ربَّما يكون تفسيراً علمياً لهذه الآيات التي اختلفت الآراء حولها اختلافات كثيرة، وما ذلك إلا لأنَّها ما كان لها أنْ تُفهم من غير معرفة الفيزياء النووية.

قال – تعالى- :

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠ ﴾

" 1-10 الصافات".

بطبيعة الحال، فقد انحصر تفسير القدامى في ظنِّهم أنَّ "الصافات" هي الملائكة التي تصطف صفوفاً متلاصقة، وظنَّ بعضُهم أنَّها تزجر السحاب فتحركه من مكان إلى آخر، ولكن لم يرد عن رسول الله - صلى الله عليه و سلم- شرحٌ لهذه الآيات.

من المهم جدًّا الربط بين موضوع القَسَم ومضمونه؛ أمَّا موضوعه فهو: القسم بأشياء مصطفة اصطفافًا دقيقًا ولها قدرة خارقة في الزجر وهو الدفع العنيف، أمَّا مضمونه، فهو: أنَّ الله خلق كواكب خاصة زين بها السماء الدنيا وجعلها رجومًا تثقب الشياطين وتمزقها تمزيقًا. لا بُدَّ أن نعلم أنَّ الله - سبحانه وتعالى- حينما يقسم بشيء إنَّما يوجه بحثنا العلمي والفكري للتدبُّرِ في موضوع القسم لأنَّ فيه سرًّا عظيمًا. ومن هذا المدخل، فإنَّ اصطفاف الملائكة في السماء أو المصلين في المساجد لا يرقى لأن يكون موضوعًا لهذا القسم، فضلًا عن أنَّه لا علاقة له بالكواكب التي تلا ذكرها في الآيات ووصفت أنَّها تمزق الجنَّ الذي خلق من طاقة خاصة تنتج من اضطراب النار.

من غير التشويش بحقائق علمية، ربما لا يستطع الكثيرون استيعابها، فإننا نظنُّ أنَّ الصافات صفًا إنَّما تشير إلى الانتظام الدقيق واللصيق في مكونات نواة هذه الكواكب. انتظام البروتونات والنيوترونات في النواة ودوران الإلكترونات حولها يحفظ في التصاقه طاقاتٍ مدمرةً إذا انفجر ذلك الالتصاق أو الاصطفاف الدقيق، وهذا هو أساس القنبلة النووية. إنَّ هذه الطاقاتِ التي تنتج من فكِّ هذا الاصطفاف لَهي أقوى الطاقات الدافعة أو الزاجرة. إذنْ فالقسم هنا بطاقة كانت مجهولة للإنسان، تكمنُ في مكونات هذه الكواكب التي تلا ذكرها في الآيات، ولها خاصية تمزيق الطاقة التي منها خلقت الجن. وهذه هي نفس الكواكب الحمراء التي وصفت صراحة بأنَّها جُعلت رجومًا للشياطين في آية سورة الملك:

﴿ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ٥

﴾ "5 الملك".

صبح: هو لون من الألوان أصله الحمرة، والمصباح سُمِّي مصباحًا لاحمرار لونه.

بناءً على ما سبق، يمكننا أن نفترض أنَّ الجمرات الخاصة التي يجمعها الحجيج من وادي المزدلفة لرجم الشياطين، لا بُدَّ وأن تكون من صنف الحجارة التي تولد طاقة مدمرة لطاقة الجن، ولذلك سمِّيت "جمرات". فإذا كانت هذه العَلاقة، كما افترضنا، فإننا يمكننا أن نتخيل أنَّ الحجيج اليوم إنَّما يمثلون ما فعل آباء الإنسانية، حينما هبطوا إلى المزدلفة ليلاً وجمعوا جمرات من ذلك الوادي؛ ليرجموا بها شياطين الجنِّ التي تنتظرهم غداً. هنا نجد تداخلًا كبيرًا بين شعائر الحج، كما هي اليوم، وبين ما قادنا إليه بحثنا في خُطُوات الإنسان الأول بعد هبوطه من جنة عرفات. ومن هنا يمكننا أن نحاول فهم ما يفعله الحجيج اليوم ، لعله يشرح لنا ماذا فعل آباء الإنسانية في تلك البقاع قبل آلاف السنين.

وحتى نستطيع أن نربط بين حجارة المزدلفة ورجم الشيطان، علينا أن نتدبر في الآيات التي وصفت ذلك الموقع، وإنْ لم تكن كثيرة، ففيها الكثير الذي يخلب الألباب بما يرتبط بقصة الإنسان الأول.

المعروف أنَّ أهم معالم وادي المزدلفة هو وجود المشعر الحرام فيه. وحتى نفهم الأمور على حقيقتها، لابد أن نتذكر أن المشعر الحرام ليس هو هذا المسجد الفخم المكيف الذي يتوسط وادي المزدلفة اليوم، وإنَّما هو المكان الذي بني عليه المسجد. فما هو سرُّ المشعر الحرام إذنْ، وما علاقته بخطوات آبائنا الأولى على الأرض وما علاقة حجارته برجم الشيطان؟ والله يقول فيه:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ "

198البقرة"... نلاحظ في مدخل هذه الآية أن ابتغاء الفضل من الله قدم له بصيغة استثناء، وكأن الله يخبرنا أن هذه المواقع وقعت فيها أحداث كثيرة فيها جُناح ومعاصٍ، ولكن **لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ** أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ إذا أفضتم فيها. وسنفهم ذلك أكثر حينما ندرس عبادة التطوف بين الصفا والمروة التي قدم لها بذات المحل الاستثنائي.

المشعر الحرام:

لكي نفهم ما هو المشعر الحرام لا بد لنا أن نفهم ما هي شعائر الله لغةً وشرعاً؛ حتى نستوعب قيمة هذا الموقع الغامض وأسراره، في طريق الحجيج من عرفات إلى البيت العتيق.

شعائر الله:

"شعر" لها أصلان: أحدهما يدل على نبات، والآخر على عِلم "بكسر العين" وعَلم "بفتح العين" و تعني: أثرٌ بالشيء يتميز به عن غيره، وشعائر جمع شعيرة. إذنْ فشعائر الله هي آثار مميزة تدل على وجود الله لمن لا يؤمنون بوجوده وتزيد المؤمنين إيمانا على إيمانهم، جعلنا الله وإياكم منهم. وقد وصف القرآن أماكن وأشياء محددة بأنها من شعائر الله، والباحث في حقيقة هذه الشعائر لا يشك أنها جميعاً آيات من آيات الله مُنزلة من خارج إطار الأرض. فأعظم شعائر الله هو البيت العتيق، والبيت العتيق وضع للناس :

{إِنَّ أَوَّلَ **بَيْتٍ** وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ} "96 آل عمران".

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ .... ﴾ "36 الحج". والبدن هي الإبل، على أنّ

المفسرين اختلفوا في أن كل الأنعام يطلق عليها البدن، ومهما يكن من أمر فإن وصف البدن من شعائر الله يمكن أن يكون مجازًا ليشمل كلَّ الأنعام، وهي الإبل والبقر والضأن والماعز، وهذه كلها منزلة من خارج إطار الأرض كما سنرى لاحقا:

﴿ .... وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ .... ﴾ "6 الزمر".

والصفا والمروة من شعائر الله أيضا:

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ .... ﴾ " 158البقرة".

والآية التي تلي ذلك تشير إلى آيات الله المنزلة:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ

يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ " 159 البقرة".

من هذه الآيات نفهم أنَّ الله - تعالى- قد جعل جبلي الصفا والمروة من علامات وجود الله وآثاره في هذا الكون، ثمَّ لعن في الآية التالية مباشرة أولئك الذين يكتمون ما أنزل الله من البيّنات والهُدى... فما البيّنات والهدى التي أنزلها الله وبينها، ولها علاقة بالصفا والمروة وحذر الله من كتمانها؟

وشعائر الله جميعاً من الآثار التي يتعبد الإنسان إلى الله بتعظيمها، سواء عرف سرَّها أم لم يعرف:

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ " 32الحج".

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ ...... ﴾ " 2 المائدة".

والمشعر الحرام يحتوي على حجارة منزلة من الشهب والمصابيح كما سنناقش ذلك، وهو من شعائر الله:

﴿ .... فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ..... ﴾ "198 البقرة". أما

المشعر فهو مكان "أثر وعلامة"، و"حرام" بمعنى ممنوع بتشديد من الزوال و الاندثار.

ما يهمنا من شعائر الله المحرمة هنا هو : البيت العتيق، والصفا والمروة، والمشعر الحرام...

هنا لا يخفى على أي عاقل أن القاسم المشترك الظاهري بين المشعر الحرام من ناحية، والصفا والمروة والبيت العتيق وما فيه من الحجر الأسود من ناحية أخرى، هو أنَّها جميعًا حجارة ذات قيمة تعبدية غامضة، وكلها موجودة في مساحة ضيقة حول البيت العتيق. فالمَشعَر الحرام ليس إلا مكاناً وسط وادي المزدلفة القاحل المليء بالحصى

الذي يجمع منه الحجيج عشرات الملايين من الحصى سنوياً لأداء عبادة رمي الجمرات، فيما عدا ذلك لا يعرف سره أحد. هذا الوادي محدد في مساحته، وهناك علامات واضحة تحدد للحجيج حدود ما يعرف بوادي المزدلفة حيث يقع المشعر الحرام، وحيث يُشترط المبيت في العراء في ليلة عيد الأضحى وجمع الحصى لرجم الشيطان اليوم التالي.

أمَّا الأنعام والبدن فهي منزلة بنص القرآن، وإنْ لم ينتبه المسلمون لهذه الحقيقة القرآنية طوال العصور. والأنعام : مخلوقات وديعة مذلَّلة خاضعة للإنسان، وقد جعل الله - تعالى- في آذانها سرًّا يكشف به عن قانون التطور، و يقدم آية مادية عينية على وجود الله - تعالى- لمن لا يؤمن به؛ ليزداد المؤمنون إيمانًا، و لتكتمل مجموعة شعائر الله التي يجب تعظيمها كما يجب التدبر فيها وفي أسرارها.

ونحن نظنُّ -والله أعلم- أنَّ جبلي الصفا والمروة هما "كلمات الله"، أو المجسمات التي تَلَقّاها جنس آدم تعبيراً عن استغفاره بعد المعصية الأولى، أي طرحها بجهد ورصها في وضعين متقابلين وتطوف بينهما سبعة أشواط في عملية الرَّص تلك؛ فأصبحت مَعْلَما لتوبة الإنسان الأول، ورمزاً للعبادة أو الصلاة الجسدية الأولى التي مارسها الإنسان العاقل. وسنناقش ذلك في قصة إبراهيم -عليه السلام - في باب "المثابة" لاحقا. ما يهمنا من شعائر الله هنا هو علاقة حجارة المشعر الحرام برجم شياطين الجن كما هو الحال في عبادة الحج إلى اليوم. لنفهم ذلك نحتاج لأنْ نخطو خطوات أخرى مع الإنسان الأول بعد نزوله إلى الأرض.

بعد نزول الإنسان العاقل إلى الأرض المنكشفة، كان يعلم أنه سيواجه الطبيعة بكل قوانينها ويصارع الحيوانات بمقدراته السابقة؛ لأنه قد تعامل معها عندما كان في حالته الحيوانية، ولكنّه بعد أن تطور إلى إنسان عاقل دخل في إطار معرفته مخلوقات وموجودات وأعداء جدد، وكان أخطرهم هو العدو غير المادي وغير المرئي وهو شيطان الجن. الإنسان ما كان له أن يعرف كيف يتعامل مع الجن؛ لأنه ليس لديه سابق خبرة معه غير خداعه بشجرة الخلد في الجنة، إذ إنَّ الجن لم يكن موجودًا في إطار معرفته قبل أن يتطور إلى إنسان عاقل.

في زماننا هذا وبعقلنا المتطور يمكننا أن نتعامل مع قوانين الله المادية بإحدى طريقتين: الطريقة الأولى هي محاولة فهم القوانين المادية نفسها ثم تطويعها، كما تعلمنا مثلاً الزراعة وحفر الآبار ، لإخراج الماء وبناء البيوت لتقينا الحر والبرد وهكذا. والطريقة الثانية هي الاستعانة بالله التي تعلمها الإنسان على مر العصور من مختلف الرسل، وذلك بأداء صلوات محددة، ومثال لذلك صلاة الاستسقاء التي تنزل المطر بأمر الله - جل وعلا- .

في تعاملنا نحن مع الشيطان، وهو مخلوق من طاقة حرارية غامضة، علمنا الله - تعالى- عن طريق رسوله قراءة آيات و استعاذات تحمينا من شره مثل آية الكرسي والمعوذتين وغيرهما مما يعرفه المسلمون، ولكن الإنسان الأول لمَّا تكن له هذه المعرفة الفكرية والقدرة الروحية بعد، ولم تكن له القدرة العقلية لاستيعابها، إذ أنَّه ما زال يتعامل مع الواقع بالمحسوسات والمجسمات والمشاهدة والتقليد، أو لغة الغراب كما اصطلحنا سابقًا. وعليه فما كان للإنسان الأول أن يصارع شياطين الجن إلا بامتلاك القانون المادي المحسوس الذي يدمر الجن. للمقارنة وحتى يسهل المعنى: فإنَّ الذي لا يعرف صلاة الاستسقاء أو لا يؤمن بها، ليس أمامه إلا أن يحفر الآبار للحصول على الماء أو يموت عطشاً إنْ لم يهطل المطر.

بنفس المنطق فإنَّ الذي لم يصل بعد إلى مستوىً عقليٍّ يسمح له بإدراك المفاهيم الروحية المجردة ليستعيذ بالله من الجن، ليس أمامه إلا أن يحارب الشيطان محاربة جسدية أو يكون ضحية له. شيطانُ الجنِّ مخلوقٌ من مارجٍ من

نار، ولا توجد داخل نطاق الأرض أيُّ وسيلة لحرقه، ولكنَّ الله - تعالى- عندما خلق الكون كاملاً ومن بينه الجن، جعل في بعض مخلوقاته خاصية تدمير الجن. هذه المخلوقات عبارة عن كواكب وشهب في السماء، من خصائص صخورها رجم الشياطين كما في الآيات السابقة، والشياطين في هذه الآية هم شياطين الجن، إذ إنَّ الله يتعامل مع شياطين الإنس والجن كلٍّ حَسْبَ طبيعته.

فإذا رجعنا إلى آيات الجنِّ السابقة فسنجدُ أنَّ هناك في السماء الدنيا كواكب تتصف باحمرار لونها، سواء كان نتيجة ضوئها أم احمرار صخورها، وقد يكون كوكب المريخ الأحمر أحدها، والله أعلم. صخور هذه الكواكب لها خاصية تدمير العدو الجديد للإنسان، وهو شيطان الجن كما ذكر الله صراحة في القرآن .

وعليه، فإنَّنا نظنُّ -والله أعلم- أنَّه عندما هبطت مجموعة آدم من جنة عرفات إلى أرض المزدلفة، أنزل الله إليهم صخوراً من تلك الكواكب في شكل شهب، كما أنزل إليهم كلماته من قبل؛ لتطرح في شكل جبلين متقابلين تعبيراً عن عبادتهم الجسدية واستغفارهم عن المعصية الأولى. بعد هبوط الإنسان الأول من عرفات إلى المزدلفة، هداه الله إلى كيفية استعمال هذه الحجارة أو الحصى في رجم الشيطان، الذي كان يعد جنده لاعتراض مسيرة خليفة الله؛ لأنَّ هذا الخليفة ما كان قادراً بعد على التعامل مع الجنِّ إلا بالوسيلة المادية فقط.

المكانُ الذي أنزلت فيه هذه الحجارة من السماء حرمه الله من الاندثار، وجعله **مشْعَراً حَراماً** وعلامة من العلامات المادية المرئية لوجود الله و لقدرته الخارقة، و ربطه بقصة خلق الإنسان و تطوره. ونظنُّ أنَّنا لو قمنا بتحليل حجارة وادي المزدلفة - ربَّما- لوجدنا آية من آيات الله تعالى بيّنة متمثلة في حجارة من خارج إطار الأرض، لها طاقات نووية مختلفة عن الطاقات الكامنة في صخور الأرض. من هنا يمكن أن نفترض أنَّ الحكمة من مبيت الحجيج بوادي المزدلفة وجمع الجمرات منه وليس من غيره، إنما هي تطبيق عملي لما فعله آباؤنا حينما هبطوا من جنة المأوى أول مرة قبل مواجهتهم للشيطان في الأرض في مِنى. ومن هنا نظن أنّ حجارة المشعر الحرام مقصودة لذاتها وليست مجرد رمز وهمي لرجم الشيطان وأنّها حجارة أصلها من خارج أقطار الأرض، وأنّها من رجوم الشياطين التي وصفها الله - تعالى- في القرآن. ونظن أنّه من واجب المسلمين في هذا الزمن أن يبحثوا في حقيقة حجارة المشعر الحرام؛ لأنّ ذلك من تعظيم شعائر الله بالتدبر في أمرها وإبرازها كآيةٍ للناس أجمعين، علماً بأنّ هذه السنة في جمع الحجارة من المزدلفة باقية إلى يوم القيامة، والله أعلم.

تطور ألفاظ الخطاب في القرآن:

قبل أن ننظر في آيات القرآن التي تصف أول فوج من البشر حينما دَلَفَ في هذا الوادي منذ آلاف السنين، لابُدَّ لنا أن نرتب ألفاظ الخطاب التي استعملها القرآن إلى الآن في الإشارة إلى الإنسان في مراحل التطور المختلفة، منذ خَلْقِ البشر إلى نزول خليفة الله إلى هذا الوادي؛ لأنَّ هذه الألفاظ ترتب مراحل التطور بصورة بليغة:

أولاً - عند بدء الخلق وصف الله المخلوق الجديد بالبشر من غير تحديد ذكر أو أنثى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ

إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٖ ﴿٧١﴾ ﴾ "71 سورة ص".

ثانياً - في بداية التطور وصفه الله بالإنسان وهذا يعني الذكر و الأنثى أيضاً:

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ " 7 السجدة".

ثالثاً - قبل التطوير لإنسان عاقل وصف الله أسلافنا بلفظ "خلقناكم"إشارة إلى أصل الإنسانية: ﴿ وَلَقَدۡ

خَلَقۡنَـٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَـٰكُمۡ ...... ﴿١١﴾ ﴾ " 11 الأعراف".

رابعاً - بعد التطور مباشرة ظهر اسم الجنس الملائم للتغيير وهو (آدم)الذي يشير إلى الذكر و الأنثى أيضاً: ﴿

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ ..... ﴿٣١﴾ ﴾ " 31 البقرة".

خامساً - في أول خطابٍ مباشرٍ من الله -تعالى- للخليفة أبان لنا مباشرة وجود الذكر و الأنثى؛ لينبهنا إلى أنَّ آدمَ هذا ليس إلا الفصيل من البشر الذي تطور إلى إنسان عاقل، ذكراناً وإناثاً:

﴿ وَقُلۡنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ

فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾"35البقرة".

سادساً - في وصف المعصية تمت الإشارة إلى جمع السوءات لتدل على جمهرة من البشر:

﴿ ..... فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِ ۖ .... ﴿٢٢﴾ ﴾ "

22 الأعراف".

وأيضاً ظهر لفظ الجمع في عدد أنفس الذين تابوا:

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ " 23 الأعراف".

سابعاً: بعد التوبة ظهر في السياق القرآني واو الجماعة بصورة جليّة، إشارة إلى ظهور أول مجتمعٍ إنساني عاقل ومكلف:

﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ

يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ "38 البقرة".

وهنا بعد أن وصل الفوج الأول من الإنسانية إلى وادي المزدلفة ظهر لفظ "الناس" فجأة ؛ ليشير إلى بدء وجود الإنسانية على الأرض في وقفة عيد الإنسانية الأول.

ظـهـور النــاس:

أول استعمال للفظ "الناس" كان في وصف موقع المشعر الحرام من تاريخ الإنسانية وأهميته بوصفه علامة من علامات وجود الله المحفوظة من الاندثار... وهذه المعاني تضفي على هذه الآية عمقاً مدهشاً جداً:

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ " 198-200البقرة".

ناس: من نوس وتعني التذبذب و الاضطراب و قد سمي أبو نواس بهذا الاسم لأنه كان يلبس عمامة فيها ذؤابتان تنوسان. و"ناس" الشيء أي تذبذب، والناس تعني المتذبذبين أو المضطربين.

نلاحظ هنا أنَّ الله - تعالى- قد ربط ذكره عند المشعر الحرام بعد الإفاضة من عرفات بهدايته للإنسان بعد ضلاله، ونلاحظ أيضاً ربط المشعر الحرام بأمور غريبة، ما كانت تتضح لنا لولا افتراضنا أنَّ مناسك الحج ما هي إلا تطبيق عملي لخطوات الإنسان الأول. فهو أولاً يأمرنا أن نفيض من **حيث أفاض النـاس،** علماً بـأنَّ هذا الخطـابَ موجَّهٌ لكلِّ الإنسانية بما فيهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - وليس جيلاً بعينه، فمن يا تُرى هم أولئك الناس الذين أفاضوا من قبلنا في حالةٍ من التذبذب والاضطراب، ونحن إنما نتبع خطواتهم في الإفاضة؟ ثم إنّ الله I هنا يأمرنا بعد قضاء المناسك، أن نذكره كما نذكر آباءنا أو أشد ذكراً. هذا التعبير فريد من نوعه في القرآن ، وجاء في موقع مثيرٍ للدهشة، إذ إنّ المعروف إن الحاج أصلاً ما تكبد مشاق السفر، وما أحرم أياماً وأسابيع وامتنع عن الاستحمام والطيب والحلاقة وقص الأظافر ونتف الإبطين وحرم الجماع " الشجرة الممنوعة" إلا طاعة لله، فهو إذنْ في حالة ذكر دائم لله بكل هذه الأفعال، فكيف يطلب الله - تعالى- من الحجيج وهم في حالتهم تلك أن يذكروا الله كذكرهم آباءَهم أو أشدُّ ذكراً ؟ هل يكون المقصود هنا هم آباء الإنسانية وليس آباء الحجيج؟!

حتى نستوعب المعاني العميقة لهذا الأمر الغريب، يستحسن أن نسترجع حالة الحجيج الجسدية والنفسية والروحية، وهم في المزدلفة بعد أن هبطوا من عرفات لعلها تلقي ظلالاً على هذا المعنى الغامض. فعندما يصل الحجيج إلى المزدلفة يكونون قد مروا بهذه الخطوات من الحج:

1. فهم - أولاً - قد أحرموا قبل أسبوع أو أسبوعين على الأقل من لحظة وصولهم إلى المزدلفة، وذلك يعني أنَّ الواحد منهم لم يستحمَّ أو يتطيب أو يحلق أو ينتف الإبطين أو يقلم أظافره طوال هذه المدة ، ولم يحدث جماع بين الأزواج.

2. ناموا ليلة على الأقل على أرض منى، وهي الليلة السابقة لعرفات؛ مما يزيدهم إرهاقاً على إرهاقهم واتساخاً على اتساخهم، وتدنيا في مظهرهم وملبسهم ورائحتهم على ما كانوا عليه.

3. الوصول إلى عرفات يتطلب المشي مسافة بضعة أميال من "منى"، بعد ليلة يجد الكثيرون أنَّ النوم فيها مستحيل من كثرة الزحام والحركة وصلابة الأرض، إنْ لم يكن برد الصحراء ليلا قد أصابهم بالسعال.

4. الوقوف بعرفة تجربة شاقة جداً؛ لأنَّه فقط وقوف أو جلوس على الأرض طوال اليوم من غير ظل، في زحام رهيب وعرق وغبار وأنفاسٍ تختلط وأجساد تتعاصر، وكلهم قلق من أن يفسد حجهم بعد كل هذا الجهد لأيِّ سبب من الأسباب، أو لا يقبل الله استغفارهم قبل أن يسجي الليل فيضيع جهدهم هباءً منثوراً. هذا الصراع والجهد النفسي لا يعرفه إلا من وقف بعرفة.

5. الحجيج تلهج ألسنتهم بالدعاء والبكاء طوال اليوم ، حتى تجف حلوقهم في انتظار تلك اللحظة الحاسمة، التي يستشعرون فيها نزول الله إلى السماء الدنيا بعد مغيب الشمس، لقبول الدعوات وغفران الذنوب، وهي لحظة رهيبة تهز الوجدان وتهد الأبدان المهدودة أصلاً.

6. بعد أن سجى الليل دلف الحجيج المنهك في رحلة منهكة أخرى لمسافة ميل ونصف في غبار وزحام لا يمكن أن يوصف، مشياً على أرض رملية أو صخرية إلى أن يصلوا إلى وادي المزدلفة، وقد أخذ الإعياء منهم كل مأخذ، وبدأ معظمهم في السعال من الغبار وتبادل الأنفاس والتعاصر في عصر عرفات.

7. في المزدلفة جمع هؤلاء الحجيج إحدى وعشرين حصاة لكلٍّ منهم، فامتلأت أظافرهم و شعورهم الطويلة بالتراب والطين، وبعدها يبحث كل منهم عن متر مربع على أرض الوادي القاحل وكل أملهم أن يستطيعوا النوم ولو ساعة استعداداً ليوم عصيبٍ آخرَ بعد طلوع شمس الغد.

8. النوم في المزدلفة يختلط بمشاعر مختلفة، إذ إنّ احتمالات الموت في رمي الجمرات غداً أصبحت من الأمور التي تشغل بال كل حاج منهك متعب في تلك الليلة، وهي مشاعرُ لا تترك للإنسان مجالاً إلا أن يكون ذاكراً لله بكل ما يستطيع من مقدرة؛ لأنه قد لا يكون في هذه الدنيا ليلة أخرى...

إن الحجيج في تلك اللحظات الرهيبة يشبه أكثرهم أهل الكهف، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولمُلِئت منهم رُعباً لِما أصبح من حالهم وهيئتهم...ولكن...

في تلك اللحظات التي يعجز القلم عن وصفها، حيث يكون الإنسان أقربَ ما يكون إلى الله من كل أيام حياته وأبعد ما يكون عن الدنيا وأهله وأهلها، يطلب الله من الحجيج أن يذكروه كذكرهم آباءَهم أو أشد ذكرا. ما أغربَ الطلبَ في هذا الموقع الجغرافي، الذي لا يتكرر في حياة الإنسان إلا إذا كرر الحج ... ما أعظم الطالبَ وما أغرب المطلوب! فالآية هنا تفترض أنَّ الحجيج لا شيءَ يشغل بالهم غيرُ ذكر الآباء في هذه اللحظة التي ينسى الحاجُّ فيها حتى نفسه، بلْهَ أن يذكر أهله وذويه في مصر أو اليمن أو السودان أو لبنان، أوالمغرب أو ليبيا أو فلسطين أو في الصين، أو الهند أو أندونيسيا أو في روسيا أو أيٍّ من بلدان العالم الشاسع.

الطلب هنا يوحي بأنَّ الحاج في تلك اللحظات لا همَّ له إلا ذكر الآباء، وهو افتراض غريب وغامض؛ لأنَّ آخر ما يفكر فيه الحاج في تلك اللحظات، وفي ذلك الإعياء وفي تلك الهيئة، هو الآباء، اللــهُم إلا إذا كان هؤلاء الآباء ليسوا آباءنا الذين تركناهم في بيوتهم ينعمون بليلةٍ هادئة، وإنما الآبــاء الذين تقمصنا هيئاتهم وشخصياتهم ومظاهرهم، وحتى طول شعورهم وأظافرهم ، وما لبسنا شيئا يستر عوراتنا إلا هذا الإحرام الذي يشبه أوراق الجنة

التي لبسوها، فينزلق ونرفعه " طفقاً" وقد اتسخ بالطين والغبار والعرق حتى اختلط فيه اللونان الأبيض والأسود "كالخصيف". إنَّ ذكرنا لآبائنا هنا ليس ذكراً باللسان كما نظن، وإنَّما هو لسان حالنا و تقمصنا لهيئاتهم تماماً كما أفاضوا أول مرة هنا، وإنَّ ذكرنا لهم يتمُّ في يقظتنا ومنامنا حتى عندما يرفع القلمُ عنا...إنَّ آباءنا هم عين الناس الذين أفاضوا من قبل، وما نفعله الآنَ هنا ليس إلا أننا نمشي على خُطى الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم الذي مشى على خُطى آباء الإنسانية الذين أفاضوا من هنا في غابر الزمن في طريقهم من جنة عرفات إلى بيتهم الأول.

نحن لم نجد موقعاً آخرَ في القرآن غير هذا الموقع، قدَّم الله فيه ذكر الإنسان لشيء آخرَ على ذكره إلا هنا وهو ذكر الآباء، علماً بأنَّ الظرف النفسي والجسدي والروحي -أصلاً - يُنسي الإنسان نفسه فضلاً عن ذويه. إنَّ هذه الآية خطيرة جداً في الربط بين مسيرة الآباء الأولى في هذا الوادي و مناسك الحج.

إنَّ الصورة التي يرسمها السياقُ القرآنيُّ مقارنةً بحال الحجيج عند المشعر الحرام، لا تترك لنا مجالاً للشكِّ في أنَّ الرحلة كلَّها ما قصد منها إلا تمثيلٌ تشخيصي؛ ليذكِّرنا بحال الآباء الأوائل، وهم مجموعة آدم، لمَّا هبطوا من الجنة في طريقهم إلى مكان لا يعرفون عنه الكثير، ولا يدرون ماذا تخبئ لهم الأيام القادمة في ذلك العالم الجديد عليهم. كلّ الذي عرفوه حينها أنَّ الله تعالى أنزل لهم حجارة من شأنها أن تدمر شيطان الجنِّ، الذي يُعدُّ لهم "مقلباً" آخرَ كما تسبب لهم في هذه المعاناة من قبل. ولا ننسى بطبية الحال- إذا قبلنا هذا التفسير المنطقي والواقعي للآية- أنَّها أيضاً تتحدث عن آبائنا بلفظ الجمع وليس "أبوينا"؛ وما ذلك إلا لأنَّ التمييز بين الذكران والإناث بلفظ المثَّنى الذي كان سِمة من سمات الآيات التي وصفت أحداث الجنة، أصبح لا ضرورة له بعد أن اتضحت الرؤيا، وفهمنا ما دار في الجنة من معصية الشجرة أو المداخلة بين الذكران والإناث. من الآن فصاعداً سيمشي الحجيجُ على خطى آباء الإنسانية، ويتقمصون هيئتهم و ملبسهم، وحينها فقط نفهم لماذا يطلب الله منا أن نذكره كما نذكرهم أو أشدّ ذكراً إنْ استطعنا.

إذا نظرنا إلى تقديم الله ذكرَ الآباء على ذكره في هذا الموقع الوحيد في القرآن، فسيتأكَّدُ لنا أنَّ المقصود هم آباء الإنسانية وليس آباء الحجيج. فالمعروف أنَّ الإنسان يرفع عنه القلمُ في ثلاث حالات: الطفل حتى يبلغ الحلم، والنائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يبرأ. فإذا افترضنا أنَّ الحاج يستيقظ عشرين ساعة فهو يذكر الله طوال استيقاظه ولكن يرفع عنه القلم أربع ساعات وقت نومه. فإذا كان الحاج قد تقمص شخصية آباء الإنسانية ومظهرهم وحالتهم طوال أيام إحرامه؛ فإنَّه بذلك يكون ذاكراً لله عشرين ساعة هي مجموع ساعات استيقاظه، ولكنَّ لسان حاله يظل ذاكراً آباءَه حتى في منامه طوال الساعات الأربعة والعشرين. هكذا فقط يكون ذكر الآباء أشد من ذكر الله، وهكذا فقط يمكننا أن نفهم لماذا قدم الله - تعالى- ذكر الآباء على ذكره في هذا الموقع الفريد في حياة المسلم وعقيدته. إنَّ هذه الآية تدلُّ بكلِّ وضوح أنَّ الحَجَّ ليس إلا قراءة في مذكرات آباء الإنسانية.

اللهم إنا نسألك أن تعيننا أن نذكرك أشد ذكراً منهم، ولكنَّنَا نستأذنك أن نمشي الآن على خُطى الحبيب الذي مشى على خطاهم لنكمل بحثنا هذا...

جَمَعَ آدم (الذكورُ والإناث) الحصى من وادي المزدلفة عند المشعر الحرام، وأغلب الظن أنّه كان جمرات من حجارة الشهب والكواكب الحمراء، أُنزلت لغرض رجم الشيطان الذي كان ينتظرهم هو وجنوده غداً في منى، وهو اليوم الذي سيظهر الإنسان فيه نهاراً لأول مرة على الأرض وأصبح يُعرف بعيد الأضحى أو عيد البروز.

نلاحظ هنا أنّه مع أول خطوة تالية نخطوها مع الإنسان الأول من المشعر الحرام في اتجاه مركز الكون عند البيت العتيق، مروراً بمنىً لرمي الشيطان كما رماه آباؤنا، نلاحظ أنّ المشاهد بدأت تتداخل في السياق القرآني، وتختلط لغة الغراب بلغة الهدهد. **فالأنعام** ستبدأ في الجري بين أقدام الحجيج، والأنعام تُذبح غداً في مشارق الأرض ومغاربها... ثم إنَّ مراسم الحج تحكي قصة إبراهيم - عليه السلام - ، والذي كان قد أُمِر بعد آلاف السنين من عهد آدمَ، بأن يأتي بأميرة كل الأزمان هاجر وابنه إسماعيل إلى وادٍ غير ذي زرع عند البيت الحرام، وبعدها أمره الله -تعالى- أن يرفع القواعد من البيت، وأن يؤذن في الناس بالحج؛ ليكونَ إيذانا بمواصلة الإنسانيةِ مسيرتَها على خطى الآباء في ذات المكان والزمان من كلِّ عام.

ولكي نربط بين خُطى الإنسان الأول ومناسك الحج، نحتاج أن ندرس قصة إبراهيم وحجة الوداع؛ حتى تتضح لنا الرؤيا وتكتمل المشاهد، ونسبر غور ما خفي علينا من آثار الإنسان الأول ومذكراته، ونكتشف أسراراً مذهلة عن تفاصيل خلق الإنسان وتطوره التي تجعل من القرآن مدعاة للفخر، وتضع على عاتق المسلمين مسؤولية أكبر في أن ينشروا هذا العلم بين الناس، ويرفعوا بكلِّ فخرٍ آذان الأنعام. ونودُّ هنا أن نذكر أنَّ إبراهيم - عليه السلام - كان مفكراً وباحثاً، وقد تساءل كثيراً عن أسرار الكون والخلق والخالق، فابتلاه الله بِكَلِمَاتٍ كما تلقى آدمُ من ربه كلمات، فأَتَمَّهُنَّ؛ فاستحق بذلك أن يكون للناس إماماً:

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ " 124 البقرة".

ولأنَّ قصة إبراهيم مع البيت العتيق كانت اكتشافاً لتاريخ الإنسانية، فسندرسها في بابين منفصلين ، هما: " ملة إبراهيم" و "المثابة" ؛ لما فيها من عجائب نظنُّ أنَّها لو نُشرت على الناس لتغيَّرَ مسارُ البشرية جمعاء. ولكنْ قبل أن ندخل في تلك القصة يجب أن نلقيَ بعضَ الأضواء على عيد البروز أو الأضحى الذي انتصف ليله ونحن هنا في المزدلفة، إذ أنَّ الليل سابقُ النهار في الإسلام، وليلة العيد تبدأ فور غروب شمس عرفات.

عـيد الأضحى:

نعود إلى مجموعة آدم أو آبائنا -كما أصبح السياق القرآني يسميهم- الذين كانوا قد كُلِّفوا بجمع الحصى التي أُنزلت إليهم من الكواكب الحمراء والشهب في المزدلفة عند المشعر الحرام ليرجموا بها الشيطان غداً. ويبدو لنا -ونحن نتدبر تلك الخطى- أنّ الله قد قاد آباءنا إلى موقع لم يكن معلوماً لديهم، ولكنه وضع لهم فيه أول بيت يأويهم ويوفر لهم به الأمان في هذا العالم الجديد عليهم، ويكون بداية تمدن لهم على الأرض.

الطريق إلى البيت العتيق من المزدلفة يمر بوادي منى الذي رُجم فيه الشيطانُ أول مرة، وجعل الله رجمه بذات الحجارة المنزلة عند المشعر الحرام سُنَّة ماضية إلى يوم القيامة. وسنرى في باب "الحج" بعد أن ندرس قصة إبراهيم لماذا كان اللقاء الأول للشيطان مع الإنسان العاقل في الأرض في "منى"، إذ إنّه في "منى" تم الخلقُ والنفخُ و سجود الملائكة ونزول الأنعام، ومن ثمَّ تكبُّر إبليس الذي يُرجم إلى يوم القيامة في ذات الموقع الذي افترى على الله فيه.

عيد الأضحى له وجهان من أوجه العبادة: فالذين يحجون البيت عليهم أن يقوموا برجم الشيطان في صبيحة العيد بالجمرات التي جمعوها من المشعر الحرام كما هو معروف، أمّا الذين لا يحجون فعليهم ذبح الأضاحي تأسياً بإبراهيم وبالرسول –عليهما الصلاة والسلام- لمَّا اكتملت قصة الحج وأصبح ركناً من أركان الإسلام إلى يوم القيامة. فإنْ كان رجم الشيطان ليس إلا تأسياً بخطى آبائنا الأوائل، فهل ذبحُ الأنعام في ذات اللحظة تأسٍ فقط بإبراهيم حينما افتدى الله ابنه بالكبش؟

الله -جل وعلا- يخبرنا في القرآن أنَّ إبراهيم نفسَه ما شرع في ذبح الكبش، وإنما شرع في ذبح ابنه الوحيد بعد أن رأى رؤية لا يكاد يستسيغها أيٌّ من المسلمين واليهود والنصارى، إذ إنّ الكبش إنما جُعِلَ فداءً لابن إبراهيم الوحيد كما ورد في التوراة والقرآن. فقد وصفت القصة في توراة اليوم كما يأتي:

{وبعد هذا امتحن الله إبراهيم فناداه" يا إبراهيم" فأجابه "لبيك" فقال له: " خذ ابنك وحيدك إسحاق الذي تحبه، وانطلق إلى أرض المريا وقدمه محرقة على أحد الجبال الذي أهديك إليه"}" سفر التكوين 22:1-3".

وتمضي التوراة في وصف القصة:

{ وقال إسحاق لأبيه: " يا أبي" فأجابه " نعم يا بني" ، فسأله " ها هي النار والحطب، ولكن أين خروف المحرقة؟" فرد إبراهيم " إنَّ الله يدبِّرُ لنفسه الخروف للمحرقة يا بني. وتابعا مسيرتهما} "سفر التكوين 22:8-9". وتمضي التوراة في وصف قصة الفداء كما يأتي:

{ ومد إبراهيم يده وتناول السكين ليذبح ابنه. فناداه ملاك الرب من السماء قائلاً: " إبراهيم ، إبراهيم " فأجاب "نعم". فقال: " لا تمد يدك إلى الصبي ولا توقع به ضرا لأني علمت أنّك تخاف الله ولم تمنع ابنك وحيدك عني" وإذ تطلع إبراهيم حوله رأى خلفه كبشاً قد علق بفروع أشجار الغابة، فذهب وأحضره وأصعده محرقة عوضاً عن ابنه. ودعا إبراهيم اسم ذلك المكان "يَهْوَه يِرأه" ومعناه : الرب يدبر"....} "سفر التكوين 22:10-14".

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ علماء اليهود اجتهدوا في تحريف القصة حتى تشير إلى إسحاق - عليه السلام - وهو أبوهم لا إلى إسماعيل أبي العرب؛ وذلك لعلمهم أنَّ خاتم الأنبياء والمرسلين سيُسمَّى "ابن الذبيحين". فلو تركوا القصة كما نزلت تشير إلى إسماعيل وهو ابن إبراهيم الوحيد آنذاك، إذ إنَّ إسحاق ولد بعد أربعَ عشرةَ سنةً من ميلاد إسماعيل بنص توراتهم إلى اليوم، لوجب عليهم قبول خاتم الأنبياء من ولد الذبيح إسماعيل. لذلك نجدهم اجتهدوا في تحريف القصة بإضافة اسم إسحاق، ولكنّهم نسوا أن يحذفوا لفظ "ابنك وحيدك" من السياق مما خلق التناقض الذي يكشف خبثهم، إذ إنَّ إسحاق لم يكن أبداً ابن إبراهيم الوحيد. وقد ناقشنا ذلك بالتفصيل في كتابنا باللغة الإنجليزية: " أميرة مصر وذلك النبي الغامض"، في شأن نبوءات محمد في الكتب السماوية السابقة.

ما يهمنا هنا أنَّ إبراهيم رأى رؤية ذبح ابنه الوحيد قربانا لله، وهي رؤية غريبة تقشعر منها الأبدان. والغريب في الأمر أنَّ إبراهيم لم يستنكر الرؤية وإنَّما استجاب لها وعرضها على إسماعيل الذي لم يستنكر أيضاً وإنما طمأن أبّاه أنه سيجده من الصابرين كما في النص القرآنية:

﴿ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ

ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا

كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾

وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾

" 100-110 الصافات".

نلاحظ هنا أن القصة القرآنية أثبتت أن إسماعيل كان يعلم أنه هو المقصود بالذبح وقَبِل به، وأيضاً بقية سياق الآيات تؤكد أنّ الابن المقصود هو إسماعيل، إذ إنَّ إبراهيم قد بُشِّر بإسحاق بعد انصياعه لأمر الله في هذه الرؤيا. ورغم اجتهاد اليهود في تغيير الإرادة الإلهية فقد اكتملت النبوءة في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حينما همَّ جده عبد المطلب أن يذبح ابنه عبد الله، ولكنَّ مكة فدته بمائة ناقة فنجا عبدا لله و وُلِد ابنُ الذبيحين محمدٌ - صلى الله عليه وسلم - خاتم الأنبياء والمرسلين.

ما يهمنا هنا هو أصل عادة ذبح الأبناء تقرباً إلى الله. ممَّا لا شك فيه أنَّ رؤيا إبراهيم - عليه السلام - كان وراءها حكمة كبيرة، وهي أنَّ الله بدَّل عادة جاهلية وهي التقرب إلى الله بذبح الأبناء بسنة ذبح الأنعام، وقد تم ذلك في قصة إسماعيل وقصة عبد الله عند البيت الحرام. والظاهر أيضاً - والله أعلم- أنَّ الله أراد أن يربط بين الرؤيا والشروع العملي في ذبح إسماعيل من جهة، وبين ذبح الأنعام من جهة أخرى وكأنه نوع من الاستبدال التشخيصي، أي جعل الحدثين يقعان في صورة تمثيل عملي حتى يكون للقصة وقعها على العقل والنفس أيضاً. فهل كان الناس قبل إبراهيم - عليه السلام - في عصر القرابين يتقربون إلى الله بذبح أبنائهم؟ علماً بأنّه بعد زمن إبراهيم وبعد أن انحدر العرب في جاهليتهم وظهرت عبادة الأوثان مرة أخرى، ظهرت معها عادة ذبح الأبناء مرة أخرى إلى أن أبطلت في عهد النبيِّ - صلى الله عليه وسلم - وأعاد سنة التقرب إلى الله بذبح الأنعام في ذات المكان وعند البيت الحرام. وهل هناك رابط بين تلك القصص التي وقعت جميعاً في ذات المكان الذي مشى فيه الإنسان الأول و سلوكه تجاه قضية إنجاب الأولاد التي كانت سبباً أساسياً في خروجه من الجنة؟

نحن نظنُّ - والله أعلم- أنَّ الإنسان حينما هبط إلى الأرض كان نادماً على رغبته في إنجاب الأولاد ؛ لأنَّ ذلك كان المنزلقَ الذي زلقه فيه الشيطان فأخرجه من الجنة. فليس غريباً أبداً أن نظن أنهم مع الزمن انحرفوا مرة أخرى، وربما يكون الشيطان قد دخل عليهم هذه المرة من مدخل الندم على تفكيرهم في الخلود بإنجاب الأولاد، فسنَّ لهم ذبح أول أولادهم تقرباً إلى الله، الشيء الذي يربط بين رؤيا إبراهيم لذبح ابنه في ذات المكان واستبدال ذلك بكبشٍ حتى تبطل العادة، ثمَّ أبطلت في عهد عبد الله بن عبد المطلب ليسنَّ النبيُّ بعد ذلك ذبحَ الأنعام بوصفها عبادةً بديلةً وتذكيراً لنا بآبائنا أيضاً.

ونود هنا أن نذكر آية لافتةً للنظر ومحيرة للعقل سنتطرق إليها بتفصيل أكثر حينما نفحص آذان الأنعام، إذ إنَّ فهمها لا يكتمل إلا إذا اتضحت لنا تفاصيلُ كثيرة عن بدء الخلق، منذ كان عرشه على الماء ثمَّ وسع كرسيه السماوات والأرض، قبل أن يُوجِد مقاليد السماوات والأرض وقانون التطور. تلك هي الآية التي تصف أنّ الأنعام إنما أنزلت وكأنها أنزلت في مرحلة من مراحل التطور كالمجسمات؛ لتكون مَعْلماً من معالم قُدرة الله **ومن شعائره**

التي قصد أن يعلم بها الإنسان الأول كيف يتعايش مع الطبيعة في الأرض، وأيضاً يعلمنا كيف نتعبد إليه بالتفكر والتدبر في آياته، ولتكون مقياساً علمياً نفهم به سلالم التطور التي صعدت عليها المخلوقات في الأرض، مقارنة بسُلَّم التطور الذي نزل من خارج الأرض. ولكنَّ ما يهمنا فيها الآن هو حقيقة نزول الأنعام:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾ "5-6الزمر".

هذه الآية تخلق صلة غريبة ومدهشة بين وجهي الاحتفال بعيد بروز الإنسان على الأرض أو عيد الأضحى. فالحجيج يرجمون الشيطان في منى بحجارة جمعوها فقط من المشعر الحرام لها خاصية حرق الجن، لذلك نظن أنّها جمراتٌ منزلة من المصابيح أو الكواكب الحمر، وفي نفس اللحظة في مشارق الأرض ومغاربها يرجم ذوو الحجيج وباقي المسلمين سُنة الشيطان في ذبح الأبناء، وذلك بذبح الأنعام بديلاً لتلك السُنّة، وهذه الأنعام "أنزلت" من السماء بنصِّ القرآن، ويظن عامة المفسرين أنّ فداء إسماعيل أصلاً كان قد تم بكبشٍ أنزل إليه عن طريق الملك، لتكتمل الصورة في استمرار رجم الشيطان وسنته بكل ما هو منزل من مجسمات في شكل حجارة وأنعام، فالجمرات التي يرجم بها الحجيج الشيطان من شعائر الله، والبدن التي يذبحها المسلمون في كل مكان أيضاً من شعائر الله، وكأنَّ الله أراد أن يكون تعامل الإنسانية جمعاء في هذا اليوم مع الشيطان بوسائلَ ماديةٍ بحتةٍ، كلها منزلةٌ من السماء لتكون آياتٍ لقوم يتفكرون.

ربما لا نستطيع أن نثبت نزول الحجارة من السماء بغير الاستنتاج المنطقي ما لم نُجرِ عليها فحصاً كيميائياً وفيزيائياً، خاصة وأنها تسمى في الفقه الإسلامي" الجمرات" وكأنها جمرات ملتهبة من شهب السماء، ولكنَّ نزول الأنعام أمر صريح في هذه الآية، وهو لا يختلف عن نزول الحديد الذي أثبته العلم الحديث، إذ إنّ ذراته يستحيل أن تتكون داخل الغلاف الجوي كما نص القرآن:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ " 25 الحديد".

فإذا كان العلم الحديث قد أثبت أن الحديد قد أنزل من خارج الغلاف الجوي وهو ليس من مكونات الأرض، فإنَّنا نظنُّ أنَّ لفظ {وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ} يدلُّ على أنَّ الأنعام -أصلاً- ما خلقت في الأرض، وإنَّما نزلت من السماء في فترة من فترات التطور؛ لتكون رفيقاً للإنسان وشعيرة من شعائر الله الغامضة التي تدل على وجوده و قدرته في التحكم في قوانين الكون كيفما يشاء، إذ إنّها دائما مرتبطة بمراحل تطور الإنسان: الخَلْقي، والروحي، والعقلي، والاجتماعي، والعَقَدِي. كما ارتبطت بالحجارة الغامضة التي يُرجم بها شياطين الجن إلى يوم القيامة. و سنرى حينما ندرس تفاصيل الحج أنَّ الأنعام دائماً تمشي تحت أقدام الحجيج، وهم يمشون في تلك البقاع المقدسة لتكون آية لهم، فضلاً عن أنَّ كلَّ الأنبياء قد امتهنوا مهنة رعي الأغنام. وسنفهم هذه الحقيقة أكثر حينما نفهم لماذا جعل إبليس قضية الأنعام أمراً مهما يضل به الإنسان من أول يوم:﴿ ..... وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ....﴿١١٩﴾ ﴾ " النساء119"

فسبحان الذي ربط بين المخلوقين المنزلين "الأنعام والجمرات" في يوم عيد بروز الإنسان، وسبحان الذي جعل كليهما وسيلة لرجم الشيطان في شخصه عند الجمرات في منى، وفي إضلاله للإنسان بذبح الأنعام بديلاً للأولاد في مشارق الأرض ومغاربها، وسبحان الذي أنزل القرآن وعلم الإنسان البيان، وسبحان الذي لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها، وجعل السر في آذان الأنـعام غائباً عن الناس طوال القـرون من بعد آدم، وما كنَّا في كشفه ذيلاً لأحدٍ ولكنه إلهام منه I لنا نحن أضعف خلقه.

بقايا قصة الإنسان الأول تتضح بصورة متكاملة إذا تابعنا قصة إبراهيم - عليه السلام - وهو النبي الذي بوّأ الله له مكان البيت؛ ليكمل لنا القصة ببحثه المدهش. ولمَّا كان إبراهيمُ نبياً متأخراً في تاريخ النبوءات مقارنةً بعُمُر الإنسانية، يستحسن أن نعرج سريعاً على قضية الرسل وعلاقتهم بالله وبالإنسان الأول من ناحية، وبآدم نبي الله المصطفى ورسوله الأول من ناحية أخرى. و لما كان نوح هو أبا كلِّ الرسل من بعده، فقد كانت مسألة دراسة الرسل وعجائبهم لابُدَّ وأن تقودنا لنركب سفينة العجائب، ونميز بين أهل نوحٍ الذين كانوا أهلاً للنجاة معه وأهله الذين لم يكونوا أهلاً لذلك ... فـإلى **سـفـيـنـة نـوح**.

البــــاب الســابع

سفينة نـــوح

توقيت ظهور الإنسان العاقل:

بعد مراجعتنا لمفهوم خلق الإنسان ثمَّ تطوره لإنسان عاقل على الأرض في الأبواب السابقة، لا بُدَّ لنا من مراجعة الأفكار المتباينة حول توقيت ظهور الإنسان العاقل. علماءُ الطبيعة تأثروا أولًا بالموروثات الدينية، فشاع بينهم أنَّ الإنسان الأول - سواء أُخْلق ككتلة طين أم تطور من مخلوقات أدنى - سار على الأرض قبل حوالي 7 آلاف سنة. هذا نتج - في الأساس- من حساب الأجيال بين آدم والمسيح الذي يمثل بداية التاريخ البشري الموثق. إلا أنَّنا في بحثنا وصلنا إلى أن تلك الأنساب مشكوكٌ في دقتها من ناحية، ومن ناحية أخرى تجاهلت المتغيرات في متوسط عمر الإنسان عبر العصور. فكان أن تدبرنا هذه الآية:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾

"58 مريم".

ظاهرُ الآية البسيط يفيدُ أنَّ "النبيين" هنا قد تم توزيعهم على ثلاثِ مراحلَ تاريخية تشمل: النبيين من ذرية آدم، ثمَّ النبيين ممَّن حملوا مع نوح، وأخيرًا من ذرية إبراهيم وإسرائيل.

مرحلة آدم ومن بعد آدم: هذه المرحلة كان فيها نبيُّون انحدروا فقط من ذرية آدم النبيِّ (آخذين في الاعتبار وجود بشر من غير ذرية آدم النبي في تلك المرحلة). هذا الاستنباط لا يتعارضُ مع الفهم العام، وهو أنَّ الله - سبحانه وتعالى - لم يقصص علينا الكثير عن قصص المرسلين، فضلًا عن النبيين.

مرحلة نوح: هنا استنبطنا أنَّه كان هناك نبيُّون تزامنوا مع نوح وحُملوا معه في الفلك. نوح كان الرسولَ، لكنَّ المرحلة تُفيدُ بدء تزامن الأنبياء مع رسول واحد.

مرحلة إبراهيم ومن بعده: هذه المرحلة فيها عددٌ من الملاحظات مرتبطة بالتطور الاجتماعي للبشر. ففي عصر إبراهيم - عليه السلام- كانت البشريةُ قد تطورت إلى شعوبٍ وقبائلَ انتشرت في الأرض،وظهرت الممالكُ ونظمُ الحكم المنتظمة والدولُ المستقلة. على أنَّ الآية تفيد أنَّه في هذه المرحلة التي اتسع فيها مفهوم "البشرية"، قد انحصر نسلُ الأنبياء والرسل في بيت واحد، ذرية إبراهيم وحده. وهي أيضًا تفيد انقسامَ هذا التخصيص في بيت إبراهيم إلى تمييز بين أنبياء ورسل انحدروا من إسرائيل، ثمَّ كان آخر الأنبياء والمرسلين من ذرية إبراهيم عن طريق إسماعيل، لذلك نجد التمييز بين ذرية إبراهيم وذرية إسرائيل في الآية.

من الملاحظ أيضًا أنَّ كلَّ مرحلة اشتملت على مميزاتِ ما قبلها، ثمَّ المزيد. فتوالِي النبيين استمر إلى مرحلة نوح، مضافًا إليه تزامن النبيين مع الرسول. وتوالي النبيين وتزامنهم مع الرسول استمر إلى عصر إبراهيم، مضافًا إليه تزامن الرسل في الفترة الواحدة. كما هو معلوم فإنَّ إسماعيل ولوطًا كانا رسولين عاصرا إبراهيم، أيضًا يعقوب

ويوسف، وسليمان وداود. بينما تزامن عيسى الرسول مع يحيى وزكريا النبيَّين - عليهم جميعًا أفضل الصلاة والتسليم-.

وكما بدأ عهدُ الله مع الإنسانيَّة بنبيٍّ واحد، ختم بخاتم الأنبياء والمرسلين منفردًا - صلى الله عليه وسلم-.

وحتى نستطيع استنباط تاريخ الإنسان العاقل، علينا أن نضع هذا المسلسلَ في معادلة تعيننا على التدبُّر هكذا:

آدم ....نوح ....إبراهيم.......محمد.

ولنصلَ إلى مدخل علميٍّ نحسب به - ولو تقديرًا- متى وجِدَ الإنسانُ العاقل، لابُـدَّ لنا من أرقام أو ما يشبه الأرقام لنتعامل معها. القرآنُ لم يذكر لنا شيئًا عن عمر أيِّ نبيٍّ أو رسول باستثناء نوح - عليه السلام-:

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ "14 العنكبوت".

الفهمُ الشائعُ أنَّ عمر نوح كان 950 سنة؛ لأنـَّه هكذا فهمها اليهودُ، وكتبوها في التوراة على أنَّها أيام نوح في الأرض. لكنـَّنا لو تدبرنا الآية لوجدنا أنَّها تشيرُ إلى عمر رسالته وليس عمره هو. أي أنَّه لبث فيهم رسولًا كلَّ هذه الـ (950) سنة. هذه الملاحظة تفيد أنَّ متوسط عمر الإنسان في عصر نوح كان يتجاوز ألفَ عام بكثير.

فإذا افترضنا أنَّ نوحًا أُرسل إلى قومه في الثلث الأخير من عمره - كما كان الحال مع بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ـ، أمكننا تقدير عمر نوح، وبالتالي متوسط عمر الإنسان في عصره بحوالي ثلاثة آلاف سنة.

المتعارف عليه أنَّ إبراهيم عاش مائة وعشرين سنة، والرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - مات في الثالثة والستين من عمره، وأنَّ الفترة الزمنية بينهما كانت حوالي أربعة آلاف عام. هذا يمكن أن يفيد أنَّ متوسط عمر الإنسان قد انخفض بمعدل 15 سنة في كلِّ ألف عام.

فإذا طبقنا معدل انخفاض عمر الإنسان هذا على الفرق بين عمر نوح وإبراهيم - عليهما السلام-، فسيمكننا الوصول إلى فترة تقربية بينهما تصل إلى (3000 ـــ 120) مقسومة على (15) لنحصل على عدد آلاف السنين التي فرقت بينهما، وهى 192 ألف سنة تقريبًا.

ولمَّا كنَّا لا نجدُ أيَّ إرهاصات رقمية نستنتج بها الفترة التقريبية بين نوح وآدم غير حقيقة انحدار متوسط عمر الإنسان، فإنَّنا يمكننا الافتراضُ أنَّ نوحًا كان في ثلث الفترة الزمنية بينه وبين النبي - صلى الله عليه وسلم-، ممـَّا يقودنا إلى تأكيد أنَّ آدم قد عاش قبل حوالي 300 ألف سنة تقريبًا.

هذا التقويم يتقارب كثيرًا مع آخِر البحوث العلمية التي تضع ظهور إنسان الـ (هومو نينارديرثالينسيس) الذى يُظن أنَّه الذي انتقل بصورة غامضة إلى إنسان عاقل.

تقوم نظرية داروين في الخلق والتطور على محورين رئيسَيْن: الأول هو تطور المخلوقات إلى أنواع أكثر تعقيداً لمواجهة تحديات الطبيعة، والثاني هو قانون الانتخاب الطبيعي الذي يعني أنَّه كلما تطور فصيلٌ من المخلوقات

لمرحلة أقوى وأقدر على البقاء تنقرض الأنواع الضعيفة من ذلك الفصيل. ولأنَّ النظرية - أصلاً - قامت على ملاحظات البشر من غير الرجوع إلى وصف الخالق لطبيعة الخلق، فقد وجد العلماء حالات انقراضات خارقة لقانون التطور نفسه، ولم يستطيعوا تفسيرها إلا بنسبتها لعوامل طبيعية مدمرة. من أشهر تلك الانقراضات هو انقراض الديناصور قبل حَوَالَي خمسة وستين مليون سنة، والذي يظنّ العلماء أنّه انقرض فجأة بعد اصطدام الأرض بمذنب ضخم غيَّرَ في مُناخ الأرض ودرجة حرارتها بصورة أدت إلى انقراض الديناصور. في بحثنا هذا وصلنا إلى إنّ عملية الانقراض إنّما هي نتاج تدخل إلهي مباشر لتغيير مسار الطبيعة. هذه التدخلات الربّانيّة تتم بصورة لا يفهما الإنسان، ولكنّ الله جعل لنا إحدى تلك الأحداث بيّنة في تاريخ البشر متمثلة في قصة سفينة نوح الأسطورية، والتي كانت امتداداً طبيعياً لمفهوم اصطفاء الأنبياء والرسل ومن ثمّ النسل الإنساني.

اصطفاء الرسل:

نظنُّ - والله أعلم- أنَّ الإنسان الأول سكن عند البيت العتيق ببكة كما سنرى في قصة إبراهيم. ولعلَّ الله – جل وعلا- وهو الذي علَّم ذرية آدم عن طريق الغراب، قد هدى الإنسان للتعامل معه ومع الطبيعة عن طريق الملائكة في بادئ الأمر، وربَّما كان دورُ الملائكة هو تعليم الإنسان بالتشخيص المباشر كيف يتعامل مع العالم الجديد، فتعلم آدمُ (وهو البشرُ الملائم للتغيُّر والتطور) التعاملَ مع الطبيعة، وكان يفترس الحيوانات وتفترسه؛ فأنزل الله له الأنعام وعلَّمه كيف يطوعها لمصلحته وطعامه، وآواه أول مرة في أول بيت وضع للناس ليعلمه كيف يسكن البيوت، وربَّما علَّمته الملائكةُ كيف يبني البيوت لتحميه من حرارة الشمس وبرد الليل والرياح والمطر ومخاطر الطبيعة. فلمَّا تطوَّر الإنسان وتكوَّن له مجتمع متميز، اصطفى الله أولَّ رسله من البشر وهو آدم - عليه السلام- ، الذي سُمِّي بهذا الاسم والذي يعني: العنصر المتغيِّر أو الملائم؛ ليكون رمزاً للمجموعة الأولى التي طَفَر الله بها إلى مرتبة الإنسان العاقل، وبهذا فقط يمكننا أن نفهم قول الله - تعالى- :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ " 33-34 آل عمران".

فقد اصطفاه الله على مجموعة البشر الملائم للتغيير "آدم" الذين تاب عليهم بعد هبوطهم من الجنة، وهذا هو آدم النبي الذي قال الله - تعالى- عنه :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾ ﴾

"58 مريم".

ومن المنطقي أن نفهم هنا أن "حواء" التي ما ورد اسمها إلا في الحديث هي زوجة نبي الله آدم، وليست الأنثى الوهمية التي أكلت من شجرة التفاح في الجنة أولاً وأعطت زوجها ليأكل كما فهِم اليهود وتسربت تأويلاتهم لمدارس المسلمين.

في قصص الرسل أيضًا نلاحظ مراحلَ للتطور الاجتماعي لا يختلف عليها المفسرون يهودًا كانوا أو نصارى أو مسلمين.

ولمَّا كان آدم هو المصطفى الأول، فهذا يعني أن الله اصطفاه على مجموعة آدم "اسم الجنس" أو "جنس الإنسان" الذي تطور إلى إنسان عاقل.

ولعل من المفيد هنا أن نتدبر مرة أخرى لفظَ "آدم" بوصفه اسمَ جنس "الملائم للتغيير" و"آدم" نبي الله المصطفى المعصوم مثل بقية الأنبياء والمرسلين. فقد رأينا في باب "في جنة المأوى" أنّ الشيطان قد "قاسم" مجموعة آدم الأولى، أي أنّه قسمهم لأكثر من مرة، وقد أوضحنا أنَّ تكرار التقسيم هنا يفيد أنَّه قسمهم أولاً إلى ذكور وإناث بعد أن أراهم سوءاتهما، وأنَّ بعض المجموعة لم تستجب له، فقام بإستدراج المجموعة التي استجابت له ليقعوا في المعصية. ثم رأينا في باب "في وادي المزدلفة" في تفسيرنا لـ "فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ" أن التوبة اشتملت أولاً على هبوط مجموعة منهم دون الأخرى، قبل أن يهبط الجميع من الجنة، مما يوحي بأن العقاب قد وقع على المجموعة التي عصت الله فقط. من هذين المفهومين اللذين توحي بهما تلك الآيات، يتضح لنا أن نبي الله المصطفى آدم - عليه السلام - لم يكن من تلك المجموعة التي عصت ولم يكن حتى من ذريتها، وإنما كان من المجموعة التي التزمت بأمر الله أو من ذريتها، فيتحقق مفهوم الاصطفاء ونبرئ نبي الله آدم - عليه السلام- من مفهوم المعصية التي التصقت به جرّاء فهم اليهود الخاطئ، للقصة والتي انسابت مثل غيرها من قصص الأنبياء للفهم الإسلامي.

من ذرية هذا النبي المصطفى الأول كان نوحٌ بعد عدة قرون. كانت الإنسانية في عهد نوحٍ تتكون من ذرية آدم النبي وعلى رأسهم نوح، ومن ذرية مجموعة آدم الذين هبطوا معه من الجنة، فلما أغرق الله –عز وجل - كلَّ من لم يؤمن بنوحٍ، ما بقي في الأرض إلا من اتبع نوحاً بما فيهم أبناؤه الثلاثة. على أنَّ الجنس البشري بعد نوح، انحدر بصريح اللفظ القرآني من أبناء نوح فقط، إذ إنَّ الله أبقى فقط ذرية نوح وانتهى نسل بقية المؤمنين، وبالتالي انقرضت سلالة "مجموعة آدم" الذين هبطوا من الجنة باستثناء نوح وذريته، وهؤلاء بالطبع قد انحدروا من آدم النبيِّ المصطفى. من تلك المرحلة أصبحت الإنسانية جمعاء تنحدر من ذرية آدمَ المصطفى نبيِّ الله الأول:

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ "75-77الصافات".

ومن هنا نفهم أيضا كيف تتصل علاقة جميع بني آدم اليوم بآدم النبيِّ الأول، وذلك يفسر لنا لماذا يخاطب الله - سبحانه وتعالى- الإنسانية جمعاء في أماكنَ لا حصر لها في القرآن بلفظ " يا بني آدم..." إذ إنَّ كلَّ البشر اليوم من ذرية نوحٍ، ونوحٌ كان من ذرية آدم النبيِّ المصطفى بعد أن انتهى نسل من انحدروا من مجموعة آدم الإنسان المتطور. (انظر لوحة انحدار البشر في آخر الكتاب).

انحدر من ذرية نوحٍ أقوام كُثُر من سام وحام وجافث أبنائه الثلاثة. ومن ذرية سامٍ تم اصطفاءُ أبي الأنبياء إبراهيم - عليه السلام- :

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ

وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ "84 الأنعام".

إذنْ كان من الطبيعي أن تظل النبوة والكتاب في ذرية إبراهيم إلى خاتم الأنبياء والمرسلين؛ لأنّ هذا هو قانون اصطفاء الرسل، ذرية بعضها من بعض:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ

فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ "26 الحديد".

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ﴾ {﴿

ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ ﴾ " 2-3الإسراء".

و هنا نعود لنربط بين اصطفاء الرسل وعملية الخلق الأوَّل. فكما ذكرنا، إنَّ الله خلق الأمشاج التي تحمل صفات وراثية يتم انتقاؤها بقدرة الخالق من جيلٍ إلى جيل، وتظهر طفرات جينية أو وراثية كلما تراكمت صفات معينة تقود إلى ظهور صفات متطورة جديدة وهكذا. إذنْ فعملية اصطفاء الرسل من ذرية الرسل إنَّما هي عملية بنائية وانتقائية، وليست اختياراً عشوائياً للرسول من بين قومه. يدلُّ على هذا العمق اللغوي للكلمات التي وصفت بها عملية الاصطفاء:

صفو: أصل واحد يدل على الخلوص من كل شوب.

على: العين واللام والحرف المعتل، ياء كان أو ألفاً أو واواً، أصل واحد يدل على السمو و الارتفاع .

العالم: من عَلَم، العين واللّام والميم، أصل صحيح واحد يدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره، والعالم جمعها عالمون.

ذرية: "ذرو" لها أصلان، أحدهما الشيء يشرف على الشيء ويظله، والآخر الشيء يتساقط متفرقاً.

نفهم من ذلك أنَّ الله ـ تعالى- لا يختار من البشر رسلا، كما تخيلنا دائمًا أنَّ الاصطفاء يعني "الاختيار" من المجتمع الموجود أصلا، وإنَّما ظلت النبوة والرسالات في سلالة معينة ينحدر بعضها من بعض ويُصفَّى ويُنقَّى منها، جيلًا بعد جيلٍ، فيصيروا أنقى جينياً مما ينعكس على سموٍ أخلاقي واجتماعي وجسدي وعقلي ونفسي وروحي على الأجيال السابقة وعلى من حولهم، ثم يرسلهم إلى أقوامهم. أي أنَّه ـ سبحانه وتعالى- اصطفاهم في مكونات خلقهم مقارنة بسلالات من حولهم من البشر، وذلك ليؤهلهم لِتقبُّل رسالاته وتحملها وتوصيلها لبقية البشر.

ثمَّ جعل هؤلاء الرسل المصطفين سلالة أصلها واحد، وذرية بعضها من بعض. إذنْ فالآية المشهورة في سورة آل عمران: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى...عَلَى الْعَالَمِينَ} تشير إلى ذلك الاصطفاء... فمَن هم أولئك العالمون إذنْ؟

1. عالم آدم، أو مجموعة البشر الأوائل الذين اصطفى الله عليهم النبيَّ آدم ...."عليهم" وليس "منهم".
2. عالم نوح، أو مجموعة البشر الذين اصطفى الله عليهم النبيَّ نوحاً "عليهم" وليس "منهم".
3. عالم آل إبراهيم، المجموعة التي اصطفى الله عليها آل إبراهيم.
4. عالم آل عمران، المجموعة التي اصطفى الله عليها آل عمران.

من هذا يتضح أنّ كلَّ نبي مصطفى على عالمه، لذلك فإن مجموع الأنبياء مصطفين على مجموع العالمين، ولكن المجموعة المصطفاة جعلها الله ذرية بعضها من بعض، ممَّا يعني أن البشرية كلما احتاجت إلى رسول من عند الله بعث الله إليهم رسولًا كان سابقاً قد تمَّ اصطفاؤه من ذرية رسولٍ سابقٍ له، فازداد صفاءً ليرسله إلى قومه في الوقت المناسب. وهذا يعني أن الرسل يزداد صفاؤهم كلما تقدمت البشرية إلى الأمام. ومن هنا يمكننا أن نفهم لماذا انتهت سلالة الأنبياء في بني إسرائيل عند يحيى وعيسى اللذين لم تكن لهما ذرية، ثمَّ امتدت سلالة إبراهيم في ولده إسماعيل حتى كان خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لم يكن له ولدٌ ذَكَرٌ أيضاً، فانتهى نسل الأنبياء هناك. وكان صفوة الرسل آخر ذريتهم وقمة هرمهم هو المصطفى محمد بن عبد الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وبهذا فقط يمكن أن نفهم حديثه **{أنا خيارٌ من خيارٍ}** بمفهوم رسالي وليس بمفهومٍ قبلي، بأنّه خير الرسل الأخيار، والله أعلم.

إذنْ فاصطفاء الرسل عملية متناسقة مع قانون التطور، إذ إنَّ الإنسانية ظلت تتطور جيلاً بعد جيل، مسلمهم وكافرهم، وما مظاهر التطور التكنولوجي والعمراني الذي جعل من الإنسان مخلوقاً جباراً في الأرض في يومنا هذا، إلا دليلٌ على أنَّ العقل البشري ظلَّ في عملية تطور مستمرة، وسلطان خليفة الله في الأرض في اتساع مستمر.

على أنَّ في قصة نوحٍ مرحلةً مهمةً ومتميزة من مراحل التطور، التي تدخلت فيها القدرة الإلهية لتصطفي السلالة التي تبقى في الأرض من جنس البشر اصطفاءً مباشراً جعله الله حدثاً مرئياً؛ ليكون آية من آياته التي يستوعبها العقل البشري يوم يتطور إلى مستوىً يؤهله لاستيعاب مفهوم التطور نفسه. و لأنها قصة اختلطت بالكثير من الخرافات والأساطير لا بد لنا أن ندرسها بقدرٍ من التفصيل.

قانـون الاصطفاء الرباني:

رأينا في الأبواب السابقة أن الفهم الخاطئ لموضوع السياق القرآني يؤدي إلى استحالة فهم مدلول الألفاظ، مما يدفع لتأويل خاطئ لكل القصة التي ترويها الآيات، ومن ثم خَلْق قصة جديدة لا علاقة لها بالسياق، مما يتسبب في حرج لغوي في إعراب الكلمات التي ترويها الآيات. فعندما ظن الناس أنّ وصف خلق البشر من طين كان يعني بناء آدم "الذكر" من طين كالتمثال، فهم الناس أن "زوجه" هي "حواء" الأنثى مما أدى إلى تجاهل حقيقة أن "سوءاتهما" هي جمع مثنى يشير إلى ستة فما فوق. فلما صححنا مفهوم آدم من "ذكر مفرد" إلى اسم معنى "الجنس الملائم للتغيير"، استقامت بقية المعاني لغةً وإعراباً وزال الحرج في التأويل، و أوحت لنا آياتُ القرآن قصة كانت بعيدة جداً عن خيال الناس، فنتج عن ذلك تزاوج إعجازي بين آيات الله الكونية التي توصل إليها العلم الحديث، وآياته القرآنية التي ظلت محفوظة كما نطق بها جبريل رغم صعوبة فهمها في الماضي.

القرآن يحتوي على وصف خالق الكون لِما خَلق، وهذا يقتضي انطباق كلام الخالق مع حقيقة الخلق مهما كانت بعيدة عن خيال الناس. وفي وصفه لتفاصيل الخلق فإنّ القرآن يمكن مقارنته بكتيب التعليمات الذي يضعه الصانع مع الأجهزة التي يصنعها ليشرح للمشتري كيف صنع الجهاز وكيف يتعامل معه. فإذا توصل الإنسان إلى حقيقة كونية تتعارض مع فهم محدد في كتاب الله ، فلا بد أن يكون هناك فهم خاطئ للحقيقة الكونية أو فهم خاطئ لآيات الله القرآنية، ولكن لا يمكن أن يتعارض الفهم الصحيح لآيات القرآن مع حقيقة كونية حتمية. وما التقارب بين فهمنا الجديد لقصة آدم التي كانت غامضة المعاني غريبة الألفاظ ، وما تواتر من حقائق علمية عن أصل الإنسان إلا أبلغ دليل.

ولنا في قصة نوح مثلٌ آخرُ في صعوبة فهم مدلولات الألفاظ وإعرابها؛ لأن قصة نوح تمَّ فهمها من تأويل الإسرائيليات بأنها قصة حظيرة ضخمة جُمعت فيها كلُّ مخلوقات الأرض من غير حكمة ظاهرة، مما أدى إلى استحالة فهم الألفاظ التي ترويها. وقبل أن نخوض في فهم تفاصيلها وكشف أسرارها يستحسن أن نصحّح موضوع القصة نفسِها.

اتضح لنا - مما سبق- أنَّ الله قد اصطفى مجموع الرسل على مجموع البشر اصطفاءً جسدياً ،أدى إلى تنقية المكونات الخلقية لهم ذرية من بعد ذرية. فإن كان اصطفاء "آدم" اصطفاءً له على مجموع جنس آدم الذي تم تطويره إلى إنسان عاقل، فإنَّ اصطفاء نوح - عليه السلام- كان مرحلة اصطفاء أخرى لكلِّ العنصر البشري من مجموع العناصر التي انحدرت من مجموعة آدم التي طورت إلى إنسان عاقل. هذا الاصطفاء تم بتدخل ربّاني مباشر أدى إلى انتقاء العناصر التي تصلح من حيث التكوين الخلقي لاستمرار العنصر البشري، وبالتالي زوال بقية العناصر غير المؤهلة للاستمرار. هذا القانون "قانون الاصطفاء الربّاني" الذي أشار إليه القرآن هو ما ظنَّ داروين ومدرسُته أنّه انتخاب تلقائي للعناصر القوية وانقراض تلقائي للعناصر الضعيفة، وهو ما أسمَوه بـ" قانون الانتخاب الطبيعي" في نظرية داروين. ورغم أنَّ علماء الطبيعة لا ينكرون أنَّ بعض المخلوقات قد انقرضت لأسباب غير "الانتخاب الطبيعي"، مثل الديناصور الذي انقرض نتيجة كوارث طبيعية، إلا أنّ التصريح بتدخل القدرة الإلهية لتنفيذ "الاصطفاء الرباني" ليس ممَّا يتوصل إليه العلماء بالملاحظة ،وإنّما هو ممّا تشرحه الديانات والوحي.

قصة نوح وسفينته الغامضة والألفاظ الغريبة التي احتوت عليها روايةُ القصة، لا يمكن فهمُهما إلا من منظور "قانون الاصطفاء الرباني" الذي يؤكد ما توصل إليه العلماء، و يصحح أوجه القصور فيه؛ لأنّ المدرسة الداروينية نجحت فقط في إبداء ملاحظاتها في ظاهرة استمرار عناصر وزوال أخرى من الجنس البشري، ولكن ما كان لهم أن يكتشفوا بالملاحظة والاستنتاج فقط أنّ هناك تدخلًا ربانيًّا مقصودًا أدى إلى اصطفاء العناصر الصالحة المؤهلة، وإبادة العناصر غير الصالحة من الجنس البشري في عهد نوح - عليه السلام - .

سفينة نــوح:

عاش نوحٌ بعد حَوَالَي عشرة أجيال من نبي الله الأول آدم -عليهما السلام- حَسْبَ الأنساب التي روت نسبَ الأنبياء في إنجيل لوقا وفي سيرة النبيِّ - صلى الله عليه وسلم -. وهناك شبهُ إجماع بين المفسرين على أنَّ نوحًا كان أولَ رسول بعد آدم - عليه السلام - . ورغم أنَّ القرآن والتوراة قد اتفقا أنَّ نوحًا عاش ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا، إلا أنَّ القرآن ما قصَّ علينا من تفاصيل حياته الطويلة تلك إلا المراحلَ الأخيرةَ من دعوته لقومه ومقتطفات من قصة السفينة. ونظنُّ- والله أعلم- أنَّ ما قصَّه القرآن علينا هو الجزء الذي يهمنا من قصته؛ لأنَّها ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بقصة تطور

الإنسان على الأرض، إذ إنَّ نوحًا كان الرسولَ الوحيدَ الذي ذكَّر قومه بتطور خلق الإنسان وتطور السماوات كآيات بيِّنة لهم من آيات الله:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ **وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا** ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾

﴾ " 13-17 نوح".

ورد في تفسير هذه الآيات في تفاسير ابن كثير والقرطبي والطبري أنَّ الأطوار المقصودة هي: النطفة والعلقة والمضغة ،ممَّا ذكره الله - تعالى- في القرآن. ورغم أنَّ هذه حقيقة بعض الأطوار التي يمرُّ بها خلق الإنسان على المستوى الفردي، إلا أنَّ تأويل الآية على هذا النحو فيه تجاهلٌ لحالِ قوم نوح. هذه التفاصيل التي لم يفهم الإنسان مدلولاتِها قبل القرن العشرين بعد اكتشاف المجهر والعدسات المكبرة، ما كانت مفهومة ولا حتى في عهد النبيِّ محمدٍ -صلى الله عليه وسلم- ، وما ذِكْرُها في القرآن إلا لأنّ القرآن وحيٌ مستمر إلى آخر الزمان. وهي من ضمن الآيات التي يخاطب الله بها جيلنا وليس قوم نوح، إذ إنَّه ليس مناسباً أنْ يدعو نوح قومه الذين كانوا أقربَ إلى عهد آدم من عهدنا، بآيات تتطلب عدساتٍ مكبرةٍ لفهمها. نحن نظن أن نوحاً كان على علمٍ بأنَّ قومه الذين كانوا أقربَ إلى عهد آدم وتطور الإنسان، كانوا يعرفون قصة تطور الإنسان التي حدثت بأنْ نفخ الله فيه من روحه؛ لأنَّ مثل هذه القصص -ولا شك- تناقلتها الأجيال من بعد آدم، خاصة وأنَّ الآيات هنا وصفت خلق الإنسان من الأرض كالنبات، وهي من الموروثات التي كانت معروفة لآدمَ وجيلِه وذريتهم بالتَّجْرِبة الشخصية وليس الاكتشاف العلمي. وعليه نظنُّ أنَّ الأطوار المقصودة هنا ليست أطواراً مجهريه، وإنّما الأطوار التي ظللنا نبحث فيها طوال هذا الكتاب.

وقبل أن نبحث في قصة نوح -كما نفهمها من القرآن- نسوق الحديث الذي أورده الإمام ابن كثير في تفسيره لآيات قصة نوح المذكورة في سورة هود، إذ إنّ هذا الحديثَ يمثل الأساس الذي قام عليه -بكل أسف- فهم المسلمين المتأخرين لقصة نوح -عليه السلام-، وهو بصريح اللفظ من الإسرائيليات:

(...وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير أثرًا غريبًا من حديث علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران عن عبد الله بن عباس أنَّه قال: قال الحواريون لعيسى بن مريم: لو بعثت لنا رجلًا شهد السفينة فحدثنا عنها، قال: فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب، فأخذ كفًا من ذلك التراب بكفه، فقال: أتدرون ما هذا ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب حام بن نوح. قال: فضرب الكثيب بعصاه، قال: قم بإذن الله فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه قد شاب، قال له عيسى - عليه السلام- : أهكذا هلكت ؟ قال: لا. ولكنِّي مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت، قال: حدِّثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألفَ ذراع ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدواب والوحوش ،وطبقة فيها الإنس ،وطبقة فيها الطير، فلما كثر روث الدواب أوحى الله - عز وجل - إلى نوح -عليه السلام - أن اغمز ذنب الفيل فغمزه فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث، فلما وقع الفأر

بجوف السفينة وحبالها أوحى الله إليه أن اضرب بين عيني الأسد، فضرب فخرج من منخره سنور وسنورة فأقبلا على الفأر، فقال له عيسى - عليه السلام - : كيف علم نوح أنَّ البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر، فوجد جيفة فوقع عليها، فدعا عليه بالخوف؛ فلذلك لا يألف البيوت. قال: ثم بعث الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها، فعلم أنَّ البلاد قد غرقت، قال فطوقها الخضرة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في أنس وأمان، فمن ثم تألف البيوت. قال: فقلنا: يا رسول الله، ألا ننطلق به إلى أهلينا فيجلس معنا ويحدثنا ؟ قال: كيف يتبعكم من لا رزق له ؟ قال فقال له: عد بإذن الله فعاد ترابًا).

ولا تعقيب لنا على هذه الرواية إلا قول الإمام ابن قيم الجوزيّة حينما قال: " الحق بهاء"، وقول الحسن البصري لأحد تلاميذه حينما لم يستسغ منه قولا: " يا بني إمَّا في قلبك شيء أو في قلبي شيء".

أمَّا من المصادر الإسلامية الموثوق بها من قرآنٍ وسنة، فإنَّه لم يُعرف الكثير عن قصة نوحٍ، وليس معروفًا - بالضبط - أين عاش وأين كان الطوفان. ولكن أغلب الظنِّ أنَّ حركة الإنسان في الأرض كانت بطيئة بقدر ما فرضته ظروف الطبيعة والبحث عن الكلأ. فإذا كان الإنسان الأول قد وُجد في الجزيرة العربية حول مكة، فمن الطبيعي أنَّ نوحًا كان قريبًا من موقع الإنسان الأول الذي ربَّما نزح من مكة بعد أنْ ملَّ ماؤها أي جفَّ، ومات زرعها وتصحرت أراضيها. رواية القرآن التي روت بناء نوح للفلك ذكرت سخرية قومه منه، ممَّا يدلل على أنَّ بناء الفلك كان أمرًا شاذًا ومضحكًا، ولعلَّ في ذلك دليلًا على أنَّ نوحًا عاش في الصحراء حيثُ الفلك ليست ممَّا يحتاج إليه الإنسان. وأغلب الظنِّ أنَّ الطوفان نفسَه لم يكن إلا عقابًا محدودًا لقوم نوحٍ، كما كان عقاب قوم لوطٍ محدودًا بقريتهم، وكذلك قوم هود وصالح وغيرهم من القرى التي دمَّرها الله. ليس هنالك دليلٌ نقليٌّ يدلـِّلُ على أنَّ الله - عز وجل- أغرق كلَّ الأرض في عهد نوح، إذ إنَّ عقاب الله للقرى دائماً يقتصر على القرية المقصودة فحسب. فإنْ لم يكن لدينا دليلٌ صريحٌ على أنّ الطوفان كان محدوداً بأرض نوح، فإنَّنا أيضاً ليس لدينا دليلٌ على أنَّ الطوفان أغرق قارات الأرض جميعًا، وليس لدينا إلا علمُ الجيولوجيا و المنطق والواقع القرآني حتى نقرر أين حدث الطوفان. و حتى نستنبط بعض الحكم من قصة نوح يستحسن أن نتدبَّرَ تفاصيل القصة كما وردت في القرآن:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ﴾ " 40هود".

هذه الآية ترتب الذين حملهم نوحٌ في السفينة هكذا:

1. مجموع الحيوانات ذكرت أولا.
2. تبع ذلك أهله، ولكن استثنى منهم من سبق عليهم القول.
3. أخيرًا ذكر المؤمنين، وأشار إلى أنَّ هؤلاء كانوا قلة.

وتمضي الآيات تسرد قصة ابن نوح الكافر:

﴿ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ " 41-47 هود".

هذه الآياتُ فيها خلافاتٌ كثيرة بين المفسرين؛ لأنَّها احتوت على أمور غيرِ عادية يصعب فهمها. ونحن نظنُّ أنَّ الصعوبة في فهمها هي بيت القصيد؛ لأنَّها تحكي سرًّا من أسرار الخلق ما كان للناس أن يفهموه قبل زماننا هذا، بل ويصعب فهمُه على الكثيرين في زماننا هذا أيضًا، و لذلك فقد جعل الله تلك الصعوبةَ من معجزات القرآن التي تُفهم يوم يتطور العقل البشري ويستطع استيعابها.

لا يخفى على أيِّ دارسٍ للغة العربية أنَّ الله ـ سبحانه وتعالى- أمر الأرض والسماء بصيغة النكرة: {وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي} إذ إنَّه لم يقل "يا أيتها الأرض"، وهذا ربَّما يكون دليلًا لغويًّا على أنَّ المخاطب هو الجزء من الأرض الذي غرق وليس كل الأرض، كما صدر أمر مشابه للجزء من السماء الذي أمطر.

من الأمور التي أشكلت على المفسرين هو اختلافهم في تأويل {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ}، وقال بعض الصحابة: إنَّها تفسيرٌ لقوله - تعالى- : ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا.....﴿١٠﴾ ﴾ " 10 التحريم".

و لكنَّ المفسرين أجمعوا على أنَّ عائشة - رضي الله عنها- روت حديثًا قاطعًا مضمونه أنَّ الله أغْيَرُ من أن يرضى الفاحشة في بيت نبي. والتفسير المتفق عليه في أمر الخيانة هو أنَّ امرأة نوح أشاعت أنَّ زوجَها مجنون، وأنَّ امرأة لوط أفشت سرَّ الملكين اللذين نزلا ضيوفًا على لوط، واتفق المفسرون أنَّ ابنَ نوح كان ابنَه دمًا ولحمًا، و لكنْ ظلت صفة {إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} غامضة .

و يزداد الغموضُ حينما نتدبر بقية الخطاب، فنجد أنَّ الله قد أمر نوحًا أن يكون من الجاهلين، الأمر الذي لم يرد في القرآن كلَّه إلا هنا، إذ إنَّ الله يحثُّ على العلم والبحث وليس الجهل. وقد اجتهد عددٌ من المفسرين في أن يجد تصريفًا لغويًّا يسهل المعنى مع تفادى الأمر الظاهري لنوح ليكون من الجاهلين، فقال بعضهم: إنَّ المقصود هو أنَّ مجرد السؤال نوع من الجهل، ولذلك يأمره الله أن لا يكون جاهلا فيسأل مثل هذه الأسئلة. هذا التأويل البعيد بالطبع يناقض نصَّ الآيةِ نفسَه؛ لأنَّ الله قد أكد أنَّ نوحًا لم يكن له علمٌ بما جرى مما يجعل سؤاله مسوّغًا، وهو أيضًا يناقض استجابة نوح بأنَّ استعاذ بالله أن لا يسأل ما ليس به علم، أي يعينه على أن يرضى بالجهل حينما يكون في الجهل رحمة. ونحن نظنُّ أنَّ المِفتاح للغة هذه الآيات يتطلب أن ننظر في موضع قوم نوح من سُلَّم التطور الذي مرت به الإنسانية إلى ذلك الحين.

نوحٌ كان أقربَ إلى عهد آدمَ من عهد النبيِّ - صلى الله عليه وسلم-، وبالتالي فإنَّ لغة الخطاب مع قومه تكون مرحلة متقدمة من لغة الغراب، ومرحلة مبكرة من لغة الهدهد؛ لأنَّ أسلوب الخطاب لا بُدَّ وقد تطور تدريجيًّا عبر القرون. وهذا يعني أنَّ الألفاظ التي روى بها الله القصة حوت ألفاظًا أقربَ إلى لغة المجسمات منها إلى لغة المصطلحات الفلسفية التجريدية التي روى بها قصص المتأخرين من الأنبياء؛ لأنَّ مثل هذه اللغة تعكس طبيعة المجتمع نفسِه. وعليه، فإنَّ "الجهل" الذي يعنيه الله هنا يكون جهلا نسبيًّا، إذ إنَّ الإنسان - حينها- كان يجهل عن أسرار الكون والطبيعة من حوله أكثر ممَّا يفهم، وما لغة الإنسان إلا تعبيرٌ عن مستوى فهمه للحياة من حوله. ولذلك فلغة الإنسان في تلك الحقب كانت بسيطة، وفي الغالب تحتوي على ألفاظ محددة تعكس المعنى وعكسه فقط، مما يجعل الإنسان إمَّا أن يُوصف بأنَّه عالم أو جاهل، ولا توجد مراحلُ متدرجةٌ بين العلم والجهل، وبهذا يكون هذا النصح ليس إلا صيغةً تناسب مجتمعَ نوح، لكنَّها تحمل نفس المعنى الذي خاطب الله به أصحاب النبيِّ في أمرٍ مشابهٍ لكنْ بلغة بليغة ومتطورة تشابه لغة الهدهد:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٠١ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ١٠٢ ﴾ " 101-102 المائدة".

هذا الجهلُ النسبي كان أفضلَ لنوحٍ من علمٍ يرتبط بأسرارٍ ما كان له ولا لقومه أن يستوعبوها. ونحن نظنُّ أنَّ هناك ارتباطاً وثيقاً بين جهل نوحٍ بحقيقة ابنه وما أمره الله أن يحمله في السفينة. وقد أوَّلَ بعض المفسِّرين أنَّ كَونَ ابنه ليس من أهله ليس إلا إشارة إلى أنَّ الكافر لا يكون من أهل المؤمن وإنْ كان من دمه ولحمه، ولكنَّ في هذا التفسير وجهة نظر ، إذ إنَّ الله - تعالى- ما وصف أبا إبراهيم - عليه السلام- بهذا الوصف، وما قال للنبيِّ الذي كان يدعو لعمه إنَّه ليس من أهلك، أو أنَّك لست منه، وإنَّما كانت الألفاظُ هناك صريحة مرتبطة بكونه كافرًا فقط. إذنْ فالتصريح بأنَّ ابنَ نوح الغارق ليس من أهله لا بُدَّ و أنَّ وله مدلولاً آخرَ يرتبط بالطفرة في تطور البشرية التي حدثت في عهد نوح وتنفيذ "قانون الاصطفاء الرباني".

الآيات أيضاً فيها مزيدٌ من الغموض فيما يخص مصير أهله عموما. إذا أمعنَّا في كلماتها فسنلاحظُ أنَّ الله - تعالى- قد أمر نوحًا أن يحمل أهلَه إلا من سبق عليه القول منهم، أي كل أهله إلا هؤلاء الذين استثناهم، ثم بعد ذلك أضاف إلى أهله {مَنْ آَمَنَ} من الناس عامة. هذا يعني أنَّ التمييز بين أهله تمَّ بناءً على معيار غير الإيمان، فحمل من لم يسبق عليه القول بغض النظر عن إيمانهم، وترك من سبق عليه القول منهم، وكأنَّ ممن حمل معه في السفينة بعضاً من أهله غير المؤمنين، ولكن ما سبق عليهم القول. أما الناس عامة فقد ميَّز بينهم بمعيار الإيمان فقط. بمعنىً آخر، إنَّ استثناء {مَنْ آَمَنَ} ينطبق على من آمن من غير أهله، وهذا يفسر لنا لماذا ظنَّ نوحٌ أنَّ ابنه غيرَ المؤمن كان من الذين استثناهم الله بحكم أنّه من أهله رغم كفره، فناداه أولاً بحسن نية ليركب معهم لعلمه أنّ ضمن من ركب بعضٌ من أهله غير المؤمنين، ثم كان أن شفع له عند الله بناءً على أنّه من ضمن أهله رغم علمه بأنَّه غير مؤمن.

ولأنَّ فهم هذه الصيغة في الآية قد جعلها غامضة، فقد استحوذ موضوع الحيوانات التي كان لها السبقُ في الترتيب حَسْبَ نص الآية {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} على كلِّ الانتباه من العامة والخاصة بين أهل الكتاب والمسلمين عبر القرون، وأصبحت قصة نوح وحظيرته الضخمة المدهشة من أمتع قصص الكتاب المقدس وقصص القرآن لأطفال أتباع كلِّ الديانات السماوية. هذا التجاهل لمضمون القصة يسبب إشكالاً عَقَدِيًّا غيرَ محسوس؛ لأنَّ المسلمين قبلوا الفهم الخطأ من غير نقاش وتجاهلوا صُلب القصة.

ونحن نظنُّ أنَّ نوع المخلوقات التي حملها نوحٌ هو الذي يحدد الحكمة الخفية في غرق بقية البشر، ويحدد أيضًا الحكمة في أنَّ الله جعل ذرية نوح هم الباقين، إذ إنَّ المسلمين والنصارى واليهود أجمعوا على أنَّه لم يستمر نسلُ أحدٍ بعد نوح إلا من ذرية نوح التي كانت معه في السفينة، أي أنَّه حتى الذين آمنوا وحُملوا معه في الفلك انتهت ذرياتهم بهم. هذه الحقيقة تضع مركبَ نوحٍ في موضع متميز من تاريخ التطور، إذ إنَّ كلَّ البشرية من بعده أصبحت تنحدر من ذرية نبي مصطفى، وهو - بطبيعة الحال- قد انحدر من ذرية نبيِّ الله الأول آدم -عليه السلام- . بمعنىً آخرَ فإنَّ بقية مجموعة آدم الذين طورهم الله وهبطوا معه من جَنَّة المأوى إلى وادي المزدلفة انتهت ذرياتهم في عهد نوح - عليه

السلام- ، ولم تبقَ إلا ذرية نوح الذي انحدر من آدم المصطفى. من هنا نفهم أنَّ اصطفاءً مهمًا جدًّا للنطفة البشرية قد تمّ علنًا في عهد نوحٍ، ممَّا يفسِّرُ لماذا ذكر اللهُ لنا ـ ضمن القليل الذي ذكر من قصة نوح مع قومه- أنَّه ذكَّرهم كيف خلقهم الله أطوارًا وكيف أنبتهم من الأرض نباتا، إذ إنَّ في ذلك إشارةً واضحةً لطفرةٍ في التطور قد حدثت في عهد نوح - عليه السلام- .

ولما كانت المخلوقات على الأرض -أصلا- نتجت من أصل واحد تطور عبر ملايين السنين كما سنناقش ذلك بالتفصيل في باب " آذان الأنعام"، ثم تدخلت القدرة الإلهية فنقلت البشر إلى إنسان عاقل كما شرحنا ذلك في باب "الحلقة المفقودة"؛ فإنَّ من حُمِل مع نوحٍ كان امتداداً لتلك الطفرة في التطور أيضا. فإذا كان هذا التفسيرُ منطقيًّا فإنَّ الحيوانات التي حملت مع نوحٍ لا بُدَّ وأنْ تكون الحيوانات المستثناة -أصلا- من سلم التطور الأرضي، وهي الأنعام التي نزلت من السماء لأنها لم تكن موجودة - أصلا- في الأرض إلا في المساحة الضيقة التي سكنها الإنسان، والتي - بطبيعة الحال- كانت موقعَ الطوفان. بمعنىً آخرَ فإنَّ نوحًا لم يحمل في الفلك من كل المخلوقات زوجين، وإنَّما حمل زوجين من كلٍّ من الأنعام التي نزلت في وادي مِنى في شكل ثمانية أزواج، حينما نفخ الله في مجموعة آدم وطورَّهم إلى إنسان عاقل، وهي :الإبل والبقر والضأن والماعز فقط، وما ذلك إلا لارتباط آذان الأنعام - أصلا- بقصة الخلق الأول وقصة التطور والقلائد ومقاليد السماوات والأرض، وأيضًا لأنَّ هذه هي الحيوانات الوحيدة التي نزلت للإنسان ولا توجد إلا حيث يوجد الإنسان. هذا التفسير يكون أكثرَ وضوحًا إذا رتَّلنا القرآن ترتيلا، وقرأنا قصة نوح في مكانٍ آخرَ للمقارنة؛ لأنَّ القرآن يفسِّرُ بعضُه بعضًا:

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ "21-27المؤمنون" .

نلاحظ في هذه الآيات أسبقية ترتيب ركاب السفينة كما يأتي:

1. من كلٍّ زوجين اثنين.

2. أهله باستثناء من سبق عليه القول منهم.

3. بصورة مدهشة لم يذكر المؤمنين باللفظ، وإنَّما جعل حملهم يفهم فقط من التصريح بغرق الذين ظلموا.

في هذه الآيات أعماقٌ بعيدة و حقائقُ أخرى مهمة جدًّا تفسر الآيات السابقة، وتؤكد ما ذهبنا إليه من تأويل. نلاحظ أنَّ قصة نوح هنا قد أتت مباشرة بعد آيات أشارت إلى الأنعام بكلِّ وضوح، بل وخلقت رباطاً لُغوياً وموسيقياً و وظيفياً بين **الأنعام** و **الفلك** التي عليها نُحمل. ثم مضت مباشرة إلى قصة نوح، وخلصنا إلى أنَّ الله أمر نوحاً بأن يصنع الفلك ويسلك فيها من كل زوجين اثنين. الآية الأولى موجهة للإنسان عمومًا واشتملت على إشارة واضحة، ولكنّها غامضة لأهمية **الأنعام والفلك** في حياة الإنسان فعليها وعلى الفلك نُحمل، علمًا بأنَّ الإنسان العربي الذي خاطبه القرآنُ أولًا كان يسكن الصحراء، ولم تكن الفلك تؤدي أيَّ دورٍ في حياته، بالإضافة إلى أنَّ الأنعام التي نحمل عليها تشمل بالتحديد الماعز والخراف والبقر، ولا أحد - بطبيعة الحال- يمتطي عنزة أو خروفًا أو بقرة، وحتى سكان الصحراء أصبح ركوبهم الإبل من النوادر. هذه الإشارة الغريبة لركوب الأنعام سنتطرق إليها بشيء من التفصيل في باب " آذان الأنعام".

كلمة "**اسلك**" من "سلك" وهي تفيد نفوذ شيء في شيء. استعمال هذا اللفظ يوحي بأنَّ الحيوانات التي سلكها نوحٌ في السفينة كانت طيعة ذليلة، وهذه الصفة تنطبق على الأنعام فقط، إذ إنَّ الله ذللها للإنسان. و لا نظنُّ أنَّ حَمْلَ القِرَدَة والأسود والنمور وبقية الوحوش في السفينة يستقيم باستعمال لفظ "اسلك".

الآيات التي تلت ذكر الفلك والأنعام أوردت قصة نوح وحال الإنسان في عهده، ثم وصفت وظيفةً عمليةً للفلك التي تحدثت عنها الآية السابقة، والأمر لنوحٍ بأنْ يسلك فيها من كلِّ زوجين اثنين، أي الأنعام التي هي أصلاً جزءٌ من الخطاب في الآيات. هذه العَلاقة اللغوية بين الآيات تشبه العلاقة بين قول الله -تعالى- لموسى - عليه السلام-: {وما **أعجلك** عن قومك يا موسى قال **عجلت** إليك رب لترضى} في ذات الوقت الذي كان قوم موسى قد عبدوا **العجل** فيه، كما سنناقش ذلك بالتفصيل في باب "آذان الأنعام". ربّما يبدو هذا التأويلُ غريبًا على من لا يتدبر لغةَ القرآن وفنون الخطاب والتعبير فيه، ولكنَّ التأويل الأبعد - بكل تأكيد- هو الافتراضُ الذي يفسر {مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} لتشمل كلَّ مخلوقات الأرض، التي تحتاج لمئات السفن لتُحمل عليها إنْ لم يكن هناك استثناء؛ لأنَّ غابات أفريقيا وحدَها فيها الملايين من فصائل المخلوقات المختلفة، بلْهَ ما يمكن إضافته إليها من المخلوقاتِ المختلفةَ في غابات الهند والأمازون والقطبين الشمالي والجنوبي وصحارِيِّ العالم التي لا يعلم أسرارَها إلا الذي خلقها؛ الشيء الذي طاش فيه خيالُ اليهود فخلقوا قصة الأسد الذي أنزل الله عليه الحمى حتى يسهل حمله، ثمَّ جعلوا من سفينة نوح أسطورة أشبه بالسيرك أو حديقة الحَيَوان، ودارت فيها قصص بين الحيوان حازت على الاهتمام أكثر من رسالة نبيٍّ الله الذي هو من أولي العزم من الرسل كما رأينا في الرواية الإسرائيلية أنفاً، و التي تصف كيف خلق القط من أنف الأسد ليأكل الفأر وكيف بعَّـر الفيل خِنزيرًا وخنزيرة.

إنَّ صعوبة فهم نظام التطور وقانون "الاصطفاء الرباني" الذي صمَّمه اللهُ وبالتالي إدراك السِّر في آذان الأنعام، هو من ضمن ما وعظ الله نوحًا أن يكون فيه من الجاهلين؛ لأنَّه من صنف العلوم السابقة لأوانها، ليس لأنَّ فهمه يتطلب العلم بالقانون فحسب، وإنَّما لأنَّ العلم بالقانون نفسه يتطلب تأهيلاً للعقل البشري لمستوىً ما كان قد وصل إليه

في عهد نوح بعد. فلما وصلت القصة إلى بني إسرائيل شطحوا بخيالهم فيها للدرجة التي رأينا؛ لأنَّهم ما كان لهم أن يفهموا غيرها، وما كان لهم أن يتركوا كلماتِ الله من غير تحريف يشبع هواهم مهما كان مُضراً بالحكمة من القصة.

نلاحظ أيضا هنا أنَّ الاستثناء قد تمّ لأهله {وَأَهْلَكَ ألا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ}، ثم وصف الله غير المؤمنين هنا بـ {الَّذِينَ ظَلَمُوا}، ولكنّه لم يصرح بحمل الذين آمنوا، وإنَّما هو مفهوم من سياق الآية ومن تفسيرها بالآيات السابقة. وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال مشروع عن هُوِيَّة هؤلاء الذين سبق عليهم القول من أهله. هل سبق عليهم القول لكفرهم فقط، وهل هذا يعني أنّه لم يحمل من أهله غير المؤمنين أحدا؟ هذه الأسئلة يزيدها تعقيداً الوصف الذي وصف الله به ابن نوح في الآيات السابقة حينما أمره بأنْ يكون من الجاهلين {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ **عَمَلٌ** غَيْرُ **صَالِحٍ** فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}. هل كان ابن نوح هذا كافراً فقط، أو كان كافراً وكان من أمّ انحدرت من طريقٍ قدَّر الله له أن ينتهي نسله هنا كما انتهى نسل الذين حملوا مع نوح من المؤمنين؟ بمعنىً آخرَ فإن تعبير {إلا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ} ربما يشمل كلَّ من انحدر من مجموعة آدم من غير ذرية نبي الله آدم إلا الذين آمنوا منهم، وربما كان ابن نوح ذلك ينحدر من أمٍّ ليست من السلالة التي **تصلح** للاستمرار في سلم التطور، ولذلك لم يسعفه كونه فقط من ذرية نوح أن ينجو. إذنْ فيبدو أنّ نهاية مجموعة آدم (الملائم للتغيير) كانت في عهد نوح، فمَن آمن منهم حُمل مع نوحٍ ولكن لم تستمر ذريتهم في الإنجاب، ومن كفر منهم غرق، أمّا من حُمل مع نوحٍ فكان جميع أهله من آمن منهم ومن لم يؤمن ما دام ليس ممّن سبق عليهم القول واختلط بأصول من غير أصول نبي الله آدم المصطفى.

هذا الفهم الذي يفتح باباً واسعاً لكشف أسرار قصة نوح في القرآن، يستدعي أن ننظر في مدلول لفظ "أهل" من ناحية لغوية، إذ ربما يكون له معنىً أعمقُ من صلة القربى:

أهل: في المعجم تفيدُ التأهيل، ونقول: "هو أهلٌ لهذا المنصب" أي أنّه يمتلك الصفاتِ الخاصةَ التي يتطلبها العمل في هذا المنصب. ومنها جاء مفهوم الأقارب الذين "تؤهلهم" صلة القربى للسكن مع الشخص المعني، ولذلك يطلق عليهم "أهل بيتي".

فإذا أعدنا التدبُّرَ في الحوار بين نوح والله - عز وجل- فيما يخصُّ ابنه، فسنلاحظ أنَّ لفظ "أهل" استعمل لمعنيين مختلفين:

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ " نوح 45-46"

من هنا يتضح لنا جَليّاً أنَّ نوحًا ظنَّ أنَّ الله قد أمره أن يحمل أهله، أي أهل بيته وأقاربه بناءً على صلة القربى فقط؛ ولذلك ظنَّ أنَّ ابنه من ضمن من سمح اللهُ له أن يحمله، ولكنَّ الله أوضح له أنَّ ابنه، وإنْ كان من أهل بيته إلا أنّه ليس "أهلاً" للاستمرار لسبب آخر غامض على نوح وصفه الله بأنه {عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ}، أي أنَّه من أهل بيته، ولكنه ليس من "المؤهلين" وهم المقصودون بالاستثناء وليس الأقارب. ومن هنا نحتاجُ أن نفهم مدلول الألفاظ التي وصف الله بها عدم أهلية ابن نوح:

عمل: كل فعلٍ يُفعل.
كلمة "عمل": استُعملت في القرآن بمعنى "الخلق" حينما يكون الخلق بتدخل مباشر من الله - تعالى- كما في وصف خلق الأنعام: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ " 71 يس".

وخَلْقُ الأنعام - ولا شكَّ- متميزٌ، بل فيه تشبيه غامض بخلق الإنسان، إذ إنَّ الله ما وصف مخلوقاً بأنّه خلق بيد الله، أي بتدخله المباشر، إلا الأنعام والإنسان: ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ " 75ص" . من هذا يمكننا أن نستنتج أنَّ كلمة "عمل" في وصف ابن نوح لا تشير إلى أخلاقه أو عقيدته، وإنَّما تشير إلى أمر غامض في طبيعة خلقه وتكوينه الجسماني هو الذي وُصف بعدم الصلاح، أي أنَّها كلمة تصف تكوينه الجسماني وليس أعمال جوارحه من خيرٍ أو شر.
صالح: خلاف فاسد. و"الفساد": صفةٌ لحال الأشياء المادية وليست الخُلُقية والمعتقدات، أي أنَّها تختلف عن "الفسوق" التي تعني الخروج عن الطاعة. وقد وصف الله - تعالى- علاج زوج زكريا التي لم تكن تنجب بأنَّه "أصلحها" أي عالج علتها الجسدية:

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ **وَأَصْلَحْنَا** لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ " 89-90 الأنبياء".

فزوجته كانت امرأة صالحة بالمفهوم العَقَدِي والخُلقي و تسارع في الخيرات مع زوجها، ولكنَّ جسدها لم يكن "صالحا" للإنجاب من ناحية خَلقية قبل أن يصلحه الله.

من هنا نفهم أنَّ ابن نوح في خلقه وتكوينه الجيني المادي لم يكن "عملاً صالحاً" أي "**خلقاً معافى يصلح للاستمرار**"، ربما لأنَّه احتوى على صفات انحدرت من ذريةٍ من غير ذريةِ آدمَ المصطفى، غير "المؤهلة" لأنْ تستمر في تكوين الجنس البشري إلى ما بعد عصر نوح؛ ولذلك كان من ضمن من سبق عليهم القول بالنهاية هنا رغم أنَّه من أهل بيت نوح. ولمَّا كان الاستثناء قائماً على "اصطفاء" جيناتٍ محددةٍ لتُكوِّن الجنس البشري فيما بعد نوحٍ وهو ما أسميناه "قانون الاصطفاء الرباني" وأسماه داروين "قانون الانتخاب الطبيعي"، فقد كان من الطبيعي أن يكون نوحٌ جاهلاً به، وكان من الطبيعي أن يختلط عليه الأمر في التمييز بين "أهله" الذين هم "أهلٌ" للاستمرار و"أهله" الذين ليسوا "أهلا" للاستمرار، وكان من الطبيعي أن يأمره الله أن لا يسأل؛ لأنَّ عملية الاصطفاء الربَّاني هذه كان الهدف منها هو تأهيل العنصر البشري نفسِه ليصبحَ قادراً على فهم هذه الأسرار في خلق الله، والتي كان فهمُها سابقاً لأوانه في عهد نوح - عليه السلام - .

إنَّ الحكمة من سفينة نوح وما حُمل فيها أكبرُ من أن يكتشفها أيُّ إنسان، ولكنْ من غير الحكمة أن تتحول القصة إلى قصص أطفال وتسلية. وقد جعل الله - سبحانه وتعالى- لنا بعضَ الومضات في القرآن تضيء لنا هذا الظلامَ هنا وهناك، وترك لنا مِساحة أكبر للتدبر. فعَلاقة الإنسان بالأنعام فيها أسرارٌ لا تُعد، و سنناقش الكثيرَ منها في وقت لاحقٍ، ولكنّنا نظنُّ أنَّه من الحكمة أن نذكر هنا آية متميزة جمعت بين ما نفهم أنهما سُلما التطور اللذان يُقاس بهما مفهومُ التطور في الأرض:

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَـٰمِ أَزۡوَٰجًاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَىۡءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ "11 الشورى".

الآيات السابقة لهذه الآية منذ بداية سورة الشورى كلُّها تحتمل تأويلا يرتبط بقضية الخلق المتصل والتطور، ولكنَّ أبرز ما فيها أنَّها وصفت مفهومَ "أم القرى" وهي وسط الأرض الجغرافي والمغناطيسي، كما سنناقش ذلك في الباب الأخير "سدرة المنتهى"، وهي بالطبع المركز الذي بدأ عنده الخلق وتمت فيه كل مراحل التطور إلى أن نفخ الله في البشر ونقله إلى إنسان عاقل، وهي أيضاً المركز الذي نزلت عنده الأزواج الثمانية من الأنعام أول مرة. أمَّا في هذه الآية فقد أفرد الله أزواجنا في مقابلة فريدة مع أزواج الأنعام، ثم وصفت الآية استمرار نسلنا ونسل الأنعام في الأرض بوصفها آيةً من آيات تفرد الله بالخلق الذي لا يضاهيه خالق. ولمَّا كنا سنناقش هذه العَلاقة بين الأنعام وبقية الخلق في باب "آذان الأنعام"، فإننا نشير هنا فقط إلى الحقيقة البيّنة في القرآن، و هي أنَّ هناك علاقة خاصة جداً بين كلِّ الأحياء من ناحية والأنعام من ناحية أخرى، تجعلهما في مسارين متوازيين كخطي سكة حديد، الشيء الذي يؤكِّدُ ما ذهبنا إليه من أنَّ نوحًا حمل مجموعة محددةً من البشر "هي التي كانت تصلح من حيث التكوين الخلقي للتطور والاستمرار" ، وحمل من كلِّ زوجين اثنين من الأنعام وليس من كلِّ مخلوقات الأرض؛ لأنَّ آذان الأنعام تمثل المسار الموازي لمسار تطور الإنسان وتؤدي دوراً مباشراً في تطور خلق الإنسان واستمراره كما سنرى لاحقًا.

و حتى تتضح قصة نوحٍ والسفينة نلخصها في هذه النقاط:

1. اصطفى الله نوحًا من ذرية آدم المصطفى، وقدَّرَ أن يكون عصرُه هو بداية مرحلة جديدة من تطور البشر؛ لذلك كان مفهومُ التطور واضحًا في مقتطفات قصته في القرآن.

2. حمل نوح في السفينة كلَّ أهله بغض النظر عن إيمانهم وعدمه، ولكنَّه استثنى منهم من سبق عليهم القول. هؤلاء كانوا أهله الذين غلبت على تكوينهم أصولٌ من ذرياتٍ من غير آدم المصطفى، و قدَّر الله لها أن تنتهيَ أصلًا هنا. ومن ضمن هؤلاء كان أحد أبناء نوح الذي ربَّما كانت أمُّه من غير ذرية آدم المصطفى و فوق ذلك كان كافرًا. ولمَّا كان هذا الانتخابُ غريبًا على نوح ويصعب فهمه، فقد نادى ابنه الكافرَ ليركب معهم ظنًّا منه أنَّ كلَّ أهله مستثنون، ولكنَّه كان في علم الله من غير "المؤهلين" الذين سبق عليهم القول، ولا يصلح من حيثُ التكوينُ الخَلقي"عمل" في الاستمرار، فنصحه الله نصيحةً ما وردتْ في القرآن مع غيره وهي أن يكون من الجاهلين.

3. حمل نوح أيضًا من آمن به، سواء من ذرية المصطفى آدم أمْ من ذرية مجموعة آدم الذين هبطوا من الجنة بعد التطور، ولكن هؤلاء تم تقليل عددهم فى آية ولم يذكروا فى آية أخرى.

4. بعد أن جفت الأرضُ وهبط الجميع من السفينة قدَّرَ الله أن تستمر ذرية نوح "المؤهلة" فقط في التناسل، ليصبحَ نوحٌ أبا البشرية اليوم، وانتهى نسل كلِّ البشر سواه هناك. وبالتالي أصبح نوحٌ هو أبا البشرية الثاني، وأصبح كلُّ البشر من بعد نوح هم بنو آدم (رسول الله المصطفى) وأول الأنبياء.

5. لمَّا كانت الأنعام حيواناتٍ ذليلةً منزلةً للإنسان ولا تعيش إلا معه، ولها آذان لا تسمع بها وأعين لا تبصر بها بطبيعة خلقها، ولم تكن موجودة في الأرض إلا في المساحة الضيقة التي سكنها الإنسان، والتي كانت المكان الذي وقع فيه الطوفان- فقد أمر الله نوحًا أن يحمل ثمانية أزواج من البهائم، أي ذكر وأنثى من كلٍّ منها؛ حفاظًا على آذانها، وتأكيدًا على أنَّ طوفان نوح كان مرحلة حاسمة في تاريخ التطور، أي أنَّه حمل معه كِلا سُلَّمي التطور (الأنعام والإنسان) الذي نزل من السماء، والذي نبت من الأرض نباتا. وسيتضح لنا كلُّ ذلك بمزيد من التفصيل في باب " آذان الأنعام" إنْ شاء الله.

6. لا يوجد نصٌّ موثوق به من الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، ولا يوجد تصريح في القرآن أنَّ مركب نوح كانت مأوًى لجميع مخلوقات الأرض ودوابِّها وطيورها ممَّا شطح فيه خيالُ اليهود الذين كانوا آخرَ من يفهم الحكمة التي نصح الله نبيه نوحًا أن لا يسأل عنها، وتسربت تأويلاتُهم إلى مدارس المسلمين من غير تمحيص حتى كادت أن تصبح من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة. إذنْ فسفينة نوح حملت الإنسانَ وزوجين من الإبل "جمل وناقة"، وزوجين من البقر "بقرة وثور"، وزوجين من الضأن "خروف ونعجة"، وزوجين من الماعز "عَنْز وتيس" فقط.

فلا فِيلةَ ولا فيلَ بعًّرا خنزيرا وخنزيرة، ولا ثعالب، ولا أسدَ محمومًا حُمل في السفينة قسرًا، ثم استنشق فأرًا و فَأْرة فعطس هرا وهرة، ولا عقارب...

وحتى يتضح إلى أيِّ مدى كانت شطحات اليهود في البهتان على الله وعلى أنبيائه، نسوق وصف توراة اليوم لما آل إليه حالُ نبي الله نوح - عليه السلام - بعد هبوطه من الفلك بسلام:

{ واشتغل نوحٌ بالفلاحة وغرس كرمًا، وشرب من الخمر فسكر وتعرّى داخل خيمته، فشاهد حام أبو الكنعانيين عُري أبيه، فخرج وأخبر أخويه اللذين كانا خارجاً. فأخذ سام و يافث رداءً ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء إلى داخل الخيمة، وسترا عُري أبيهما من غير أن يستديرا بوجهيهما نحوه فيبصرا عريه. وعندما أفاق نوحٌ من سكره وعلم ما فعله به ابنه الصغير قال :" ليكن كنعان ملعوناً وليكن عبد العبيد لإخوته". ثم قال :" تبارك الله إله سام ، وليكن كنعان عبداً له. ليوسع الله ليافث فيسكن في خيام سام. وليكن كنعان عبداً له".}" سفر التكوين9:20-27".

حام هو أبو الأفارقة السود "الكنعانيين"، وسام هو أبو العرب واليهود وبعض الرومان، ويافث أبو الآسيويين الذين نتجت منهم لاحقاً العناصر الأوروبية البيضاء.

إنَّ قصص الرسل والأنبياء في القرآن ليست قصص أطفال، وإنّما هي مقتطفاتٌ من حال الأمم السابقة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتطور الفكري والعَقَدِي للإنسان، ولذلك فإنّ تدبرها بحكمة يعين على فهم العقيدة الإسلامية فهماً صحيحاً واكتشافِ مزيدٍ من معجزات القرآن.

نلاحظ من نص الآية التي أجملت مفهوم "الاصطفاء الربَّاني" في البشر أنَّ المرحلتين الأولى والثانية ارتبطتا باصطفاء فردي لآدم ونوح: {إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحًا...}، ولكنْ فيما بعد نوح جاء وصف الاصطفاء بصيغ جماعية: { وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ}، وهذا يؤكد فهمنا لقانون الاصطفاء، إذ إنَّه كلما تقدم الزمن

تراكمت الصفات الحسنة وتحققت الغاية من عملية الاصطفاء نفسها، ممَّا يجعل الاصطفاء يأخذ مدلولاتٍ أوسعَ كلما اتسعت دائرة الاصطفاء.

بعد هذا الفهم لاصطفاء الرسل، و بعد أن اتضح لنا كيف "تأهلت" الإنسانية جينيا وتراكمت التَّجَارِبُ والرسالاتُ وتدخل الله مباشرة لتنفيذ قانون "الاصطفاء الرباني" للتكوين الجسماني والخَلقي للبشر فيما بعد عهد نوح، لا بُدّ لنا من أنْ ندلف على خُطى أبي الأنبياء والرسل الذي اصطفاه الله، وربط سيرته ورسالته بقصة الخلق الأول وبتطور العقل البشري كطفرة جديدة من طفرات التطور واصطفاء الأمشاج التي تُكوِّن المخ والعقل، ليكون هذا النبيُّ المصطفى بدايةً لعهد الانطلاق الفكري والفلسفي لخليفة الله في الأرض، ومن ثمّ عهد إليه الله ليكونَ أول من يفهم و يكشف قصة التطور ويرث أرض آباء الإنسانية، ثمّ أمر الله نبيه الخاتمَ أن يتبع ملّتة حنيفا إذ إنّها تمثل الأساس العَقَدِي الذي اكتمل به الإسلام وارتضاه الله لنا دينا، فإلى **"مِلَّة إبراهيم".**

البـــــاب الـثامـن

مــلّـَــةَ إبـراهـــيـم

تـفاحـة نيوتن:

لا شك أنَّ معظم المثقفين المسلمين وغيرَهم يسمعون عن عالم الرياضيات والفيزياء "نيوتن" الذي تهتزُّ المحافلُ العلمية عند ذكر اسمه. ولكنْ ممَّا لا شك فيه أنَّ الكثيرين ينسَوْنَ أنَّ أشهر اكتشافات نيوتن، هي أنَّ التفاحة إذا انفصلت عن الشجرة الأمِّ فإنَّها تسقط على الأرض، وكأنَّ التفاح، و منذ أن كان آدمُ صبيًّا، كان يطير في الهواء عبر العصور والدهور إلى أن سقطت تفاحةٌ واحدة على رأس نيوتن ليصبح بملاحظته عالماً فذاً في الفيزياء والرياضيات.

أو أن جسد "أرشميدس" كان أولَ جسد يخفُّ وزنه في الماء، ليملأ الدنيا ضجيجًا باكتشافه أنَّ وزن الأشياء يخف في الماء.

المُمْعِنُ في اكتشافات هذين العالمين يجد أنَّ ما ميَّزَهما عن بقية الناس، هو قدرتهما على الربط بين ظاهرةٍ طبيعية يراها كلُّ البشر، و قانونٍ كبيرٍ من قوانين الطبيعة مسؤول عن هذه الظاهرة. فالتفاحة ما كانت لتسقطَ لولا وجودُ الجاذبية الأرضية، التي باكتشافها وقياسها والتحكم فيها استطاع الإنسان أن يطير إلى الفضاء السحيق. و ملاحظة انخفاض الوزن في الماء قادت لاكتشاف الكثافة النوعيَّة للمواد، التي قادت إلى ما لا يُعدُّ ولا يُحصى من الاكتشافات والصناعات وغيرهما.

ما نودُّ قوله هنا هو أنّ العقل البشري تطور مراحلَ سريعةً جداً لدرجة أنَّ البحث العلمي أصبح له مناهجُه وأساليبُه المتفق عليها عالمياً، وتُطبَّقُ في كلِّ مجالات الحياة من أحياء وفيزياء وكيمياء واقتصاد وسياسة، وحتى في الأدب والإعلام والعَلاقات الاجتماعية وكلِّ ضروب الحياة الحديثة. فالعقل البشري أصبح قادراً على الربط بين المسببات والأسباب، وتطويعها لخدمته للتحكم في الطبيعة بعد أنْ كانت الطبيعة تتحكم فيه.

إذا كان العلماءُ قد جعلوا نيوتن إماماً لهم فقط لأنَّه اكتشف وجود الجاذبية الأرضية من سقوط التفاحة على رأسه، فيمكنُنا أن نفهم لماذا جعل الله إبراهيمَ للناس إماماً. فقد كان إبراهيم أولَ من وصل إلى الله قبل أن يُوحي الله إليه، ظافرًا بذلك بالعقل البشري ليكتشفَ أسرار الخلق والخالق فقط باتباعه أسلوباً منطقيًّا وعلميًّا في تحليل الأحداث وربط الأسباب بالمسببات. وكان إبراهيم - عليه السلام- أولَ من كسر الحاجز الوهمي بين الدين والدنيا، ووضع منهاجًا للتدبُّرِ في مخلوقات الله ونظام خلقه للأشياء، ليكتشف آيات الله الكونية في ملكوت السماوات والأرض، ويجعل منها وسيلة لخَيْرَي الدنيا و الآخرة .

كان إبراهيم - عليه السلام - أول من افترض وجودَ الخالق بالمنطق، ثمَّ رفض قبول افتراض عدم وجوده بالمنطق أيضاً، ثمَّ بحث عنه بالتدبُّرِ في الأدلة و البراهين على وجوده إلى أن اتصل به اللهُ فجعله للناس إمامًا.

و الدارس لتاريخ الشعوب والأمم، والمتبحِّر في فلسفات الإنسان القديم والحديث وحضاراتهما، يلاحظُ - وبلا شك- أنّ كلَّ الحضارات ظلت حائرةً أمام ثلاثة أسئلة لم تجد لها إجابة؛ لأنَّها لا تقعُ في إطار البحث التجريبي، وإنّما يمكنُ فقط البحثُ فيها بالافتراض والتحليل الفلسفي. وقد انعكست حيرة الإنسان عبر العصور في غموض هذه الأسئلة في تدوينها بالمصوَّرات الدينية، والرسومِ الموجودة على الحجارة والكهوف والأهرام وكتب الفلاسفة والفنون وغيرها، ممَّا يثبتُ أنَّ هذه الأسئلة الثلاثة ظلت منذ وجود الإنسان معضلةً أمام جبروت عقله.

تلك الأسئلة لها عَلاقةٌ وطيدةٌ بفطرة الإنسان منذ أن صار قلبُه يقلّبُ ويمحِّصُ الملاحظات وستظل إلى يوم الدين. ولما كانت أيَّةُ إجابة لهذه الأسئلة لا يمكنُ أن تخضع للاختبار والإثبات بالتَّجْرِبة، فإنّ الإيمان بنتائج أيِّ بحث فيها يقوم على صحة أسلوبِ البحث وسلامتِهِ، ونزاهةِ الباحثِ وحرصِهِ على الوصول إلى حقيقة منطقية لا وهمية. تلك الأسئلة هي :

1. هل يوجد خالق لهذا الكون؟ وإنْ وُجد، فهل هو واحدٌ أم له شركاء؟

2. هل يمكن أن يُبعثَ الإنسانُ بعد موته ودفنه وتحلله؟

3. كيف وُجد الإنسانُ في هذا الكون؟ وهل تطور من قرد كما يقول الملحدون والرافضون لحقيقة وجودِ خالقٍ لهذا الكون... أم أنَّ الله خلقه في صورةٍ دنيا، ثم طوَّره إلى إنسان عاقل كما يقول علماء الأحياء، أم هل تم بناؤه في شكل تمثال من طين، ثم نُفخت فيه الروح، ثم أُخرجت زوجته من ضلعه كما يفهم أهل الديانات؟ وفوق هذا كلِّه، أين كانت جغرافيةُ بدايةِ الخلق أو التطور؟

كما قلنا في الفصول السابقة: إنَّ الإنسان بعد أن هبط من الجنة، صار يتعامل مع الطبيعة وَفقاً لقوانينها المادية، فتقهَرُهُ حيناً ويقهرها أحيانًا، ويتعلم منها ويعلّمُ أبناءَه عنها ويتقدم إلى الأمام. وفي كلِّ حينٍ وآخرَ يرسلُ الله له من البشر رسلاً وأنبياء؛ لتطويره مادياً واجتماعياً وروحياً وعقلياً ولتذكيره بالإله الواحد الأحد.

مع تراكم التجارِب وتراكم الجينات والأمشاج وازدياد صفائها ،تطور الإنسانُ تدريجياً وببطءٍ متجهًا من مخلوق يصارع الحياة والموت؛ بردود الأفعال إلى الإنسان التجريدي الذي يمكنه أن يتدبر في المسببات فيصل إلى الأسباب، إلى أن ظهر في الوجود ﴿ .... فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ۝٦٠ ﴾ ""60 الأنبياء"، وكان هو أولَ من وصل إلى الخالق بتدبره في أسرار الخلق قبل أن يرسل الله له ملكاً يُوحي إليه. وكان إبراهيم ـ عليه السلام- هو أولَ من وضع منهاجاً علمياً ومنطقياً للوصول إلى الخالق وأصل الخلق والحياة والموت؛ فاستحق بذلك أن يكون للناس إمامًا.

إنَّ دراسة حياة إبراهيم ـ عليه السلام ـ وشخصيته من القرآن لا تكتسب أهميتَها من كونه أبا الأنبياء فحَسْب، وإنَّما لأنَّه مثَّل مرحلة متميزة من مراحل الاصطفاء والتطور العقلي، وأنَّ الله آتاه فضلاً متميزًا، إذ إنَّه كان أولَ من أصبح شاهدًا على قضايا تُعَدّ من كُشوفِ العلم الحديث، وأنَّ الله ـ عز وجل ـ آتاه شرفَ أن يكون أولَ من يكتشف أرض الآباء ويمشي على خطاهم، ويكون أول من يدعو بني آدم للعودة لبيت الأجداد. وقد جعل الله ـ تعالى- عودة ذرية آدمَ إلى بيت آبائهم عبادةً منذ عَهد إبراهيم ـ عليه السلام- .

وقبل أن ندرس قصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ لا بُدَّ وأنْ نلفت الانتباه إلى أنّ القرآن ما قصّ قصة نبي في سياق واحد متكامل، إلا قصة يوسف ـ عليه السلام ـ لحكمة يعلمها الله، أمَّا فيما يخص بقية الرسل والأمم فالقرآن يقتطف لنا مقتطفاتٍ من أحداث حياتهم بقدر ما يهمنا أن نعرف كلما اقتضى السياقُ القرآني الإشارةَ إلى جانب معين من حياة نبي أو رسول.

فإذا أردنا أن ندرسَ حياة رسولٍ ونبيٍّ مثل إبراهيم ـ عليه السلام ـ، فيجبُ علينا إذنْ أنْ نرتّل آيات القران التي وصفت كلَّ جوانب حياته ترتيلا، أي نجمعها وندرسها في شكل أرتال بوصفها قصةً متكاملة؛ حتى تكتمل عبادتنا لله بالتدبر في آياته وفي حياة أنبيائه التي أراد لنا أن نعرفها. وقصة إبراهيم كبقية القصص وردت متفرقة لحكمة يعلمها الله ـ سبحانه وتعالى-، ونظنُّ أنَّ بعضًا من تلك الحِكَم أنَّ القصة نفسَها فيها أسرارٌ لا يمكن استيعابها إلا بمستوًى عالٍ

من تطور العقل، وتحتاج من المتدبر أن يكون مُلمًا بجوانبَ واسعةٍ من أسرار خلق الله وآياته الكونية، إذ إنَّ المخلوقاتِ تدل على الخالق بلا شك، ومَن جهل الخلق حتما سيجهل الخالق. ولما كانت قصةُ إبراهيَم غنيةً جداً بآيات الله الكونية فقد فرَّقها الله ـ تعالى- في القرآن؛ لتكونَ إعجازًا جديدًا من إعجازاته يوم ينجح الإنسان في ترتيلها و تجميعها وفكِّ ألغازها. وبذلك فقط تصبح القصةُ نفسُها نبراساً، يدل على أنَّ إبراهيم ما نال ذاك المقام الرفيع إلا لأنَّه استعمل عقله كما أراد الله له أن يستعمله.

أسلوب البحث عن الإلـه:

ولد إبراهيم ـ عليه السلام ـ في أرض العراق، و تربى في كنف رجل اسمه آزر كان مسؤولًا عن الإشراف على الأصنام التي يعبدها قومُه. وآزر هذا ليس بالضرورة والدَه الذي أنجبه، ولكنَّه الرجل الذي تربى عنده؛ لأنَّ الأب هو الذي يربي بغض النظر عن كونه والدًا أو لا. وعندما صار إبراهيم فتًى رفض فكرة عبادة الأصنام لنفسه واستنكرها على قومه، فقال لأبيه:

﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

" 74 الأنعام".

نلاحظ هنا أنَّ إبراهيم لم يستنكر فكرة الإله من حيث المبدأ، ولكنّه رفض فكرة الآلهة المتعددة، كما أنَّه رفض فكرة أنَّ الإله ـ أصلاً- يمكن أن يكون من صنع الإنسان كما تُصنع الأصنام. ويسرد القرآن قصة إبراهيم بالبحث عن الإله الحق بعد أن استخلص بعضاً من صفات الخالق التي يعرفُها الإنسان بالفطرة من التدبر في طبيعة الخلق، فاختار العلوَّ والديمومةَ و قدرةَ الخالق المطلقة على تبديد الظلام و تبديد الجهل كصفاتٍ أساسيةً لخالق الكون. ولأنَّ الخالق يجب أن يكون أعلى من المخلوق فقد اتجه ببصره أولَ ما اتجه إلى السماء؛ ليطبِّق افتراضاتِه العلميةَ في البحث عن الخالق بين كلِّ ما هو عالٍ :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ "75-78

الأنعام".

هذه الآيات تُدخِلُ الكثيرين من العلماء وغيرِ العلماء في حرج حينما يفسرونها، إذ إنّ المسلمين لا يختلفون على أنَّ الأنبياء لا يمكن أن يكونوا مشركين في أيّة مرحلة من مراحل حياتهم حتى قبل النبوة. هذه حقيقةٌ لا جدالَ فيها،

ولكنَّ ما يغيبُ عن معظم الناس هو أنّهم يقرءون قصص مَن قبلنا بمفهوم اليوم، وهذا خطأ منطقي كما ناقشنا ذلك في آية ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ .... ﴿٣٧﴾ ﴾ . لو تدبرنا في مستوى التطور العلمي والفكري للإنسان قبل

خمسمائة عام فقط، أي قبل عهد "جاليلو"، لعلمنا أنَّ الإنسان ما كان له أن يربط بين الأرض وبقية الكواكب في السماء بأيَّة عَلاقة منطقية؛ لأنَّ الأرض في نظر الإنسان حينها كانت أضخمَ ما في الوجود، وتبدو مسطحةً يمشي فيها شهوراً من غير أن يشعر أنَّها كروية، أو حتى يخطر على باله أنَّ جزءًا منها يغطيه الليل في نفس الوقت الذي يكون نصفها الآخر في وضح النهار. وما كانت الأرض في علم البشر المحدود حينها كوكباً كبقية الكواكب، إذ إنَّ مفهوم الكواكب والنجوم كان يشمل أجرامَ السماء البعيدة التي يراها الإنسان من الأرض، ولم يكن ممكنًا لأيِّ إنسان كائنًا من كان أن يتخيل أنَّ الأرض نفسَها تبدو كرةً صغيرة جدًّا سابحةً في الفضاء لو نظر إليها الإنسان من القمر مثلا. وكان في فهم الناس أنَّ أجرام السماء الصغيرة جدًّا - كما تبدو- تدور حول الأرض الثابتة. وبالطبع لم تكن الشمس في فهمهم هي مركزَ المجموعة الشمسية، وما كان لهم أن يخلقوا أيَّةَ عَلاقة بين الأرض والنجوم والشمس والقمر إلا ما يراه الإنسانُ البسيط وهي أنَّ الأرض هي دارُ حياتهم، وأنَّ كلَّ ما في السماء أمرُه مجهولٌ وغامضٌ وله هيبة ورهبة. من هذا المنطلق فقط، يمكننا أن نستوعب كيف يلجأ رجلٌ حكيمٌ وهو نبي الله إبراهيم قبل أن يأتيه الوحي للبحث عن الخالق بين النجوم. فالنجومُ كانت تمثل الموجوداتِ العاليةَ الغامضة التي تبدِّد الظلام وتشرف على الأرض من علاها، وهي فوق ذلك ليست من صنع الإنسان بل وأبعد من أن يصل الإنسان إليها أو يعرف حقيقتها. فعُلوّها وهيبتها وغموضها يمكن أن يكون السبب الذي جَعَلَ العقل البشري البسيط وهو يبحث عن الخالق، يظنُّ أنَّ الشمس والقمر والنجوم يمكن أن تكون نورَ السماوات والأرض.

و يبدو من سياق الآيات أنَّ إبراهيم - عليه السلام- طبَّق نظريته في البحث عن الإله في الكوكب ثم القمر ثم الشمس، لا لشيءٍ إلا لأنَّه إنَّما أراد إثبات الأمور بالمنطق، بمعنىً آخرَ ،فإنّه **لم يعبدها وإنّما اختبرها**. والأرجح أنَّ إبراهيم كان يضع أصولَ المنهج الجدلي العلمي للبحث عن الإله، وهو ما يُعرف بالإثبات بالنفي واتباع أسلوب الاستدلال، وليس العاطفة أو الاتباع الأعمى. فهو أثبت حتمية وجود إله أولاً، لأنَّه - أصلا- لم يدخل هذه الحتمية في إطار البحث، ثم رفض رفضاً مطلقاً قَبول فكرة الآلهة المتعددة والتي يصنعها الإنسان بيديه كما هو واضح من إنكاره على قومه عبادةَ الأصنام، ثمّ وَضَعَ صفاتٍ ساميةً للإله الحق، ثمَّ بدأ يطبِّقُ ذلك المنهج العلمي لنفي أُلوهية أعظم الموجودات بالمنطق وليس العاطفة، ولذلك روى لنا الله - تعالى- أسلوبَ بحثه؛ لأنَّه هو الأسلوبُ السليم في الوصول إلى الغيبيات.

بدأ إبراهيم يبحثُ عن الإله بأن ينظرَ إلى السماء بناءً على أولى صفات الإله الحق وهي العلو، فعندما رأى كوكباً عالياً في السماء افترض جدلاً أنَّه ربُّه، ولكنْ عندما أَفَلَ تناقض مع الصفة الثانية للإله عنده وهي استمرارية الوجود، وعندما رأى القمرَ ظاهراً ومضيئاً مبدداً ظلمة الليل عدَّ تلك الصفاتِ صفةً إضافيةً للإله، فأدخل القمرَ في إطار الاختبار العلمي، ولكنَّ القمرَ سقط في الاختبار وغاب. أتبَعَ ذلك بأن نظر إلى الشمس فرآها عاليةً ومضيئةً في النّهار بالإضافة إلى أنَّها كبيرة فأعطاها حقها من البحث، و لكنّها سُرعان ما سقطت كما سقط الكوكب والقمر في الاختبار قبلها.

هنا يمكننا أن نلاحظ التشابهَ في الملاحظة العلمية بين تفكير إبراهيم - عليه السلام- و تفكير نيوتن، فكلاهما خَلقٌ من خَلقِ الله، وكلاهما كان يتدبَّرُ في مخلوقات الله من غير توجيهٍ وحي يُوحي إليه. العَلاقة هنا هي أنَّ الكوكب والقمر والشمس تظهر وتختفي كلَّ يوم كما يسقط التفاح منذ الأزل، ولكنَّ الأسلوبَ العلمي في البحث كان استنباطَ العلاقة الإيجابية أو السلبية بين الأحداث التي تحدث و الأفكار والافتراضات التي افترضها العالم، فنيوتن افترض أنَّ هناك عاملاً غامضاً يدفع الأجسام إلى أسفل حينما تكون حرة في الفضاء، واكتشف هذا العاملَ فقط حينما سقطت تلك التفاحة على رأسه لأنَّه ربط بينه وبين سقوط التفاحة. ولأنَّ الجاذبية من خلق الله و يمكنُ دراستُها عملياً، فقد كان اكتشاف نيوتن من العلوم التي تفيد البشر، مسلمَهم وكافرَهم، بغض النظر عن إيمانهم أو عدم إيمانهم بوجود خالق للكون. أمَّا إبراهيم - عليه السلام- فقد افترض حتمية وجودِ خالقٍ للكون له صفاتٌ سامية، ثم بحث في أعلى الموجودات سمواً ،فسقطت في معايير بحثه فرفضها جميعاً بالمنطق، وخلص إلى أنَّ الخالق الحق لا يمكن الوصول إليه بالعقل البشري المحدود، فوجَّهَ وجهه للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا ولم يكن من المشركين.

أسلوبُ إبراهيمَ كان أسلوبًا علميًّا في البحث، ولكنْ لا يُعقل أنَّ إبراهيمَ كان قد رأى الكواكب أو القمر أو الشمس لأوَّلِ مرة في حياته حينما افترض تلك الافتراضات، ولا يُعقل أنَّه - وهو الذي نشأ وعاش حياته كلَّها في الصحارِي- لا يعرفُ سابقاً أنَّ الكوكب والقمر والشمس ستغيب بعد فترة، ولكنه - كما قلنا- كان يضع منهجًا علميًّا للبحث لا يقبل نفي أيِّ احتمال إلا بعد تجربته وإثبات عدم صحته.

من هنا يمكن أن نستنتج أنَّ الإنسان في تلك المرحلة تطور عقلُه وإدراكه للكثير من ظواهر الكون، إلى أن وصلت فطرته إلى أن ترفض عدم وجود الإله، و ترفض تعددَ الآلهة من غير الحاجة إلى وحي يُوحي إليه. وأول إنسان وصل هذه المرحلة من التطور هو إبراهيم - عليه السلام-، وقد وصف الله مرحلة التطور العقلي لإبراهيم بأنْ قال عنه:

﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ " 84-87 الصافات".

رب**:** لها ثلاثة معانٍ: الأول - إصلاح الشيء والقيام عليه ، ومنها الربُّ بمعنى الخالق لأنَّه مصلح أحوال خلقه، والثاني- لزوم الشيء للشيء ،والثالث- ضم الشيء للشيء .

قلب: لها معنيان: الأول- خالص الشيء وشريفه، والثاني - رد شيءٍ من جهة إلى جهة أي قلبه.
كان القلب قديمًا يفهم أنَّه استعمال مجازي ليشير للمخ الذي يظن الناس أنّه موضع العقل، ولكنَّ أحدث الدراسات العلمية تشير إلى أنَّ في القلب فتيلاً من الأعصاب الغامضة التي تتصل مباشرة بالمخ، وهي التي تتحكم في حركة المخ الفكرية، وتقلب بين صفحاتِه حينما يجتهدُ الإنسان في أمر ما. إذنْ فالمعلومات تخزن في المخ، ولكنَّ أعصاب القلب هي التي تقلبها وتخرج منها ما يبحث عنه الإنسان، والله أعلم.

نلاحظ من ألفاظ القرآن الدقيقة جدًّا أنَّ الله - تعالى- وصف قلب إبراهيم في تلك المرحلة، و هي سلامة العقل والتفكير، بصفة نكرة هي " قلب سليم" وليس "القلب السليم"، وكأنَّه يشير إلى أنَّ مفهوم "القلب السليم" لم يكن أمرًا شائعًا في زمانه بعد. أمَّا ربُّه هنا لا تشير إلى الله، إنَّما تشير إلى من تربى عنده كما ورد في سورة يوسف:

{وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ} "50 يوسف"، ويؤكد ذلك أنَّ القرآن قال عن إبراهيم إنَّه "جاء"، أما عندما يكون المجيء إلى الله فنجد أنَّ الكلمة المستعملة هي"أتى" بدلاً عن "جاء" لأنَّها تعني المجيء بطاعة، كما في آية {يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ* إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}" 88- 89الشعراء" ، والله أعلم. ولعلَّ الفهم السليم لهذه الآيات يؤكدُ أيضًا أنَّ آزرَ هو الرجل الذي ربَّاه وليس والده.

إذنْ ففطرة الإنسان السليم يمكن أن توصلَه إلى التَّيقُّن بوجود خالق للكون، كما تقوده إلى رفض تعدد الآلهة. وكانت هذه هي براهين سلامة قلب إبراهيم قبل أن يُوحي الله إليه ويجعله نبيًّا، أمَّا معرفة هذا الربِّ والتواصل معه فلا يمكن أن تتم من دون أن يتقدم الله ليرشد من آمن به بمكانه وصفاته وأسمائه وكيفية التواصل معه، ولذلك حينما وصل إبراهيم بقلبه السليم إلى هذه الحقيقة، واستطاع بالمنطق أن ينفي الأُلوهية عن أعظم الموجودات في الكون و أعلاها، علم أنَّ علم المنطق ينتهي هنا؛ لأنَّه من المنطقي أنَّ المخلوق أصغرُ من أن يكتشف الخالق، وإنّما فقط يمكنه أن يعرفَ بعض صفاته، وأن ينفيَ الأُلوهية عن مخلوقاته مهما عظمت. وقد أوضح القرآن أنَّ بحث إبراهيم ذلك كان نتاج تفكير مستمر، وتقليب للحقائق التي بين يديه، وتفاعل مع تلك الحقائق بكل أمانة وتجرد؛ لذلك نجد تعليقاتِه قد تدرجت كما يأتي:

لمَّا سقط القمر من قائمة الاحتمالات شعر بأنَّ الهداية لا بُدَّ وأن تكون من الخالق نفسه ﴿.....لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ ، ولما كانت الشمس أكبرَ النجوم في السماء، كان سقوطها في الاختبار هو سقوط كلِّ الافتراض... وعندها خلص إبراهيم إلى النتيجة المنطقية الصلبة ﴿ ....فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهۡتُ وَجۡهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ " 78-79 الأنعام".

نلاحظ هنا أنَّ إبراهيم لم يوجِّهْ وجهه لله؛ لأنَّه لم يعرف الله بعد بهذا الاسم، وإنَّما عرفه بصفاته الظاهرة، وهي أنَّه هو الذي فطر السماوات والأرض. و هنا تنتهي قدرة الإنسان في البحث في عالم الغيب، وهي رفض الشرك منطقًا وعقلًا بالفطرة، وإنْ لم يكن يدري من هو الذي فطر السماوات والأرض بعد. وهذا يعضد فهمنا لقول الله - جل وعلا- إنَّه يغفر الذنوب جميعًا إلا أن يُشرك به؛ لأنَّ الشرك تجاوز للفطرة التي فطر الله عليها كلَّ المخلوقات.

وهنا لا بد أن نوضح أمرًا بسيطًا من أمور العقيدة لكنَّه يخفى على كثير من الناس، وهو أنَّ الشرك لا يعني الجهل بصفات الله التي لا يصل إليها الإنسانُ بعقله المحدود، ولكنَّ الشرك يعني أن يمنح الإنسانُ - بمحض إرادته- صفات الألوهية الظاهرة إلى مخلوق يعلم حقَّ العلم أنَّه لا ينفعُ ولا يضر، إذ إنَّ في هذا التصرف تحقيرًا للخالق بقدر ما هو تحقيرٌ للعقل الذي منحه الله له؛ لأنَّ مثل هذا المشرك لا يحتاج إلى نبيٍّ يخبرُه أنَّ الوثن الذي صنعه بيديه لا يمكن أن

يكون في نفس الوقت هو من خلقه. ومن هذا نخلص إلى أنَّه لا يُوصف كلُّ مَن هو غير مسلم بالشرك، إذ إنَّ الكثيرين الذين نشأوا في مجتمعاتٍ يغلب عليها الشركُ رفضوا دينَ قومهم بالفطرة، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من الإسلام، ومن هؤلاء نجدُ الكثيرين في الغرب الذين رفضوا عقيدة الثالوث بالفطرة، ورفضوا فكرة أنَّ المسيح هو الله أو ابن الله، ولكنَّهم توقفوا هناك؛ لأنَّ أيَّ علم بعد هذه الخُطوة يحتاج إلى رسول من الله يهديهم أو رسولٍ من عند رسول الله يهديهم للإسلام، وهنا تقع المسؤولية على عاتق المسلمين الذين يجاورونهم.

وهنا لا بُدَّ أن نذكر أنَّ داروين- الذي ناله من المسلمين أكثر ممَّا ناله من النصارى- لم يكن مشركاً، بل إنَّ العكس هو الصحيح، إذ إنّه قد رفض عقيدة الكنيسة - آنذاك- لتعارضها مع مسلماتٍ عن حقيقة الكون الذي خلقه الله، وآثر أن يتبع المنطق والعقل على أن يردد طلاسم يمليها عليه رجالات الدين. فكلُّ الذي فعله داروين هو أنُّه وصل ببحوث أكاديمية في آيات الله الكونية - وهذا مجال اختصاصه كونه عالمَ أحياء- تتعارضُ مع فهم قومه، إلى قضية الخلق و أنَّه أعلن على الملأ أنَّ الإنسانَ نبت من الأرض نباتاً، و خُلق أطوارًا، تمامًا كما دعا نوح قومَه ليؤمنوا بهذه الآيات من آيات الله، ثمَّ واصل بحثَه في خلق الله إلى أنَّ وصل إلى مرحلة غامضة من تطور الإنسان، وهي المرحلة التي وصفها القرآن بـ ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ..... ﴿٢٩﴾ ﴾ فتوقف عن التفسير العلمي؛ لأنَّ تلك الملاحظة

كانت خارقةً لقانون الطبيعة، فسمَّاها داروين بكلِّ أمانة " الحلقة المفقودة" لأنَّها ما كانت لتُعرف إلا بوحي من الله، ولكنَّ المسلمين الذين كان يُفترض أن يقدِّموا له ولأمثاله القرآنَ الذي يفسِّرُ هذه الحلقةَ المفقودةَ - بكلِّ أسف - لم يقدِّموا له شيئًا إلا أنْ كفَّروه كما كفَّرته الكنيسة، علمًا بأنَّ من كَفَرَ بعقيدة الكنيسة رغم إيمانه بالله الواحد الأحد قد أصبح في زمرة المسلمين بفطرته.

نخلُصُ من ذلك إلى أنَّ إبراهيم كان أولَ من وضع منهاجًا علميًّا للوصول إلى الله، وحدَّد في منهاجه منتهى قدرة العقل منفردًا في البحث، وربَّما كان ذلك امتدادًا لنظام التطور الجيني والفكري الذي بُني به الإنسان، فظهر أولَ مرة في إبراهيمَ مبشرًا ببداية عهدٍ جديد للإنسانية وهو عهد سطوة العقل والمنطق.

بعدها تدخَّل اللهُ - تعالى- و أتمَّ لإبراهيمَ نتيجةَ بحثه وآتاه الرشد:

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ " 51 الأنبياء" . هنا رَجَعَ إبراهيم إلى

قومه بثقة العارف المتيقِّن المجادل: ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾

قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟

أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ " الانبياء 52-55 "... عندها أجابهم... ﴿ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ " 56الأنبياء" .

هنا نلاحظ أنَّ القرآن وصف إبراهيم بأنَّه صار شاهدًا على هذه الحقيقة لأنَّ الله قد أرشده إليها.

إذنْ فإبراهيمُ رفض أفكار قومه، واختار أسلوبَ البحث العلمي للوصول إلى خالق الكون، فوصل إلى أقصى نتيجةٍ سليمةٍ يمكن أن يصل إليها الإنسانُ بالفطرة السليمة، وبذلك كان سبَّاقا في الإجابة - بالمنطق- عن السؤال الأول الذي يرهق الإنسانَ في كلِّ مكان وهو حقيقةُ الإله الحق.

وقبل أن ننتقل إلى بحث عقلانيٍّ آخرَ من بحوث إبراهيمَ - عليه السلام – لا بُدَّ أن نشيرَ إلى أنَّه بعد أن عَلِم إبراهيمُ مَن هو الإله الحق، اتبع نفسَ الأسلوب الجدلي في نقل علمه إلى قومه المشركين، وهو أنَّه اجتهد في أن يدفعَهم للتفكُّر والتدبُّر:

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ " 57-67 الأنبياء".

نلاحظ من هذه الآيات أنَّ إبراهيم بعد أن عرف الإلهَ الحقَّ واكتملت له الرؤيا، دخل في جدال مستمرٍ مع سادة قومِه وعامتِهم، فلم يجد منهم إلا عناداً وحماقة؛ ولذلك لجأ إلى أسلوبه في الإثبات العملي وليس المجادلة النظرية فقط. هنا استعمل نظريتَه في نفي صفات الأُلوهية عن المخلوقات العاجزة، وطبَّقها على أصنامهم الصماء، وترك لهم دليلاً يستفِزُّ عقولَهم إنْ كانوا سيعقلون، وهو أن وضَعَ الفأس على رأس كبيرهم لعلهم يستحيون من ضيق أفقهم، وقد كان. إلا أنَّ الغرور والكِبر دفعهم لمعاقبة إبراهيم - عليه السلام- على أن يقبلوا الحقَّ المبين.

خلاصة القول: إنَّ تعامُلَ إبراهيم مع أخطر الأسئلة التي تحيِّر الإنسان وتفرق الشعوب والأمم، وهو موضوع العقيدة والإله الحق، كان في نظره سؤالاً منطقياً يبحث فيه الإنسانُ بالمنطق ويصل لنتائجه بالمنطق، وعليه أن يجادل قومَه فيه أيضاً بالمنطق. وإنَّنا لا نجد في ذكر الله - تعالى- لقصة إبراهيم هذه إلا إجازةً منه - سبحانه وتعالى- لهذا المنهاج بوصفه منهاجًا ربَّانيًّا في الوصول إلى الله والدعوة إليه - سبحانه وتعالى-، إذ إنَّه أمرنا أن نتبع ملة إبراهيم وجعلها صفةً ملازمةً للإسلام.

ولأنَّ قصة إبراهيم في القرآن ليست إلا مدرسةً فكريةً متعددةَ الفصول المعجزة، فقد قصَّ الله - تعالى- رائعةً أخرى من روائع قصص إبراهيم،لا لنجعلها من قصص الأطفال ونفسرها بأساطير"ألف ليلة وليلة"، ولكنْ لنتعلمَ منها دروساً علمية، وعِبَراً في التدبُّر والحوار لنقدِّر الله حق قدره....تلكم هي قصة إحياء الموتى.

إحياء الموتى:

كما أسلفنا فإنَّ القرآن لم يقصَّ علينا تفاصيلَ الحياة اليومية لأيٍّ من الرسل، وما كان إبراهيمُ استثناءً في ذلك، ولكنَّ من المؤكد بنص القرآن أنَّ إبراهيم -عليه السلام - دخل في خلافات وجدل مع قومه على كلِّ المستويات إلى أن ذاع صيته واشتهر عنه أنَّه أتى بدين جديد، وادَّعى أنَّه يعلمُ الإلهَ الحق، و وصف للناس الفرقَ بين الأوثان و هذا الإله الحق، ومن ضمن ما وصف أنَّ ربَّه وحدَه هو الذي يحيي الموتى. هنا لا بُدَّ أن نتوقف عند لوحةٍ قرآنيةٍ فنيةٍ رائعةٍ تحمل معانيَ كبيرة، وهي اللوحة ذاتُ الكلمات القليلة التي وصفت كيف ذاع صيته في قومه: قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتٗى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ هذه الكلمات تعكس أنَّ سيرةَ إبراهيم أصبحت على كلِّ لسان، وأنَّه - بطبيعة الحال- أصبح يشكِّلُ تهديداً على استقرار المجتمع المشرك. فإذا كان صيته قد ذاع لهذه الدرجة فمن الطبيعي أن يستشعرَ الملكُ وحاشيتُه خطورةَ الفتنة السياسية، خصوصاً إذا بلغهم أنَّ هذا الفتى بدأ يتحدث عن حياةٍ بعد الموت؛ لأنَّ مثل هذه العقيدة تهدِّد كلَّ ملك ظالم لا يُؤمن بيوم الحساب، وتعطي الناس أملاً في ظل عدالةِ قدسيةِ الأحكام والميزان . إذن لا غرابة أنَّ الملك استدعاه للدخول في حوار لعلَّه يحافظُ على عرشه وهيبته أمام الناس الذين يتداولون قصةَ هذا الفتى ...

قصةُ إبراهيم مع الملك فيها غموضٌ رائع؛ لأنَّ الغموض في القرآن - أحياناً- إنَّما يقصد به الله - جل وعلا - استفزازَ العقل للتدبُّر واستنباط الحقائق من غير أن يصرِّح الله بها، إذ إنَّ هذا تطبيقٌ عمليٌّ لمصطلح "ملة إبراهيم الحنيفية" أسلوب تمحيص الأدلة واختيار المنطقي منها}. وكثيرٌ من الجوانب الغامضة في القصص القرآني تصبح سهلةَ الفهم، بل ورائعةَ المعنى حينما نرتل القرآنَ ترتيلاً، أي ندرس الآيات ذات المعاني المتشابهة واللغة المتشابهة معاً كأنَّها أرتالٌ مرتَّلة.

ومضى القرآن يرسمُ لنا تلك اللوحةَ اللغويةَ الساحرةَ التي تحكي قصة إبراهيم مع مفهوم الموت والحياة:

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ

ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ

عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ ...... ﴿٢٥٩﴾ ﴾ " 258-259 البقرة" .

ولأنَّ مثل هذه الرائعةِ الفكريةِ والفنيةِ ليست من قصص الأطفال، وإنَّما كانت دروسًا وعِبَراً للنبي ولمَن قرأ القرآن إلى يوم القيامة، فمن الضروري أن نرسِمَ المشهدَ كما رسمه القرآن، ونميزَ كلَّ الشخصيات التي شاركت في الحوار حتى نستطيع استنباط أكبرِ قدرٍ من الحقائق التي أراد الله أن يعلِّمنا إياها من هذه القصة:

1. القصة روايةٌ من الله - سبحانه و تعالى- في القرآن، وليست حديثًا موضوعًا أو تأويلًا من مجتهدين. هذه الحقيقة قد تبدو بسيطةً لا تحتاجُ إلى أن تُذكر، ولكنَّ الواقع يقول إنَّها بسيطة كبساطة سقوط تفاحة على رأس نيوتن الذي غيَّر تاريخ العالم بها. نحن دائماً ننسى أنَّ الله حينما يروي لنا روايةً فلا يحقُّ لنا أن نفهمَها أو نفسرَها وَفْقاً لفهمنا القاصر؛ لأنَّنا بذلك إنَّما نفرض على الله جهلَنا وقصورَ فهمنا، وقد يقودنا ذلك إلى أن نُحَمِّل كلماتِ الله البليغةَ معنىً خاطئاً كما فعلت الإسرائيليات في تأويل التوراة.

2. الروايةُ موجَهةٌ للرسول - صلى الله عليه وسلم-، إذ إنَّها ابتدأت بـ" ألم تر...(يا محمد) إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه.....". وحينما يوجِّهُ الله - تعالى- الخطابَ للنبي بهذه الألفاظ فذلك يوحي بأنَّه لا يُصدر أحكامًا شرعية، وإنَّما يروي قصة ذاتَ فصولٍ وتفاصيلَ تستدعي الانتباه والخيال الخصب. هذا المدخل يوحي بأنَّ المستمع مطالَبٌ بأن يرسم اللوحة ويتخيلَ تفاصيلها حتى يكتمل الفهم، وفي الغالب تتبع مثل هذا المدخل صورة فيها حركة أو حقائق خفية يدعونا الله للتدبُّر فيها، مثالُ ذلك :

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَهُمۡ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ .... ﴿٢٤٣﴾ ﴾ " 243 البقرة".

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا .... ﴿٤٣﴾ ﴾ " 43النور" .

﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ "1الفيل".

3. الحوارُ دار بين ملكٍ عظيم في زمانه و نبيٍّ عظيم في كلِّ الأزمان، وبالتالي لا يحقُّ لنا أن نفترض أنَّ حوارًا سَاذَجًا يدور بين الرجلين بغض النظر عن اختلاف عقيدتيهما.

4. أتبع الله الحوار بلوحةٍ رائعةٍ أخرى ارتبطت بقضية إحياء الموتى؛ ليعضِّدَ الحقائق المذهلة التي سيوحي بها الحوار بين الملك وإبراهيم، ممَّا يؤكد أنَّ القصة لم تُروَ في القرآن لتضاف فقط إلى كتب الأطفال، وإنَّما هي قصةٌ تكشفُ أسرارًا علميةً خطيرةً تهم كلَّ مفكر وباحث في أسرار الكون والموت والحياة.

الظاهرُ من الحوار الذي دار بينه وبين الملك، أنَّ إبراهيم - والذي لم تكن بيده عصا موسى حينما حاجج فرعون - قد استعمل المنطق فقط في مجادلة الملك، ولذلك اختار من خصوصيات الإله الحقِّ انفرادَه بإحياء الموتى. ويمضي سياق الآيات ليُوحي بصورة غامضة وسريعة أنَّ الملك كَسَبَ الجولةَ الأولى في المحاججة، إذ إنَّ السياقَ القرآنيَّ انتقل

بسرعة ليعرض حُجَّةً أخرى من حُجج إبراهيم، وهي أنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق، وهنا فقط بُهت الذي كفر وكَسَبَ إبراهيم المجادلة. هذه السرعة في تداخل الأحداث توحي بمعلومة محذوفة، ولكنَّها جدُّ خطيرة و يخشى الناسُ الخوضَ فيها، وهي: لماذا لم يحاجج إبراهيم كثيرًا حينما زعم الملك أنَّه يحيي ويميت أيضًا، ولماذا سارع إبراهيم في استعمال حُجَّة أخرى أكثرَ إفحامًا ليكسب المناظرة؟ أيكون الملك قد صدق في إحياء الموتى في نظر إبراهيم؟

في المصحف توجد علامة "صلى" فوق كلمة "وأميت" التي قالها الملك، وهذه العلامةُ تفيد أنَّ التلاوة الصحيحة تمنع التوقف هنا، ممَّا يدلُّ على سرعة تداخل الأحداث. أيضًا نلاحظ عدم وجود أيٍّ من حروف العطف ولا حتى حرف الفاء الذي يفيد التعقيب و سرعة تداخل الأحداث، وكأنَّ الله يوحي إلينا أنَّ إبراهيم لما رأى ما رأى كان سريعَ البديهة لدرجة أنَّه ما ترك للملك فرصةً يهنأ فيها بكفره، فصدمه بالضربة القاضية من غير إضاعةِ وقتٍ في المحاججة في أمرٍ لم يكن لإبراهيمَ علمٌ به، غير أنّه غامضٌ ويستحقُّ البحث في وقت لاحق. بمعنىً آخرَ فإنَّ السياق القرآني يرسِمُ لوحة أو فيلمًا سينمائيًّا للحظة الحوار، يفيد أنَّ إبراهيم سارع في حُجته التالية فورَ ادِّعاء الملك أنَّه يحيي ويميت، ممَّا يدلُّ على أنَّ إبراهيم قد قبل حُجتَه .... أي أنَّ الملك أحيا ميتًا أمام إبراهيم .

وردت في كتب التفاسير رواياتٌ لا تعبِّر إلا عن ملاحظة المفسرين لغموض اللغة وعدم قدرتهم على فهم ما حدث، ممَّا جعلهم يلجأون إلى قصص افتراضية؛ حتى تحتملَ الآياتُ معنىً يناسب خيالهم، ويجنِّبهم الحرج من الخوض في معانٍ خطيرة كإحياء الملك للموتى الذي يبدو جلياً في الآية. وأشهر هذه الروايات :هي أنَّ الملك أتى برجلين فقتل أحدَهما وترك الآخرَ حياً ليُثبت لإبراهيم قدرتَه على أحياء الموتى، ولكنَّ في هذا المثال كثيراً من القصور، بل وفيه الكثيرُ من التقليل من قَدْر الملك الذي كان عظيماً في زمانه، ومن قدْر إبراهيم الذي ظلَّ عظيماً في كل زمان. فالردُّ المنطقي لهذا التصرف كان لو أنَّ إبراهيم طلبَ - وهو بارعٌ في الجدال- من الملك أن يحييَ الرجل الذي قتله وتنتهي المحاججة هنا من غير اللجوء إلى حُجَّة الإتيان بالشمس من المغرب. الظاهر - والذي لا مفرَّ منه - أنَّ الملك أحيا الموتى أمام إبراهيم، أو هكذا بدا الأمرُ لإبراهيم؛ لذلك انتقل بسرعة إلى حُجَّة أخرى أكثر إعجازاً ... ثم بعد ذلك ذهب يسأل ربَّه : ﴿ ...أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ....﴿٢٦٠﴾ ﴾ ممَّا يؤكد أنَّ الأمر كان مدهشاً له .

من المهم جداً أن نستوعب أنَّ القرآن يروي مقتطفاتٍ من القصة، ولكنَّه يترك لعقولنا إكمالَ التفاصيل لأنَّ في التدبُّر عبادة. و إذا أردنا أن نعطيَ مثل هذه القصة حقَّها، فلا بُدَّ لنا أن نستدرك أنَّ مثل هذا الحوار ما كان له أن يتم من وراء جُدُر و أبوابٍ موصدة؛ لأنَّ الملك كان حريصاً أن يثبت أحقيتَه في الملك، ويدحض حُجج إبراهيم أمام الملأ كما فعل فرعون مع موسى؛ لأنَّ هذا هو شأنُ الملوك حينما يهدِّد مفكرٌ عروشهم. إذنْ فمن المنطقي جداً أنَّ الملك كان مسلحاً بكامل حججه، وكان يعلم أنَّ إبراهيم سيحاججه في أمر إحياء الموتى؛ لذلك فقد أعد عدَّتَه فلمَّا رمى إبراهيم حُجَّتَه الأولى - كما رمى موسى عصاه- دحض الملكُ حجةَ إبراهيم فأحيا ميتاً أمام ناظريه، لذلك مضى إبراهيم من غير أن يلتقط أنفاسَه إلى الضربة القاضية فبُهت الذي كفر .

لا بُدَّ لنا هنا وقبل أن نُسوِّغ للقصة بتأويلاتٍ تتناقضُ مع ما علَّمَنا اللهُ من أسرار الموت والحياة، أن نستدرك مستوى ذكاء إبراهيم –عليه السلام - ، ونستدرك أسلوبه في البحث عن الإله والحوار مع قومه؛ لأنَّ الشخصية واحدة وأسلوب التفكير واحد. الملاحظة المهمة في هذا الحدث أنَّه كان حواراً فكرياً بين إبراهيم والنمرود لتبادل المعلومات والحجج ولكنْ لم تكن فيه معجزات، وفي مثل هذه الروايات فإنَّ أيَّاً من الأفكار قابلٌ للبحث وتمحيص الأدلة. ممَّا لا

شك فيه أنَّ إبراهيم - عليه السلام - دخل الحوارَ بمفهوم محدد عن الموت والحياة، وأنَّه كان يظنُّ أنَّ مفهوم الموت واحد، وأنَّه لا يحيي الموتى إلا اللهُ، لذلك كانت تلك أولى حُججه لِما فيها من مدلولٍ سياسي يقود إلى حياةٍ بعد الموت وحسابٍ يوم الحساب. غيرَ أنَّه لمَّا كانت قصة إبراهيم في القرآن تقصُّ علينا قصةَ حياةِ مفكرٍ متفتحِ الذهن، سريع البديهة، جريء في إبداء رأيه، فقد أوحت إلينا بهذه النقلة السريعة من موضوعٍ إلى آخرَ بأنَّ إبراهيم - وبسرعة البرق- عَدَّل من فهمه لقضية "الموت"، وانتقلت في قاموسه من قائمة المسلَّمات المحسومة إلى قائمة التساؤلات التي تحتاج لمزيد من البحث، غيرَ أنَّه لمَّا كان إيمانُه بالله إيمانَ نبيٍّ مُوقِن، فقد سارع إلى حسم الحوار بالضربة القاضية. إبراهيم كان يعلم أنَّ إحياءَ الموتى أمرٌ يخضع لقانون الطبيعة الذي خلقه الله، ولم يكن من حقِّه أن يفتريَ على الله ما لا يعلم، وإنَّما قرَّر حينها أن يسأل ربَّه ليعلِّمه المزيد في قضية الحياة بعد الموت ممَّا يؤكد أنَّ الملك أحيا الموتى، وأنَّ إبراهيم قد قبل أنَّ حُجة إحياء الموتى بفهمه القديم تحتاج لمراجعة وفهم جديد.

ولأنَّ رواية القصة كلَّها كانت وحيًا من الله - سبحانه وتعالى- موجهًا للنبيِّ - صلى الله عليه وسلم - فقد بدأه الله بمدخل خاص جدا: أ لم تر يا محمد إلى الذي حاجَّ إبراهيم في ربِّه.....فقد مضى القرآن، تأكيداً لما ذهبنا إليه، يُحدِّث محمدًا - صلى الله عليه وسلم - عن قصة أخرى من قصص الإحياء الربَّاني للموتى بعد هذه الآية مباشرة، و قبل أن يعود لقصة إبراهيم فيوحي لنا بما حدث أمام الملك:

﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ " 259 البقرة" .

هنا لابُدَّ أن ننتبه إلى أنَّ هذا السياقَ ترك قصة إبراهيم والملك جانبًا، ومضى يروي للنبي قصة أخرى مرتبطةً بإحياء الموتى. هذه القصة تشير إلى نبي الله عزير في بعض روايات المفسرين وإلى غيره في روايات أخرى، ولكنَّ ما يهمنا هو مضمونها القرآني الذي لم يفصح عن هُوِيَّة هذا الرجل. هذا التغيير في الموضوع يفيد أنَّ الله - تعالى- إنما قصَّ القصة ليوحي إلينا علمًا جديدًا نصحِّحُ به مفهومنا للحياة والموت، ولكنَّه لا يقصُّ علينا قصة إبراهيم والملك من باب الترف الفكري. فالآيات تدعونا لمراجعة فهمنا لمفهوم الحياة والموت من جذورهما. يمكن للإنسان أن يظنَّ - جهلًا- أنَّه يخلُق حياة جديدة إذا بذر بذوراً في الأرض أو حملت أنثى جنينًا ... وما تلك بحياة جديدة، إذ إنَّ الله هو الخالق من عدم، وأيضًا قد يظنُّ مَن ينقذ حياة من مرحلة موت كاذب أنَّه أحيا ميتاً، ولكنَّ ذلك ليس إحياءً للموتى وإنَّما هو إنقاذٌ لحياة كادت أن تزهق. هذه مفاهيمُ جديدةٌ توحي بها الآياتُ ليبقى مفهوم الموت والحياة الذي يختصُّ به الله

وحدَه أعلى من هذين الفهمين القاصرين. هذا التفسيرُ- بالطبع- يقود إلى الافتراض أنَّ إبراهيم - عليه السلام- سيقوم ببحث جديد في قضية إحياء الموتى.

إذنْ فالقصة كلُّها قُصِدَ منها إبراز قدرة الله على إحياء الموتى بعد تمام زوال الحياة والجسد الذي يحتويها، كما وصفت هذه الآية التي اعترضت قصة إبراهيم لتجعل موضوع القصة أصلًا هو: مفهوم الحياة والموت وليس الملك وإبراهيم .

من هنا يمكنُنا أن نستنتج أنَّه ربما كانت للملك قُدرات طبية تمكِّنُه مَن معالجة من كان في حالة موتٍ كاذب أو إغماءة أو غيرهما ممَّا كان يُظنُّ في زمانه أنَّه موت نهائي. في زماننا هذا فإنَّ كثيراً من الناس تتوقف قلوبُهم ويتوقف تنفسُهم، ولكنْ يمكن إفاقتهم من الغيبوبة بإجراءات طبية عادية تحدث في أغلب مستشفيات العالم. وأيضا هناك الكثيرون الذين يُدفنون أحياء في القرى والأرياف في الدول ذات الإمكانات المحدودة، فورَ توقف التنفس والقلب، ظناً من النَّاس أنَّ ذلك موتٌ لا رجعةَ منه، الشيء الذي لا يُعدُّ موتاً في معظم أنحاء العالم المتطور.

بعد هذه المداخلة القرآنية الرائعة التي أضافت إلى علم الإنسان - آنذاك- في قضية الموت و الحياة الكثيرَ المدهشَ، يعود السياقُ القرآنيُّ لقصة إبراهيم الذي كَسَبَ جولته مع الملك، ولكنْ بطبيعة المفكر الذي لا يلجأ لتأويلات قاصرة، ولا ينكر حُجَّة مقنعة وإنْ كان مصدرها ملكًا كافرًا. وتأكيدًا لِمَا ذهبنا إليه من تأويل، فإنَّ الآية التالية توحي بأنَّ إبراهيم وضع الأمور في نصابها، فلا هو أنكر حُجَّة الملك، ولا هو تزحزح في عقيدته الراسخة في أنَّ إحياء الله للموتى لا بُدَّ وأن يختلف كماً وكيفاً ممَّا شاهده أمام الملك، لذلك بدل المحاججة في أمر لا علمَ له به مضى إبراهيمُ الباحثُ المفكرُ إلى ربِّه حائراً يسأله :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ " 260البقرة" .

نستنتج من هذا أنَّ تجربة معالجة حالة الإغماءة التي كان يُظنُّ أنَّها موت أثارت فضول إبراهيم، وكان لا بُدَّ أن يصل إلى حقيقةٍ قاطعةٍ في أمرها. ولمَّا كان الله يعلم ما فعل الملك، وعلمَ شكوكَ إبراهيم، كان طبيعياً أن يكمل له الجزءَ الذي غاب عنه وحيَّره في القصة، ولذلك عندما سأل إبراهيمُ اللهَ :"رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى"، بيَّن الله لنا أنَّ ما احتاج إليه إبراهيم كان الاطمئنان وليس الإيمان، إذ إنَّ إيمانَه لم يتزعزع ولكنَّه فقط أدرك قصورًا في علمه. والاطمئنان هو السُّكون، وهذا يعني أن قلب سيدنا إبراهيم أو عقَله و فكرَه منذ أن رأى تجربة إحياء الميت أمامه صار في حالة حركةٍ واضطراب، أي أنَّه بدأ يسأل نفسه عن حقيقة الموت والحياة وحقيقة إحياء الموتى، وما حدود مقدرة الإنسان، وهل يمكن للإنسان أن يحيي الموتى أم أنَّ ما رآه سحرٌ أو خداعُ نظر؟ وفوق هذا كلِّه ما طبيعة مفهوم الحياة بعد الموت عند الله ؟ وقد علم إبراهيم أنَّ مثل هذه الأسئلة ما كان يجب أن يدعها تفسد الحوارَ مع الملك الكافر؛ لذلك غيَّر موضوع الحوار حينها إلى ملكوت السماوات الذي لا يمكن للإنسان أن يتدخل فيه، ثم مضى إلى العليم الخبير يسأله عن هذا الأمر حتى يطمئنَّ قلبُه.

نلاحظ أنَّ إجابة الله - جل جلاله- أصابت بيت القصيد لتجعل قلبَ إبراهيم مطمئنًا. فاللهُ - تعالى- لم يقل له : أحضِر طيرًا، واكتم أنفاسَه، ودعه جسدًا كاملاً ميتاً أمامك وأنا سأحييه؛ لأنَّ الله - تعالى- قد علم أنَّ إبراهيم رأى هذه التجرِبة أمام الملك، وهي التي أصابته بعدم الاطمئنان أصلا، لذلك انتقل به الله - سبحانه وتعالى- إلى تجرِبة لا يمكن أن يدخله فيها شكٌّ في مقدرة الله على إحياء الموتى كما وصفت الآيات.

قال له : أحضر أربعة من الطير وقطعهن قطعاً، واخلط القطع مع بعضها بعضاً، ثمَّ اجعل على كل جبلٍ كومًا، ثم ادعهنَّ يأتينك **سعيًا** أي قطعًا. عملية التقطيع والتوزيع على الجبال هذه تؤكد لنا أنَّ الله - تعالى- قصد أن يري إبراهيم مفهومًا مختلفاً لإحياء الموتى، يختلفُ كمًّا وكيفًا عن التجرِبة التي حدثت أمام الملك وأثارت دهشة إبراهيم - عليه السلام - . فكأنَّ الله يوحي إلينا أنَّ سرَّ الحياة الغامض يرتبط بجسد متكامل يعمل كوعاء يحتوي على تلك الحياة، وكأنَّه أيضًا يوحي إلينا أنَّ الحياة في الجسد يمكن أن تضطرب وتتعطل مؤقتاً، ولكنْ ما دام الجسد والوعاءُ الذي يحويها متماسكًا وكاملًا فإنَّ من الممكن -إذا عرف الإنسانُ أين تكمن العلة التي عطلت الحياة- إعادتَها لطبيعتها في ذات الجسد، وهذا ليس إحياءً للموتى وإنما إنقاذٌ لحياة كادت أن تنتهي. أما إذا تمزق الوعاءُ أو الجسد الذي يحوي الحياةَ فليس من جامعٍ له ولا رادَّ للحياة إليه إلا اللهُ، وهنا يتضح الفرق العلمي البسيط بين إحياء الموتى الذي ادَّعاه الملكُ وإحياءِ الموتى الذي وصفه الله - تعالى- في الآية التي كسا فيها العظامَ لحمًا، ثم الذي نفذَّه أمام عيني إبراهيم ليطمئنَّ قلبُه.

وهناك ملاحظة علمية مهمة أخرى في الآية، وهي أنَّ الله - عز وجل- أمر إبراهيم أن يجعل على كلِّ جبلٍ منهنَّ جزءاً، والمعروف أنَّ صعود الجبال أمرٌ منهكٌ ويأخذ ساعاتٍ، خاصة إذا كان إبراهيمُ سيصعد أربعةَ جبال على الأقل بعد أن قتل الطير وقطعهنَّ، وربَّما في ذلك إشارةٌ علميةٌ أبلغ وهي أنَّ الموت ثلاثةُ أنواع: الأول هو موت المخلوق ولكنْ لا يُشترط أن تكون أعضاؤه قد ماتت، وهذا ما يحدث في عمليات نقل أعضاء الموتى إلى المرضى الأحياء، إذ إنَّ نقل أعضاء الميت إلى إنسان حيٍّ في مدة زمنية محددة يمكن أن يحتفظ بحياة العضو المنقول وإنْ كان صاحبه قد مات. أمَّا النوع الثاني فهو موت العضو بكامله كالفشل الكلوي وغيرِه، وفي هذه الحالة لا يُشترط أن تكون الخلايا المكونةُ للعضو قد ماتت...أما النوع الثالث فهو مرحلة موت الخلايا الحية في الأعضاء الممزقة نفسِها، وهذا الموت يستحيل معه - على غير الله - إعادة الحياة لا إلى الميت ولا إلى الخلايا، وهذا الموت الخلوي يحدث بعد مدة طويلة نسبياً، ولكنَّها لا تقل بأيِّ حالٍ عن المدة الزمنية التي استغرقها إبراهيم ليصعد أربعة جبال ليضع أجزاء الطير فيها، فسبحان الذي خلق الموت والحياة وأنزل القرآن...

نحن نعيشُ في زمان وصلت فيه قدراتُ الإنسان في التعامل مع الموت إلى مراحلَ مذهلةٍ، إذ إنَّ بعض المرضى يظلون في أجهزة التنفس الاصطناعي سنوات وتظل أعضاؤهم في حالة حياة، فلا يُعقل أن نكون في حياتنا اليومية نتعامل مع الموت بهذا القدر من المعرفة، ولكنَّنا حينما نأتي لنتدبَّر آيات الله ونفسِّرَ ما دار بين إبراهيم والملك ننسى كلَّ ما توصل إليه الإنسانُ بقدرة الله من معرفة الكثير من أسرار الموت والحياة، ونسعى لتفسير مثل هذه الآيات بتأويلات ما كان لها أن تكون ذاتَ قيمة إلا في زمن كان فيه علمُ الإنسان عن الموت والحياة محدوداً جداً. الإصرارُ على مثل تلك التأويلات ليس من شأنه إلا أن يميت دينَنا وعقولَنا، ويخفي روعة القرآن وسبقه لكلِّ علوم الإنسان و اكتشافاته.

ولا بُدَّ أن نذكر هنا أنَّ المفسرين القدامى ما كان لهم أن يفسروا هذه الآيات إلا بما آتاهم الله من علمٍ محدودٍ في أمر الموت والحياة، ولذلك فإنَّ تأويلاتهم كانت مقبولة بقدر ما كان متاحاً للإنسان من علم بأسرار الموت حينها، أما نحن فعلينا واجبٌ شرعي وهو أن نعبد الله بقدر ما فضلنا به من علوم بأسرار خلقه وأسرار الكون.

نعود هنا لنذكِّر بأسلوب إبراهيمَ الجدليِّ وتعطشه لمعرفة الحقائق بصورة تقنع عقله، وإنْ احتاج الأمرُ أن يسأل الله - تعالى- أن يمارسَ أمامه بعضاً من قدراته الإلهية التي لا يراها البشر. ونلاحظ أيضا أنَّ الله - جل جلاله - لم يُنكر على إبراهيم السؤال، فإذا كان السؤال منطقياً فإنَّ الله يحب من يتدبر في صفاته وقدراته ويسأله مزيداً من العلم. فالملائكةُ تسأل، والرسل تسأل، فلماذا لا نسأل نحن إذا كان الله سيجيب؟ فقد رأينا أنَّه حتى الملائكة سألت الله عن الحكمة من خلافة آدم له في الأرض، فما كان من الله إلا أن جعل آدم يجيب عن هذا السؤال المنطقي. ويبدو لنا أنَّ واحداً من أهم أسباب تخلف المسلمين اليوم وأنَّهم أصبحوا غثاء كغثاء السيل، هو أنَّهم توقفوا عن التدبُّر في آيات الله وتحول القرآن عندهم لكتابٍ يتغنى به الناعون في المآتم، ولوحاتٍ فنيةٍ تزين مكاتب الناس و بيوتَهم من غير أن يقرءوا ما كتب فيها.

ولعلَّ هذه المداخلة تقودنا للتعقيب على سؤال موسى -عليه السلام- الذي سأل الله أكبر من ذلك، فما غضب الله عليه بل ولم يرفض الإجابة، وإنَّما أراه عملياً لماذا يستحيل عليه أن يراه. فقد سأل موسى اللهَ أن يدعه ينظر إليه، وهو طلب يدل على طبيعة موسى البشرية التي لا تختلف عن أيِّ بشرٍ آخرَ، إذ إنَّ كلَّ البشر يتساءلون عن الله ويتمَنَّوْنَ لو استطاعوا رؤيته، ولكنَّ الكثير من العلماء ورجالات الدين التقليديين يتهمون كلَّ من يخطِرُ بباله مثل هذا التساؤل بنقص الإيمان والتجرُّؤ على الله، الشيء الذي لم ينعكس في حوار موسى مع الله في ذات الموضوع كما ورد في القرآن. وقبل أن نرى ما دار بين موسى والله - تعالى- في القرآن من المفيد أن نراجعَ ذاتَ القصة كما وردت في توراة اليوم للمقارنة:

{وقال موسى :"أرني مجدك". فقال الرب: " أجيز إحساناتي أمامك ، وأذيع اسمي "الرب" أمامك . وأغدق على مَن أشاء ورحمتي على من أريد" ، وأضاف :" ولكنَّك لن ترى وجهي لأنَّ الإنسان الذي يراني لا يعيش". ثمَّ قال الرب: " لدي مكان قريب مني . فقف على الصخرة، وعندما يعبر مجدي، أضعك في نقرة من الصخرة، وأحجبك بيدي حتى أعبر، ثمَّ أرفعُ يدي فتنظر ورائي ، أما وجهي فيظل محجوباً عن العيان".} "سفر الخروج 33:19-23".

لا تخفى على أيِّ عاقل بصماتُ اليهود في تحريف التوراة، وإضافة فهمهم القاصر في ذلك الزمان لكلمات التوراة الأصلية، وتشخيصهم لله في جسدٍ أشبهَ بجسد الإنسان، وأنَّه فقط يستحيل رؤية وجهه وأمّا ظهره فيمكن رؤيته. والظاهرُ أيضاً أنَّ قصة الجبل كانت موجودةً في الرواية الأصلية، ولكنَّ التحريف غيَّرها إلى حفرة يُدخل اللهُ فيها موسى حتى يمرَّ ولا يبقى إلا ظهره، حينها فقط يرفعُ الربُّ يده ليترك موسى يرى ظهره، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

القرآن روى القصة بحكمة ربَّانيَّة معجزة:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ "143 الأعراف".

هذه الآية توحي بالآتي:

1. لم يستنكر الله سؤال موسى، ولم يعظه أن يكون من الجاهلين كما أجاب نوحاً، وإنَّما فقط أوضح له عَجَزَ البشرُ عن رؤية الله -عز وجل -.

2. أوضح له سبب تلك الاستحالة بتطبيق عملي بتجليه للجبل الذي اندك، فخرَّ موسى صعقاً.

3. لما كان اللهُ نورَ السماوات والأرض، والنورُ طاقة خارقة؛ فإنَّ استحالة رؤية البشر لله يمكن فهمها بمفهوم فيزيائي بسيط، مستنبط من طبيعة الجبل الذي اختاره الله ليكونَ محطَّ الأنظار في هذا البيان، إذ إنَّ الله - تعالى- قصد أن يُري موسى دليلاً عملياً وعلمياً على استحالة قدرة الإنسان على رؤيته Y ، وقصد أن يروي لنا ذلك الحدث وهو انهيار الجبل - بكلِّ صخوره ومعادنه- لما تعرض للطاقة الإلهية الجبارة، ربَّما لنفهمَ أنَّ طبيعة الإنسان لا تحتمل أن تتعرض مباشرة لنور السماوات والأرض وجلال الله. إذنْ فالأمر ليس أمرَ حلالٍ أو حرام، و مسموح به أو غير مسموح به، ولكنَّه يقع فقط في إطار الممكن وغير الممكن، مما يجعل السؤال جائزاً و لكنَّ الاستجابة مستحيلة نتيجة لعجز الإنسان بتركيبه الطبيعي. وسنعود لدراسة هذه القصة من زاوية أخرى في آخر هذا الكتاب في باب "سدرة المنتهى " إنْ شاء الله.

قصدنا من هذه القصة العابرة أن نؤكِّد أنَّ الأنبياء كانوا بشراً، ينتابهم فضول البشر ويسألون الله ما يشاءون، ويجيب الله أسئلتهم إذا كانت قدراتهم العقلية والجسدية تحتمل الإجابة من غير غضب أو زجر.

من هذا المفهوم العام لا بُدَّ لنا أن نفهم طبيعةَ إبراهيم – عليه السلام - المجادلة ورغبتَه المستمرة أن يفهم الأمور على حقيقتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا، السِّمة المميزة لإبراهيم التي لم تغضب الله –جل وعلا- بل أصبحت سمة من سمات نبوءته وشخصيته. وخلاصة القول، فإنَّ قصة إبراهيم مع إحياء الموتى علّمتنا الآتي:

1. إدخال مفهوم الموت الكاذب إلى محيط معرفة الإنسان- زمناً- قبل أن يصبح هذا المفهومُ من العلوم التي يتعامل معها كلُّ الأطباء.

2. التوضيح العلمي للفرق بين إنقاذ حياة كادت أن تزهق، الشيء الذي يمكن للبشر أن يقوم به لو أوتي العلم، و بعث الموتى بعد أن يصبحوا رفاتًا في الأرض ،الشيء الذي لا يقدر عليه إلا الذي بدأ الحياةَ من عدم.

ولما كان إبراهيمُ المفكرُ هو أولَ من سنَّ للناس هذا المستوى الراقي من التفكير والتدبُّر فقد اتخذه الله خليــلاً.

واتخـذ اللهُ إبراهيـمَ خليـلا:

إبراهيمُ خليل الرحمن، مقولةٌ شائعة، ولكنْ إذا سألنا ماذا تعني "خليل"؟ يكون الردُّ أسرعَ من التفكير في النهايات بأنَّ خليل تعني (صديق) ... وإذا سألت سؤالاً مباحاً: وهل للرحمن أصدقاء من الإنس أو الجن؟ يصعق المسؤول ببساطة وبديهيَّة السؤال، وغرابة إجابته، إذ إنَّ الله I يقول:

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَـٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ فَرۡدًا ﴿٩٥﴾ ﴾ "93-95 مريم" .

فكيف إذنْ يكون العبدُ صديقاً لسيِّده ومالكه؟ وهل يُعقل أن يتخذ الرحمنُ إبراهيمَ صديقاً، ولا يتخذ خاتمَ الأنبياء وصفوةَ الرسل الذي حفظ لنا قرآنه وسنته، وما كنَّا لنعرفَ عن إبراهيمَ – عليه السلام - نفسِه شيئاً لولا اصطفاء محمد - صلى الله عليه وسلم - لحمل أعظم الرسالات وختامها المسك؟

حتى نصحِّح هذا الفهمَ الشائعَ لابُدَّ أن نتعرَّفَ إلى عقلية الإنسان في ذلك الزمان؛ لنفهمَ كيف اتخذ اللهُ إبراهيمَ خليلاً كما في قوله:

﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾ ﴾ "125 النساء" .

قلنا: إنَّ الله - تعالى- ظلَّ يرسل الأنبياء لتعليم الإنسان كيفيةَ التعامل مع قوانين الطبيعة، بنفس المستوى الذي يكلِّفهم فيه بتطوير البشرية روحياً وخُلُقياً، ويربطونهم بخالقهم وآخرتهم. على أنَّ رسالات الرسل اختلفت باختلاف الزمان والمكان، واختلافِ معضلة المجتمع الروحية والعَقَدِيَّة من ناحية، وحوجائه المادية والدنيوية من ناحية أخرى. فبعض رسالات الرسل احتوت على علوم دنيوية كانت بمثابة طفرة كبرى ولكنَّ فائدتها كانت محسوسةً لأقوامهم فقط، وما كان لفائدتها أن تدوم أو حتى تتعدى قوم الرسول المعني، بينما بعض الرسالات اشتملت على علوم ودروس وطفرات تفيد البشرية في كلِّ زمان ومكان. وحتى يتضح هذا المعنى يجب أن نضرب أمثلة ببعض الأنبياء قبل وبعد سيدنا إبراهيم لنقارن بين محتويات رسالاتهم:

1. رسول الله نوحٌ عليه السلام علَّمَ قومَه صناعة الفلك، ولكنَّ هذه الطفرة العلمية تفيد فقط من يسكنون السواحل.
2. رسول الله إدريسُ عليه السلام علم الإنسانَ الزراعةَ في مصر، وهذه فائدة عامَّة لكلِّ البشر، نقلت الإنسانَ من مرحلة الاعتماد على رحمة الطبيعة إلى مرحلة تسخير الأرض والطبيعة لتأمين غذائه.
3. رسول الله يوسفُ عليه السلام علَّم قومَه تفسيرَ الأحلام، وإدارةَ الكوارث...وأيضاً لا تفيد إلا قلة.
4. رسول الله داودُ عليه السلام علَّم قومَه صناعةَ الحديد، وأيضاً هذه الطفرة تفيد فقط من يتعاملون مع الحديد.
5. رسول الله سليمانُ امتلك الجنَّ والريحَ ، ولكنْ... زال كلُّ سلطانه بموته.

6. رسول الله عيسى بن مريم عليه السلام أحيا الموتى وعالج أمراضاً مستعصية بإذنْ الله، ولكنَّ فائدة معجزاته انتهت بنهاية عهده....... وهكذا.......

فماذا قدَّم إبراهيم - عليه السلام- إلى البشرية ليستحقَّ أن يتخذه الله خليلا؟

كما قلنا: إنَّ الإنسان تطور عقلُه تراكميًّا وَفْقًا لطبيعة الأمشاج الوراثية التي من خواصها انتقاء الأفضل، وإحداث طفرات جينية تورِّثُ الجيلَ الجديدَ صفاتٍ أنقى من الجيل القديم. وأيضًا تراكمت خبرات الإنسانية التي توارثتها جيلاً بعد جيل؛ نتيجة تعاملهم العشوائيِّ مع الطبيعة وقوانينها، على أنَّه إلى عهد إبراهيمَ - عليه السلام- لم تكن لدى الإنسان وسيلةٌ أو منهجٌ علميٌّ يمكن عن طريقه دراسة واقعه وتطوير نفسه بصورة علمية ومبسطة.

حاجة الإنسان في ذلك الزمان - وفى أيِّ زمان- إلى أسلوب علمي للتفريق ما بين الحقيقة والوهم في التعامل ما بين الطبيعة والإنسان من ناحية، وما بين الإنسان والإنسان من ناحيةٍ أخرى، كانت مُلِحَّة جداً. ولكنَّ مثل هذه الطفرة العقلية تحتاج إلى مفكر أو فيلسوف يكون مدرسةً وحدَه؛ ليقوم بهذه الطفرة الفكرية في تاريخ الإنسان الذي أصبح عقله قابلاً لمثل هذه النقلة الكبيرة في أسلوب التعامل مع الواقع. وهنا بعث اللهُ إبراهيمَ رسولا، وكان من أهم صفاتِ رسالته: أن يخاطبَ العقلَ البشريَّ، ويحرِّرَه من الجهل والأساطير، و يعلِّم الإنسانَ منهاجًا علميًّا "يفرج" به بين الحقيقة والوهم، كما رأينا في جوانبِ حياة إبراهيم التي درسنا، فاتخذه الله خليلا.. فما ذا تعني (خليل)؟

" **خل** " لها معنى واحد وهو: الشيء الذي تتقارب فروعه، ومرجع ذلك إمَّا إلى دقة أو فرجة كما ورد في معجم مقاييس اللغة، وإنَّما سمِّي الصديقُ خليلًا لتقارب الصلة بين الصديقين وضيق الفرجة بينهما. و"**الخلل**" هو الفرجة ما بين الخطأ والصواب، ولذلك حينما يقال إنَّ هذا الجهاز فيه خللٌ، يقصد أنَّ فيه علةً صغيرةً أو فرجةً ضيقةً. و"**الخلال**" هو: المشط الذي يستعمل لتفريج الشعر من بعضه. إنْ كان هذا هو معنى كلمة خليل في اللغة فكيف كان إبراهيم خليلًا، وخليلًا لمن؟

رأينا - فيما سبق- جوانبَ من قصة إبراهيم، وكيف أنَّه استطاع أن يصل إلى الله ببحثه العلمي فقط قبل أن يوحي الله إليه، ثم أنَّه قَبِل - بلا مجادلة- إمكانية إحياء الإنسان لبعض حالات الموت الكاذب، ولكنَّه ميَّز بين هذا الإحياء والقدرة الإلهية لجمع العظام ولَّم اللحم وإعادة الحياة من عدم. نفهم من ذلك أنَّ الله قد أرسله للناس بالأسلوب الذي يعلمهم خلق "**فرجة**" مابين الحقيقة والوهم، خلق فرجة ما بين الخطأ والصواب، ورحمة بالإنسانية اتخذ اللهُ إبراهيم خليلا. هنا فقط يمكن أن نكتشف الخطأ اللُّغوي ونعرف أنَّ إبراهيم ليس خليلًا للرحمن "بمعنى صديق"، وإنَّما خليل من الرحمن للإنسان يعلمه كيف يستعمل عقله في اكتشاف الأسرار والتمييز بين الحقيقة والوهم. وقد سمَّى الله - سبحانه وتعالى - مدرسة إبراهيم الفكرية تلك "بالملة الحنيفية"، وأمر نبيَّه الخاتمَ والمسلمين أن يتبعوا ملته تلك.

مِلَّــــة إبْرَاهِيــــم:

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ **مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا** ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ "120-123 النحل".

ملَّ: لها معنيان أحدهما تقليب الشيء، والآخر غرض من الشيء. ومنها يتململ على الفراش، أي يتقلب.

الحنف: الميل . و يتحنف: أي يتحرى أقوم الطريق.

إذنْ، فما ملة إبراهيم الحنيفية؟

إنَّ الملة هي تقليبُ الشيء بحثًا عن غرض فيه، والتحنف هو التمايل لتحري الطريق القويم.

إذنْ، فالملة الحنيفية، هي: تقليبُ الأشياء بحثًا عن غرض محدد هو الحقيقة، ولأنَّ الحقيقة نفسَها نسبية في الزمان والمكان، فإنَّك دومًا تحنف عنها عندما تشبع حاجياتك النسبية منها إلى حقيقة أخرى أيضًا تكون نسبية... وهكذا... هذا الأسلوب "الملة الحنيفية"، هو ما يطلق عليه أهلُ الفلسفة حاليًّا "الجدلية"، وهو الأسلوب الذي قد استغله إبراهيم - عليه السلام - للتفريج ما بين الحقيقة والوهم، وما بين الخطأ والصواب....فكيف تنطبق هذه المعاني على ما عرفنا حتى الآن من سيرة إبراهيم؟

بحث إبراهيم عن خالق هذا الكون ... وجد الأصنام أمامه، ململ حقيقة الإله والأصنام في عقله فلم يجدها تتفق مع صفات الإله الحق الذي خلق كلَّ الكون، فحنف عنها، وقال لأبيه وقومه: ﴿ .... إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٧٤﴾ ﴾. ثم بدأ رحلة بحث طويلة .... رأى الكوكب عالياً في السماء، حنف إليه وافترض أنَّه ربُّه، أفل الكوكب، ململ الفكرة في عقله، رفض الكوكب. وقَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفِلِينَ... فرأى القمر بازغاً، فحنف إليه.. أفل القمر ..ململ الفكرة في عقله باحثاً عن الحقيقة ....قَالَ : لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ...رأى الشمس بارزة وكانت أكبر، حنف إليها..أفلت...تململ...ولأنَّ قلبه سليـــم، **لم يحنف إلى الشرك**، إنَّما قال لقومه : ﴿ .... يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ "78 الأنعام".

إلى هنا تدخَّل اللهُ فهداه إليه وأرشده إلى حقيقة الربوبية؛ ليكونَ شاهداً على إجابة السؤال الأول الذي يطْرَأُ على بال أيِّ إنسان: مَن خالقُ هذا الكون؟!

جادله الملك في الربوبية، وكان يعلم - حقيقةً- أنَّ الله يحيي الموتى، وعندما عالج له الملك أمامه جسداً كاملاً وأجلسه أمامه، حنف عن حقيقة أنَّ الله يحيي الموتى وهم بكامل هيئتهم، ململ الفكرة في عقله، ولجأ إلى الله مباشرة، وأراه بالتجرِبة عمليةَ إحياء الموتى وهم قطع منتشرة على قمم الجبال، ليكون أولَ إنسان يرى عملياً إعادةَ الحياة في جسد ممزق، ويشهد بنفسه على السؤال الثاني الذي يؤرق بالَ الإنسانية، وهو إمكانية الحياة بعد الموت ويكون عليه من الشاهدين...... وبذلك يكون إبراهيم – عليه السلام - "بملته الحنيفية" قد وصل إلى نصفِ الحقيقة في اثنين من ثلاثة الأسئلة التي ظلت الإنسانية على مر العصور تبحث عن إجابة لها، وهي:

1. من خالق هذا الكون؟
2. هل هناك حياة بعد الموت؟
3. كيف وأين بدأت حياة الإنسان؟

إذنْ من دراسة سيرة إبراهيم – عليه السلام - وبالتدبُّر في اللغة التي روى الله لنا بها قصته، يتضح لنا أنَّ إبراهيم كان دائماً حريصاً على **خلخلة** الباطل بإحداث **فرجة** تشكك فيه، وتحرر العقل من سلطان الجهل والخرافة إلى حرية الفكر، حتى يتسرب نور الحق إلى عقول الناس. وما المثال الذي قصَّه القرآن من تحطيم الأصنام إلا كبيرٌ لهم، و ما استفزازه لقومه بتوجيه التهمة لكبير الأصنام التي لا تضر ولا تنفع إلا أبلغ مثال لهذه **الخلخلة** للباطل في عقول الناس. فضلاً عن أنَّ مدرسة إبراهيم الحنيفية تلك لم تكن مدرسة تفيد قومه فقط، وإنَّما كانت بدايةَ تحرُّر الإنسان من الخرافات إلى حرية التدبُّر في ملكوت السماوات والأرض، وعبادة الله بفهم آياته الكونية ونظام خلقه الذي مهَّد لتطور البشرية في دنياها، ومهَّد أيضاً للرسالات السماوية العظمى التي انتهت بمسك الختام على خاتم الأنبياء والمرسلين.

وقبل أن ننظرَ كيف تعامل إبراهيمُ - بملته الحنيفية - مع السؤال الثالث، وهو أصل الخلق و جغرافيته، لا بُدَّ أن نجد قاسماً مشتركاً يجمع بين إجابته عن السؤالين أعلاه، فالواضح أنَّ هذه الأمور الثلاثة أمورٌ غيبية لا يمكن للإنسان أن يصلَ إلى إجابة تامة عنها وحدَه؛ لأنَّها تدخل في إطار الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ولكنَّ ملة إبراهيم وحنيفيته كانت قد صنعت السؤال أولاً، ثمَّ خلقت الأسلوبَ العلميَّ للبحث عن الإجابة عنه إلى أن أتم الله له الإجابة التي ما كان لبشر أن يُتِمَّها وحدَه.

ففي قضية البحث عن الخالق، رفض إبراهيمُ مبدأ عدم وجود خالق، ثمَّ رفض الشرك ورفض الأصنام، واختبر الكوكب والقمر والشمس، فلمَّا سقطت كلها في نظره وجَّه وجهه للذي فطر السماوات والأرض من غير شرك. وهنا فقط أكمل الله له صلته به وكلَّفه بالرسالة .

أمَّا في قضية إحياء الموتى فهو لم يتنطع ويحاجج الملك الذي أحيا من ظنَّ أنَّه ميتٌ أمامه، وإنَّما حسم المناظرة بالضربة القاضية بعيداً عن جدل لا يفيد في أمر إحياء الموتى، ثمَّ توجه مباشرة هذه المرة إلى الله يسأله عن كيفية إحياء الموتى، إذ إنَّه الآن على صلة مباشرة بالله، وإنَّ أمر إحياء الموتى من الغيبيات التي لا يعلمها إلا اللهُ .

أمَّا في قضية بَدء الخلق ومكان الإنسان الأول، فكان الله - تعالى- هو الذي ابتلى إبراهيمَ **بكلماتٍ،** فأتمهنَّ إبراهيمُ بنضج عقله وقدرته على ربط الحقائق؛ فجعله الله للناس قاطبةً إماماً ... إذ إنَّ مَن اتبع إمامته في أمور دينه اهتدى لما اهتدى إليه، ومن اتبع إمامته في أسلوبه المنهجي العلمي في البحث عن الحقائق كما فعل نيوتن وداروين استفاد وأفاد الناس في دنياهم ... من هنا نفهم لماذا جعله اللهُ للناس إماما وليس للمؤمنين فحسب . ولأنَّه كان إمامَ كلِّ الناس فقد كلفه الله بتطهير البيت العتيق، وآتاه شرفَ دعوة الإنسانية للعودة إلى بيت آبائهم إلى يوم القيامة: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا} فإلى باب "**المــثـــابــة**" .

البــــاب التـاسع

المَــثَابَـــة

رأينا - ممَّا سبق- أنَّ أبرز مزايا قصة إبراهيم -عليه السلام- وسيرته في القرآن هي العقلانية البحتة، والعزم الذي لا يلينُ في البحث عن الأدلة والبراهين، و اتباع أسلوبٍ منهجيٍّ للوصول إلى الحقائق. و لمَّا كان الله - تعالى- قد جعل مِلّة إبراهيم هي مِلّة الإسلام ؛ فإنَّ الدين الإسلامي بهذا يكون ديناً عقلانياً، لا مكانَ فيه للسذاجة والتبعية العمياء لأفكارٍ أو مفكرين يتخوفون من مواجهة الحُجج، ويظنونَّ أنَّ الوصول إلى الله يتمُّ بالعواطف والعنصريات وغضِّ الطَّرْفِ عن الحقائق الكونية البيِّنة.

ولعلَّ الله - جل جلاله - وهو يروي لنا قصة إبراهيم الذي سمَّانا المسلمين من قبل، إنَّما أراد لنا أن ندرس كلَّ جوانبِ حياته، ونتابع تطور عقله وفكره بعيداً عن المعجزات التي تميِّز بقية الرسل؛ لأنَّ رسالة إبراهيم كانت للناس كافةً كما كانت رسالة الحبيب محمد، وعلى خُطاهم يمكن للبشرية أن تمشيَ وتصل إلى ذات النتائج التي وصلا إليها، من غير معجزاتٍ غيرِ معجزة العقل البشري. فإنْ كانت رسالةُ الحبيبِ محمدٍ هي خاتمةَ الرسالات للناس كافة؛ فإنَّ في رسالة إبراهيم حُجةً على كلِّ الناس إلى يوم القيامة مهما كانت معتقداتهم وأجناسهم، طالما أنَّهم انحدروا من نبيِّ الله آدمَ وسكن آباؤهم أول بيت وضع للناس، ذلك البيت الذي أعادهم إليه إبراهيم -عليه السلام- زمناً قبل ختم الرسالات .

قصة إبراهيم مع البيت فيها نوعٌ من الإعجازِ الفنيِّ في القرآن لمن يتذوقون الفنون، فالبيت العتيقُ هو رمزُ الله في الأرض، و مَن زاره زاده الله إجلالاً وإكباراً. و البيت يزداد إجلالاً و إكباراً بزيارة الحجيج، ولكنَّ مِن أعظم علاماتِ إجلال الله لبشرٍ هي أن يدلَّه على مكان البيت الذي اندثر، ويربط سيرَتَه به، وكأنَّه نزل ضيفاً على ربِّ البيت قبل أن تعرفَه الإنسانية. من هنا نفهم العَلاقة المزدوجة بين البيتِ وإبراهيمَ – عليه السلام -. هذا البيت ظلَّ سرُّ وجودِه غامضاً على العلماء والمفسرين، ولكنَّ أكثرَ الآيات صراحةً في هذا السِّرِّ هي قول الله - تعالى- : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ ﴾ " 96 آل عمران". ورغم أنَّ هذه الآية صرَّحت بأنَّه أوَّلُ بيتٍ وُضِع للناس، إلا أنَّ هذا التصريحَ يزيد السِّرَّ غموضاً ما لم نعرف من هم أولئك الناس الذين وُضع لهم البيت، وكيف يكون البيتُ نفسُهُ هدىً للناس. وحتى نصل إلى ذلك السِّرِّ البعيد، لا بُدَّ أن ندرسَ تاريخَه المتفقَ عليه الذي يرجع إلى عهد اصطفاء اللهِ إبراهيمَ و إسماعيلَ لرفع قواعدِهِ إلى يوم القيامة.

ولعلَّ من حكمة الله - تعالى- أنَّه رَبَطَ سيرةَ بيته بسيرة النبيِّ الذي تتفقُ عليه كلُّ الرسالات السماوية القادمة، بل و يدَّعي كلُّ الأنام الانتماءَ إليه والانحدارَ منه، وكأنَّ الله - تعالى- يُحرِّم الخلافَ على البيت وعلى إبراهيم الذي أعاد الناس إليه. فإبراهيمُ هو أبو الأنبياء وأبو الديانات السَّماوية من بعده. اليهود والمسيحيون والمسلمون يعبِّرون عن حبِّهم لله بحبِّهم لإبراهيم، والله أحبَّ إبراهيم فهو أول بشرٍ استدعاه إلى بيته بعد إن اندثر البيت، وكلَّفه بإعادة بنائه ودعوةِ

الإنسانية إليه. بل إنَّ إبراهيمَ هو النبيُّ الوحيدُ الذي انطبقت دعوته اسماً وفكراً ومحتوىً مع رسالة النبيِّ الخاتَمِ، وجعل اللهُ I الرسالة الخاتمة والباقية إلى يوم القيامة تحمل اسمَها من إبراهيم -عليه السلام - :

﴿ ..... مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ **هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ** مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ .....﴿٧٨﴾ ﴾ " 78 الحج" .

الإعجاز الفني في القرآن:

ولعلَّ الدارسَ لسيرة إبراهيم في القرآن لا يخفى عليه مقدارُ الإعجاز الفني الذي تميزت به تلك السِّيرةُ العطرة، وهو إعجازٌ لا يقل خطورةً عن علم " الإعجاز العلمي في القران" الذي أصبح له أساتذته و مختصوه . فالقرآن كتابٌ أُوحِي إلى محمدٍ - صلى الله عليه وسلم -، ولكنَّه ظلَّ - وسيظل إلى يوم القيامة - وحيًا داخِلَ وحي يخاطب كلَّ جيلٍ بلغته وذوقه، و"الإعجاز الفني في القرآن" يبرز في اختيار الله - سبحانه وتعالى- للغةٍ خاصة، يروي بها كلَّ أمرٍ بصورةٍ تتناسب والشعورَ النفسي الذي يجب أن تتركه تلك الآياتُ في نفس القارئ. نضرِب هنا مثلين للمقارنة قبل أن نستكشفَ الإعجازَ في قصةِ إبراهيمَ مع البيت:

لا شكَّ أنَّ كلَّ من قرأ سورةَ مريمَ قد غالب الدمعُ أن يَهْمي على خديه ؛من حلاوة الكلمات الرقيقة التي تعكس في كلِّ آيةٍ أنَّ هذه السورة تحكي قصة أنثى ضعيفة صغيرة، أُلقيت على عاتقها مسؤوليةٌ تعجزُ الجبال عن حملها، وهي أن تنجب طفلاً من غير أبٍ، وهي العفيفة الطاهرة التي اصطفاها الله وطهرها، واصطفاها على نساء العالمين. سورةُ مريمَ صيغت بلغة تحكي مشاعرَ الأنثى التي تتحدث عنها السورة، وإنْ لم يكن القارئُ يعرف مريم. بل إنَّ من الغرائب أنَّ السورة حتى حينما وصفت يحيى بن زكريا -عليهما السلام- ، وصفته بكلماتٍ تتفقُ مع مشاعر مريمَ صاحبةِ السورة، فكلمة "حنان" وهي تعكس منتهى الرقة واللطف والوداعة لم ترد في القرآن كلِّه إلا في سورة مريم:

﴿ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ ﴾ "13 مريم".

على النقيض من ذلك، نجد أنَّ اللغة العسكرية التي رُوِيت بها سورةُ التوبة لا تحمل إلا راياتِ الحرب والصمود، وكأنَّها تقول "إمَّا نصر أو شهادة". بل سورة التوبة تصيب القارئَ بدهشة منذ بدايتها ،إذ إنَّها السورةُ الوحيدةُ في القرآن التي لا تبتدئ بـ "اسم الله الرحمن الرحيم" ، وكأنَّ صياغَتَها تقول : إنَّ عهد الرحمة قد انتهى وجاء دور القتال بلا رحمة.

قصة إبراهيمَ فيها لونٌ آخرُ من ألوان "الإعجاز الفني في القرآن". وهنا نتحدث عن قصة إبراهيم وليس سورة إبراهيم، إذ إنَّ قصة إبراهيم انتشرت في خمس وعشرين سورة توزعت في أربعة وعشرين جزءًا من القرآن، ابتداءً من الجزء الأول إلى الجزء الثلاثين. وقد ورد ذكرُ اسمه تسعاً وستين مرة في القرآن، وهو أكثر اسم تكرر بعد اسم الله - جل جلاله-. وقصة إبراهيم في القرآن اختلفت عن قصص النبيين في أنَّها احتوت - في كثيرٍ من الآيات التي روتها -

على إشكالات لغويةٍ استعصى على كبار المفسرين فهمُها، وكثرت الخلافات في الآراء حولها. قصة إبراهيم بانتشارها على شكل مقتطفات هنا وهناك بلغة غامضة توحي لنا بالآتي:

أولاً: أنَّ الله - تعالى- أراد أن يكون اسمُ إبراهيمَ حيثُما تصفح القارئُ القرآنَ، لا يغيب عن نظره؛ لمَا في سيرته من أهمية تستحق التدبُّر.

ثانياً: أنَّ الطريقة التي رويت بها تلك المقتطفات تدلُّ على أنَّ في تجميعها رسالةً لا يفهمُها إلا مَن اتبع ملة إبراهيم وأسلوبَه العلميَّ المُمنهج في البحث عن الحقيقة. أي أنَّ قصة إبراهيم منتشرة كأوسع ما يكون الانتشار، ولكنَّ ربطَها في قصةٍ متكاملةٍ لن يكون إلا لمَن يتبع ملة إبراهيم حنيفًا، أي مَن يمحِّصُ المعلوماتِ ويحنف إلى ما هو منطقيٌّ منها.

وحتى نعطيَ قصة إبراهيم قدراً من البحث يليق بقدر النبي، رأينا أن ننظر إليها من زاويتين تغطيان المِساحةَ الزمنيةَ والمساحةَ الجَغرافيةَ اللتين انتشرت فيهما الأحداث؛ حتى نستنبط معالمَ عن شخصيةِ النبيِّ ،تقودنا في الطريق التي سار عليها إلى مركز الكون وموقع خلق الإنسان و تطوره عند البيت العتيق.

المساحة الزمنية:

رأينا أنَّ إبراهيم نشأ في بيت آزر الذي كان يصنع الأصنام و يعبدها، وهذه الحقيقة تنفي نفياً قاطعاً أنَّ إبراهيمَ تلقى أيَّ تعليم دنيويٍّ أو دينيٍّ في بيت أبيه يقوده إلى ما آل إليه وضعه في أن يصبحَ أمّةً وإماماً للناس. القرآن وصف لنا أنَّ إبراهيمَ حينما بدأ الدعوةَ في قومه كان في عُنْفوان شبابه، إذ إنَّهم وصفوه بـ ﴿ قَالُواْ سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ ۝ ﴾ " الانبياء60" إذنْ فرحلته في البحث ابتدأت منذ عهدٍ مبكرٍ من شبابه. أيضاً يحدثنا القرآن أنَّ إبراهيم رُزق إسماعيل وإسحاق على الكبر كما في قوله - تعالى- : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝ ﴾ "39 إبراهيم". و رغم أنَّنا ليس لدينا دليلٌ من القرآن عن عُمُرِه يوم مات، فإنَّ التوراة قد وصفت أنَّه رُزق إسماعيلَ وهو في السادسة و الثمانين، و رُزق إسحاق وعُمُره مائة عام، و أنَّه توفي وعُمُره مائة وعشرون سنة.

هذا يدلُّ على أنَّنا ندرس حياة طويلة بعُمْرِ السنين، بقدر ما هي طويلةٌ بحجم الأحداث والبَصَمات التي تركتها على تاريخ الإنسانية. ولعلَّ من الحكمة أن نذكر أنَّ القرآن لا يقصُّ علينا كلَّ تفاصيل الرسل، وإلا لاحتاجت سنواتُ نوحٍ، وهي ألف سنة إلا خمسين عاماً بنص التوراة والقرآن، لمجلداتٍ لوصفها. ولكنَّ الله قصَّ علينا قصة نوح في بعض مقتطفات اقتصرت على أسلوبِ دعوته وقصة الطوفان فقط. إذنْ فما نقرؤه عن إبراهيمَ ليس إلا مقتطفاتٍ لإنارة الطريق لقوم يتفكرون، ولكنَّها ليست تفاصيل حياة النبي، وعلينا أن نستنتج الكثير ممَّا لم يصرح به القرآن.

المِسَاحة الجغرافيَّة:

قلنا إنَّ إبراهيم - عليه السلام- وُلِدَ في أرض العراق حَسْبَ أشهر الروايات، ثمَّ تزوج سارة وهي من أرض الأردنِّ اليوم، ثمَّ تزوج هاجر وهي أميرةٌ مصرية، ثمَّ رفع قواعد بيت الله في مكة، وتوفي في فِلَسطين. هذه المِساحة الجغرافيَّة الشاسعة في زمانه ربَّما كانت تمثِّلُ ثلاثة أرباع العالم المأهول حينها، ممَّا يدلُّ على أنَّ تجاربَه في الحياة كانت كأثرى ما يكون الثراء، في زمانٍ كانت الرحلةُ فيه بين قريةٍ وأخرى تستغرق شهورًا على ظهور الإبل. ولعلَّ في ترحال إبراهيم عبر الصحاري حكمةً إضافيةً حان أوانُ كشفِها، إذ إنَّ كلَّ من طال ترحالُهُ على ظهور الإبل أُتيحت له فرصةٌ أطول من التدبُّر في (آذان الأنعام) واكتشاف أسرار الكون الخفية.

هذا الثراءُ في تجارِبِ إبراهيمَ في الحياة يعكسُ لنا الثَّراءَ الفكريَّ والعلميَّ الذي امتاز به، والفضول الذي قاده للبحث والتمحيص إلى أن وصل إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه العقل البشري من أسرار الكون والخلقِ والخالق، وكان على الله - عز وجل- أن يهديَه إلى ما خفي عليه ليكونَ جديرًا بإمامة الإنسانية.

بناء على هاتين المِساحتين الزمنية والجغرافيَّة؛ فإنَّه يمكنُنا أن نرتب اكتشافات إبراهيم - فيما يخصُّ الأسئلةَ التي حيرت البشرية، وهي موضوع بحثنا - ترتيبًا زمنيًّا وجغرافيًّا. من البديهي أنَّ بحثه عن الإله الحقِّ كان البحثَ الأولَ في شبابه والذي انتهى به إلى النبوَّة. يلي ذلك بحثه في حقيقة الحياة بعد الموت الذي ناقشناه في باب "ملة إبراهيم"، والذي كان نتاجَ جداله مع الملك الكافر الذي زعم أنَّه أحيا من كان يظنُّ أنَّه ميتٌ إمام إبراهيم، وبالتالي يمكننا أن نتصور أنَّ جداله مع قومهِ، وتحطيمَ أصنامِهم، وحربَهم عليه ومحاولة حرقه؛ كلها وقعت في عهد مبكر من حياته في العراق، حيث كان النمرود ملكًا عليه. ربَّما هاجر إبراهيم بعد ذلك من أرضه إلى أرض الله الواسعة متعبدًا وداعيًا إلى الله، إذ إنَّ قوم إبراهيم كانوا كلَّ مَن سكنوا البلادَ التي سافر فيها، و لم يُبعث - حَسْبَ علمنا - إلى قبيلةٍ أو قريةٍ معينة؛ ولذلك كان للناس، كلِّ الناس، إمامًا. و أغلب الظنِّ أنَّه هاجر إلى أرض الأردنِّ شابًا، ممَّا يسوِّغُ زواجَه من سارة التي بقي معها إلى سنٍّ متأخرة من غير أن يمنَّ اللهُ عليه بالولد.

إنَّ وصول إبراهيم لأصل الخلق و مسقط رأس آباء الإنسانية لم يكن أمرًا مباشرًا كوصوله إلى الله - تعالى- وسؤاله عن كيفية إحياء الموتى. يبدو من التوراة والقرآن أنَّ رحلتَه الطويلةَ في الحياة أدت أدواراً مختلفة في إثارة فضوله عن أصل الإنسان، والتي انتهت بأن عهد الله إليه بأن يقود الإنسانية إلى مسقط رأس آبائها. ولأنَّ القصة - أصلا - رواها اللهُ بالتدريج في القرآن فلا بُدَّ أن نتَّبع ذات التدرُّج في استنباطها؛ لأنَّ التدريج يساعد على فهم الآيات المتناثرة وخلق قصة متكاملة منها. ولمَّا كانت رحلتُه في البحث عن أصل الإنسان و قضية الخلق طويلةً جدًّا مقارنة بالبحث عن الإله والحياة بعد الموت، كان يستحسنُ - أولا- أن نستخلصَ سماتٍ عامّةً عن شخصية إبراهيمَ -عليه السلام - تعيننا على فهم ما سنسعى إلى تأويله في بقية البحث:

معالم في الطريق:

1- رأينا عقلانية إبراهيم -عليه السلام - بوضوح في أسلوبِ وصولِهِ إلى الله عن طريق بحثه في السماء، و وضعه لمنهاج علميٍّ حكيمٍ للتدبُّر في ملكوت السماوات ولأرض وتمحيص الحقائق.

2- رأينا سرعة بديهته في سرعة تغييره لموضوع الحوار مع الملك الذي أحيا من ظنَّ أنَّه ميتٌ إماتَه، رغم أنَّ الحدث أدهشه و كان محتاجًا لتفسير أعمق، ولكنَّ مسار الحوار كان يتطلب تغييرَ الموضوع، ففعل وكسب الحوار وبهت الذي كفر.

3- إصراره على الحق ونقاء عقيدته، الشيء الذي يبرزه هذا التعبير القرآني:

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾ "89-93 الصافات" .

هذه الآيات تُوحي بتقزز إبراهيم من غباء قومه في عبادتهم لحجارة صماء لا تأكل ولا تتحدث، وكأنَّ الله - سبحانه وتعالى- قد نقل إلينا هذا الوصف التصويري حتى نستشعرَ غيظ إبراهيم - عليه السلام- من شرك قومه؛ وبذاك نستشعر جوانبَ عميقةً من شخصيته .

4- جُرأته في مواجهة شرك قومه: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ " 57-58 الأنبياء" .

5- سخريته منهم في أحلك الظروف:﴿ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ "61-63 الأنبياء" .

6- رأفته بأبيه رغم حَنَقه على عقيدته الفاسدة ومواجهاته معه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ " 114التوبة"

. اللغة في هذه الآية تُوحي بصلة خاصة بين إبراهيمَ وربِّ العالمين، تعكس لنا أنَّ الله - تعالى- قد عَلِم حِلْمَ إبراهيم و رقتَه وعطفَه على أبيه، وساقه للنتيجة الموضوعية بالتدريج الذي يريح باله .

7- هذه الصِّلةُ الخاصة مع الله - تعالى- تبدو جليَّةً في جُرأة إبراهيم في مجادلة الله رأفةً بقوم ابن أخيه لوط رغم علمه بفسوقهم: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ

أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ

﴿٧٦﴾ ﴾ " 74-76هود" .

8- ونضيف دليلًا أخيرًا على تلك الصِّلة المباشرة مع الله، وهو الحديث القدسي الذي وصف تعامَله مع قصة النَّار. فقد روى جبريلُ - عليه السلام - ما معناه أنَّه ما شفع لأحد عند الله قبل أن يرى إبراهيم وقد أعدَّ قومُه له نارًا عظيمة ويومًا مشهودًا لحرقه، فصَعِدَ إلى الله - سبحانه وتعالى- وسأله: يا ربِّ إنَّ عبدك إبراهيم في محنة، فهلّا أنصره؟ فأجابه الله - جلَّ جلاله- : اسأله إن كانت له حاجة. فنزل جبريلُ وسأل إبراهيمَ إنْ كانت له حاجةٌ ،فأجاب: أمَّا منك فلا، وأمَّا من ربِّي فهو أدرى بحالي، وهو نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير. فقال اللهُ - عز وجل- لجبريل: أمَا وإنَّه لم يجعل حاجزًا بيني وبينه؛ فإنِّي لا أجعل حاجزًا بيني وبين حاجته، وهنا تدخَّل اللهُ مباشرة وعطَّل ناموسَ الكون:

﴿ قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ " 69 الأنبياء" .

من هذه المعالم البسيطة يتضح لنا أنَّ إبراهيم كان شخصيةً متقدةً ثوريةً رغم أنَّه حكيمٌ وعقلانيٌّ ورقيقُ القلب، أواهٌ حليم و ذو صلةٍ مباشرة مع خالقه – جل وعلا - . فقد كان شخصيةً قويةً منذ صغره، وكان تاجراً ثريًّا ناجحًا في حياته العملية، وكان سياسيًّا احتك بالملوك من العراق إلى مصر، و تزوج ابنةَ ملكٍ من أعظم ملوك زمانه وهو فرعون مصر، وكان مفكرًا و فيلسوفًا مجادلًا بارعًا، و كان شديدًا في الحقِّ، ومع ذلك كلِّه كان رقيقَ القلب شفوقًا حتى على أبيه الكافر وعلى قوم لوط، وكان شهمًا كريمًا ما لبث أن جاء بعجل حنيذ للملائكة قبل أن يعرف هُوِيَّتَهم. إذنْ فقد كان إبراهيم مدرسةً متكاملةً من الفكر والرُّقي الإنساني والخُلق والعقيدة.

و رغم تلك المعالم الثَّرَّة المختلفة في شخصيته، كان إبراهيم رجلا بدويًّا مليئًا بالعواطف والحنان، وحيدًا في حياته في زمان كان إنجابُ الأطفال فيه رمزًا من رموز الرجولة وكمال النضج ، فضلًا عن الحوجاء للولد الذي يرعى أباه في الكبر. ليس غريبًا - إذنْ- أن نفترض أنَّ حاجتَه للولد قد قادته للتفكير والتأمل سنواتٍ طويلةً من عُمُره في قضية الإنجاب والأولاد والآباء؛ لأنَّ مثل هذه الأمور تشغل بالَ كلِّ من يحرمه اللهُ - تعالى- من الأولاد. وربَّما طالت رحلة انتظار الولد؛ لأنَّ الله - عز وجل- كان يريد لإبراهيم أن يصل إلى سرِّ الخلق بالتفكُّرِ والتدبُّرِ في حال الشعوب والأمم التي عاشرها ومرَّ بها ودعاها، فمنهم من آمن ومنهم من كفر.

أميرة كلِّ الأزمان:

و يبدو أنَّ حوجاءه للولد ما كانت سرًّا، بدليل أنَّ التوراة ذكرت أنَّ سارة كانت هي من طلب منه الزواج من هاجر، لعلَّ الله يرزقهما طفلاً منها؛ وذلك لعلمها بحوجاء إبراهيم للولد بعد أن يئست هي من الإنجاب:

{وأما ساراي زوجة إبرم فقد كانت عاقرًا، وكانت لها جارية مصرية تدعى هاجر. فقالت ساراي لإبرم: "هوذا الربُّ قد حرمني من الولادة، فادخل عليها لعلني أرزق منها بنين" فسمع إبرم لكلام زوجته. وهكذا بعد إقامة عشر سنوات في أرض كنعان، أخذت ساراي جاريتها المصرية هاجر وأعطتها لرجلها إبرم لتكون زوجة له.} "سفر التكوين16:1-3" .

وحتى نكون منصفين لأمِّ إسماعيلَ هاجرَ- عليهما السلام-، لا بُدَّ لنا أن نوضح كيف وصف اليهود هاجر بأنَّها جارية، إذ إنَّ ذلك كان تعبيرًا عن حسدهم لبني عمِّهم أن ينحدروا من أميرةٍ مصرية. فقد ورد في تفسير التوراة المعتمد لدى اليهود اليومَ في تفسير هذا النص، أنَّ هاجر كانت أميرةً مصريةً حينما دخل إبراهيمُ وسارةُ أرضَ مصر في ترحالهما. حينها اعتقلهما جنودُ الفرعون وأحضروهما إليه. حاول الفرعون الاعتداء على سارة مرتين؛ فشلَّه اللهُ ولم يشفِهِ إلا دعاءُ إبراهيم، ولكنْ حينما كرَّر محاولة اعتدائه للمرة الثالثة، طلبت سارة من إبراهيم أن لا يدعوَ له بالشفاء إلا إذا وافق على أن يمنَحَهم ابنته "الأميرة هاجر" لتكونَ في خدمتهم . يقول تفسير التوراة: إنَّ الفرعون سأل هاجر التي كانت شاهداً على معجزات إبراهيم فأجابته: {لآن أكون جارية في خدمة هذين الصالحين أشرف لي من أن أكون أميرة في مصر} . إذنْ فهاجر آمنت بنُبوَّة إبراهيم واختارت طواعيةً أن تكون في خدمته - عليه السلام-، بدلًا من أن تكون أميرةً في عرش مصر، ولكنَّها لم تكن خادمة مستعبدة كما حاول اليهود تصويرها. ولدت أميرة وعاشت أميرة يوم كان عرش مصر من أعظم عروش الأرض، ثمَّ انتقلت إلى بيت إبراهيم زوجةً لأبي الأنبياء، وأمَّاً لابنه الأول، وجدة لخير البشر وخاتم الأنبياء والمرسلين.

خيَّرها القدرُ من غير ميعاد بين عرش مصر الذي تجري من تحته الأنهار وخدمة نبيٍّ الله، فاختارت النبي الذي يكبرها عشرات السنين طواعية؛ فأكرمها ربُّ العرش العظيم بأن جعلها أولَ إنسان ينزل ضيفاً على بيته قبل أن تُرفع قواعدُه، وفتح لها بئراً هي المعجزة المادية الوحيدة الباقية على مرِّ الزمان من معجزات الأنبياء إلى يوم القيامة، وجعلها ملكة أبديَّة على أرض الخَلق والتطور. فأيَّ شرفٍ نالت وأيَّ ربح ربحت تجارتها. لا شك أنَّ ذلك أصبح غُصَّة في حلوق اليهود؛ لذلك يحلو لهم وصفُها بالجارية، الوصف الذي يردِّده المسلمون من غير تدبُّرٍ أو حرج.

رحلة البحث عن الولـد:

قلنا - من قبلُ- إنَّ انتظار إبراهيم وسارة للولد طال سنين عددا. وأغلب الظنِّ أنَّه في تلك الرحلة النفسية المريرة دارت في خواطر إبراهيم أسئلةٌ عن سرِّ الخلق، ومكان خلق الإنسان الأول، وأرض الآباء الذين انحدر منهم الإنسان. ولمَّا كنَّا قد رأينا كيف كان إبراهيم باحثًا في أمور الغيب، ومواجهًا للشرك وجريئًا في السؤال، ومجادلاً حتى مع الله - تعالى-، فإنَّه من الطبيعي أن نفترض أنَّه سأل الله - جلَّ وعلا- في رحلةِ التفكُّر والتدبُّر تلك، كيف خلق الإنسان وأين عاش الإنسان الأول؛ لأنَّ مثل هذا الفضول الذي ينطبق على معظم البشر لا بُدَّ وأن يكون قد خَطَرَ على بال مفكر مثل إبراهيم - عليه السلام -.

في الإجابة عن هذا السؤال الافتراضي، نجد أنَّ القرآن يعجزنا بسياق معاكس للسياق الذي وصل به إبراهيمُ إلى الإله الحقِّ وحقيقة الحياة بعد الموت. فقد رأينا أنَّه في أمر البحث عن الإله وفهم إحياء الموتى، كان إبراهيم سباقًا لمعرفة بداية الحقيقة فأتمها الله له. ولكنْ يبدو أنَّه في قصة أصل خلق الإنسان و التي ارتبطت بالعاطفة وليس الفضول فقط، إذ إنَّها كانت نتيجةً للتفكير في وِحدته وحاجته للولد، يبدو أنَّ إبراهيم قد سأل الله مباشرة : كيف وأين خلق الإنسان وماذا كان من حاله؟ فكانت الإجابة جزئية وترك الله له هنا أن يُتمَّ باقي القصة بالبحث.

هذا الافتراضُ نستنبطه من أنَّ قصة الخلق وأرض مكة "البلد الأمين" قد رواها الله مرتبطة بقصة إبراهيم في موضعين مختلفين، الفرق بينهما التعريف بألف ولام كلونٍ من ألوان "الإعجاز الفني في القرآن". فقد روى الله - عز

وجل- في موقعين أنَّ إبراهيم دعاه لأنْ يجعل ذلك البلد آمنا، ولكن الحروف التي اشتمل عليها الدعاءُ اختلفت لتحكى قصة البيت العتيق وعلاقته مع الإنسان الأول، كما نلاحظ في هاتين الصيغتين:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ **هَـٰذَا بَلَدًا** ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ .... ﴿١٢٦﴾ ﴾ " البقرة 126".

ولمَّا كانت كلُّ آية تحكي ذاتَ القصة، و لكنْ في توقيت مختلف ومن زاوية مختلفة، كان علينا أن نناقش كلّاً منهما على حده حَسْبَ الأسبقية الزمنية. وكلا الآيتين تحكي قصة العهد لإسماعيل وذريته الصالحة بسِدانة بيت آباء البشرية الأول إلى يوم القيامة.

العهد لإسماعـيل:

"...هذا بلدًا أمنًا ...":

﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ **بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ** ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ **مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا** وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ "124-131 البقرة".

هذا الدعاء يُعدُّ أعظمَ دعاء من نبيٍّ في القرآن، إذ إنَّ استجابته تحققت في سيد الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين، وآيات الله التي تلاها هي القرآن العظيم الباقي إلى يوم القيامة.

يبدو - والله أعلم - أنَّ الآيات - أعلاه- إنَّما تروي لنا حوارًا دار بين إبراهيمَ و ربِّه - جلَّ جلاله- قبل أن يصل إبراهيم إلى البيت، و ربَّما كانت فورَ ميلاد إسماعيل - عليه السلام- ، وذلك للملاحظات الآتية:

1- أنَّ الله قال له إنَّه جاعله " أي في المستقبل " ولم يجعله بعد.

2- أنَّ هذه الإمامة للناس كافة وليس للمسلمين فقط .

3- أنَّ إبراهيم طلب توريثَ تلك الإمامة لذريته، وهذا شعورٌ طبيعيٌّ ينتاب كلَّ والد يوم ميلاد ابنه الأول.

4- كانت تلك لحظة **العهد** لإسماعيل على مسؤولية البيت، ومن المنطقي أنَّها تمت فورَ ميلاد إسماعيل و قبل أن يهاجر إلى بكة .

5- ارتبطت بيعة العهد - كما وردت في التوراة- بختان إسماعيل وإبراهيم، وأغلبُ الظنِّ أنَّه تمَّ في الأيام الأولى من حياة إسماعيل كما هي السُّنَّة في الختان .

6- في سياق الآيات دعا إبراهيمُ اللهَ أن يجعله "**بلدًا** آمنًا " ممَّا يشيرُ إلى أنَّه ما زال بلدًا نكرة في نظره، أي لم يره بعد وإنَّما سمع عنه فقط .

هذه الآيات كشفت لإبراهيمَ جزءًا كبيرًا من سرِّ خلق الإنسان الأول، إذ إنَّه من المنطقي جدًّا أنَّ إبراهيم بعد أن مرَّ برحلة طويلة من الصراع النفسي والتفكير في الإنجاب، أنَّه جاشت مشاعرُه بالرأفة والحنان حينما حمل ابنه الوحيد بين يديه، فسأل الله عن خلق الإنسان تماماً كما سأله عن إحياء الموتى حينما رأى ما أدهشه من الملك. وحتى نستوعب أعماق الحوار بين إبراهيمَ و ربِّه الذي تعكسه هذه الآيات، نحتاج أن نفهم المدلولاتِ اللغويةَ للكلمات التي احتوت عليها الآيات السابقة:

البلوى: نوع من الاختبار، ويُحمَل عليه الإخبار أيضاً، أي أنَّ "ابتلاه" تحتمل أنَّه اختبره أو أخبره.

أتمَّ: تعني أكمل الشيء، وهذا يُوحي بأنّ حواراً دار بينه وبين الله عن الخلق، فقصَّ الله عليه بداية القصة من ناحية منطقية، فأكملها إبراهيم بسرعةِ بديهتِهِ .

إمام: كلُّ من أُقتدي به، وقُدِّم في الأمور.

عهد: الاحتفاظُ بالشيء، ومنها العهدة وهي الأمانة أو الوديعة.

ظلم: وضع الشيء في غير موضعه تعدِّياً.

البيت: المأوى والمآب ومجمع الشمل.

ثوب: لها معنىً واحدٌ وهو العود والرجوع.

أمن: لها أصلان في اللغة: أحدهما الأمانة التي هي ضد الخيانة، والآخر هو التصديق و سكون القلب.

مقام: من "قوم" و لها أصلان في اللغة: الأول يدل على جماعة من الناس، والآخر يدل على انتصابٍ وعزم. يقال "قام بهذا الأمر" أي نفَّذه بعزم وإصرار.

هنا نحتاجُ لأن نتَّبع "ملة إبراهيم الحنيفية"، وهي تقليب المعلومات و تمحيصها، والميل نحو الأرجح والمنطقي منها؛ حتى نستوعبَ هذا الحوارَ بين إبراهيم "الأمَّة" وربِّ السماوات والأرض، وهو يقوده إلى استنباط الحقائق في مشكلة الإنسانية الكبرى، وهي: أصل الخلق .

تقول الآياتُ إنَّ الله ابتلى إبراهيمَ أي اختبره "**بكلمات**". هذه الكلمات تذكِّرُنا بالكلمات التي تلقَّاها آدمُ من ربِّه قبل أن يتوب عليه؛ لأنَّ القرآن يفسر بعضُه بعضا. فكلماتُ الله هي عين موجوداته، أي أنَّ الله ليس لديه لغة يتحدث بها، ولكنَّه إذا تكلم تحقق كلامُه: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ "40 النحل". كما

ناقشنا ذلك في باب " في وادي المزدلفة"، وهذا يعني أنَّ كلمات الله هي حقائق موضوعية مشخصة للإنسان ...

من اللافت للنظر أنَّ هذه الآية {وَإِذِ ابْتَلَىَ إِبْرَاهِيمَ رَبّهُ بِكَلِمَاتٍ... } تجر إلى الذاكرة بحروفها وتركيبها اللغوي الآيةَ التي وصفت توبة آدم بصورةٍ فيها نوعٌ آخرُ من ألوان "الإعجاز الفني في القرآن"، إذ إنَّ الآيتين تشتركان في "كلمات" الله الغامضة، وأيضا تشتركان في أنَّ كلتيهما تحتاجان لحذرٍ في التلاوة و إلا اختل المعنى، تماماً كما لو أنَّنا نصبنا الفاعل ورفعنا المفعول. وللمقارنة نضع الآيتين معاً أي نرتِّلُهما ترتيلا:

{فَتَلَقَّى (آدَمُ): فاعل مرفوع - مِنْ رَبِّهِ(كَلِمَاتٍ)**:** مفعول به منصوب- فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}" 37 البقرة" .

{وَإِذِ ابْتَلَى (إِبْرَاهِيمَ): مفعول به منصوب –**(ربُّه) :** فاعل مرفوع - بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ}" 124 البقرة" .

ولعله لا يخفى على المواظبين على التلاوة وعلى أساتذة التجويد أنَّ الكثيرين تختلط عليهم الأمور في هاتين الآيتين، فيرفع المفعول وينصب الفاعل، الأمر الذي يتطلب - دائمًا- حذرًا شديدًا في التلاوة، و كأنَّ الله - تعالى- أراد أن ترتبطا في ذاكرة القارئ ارتباطًا موسيقيًّا، إذ إنَّ إحداهما تفسر الأخرى، وكلتاهما تتحدث عن ذات "**الكلمات**" الغامضة، ولكنْ لغرضين مختلفين في زمنين متباينين.

اختبرَ أو أخبرَ اللهُ - تعالى- سيدَنا إبراهيمَ ببعض الحقائق الموضوعية المشخصة التي لها علاقة بعضها ببعض وهي "الكلمات"، فماذا فعل النبيُّ (الأمَّة)؟..... أتمَّهن ... أي أكمل بقية الحقائق لتكتمل له قصة كاملة ... عن ماذا؟ في الآية التي تليها نعرف أنَّ الكلماتِ والحقائقَ الموضوعيةَ والقصة تخصُّ البيت.

كما قدمنا فإنَّ الله - تعالى- يعلِّمُنا من القصص القرآنية أحوالَ الأمم الاقتصادية والمادية وكيف تعاملوا معها، أما في قصة سيدنا إبراهيم فإنَّه يعلِّمُنا التطورَ العقليَّ والفكريَّ للإنسان بوصفه نوعاً من طفرات التطور في تلك المرحلة. وقد استنبطنا - سابقا- أنَّ إبراهيم -عليه السلام - كان أولَ إنسان يفكرُ بصورة جدليَّة، و يحنف دوماً إلى الحقيقة، وفوق هذا كلِّه وصل إلى إمكانية ربط المقدمات مع بعضها ببعض والوصول منها إلى نتائجَ مترابطةٍ، وهو ما نسمَّيه حاليًّا بالتفكير المنطقي والاستقراء. وبإتمام إبراهيم تلك القصةَ نفهم أنَّ الإنسان في تلك المرحلة قد نضج فكريًّا، وأصبح قابلاً لأنْ يستوعب الحقائق الكلية للكون والوجود، خلقاً وخالقًا حياةً وموتًا وبعثًا، وعندها استحق إبراهيمُ - عليه السلام- أن يجعله اللهُ إمامًا يُقتدى به في مدرسته الفكرية وملَّته، واستحق الشرفَ في أن يربط الله سيرته بسيرة البيت الذي سيبرزه للإنسانية من جديد.

و لعلَّ من الحكمة أن نُذكِّر هنا بردِّ الله - تعالى- لنوحٍ لمَّا سأل الرحمة لابنه الكافر، فأجابه الله: { أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ}، فالجهل هناك كان جهلًا بحقائقَ ما كان في وُسْعه استيعابها، إذ إنَّ العقل البشري في عهد نوح لم يكن - حينها- قد وصل إلى مستوًى من النضج والقدرة على استيعاب حقائقَ كونيةٍ تفصيلية، ولم تكن من مصلحة نوح ولا قومه معرفتها. إلا أنَّه في عهد إبراهيم كان الأوان قد آن لأنْ يستوعبَ العقلُ البشريُّ - متمثِّلًا في شخص إبراهيم- تفاصيلَ خلق الإنسان والكون.

و كما أسلفنا فإنَّ الآيات تبدو وكأنَّها تروي حواراً تمَّ بين إبراهيمَ و ربِّه عن أصل الخلق الأول و مكانه عندما وهب الله له ابنَه إسماعيل. و رغم وصولِ إبراهيمَ لبقية الحقائقِ وربطِ بعضها ببعض إلا أنَّ طلبه بأن يحتفظ بالإمامة في ذريته وابنُه إسماعيل رضيع بين يديه، توضح أمرين مهمين: أولهما هو الطور الاجتماعي العشائري الذي هو فيه، والذي لمَّا يتمكنْ بعد أن ينفكَّ منه، إذ إنَّ من صفات الطور العشائري أن يحتفظ الحاكم والقائد بالحكم لذريته، وهكذا فكَّر إبراهيم أولَ ما فكَّر في رضيعه إسماعيل وذريته من بعده. وثانيهما هو التأكيد على أنَّ هذا الحوارَ تمَّ لحظة ميلاد إسماعيل، إذ إنَّ ميلاد الولد يدفع الوالد في نفس اللحظة أن يفكر في مستقبل وليده ووريث عرشه. ولكنَّ اللهَ ردَّ عليه بأنَّ ما أريد أن أحتفظ به " عهدي" لن أدعه لمن يضعون الأمور في غير موضعها تعدياً؛ فيظلمونها ويضيع العهد {...قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ...}. ولأنَّ إبراهيم -حينها- لم يكن يعلم أنَّه ستكون له ذرية أخرى غير إسماعيل، فقد أوضح الله أين يكون الظلم في ذرية إبراهيم في آية أخرى أفردت إبراهيم وإسحاق وذريتهما ولم تشمل إسماعيل:

﴿ وَبَـٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ " 113الصافات".

هذا لا يعني أنَّ ذرية إسماعيل جميعًا من الصالحين، ولا أنَّ كلَّ بني إسحاق من الظالمين، ولكنَّه يؤكد أنَّ الذين لا يؤتمنون على عهد البيت هم من بني إسحاق الذي لم يكن إبراهيم على علمٍ بِمَقدمه حينما كان إسماعيل رضيعًا.

إذنْ نستنتج أنَّ الله - عز وجل- جعل إبراهيم يرى حقائق مادية عن الإنسان الأول في شكل "كلمات" ربانيَّة أي مجسمات، فاستنتج إبراهيم وجود البيت والبلد الذي دارت فيه تلك الإحداث، و ربَّما كان ذلك برؤيا كرؤيته وهو يذبح ابنه و ربَّما كشفها اللهُ له. الصريح في الآية أنَّ تلك "الكلمات" ارتبطت بالبيت الذي وعده الله بإمامته، وأيضاً أنَّ القصة كانت رمزيةً فأتمها إبراهيم بنفسه. وتمضي الآيات تقصُّ على إبراهيم حقيقةَ ذلك البيت الذي ما زال مجهولًا له:

مَـقـام إبـراهيم:

﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمۡنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ ﴾ " 125 البقرة" .

"البيت" معرف بـ "أل"، وبيت تعني مأوى ومآب و مجمع شمل، و"مثابة" نكرة وتعني عود ورجوع، و"أمن" أيضاً نكرة وتعني تصديق . فهذا يعني أنَّ المتحدث هنا هو الله - عز وجل- و قد جعل في تلك اللحظة، و بعد أن امتحن إبراهيم، جعل البيت الذي قد كان مأوى ومجمع شمل لناس سابقين حَسْبَ ما توحي به كلمة "البيت" معرفة بالألف واللام، جعله مكانًا لعودة ورجوع الناس اللاحقين حتى يكون آية من آيات الله، تعينهم على تصديق الحقائق التي دارت

حوله. إنَّ تعبير {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ} يدلُّ على أنَّ هذا البيت كان مأوىً لكلِّ الناس في زمن من الأزمان، و إلا فما معنى الرجوع إنْ لم يكن -أصلا- مأوًى للناس في الماضي.

ويمضي القرآن يشرح لنا كيف يتم تصديق الناس اللاحقين لتلك الحقائق التاريخية حول البيت، إذ إنَّ الآية تشرح أنَّ ذلك يتم باتخاذنا من مقام إبراهيم مصلى. هذا التعبير القرآني يدفعنا لدراسة "مقام إبراهيم" و"ملة إبراهيم" بصورة أكثر تعمقاً، إذ إنَّنا نعتقد - والله أعلم- أنَّ كليهما يشير إلى عزم إبراهيم، وأسلوب تفكيره ومنهجه في التعامل مع الواقع، وانتصابه على ما يعتقد، وأسلوبه في الإصرار على الوصول إلى الحقائق. انطلاقاً من ذلك نعتقد أنَّ "مقام " و "مصلى" هنا لا تعنيان مكانًا عمليًّا للصلاة نمارسها فقط، وإنَّما أيضًا وسيلة فكرية وأسلوب حياة متكامل يكون وسيلة للصلة بين العبد و ربِّه. أي أنَّ الآية ربَّما تعني أنَّ الله قد جعل ذلك البيت الذي أوى إليه آباؤنا في غابر الزمن، موقعًا يعود ويرجع إليه بنوهم حتى يتفكروا في سيرة آبائهم، ويصدقوا تلك الحقائق إذا اتبعوا منهاج إبراهيم و عزيمته في الوصول إلى الحقائق، وإنَّ اتباعهم لأسلوب إبراهيم هو الصلاة والصلة الحقيقية مع الله - تعالى-.

ورد مفهوم "مقام إبراهيم" مرتين فقط في القرآن، هنا نناقش الموضعَ الآخر حتى يتضح المعنى أكثر:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٧ ﴾ " 96-97 آل عمران" .

نلاحظ في هذه الآية ما يأتي:

1. أنَّ البيت الذي ببكة قد "وضع للناس" وجعله الله "مثابة للناس" وليس المسلمين أو المؤمنين فقط . ونحن نعلم أنَّ مكة وبيتها قد حرمت بعد الرسول صلى الله عايه وسلم على غير المسلمين، ولكنَّ بيتها كان قد وضع أصلاً للناس كافة، ممَّا يعني أنَّ عَلاقة البيت كانت علاقةً بجميع الناس وليس بالمسلمين فقط؛ لذلك فالأحداث التي دارت حوله والتاريخ الذي يحكيه مِلكٌ لكلِّ الناس وحُجة على كلِّ الناس، ولكنَّ دخوله فقط أصبح قاصرًا على الذين التزموا بالعهد واتبعوا ملة إبراهيم.

2. نلاحظ أنَّ الآية التالية وصفت أنَّ فيه "آيات" وليس آية، بينما هذه الآيات عرفت بأنَّها "مقام إبراهيم" . وهذا يدلل على أنَّ مقام إبراهيم ربما يكون مفهوماً فكرياً أوسعَ من كونه الموقعَ الذي وقف عليه إبراهيمُ حينما بنى البيت كما هو مفهوم لدى المسلمين عامة.

أغلب المسلمين اليوم يفهمون أنَّ "مقام إبراهيم" يشير إلى الموقع الذي وقف عليه وهو يبني البيت، ولكنَّ الواقع لا يتفق مع ذلك، إذ إنَّ هذا الموقعَ المتعارف عليه هو الجانب المواجه لسور الكعبة الذي عليه باب الملتزم. المنطق يقول إنَّ بناء الكعبة وهي مبنى يساوي ثلاثة طوابق ممَّا نبني اليوم، قد تطلب أن يدور حوله إبراهيم وإسماعيل دوراتٍ كثيرةً وهما يرفعان كلَّ الأسوار من كلِّ الجوانب وليس جانبًا واحدًا. فإذا كان مقام إبراهيم يشير إلى الموقع الذي وقف

عليه أثناء بناء الكعبة، فهذا يعني أنَّ كلَّ ما حول الكعبة هو مقام إبراهيم وليس جانبًا واحدًا، وهذا الرأي ليس جديدًا، إذ إنَّ بعض الأئمة والمفسرين رأى أنَّ الحرم كلَّه مقامُ إبراهيم.

على أنَّ الإمْعان و التدقيق في المضمون العميق لهذه الآية يُوحي بأنَّ مقام إبراهيم هو آيات بيّنات تؤدي إلى الأمان والتصديق، ممَّا يرجِّح أنَّها (أي الآيات)عَلاقة إبراهيم بالبيت وقصة الإنسان الأول أو "الناس" الذين وضع لهم البيت، الشيء الذي أخرجه للإنسانية إبراهيم - عليه السلام- بملَّته وتفكيره وعزمه على فهم الحقائق الغامضة ممَّا جعله مثابة للناس، وليس بالضرورة الموقع الذي وقف عليه أثناء البناء، والله أعلم. هذه الآيات البيّنات هي التي أصبحت مناسكَ للحجِّ منذ عهد إبراهيم إلى يوم القيامة .

و لعلَّ من الحكمة هنا أن نسوقَ دليلًا قرآنيًّا على أنَّ كلمة (مقام) ترد في القرآن بمعنى مقام اجتماعي وفكري و روحي، وليس موقعًا جغرافيًّا فقط:

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ۝٧٩ ﴾ " 79 الإسراء".

اتفقت معظم التفاسير على أنَّ المقام المحمود الذي رُفع له الرسول - صلى الله عليه وسلم- هو شفاعته لكلِّ الناس يوم القيامة، وهو أرفع مقام يطمح إليه مخلوقٌ، ولكنَّه ليس موقعًا جغرافيًّا.

لقد ناقشنا من قبلُ أنَّ ملَّة إبراهيم هي "الململة" في البحث عن الحقائق، أي أنَّها تشير إلى أسلوب تفكير وبحث عن الحُجج، وليست فئة من الناس توارثت ديناً معيناً كما يظنُّ عامَّةُ المسلمين. وهذه "الملَّة" هي التي تُسلم إلى الله بعلمٍ و وعيٍ نتيجة تفكُّرها وتدبُّرها؛ لذلك سمَّى إبراهيمُ المسلمين بهذا الاسم، إذ إنَّ كلمة (الإسلام) تعني التسليم طواعية بعد تمحيص وقناعة وليس توارثاً. هذا المعنى يشبه قوله - تعالى- :

﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ

لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٣١ ﴾"130-131البقرة".

فملة إبراهيم أي ململته في رفض ما لا يقبله العقل، و أسلوبه في البحث عن الحقائق، هما الطريق الذي أقرَّه اللهُ للإسلام الحق.

وهذا التفسير لمفهوم ملَّة إبراهيم يضفي على هذه الآية معانيَ أعمقَ، ويحل إشكالًا لُغويًّا فيها ظلَّ على مدى قرون:

﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ **مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ**

إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ

عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ

﴿٧٨﴾ ﴾ " 78 الحج".

نلاحظ في الآية أنَّ كلمة "مِلَّةَ" جاءت منصوبةً وقد حيَّرت المفسرين، فقد روى الإمام الطبري - رحمه الله- في تفسيره لهذه الآية ما يأتي:

(قوله: مِلّةَ أبِيكُمْ إبْرَاهِيمَ نصب ملة بمعنى: وما جعل عليكم في الدين من حرج، بل وسعه، كملّة أبيكم فلما لم يجعل فيها الكاف اتصلت بالفعل الذي قبلها فنصبت. وقد يحتمل نصبها أن تكون على وجه الأمر بها؛ لأنَّ الكلام قبله أمر، فكأنَّه قيل: اركعوا و اسجدوا و الزموا مِلَّة أبيكم إبراهيم**).**

نلاحظ أنَّ الإمامَ الطبريَّ وجد إشكالًا لُغويًّا في نصب كلمة "مِلَّةَ" ووضعها من الإعراب في هذا النص؛ لأنَّها كانت تفهم أنَّها تعني " قوم إبراهيم" أو "دين إبراهيم"، ولذلك اجتهد في تسويغ النصب، ولكنَّنا نظنُّ أنَّ الكلمة منصوبة لأنَّها "حال"، والحال تأتي منصوبة. وهذا تؤكده الحقائق التاريخية، إذ إنَّ إبراهيم لم يكن ملكًا أو حاكمًا ،و لم يُعرف عنه أنَّه قاد جيشًا أو شارك في حرب، ممَّا يجعل الأمر بالجهاد في الآية - الذي ارتبط بملة إبراهيم- جهادًا من صنف الجهاد الذي عرف عن إبراهيم، أي أنَّ "مِلة" إنَّما هي مأخوذة من "ملَّ يملُّ مِلَّةً"، وهي اسم معنى أي حال لازم النصب. وعليه، فإنَّ الجهاد المقصود هنا هو الجهاد الفكري مع النفس والعقل والبحث في أسرار الكون والجدال مع المشركين، والدعوة إلى الله بالمنطق والحُجة البيِّنة، و لكنَّه ليس جهادًا جسديًّا، إذ إنَّ هذا هو مضمون "ملة" أو "ململة" إبراهيم في إصراره على الوصول إلى الحقائق الكاملة وعدم الرضا بأنصاف الحلول. وحتى لا يفهمنا أحدٌ خطأ فإنَّ هذا فهمنا لمفهوم الجهاد في هذه الآية فقط، و لا ينطبق - بطبيعة الحال- على آيات أخرى ربطت الجهاد باسترجاع الحق المسلوب ورفع الظلم والدفاع عن النفس، إذ إنَّ لكل مقامٍ مقالا .

بهذا التفسير لكلمتي (مقام إبراهيم) و(ملة إبراهيم) يتضح لنا أنَّ سيرة إبراهيم قد رُوِيت في القرآن بلغة تتحدى العقل وتستفزُّه للتفكير، وأنَّ اتباع أسلوب إبراهيم - عليه السلام- يجعل الإنسانَ سائرًا على خطاه متململًا كمِلَّته، ساعيًا إلى أن يرفعه الله إلى مقامه الكريم، ويتخذ من مقامه صلةً مع الله -تعالى- ليتحققَ معنى الإسلام فيه قلبًا وقالَبًا. نعود إلى قصة العهد مع إسماعيل وإبراهيم:

بعد أن روى الله - جلَّ جلاله- لإبراهيم قصةَ ذلك البيت، عهِد إلى إبراهيم وابنه إسماعيل بعد أن يكبر، بأن يطهرا بيت الله للطائفين والقائمين والركع السجود. نلاحظ هنا أيضاً أنَّ الله لم يقلْ له "هذا البيت"، إذ إنّه لم يكن عند البيت حينها، ولكنَّه وصفه بأنَّه "بيتي"، أي أنَّ القصة كلَّها ما زالت رواية من الله لإبراهيم ،و وعداً منه وتكليفاً له ولإسماعيل أن يقوما بهذا الواجب في المستقبل .

من المفيد هنا أن نسوق قصة العهد الذي عهده الله - تعالى- إلى إبراهيم وإسماعيل كما حرَّفها اليهودُ الذين ما أرضاهم - بطبيعة الحال- أنَّ ذلك العهد قد مُنح لإبراهيمَ وإسماعيلَ زمنًا قبل ميلاد إسحاق-عليهم جميعًا أفضل الصلاة والتسليم-. فقد روت توراة اليوم أنَّ العهد قد تمَّ أولا مع إبراهيم وسلالته بعد ميلاد إسماعيل و قبل ميلاد إسحاق، ممَّا يُوحي بأنَّ الابنَ المقصودَ بالعهد كان إسماعيل:

{ثم ولدت هاجر لإبرام ابنًا فدعا إبرام ابنه إسماعيل، وكان إبرام في السادسة والثمانين من عُمُره عندما ولدت له هاجر إسماعيل}" سفر التكوين 16:15-16" . وتمضي التوراة:

{ وعندما كان إبرام في التاسعة والتسعين من عُمُره ظهر له الربُّ قائلاً: " أنا هو الله القدير ، سِرْ أمامي وكن كاملاً، فاجعل عهدي بيني وبينك وأكثر نسلك جدا". فسقط إبرام على وجهه، فخاطبه الله قائلاً: " ها أنا أقطع لك عهدي، فتكون أباً لأمم كثيرة. ولن يدعى اسمك بعد الآن إبرام " ومعناه الأب الرفيع" بل يكون اسمك إبراهيم " ومعناه أب لجمهور" لأنِّي أجعلك أبا لجمهور من الأمم، وأصيرك مثمرًا جدا، و أجعل أُمَما تتفرع منك، ويخرج من نسلك ملوك. و أقيم عهدي الأبدي بيني وبينك، وبين نسلك من بعدك جيلاً بعد جيل، فأكون إلها لك ولنسلك من بعدك. وأهبُك أنت وذريتك من بعدك جميع أرض كنعان، التي نزلت فيها غريباً، ملكاً أبدياً وأكون لهم إلها} "سفر التكوين 17:1-8" .

لا يخفى على القارئ مدى تَكرار العهد مع إبراهيم وذريته من بعده في نصوص التوراة أعلاه، في زمنٍ ما كان إبراهيمُ حتى يعلم أنَّه سيكون له ولد من سارة التي طعنت في السنِّ آنذاك وكانت عاقرًا. وتمضي الآياتُ تشترط على إبراهيم أن يختن نفسَه وإسماعيل وكلَّ الذكور في بيته تعبيرًا عن عهده مع الله وقد فعل. ولكنَّ توراة اليوم تمضي ليفاجئ القارئَ ببَصَمات اليهود يضيفون ألفاظًا تخصص العهد لإسحاق وتستثني إسماعيل، ممَّا يتناقض مع النصِّ السابق ويؤكد تحريفهم للتوراة حسدًا لبني عمِّهم إسماعيل:

{ وقال إبراهيم: "ليت إسماعيل يحيا في رعايتك " . فأجاب الربُّ :" أنَّ سارة زوجتك هي التي تلد لك ابنًا وتدعو اسمه إسحق " ومعناه يضحك" . و أقيم عهدي معه ومع ذريته من بعده عهدًا أبديًّا. أما إسماعيل، فقد استجبت لطلبك من أجله فسأباركه حقًّا، وأجعله مثمرًا، وأُكْثِرُ ذريتَه جدًّا فيكون أبا لاثني عشر رئيسًا، و يصبح أمَّة كبيرة. غير أنَّ عهدي أبرمه مع إسحق الذي تنجبه لك سارة في مثل هذا الوقت من السنة القادمة} "سفر التكوين 17:18 -21" .

و لعلَّ الواقعَ قد كذبهم في أشياء كثيرة، فجميع أرض كنعان الآن سكنها ولد إسماعيل، وبنو إسحاق يصارعون بمساعدةِ كلِّ قوى العالم للسيطرة على أرضٍ اغتصبوها من أطفال الحجارة في فلسطينَ وهم عن ذلك عاجزون، فضلًا عن أنَّ بني إسحاق ليس لديهم حدثٌ أو مكانٌ يسوّغون به ذلك "العهد" يشابه بيت الله الحرام في بكةَ وملايين الحجيج يحجون إليه من كلِّ بني آدم كلَّ عام.

إذنْ فالعهدُ قد تـمَّ مع إسماعيلَ زمنًا قبل ميلاد إسحاق، لكنَّ التحريف في قصة التوراة قد امتد ليجعل قصة العهد وكأنَّها قد تمت قبل عامٍ من ميلاد إسحاق - عليه السلام- ؛ حتى يحدثَ خلطٌ بين وَلَدَي إبراهيم في قصة العهد. و غير أنّا نظنُّ من فهمنا للقرآن والتوراة أنَّ العهدَ كان هديةَ ميلادِ إسماعيلَ، أي أنَّه تمَّ فورَ ولادته وختانه، فضلا عن أنَّ العهد -أصلا- كان لسِدانة البيت و رعاية ضيوف الرحمن إلى الأبد، بالإضافة إلى حفظ سرِّ الإنسانية وبَدء خلق الإنسان وتطوره، وهذا كلُّه ارتبط بإسماعيلَ وذريتِه التي انحدرت في مكة.

نعود إلى قصة إبراهيم في القرآن: كما رأينا فالآياتُ السابقة تشير إلى أنَّ الله - سبحانه وتعالى- ابتلى إبراهيم بمعلومات مجسمة "كلمات" مرتبطة بالبيت الذي عهد إليه وإسماعيل أن يطهراه للحجيج، وشرح اللهُ لإبراهيمَ أحداثًا وقعت حول البيت في زمانٍ مضى، وأكمل إبراهيم بقية القصة باستنتاجاته.

لا ندري بعد كم من الزمن هاجر إبراهيم بابنه إسماعيل الرضيع وأمه الأميرة المصرية هاجر -عليهم السلام- إلى" بكة"، وهناك دعا إبراهيم دعاءً فيه ذاتُ المعاني السابقة، لكنَّنا نلاحظ اختلافاً في الكلمات التي عبَّر بها عن دعائه:

"...هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا... ":

﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ " 35-39 إبراهيم" .

نلاحظ من هذه الآيات ما يأتي:

1- أنَّ إبراهيم هنا يتحدث عن "البلد" معرفًا بالألف واللام، ممَّا يدلُّ على أنَّ هذا البلدَ أصبح معروفًا لديه عكس قوله السابق "اجعل هذا بلدًا آمنًا"، وهذا يدلُّ على أنَّ هذا الدعاءَ كان عند البيت في مكة، بينما كان الدعاءُ السابقُ في الشام قبل أن يصل إلى مكة.

2- أنَّه تحدث بلغة إمام "الناس"، وأنَّه - الآن- يعلمُ أنَّ من ذريته من سيعصي، ولكنَّه ما زال يستغفر لهم.

3- أنَّ مكة كانت واديًا غيرَ ذي زرع وليس فيها أحد.

4- كان يعلمُ أنَّ هذا الوادي عند البيت الحرام، علمًا بأنَّه لمَّا يرفعْ قواعدَه بعد، إذ إنَّ هذا حَدَثَ بعد سنوات وبعد أن شبَّ إسماعيل. هذا يدلُّ أيضًاعلى أنَّه كان على علمٍ بقصة البيت السابقة ومدى حُرمَته قبل أن يأمره الله ببنائه سنوات طويلة بعد هذا الدعاء.

5- كان يعلم بعبادة الأوثان التي وقعت عند البيت في الماضي.

6- أنَّه كان يعلم أنَّ هذا الوادي الجاف هو مكانٌ لصلاةٍ خاصةٍ بين العبد وربِّه، وأنَّ ذريتَه ستقيم الصلاةَ هنا رغم أنَّ البيت لم يكن موجودًا حينها.

7- لم يخفِ إبراهيمُ عواطفَ الأبِ الشيخ الهرم وهو يترك ابنَه الوحيدَ وأمَّه في هذا الوادي الجاف، ولكنَّه خاطب ربَّه بلغة غاية في الأدب، معبرًا عن إيمانه بأنَّ الله يعلم ما ظهر من طاعته وانصياعه للأمر وما خفي من عطفه وشفقته على وحيده و زوجته. و نحن نظنُّ أنَّ ذكْرَ إسحاق هنا - والذي كان سابقاً لميلاده - يشير إلى أنَّ الله ربَّما أخبر إبراهيم بمقدم ابنه الثاني إسحاق في المستقبل؛ حتى يَطمئنَّ قلبُه إلى أنَّ الله سيحفظ ذريته ويمنحُهُ المزيد.

نعلمُ من التاريخ الإسلامي ومن القرآن، أنَّ هاجر لمَّا نزلت إلى الوادي مع رضيعها إسماعيل لم يكن فيه أيُّ معْلَمٍ إلا جبلين غريبين صغيرين، هما جبلا الصفا والمروة، إذ إنَّ البيت لم يكن موجودًا حينها. ونعلمُ أيضًا من السنة أنَّ ابن

عباس قال: "إنَّ أولَ مَن سعى بين الصفا والمروة لَأمُّ إسماعيل"، وقال أيضًا: إنَّ إبراهيم لمَّا همَّ بالرحيل اتبعته هاجرُ، فقالت: "إلى أيِّ شيءٍ تكلنا؟ إلى طعام تكلنا؟ إلى شراب تكلنا؟ فجعل لا يردُّ عليها شيئًا، فقالت: اللهُ أمرك بهذا، فقال : نعم، قالت : إذنْ لا يضيعنا ".

نحن نفترض أنَّ ما دار بين هاجرَ وإبراهيمَ قبل رحيلِهِ ربَّما كان حديثًا طويلا روت لنا السنةُ منه مقتطفاتٍ فقط ، إذ إنَّ هاجر أقامت الصلاةَ فورَ رحيل إبراهيم - عليه السلام-، ولكنْ أيَّة صلاة والبيتُ لم يكن موجودًا؟ تُحدثنا السنة أنَّ هاجر تركت إسماعيل على الأرض على بُعد بضعة أمتار من ركن الحجر الأسود الحالي، و صَعِدت إلى جبل الصفا سائلةً الله - تعالى- ما شاءت، ثمَّ نزلت تهرول في بطن الوادي إلى أن صَعِدت إلى المروة، فسألت ما شاءت ثم عادت إلى الصفا وهكذا. روى بعضُ السلف أنَّ هاجر كانت تبحث عن ناس ربَّما يكونون عوناً لهما(هي و ابنها) في وحدتهما، وأنَّ صعودها إلى الصفا والمروة ما كان إلا لتتمكن من الرؤية. ولكنَّنا نظنُّ أنَّ هاجر كانت قد وضعت أملها في الله، أ لم تقل لإبراهيمَ في يقين : إذنْ لن يضيعنا ؟. ولذلك نظنُّ أنَّ ما فعلته بين الصفا والمروة إنَّما كان "**تطوفًا**"، وليس بحثًا عن عون إلا مِن الله الذي لن يضيعهما؛ لأنَّ هذه كانت **صلاة الإنسان الأول** يوم "تلقى آدم من ربِّه **كلمات**"، أي طرحها بمجهودٍ في وضعين متقابلين متساويين هما جبلا الصفا والمروة، كما نظنُّ .

هذا الافتراض تدعمه أدلةٌ أخرى، فعَلاقة إبراهيم بالبيت قد رواها القرآنُ من زوايا مختلفةٍ، أهمُّها هنا هذه الآية التي حيَّرت المفسرين في لغتها، و تحتاجُ منا لنظرة عميقة:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ ﴾ "26 الحج" .

"**بوأ** " في اللغة لها معنيان: أحدهما الرجوع للشيء، والآخر تساوي شيئين، كما تقول العربُ : فلانٌ باء بفلان أي أصبح كفوًا له. و كما قال ابنُ آدمَ الظَّالِمِ :﴿ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ "29 المائدة" .

"**مكان**" فيها خطأ شائعٌ في الفهم حَسْبَ ما ورد في معجم مقاييس اللغة، إذ إنَّها لا تعني الموقع الجغرافي، ولكنَّ أصلها من "كون"، والكونُ أصلٌ يدلُّ على الإخبار عن حدوث شيء، إمَّا في زمان ماضٍ أو زمان راهن. "كان الشيءُ يكون كوناً" إذا وقع وحضر. أمَّا "مكان" فقد اشتقت من "كان يكون" فلمَّا كثُرَ استعمالُ الميم توهم النَّاس أنَّها من أصل الكلمة، أي أنَّها أصلًا تعني "ما كان".

ورد في معظم التفاسير أنَّ المعنى العام لهذه الآية، هو أنَّ الله "بيَّن لإبراهيم موقع البيت ليقوم ببنائه" ،انطلاقاً من أنَّ هذا جزءٌ أساسي من عَلاقة إبراهيمَ مع البيتِ العتيق. و ليس غريبًا أنَّ التفاسير قد أجمعت على أنَّ هناك إشكالًا في فهم حرف اللام في " لِإِبْرَاهِيمَ" ،إذ إنَّ الطبيعي أن يقول "بوأنا إبراهيمَ مكان البيت" كما قال الله - تعالى- :{وَلَقَدْ بَوَّأْنَا

بني إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ..}" 93 يونس". فأصبح المعنى المتعارفُ عليه هو ما أسلفنا من قول المفسرين، وهو أنَّ الله أبان له موقعَ البيت، ولكنَّ "اللام" ظلت تمثِّل إشكالًا لُغويًّا في تفسير "لِإِبْرَاهِيمَ".

و نحن نظنُّ أنَّ مدلولَ الآيةِ هو أنَّ الله قد "أرجع لإبراهيم"، أي قصَّ عليه "ما كان حول البيت" من أخبار في زمن سابق. هذا التفسيرُ يَحُلُّ إشكالَ اللام في " لِإِبْرَاهِيمَ"، ويضفي معانيَ أعمقَ للآية من غير إشكالٍ لُغوي، إذ إنَّه بعد أن عرف إبراهيم أخبار البيت و ما كان حوله، كان طبيعيًّا أن يذكِّرَه اللهُ بتحريم الشرك به؛ لأنَّ شرك الإنسان الأول بالأنعام التي أنزلت له حدثٌ مهمٌّ من الأحداث التي كانت ممَّا كان عند البيت في الماضي. ولأنَّ إخبار إبراهيم بما كان حول البيت كان جزءاً من تسليمه العهد، و مسؤولية تطهير البيت ليكون قبلةً للطائفين والقائمين والركع السجود، فقد كان طبيعيًّا أن يؤمر بأن يؤذن في الناس بالحج ويدعو بني آدمَ للعودة **و المثابة** لبيت آبائهم.

و نحن نظنُّ أنَّ إقامة الصلاة التي تحدث عنها إبراهيمُ في الآيات السابقة حينما أسكن ذريتَه عند البيت الحرام، لم تكن بالضرورة الصلاةَ التي نمارسُها الآنَ بوصفها ركنًا ثانيًا في الإسلام، إذ إنَّ كلَّ الأنبياء قد عبدوا الله وأقاموا الصلاة ولكنْ بصور مختلفة؛ لأنَّ الصلاة تعني الصلة مع الله - تعالى- و إنْ اختلفت الأشكال.

فإذا عدنا للحديث الذي وصف صعود الأميرة هاجر الصفا، ثمَّ نزولها وصعودها المروة، فإنَّنا نفهم أنَّها إنَّما "**أقامت الصلاة**"، بالصورة الوحيدة التي عرفتها من إبراهيم بعد أن بوَّأ اللهُ له ما كان حول البيت من أحداث في زمانٍ غابرٍ، حينما سكنت عنده مجموعةُ آدم واستغفروا لذنوبهم حينما "تلقى آدم من ربِّه كلمات"، أي طرح بصعوبة مجسماتٍ أنزلها الله إليه بعد معصيته؛ ليعبِّرَ بها عن ندمه، ولتكون أولَ عبادةٍ يمارسها الإنسانُ حول البيت. و لعلَّ في قصة الرؤيا دليلاً آخرَ على أنَّ آلَ إبراهيم في مرحلة من مراحل الرسالة لم يكن قد اتضح لهم ماذا كان قد صحَّ من عبادة الإنسان الأول وماذا حرَّم الله - تعالى- ، بدليل أنَّه هَمَّ بتطبيق الرؤيا بذبح ابنِه بكلِّ رِضاً لمَّا فهم أنَّها من عبادات الإنسان الأول التي أخبره اللهُ عنها. ربَّما يكون في هذا تأكيدٌ على أنَّ الله أراه كلَّ ما دار حول البيت أولاً، ثمَّ أتبع ذلك بتصنيف تدريجي لِمَا أجازه الله وما حرمه، فكان ممَّا أجاز التطوف بين الصفا والمروة، و ممَّا حرَّم ذبح الأبناء، والله أعلم. وهذا التفسير ربَّما يفسرُ لنا صيغةَ إباحةِ التطوف، و كأنَّه كان هناك عباداتٌ ارتبطت بالسعي لم تُبَحْ:

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ ﴾ " 158 البقرة" .

من الملاحظات المهمة جداً في هذه الآية أنَّ الله وصف العبادة التي تُمارَس بين الصفا والمروة بـ **التطوف**، وليس "السعي" كما هو متعارفٌ عليه بين المسلمين، وسنعرف - لاحقاً- الفرقَ بين السعي والتطوف. كلمة "جُناح" تعني الإثم والميل عن الحق، واستعمالها هنا يفيد أنَّ آثاماً كبيرة وقعت هنا، و لكنَّ التطوفَ ليس من تلك الآثام ولا جناحَ علينا فيه. هذا المفهوم يشرحُ لنا الحكمةَ من استعمال كلمة "فديناه" التي سنناقشها حينما ننظر لقصة الفداء من زاوية أخرى في باب "آذان الأنعام" إن شاء الله.

و ممَّا يؤكد أنَّ مفهومَ الصلاة عند البيت لا يتطلب بالضرورة أن تكون صلاةَ المسلمين التي نعرفها الآن، أنَّ الله وَصَفَ عبادةَ الكفار عنده بالصلاة أيضاً: {وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَة...}"35 الأنفال" .

و حتى نلقيَ مزيداً من الضَوء على هذين الجبلين علينا أن نبحث في مدلولات اسميهما في اللغة:

فالصفا: من الصفو وهو الخلوص من كلِّ شوب، أي النقاء! وسُمِّي الحجر صفوان إذا كان خالصاً من طين ورمل وهي من شوائب الأرض. أمَّا **المروة** فتعني: الحجر الذي يبرق، و جمعها "مرو" أي الحجارة البرَّاقة. إنَّ تسمية هذين الجبلين بهذين الاسمين اللذين وردا في القرآن، لَهو دليلٌ آخرُ على أنَّ أصلَهما ليس من حجارة الأرض، ويدعم ظنَّنا أنَّهما "**الكلمات**" أو المجسمات التي طرحها آدمُ في وضعين متقابلين تعبداً إلى الله، وهو ما يفسِّرُ لنا سرَّ عبادة التطوف بين **الصفا والمروة**، التي مارستها هاجرُ كأول صلاة لها عند البيت، و ممَّا لا شك فيه أنَّ الصفا والمروة من شعائر الله، أي آياته المنزَّلة .

نحن لا نعتقد أنَّ هاجر كانت تبحث عن مارَّة أو عابري سبيل بصعودها إلى الصفا والمروة، إذ إنَّها تعلم أنَّ القوافل لا تمرُّ بوادٍ غير ذي زرع، فضلاً عن أنَّ نتيجة "تطوفها" كانت أنْ فَتَحَ الله - تعالى- لها ولإسماعيل زمزمَ فورَ فراغِها من التطوف بين الصفا والمروة، ممَّا يدلُّ على أنَّها كانت في حالةِ عبادةٍ وصلاة، وليست في حالةِ بحثٍ عن بشر. فقد كانت حاجتها عند الله وليس عند الناس، واستجاب الله لصلاتها تلك بزمزم.

و ممَّا يؤكد أنَّ إبراهيم وهاجر كانا على علم بالتطوف بين الصفا والمروة ممَّا عَلِمَا من أخبار البيت، هو أنَّ الله - عز و جل- قد وصفه بـ " **السَّعْيَ**" في سرد قصة رؤيا إبراهيم وهو يذبح ابنه. فقد تركهما(هي و ابنها) عند البيت ثمَّ حدث ما نعرفه من مجيء قبائل جرهم وسكنهم معهم، ثمَّ عاد إبراهيمُ وقد شبَّ إسماعيل، فحدث ما يأتي:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ " 102-108الصافات" .

"بلغ": لها معنىً واحدٌ، وهو الوصول إلى الشيء كما ورد في المعجم.

"السعي":السعو هو القطع، و سَعْوٌ من الليل تعني قطع منه. وسعاية العبد إذا كُوتِبَ أن يسعى فيما يفكُّ رقبته .

فإذا كان "البلوغ" هو الوصول إلى الشيء، وكان المقصود هو: "حتى وصل إسماعيل في عُمُره إلى أنْ يسعى ويشقي مع أبيه"، فقد لا نحتاج لـ "معه" لتدل على أنَّ إبراهيم أيضاً كان يسعى؛ لأنَّ ذلك معلومٌ بالضرورة. فضلاً عن أنَّه معلوم أنَّ إسماعيل نشأ في مكةَ بعيداً من أبيه الذي كان في الشام أغلب الوقت، أي لم يشاركْهُ أعمالَه، و لذا فإنَّ "بَلَغَ مَعَهُ **السَّعْيَ**" فيها غموضٌ لُغويٌّ يحتاج إلى بحث .

استعمل القرآنُ كلمة **(سعى)** في مواقعَ مختلفةٍ كلُّها تشيرُ إلى "العمل المتقطع":

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ ﴾ "19 الإسراء"، فسَعْي الآخرة هنا هو مجموعُ أعمال الخير المتفرقة من: صلةِ رحمٍ وصدقاتٍ وعباداتٍ وغيرِها، لتتجمع "القطع" وتشكل سَعْيَ الخير. على أنَّ أبلغَ استعمال لها بمعنى "القطع" كان في وصف حال الطير الذي قطعه إبراهيمُ أجزاءً، و فرَّقه على أربعة جبال ثمَّ دعاه، فأتت **القطع** بأمر الله لتتجمع في يده:

﴿ .... قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ .... ﴿٢٦٠﴾ ﴾ "260 البقرة" .

من هنا نفهم أنَّ إبراهيمَ وإسماعيلَ وصلا موقعاً وصفه القرآنُ بصورةٍ غامضةٍ بلفظ يعني "**القطع**"، ممَّا يستوجبُ بحثاً دقيقاً في مضمون الآية.

لمَّا رجعنا إلى التفاسير المشهورة لنقفَ على رأي المفسرين، فوجئنا بأنَّ مضمونَ هذه الآيةِ فيه خلافٌ أكبر من تأويل " السعي". فقد ذكر ابنُ كثير والطبريُّ والقرطبيُّ وغيرُهم أنَّ الابنَ المقصودَ بـ " الذبح" كان إسحاقَ وليس إسماعيل، ممَّا يدلُّ على أنَّ تفاسير هذه الآية أَخذت حرفيًّا من توراة اليهود المغلوطة، الأمر الذي يجعلُها تحتاجُ لمراجعةٍ شاملة.

ليس هناك نصٌّ واحدٌ عن الرسول - صلى الله عليه و سلم- يقطعُ تفسير الآية، أو يقطع الشكَّ في هُوِيَّة الابن المقصود بالذبح. على أنَّ الغالب هو أنَّ الصحابة الذين نقلت رواياتُهم في تفسيرها قد نقلوا ذلك المعنى من اليهود الذين جاوروهم في المدينة، وقد رأينا كيف أنَّ اليهودَ حرَّفوا اسمَ الابن المقصودِ في التوراة تحريفًا ظاهرًا ليَحُلَّ إسحاقُ مكانَ إسماعيلَ في أمر العهد. فالتوراةُ - كما ذكرنا- وصفت الابن بأنَّه ابن إبراهيم الوحيد، ولكنَّ اليهود أضافوا لذلك " ابنك وحيدك إسحاق"، وهو لفظٌ فيه خللٌ لغوي؛ لأنَّ إسحاق - و بلا شك- كان الابنَ الثاني بنصِّ التوراة والقرآن، و لم يكن الابنَ الوحيدَ لإبراهيمَ في أيِّ يومٍ من الأيام. إذنْ فاليهودُ حاولوا ربطَ الفداء بإسحاق حسداً من عند أنفسهم، ثم انطلى هذا التفسير على بعض المفسرين في زمانٍ كان فيه تناقلُ المعلوماتِ بين الدياناتِ محدودًا .

ونحن نضيف رأينا للآراءِ التي تقول أنَّ الابنَ المعنيَّ بالذبح هو إسماعيل للأسباب الآتية:

1- أنَّ الشروع في الذبح تمَّ عند البيت الحرام، وقد ثبت أنَّ قرني الكبش الذي فُدي به إسماعيل كانا موجودين في البيت إلى عهد النبيِّ - صلى الله عليه وسلم-. والمعروف أنَّ إسماعيلَ هو الذي عهد اللهُ إليه بالبيت وليس إسحاق، ممَّا يرجِّحُ أنَّه هو المقصودُ بالذبح ومن ثَمَّ الفداء.

2- أنَّ إسماعيل كان الابنَ الوحيدَ لإبراهيم لثلاثَ عشرةَ سنة، و يبدو لنا أنَّ امتحانَ الله له في ابنِهِ الوحيدِ أبلغُ أثراً من أن يمتحنه في ابنه الثاني؛ لأنَّ الاختبار هنا يكون أعظم .

3- أنَّ الآياتِ التي روت تفاصيلَ الرؤيا والشروع في الذبح، تلتها آية البُشرى لإبراهيم بإسحاق بصريح اللفظ ، ممَّا يؤكِّدُ أنَّه ساعةَ الذبحِ لم يكنْ إسحاقُ - أصلا- موجودًا في ذرية إبراهيم.

4- من المنطقي أن يُكرم اللهُ إبراهيمَ الذي صدق الرؤيا وقبل ذبح ابنه الوحيد، بابن ثانٍ لم يكن في الحسبان جزاءً على طاعته، وهذا الابن الثاني هو إسحاق .

5- أنَّ سُنَّة ذبحِ الأنعام في عيد الأضحى ظلت موجودةً عند البيت في بني إسماعيل حتى في الجاهلية، ممَّا يؤكِّدُ أنَّ الحدثَ وقع عند البيت، وأنَّ المقصود كان إسماعيلَ أبا العرب وليس إسحاق أبا اليهود.

6- أنَّ العرب كانت تعرف الذبيح إسماعيل، ولذلك سُمِّيَ النبي - صلى الله عليه و سلم- بابن الذبيحين؛ لأنَّه ابن عبد الله من ولد إسماعيل الذبيح الأول.

و لمَّا كان رأيُ جموع المفسرين اللاحقين أنَّ المقصود بالذبح هو إسماعيلُ وليس إسحاق كما ورد في التفاسير القديمة، فإنَّنا نراجع تفسير الآية كلِّها لِمَا نظنُّ أنَّ له عَلاقة بـ ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ ....﴿٢٦﴾ ﴾

إذ إنَّنا نظنُّ أنَّ الامتحان بالذبح كان امتداداً لقصة الآباء التي قصَّها اللهُ - تعالى- لإبراهيم ممَّا حدث حول البيت. فضلًا عن أنَّ الاختلاف على تحديد هُوِيَّة الابن، موضوع الذبح، يدلُّ على أنَّ المفسرين القدامى ربَّما لم يُوَفَّقوا لربط عملية الذبح والفداء بأحداث مهمة في الماضي والمستقبل، تُحتم عليهم تحديد ولدٍ واحدٍ من أولاد إبراهيم لعَلاقته بمضمون الآية، وما سبقها وما تلاها من أحداث، كانت بالطبع غائبة عنهم.

نعود إلى الآية:

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ ..﴿١٠٢﴾ ﴾.

نعتقدُ أنَّ ما حدث هو أنَّ إبراهيم وإسماعيل بلغا معاً مكاناً وصفه القرآن بـ "السعي" ويعني "القطع"، أي أنَّ السعي هنا يشير إلى اسم معنى أو ذات لا إلى حدث أو عمل. والمعروف أنَّ مكان السعي هو الصفا والمروة، وهو المكان الذي عبَّرت فيه مجموعةُ آدمَ عن ندمها على معصية الله، و تعبدوا فيه إلى الله بأولى صلوات الإنسان. وقد رأينا في باب "في وادي المزدلفة" أنَّ الصفا والمروة هما "الكلمات" التي طرحها آدم (اسم الجنس وليس نبي الله المصطفى آدم) بمجهودٍ تعبيرًا عن توبته؛ ليفكَّ رقبته من الذنب الذي ارتكبه. وتلك الكلمات كانت بنصِّ القرآن "من ربِّه" أي أنَّها كانت من خارج نطاق معرفته، وقد افترضنا أنَّها حجارةٌ أُقتطعت من كوكبٍ خارجَ إطار الأرض. و هذا ما يشرحُ لماذا وصفها اللهُ هنا فقط بـ "السعي" ويعني به "القطع"، إشارة إلى تلك الحجارة المقتطعة من خارج الأرض.

و هنا يأتي الربطُ بين ندمِ الإنسان الأول في محاولته الحصولَ على الأبناء و عادةِ ذبح بعضهم توبةً إلى الله "فك الرقبة من الإثم"، وهو المعنى الثاني لكلمة "سعى"، ثمَّ أصبح ذبحُ الأبناء عادةً بين تلك المجموعة. و لأنَّ الله -تعالى- أراد للرؤيا أن تكون ذاتَ مدلولٍ عمليٍّ ومتصلٍ بأصل القصة، قدَّر لإبراهيم أن يصارح ابنَه إسماعيلَ برؤيته لمَّا بلغ معه "السعي"، لِمَا في هذا المكان الغامض الذي يقع بين اثنين من شعائر الله الحرام، جبلي الصفا والمروة، من ارتباطٍ وثيقٍ بعادة ذبح الأبناء وتاريخها في الأرض. و لأنَّ الله أراد للرؤيا أن تكون بديلاً لعادة سيئة بسنة حسنة، وهي ذبح بهيمة الأنعام تقربًا إلى الله، فقد ربطها ربطًا تشخيصيًّا وجغرافيًّا وزمنيَّاً "بالسعي"، الذي هو ركنٌ من أركان الحج، والذي هو - أصلاً- تقليدٌ و تمثيلٌ عمليٌّ لمسارِ الإنسان الأول وتوبته من المعصية الأولى. بهذا التفسير للآية يكون المدلولُ اللغويُّ {بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ} ذا معنىً أعمق، ويكون المدلولُ التاريخيُّ ذا معنىً أبلغَ أيضاً؛ لارتباط الآية بقصة

البيت "وإذ بوأنا لـ إبراهيم مكان البيت"، ويكون لها معنىً أبلغ أن ترتبط بسلوك الإنسان الأول حين هبط إلى الأرض، الشيء الذي يمثل الحَجَّ تمثيله العمليَّ وذكراه السنوية، وبذلك يصبحُ لسنة الأضاحي معنىً ذو مدلولاتٍ كثيرةٍ تعبُّديَّةٍ وتاريخيةٍ و إعجازية. وبهذا المعنى نفهم لماذا أمر الله بعبادة التطوف بين الصفا والمرة بـ: "لا جناح"، إذ إنَّها العبادةُ السليمةُ الوحيدةُ التي بقيت ممَّا كان فيه جُناح عند السعي.

هذهِ المعاني العميقةُ للرؤيا تشرحُ وصفَ الله لإبراهيم بـ ﴿ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾، إذ إنَّ (التصديق) يعني قوة في الشيء حَسْبَ المعجم، وهذا يدلُّ على أنَّ الرؤيا لم تكن مجرَّدَ رؤيا، و إنَّما تحكي قصةً ذاتَ أبعادٍ يصعب تصديقُها إلا إذا كانت من الله، وكان المُحسِنُ الذي صدَّقها هو إمام الناس وصاحبُ الملة الحنيفية الذي وصفه الله - سبحانه و تعالى- بأنَّه أمَّة .

ونحن نظنُّ أنَّ في الرؤيا نفسِها نوعًا من "الإعجاز الفني في القرآن"، إذ إنَّ كلَّ خُطُوات الإنسان الأول يمكنُ تقليدها لدرجة كبيرة، غير أنَّه لم يكنْ ذبحُهم لأبنائهم ليُمَثَّلَ إلا برؤيا يُصدِّقها النبيُّ ويشرع في تنفيذها قبل أن يفديَ اللهُ ابنَه بالكبش. فتمَّ استبدال ذبح الأبناء بذبح الكبش في ذات المكان ،ثمَّ أصبح ذبحُ الهدي والأضاحي سنةً باقيةً وجزءًا مهماً من تمثيلية الحجِّ الكبرى في إحياء ذكرى هبوط آباء الإنسانية إلى الأرض، وأصبح التطوُّفُ لا جُناحَ فيه بعد أن حُرِّم كلُّ ما كان فيه جُناحٌ من انحرافات الإنسان الأول. أمَّا سرُّ كلِّ هذه الحجارة الغريبة على كوكب الأرض من الجمرات إلى الحجر الأسود إلى السعي وعَلاقتها بالحركة المنتظمة بينها في شكل تطوف أو رجم الشيطان، فسندرسها من زاويةٍ علميةٍ مستهدين بعلم الفيزياء النووية والطاقات الكامنة عندما ندرس موقع مكة والبيت العتيق والقبلة في باب "سدرة المنتهى" - إنْ شاء الله-. كما سنعود مرة أخرى للفظ "فديناه" في باب "آذان الأنعام"، إذ إنَّ الله لا يحتاج إلى الدخول في مقايضةِ فداءٍ مع أحدٍ لكنَّ اللفظَ يحكي بُعداً آخرَ من قصة الحج .

وقبل أن نختم هذا الباب الذي ارتبطت أحداثُه بالمثابة لبيت الآباء، يستحسنُ أن نلخص ما خلصنا إليه في نقاط:

1- وصل إبراهيم – عليه السلام - إلى صفات الإله الحق؛ فاتصل الله به، ثمَّ قَبِلَ إبراهيمُ أنَّ الإنسان يمكن أن يحييَ ما التبس على الناس موته فأراه الله كيف يحيي الله وحده الموتى.

2- في كبره اشتاق إبراهيم للولد، وتفكَّر مليًّا في أصل الخلق ووالد وما ولد، وسأل الله - تعالى- عن خلق الإنسان حينما رزقه إسماعيلَ؛ فاختبره الله وأخبره بمعلومات مجسمة "كلمات" لها عَلاقة بقصة الإنسان الأول، فأتمَّها إبراهيم ببديهته واستحقَّ أن يكون للناس إماما.

3- بوَّأ اللهُ لإبراهيم مكان البيت، أي قصَّ عليه ما كان حوله من أخبار في الزمن الماضي، ثمَّ عهد إليه وإلى إسماعيل تطهير البيت في المستقبل.

4- أخبر الله - تعالى- إبراهيمَ أنَّ هذا البيتَ سيكون مثابةً للناس، أي مركزًا لعودة كلِّ بني آدم؛ لأنَّه بيت آبائهم الأول، ودليلٌ يعينهم على تصديق ما دار حوله.

5- وصل إبراهيم بأمر من الله إلى مكان البيت وترك ذريتَه هناك، وهو حينئذ وادٍ غيرُ ذي ذرع، و أخبر هاجرَ أنَّ هذا أمرُ الله - سبحانه و تعالى- .

6- كانت هاجرُ تعلمُ أنَّ الله لن يضيعَهم فأقامت الصلاة الأولى وهي تتطوف بين الصفا والمروة "السعي"، لعلمها أنَّ هذه هي صلاةُ الإنسان الأول في هذا المكان الذي هو من شعائر الله، ففتح الله لهما(هي و ابنها) زمزم.

7- عاد إبراهيم بعد أن شبَّ إسماعيلُ وقصَّ عليه رؤيته أنَّه يذبحه لمَّا بلغ معه "السعي"، أي "الصفا والمروة" وهما قطع الحجارة المنزلة، لِما في هذا الموقع من ارتباط بقصة الإنسان الأول الذي سنَّ له الشيطانُ سنةَ ذبح الأبناء تقرباً إلى الله، ولأنَّه كان مكانَ توبة الإنسان الأول وعبادته لله.

8- لأنَّ إبراهيم قد صدق الرؤيا، و ربط الحقائق ببعضها، وأتـمَّ الكلمـات؛ أكرمَهُ اللهُ بفداء ابنه بكبش منزل، وهو نفسه من الأنعام التي هي من شعائر الله، منهياً بذلك سنة الشيطان في التقرب إلى الله بذبح الأبناء.

9- رفع إبراهيمُ وإسماعيلُ القواعدَ من البيت، وأذَّن في النَّاس بالحجِّ ليكونَ تقليداً حقيقياً لقصة الإنسان الأول، بربط الأبناء بأرض الآباء وربهم ونظام الكون و الخلق والتطور إلى يوم القيامة.

*　　　*　　　*　　　*

لقد رأينا أنَّ الجنَّة التي سكنها آدمُ كانت عند جبل عرفات الذي كان مروجًا، وسيعود مروجًا قبل قيام الساعة كما قال النبيُّ - صلى الله عليه وسلم -، و رأينا أنَّ الإحرامَ الذي يلبسه الحجيج إنَّما هو تقليد لـ " طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة" . ثمَّ رأينا كيف دلف الإنسانُ الأولُ إلى المشعر الحرام في وادي المزدلفة ليجمع الجمراتِ التي تمثل الحجارةَ التي أنزلت للإنسان الأول ليواجهَ بها الشيطانَ في الأرض.

ثمَّ رأينا كيف "تلقى" أي طرح آدمُ المجسماتِ التي لم تكن إلا " الكلمات" من ربِّه في شكل قطع حجارة جبلي الصفا والمروة "السعي"، وهي حجارةٌ صافيةٌ ذاتُ بريق، غريبةٌ على وادي مكة. ثمَّ رأينا كيف ابتلى الله إبراهيمَ بكلمات فأتمَّهُنَّ، وبَّوأ أي أرجع له ما كان حول البيت من أحداثٍ تهمُ الإنسانية. ثمَّ رأينا كيف أقامت هاجرُ الصلاةَ فورَ وصولها إلى البيت وهي التطوف بالصفا والمروة، ثمَّ جاءت رؤيا إبراهيم بذبح ابنه لمَّا بلغ معه "السعي"؛ لتربط بين سلوك الإنسان الأول في ذبح الأبناءِ و فداءِ الله له بالأنعام المنزلة التي هي من شعائر الله. هذه المناسكُ مجتمعةٌ تمثل ركنَ الحجِّ الإسلاميِّ الذي نمارسه الآن، والتي تعكس تاريخَ البيت وعلاقته بالإنسان و الذي يمكن تلخيصه في مرحلتين:

المرحلة الأولى: كانت مرحلة الخلق والتطور، و وجود الإنسان الأوَّلِ عند البيت، حينها كان مسكناً وبيتاً للمِّ شَمْلِهِ كضرورةِ حياة وليس عبادة.

المرحلة الثانية: بدأت عندما بوَّأ اللهُ لإبراهيم ذلك الماضي فتحول البيت الذي كان مأوىً للآباء إلى معبدٍ للأبناء، وأصبحت زيارته و **المثابة** إليه والتفكُّر في تاريخه عبادةً مفروضةً على بني آدم، و ستكونُ حُجَّة عليهم لِمَا فيها من آيات وجود الله وأصل الإنسان.

إذا نظرنا إلى مناسك الحجِّ اليوم فسنلاحظ أنَّنا لم نتطرق إلى الآن إلى "منى"، رغم أنَّها المكانُ الوحيدُ في طريق الحجيج الذي يؤدون فيه مَنْسكين مختلفين. فالمعروف أنَّ الحجيج يقضون الليلةَ قبل عرفات على أرض منى ... ثمَّ يعودون لرمي الجمرات فيها ... ما عَلاقة مِنى بخُطى الإنسان الأول وقضية الخلق والتطور؟

نعتقد أنَّه قد آن الأوان لأنْ نسترجع ما نعرفه عن الحجِّ في الإسلام لنقارن كلَّ أركانه وأحداثه بقصة الإنسان الأول؛ لأنَّه أصبح جلياً أنَّ الحج حُجة على الإنسانية جمعاء، إذ إنَّه تمثيلٌ للمثابة لبيت الآباء، وليس فقط عبادة مجردة تخصُّ المسلمين.

نزلنا في أبواب سابقة بـ "لغة الغراب" مع الإنسان الأول من جنَّة المأوى إلى وادي المزدلفة، وجمعنا الجمراتِ الملتهبةَ المنزَّلةَ من الكواكب الحمراء لرجم الشيطان في مِنى، وهنا سنمشي بـ "لغة الهدهد" على خُطى الحبيب محمدٍ وخُطى إبراهيمَ - عليهما الصلاة و السلام-، لنكمل قصة الحجِّ الذي جعله الله حُجَّة على الإنسانية جمعاء.

البـــــاب العاشــر
الحَجُّ حُـجَّةً على الـناس

في الباب الأخير سندرسُ موقعَ الأرض وهي تحتلُ موقعًا مركزيًّا بين السَّماوات السبع، ثمَّ موقعَ مكة من الأرض وهي تحتل موقعاً وسطاً من حيثُ :توزيع اليابسة، والتوازن المغناطيسي، والطاقات الكامنة في الكون، وأنَّها أولُ بقعة خرجت من تحت الماء لتبدأ عندها الحياة مطلقا. في الباب التالي سنفحصُ سُلَّمَ التطور المنزل في آذان الأنعام، ومن ثَمَّ نهتدي بسرِّه لنبحثَ في بَدء الخلق منذ أن كان عرشُه على الماء وبَدَأَ خلْقَ الأحياء كلِّها من ماء، ثمَّ خلق مخلوقات الأرض من وَحْدَةٍ واحدة انقسمت على نفسها لزوجٍ تطور إلى ملايين المخلوقات، فمنها ما تناسب ماؤه في سلم التطور فاتصل، ومنها ما انصهر ماؤه فطفر، إلى أن زحفت المخلوقاتُ ومشت على أربع ثمَّ اثنتين قبل أن يسوِّيَ اللهُ البشرَ فيعدِّله، إلى أن جمع مجموعةَ آدمَ ونَفَخَ فيها من روحه لينقُلَها إلى إنسان عاقل. أمَّا في هذا الباب فسندرسُ حُجَّةَ الله على الإنسانيَّة جمعاء.

مفـهوم المحاججة:

من الظواهر المؤسفة التي استجدت في زماننا هذا أنَّ الكثيرَ من المسلمين، علماء وعامَّة، أصبحوا يخلِطون بين مفهوم "**الدين**" و "**الخالق**"، و أصبح في فهمهم الضيِّق أنَّ الإسلام هو دينُنا بدل أن يكون دينَ الله، وأنَّه كما لنا معتقدٌ وللكفار معتقداتٌ فإنَّ لنا إلهاً ولهم آلهة، ناسين أنَّ الإله واحد هو الله الذي لا إله إلا هو، ربُّ مَن آمن به وربُّ مَن لم يؤمن به، وأنَّ الدينَ عند الله الإسلام . وقد رأيتُ رأيَ العين من المسلمين المتعصبين من يَسُبُّ المسيحَ - عليه السلام- في حوارٍ احتدم مع بعض النصارى، ظنّاً منه -على جهله- أنَّهم ما داموا قد عبدوا المسيح من دون الله فإنَّ سبَّهَ عبادةٌ والعياذ بالله.

بعد أن درسنا الجوانبَ الفكريَّةَ لشخص إبراهيم - عليه السلام- و وقفنا على مِلَّته، نطرحُ في هذا الباب منطقًا جديدًا مستوحى من مِلَّةِ إبراهيم، يفسرُ لنا لماذا أذَّن إبراهيم في الناس كافةً بالحَجِّ وليس في المسلمين فحسب . و لعلَّ أيَّ دارس للحجِّ في القرآن يجد آياتِه تدور حول محورين:

الأول - أنَّ الحَجَّ عبادةٌ للمسلمين، ولكنَّه **حُجَّة** على كلِّ الناس .

الثاني - أنَّ الحَجَّ ارتبط ارتباطاً غريبًا **بالأنعام** حتى كادت تكون ركناً من أركانه، ممَّا يُوحي بأنَّ في الأنعام سرًّا يرتبط بحُجَّة الحجِّ على الإنسانية.

و لعلَّ من الحكمة قبل أن نخوضَ في تفاصيل الحَجِّ أن نحاولَ فهمَ كلمة "حَج" نفسِها، وكيف ربطها القرآنُ بقصة إبراهيم - عليه السلام-، ممَّا يضفي معنًى أوسعَ على كلِّ بحثنا - إنْ شاء الله-.

"**الحَجُّ**"لغةً: هو القصد، وكلُّ حَجٍّ قصد. و"الحُجَّة" مشتقة منه لأنَّ بها يُقصَدُ الحقُّ المطلوب، يقال: حاججتُ فلاناً فحَجَجْتُه، أي غلبته بالحُجَّة والدليل الدامغ الذي هو أصل المحاججة. و قد وردت كلمةُ الحَج ومشتقاتُها في القرآن في مواقعَ كثيرةٍ ننقُلُ منها:

﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ **تُحَآجُّونَ** فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ **حَٰجَجۡتُمۡ** فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ **تُحَآجُّونَ** فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ " 65-66 آل عمران".

﴿ **وَحَآجَّهُۥ** قَوۡمُهُۥۚ قَالَ **أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي** فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ "80 الأنعام" .

﴿ **قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا** فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾" 139 البقرة" .

﴿ وَٱلَّذِينَ **يُحَآجُّونَ** فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ **حُجَّتُهُمۡ** دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ " 16 الشورى".

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي **حَآجَّ** إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ.... ﴿٢٥٨﴾ ﴾ " 258 البقرة" .

﴿ وَتِلۡكَ **حُجَّتُنَآ** ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ **نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ** مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ ﴾ " 83 الأنعام".

إنَّ قراءة هذه الآيات معًا، والتدبُّرَ فيها وَحدةً واحدة، ليس إلا تطبيقًا عمليًّا لمفهوم "رتِّل القران ترتيلا"، إذ إنَّ قراءةَ القرآن للدراسة والبحث في صورة أرتالٍ متشابهةٍ، يُوحي بأسرار وحِكَمٍ تخفى على مَن يقرأ الآياتِ المتشابهةَ في مضمونها كُلّاً على حدة .

قد لا يُصدِّقُ الكثيرون أنَّ جميع هذه الآيات ارتبطت بقصة إبراهيم - عليه السلام-، و كأنَّها ضربٌ آخرُ من ضروب "الإعجاز الفني في القرآن"، إذ إنَّ الله - تعالى- ربط ربطًا لُغويًّا وموسيقيًّا بين رسالةِ إبراهيم -عليه السلام- بكلِّ ما اشتملت عليه من حوارات، و استعمالِ كلمة "حَج" ومشتقاتها مِن حاجج يحاجج حجةً، وكأنَّه - سبحانه وتعالى-

يريدنا أن نربط بين قصةِ إبراهيم المفكر الباحث عن الحجج، و مِلَّة إبراهيمَ التي تقود إلى استنباط الحُجج بعد الململة، و أن نربط بين مقامِ إبراهيم الذي رُفع إليه نتيجة عبادته لله بعقله، و الحجِّ وهو القصد إلى بيت الله الذي بوَّأ ما كان حوله لإبراهيم، ثمَّ رَفع إبراهيم وإسماعيل قواعده، و جعله الله قِبلة للمسلمين حتى لا تكون للناس حُجَّة عليهم:

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ .... ﴿١٥٠﴾ ﴾ " 150 البقرة" .

و لعلَّ تلك الدرجاتِ التي رفع اللهُ - تعالى- إبراهيمَ إليها، هي مقامُه الرفيعُ الذي أمرنا أن نتخذ منه مصلى و صِلةً إليه - جلَّ جلاله-. و لا يخفى على القارئ هنا بيان السياق القرآني في انتقاء الألفاظ التي ترتبط بقصة إبراهيم المحاجِج، بنفس الصورة التي انتقى بها ألفاظاً رقيقةً وديعةً روى بها قصة مريم الأنثى الضعيفة، وألفاظاً عسكرية اشتملت عليها سورةُ التوبة، وكأنَّ وحيًّا داخِلَ القرآن يُوحي بأنَّ رسالة إبراهيم "وهي رسالة الإسلام " ليست إلا رسالةَ حُجَّةٍ ومنطقٍ وعقل .

تطرَّق القرآنُ إلى عبادة الحَجِّ ، الركنِ الإسلاميِّ، من زوايا كثيرةٍ تحكي تطورَ عَلاقةِ الإنسان بالبيت نفسِه. فقد وصف لنا القرآنُ الحَجَّ (الركن الذي نمارسه)، وأكمل شعائرَه النبيُّ الخاتمُ ليشتمل على كلِّ تجارِب الشعوب والأمم التي سكنت عند البيت. إلاّ أنَّ الحَجَّ في عهدِ إبراهيمَ عليه السلام عَكَسَ طبيعةَ المجتمع العشائري آنذاك، واشتمل على أحكامٍ تعبُّديَّة بسيطة تتناسبُ ومستوى تفكير المجتمع حينها. وعليه فسنحاولُ هنا أن نلقيَ ظلالاً على تلك الأطوار التي مرَّ بها الحَجُّ:

الحَـجُّ في القـرآن:

لعلَّ من أبرز ما يميزُ عبادةَ الحَجِّ في السياق القرآني، أنَّها ارتبطت بـ "**الناس**" لا بالمؤمنين فقط كما هو الحال في باقي أركان الإسلام، و كأنَّ الله - تعالى- يُوحي إلينا أنَّ مراسمَ الحَجِّ و الموقعَ الجغرافيَّ الذي تجري فيه والأحداثَ التاريخية التي قام عليها، إنَّما هي إرثٌ للإنسانية جمعاء، مسلمِهم وكافرِهم. فمثلاً نجدُ ارتباط بقية أركان الإسلام بالمؤمنين كما يأتي:

﴿ .... إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ " 103 النساء" .

الصلاة هي تعبيرٌ عن صِلة المؤمن بربِّه، و لا يستقيمُ - منطقا - أن يكون للكافر أو الملحد الذي لا يؤمنُ بربِّه عبادةٌ مثل الصلاة، و بالمنطق نفسِه ارتبطَ ركنُ الزكاة بالإيمان بالله أولا:

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ " 18التوبة" .

لا شكَّ أنَّ الزكاة هي إنفاقٌ في سبيل الله لمن يؤمن بالله أولا، وكذلك فإنَّ الصيامَ تعبيرٌ إيمانيٌّ لطاعة المؤمن لربِّه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ " 183 البقرة" .

فبينما نجدُ أربعة من أركان الإسلام مطلوبةً من المؤمنين، إذ إنَّها تعبيرٌ عن إيمانهم فقط وطاعتهم له، نجد أنَّ الركنَ الخامسَ وهو الحَجُّ قد ارتبط بمفهومٍ آخرَ وهو الحُجَّة على الإنسانية، وكأنَّه في نفسه وسيلةُ إيمانٍ يُدعى لها غيرُ المؤمن ليرى بيّناتٍ من ربِّه تقوده للإيمان. وهنا لا نستغربُ أن نجد جميعَ آياتِ الحَجِّ والبيت مرتبطةً بـ "الناس" وليس بالمؤمنين فقط، ومرتبطة بـ "الخلق" و"شعائر الله" وهي براهينُ عينيَّة أنزلت لتكون حُجَّة على الإنسان. بل وإنَّ الحَجَّ رُبط ربطاً لا يكاد يغفل عنه حتى الأعمى الذي يتلو القرآنَ بـ "الأنعام" وسرِّ خلقها وإنزالها وما التبس على الإنسان من شأنها، وكأنَّ قصة الحَجِّ بهذا العرض الفنيِّ ليست إلا إرثاً للبشرية جمعاء. هذا الطرحُ يلقي على عاتق المسلمين الذين وَرِثوا العهدَ من إسماعيل أن يطرحوا قصةَ الحَجِّ وأسرارَه على كلِّ الناس، مسلمِهم وكافرِهم؛ لأنَّه إرثٌ لكلِّ ذُرية آدمَ على الأرض و حُجَّة عليهم جميعًا.

إنَّ في ارتباط الحَجِّ بالناس عامَّةً وليس بالمؤمنين خاصة دليلًا مهمًا على صِحَّة تأويلنا السابقِ أنَّ بيتَ اللهِ العتيقَ فيه تاريخٌ يُهِمُّ الإنسانيةَ جمعاء. ولمَّا كان اللهُ قد جعله حُجَّةً على الناس وليس تاريخاً يُدرس من باب الترف الفكري، فقد كان ذلك دليلًا على أنَّ قصة الخلق والتطور قد تمت عنده؛ لأنَّ هذا الأمرَ من أكثر ما يقلق بالَ الإنسانية في كلِّ حِقَبِها، و كلِّ مستويات تطورِها وباختلاف شعوبها وعقائدهم. هنا فقط نفهمُ لماذا جاء الخطابُ في الحَجِّ موجهًا للناس وليس للمؤمنين فقط؛ لأنَّ كلمة الناس تشملُ المسيحيَّ و اليهوديَّ، و البوذيَّ و الهندوسيَّ، و الوثنيَّ والعلمانيَّ، والملحدَ وكلَّ بشرٍ انحدر من آدم - عليه السلام-، إذ إنَّهم جميعًا انحدروا من الناس الذين أمرنا اللهُ - تعالى- أن نمشيَ على خُطاهم: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ **النَّاسُ ...**}، و بعد ذلك آوَوا إلى أول بيت لهم: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ **لِلنَّاسِ** ..}...

ثم جاء إبراهيمُ - عليه السلام - فجعل اللهُ البيتَ مثابةً لكلِّ الناس: ﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ... ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

إذا استوعبنا كلَّ تلك المعاني التي احتوى عليها هذا الكتابُ من خلقٍ وتطور، و فهمنا ارتباطها بالحَجِّ، فلن يخفى على القارئ حينئذ أنَّ الحَجَّ حُجَّةٌ على الإنسانية، وسلسلةٌ من الآيات والبيِّنات المعجزة التي ربما تغيِّر مسارَ التفكير البشري لو طُرحت على كلِّ الناس. وقبل أن ندرس الحَجَّ لا بُدَّ لنا أن نتذكر أنَّ القرآن - أصلاً- لا يدخُل في تفاصيل الأحكام، و إنَّما يترك للرسول - صلى الله عليه و سلم- توضيحَ ذلك كما هو الحال في الصلوات الخمس و عددِ رَكَعَات كلِّ صلاة. و عليه فسنحاول هنا - بإذن الله- أن نُعيدَ قراءةَ آياتِ الحَجِّ في القرآن، و التي وصفت الحَجَّ لأمَّة محمدٍ، واستقى المسلمون مزيداً من التفاصيل عنه من حِجَّة الوداع؛ لِمَا في ذلك من ارتباطٍ وثيق بقصة الخلق والتطور التي تُهِمُّ كلَّ الناس:

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠ ﴾ " 158-160البقرة".

الحَجُّ: تعني القصد كما أسلفنا، و كان سابقاً يُفهم أنَّها قصدُ بيت الله، ولكنَّنا نضيف إلى ذلك أنَّه قصدٌ مباشر لله ـ سبحانه وتعالى- بالعقل البشري.

العُمْرة: من عمر، ولها معنيان: أحدهما يدلُّ على بقاءٍ و امتدادِ زمان، والآخر على شيءٍ يعلو من صوت أو غيره. يُقال اعتمر الرجل إذا رفع صوته بالتلبية للعمرة. وأغلب الظنِّ أنَّ العمرة أصلُها من البقاء وامتداد الزمن، فهي ممتدةٌ في الزمان، ويمكن أن يؤديَها المعتمرُ في أيِّ وقت، فهي ليست كالحَجِّ محدودةً بمواقيت المكان والزمان المعروفة عن الحَجِّ.

جُناح: تعني الإثم والميل عن الحق.

بيِّنات**:** أصلها في معجم مقاييس اللغة من "بيَّن"، وهو بعدُ الشيء وانكشافُه، و"البيِّن" هو قطعةٌ من الأرض قَدْر مد البصر أي من الأفق إلى الأفق.

قلنا من قبلُ: إنَّ الصفا والمروة من شعائر الله، أي آياته المجسمة المنزلة لتكونَ حُجَّةً على الإنسان، و بيِّناتٍ تقود كلَّ من يتبع مِلَّة إبراهيم لمعرفةِ الله ـ تعالى- وأسرارٍ كثيرةٍ عن خلق الإنسان و تطوره، و لكنَّ هذه الآية مضت تصف ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ .....١٥٩ ﴾ وكأنَّها تؤكِّدُ أنَّ الصفا والمروة منزلاتٌ؛ لأنَّ "البيّنات" في المعجم هي الأشياءُ الواضحةُ المرئيةُ للعِيان، و تقع في مِساحة من الأرض على قدْر مدِّ البصر. فكأنَّه يقول لنا: إنَّ هذه البيِّنات التي اجتمعت في مِساحةٍ من الأفق إلى الأفق، والتي يُؤدَّى فيها الحَجُّ، كلُّها منزَّلة، بدءًا بجمرات المشعر الحرام، مرورًا بجبلي الصفا والمروة، إلى أول بيتٍ وُضِعَ للناس. وسنرى أنَّ الأنعام قد نزلت في وادى منى، وهو في منتصف الطريق بين عرفات والبيت العتيق، ثمَّ أُنزِل الكبشُ فداءً لإسماعيل، فكلُّها بيِّناتٌ أُنزلتْ في هذه المِساحةِ الضيقةِ من الأرض؛ لتحكيَ قصةَ بَدءِ خلق الإنسانية و تطورها وعلاقة الإنسان منذ بَدْءِ الخلق بالله ـ جلَّ وعلا ـ .

هذه الآيةُ أجمع كلُّ المفسرين القدامى أنَّها تلعنُ الذين كتموا نبوءاتِ محمدٍ ـ صلى الله عليه وسلم- من أهل الكتاب. وقد استند المفسرون إلى أنَّ اللهَ لعن اليهودَ بكفرهم وكتمانِهم نبوءاتِ النبيِّ. و رغم أنَّ هذا التفسيرَ ـ عموماً-

مقبولٌ، فاليهود كتموا نبوءاتِ محمدٍ حسدًا من عند أنفسهم، إلَّا أنَّ هذا التفسيرَ لا يرتبط بموضوع الآيةِ مباشرة؛ لأنَّها لا تتحدث عن نبوءات محمد، و إنَّما تتحدثُ عن الحَجِّ الذي دعا له إبراهيمُ -عليه السلام - ، ولم يكن مستحدثاً في رسالة النبيِّ الخاتم - صلى الله عليه وسلم- . فاليهودُ لم يكتموا نبوءاتِ محمدٍ فقط، و إنَّما حرَّفوا كتبَ أنبيائهم في مواقعَ مرتبطةٍ مباشرةً بالبيت و الحَجِّ نسوقُ منها:

1- تحريفهم لهجرة هاجرَ و إسماعيلَ إلى البيت الحرام، وإبرازها و كأنَّها تمت لأنَّ سارة فرضت رأيَها على إبراهيم و أمَرَته أن يطرد الجارية وابنَها بعد أن رُزقت بإسحاق. و ما يدحضُ هذا التحريفَ هو أنَّ إسحاق وُلد بعد ثلاثةَ عشرَ عاماً من ميلاد إسماعيل، وبعد سنوات طويلةٍ من هجرة هاجرَ و إسماعيلَ إلى مكةَ، و التي(أي الهجرة) لم تكن إلا تنفيذاً لعهد اللهِ لإسماعيلَ و إبراهيمَ بسِدانة البيت، وقد تمت حسب وصف توراة اليوم وإسماعيل رضيعا.

2- تحريفهم للَقَبِ هاجر من أميرة مصر إلى " الخادم أو الجارية"؛ حتى يُقلِّلوا من قدر ذريتها بما فيهم إسماعيل ثمَّ محمد صلى الله عليه وسلم ، و ليس ذلك إلَّا حسداً من عند أنفسهم أن لا يعهد اللهُ إليهم بالبيت والرسالة الخاتمة. و ما يدحضُ تحريفَهم ذلك أنَّ تفسيرَ التوراة اليوم يؤكِّد أنَّ هاجر كانت أميرةً مصريةً، تنازلتْ عن عرش مصرَ لتتزوجَ أبا الأنبياء، و تكون أمَّاً لابنه الذي عهد الله إليه ببيته إلى يوم القيامة، و جدة لسيد ولد آدمَ و خاتم الأنبياء و المرسلين.

3- تحريفهم لموضع "العهد" في ذُرِّيَّة إبراهيم، إذ إنَّهم حرَّفوا عهدَ الله لإبراهيم و إسماعيل، فأضافوا من عندهم ألفاظًا في التوراة تجعلُ العهد لإسحاق و ذُرِّيته من دون إسماعيل. و ممَّا يَدحَضُ هذا التحريفَ أنَّ توراتَهم اليوم تحوي تناقضاً واضحاً؛ لأنَّ العهد تمَّ بين اللهِ و إبراهيمَ عَقِبَ ميلادِ إسماعيلَ، أي قبل سنواتٍ من ميلاد إسحاق، فأصبحت الألفاظُ التي أضافوها في التوراة لتجعلَ العهدَ لذُرِّيَّة إسحاق متناقضةً مع أصل العهد الذي تمَّ بين اللهِ و إبراهيمَ و إسماعيلَ أولاً، زمناً قبل ميلاد إسحاق -عليهم جميعًا أفصل السلام-.

4- تحريفهم لقصة الفداءِ التي ارتبطت بإسماعيلَ وتمت عند البيت، و إبرازها في توراتهم و كأنَّها تمت مع إسحاق، مع ما نتج من ذلك من تناقض لُغوي، إذ إنَّهم وصفوا إسحاقَ بأنَّه ابنُ إبراهيمَ الوحيدُ حين الذبح، الشيء الذي ناقض توراتَهم؛ لأنَّ إسحاق كان الابنَ الثاني، و إنَّما كان إسماعيلُ هو الابنَ الوحيدَ لإبراهيمَ سنين عددا.

5- تحريفهم لاسم "بكة" الذي ورد في الزبور مرتبطاً بالبيتِ و هاجرَ و إسماعيلَ و"الحَجِّ" و"البئرِ" كما سنرى في باب "سدرة المنتهى"، في محاولةٍ منهم لإخفاء قصة البيت مِن كُتبهم؛ حتى تختفيَ معه قصةُ الحَجِّ والبيِّنات التي ارتبطت به، من المشعر الحرام والصفا و المروة و كلِّ ما أُنزل هناك.

إنَّ تحريفَ أهل الكتابِ لكتبهم حتى يخفوا قصة البيت الذي حُرِموا مِن أن يكونوا من يحمل عهدته، أكبرُ بكثيرٍ من إخفائهم فقط لنبوءات محمدٍ - صلى الله عليه وسلم-. ونحن هنا نظنُّ أنَّ البيِّناتِ المقصودةَ في هذه الآية هي البيِّناتُ التي ظللنا نتحدثُ عنها خلال هذا الكتابِ، من قصةِ الإنسان الأول التي ارتبطت بإبراهيم - عليه السلام- ، وارتبطت بالصفا والمروة التي بقيت دليلاً مجسمًا لاستغفار مجموعةِ آدمَ وصَلاتهم الأولى على الأرض، الشيء الذي يُفهم من "فتلقى آدمُ من ربِّه **كلمات**"، وهي منزلة كما أنزل الله الأنعامَ و رَبَطها بالبيت و بالناس الذين آوَوا إليه أول مرة. تفسيرنا يجعلُ الآيةَ أعمقَ معنىً؛ وهكذا تصبح المعاني الخفيةُ في الصفا والمروة، و ما فيهما من بيِّناتٍ واضحةٍ في قطعةٍ من الأرض على مدِّ البصر، وما ارتبط بذلك من هَدي للناس الذين كان البيت مأوى لهم في غابر الزمن، تصبحُ حُجَّةً على الناس الذين أصبح البيتُ مثابةً لهم، وجميعها مرتبطة معًا ارتباطاً وثيقًا يمهد لكشفٍ علميٍّ وإعجازٍ جديدٍ في

القرآن، ويصبح الحَجُّ بهذا المعنى أكثرَ حُجَّةً على الناس، إذ إنَّه تمثيل لخلق الحياة الإنسانية و تطورها، ودعوة لهم للعودة سنويًّا لأرض الآباء.

ونحن نظنُّ - و نُبرِّئ أنفسَنا أمام الله والملائكة والناس أجمعين- أنَّ الحُججَ في البيِّنات التي أنزلها الله حول البيت إنَّما هي ملك "للناس" وليس للمسلمين فقط، و إنَّما اؤتمن المسلمون من ذُرية إسماعيل بعهد الله، وعليهم أن يبيِّنوها للناس، و إلاّ كانوا في زمرةِ الذين يكتمون ما أنزل الله من البيِّنات .

الحج و الْهَدْيُ:

و يمضي القرآن يرسمُ رائعةً أخرى من لوحاته الفنية تتداخل فيها شعائرُ الله المنزلة، إذ إنَّ المتدبِّرَ لهذه الآيات يشعرُ و كأنَّ الأنعام تسعى بين أقدام الحجيج:

﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ﴾ "196 البقرة ".

نلاحظ في هذه اللوحة الفنية الإلهية الرائعة كيف كرَّر الله - تعالى- كلمةَ "**الحَج**" ثلاثَ مراتٍ، وكرَّر كلمة "**الْهَدْيِ**" ثلاثَ مراتٍ أيضًا، و كأنَّه يخبرنا أنَّ " **الْهَدْيِ**" أي الأنعام المنزلة لها عَلاقةٌ وثيقةٌ و وطيدةٌ بقصةِ "الحَج"و حكمته الخفية، الحَج الذي دُعِيَ إليه كلُّ الناس، و هي أنَّه حُجَّة على الإنسانية جمعاء في أصل خلق الإنسان وتطوره، إذ إنَّ " **الْهَدْيِ**" من شعائر الله المنزلة، ولم يُخلق أو يتطور على الأرض كما سنرى في باب " آذان الأنعام"، وهو أيضاً أُنزل لفداء الإنسان من عادة ذبح الأبناء بعد ندم "مجموعة آدم" على رغبتهم في الوصول إلى الخُلد بأكلهم من شجرة الخلد، فقتلوا أبناءَهم تعبيراً عن ذلك الندم، الشيء الذي أراه اللهُ لإبراهيمَ و كأنَّه يرى فيلماً سينمائيًّا، و قبل أن يكرر نفس العادة طاعةً لله افتدى الله - تعالى- إسماعيلَ بكبشٍ منزل؛ ليصبحَ سنَّةً نكررها في الحَجِّ متمثلة في "**الْهَدْيِ**"، و نمارسها أيضًا في البيت في يوم عيد الأضحى.

وهذه الآية توحي بأنَّ " **الْهَدْي**" مقصودٌ لذاته، وليس بالضرورة لإطعام الفقراء، إذ إنَّ الآية نزلت في الحديبية لمَّا مُنع الرسولُ - صلى الله عليه وسلم- من إتمام العمرة. وقد ذكر ابنُ كثير في تفسيره أنَّ أصحاب الحديث الأربعة اتفقوا على أنَّ عدد الصحابة كان حينذاك ألفاً وأربعمائة، و أنَّ كلَّ سبعة منهم اشتركوا في "بَدَنَة" "، و البُدْن من شعائر الله

وهي الإبل"، أي أنَّهم ذبحوا مائتي بَدَنَة في يومٍ واحدٍ، وهذه كميةٌ ضخمةٌ من الطعام ،لا شكَّ وقد زادت عن حاجتهم. هذا يؤكِّد أنَّ السنة في ذبح "**الْهَدْيِ**" مقصودةٌ لذاتها لأسرارٍ يعلمها خالقُ هذه المخلوقات و منزلُها، و أمَّا الإطعام منها وإطعام الفقراء ففوائد إضافية، و لكنَّ القصد هو أن يتذكر الحجيجُ الأنعامَ في كلِّ خُطوةٍ من خُطُواتهم، وهم يمشون على خُطى إبراهيم الذي مشى على خُطى الإنسان الأوَّل الذي هبط من جنة عرفات إلى الأرض المنبسطة إنسانًا عاقلًا في هذه البقاع، و اللهُ أعلم .

وَ اتَّقُونِ يَا أولي الْأَلْبَابِ:

و يمضي الإعجازُ القرآنيُّ يرسمُ رائعةً فنيةً أخرى من روائع الحَجِّ:

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ "197 البقرة" .

رُوي عن الأصمعي أنَّه كان يقرأ: " والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ..... وكان الله غفورا رحيما" . وكان بجانب اعرابيٌّ ، فسأله: كلامُ مَن هذا؟ قال الأصمعيُّ: كلامُ الله. فأجابه الأعرابي: ما ينبغي أن يكون كلامَ الله . فسأل الأعرابيَّ:أتحفظ القرآن؟ أجاب الأعرابي: لا . فرَجَعَ الأصمعيُّ إلى الآية فوجد أنَّها تنتهي بـ: وكان الله عزيزًا حكيمًا . فسأل الأعرابيَّ : كيف عرفت ذلك؟ فأجابه: عزَّ فحكَم وقطع. لو كان غفر فرحم لما قطع .

هذه الآيةُ التي انتهت بتحذيرٍ لأولي الألباب كرَّرت كلمة "الحَج" ثلاثَ مراتٍ بصورة لافتة للنظر، و وراءَها سرٌّ عظيمٌ و رائعةٌ أخرى من إبداعات بديع السماوات و الأرض. وحتى نفهمَ معانيَها العميقةَ لا بُدَّ أن نرجع إلى اللغة لفهم الألفاظ الآتية:

أشهر: جمع شهر، والشهر يعني: الوضوح في الأمر و الإضاءة. و منها الشهر"الهلال"؛ لأنَّه يوضح كلَّ ثلاثين يوماً. و"الشهرة" هي وضوح الأمر، و"شهر سيفه" إذا انتضاه، وأصبح مشهوراً أي معروفاً لدى الناس عامة .

معلومات: جمع معلومة، وهي أثر بالشيء يتميز به عن غيره، و من ذلك العلامة.

فرض: التأثير في شيء من حزٍ أو غيرِه، يقال: فرضتُ الخشبة إذا حززتها، والحز في سِيَة القوس حيثُ يقع الوتر يُسمَّى الفرض. ويمكن أن نقول: إنَّ أثَرَ الساعة في المعصم و الخَاتَم في الإصبع يُسمَّى فرضاً.

ألباب: من لُب، وهو إمَّا خالص الشيء و إمَّا الثابت من الشيء. والألباب تأتي بمعنى الذاكرة البعيدة الثابتة، وقد ارتبط ذكرُ الألباب بآيات كثيرة ارتبطت بالذكر والتذكر، مثلاً:

﴿ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٦٩ ﴾ "269 البقرة" .

لا شكَّ أنَّ كلَّ مَن يقرأ القرآنَ يتوقف عند تَكْرار كلمة **الحَجّ** ثلاثَ مراتٍ في هذه الآية، و من حكمة الله - تعالى- أنَّ المفسرين القدامى ما انتبهوا إلى احتمال أن تكون كلمةُ "الحَج" من المشترك اللفظي، و قد ذُكرت هنا لتعنيَ معانيَ مختلفةً لنفس الكلمة، كما هو الحال في آيات إبداعيةٍ مماثلةٍ في القرآن نذكر منها للتمثيل:

﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ **ٱلسَّاعَةُ** يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ **سَاعَةٖۚ** كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥ ﴾

" 55 الروم " .

فالساعة الأولى هي يوم القيامة، والساعة الثانية تعني لحظة من زمن.

و ما يزيدُ الأمرَ غموضاً على المفسرين أنَّ لفظي " أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ" ،و التي كانت تُفهم دائما أنَّها " شهور محددة معلومة" هي شهور شوال و ذي القعدة وعشرة ذي الحجة،أنَّ كلا هذين اللفظين جاء مرفوعاً في القرآن، و ليس كما هو مفهوم أنَّ " أَشْهُرٌ" خبر مبتدأ مرفوع، و "مَعْلُومَاتٌ" مضاف إليه كان يجب أن يكون مجروراً ولكنَّه جاء في الآية مرفوعاً أيضاً. فقد أشار الإمامُ الطبري - رحمه الله- إلى غموض رفع كلمة "مَعْلُومَاتٌ" في الآية، لكنه وغيره من العلماء - رضي الله عنهم- لم يجدوا تفسيراً آخرَ للآية رغم الإشكال اللغوي. وننصح بالعودة للتفاسير للوقوف على الاختلاف في إعراب اللفظين.

نحن نظن؛ أنَّ "أشهر " و "معلوماتٌ" كلاهما مرفوع لأنَّ كليهما خبرٌ لمبتدأ ممّا يُصيِّرُ المعنى على النحو الآتي : الحجُّ أشهر....وأيضًا...... الحجُّ معلوماتٌ. إذنْ كلمة "معلومات" ليست صفةً لأشهر، و إنَّما صفةٌ ثانيةٌ للحَجِّ؛ لذلك جاءت في القرآن مرفوعةً تمامًا ككلمة "أشهر" ،الأمر الذي حيَّر المفسرين القدامى. و حتى يتضحَ المعنى يجبُ أن نفهمَ كلمةَ الحَجِّ هنا على أنَّها " القصد" وليست عبادة الحَجِّ، و بهذا يكون المعنى:

"القصد، إيضاح أمورٍ وإضاءَتِها "أشهر"، وفي هذا القصد آثار ومعلومات يتميز بها عن غيره من المقاصد".

أي أنَّ القصدَ من مثابة الناس إلى البيت العتيق هدايتُهم لهذه الأمور الواضحة المضيئة، ومحاججتُهم بأدلة "معلومات"ٍ تتميز بها هذه المِنطقة عن غيرها. و لعلَّ اختيار كلمة "أشهر" هنا إشارة صريحة إلى أنَّ هذه العلاماتِ براقةٌ ومضيئة، إذ إنَّ معظمَها حجارةٌ سماويةٌ أُنزلت في المزدلفة لرجم شيطان الجن، وفي الصفا والمروة تعبيرًا عن توبة آدم، و في الحجر الأسود الذي ظل سرُّه غامضًا.

وتمضي الآية موظِفةً لفظ "الحَج" في استعمالين مختلفين:

" فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ **الْحَجَّ** ": الحَجُّ هنا هو العبادة المعروفة، و "فيهن" ترجع إلى "الأشهر" و "المعلومات". وحتى نفهمَ مدلول هذه الألفاظِ نرجِعُ إلى المفهوم اللغوي حتى يسهل علينا المعنى:

علِمنا من المعجم أنَّ الفرض هو الحز الذي ينتج من تأثير شيءٍ آخرَ، و لذلك سُمِّي الفرض الشرعي فرضاً؛ لأنَّه يترك في النفس أثراً . و حتى يسهل علينا التمييزُ بين "الفارض" و"المفروض" نتخذُ من الحَزِّ في المعصم الذي ينتج من

لبس "الساعة" مثلاً: في هذا المثال فإنَّ الفارضَ هو "الساعة"، والمفروض عليه هو"المعصم"، و حينها يكون الحز على اليد هو "الفرض" .

فإذا رَجَعْنا إلى الآية فإنَّه يمكنُنا - الآن- أن نلاحظ أنَّ "الفرضَ" المقصودَ هو أداءُ مناسك الحَجِّ "العبادة"، و أنَّ المفروض عليه "فِيهِنَّ" هو"الأشهر و المعلومات" أي الآثار التي تَرْمُزُ لأحداث الخلق والتطور، و مَن فرض تلك العبادةَ - بطبيعة الحال- هو الله .

و تمضي الآية ﴿ ......فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ..... ﴿١٩٧﴾ ﴾ . وهنا جاءت كلمة

"الحَج" بمعنى "الحُجَّة" التي تحتوي عليها فريضة الحَجِّ في تلك الآثار. بناءً على ذلك يكون مدلولُ هذا الجزء من الآية ما يأتي:

فمَن جعل "وهو الله" عبادة الحج تتمُّ في هذه الآثار، يأمركم بأدائها من غير رفثٍ أو فُسوقٍ أو مجادلةٍ في ممارستها و محتواها ومدلولاتها؛ لأنَّ فيها حُجَّةً على الناس يصعب على الكثيرين استيعابَها. عندها تكون نهايةُ الآية ..... وَٱتَّقُونِ

يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ ﴾ متسقةً مع إعمال الذاكرة في الأشهر والمعلومات؛ لأنَّ الممارسةَ كلَّها حُجَّةٌ على عقل

الإنسان بأدلةٍ مشهورةٍ وضاءةٍ و دامغةٍ، تحكي تاريخاً بعيداً للبشرية.

و ممَّا يؤكِّدُ أنَّ " أَشْهُر" هنا لا تشيرُ إلى أشهر محرم و ذي القعدة وعشرة ذي الحجة، هو أنَّ اللهَ وصف عبادةَ الحَجِّ أنَّها "أيامٌ معدودات" لا أشهر كما في قوله - تعالى- :

﴿ ۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ

لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ ﴾ " 203البقرة" .

فالأيام المعدودات هي أيامُ التشريق كما نصَّتْ معظمُ الروايات، و الحَجُّ هو عرفة كما قال النبيُّ - صلى الله عليه وسلم- إذنْ فرُكنُ الحَجِّ "الفرض" يمتدُ من يوم التروية، وهو اليوم السابق ليوم عرفة، إلى نهاية أيام التشريق، فهو ليس أشهُراً كما كان الفهم في تفسير الآية أعلاه.

وهذا يتفق مع قول الله - عز وجل- في وصف الحَجِّ الإبراهيمي:

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾

لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ

مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ " 27-28 الحَج".

نلاحظ في هذه الآية أنَّ الله - تعالى- يكرِّرُ صفة "معلومات"، و لكنَّه هنا يصفُ بها أيامَ الحَجِّ لا أشهره كما كان يُفهم، إذ إنَّ رُكنَ الحَجِّ "العبادة" ليس إلا أيامًا معدوداتٍ، و لكنَّها أيامٌ معلومةٌ و محددةٌ في التقويم الإسلامي . هذه الأيامُ التي تمثل الميقاتَ الزمنيَّ للحَجِّ لا بُدَّ و أن تكون مرتبطةً بالأحداث التي وقعت هنا في غابر الزمن من بَدء الخلق والتطورِ، وإنّ العلامات تميِّزها عن باقي الأيام، هي -غالبًا- ما أشار اللهُ إليه في قوله: "و إذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت" التي ناقشناها من قبل، وهي تعني و إذ أرجعنا لإبراهيمَ ما كان حول البيت من أخبارٍ في الزمان الماضي.

هذه الآية - أيضًا- تطرحُ تساؤلًا مشروعًا، وهو: لماذا يأتي الحَاجُّ من أقاصي الأرض ليذكرَ الله على **بهيمة الأنعام** في مكة؟ ما عَلاقة بهيمة الأنعام بهذه الرحلة الطويلة الشَّاقة التي دائماً ما يكون فيها مخاطرُ كبيرةٌ، إنْ لم تكن في تلك الرحلة حُجَّةٌ كبرى على الإنسانية؟

ركن الحَجِّ هو الركنُ الذي ربطه الله - تعالى- بإبراهيمَ ربطًا وثيقًا و جعل أداءَنا له امتداداً لدعوة إبراهيم، بعد أن أزال الرسول - صلى الله عليه و سلم- منه ما أضيف إليه من شوائبَ، أضافها إليه المشركون بعد أن انحدرت القبائلُ العربيةُ في شركها. و لعلَّ هذا التطورَ في عبادة الحَجِّ يُجيز لنا أن نصف الحَجَّ الإبراهيميَّ بأنَّه مرحلةٌ سابقةٌ من مراحلِ تطور الحَجِّ إلى الحَجِّ الإسلاميِّ ،إذ إنَّ كلَّ مرحلةٍ خاطبت فئةً مختلفةً من الناس.

الحَجُّ الإبراهيمي:

ورد في الحديث أنَّه لمَّا أمر اللهُ - تعالى- إبراهيمَ بأن يُؤذِّنَ في الناس بالحج سأل الله: ربِّ و ما يبلغ صوتي؟ فأجابه الله: أذِّن وعلينا البلاغ . و قد أذَّن إبراهيمُ وما زال صدى صوتِه يتردد في أركان المعمورة. وصدق اللهُ العظيمُ فقد وصل أذانُه مشارقَ الأرض و مغاربَها. في الآيات التي ارتبطت بإبراهيمَ وأذانِه بالحَجِّ نجدُ معالمَ بارزةً تعكسُ طبيعة المجتمع آنذاك، و ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقصة التطور في كلِّ أشكاله التي هي موضوعُ كتابنا هذا:

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ ..... ﴿٢٧﴾ ﴾ وينادي "الناس" وليس المؤمنين فقط، ممَّا يؤكِّد أنَّ الحَجَّ هو القصدُ إلى البيت العتيق الذي وُضع لكلِّ الناس وليس لفئةٍ معينةٍ منهم. و لعلَّ اللغة التي استعملها اللهُ هنا تعكس علمَه المطلق أنَّ الناس لو سمعوا بما دار حول البيت، لن يترددوا أن يأتوا إليه بأيَّة وسيلة أتيحت لهم؛ لِمَا فيه من عبرٍ وتاريخٍ ومنافع، ولعلَّه يأمرُنا - الآنَ- أن نقصَّ قِصة الحَجِّ ونؤذِّن بالحَجِّ في كلِّ الناس، إذ إنَّه أبلغُ وسيلة تهدي الناس إلى ربِّهم و ربِّ آبائهم الأولين. في عهد إبراهيم أتَوا إليه مطيعين على أرجلهم وعلى الخيولِ من الطرق البعيدة التي كانت تخفى على إبراهيمَ حينها، ولكنَّها ظاهرةٌ لنا بعد بضعةِ آلاف سنةٍ من ذلك النداء. و تمضي الآياتُ ترسم معالمَ في طريقِ الحجيج من أتباع سيدِنا إبراهيمَ في ذلك الزمان، و وضَّحَ الله لهم الغايةَ من الحَجِّ:

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ **مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ** فَكُلُواْ وَأَطۡعِمُواْ مِنۡهَا ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ **وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ** فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ **وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ** إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ **فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ** مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ **لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ** بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى **ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ** ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ **جَعَلۡنَا مَنسَكٗا** لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ **مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ** فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ " 27-34 الحج" .

هذه الآياتُ فيها كنوزٌ من علمٍ تتطلبُ فهمَ ألفاظها أولًا قبل أن نحاول فهمَ ما تشيرُ إليه:

تفث: قيل - سابقا- إنَّ التفث يشمل قص الأظافر، والأخذ من اللحية والشارب و الإبط، وشم الطيب، وكل ما يحرم على المُحْرِم إلا النكاح.

عتيق: هذه كلمةٌ ذاتُ معانٍ كثيرةٍ وعميقة، فهي تجمعُ كلَّ معاني الكرم خَلقاً وخُلقاً، وتعني أيضا القِدم. وصار العبدُ عتيقا أي حرًّا طليقًا.

الرجس:أصلٌ يدلُّ على الاختلاط.

شعائر :من شعر. وقد قلنا - سابقاً- إنَّ الشعائرَ هي الأعلامُ أو العلاماتُ المميزة.

المخبتين: من خبت، وتعني خشع. والخبت هو المفازة التي لا نبات فيها، و سمِّيت بذلك لهدوئها وصمتها.

في هذه الآياتِ نجدُ وصفاً للحَجِّ الإبراهيمي إنْ صحَّت التسمية، فنجدُ أولاً أنَّ وسيلة الوصول إلى المكان هي الأرجلُ أو الضوامرُ وهي الإبل النحيفة، ثمَّ بعد ذلك يقيمون الحَجَّ على النحو الآتي:

1- يشهدون منافعَ لهم.

2- يذكرون اسمَ الله في أيامٍ معلوماتٍ على ما رزقهم من بهيمة الأنعام.

3- الأكل من لحوم الأنعام.

4- التصدق منها.

5- يقضون تفثهم.

6- يوفون نذورهم.

7- يطوفون بالبيت العتيق.

8- وأَمَرَهم باجتناب الرجس من الأوثان.

9- وأمَرَهم باجتناب قول الزور.

نلاحظُ أنَّ ذكْرَ الله في الحَجِّ الإبراهيمي اشتمل فقط على الطواف بالبيت العتيق، و لكنَّ الملاحظةَ الأكبرَ هي الربطُ الوثيقُ بين رزقِ الله للإنسان ببهيمة الأنعام و عبادةِ الحَجِّ. ولا يخفى علينا أنَّ الأنعام كانت لها أهمية عظمى للنَّاس في ذلك الزمان، يستعملونها للترحال، وشرب ألبانها، و أكل لحومها، و لبس جلودها، وأنَّها فوق ذلك كلِّه قد استُعملت فداء لإسماعيلَ من الذبح. و لكنَّ تَكرار اسم "الأنعام" و ربطَها بهذه العبادة لا بُدَّ و أنَّ له مدلولاتٍ أكبرَ من كونها فقط مُسخرةً لخدمة الإنسان ولطعامه؛ لأنَّ هذه الفوائدَ معلومةٌ من غير حَجٍّ أو إسلام . الربط هنا ربَّما يحملُ مدلولَ عَلاقةِ الأنعام بخلق الإنسان من ناحية، وعلاقتِها بفداءِ الإنسان من الذبح تقربا لله الذى كان من الممكن أن يقضي على الجنس البشرى لو لم يُستبدل بالأنعام من ناحيةٍ أخرى.

و نلاحظ أيضاً أنَّ الله - تعالى- قد استثنى الأنعامَ باللفظ من بقية حرماتِهِ في قوله:﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ .... ﴿٣٠﴾ ﴾. وكأنَّ الأنعام وهي من شعائر الله المحرمة، هي الشعيرةُ الوحيدةُ التي أُحِلَّ لنا ذبحُها وأكلُها؛ لأنَّها إنَّما أُنزلت لهذا الغرض .

نلاحظ في الحَجِّ الإبراهيميِّ أنَّه يشتمل على العبادة التشخيصية المعلومةِ و هي الطوافُ بالبيت العتيق، أمَّا العبادةُ التجريديةُ فقد كانت إيفاءَ النذور، و أمَّا التعاليمُ فهي: اجتنابُ الرجس من الأوثان، و اجتنابُ قول الزور، والحثُّ على الصدقات.

نرجِعُ مرةً أخرى ونلاحظ أنَّ الطورَ الاجتماعيَّ في ذلك الزمانِ كان عشائرياً، وأنَّ كلَّ عشيرةٍ تمتازُ وتفتخرُ بخصوصياتها، ولكي تكونَ عبادةُ الحَجِّ متسقةً مع طورهم الاجتماعيِّ جعلَ اللهُ لكلِّ أَمَّةٍ "أي عشيرة" منهم منسكاً ﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا ..... ﴿٦٧﴾ ﴾ و ليوضحَ اللهُ لهم أنَّ اختلافَ مناسك العبادة لا يعني تعدد الآلهة أكد لهم ذلك بقوله: ﴿ ..... فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ... ﴿٣٤﴾ ﴾ .

اتسمت عبادةُ الحَجِّ الإبراهيميِّ باختلاف المناسك للعشائر المختلفة، وامتازت بتوحيد كلِّ العشائر بالطواف حول البيت في أيامٍ معلوماتٍ، واتَّحدت أيضاً في الفوائد التي تجنيها من الأنعام؛ لِيُعدَّ هذا التوحُّدُ على اختلاف المناسك قفزةً تعليميةً جديدةً لتوحيد هذه العشائر في طورٍ اجتماعيٍّ أكبر، ومنها نتجت القبيلةُ بوصفها طوراً أرفعَ و أحدثَ من العشيرة . هنا يُستحسنُ أن نُذكِّر بأنَّ إبراهيمَ لمَّا عهد اللهُ إليه بالبيت طلب أن تكون ذُريته معه، فأجابه اللهُ بأنَّ عهده لا ينالُ الظالمين. فقد كان من حكمة الله - تعالى- أن يرتقيَ بالمجتمع الإنسانيِّ من طورٍ عشائريٍّ إلى طورٍ اجتماعيٍّ أرقى، تكون الولايةُ فيه للأصلح وليس للذرية الظالمة.

و يبدو أنَّ اختلافَ المناسك للعشائر المختلفة، وابتعادَ الناس من بني إسماعيلَ، سَدَنَةِ البيتِ العتيق، في ذلك المكان عن الرسل، قاد إلى تدخُّلِ الشيطان بإغوائهم ودفعِهم للوقوع في خطايا جديدةٍ كما أضل أسلافَهم من قبلُ. فقد تمَّ - مع الزمن- تشخيصُ المناسك بأن جُعلت في شكلِ تماثيلَ، و التماثيلُ تحولت إلى أصنام، والأصنامُ صارت آلهة، فأصبح لكلِّ قبيلةٍ إلهُها الخاص، ولأنَّهم اتَّحدوا - أصلا- في الطواف حول البيت، فقد احتفظوا بآلهتهم المختلفة داخل البيت العتيق، ولأنَّ فكرةَ الإلهِ الواحدِ في نظر هذه القبائل كانت ستقود إلى توحيدهم؛ لذا فإنَّ موقفَهم الشركيَّ قد كان موقفًا قبليًّا، وعدُّوا أنَّ كلَّ قبيلةٍ يجبُ أن يكونَ لها إلهُها الخاص ليقربَها إلى الله زُلفى، وهؤلاءِ هم المشركونُ الذين أشركوا مع اللهِ آلهةً أخرى. و مع عاملِ الزمن أعاد الشيطانُ إليهم بدعةَ ذبح الأبناء والبنات ؛تقرُّباً إلى الله كما كان حالُ الإنسان الأول عند البيت.

ظلَّ الشركُ بالله في مكةَ، وظلت الأصنام تُعبدُ من دون الله - تعالى-، وعاد تقليدُ قتل الأبناء ليطفو على السطح، وأصبح مقبولاً للناس و لا تقشعر منه الأبدان، وأصبح له مسوِّغاتٌ كثيرةٌ، منها : التقرب إلى الله حين النذر، أو خشية إملاق عند الفقر، أو وأد البنات خوفاً من العار. وانحدر المجتمعُ في ظلامٍ دامسٍ حولَ البيتِ العتيق، وإنْ ظلَّ الحَجَّ يُمارَسُ بوصفه سلوكاً قبلياً وإرثًا اجتماعيًّا لكنَّه أُفرِغَ من محتواه التوحيدي، إلى أن بعث اللهُ - عز وجل- آخرَ رسلِهِ إلى الإنسانية من مكة؛ ليطهرَ البيتَ من رجس الأوثان إلى الأبد، و يعيدَ بناءِ المجتمع بصورةٍ متكاملةٍ في أرض الآباء، و ليكونَ بذلك المجتمعَ الإنسانيَّ الأولَ و الأرقى الذي عرفته البشرية في تاريخ تطورها، و من حكمة الله كان ذلك المجتمعُ في ذاتِ الأرضِ التي شهدت أولى مراحلِ خلقِ الإنسان وكلَّ مراحل تطوره البدائية عند البيت العتيق، بيتِ آباءِ الإنسانيةِ الأول. وقد كان أولُ ما فعله محمدٌ - صلى الله عليه و سلم- عند دخوله مكةَ فاتحًا، أن حطَّم الأصنامَ داخل البيت العتيق، وطهره مرةً أخرى من رجس الأوثان، وأذَّنَ في الناس بالحَجِّ الإسلاميِّ مضيفًا إلى الحَجِّ الإبراهيميِّ شعائرَ أخرى تتسقُ مع نُضجِ العقل البشري و تطوره، وهي: الإحرام، و التطوف بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، و رمي الجمرات. والشعيرةُ هي العلامة، وشعائرُ الله هي علاماتٌ ماديةٌ عينيةٌ و علميةٌ تدلُّ على وجودِ الله، وهذه الشعائرُ يمكن أن يعقلَها الإنسانُ الذي تطور إلى أن وصل إلى الإنسان التجريدي، وليكون الحَجُّ الإسلاميُّ هو القصةَ الكاملةَ لعملية خلق الإنسان وتطورِه ليصبحَ حُجَّةَ الله على الناس، كلِّ الناس إلى يوم القيامة.

عبـادةُ الـحَـجِّ:

رأينا أنَّ الحَجَّ هو العبادةُ الوحيدةُ التي امتدت منذ عصر الإنسانِ الأولِ إلى آخر الرسالات السماوية، ليظلَّ إلى يوم القيامة رمزاً لعَلاقةِ الإنسانِ بأرض آبائه، وعَلاقة الإنسان بربِّه، وعَلاقةِ الإنسان ببهيمة الأنعام، وعلاقته بعدوِّه

الأزلي وهو الشيطان. على أنَّ مراحلَ تطور مناسكِ الحَجِّ تلك عكست تطورَ الإنسان نفسِه فكرياً واجتماعياً و روحيًّا، إلا أنَّها ظلت تدور في مكانٍ واحدٍ، و زمانٍ واحدٍ، وحول بيتٍ واحدٍ هو أولُ بيتٍ وُضع للناس.

و رأينا في هذا الكتابِ عَلاقةَ أركانِ الحَجِّ الذي نمارسه اليومَ بكلِّ تلك القصص القديمة، ممَّا يضفي على عبادتنا أبعاداً فكريَّةً و روحيَّةً عميقةً جدا، تنقُلُها من كونها شعائرَ مُرهقةً لا يكادُ الحَاجُّ يدري لها معنى، إلى رحلةٍ سياحيَّةٍ عظيمةٍ و رهيبةٍ عبْرَ الزمان والمكان، ينتقل فيها الحَاجُّ من نعيم بيته إلى قسوة الطبيعة، ومن رَفاهِيَةِ زمانه إلى بُدائيَّة الإنسان الأول، ومن شتاته في أركان الأرض إلى مثابةٍ لبيت الآبـاء، ومن تمزُّقِه القبلي والعرقي إلى توحُّده على خُطى الإنسان الأول. على أنَّ هناك حدثاً واحداً من أحداث الحَجِّ اليوم لم نتطرق إليه، ولم نربطْه بقصة الإنسان الأول كما فعلنا ببقية الأحداث، وهو المبيتُ بوادي "مِنى" قبل الذهاب إلى عرفات. و لا بُدَّ أنَّ نوضِّح للذين لمَّا يؤدُّوافريضةَ الحَجِّ بعدُ، أنَّ الحَاجَّ يؤدي في مِنى خُطوتين أساسيتين من خُطُوات الحَجِّ : أولاهما- المبيتُ بمِنى قبل الذهاب إلى عرفات، و كأنَّه يفرض على كلِّ الحجيج أن يدخلوا عرفاتٍ من مِنى وليس من أيِّ مكانٍ آخرَ، والخُطوة الثانية- العودةُ إلى مِنى لرمي الجمرات، إذ إنَّ الشيطان يُرْجَمُ هناك أيضاً. فإنْ كان ما ذهبنا إليه من تحليلٍ في أنَّ الحَجَّ ليس إلا تمثيلاً لخُطُواتِ الإنسان الأول تحليلاً سليماً، فإنَّ وادي مِنى لا بُدَّ و أن يكون قد شهد أحداثاً مختلفة حينما خطا الإنسانُ الأولُ في تلك البقاع. و حتى نستنبطَ معانيَ تاريخيةً لموقع مِنى من خُطُوات الإنسان الأول، و التي تفسرُ لنا تَكرار الذهاب إليه، لا بُدَّ لنا الآنَ أن نرتب أحداثَ الحَجِّ الذي نمارسه اليوم كما سنَّها خاتَمُ الأنبياء والمرسلين، لتحكي قصة خلق الإنسان و تطوره في تلك البقاع المحرمة.

الحَـجُّ الإسلاميُّ:

للحَجِّ أركانٌ أربعةٌ وَفْقاً لترتيبها، و هي :

1- الإحــرام

2- الوقوف بعرفة.

3- طواف الإفاضة .

4- لتطوف بين الصفا والمروة".

أمَّا ترتيبُ خُطُوات الحَجِّ العملية، فهي على النحو الآتي:

الإحــرام :

الإحرامُ - كما رأينا- ما هو إلا أن يلبَسَ الحَاجُّ لباساً أشبهَ **بورق** الجنة الذي استترت به مجموعةُ آدم بعد أن ارتكبا المعصية، فبدت لهما سوءاتهما، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة. و ارتباطُ الإحرامِ بمواقيتَ جغرافيةٍ ربَّما يحدِّدُ المِساحة الجغرافية التي جمع اللهُ منها مجموعةَ آدمَ "الملائم للتغيير" إلى وادي مِنى قبل أن ينفخَ فيهم هناك، ويجعلَ منهم إنساناً عاقلاً قبل أن يسكنوا جنَّة المأوى في عرفات. و ربَّما يمثل المِساحةَ التي اجتباهم اللهُ منها بعد أن

انتشروا فيها حينما "تلقى آدم من ربِّه كلمات"، و كانوا - حينها- لا يستر سوءاتهما إلا ورقُ الجنة كالخصيف كما ناقشنا ذلك في باب "في وادي المزدلفة". المهمُّ أنَّ الحجيج لا يجوزُ لهم أن يتجاوزوا المواقيتَ المكانيةَ من غيرِ إحرام، أي لا يُسمح لهم الدخولُ إلى أرض الأحداث إلا إذا كانوا في هيئةِ الإنسان الأول الذين يمشون على خُطاه و"يمثلون" يومياته حينها. أمَّا المواقيتُ الزمنية ففي الغالب تحدِّدُ الفترة الزمنية التي وقعت فيها تلك الأحداثُ من خلقٍ وتطورٍ ومعصيةٍ ثمَّ توبة؛ لذلك يكون الحَاجُّ محرماً وفي حالةِ استغفارٍ دائمٍ إلى أن تنتهيَ مناسكُ الحَج. بقي أن نذكر أنَّ الإحرامَ لا يجوز فيه المحيطُ من الأساور والساعات أو المخيط من الملابس. فى الحج يسمح لنا أن نستترَ فقط بشيءٍ يشابه ورقَ الجنَّة، و نجتنبَ أيَّ شيءٍ لم يكن قد وصل إليه علمُ الإنسان الأول و خبرتُه حينما مشى على هذه الوُدْيان أولَ مرة.

من الملاحظات الغريبة أنَّ ذكر الإحرام في القرآن قد ارتبط بتحريمٍ مغلظٍ للصيد، و كأنَّ الحَاجَّ سيقضي جُلَّ وقته في البرِّيَّة يصطادُ الوحوش . فقد ورد ذكر الصيد في القرآن **ستَ مرات**، و كلُّها تُحذِّرُ منه أثناءَ الإحرام كما في قوله - تعالى- : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ .... ﴿٩٥﴾ ﴾ " 95 المائدة" . و نلاحظ في هذه الآية أنَّ معصيةَ الصيد أثناءَ الإحرام لا يُكفِّرُها إلا ذبحُ الأنعام، ممَّا يوحي بمفتاحٍ لغموضِ التحريم المشدَّد للصيد أثناء الإحرام. و نظنُّ أنَّ الأمرَ كلَّه يرجِعُ إلى حال الإنسان قبل التطور حينما كان يفترسُ الوحوشَ وتفترسُه، فلمَّا طوَّره اللهُ إلى إنسان عاقل وأنزل له الأنعامَ، حرَّم عليه الصيدَ حينها لعدم قدرته على التمييز بين الحلالِ والحرامِ في حيوانات البرِّيَّة، وأُبيح له حينها - فقط- ذبحُ الأنعام. و لمَّا كان الحَاجُّ -أصلاً- يدخل بإحرامه في أرض آباء الإنسانية و هيئتهم تلك، فقد ارتبط تحريمُ الصيد علينا - نحن- بالإحرام؛ ليذكِّرَنا أنَّ هذا كان من أهمِّ ما حُرم على آبائنا الذين نتقمص هيئتهم في إحرامنا هذا، و أنَّ استبدال الصيد بالأنعام كان خُطوةً أساسية في تطور سلوك آبائنا، لتكتمل هذه اللوحةُ البديعةُ من لوحات بديع السماوات و الأرض .

طواف القدوم "واجب":

وفيه تعظيمٌ للبيت العتيق الذي دارت حوله كلُّ تلك الأحداث، ثمَّ دارت حوله أحداثُ اكتشاف قصة الإنسان الأول في عصر إبراهيمَ وهاجرَ وإسماعيلَ. على أنَّ الطواف نفسَه فيه سرٌّ، فهو مخُّ العبادة، وهو دورانٌ يتم بصورة منتظمة عكس عقارب الساعة، ممَّا يُوحي بأنَّ له عَلاقةً بحركة الكون و نظامِه وطاقاتَه الكامنة كما سنناقش ذلك في باب "سدرة المنتهى".

المبيتُ بمِنى:

كما هو معروف فإنَّ الحَجَّ عرفة، و مَن فاته الوقوفُ بعرفة فقد فاته الحَج. و رغم قرب المسافة وإمكانية الذهاب إلى عرفات مباشرة من مكة، إلا أنَّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد جعل الوصولَ إلى عرفاتٍ رحلةً تدريجية، تبدأُ أولاً بالذهاب إلى مِنى في يوم التروية، وهو الثامن من ذي الحجة، وأداء خمس صلوات فيها تبتدئ من الظهر إلى الصبح، على أن تُجمع وتُقصر فيها الصلواتُ الرباعيةُ كصلاةِ مسافر. ولعلَّ في هذه الخُطوة التي تسبق إعادةَ تمثيلِ

الدخول إلى جنَّة عرفات - كما سكنها الإنسانُ الأول- حكمةً تتطلبُ بحثاً؛ حتى ترتبطَ كلُّ أحداث الحَجِّ في قصةٍ متكاملةٍ تحكي خلقَ الإنسان الأول و تطوره وهبوطه إلى الأرض خليفةً لله فيها إلى يوم القيامة.

كما لاحظنا فإنَّ جميعَ مناسك الحَجِّ أخذت أسماء قديمة تعكس أصل القصة التي يقوم الحَاجُّ بتمثيلها على ذات الأرض المحرمة. فالإحرام يعني الدخول إلى الأرض الحرام أو البلدِ الحرام والالتزام بجميع حُرُماتِه هيئةً وسلوكاً، ومن أبرز سلوك الإحرام أنَّ الرجال لا يُباحُ لهم سترُ أجسادهم إلا بقطعتين من القماش، تشبه ورقَ الجنَّة الذي استترت به مجموعةُ آدمَ أولَ مرة. والصفا والمروة هما من شعائر الله المنزلة وحُرُماته، واسمهما "السعي" يدل على أنَّهما حجارةٌ مقتطعةٌ من مكان غير جبال مكة؛ لأنَّها صافيةٌ براقةٌ لا تشبهُ حجارةَ مكة، إذ إنَّها حجارةٌ أُنزلت و رصَّها آدمُ، العنصرُ الملائم للتغيير، تعبيراً عن توبته من معصية الشجرة. و "المزدلفة" هو اسم مشتقٌ من هيئة أولِ فوجٍ من مجموعة آدم، حينما دلفوا إليه بعد هبوطهم من جنَّة المأوى في عرفات. و الجَمَرات التي تجمع من المشعر الحرام ما هي إلا جَمَراتٌ من المصابيح والشهب التي أُنزلت للإنسان الأول؛ ليرجمَ بها الشيطانَ قبل أن يتعلم الاستعاذة. فماذا تعني "مِنى" في اللغة، ولماذا المبيتُ في مِنى قبل الذهاب إلى عرفاتٍ ثمَّ العودة إلى منى لرمي الجَمَرات حتى تكتمل هذه اللوحة المذهلة؟

مِنى: هذا اللفظُ له معنىً واحدٌ، اشتُقتْ منه معانٍ كثيرةٌ، و هو يعني تقدير الشيء ونفاذ القضاء فيه كما ورد في معجم مقاييس اللغة. و معروفٌ في الشرع أنَّ القدر يعني إرادة الأمر المراد حدوثه، والقضاء هو تنفيذ ذلك القدر. ومن "مِنى" جاء المَنِي وهو ماء الرجل؛ لأنَّ منه تُقدر خِلقة الإنسان. و سُمِّي الموتُ بـ"المنية" لانها مقدرةٌ على كلِّ شيء حي. و"تمنَّى" الإنسان أُمنِية أي قدَّر قدراً أراده و يرجوه.

فما القَدَرُ أو الأقدارُ التي قدَّرها الله - سبحانه وتعالى- للإنسان الأول، وقضاها في هذا الوادي ليرتبط اسمُه بأحداث الحَجِّ وقصة خلق الإنسان و تطوره في هذا البلدِ الحرام الذي اكتظ بشعائر الله وعلامات وجوده؟ لنستنبطَ ذلك علينا أن نعود إلى قصة تطور الإنسان من بشرٍ أو حَيَوانٍ أدنى إلى إنسان عاقل كما ناقشنا ذلك في باب "قصة الخلق" و "الحلقة المفقودة" و" جنَّة المأوى". فقد وصف اللهُ - تعالى- قصة الخلق والتطور بهذه الآيات التي لها معنىً وطعمٌ جديدٌ الآن:

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ " 71-76 ص" .

هذه الخُطُوات من خلق البشر من طين، ثمَّ "النفخ فيه" من سَعَةِ الله ونقلِه إلى إنسان عاقل، ثمَّ تعليمِ جنسِ آدمَ الأسماءَ كلَّها، ثمَّ سجود الملائكة وتمرد إبليس، كلُّها حدثت قبل أن يبدأ التكليفُ لآدمَ بأول أركان إسلامه آنذاك، وهي الأمر:"اسكن" والنهي: "لا تقربا" هذه الشجرة:

﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ " 35البقرة" .

فإذا كانت الجنَّة التي أمر اللهُ آدمَ أن يسكنها هي جنَّةٌ قريبةٌ معروفة له في وادي عرفات لذلك عرَّفها له بالألف والّلام "الجنة"، فمن المنطقي جداً أن يكون وادي "مِنى" هو المكان الذي قُدِّر ونفذ فيه قضاءُ خلق الإنسان، ثمَّ عاش فيه وحوله حيناً من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا، و لكنَّ تناسله استمر من "مَني يمنى" تحمله الأمشاج في نطفته، ثمَّ انتشر في مِساحة من الأرض إلى أن جمعه اللهُ إلى مِنى و قدَّر نقلَه إلى إنسان عاقل، ونَفَّذ فيه قضاءَه الذي أغضب الشيطان فرفض أن يسجدَ له هناك، فطُرد من رحمة الله هنا في مِنى، ولكنَّه مُنح أن يُنظر إلى يوم البعث. و منطقيٌّ جدًّا أنَّ هذه البقعةَ هي البقعةُ التي أقسم الشيطانُ فيها أن يغويَ الإنسانَ، ولذلك فقد كانت هي الموقعَ الذي اعترض فيه الإنسانَ الأول في طريقه إلى البيت العتيق وتكرر ذاتُ الموقف مع إبراهيم .

إذنْ من سياق الآيات -أعلاه- يمكنُنا أن نلاحظ حدثين مهمين جداً، وقعا والإنسان ما زال في مِنى قبل السكن أو"الطمأنينة".في الجنَّة، وهما:

1- كل تفاصيل الخلق والتطور وتعلم الأسماء كلِّها، والرد على الملائكة وسجود الملائكة له؛ ممَّا يجعل اسم "مِنى" منطبقاً على المسمَّى من تقدير القدر وإنفاذ القضاء فيها .

2- هنا أيضاً استكبر الشيطان، و رَفَضَ السجودَ لآدم، وتوعَّد أن يغويهم أجمعين.

فإذا كانت مِنى قد ارتبطت بهذين الحدثين، فليس مستغربًا - إذنْ- أنَّ الحجيج كلَّهم يجتمعون في مِنى، ويستقرُّون معاً قدرًا من الوقت فيها وكأنَّهم مقيمون بها، فيُصلُّون خمسَ صلوات، ويقضون جزءًا من نهارٍ و ليلةٍ كاملةٍ قبل أن يتحركوا فوجًا واحدًا يمثل جنسًا واحدًا هو جنس آدم إلى عرفات، كما تحرك من هنا ركبُ الإنسانية الأول نحوَ جنَّة المأوى بعد أن طوره الله إلى إنسان عاقل، ليكون لقاؤه الأول مع الشيطان في الجنة.

الوقوف بعرفة:

هذا هو أهمُّ أركان الحَجِّ، ومن فاته الوقوفُ بعرفة فقد فاته الحج. و**عرفة** في اللغة لها معنيان: أحدهما يدلُّ على تتابع الشيء متصلاً بعضه ببعض، والآخر يدلُّ على "السكون والطمأنينة" . أمَّا عرفات فقال قوم: إنَّها سُمِّيت بذلك لأنَّ آدم وحواء تعارفا بها. و رغم أنَّ هذا التعارف يُظنُّ أنَّه لقاءٌ بين رجل وامرأة كما هو تأويل الإسرائيليات، إلَّا أنَّنا نَظنُّ أنَّ ما حدث في عرفات هو أنَّه انكشفت لمجموعةِ آدم لأول مرة السماتُ التي تميِّز الذكرَ عن الأنثى، و أصبحا زوجين مختلفين في خواصِّهما كما رأينا في باب " في جنَّة المأوى"، أي زال الالتباس الجنسيُّ بينهما فتمت معرفة الذكر من الأنثى بعد أن أراهما إبليسُ سوءاتهما. وفي جنة عرفات بدأ تكليفُ خليفة الله بأُولى أحكام التكليف، وفيها عصى الإنسان في كلِّ ما نُهي عنه، وفيها استغفر ربَّه وتاب الله إليه، ثمَّ هبط منها إلى الأرض بوصفه إنسانًا عاقلًا

لأول مرة. و ما يؤكِّد أنَّ وادي عرفاتٍ كان جنَّةً ذاتَ يومٍ هو قول النبيِّ - صلى الله عليه و سلم- : " لا تقوم الساعة حتى يكثر المال...... و حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا".(حديث صحيح، أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة برقم 157). فهذه المِنطقة كانت مروجًا وأنهارًا في سالف الزمن قبل أن تتحول إلى صحراء كما نراها اليوم. وهذه حقيقة لا خلاف عليها اليوم، وهي أنَّ جزيرة العرب كانت يومًا ما امتدادًا للغابات الاستوائية، التي تمتدُّ إلى اليوم على نفس خطوط العرض في أفريقيا والأمازون والهند و إندونيسيا وماليزيا.

الوقوفُ في عصر عرفاتٍ يذكِّرُ بعصيان الإنسان الأول في كلِّ ما نُهي عنه، وغفران اللهِ له كان غفرانًا لكلِّ ذنوبه آنذاك، الشيء الذي يستشعره الحجيجُ وهم ينتظرون اللحظةَ التي ينزل فيها ربُّ العالمين إذا سجى الليل إلى السماء الدنيا؛ لقبول توبة التائبين كما قبلها من آبائهم في الزمان و المكان كليهما . وعرفات تمثل لحظة حاسمة في تاريخ الكون، بكلِّ قوانين طبيعته القاهرة ومخلوقاته من جنٍّ و حَيَوان ونبات، التي سُخِّرت لمنفعة خليفة الله و سلطانه الذي هبط إلى الأرض في مثل هذا اليوم من هذا الموقع ليمارسَ سُلُطاتِه على الأرض.

ولا بُدَّ أن نذكِّر هنا بالحديث المشهور، الذي يصف نزولَ الله إلى السماء الدنيا في عصر عرفاتٍ ليقبلَ توبة التائبين، ويباهي الملائكة بالحجيج، وفي هذا تأكيد لقول الله - تعالى- للملائكة يوم أن قالوا لله: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ فرد عليهم: إنِّي أعلم ما لا تعلمون. فمباهاةُ الله إلى يوم القيامة فيها تذكيرٌ للملائكة بأنَّ هؤلاءِ هم بنو آدم، و ما زالوا يستغفرون الله في ذات المكان؛ تأكيداً لعلمه بحالهم قبل أن يكلِّفَهم بالخلافة.

و لا بُدَّ أن نذكِّر هنا أيضاً أنَّه كما بدأ التشريعُ للإنسانية في جنَّة عرفات يومَ أمَرَ اللهُ آدمَ أن يسكن الجنة ونهاه عن أن يقرب الشجرة، فقد انتهى التشريع الإسلامي هنا أيضاً في حِجَّة الوداع يوم نزلت آية:

﴿ .... ۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ..... ﴾ "3 المائدة". ليختم بذلك الخطاب بين الله والبشر إلى يوم القيامة في ذات المكان وذات الزمان الذي بدأ فيه قبل بضعة آلاف سنة.

النزول بمزدلفة:

ناقشنا في باب "في وادي المزدلفة" كيف دلف جنسُ آدمَ، إناثًا وذكورًا، إلى الوادي، وكيف جمعوا الجَمَراتِ التي أُنزلت لهم من الكواكب المصابيح والشهب، ليرجموا بها شيطانَ الجنِّ الذي سيواجههم غدا في "مِنى"، ذات الوادي الذي تكبَّر فيه الشيطانُ عن السجود لجنس آدم. و يجدر بنا أن نذكر هنا أنَّ الله - سبحانه وتعالى- أمر الحجيج هنا أن يذكروا الله كذكرهم آباءَهم أو أشدَّ ذكرا؛ لأنَّ هيئاتِهم النفسيةَ والروحيةَ والجسديةَ تصبحُ طبق الأصل بحال آباء الإنسانية الذين دلفوا في هذا الوادي في غابر الزمن، في أول رحلةٍ لهم إلى أولِ بيتٍ وُضع للناس.

رمي الجَمَرات بمِنى:

يعود الحجيج مرةً أخرى إلى "مِنى"، إذ إنَّ رمي الجَمَرات يتمُّ فيها في أول أيام التشريق، وهو يومُ عيد الأضحى أو "عيد الإنسانية"، وهو أولُ يومٍ طلعت فيه الشمسُ على مجموعةِ آدمَ بعد أن أضحى خليفةً لله في الأرض. و

الجَمَرات تمثل امتلاكَ الإنسان لسلاحٍ ماديٍّ أمكنه أن يرجُمَ به شيطانَ الجنِّ قبل أن يتطور عقلياً ويصبح قادراً على العزم، و فهمِ الاستعاذات والمحاربةِ الروحية للشيطان. وفي ذات اليوم الذي يرجم الحجيجُ فيه الشيطانَ و رمزَه في "مِنى" بحجارةٍ خاصةٍ منزلةٍ من الشهب والكواكب، تُرجَمُ سنةُ الشيطان في ذبح الأبناء في كلِّ بقاع الأرض بذبح الأنعام المنزلة أيضًا، في عيد عالمي يمثل علو كلمة الله على كلمة الشيطان، متمثلةً في طاعاتِ خليفتِهِ، و انتصار الإنسان على شيطان الجنِّ في مشارق الأرض ومغاربها .

إنَّ ظاهرة رجم الملايين للشيطان إلى يوم القيامة هنا، هي الظاهرةُ التي أصبحت تُميِّزُ الحَجَّ بما يرتبط بها من تزاحمٍ وموتٍ كلَّ عام، و لعلَّ هيبة المشهد تستمدُّ قيمتَها من وقاحة الشيطان حين قال :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ " 82-83 ص".

لنا أن نتخيل مقدارَ الجرم الذي ارتكبه الشيطان هنا، فالإنسانُ ربَّما يداخله شكٌّ في الله أو يُصاب بضعفٍ في إيمانه، و لكنْ لو قُدِّرَ لأحدنا أن يرى أحدَ التابعين لزادَ إيمانَه - بلا شك- مئاتِ المرات، ولو لقي أحدَ الصحابة لازداد إيمانُه آلاف المرات، ولو لقي أحدُنا النبيَّ - صلى الله عليه و سلم- لربَّما تجاوز إيمانَه بالله ونبيه كلَّ الحدود، فما بالنا بالجانِّ الذي شهد خلق الإنسان و تطوره، وسمع الأمرَ من ربِّ السماوات والأرض من غير واسطة بل وخاطَبَه وحاوره، وشهد نزولَ الأنعام هنا وفهم السرَّ في آذانها، و رغم ذلك تكبَّرَ وتجبَّرَ وفجر. فإبليسُ لم يكن لديه شكٌّ في وجود الله وعزته وجلاله، و رغم ذلك تمرد علنًا، وتحداه صراحة كأبشع ما يكون الكِبَر والكفر مع ربِّ العالمين. و لنا أن نقارنَ بين إبليسَ و فرعونَ الذي تكبر في الأرض وزعم أنَّه إله، ولكنْ ما أن انطبق البحرُ عليه حتى انهزم:

﴿ ۞ ...... حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ

وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ " 90 يونس" .

فإنْ كان فرعونُ الذي لم يخاطب الله أصلاً، قد أعلن إيمانَه لمَّا قهرته آياتُ الله، فإنَّ جبروتَ إبليسَ الذي يقسم في وجه الله - تعالى- "بعزتك" ،و يُصرُّ على تكبره يستحقُّ عقابًا فريدًا من نوعه في تاريخ الكون. و إنْ كانت عقوبةُ الحرابة هي أشدُّ العقوبات في الإسلام من قتلٍ وصلب، فإن عقابَ إبليسَ لا بُدَّ وأن يكون أكبرَ بكثير. هذا العقابُ ذاتِه الذيُ يجسدها مشهدُ رمي الجَمَرات الرهيب في" منى"، والملايين يرجُمُونه بحجارةٍ أُنزلت، ونظنُّ أنَّها تنزل سنوياً من السماء في المشعر الحرام، ليستمر الرجم إلى يوم الدين في ذات المكان الذي استكبر فيه على السجود لآدمَ قبل أن يسكن آدمُ الجنَّة. ولأنَّ الشيطانَ تحدَّى اللهَ أن يُغوي ذُرية آدمَ أجمعين، فقد سلطهم اللهُ عليه إلى يوم القيامة، يرجُمُونه في الزمان نفسِه و المكان ذاتِه الذي تكبَّر فيه. فقد طلب البقاءَ إلى يوم الدين ظنَّاً منه أنَّ بقاءَه سيتمُّ إشباعا لهواه، فأبقاه اللهُ ولكنَّه جعل ذلك البقاءَ نقمةً عليه، إذ إنَّه يُؤتى به سنوياً لترجُمَه الملايينُ من بني آدمَ بحجارةٍ تمزِّقُ الجن، ولكنَّه لا يموت بها ولا يحيا. فأيُّ مشهدٍ أعظم من هذا المشهد ليؤكِّدَ لنا أنَّ "مِنى" هي المكان ذاتُه الذي شهد خلق الإنسان و تطوره ، و أنَّه المكان نفسُه الذي استكبر فيه الشيطانُ وتحدَّى إرادةَ ربِّ العالمين، و رفض قَدَره و نفاذ قضائه في الخليفة الذي اختاره.

و لأنَّ وعيدَ الشيطان في وادي مِنى قد اشتمل على نيته أن يأمرَهم ليبتكنَّ آذانَ الأنعام، فقد شاء الله أن يعاقبَه في اليوم ذاته على كلِّ ما عزم عليه؛ لذلك جعل سُنةَ ذبح الأنعام في عيد الأضحى في نفس اللحظة التي يُرجَمُ فيها الشيطانُ في مِنى، ولأنَّ رجم الشيطان يستمرُ إلى آخر أيام التشريق فإنَّ ذبح الأضاحي يجوزُ في كلِّ أيام التشريق أيضاً؛ إعلاءً لآذان الأنعام رغم أنف الشيطان الذي توعد بأن يجعلهم يُبتِّكون آذانها .

على أنَّ في القرآن حلاوةً وإعجازًا لُغويًّا إضافيًّا يرتبط بمِنى لا بُدَّ أن نشير إليه، وهذا الإعجاز يقفُ دليلًا على أنَّ هنا القرآنَ ما كان ليُفترى من دون الله. وحتى نفهمَ ذلك الإعجازَ نقدِّمُ له بالحوار الذي دار بين الله وموسى في سيناء بلغةٍ مدهشةٍ أشارت إلى حدثٍ وقعَ في اللحظة نفسها، ولكنْ على بُعد أميال كثيرة من غير علم موسى :

﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ " 83-84 طه" .

فقد سبق موسى قومَه في المجيء إلى الله، ولكنَّ الله - تعالى- استعمل كلمات " أَعْجَلَكَ وَعَجِلْتُ " وكأنَّها كلماتٌ عادية مرتبطةٌ فقط بسياق الكلام، غير أنّه في اللحظة ذاتِها كان نتيجة **استعجاله** أنَّ قومَه من بعده قد استضعفوا أخاه هارونَ، وعبدوا **العجل** كما سنرى في باب " آذان الأنعام" . فالعَلاقةُ هنا ليست إلا في موسيقى الألفاظ، ولكنَّها ربطت بين الحدثين ربطًا رائعًا.

هذه الظاهرةُ المدهشةُ ربَّما تفوت على كثير من الناس الذين لا يعلمون كيف تعملُ ذاكرةُ الإنسان، ولكنَّ اللهَ يعلم . فالذاكرةُ تحفظ المعلوماتِ في أشكالٍ مختلفةٍ كثيرةٍ تشبهُ الملفاتِ المتشابهةَ أو(فايلات الكمبيوتر) التي توضع في مكان يدخل إليه الباحثُ بمِفتاحٍ واحد. فهناك ذاكرةٌ تحفظ الأرقام، و ذاكرةٌ تحفظ الألوان، و ذاكرةٌ تحفظ الألفاظ، و أخرى للصور، و أخرى للموسيقى وهكذا. و لذلك حينما يذكر اللهُ الإنسانَ بأمر معلوم يشير إلينا بـ "أولي الألباب". وتتم عملية الاسترجاع بفتح الملف أو "اللب" الذي يحوي معلوماتٍ شبيهةً بالتي يحاول الإنسانُ استرجاعها، ويتمُّ البحث بين الملفات إلى حين الوصول إلى الهدف المطلوب. وكثيراً ما يُفاجأ الإنسانُ بشخص لم يلتقِ به منذ زمنٍ فيصعبُ عليه أن يتذكر إلا حرفاً واحداً من اسمه فيبدأُ رحلة البحث فب الذاكرة، مثلاً يبدأ بالحرف الأول: م م م ح ح ، ثمَّ يختلط عليه الأمرُ هل هو محمد أو محمود أو حامد وهكذا، إلى أن يستطيعَ الوصولَ إلى الموقع الذي حفظ فيه الاسم كاملاً. وقد استفاد العلماءُ في علم النفس من هذه الخاصية في إجراء عملياتِ التنويم المغناطيسي بالتحكم في الذاكرة من الخارج وبرمجتها، وكذلك تستعمل الخاصيةُ نفسُها في العلم الذي يُسمَّى بالبرمجة اللغوية للأعصاب، وهي إحداثُ رابطٍ في ذاكرة الإنسان بين أمرين بتسجيل نوعٍ من الموسيقى أو الألفاظ التي تجمع بينهما، وتقود إلى أن يتذكر الإنسان أمراً إذا تذكر الآخر، وكذلك يستعملها الإعلاميون في الدعاية التجارية بالترويج لسلعٍ بعد ربطها موسيقياً أو بالصور بأمر يتذكره الإنسان، ويستعملها السياسيون للترويج لأفكارٍ وترسيخِها في أذهان الناس وهكذا. القرآن يُوحي لنا أحياناً بمعلومات غيرِ منطوقة، ولكنَّ الألفاظ التي يستعملها تكفي لأنْ تجر من الذاكرة أمراً آخرَ ارتبط بها .

و لعلَّ ألفاظَ القرآن التي وصفت ما دار بين الله - جلَّ جلاله- والشيطانِ بعد أن رفض السجود لآدم، كان فيها تطبيقٌ لهذه الخاصية في علم النفس يستشعره أولو الألباب، وإيحاء بأنَّ الحوار دار في **مِنى** تماماً كما كان استعجال موسى في الوقت ذاته الذي عبد فيه قومُه العجل:

﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ **وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ** وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ

وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ **وَيُمَنِّيهِمْ** ۖ وَمَا

يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ ﴾ " 119-120 النساء" .

في هذا الحوارِ نلاحظُ أنَّ الله ـ تعالى- كرَّر كلمة "**مِنى"** في "وَلأَمَنِّيَنَّهُمْ ... وَيُمَنِّيهِم " مرتين، و كأنَّه يؤكِّدُ لنا أنَّ هذا الحوارَ قد دار في وادي **مِنى**، حيث نبت الإنسانُ من الأرض نباتاً وسعى فيها ملايينَ السنين في سلم التطور، و لم يكن حينها شيئًا مذكورًا إلى أن جَمع اللهُ فيه مجموعةً كانت آدمًا أي ملائمة للتغيير، فنفخ فيها من روحه ونقلها إلى إنسان عاقلٍ بفضله، ثمَّ أمَرَ قوانينَ الكون التي تحكم مخلوقاتِها بالخضوع لآدم ففعلت إلا إبليس . و لذلك يعود الإنسانُ إلى آخر الزمان ليرجُمَ الشيطانَ في الزمان ذاتِه و المكان عينِه الذي افتُرِي فيه على الرحمن، فسبحان الذي خلقهم وخلَقَنا وأنزل القرآن (سنعود إن شاء الله إلى وصف يوم منى بـ: "يوم الحج الأكبر" في آذان الأنعام).

طواف الإفاضة:

طوافُ الإفاضةِ ليس إلا تمثيلاً جماهيرياً لتجمُّعِ الإنسانية حول بيت الآباء كما تجمعوا أولَ مرة. و لعلَّ اسمَه مشتقٌ من إفاضة أول فوجٍ من البشر كما قال ـ تعالى- :

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ **أَفَاضَ ٱلنَّاسُ** وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾ "199البقرة".

و اسم "طواف الإفاضة" فيه دلالةٌ تميِّزه عن طواف القدوم، إذ إنَّ طوافَ القدوم إنَّما يُوحي بقدوم الأفراد من الحجيج من بني آدم إلى يوم القيامة قبل تجمُّعِهم معاً ليشكلوا فوجاً متجانسًا من البشر يشابهُ الفوجَ الذي تطوَّر إلى إنسان عاقل في مِنى، ثمَّ سكن جنَّة المأوى في عرفات، و أفاض إلى المَشعر الحرام بالمزدلفة في طريقهم عبر منى إلى البيت العتيق. فالقدومُ قدومُ الأفراد الذي يحكي حالَ الإنسان اليوم، أمَّا الإفاضة فهي إفاضةٌ أو مثابةٌ جماعيةٌ تمثلُ إفاضةَ "الناس" الذين أفاضوا هنا أولَ مرة بوصفهم مجموعةً متجانسةً في يوم واحد. ولذلك فطوافُ القدوم واجب؛ لأنَّه يمثِّلُ تعظيمَنا ـ نحن- للبيت الحرام، أمّا طوافُ الإفاضة فهو فرضٌ؛ لأنَّه جزءٌ أساسي من تمثيل خُطُوات الإنسان الأول.

و لعلَّ الحجرَ الأسودَ الذي رُفع في ركن الكعبة هو أحدُ الحجارة الأصلية التي بُني بها أول بيتٍ وُضع للناس، و التي أُنزلت من السماء في هذا البلد الحرام؛ ليكونَ بيِّنَةً لِصِلة الإنسان الأول بخالقه، وصلةً بين الأرض والسماء إلى يوم القيامة. فالحجرُ نفسُه لا ينفعُ ولا يضرُّ، و لكنَّ الصلةَ بين العبد و ربِّه التي تحكيها قصةُ هذه الحجارة هي التي تنفعُ الإنسانَ وتعيده إلى الجنَّة التي يحلم بها، وتهبُه الخُلد والملك الذي لا يبلى في الجنَّة إنْ هو عَبَدَ ربَّه كما يحب أن يُعبد.

التطوف بين الصفا والمروة:

هذه أولُ صلاةٍ مارسها الإنسانُ وهو يهرول بين الموقعين راصاً الحجارةَ في سبعة أشواط. و هي أيضاً أولُ صلاة أقامها الإنسانُ بعد أن بَدأت **المثابةُ** إلى البيتِ متمثلةً في تطوف هاجرَ بين الجبلين. و يقوم الحَاجُّ بالتطوف سبعةَ أشواط في تلك الهيئة البدنية من إحرام، والنفسيةِ من استغفارٍ وتذلُّلٍ مكررًا الدعاءَ ذاتَه الذي دعته مجموعةُ آدم حينها كما هي سنة الرسول - صلى الله عليه وسلم- :

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ " 23 الأعراف".

بقي أن نذكر أنَّ "**السعي**" يعني "القطع"، إشارة إلى قطع الحجارة التي تكوِّنُ جبلي الصفا والمروة، أمَّا الجري بينهما فيُسمَّى "التطوف"، و إنْ كانت كلُّ العبادة تُسمَّى مجازًا بالسعي إشارةً إلى وقوعها بين السعي أو القطع .

بعد التطوف بين الصفا والمروة يتحللُ الحجيجُ من الإحرام، و يعودون إلى حياتهم التي اعتادوا عليها بعد أن عاشوا تلك الأيامَ المعلومات في المكان ذاتِه و الزمان عينِه و الهيئة نفسِها التي عاش فيها آباؤهم من قبل، و التي بوَّأها اللهُ لإبراهيم عندما أخبره بما كان حول البيت.

و لأنَّ الحَجَّ رباطٌ وثيقٌ بين خلق الإنسان و تطوره، فقد كان القرآن صريحًا جدًا في أن جعل الخطابَ في كلِّ مناسك الحَجِّ موجهًا "للناس"، مَن آمن منهم و مَن لم يؤمن. ولأنَّ حكمة الحَجِّ الأساسية هي تذكيرُ أولي الألباب من كلِّ الناس بقصة الخلق والتطور، فقد ذكَّرَنا اللهُ أنَّه خلقنا في الأرض من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجَها، ولكنَّه أنزل الأنعام . ولذلك فقد جعل اللهُ - تعالى- كفَّارة كلِّ النقائص الصغيرة التي لا تبطل الحَجَّ في ذبح الأنعام المنزلة في هذا المكان، وفي أحداث ارتبطت بقصة تطور الإنسان.

موجبات الْهَدْيِ:

الْهَدْيِ هو ذبحُ الأنعام قرباناً لله وتكفيراً لذنبٍ ارتكبه الحَاجّ لكنه غيرُ مبطل للحَج. والفدية هي إخراجُ مبلغٍ من المال تكفيراً لصغائرَ أقلَ من تلك التي توجب الهدي. و يجب الْهَدْيِ على الحَاجِّ إذا ترك واحدة من واجبات الحَج، مثل:

1- ترك طوافَ القدوم.

2- ترك النزولَ بمزدلفة قدر حط الرحال.

3- ترك المبيت بمِنى في اليومين الأولين من أيام الرمي.

4- ترك رمي الجَمَرات كلِّها أو بعضِها.

موجبات الفدية:

1- استعمالُ عطرٍ يعْلَق بالجسم.

2- إزالةُ جزءٍ من شعر الجسد.

3- تغطيةُ الوجهِ أو الرسِ من بردٍ أو حَرٍّ.

4- حلقُ شعر الرأس لضرورةِ مرض.

5- لبسُ نعل.

6- تقليمُ الأظافر.

نلاحظ أنَّ موجبات **الفدية** هي إضافةُ سلوكٍ حضاريٍّ ممَّا اكتسبه الإنسان بعد مرحلة الإنسان الأول، وتكون كفارتُها أيضاً بسلوكٍ حضاريٍّ وهو إنفاق المال. كما نلاحظ أنَّ موجبات **الْهَدْيِ** تشمل تجاوزَ إحدى خُطُوات الإنسان الأول، الذي يمثل الحَجُّ السيرَ على خُطاه؛ و لذلك يُكفَّرُ عنها بذبح الأنعام لارتباطها أيضاً بيوميات الإنسان الأول، و كأنَّ الله ـ تعالى- يريد لكلِّ حَاجٍّ أن يذبح الأنعام، كلما نسي شيئًا من يوميات مَن يمشي على خُطاه.

بعد اكتشافنا للعَلاقةِ الوطيدةِ بين عبادةِ الحَجِّ و الأرضِ التي خُلق فيها البشرُ وتَطوَّرَ إلى إنسان عاقل، يمكنُنا أن نفهم لماذا تصوِّرُ آياتُ الحَجِّ "الْهَدْيِ" وكأنَّه يجري بين أقدام الحجيج حيثما حلُّوا، وأنَّه هنا يفديهم من صغائرِ الذنوب في الحَجِّ . فإنْ كان الحَجُّ ليس إلا تمثيلاً لعمليةِ الخلق والتطور في هذه الوُدْيان المقدسة، فإنَّ وجود الأنعام هنا يهدي الإنسانَ إلى الله، و تذكِّرُنا أنَّه ليس كلُّ ما في الأرض تطوَّرَ فيها، الشيء الذي يمثل إعجازًا علميًّا لمَّا يعرفه البشر بعد، إذ إنَّه من الاكتشافات التي يقدمها القرآنُ جاهزةً للعلماء قبل أن يصلوا إليها فنأتي بعدهم لنقول "إنَّها وردت في القرآن" . إنْ كان الإنسانُ قد صَعِدَ سُلَمًا من التطور ابتدأ هنا في هذه الأراضي المقدسة، فإنَّ السُلَّم الموازي لتطور الإنسان قد نزل من السماء هنا أيضًا متمثِّلًا في آذان الأنعام كما سنرى.

نلاحظ أيضًا أنَّ موجباتِ الْهَدْيِ والفدية جميعَها لم تشتمل على الخطيئة التي ارتكبها آدمُ لمَّا أُمر بالسكن في الجنَّة وهي "لا تقربا هذه الشجرة". و لمَّا كانت قصةُ الحَجِّ كلُّها ليست إلا تمثيلاً عملياً لتجرِبة الإنسان الأول ما بين الخلق والتطور، إلى سكن الجنة والهبوط منها، إلى حين إفاضته إلى البيت العتيق، فإنَّ الله ـ تعالى- جعل المُبطلَ الوحيدَ للحج هو تَكرار الخطأ ذاتِه الذي ارتكبته مجموعةُ آدم، وهو الاقتراب من شجرة الخلد.

مبطلاتُ الحَجِّ:

حينما يتحدثُ أهلُ العلم عن مبطلاتِ الحَجِّ، فإنَّما يعنون المباحات في غير الحَجِّ التي تبطلُ الحَجَّ. بمعنًى آخرَ فإنَّ ارتكاب الكبائر في الحَجِّ يبطلُهُ بلا شك، مثل: الزنا و شرب الخمر وغيرها؛ لأنَّ هذه الأفعال هي ـ أصلا- محرمة في كلِّ زمانٍ ومكان، وحرمتُها في الحَجِّ أكبر. على أنَّ مبطلاتِ الحَجِّ التي نعني هنا هي الأفعالُ التي تُباح في غير الحَجِّ، ولكنَّها تبطلُ الحَجَّ إذا مُورست أثناءَه. هذه المبطلاتُ والتي تُباح في غير الحَجِّ ليست إلا تجاوزًا للنهي ذاتِه الذي نُهيت عنه مجموعة آدم في الجنة، و هو ألَّا يقربا "تلكما الشجرة" التي مُنع آدمُ من الاقتراب منها، و هي "الجماع" بين الزوجين، الذي هو حلالٌ في غيرِ الحَجِّ، و إخراج المني عمداً قبل يوم النحر، وعلى الذي بَطَلَ حَجُّهُ بـ"الاقتراب من الشجرة" أن يتمَّ حَجَّه الفاسد، ثم يأتي العام التالي لقضاء الحَجِّ الفاسد، ثم يأتي العام الثالث لأداء فريضة الحج .

و لعلَّ التغليظ في كفارةِ إبطالِ الحَجِّ بالجماع بين الزوجين يدلُّ على أنَّ مَن فعل ذلك كأنَّه يتهاون في أمر الله بعد أن علم ما آلَ إليه حالُ الإنسان الأول، يومَ نهاه اللهُ عن فعلِ الشيء نفسه في ذات الزمان والمكان:

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ "35 البقرة" .

* * * *

مفهومُ الإنسان الأول:

لقد استعملنا مفهومَ "الإنسان الأول" مِرارًا في هذا الكتاب، وبه رمزنا إلى المجموعة التي طوَّرها اللهُ - تعالى- من إنسانٍ غيرِ عاقلٍ إلى إنسانٍ عاقل. و لمَّا كان البشرُ (الإنسان) قد خُلق بشرًا وإنساناً منذ بَدء الخلق، فقد كان لِزاماً علينا أن ننوهَ إلى هذا المدلول الذي قصدناه من مفهوم الإنسان الأول. إذ إنَّنا نتجهُ الآنَ إلى آذان الأنعام والمراحلِ الأولى من بدايات الخلق. حينها كان الإنسانُ موجوداً، و لكنَّ ذلك كان زمنًا قبل المجموعةِ التي تطورت إلى إنسان عاقل وأسميناها اصطلاحًا: الإنسان الأول.

*　　*　　*　　*

من دراستنا لتفاصيل حُجَّة الحج على الإنسـانية كما رأينا، يصعبُ على أيِّ إنسان واقعيٍّ أن ينكر أنَّ الله تعالى قد ربط بين خلقِ الإنسان و تطورِه في هذه البقاع المقدسة، و الأنعامِ التي تسعى تحت أقدام الحجيج، مشيرًا إليها باسم فريد هو **الْهَدْيِ**، وكأنها تُحَدِّثُ الإنسان على مرِّ العصور بأنَّ في آذانها سرًّا يجبُ أن ينظر إليه كلُّ ذي بصرٍ وبصيرة، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بقصة الخلق والتطور التي يمثلها الحَجُّ في كلِّ خُطُوات الحجيج، وهم يقلـدون آباءَهم ويذكرونهم أشدَّ من ذكرهم لله.

و قبل أن ننزل إلى "سدرة المنتـهى" لنختم هذا الكتاب، لا بُدَّ أن تخشع أصواتُنا فلا يُسْمعُ منها إلا همسٌ ونحن ندخل إلى عرش الرحمـن، لنسجد عند كرسـيه الذي اتسـع، فوسـع من كلِّ الوجود ما وسع وما زال يتســع، وناموس الكـون، و نكشف سرَّ القـلائدَ التي سادت في الزمان البائـد ومقـاليـد السماوات والأرض في **"آذان الأنـــعام"**.

البـاب الحـادي عشـر

آذانُ الأنـــــــعام

من مظاهرِ التطور في حضارات البشر أنَّ الكتابة التي دوَّنَ بها الإنسانُ حضاراتِه وحياتَه اليوميةَ في غابر الزمن، كانت لا تعدو كونها رسوماً تشخيصيةً، تعكسُ بساطةَ قدراتِه في فهم العالم من حوله ومحدودية ألفاظه؛ لأنَّ الحياة عنده لم تكن إلا أحداثاً مجسَّدةً قليلةَ المفاهيم والدلالات. ثمَّ تطور العقلُ وتطورت معه المفاهيمُ، و من ثَمَّ ملكاتُ التعبير والألفاظ، ثمَّ ظهرت الكتابةُ و تطورت وسائلُها إلى أن وصلنا إلى عصر "الكمبيوتر" و"الإنترنت"، وعصرِ التعبير عن المفاهيم المطلقةِ والفلسفيةِ والدينيةِ والخُلُقيةِ والجدليةِ والتجريديةِ و العلميةِ ممَّا يتصف به زمانُنا هذا.

و من مظاهر "الإعجاز الفني في القرآن" التي يلاحظُها القارئُ معنا إلى هذه اللحظة، أنَّ الله - تعالى- يحدثنا عن كلِّ أمَّةٍ بلسان حالِها من غير أن نشعر، رغم أنَّنا نقرأُ قرآناً عربياً مبيناً. و ما نودُ الإشارةَ إليه هنا أنَّ كلَّ القصص التي ارتبطت بالإنسان الأول، اشتملتْ على قدرٍ كبيرٍ من الألفاظ التصويرية والمجسمات، وتداخلِ عَلاقةِ الطبيعة والحَيَوان بنظام حياة الإنسان، وأسلوبِ خطابِه وعباداتِه و معتقداتِه. على أنّنا نجدُ القرآنَ ذاتَه يخاطبنا عن خلق السماوات والأرض، والكون وأسرار الخلق والطبيعة، والقوانين ونظام الأسرة والمجتمع وغيرهم، يخاطبنا بلغتنا التي نفهمُها ويتحدانا في ما وصلنا إليه من علمٍ وفصاحةٍ وبلاغة.

"البقرة" هي أكثرُ الأنعام تأثيرًا في حياة الإنسان؛ لأنَّها تحرثُ الأرضَ، وتحملُ الأمتعة وتدر اللبن الغزير، وتطعم قدرًا كبيرًا من الناس، لكنَّها في النهاية بهيمةٌ قد يُفاجأ كثيرٌ من الناس إذا علموا أنَّها تشغل مِساحةً ضخمةً جدًا في تاريخ التطور العَقَدِي للبشر، و أدت دورًا خطيرًا في عَلاقة الإنسان بربِّه، وتؤدي الدورَ ذاتَه إلى اليوم. و ممَّا لا شكَّ فيه أن أَشْهَرَ معبودٍ عُبِد بعد اللهِ في الأرض في تاريخ البشر هو البقرة. و قد يُصابُ الناسُ بالدهشة لو عرفوا أنَّ أولَ إلهٍ أُشرك بالله في الأرض كان البقرة. و قد تزدادُ الدهشةُ حينما نذكِّر الناسَ أنَّ النبيَّ الوحيدَ الذي أُرغم على الرضوخ لشركِ قومِه رغم استنكاره لما فعلوه، كان هارون حينما استخلفه موسى على بني إسرائيل، إذ إنَّهم عبدوا إلهاً غيرَ الله، و كان ذلك الإلهُ بقرة. و تبقى معلومةٌ بسيطةٌ أخيرة، وهي أنَّ ثاني إلهٍ يُعبَدُ على الأرض بعد اللهِ من حيثُ تعدادُ العباد اليوم هو البقرة. ومن هذا المنظارِ فقط يمكنُنا أن نحاول استيعابَ تسميةِ أطول و أول سورةٍ في القرآن بعد الفاتحة باسم "البقرة"، تلك البهيمةُ التي لا يكاد الإنسانُ يجد لها قيمةً في حياته اليومية، إنْ لم يكن مزارعًا أو راعيًا، بلْهَ أن يجدَ قيمةً أو معنًى في آذانها. وكانت سورةُ الأنعام هي إحدى السور الطويلة التي نزلت على الرسول - صلى الله عليه و سلم- كاملةً، ويقال إنَّها لمَّا نزلت خرَّ النبيُّ ساجدًا لله؛ من رهبةِ ما احتوت عليه تلك السورةُ من أسرار الخلقِ والخالقِ والكون.

رأينا في باب "قصة الخلق" أنَّ عَلاقةَ كلِّ الأحياء بالطين علاقةٌ مستمرة، تأخذُ فيها الأحياءُ مقوماتِ حياتهم من مكونات الطين، وتعودُ فيها نفاياتُ الموتى للطين في حلقةٍ مستمرةٍ ما دامت الحياة. في هذا الباب الذي سيناقش كلياتِ الخلق و أصولَه وعلاقةَ الإنسان بالأنعام وعلاقةَ الأنعام بعقيدة الإنسان، لا بُدَّ أن نسلكَ طريقاً طويلاً حتى نصلَ إلى بصيصٍ من نورٍ في محاولةٍ تبسط لنا كثيراً من الحقائق حول الخلق، و نتابعَ مسيرةَ الأحياء في رحلتها الطويلة عبر ملايين السنين من التطور إلى هيئتها اليوم وتميُّزها إلى نباتاتٍ و حَيَوانٍ وإنسان، قبل أن ندخلَ في آذان الأنعام، و مِن

ثَمَّ نفهم دور البقرة في التاريخ العَقَدِي للبشر، ثمَّ نربط كلَّ الحَلَقات معاً في سُلَّمي التطور، الذي نبت من الأرض نباتاً والذي نزل من السماء.

أصـلُ الخلـــق:

و لعلَّنا نبتدئُ بهذه الآياتِ في كتاب الله - عز وجل- لينطلقَ أولُ شعاعٍ في ذلك الظلامِ البهيـــمِ في عالم بهيمة الأنعام:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّـٰرُ ۝٥ **خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَـٰتٖ ثَلَـٰثٖۚ** ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ۝٦ ﴾

" 5-6 الزمر".

هذه الآية جمعت مَزِيَّتين مهمَّتين لا بُدَّ من الوقوف عليهما بالتفصيل:

المَزِيَّة الأولى- هي عدمُ وجودِ رابطٍ منطقي ظاهري بين مواضيع الآية. و حتى يسهل لنا ملاحظةُ ذلك يمكنُنا أن نتدبَّرَ في هذه الجملة لنرى غرابة المحتويات:

{ تُصنع القطاراتُ من الحديد الصلب، والليمون طعمه حامض، تحتاج القطاراتُ لصيانةٍ مستديمة}. و لأنَّ هذه جملةٌ عشوائية، يمكنُ لأيِّ دارسٍ للغة أن ينتقدها بشدةٍ لعدم وحدة الموضوع، لكنَّ كتابَ الله حينما يحتوي على صيغةٍ مشابهة فإنها مدعاة للتدبُّر وليس النقد بطبيعة الحال.

المَزِيَّة الثانية- هي أنَّ الآية جمعت صنفين من أساليب الخطاب في القرآن في لوحةٍ فنيةٍ رائعة، لا يمكنُ للإنسان أن يفهم كلَّ أبعادها. ففي الجزأين الأول والأخير منها "خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... يَخْلُقُكُمْ في بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقَاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ في ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ" نجد لغة فلسفيةً تحتاجُ لكثيرٍ من الخيال الخصب وعلم البيولوجيا؛ لفهْمِ بعضِ ما فيها من أسرار، أما الجزءُ الأوسط"وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ " فيبدو و كأنَّه قد أُقحم إقحاما في سياق الآية. و لأنَّ الحديثَ هنا عن "نفس واحدة " هي أصل الخلق، لا بُدَّ لنا أن نناقشها بشيء من التفصيل:

النفسُ الواحدة:

المعروفُ أنَّ علماء الدين لم يتفقوا على تفسيرٍ محددٍ لكلمة "النفس" حتى الآن. الفهمُ السائدُ هو أنَّ النفسَ هي الجسدُ الذي فيه روح، و لكنَّ هذا التخصيصَ يناقض قولَ الله ـ تعالى- : ﴿... وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ... ﴾" 30 آل عمران:". إذ إنَّ الله حيٌّ لا يموت، و له نفسٌ ولكنْ ليس له جسدٌ نعرفه وهو الذي خلق الأجساد. والغريب أنَّ الله يصف النفسَ حيناً بأنَّها تموت :﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ " 42 الزمر"، و في موضعٍ آخرَ يصفُ عودةَ النفس الميتةِ إليه وكأنَّها تظل حية:﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ ﴾ " 27 -28 الفجر". و كلُّ ما يمكن أن نقوله هنا هو أنَّ الله ـ تعالى- قد ترك لنا سرَّ النفسِ غامضاً كما ترك سرَّ الروح. على أنَّنا نجدُ في اللغة أنَّ كلمة "نفس" تُستعمل لتصفَ كلَّ شيءٍ يخطِرُ ببالِ البشر، وتُستعمل كلفظٍ مخصَّص يُحدِّدُ الشيءَ المرادَ وصفُه، فنقول مثلاً: " نفس الكلام"، و"نفس البلد"، و "نفس الكتاب "، و"نفس القلم "، و"نفس الذرة"، و"نفس الخلية"، فلا تكاد توجد حدودٌ لاستعمال كلمة نفس مع أيِّ موجود، سواء أ كان مادياً أم معنوياً، خالقاً أو مخلوقاً.

من السمات الواضحة في هذه الآية أنَّها تتحدث عن الخلق من نفس واحدة، و لكنَّها **لم** تخاطب الجنسَ البشريَّ مباشرةً كما في قوله ـ تعالى- : {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ...}" 13 الحجرات". و رغم ذلك فهي تُفهم عمومًا أنَّها تشيرُ إلى أنَّ النفس الواحدة هي نفس "آدم"، وعليه فزوجها الذي جُعل منها هو "حواء". هذا الفهمُ فيه قصورٌ كبيرٌ لا يتفقُ وطبيعةَ الألفاظِ في هذه الآية بالتحديد. و قد ناقشنا باستفاضةٍ معنى لفظ "آدم" الذي يعني الجنس الملائم للتغيير، وناقشنا خلقَ الأنثى من نفس الأصل، إذ إنَّ القرآن وَصَفَ خلق الإنسان والبشر من أصلٍ واحدٍ من غير تخصيص أنثى أو ذكر، و ناقشنا في أبواب سابقة قصةَ مجموعة آدم (ذكورًا وإناثا)، والتي طوَّرها اللهُ بفعل "كن" إلى مجموعةٍ عاقلة، ثمَّ اصطفى اللهُ من بعدهم"آدم" نبيَه الأول.

فحينما يَستعملُ اللهُ ـ سبحانه وتعالى- "نفس واحدة" إشارةً لنفسِ أولِ إنسان نجدُ ذلك الوصفَ مرتبطاً بالناس كما في قوله:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا

كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ "1النساء" .

هنا نلاحظ أنَّ الله يخاطب الناسَ بصريح اللفظ، و أيضًا استعمل لفظ "خلق" وليس "جعل"، ممَّا يُوحي بأنَّ مدلولَ هذه الآية التي تشير ظاهريًّا إلى أصل الإنسان " مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا " أمر يختلف عن ﴿ ۞

... خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ... ﴿١٨٩﴾ ﴾، وهي الآية موضوع النقاش. إذنْ فهناك مُميِّزاتٌ جذريةٌ في صيغة الآية، موضوعِ البحث، تجعلُها توحي بأنَّ مضمونَها لا ينطبقُ على خَلق الإنسان من نفس واحدة، كما هو الحال في الآيات المشابهة التي صرَّحت بخلق النَّاس من نفسٍ واحدة. لو قارنا نصَّ الآيتين يمكنُنا أن نلاحظ الفرق:

... **خَلَقَكُمْ** مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ **وَخَلَقَ** مِنْهَا زَوْجَهَا ...

هذه الآيةُ التي تخاطب البشرَ بالتحديد، قد وصفت خلْقَ النفس الواحدة وخلق زوجِها منها، و عطفت الخلقين على بعضهما بحرف الواو الذي يفيد مطلق الإشتراك فى الحكم وهذا ربما يفيد وقوع الحدثين معًا، أو يفيدُ المساواةَ في أهمية الحدثين. هذا ربَّما يبيِّنُ أنَّه قد حدث انقسامٌ في النفس الأولى، أو الخلية الأولى التي احتوت على أصولِ الذكر والأنثى لتواصل عملية التكاثر بتَكرار ذات النواتج من الانقسام الأول، من غير تمييزٍ للذكر والأنثى عند بَدء الخلق. أي أنَّه ربَّما يشيرُ إلى تزاوجٍ غيرِ جنسيٍّ بين نواتج انقسام النفس الواحدة الأولى. أمَّا الآيةُ موضوع النقاش فتنص على:

﴿ .....خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا..... ﴿٦﴾ ﴾

هذه الآيةُ لم تخاطب الجنسَ البشريَّ بالتحديد، و تشير إلى مدةٍ زمنيةٍ طويلةٍ يدلُّ عليها حرفُ العطف "ثـمَّ" بين خلْقِ النفس الواحدة وجعْلِ زوجها منها، وكلمة "جعل" تفيد أنَّ تغييرًا وظيفيًّا قد تمَّ، بعد مدةٍ زمنية طويلة، في نواتج النفس الواحدة الأولى التي احتوت على خواصِّ الذكر والأنثى في مراحل تطورها و تزاوجها الذاتي، أدى إلى ظهور نفسين متكاملتين، و لكلٍّ خواص مختلفة ومكملة لخواص النفس الأخرى، ممَّا يُشيع في الآية غموضًا يستحق بحثاً متأنيًا كما سنرى. نلاحظ أيضاً أنَّ الخطاب في آية الزمر، موضوع النقاش، موجَّهٌ لكل الخلق، إذ إنَّ "خلقكم" تفيد أنَّ المخاطبَ هم كلُّ مَن خلق الله، و إنْ كان العاقلُ منهم هو البشرَ وحده. وحتى نستطيعَ ملاحظة الفوارق بين الآيتين يمكنُنا مقارنتهما في هذا الجدول:

1 النساء	6 الزمر
أيُّها الناس	....
خلقكم	خلقكم
نفس واحدة	نفس واحدة
و	ثـــمَّ
خلق منها	جـعل منها
زوجها	زوجها

و لعلَّنا الآنَ نستطيعُ التدبُّرَ في المدلول العلمي للآيتين، لو رسمنا رسماً تقريبياً كالذي يوضح خُطُوات انقسام الخلايا في علم الأحياء:

1- بداية الخلق من نفس واحدة، لا ذكر ولا أنثى:

﴿ ..... خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ ....﴿١﴾ ﴾ " 1 النساء"

---------- ---------

وهذه المرحلة تطابق الطور النباتي في مراحل التطور التي ناقشناها في باب "الحلقة المفقودة":

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ﴾ " 7 السجدة".

2- تطوير النفس الواحدة ليَجْعلَ منها ذكرًا وأنثى:

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ....﴿٦﴾ ﴾ " 6 الزمر".

--------------- ------♀♂ ظهور الذكر و الأنثى.

وهذه المرحلة تطابقُ طور التكاثر الجنسي في مراحل التطور التي ناقشناها في باب "الحلقة المفقودة":

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ " 8 السجدة".

يمكنُ أن نخلُصَ من مقارنة الآيتين، أنَّ الذكر والأنثى قد خُلِقا من أصلٍ واحد، تطور بتزاوج ذاتي أولاً، ثمَّ تميزت خواصُّ الذكورة والأُنوثة في كلٍّ منهما في مرحلة لاحقة، ليصبح كلٌّ منهما زوجًا للآخر. و سنعود إلى الآيتين مرة أخرى.

الصفات المستقرة والمستودعة:

وردت آية أخرى في سورة الأنعام، لا تقلُّ غموضًا و لم يحسم المفسرون سرَّها، تشير أيضًا إلى "الإنشاء" من نفسٍ واحدة، وليس الخلق وليس "الجعل". و هذه الآية تلقي ظلالًا على عملية اختلافِ مكوناتِ الخلقِ والصفاتِ الوراثية:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ **فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ** ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

﴾ " 98 الأنعام".

نلاحظ أنَّ الآية خُتمت بلفظٍ يستفزُ العقل للفقه، و كأنَّ في الآية سرًّا عظيمًا.

لقد رأينا في باب "قصة الخلق" أنَّ الإنشاء هو رفع المنخفض إلى أعلى، ومنها: نشأ الفتى أي استطال جسده، ومنها: المنشآتُ أي المباني المرتفعة. فالإنشاءُ مرحلةٌ تالية للخلق الذي يفيد تقدير وجود الشيء من عدم. و قد حَارَ العلماءُ القدامى في معنى "**فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ** ۗ "، إذ أورد الإمامُ الطبريُّ آراء كثيرة مختلفة لعدد من العلماء،

فمنهم مَن قال: إنَّ المستقر هو الرحم، والمستودع هو أصلاب الرجال، ومنهم مَن قال: إنَّ المستودع هو الرحم، والمستقر هو القبر، ومنهم مَن قال: إنَّ المستودع هو كلُّ الحياة، والمستقر هو المصير في الآخرة وهكذا. واختلاف العلماء القدامى يفيد شيئين: أولهما أنَّ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم- لم يفسِّر الآية، والثاني أنَّها تحتوي على سرٍّ استعصى على مَن قبلنا، ممَّا يوحي بأنَّها تحوي مضمونًا علميًّا ينتظر قومًا "يفقهون" هذا الصنفَ من العلوم لاكتشافه.
المُسْتَقر: أصلها من قرَّ وتعني التمكّن، **والمُسْتَودع** من ودع و تعني الترك والتخلية، وهو الذي يوجد في شكل وديعة، أي أمانة يحملها الشخص ولكنَّه لا يملك حقَّ التصرف فيها.

و نحن نظنُّ أنَّ السرَّ الذي تحويه هذه الآية هو سرُّ علم الجينات أو "الوراثة". فقد أصبح ثابتاً ومتفقاً عليه بين جميع علماء الأحياء فيما يعرف بـ "قانون مندل"، أنَّ الصفاتِ الوراثيةَ التي تحملها الأمشاج تنقسم إلى نوعين:
1- الصفات المستقرة "السائدة": و هذه هي التي تستقرُّ في تكوين المخلوق من إنسانٍ أو حيوانٍ أو نبات، وتحدِّدُ أيّاً من صفات الوراثة تظهر فيه، من لونٍ وشكلٍ وحجمٍ و طبائعَ وغيرِها. كلُّ إنسان ـ مثلاً- له صفاتٌ ظاهرة يراها كلُّ

الناس، و لكنَّه يحمل في نطفته صفاتٍ مستودعةً لكنَّها لم تظهر فيه، كأنْ تكون ـ مثلاً- عيونُ أحدِ الوالدين سوداءَ من جيناتٍ "مستقرة"، تمكنت في خلقه واستقرت في تكوينه، و لكنَّه يحملُ صفاتٍ وراثيةً لعيونٍ خضراءَ حملها عبْرَ الأجداد من جدِّه العاشر، ولم تظهر إلا فجأة في ابنه.

2- الصفات المستودعة "المتنحية": هي الصفات التي تنتقل من جيل إلى آخرَ من غير أن تدخُلَ في تركيبه، أي كأنَّه يحملها وديعةً لا يتصرفُ فيها إلى أن تأتيَ ظروفٌ مختلفة، كأنْ تلتقي صفةٌ مستودعةٌ عند الأبِ مطابقةً لصفةٍ مستودعةٍ عند الأم، فيؤدي ذلك إلى أن **تستقرَّ** هذه الصفةُ المستودعةُ أو المتنحية في المولود، فيولد بعيونٍ خضراءَ - مثلاً- رغم أنَّ كلا أبويه عيونُه سوداء، و لكنَّ كليهما حمل هذه الوديعةَ أو الصفةَ المستودعةَ إلى أن استقرت حيث أراد اللهُ لها أن تستقرَّ في مولودهم. هذا التفسير الذي يملأُ فراغاً في تفسير الآية، و لا يعارض رأياً قاطعاً من علماء السلف، يجعلُ من فهْمِ هذه الآية فهماً سلساً متسقاً مع الآية التي تليها، والتي يبدو كأنَّها تشرحُ الاختلافاتِ في الصفات الوراثية في عالم النبات رغم أنَّ أصلَها من ماءٍ واحد:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا **مُّتَرَاكِبًا** وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ **وَيَنْعِهِۦٓ** ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

" 99 الأنعام" .

متراكب: من "ركب" وتعني أن يعلوَ شيءٌ شيئاً، و"المركب" هو الأصل والمنبت، أي الشيء الذي منه ينبت غيرُه. والحبُّ المتراكبُ ـ ربَّما- تعني الحب الذي يحمل سرَّ إنبات غيره من كلِّ الأنواع .

مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ: يبدو أنَّ هذين اللفظين قُصِدَ منهما الإشارةُ إلى خاصيَّةٍ علميةٍ دقيقة، إذ إنَّ الشبهَ يعني تماثل شيءٍ بشيء، أمَّا كونه مشتبهاً وغيرَ متشابه فكأنَّها تعني أنَّه ظاهرياً يشبه بعضُه بعضاً، لكنْ في تفاصيله الخفية فكلٌّ يحمل صفاتٍ تختلفُ عن الآخر.

ثمر: هو نتاج العمل، وهو الفاكهة في النبات.

ينع : أصلها من "نوع" ،و لها معنيان: الأول طائفة من الشيء مماثلة له، والثاني ضربٌ من ضروب الحركة كأنْ تقول ناعَ الغصنُ ينوع إذا تمايل.

فكأنَّ الآيةَ تضرب أمثلةً بالصفات **المستقرة والمستودعة** في الحبِّ **المتراكب** الذي يحتوي على الصبغيَّات الوراثية، و بذا يحملُ القدرةَ على الإنبات، ولكنَّه يقودُ إلى نباتاتٍ مشتبهةٍ ظاهرياً لكنَّها غيرُ متشابهة في ما تحمِلُه من صفاتٍ مختلفةٍ خفية. و بعضُ هذه الصفات يستقرُّ في الثمر الذي هو نهايةُ المطاف لعملية الخلق هذه، وبعضُه يستودع في الينع إلى أجلٍ مسمَّى ليظهر في صنفٍ جديدٍ من النبات، والله أعلم.

و مهما يكنْ مضمونُ هذه الآيات التي لا يعلمُ سرَّها إلا اللهُ ـ تعالى ـ ، فما نودُّ أن ندلل عليه هنا هو أنَّ سرَّ "النفس الواحدة" أمرٌ غامضٌ جدًّا، و ليس من الحكمةِ أنَّنا كلما وقفنا على تعبير "نفس واحدة" في القرآن فهمنا أنَّها نفسُ آدم. فالقرآن أُوحِيَ إلى مَن قبلنا و أُوحي إلينا ولِمَن بعدنا أيضاً، ولن تنتهيَ إعجازاتُه أبدًا.

نعودُ إلى مناقشةِ آيةِ الزُمر، موضوع النقاش الأصلي، ونذكر أيضًا أنَّنا عند محاولتنا فهمَ هذه الآيةِ، لا بُدَّ و أن ننتبهَ إلى أنَّ اللهَ قال: "**جعل** منها زوجها" ولم يقل "**خلق** منها زوجها". و كما رأينا في باب " الحلْقة المفقودة" فإنَّ خلق آدم اختلف عن جَعْلِهِ خليفةً. فالجعلُ هو تخصيصُ الوظيفةِ للمخلوق الموجود، أمَّا الخلقُ فهو تقديرُ وجودِ الشيء من عدم، وأيضاً لا بُدَّ أن نتذكَّر أنَّ كلمة "زوج" لا تعني بالضرورة الذكر أو الأنثى، و إنَّما تعني شقاً آخرَ من طبيعة الشيء نفسه.

في هذه الآيةِ المعجزةِ، موضوعِ الحوار، يبدو لنا أنَّ الله ـ تعالى ـ يخبرُنا أنَّ قانون الخلق اقتضى تزاوج نفس الوحدة الأولى التي بدأ بها الخلق، وهذا يذكرنا بطبيعة الخلايا التي تبدأ واحدةً ثمَّ تنقسم بعد مدةٍ إلى زوجٍ من نفسها، بحيثُ لا يمكنُ تحديد أيِّ الزوجين كان أولاً، ثمَّ يستمرُّ الانقسام إلى مئاتِ ملايين الخلايا التي تُكوِّنُ مخلوقاً ضخماً. هذا التزاوجُ بين الخلايا هو القانون الذي تُخلق به كلُّ الأحياء بما في ذلك الإنسان نفسه. ففي خلْقِ الإنسان تتكونُ خلية واحدة ملقَّحة من التقاء الحَيَوان المنوي والبويضة، فتنقسم على نفسها فيكون لها زوجٌ من نفسها " لا ذكر ولا أنثى "، وهكذا يستمرُ ما يُسمَّى بالانقسام" الميوزي و المايتوزي" الذي يُكوِّنُ العلقة ثمَّ المضغة ثمَّ الجنين. و لمزيدٍ من العلم فإنَّ جَعْلَ الجنينِ ذكراً أو أنثى يتحدَّدُ في مرحلةٍ لاحقة، بعد أن تبدأ الغدد في إفراز هرموناتٍ ذَكَرِيَّةٍ أو أنثويةٍ وَفْقاً لنوعيةِ الكروموسومات أو الأمشاج التي كونته.

إذنْ فالآيةُ أجملتْ في اختصارٍ شديدٍ وصفاً لبَدءِ خلق الأحياء في مرحلتين من تطور الخلق، الذي ابتدأ بنفسٍ واحدة، ثـمَّ ظهر الزوجان(الذكر والأنثى) بعد مدةٍ طويلةٍ من الزمن، هذا يمكن مقارنتُه بقوله:{ الذي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ **خَلْقَ** الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ}، إذ إنَّه في هذه المرحلة لم يحدِّد كيفيةَ التكاثر، و لكنَّه من المؤكَّد أنَّ الكيفية سبقت مرحلةَ التكاثر الجنسي، التي تقتضي تميزَ الذكر والأنثى، و الذي حَدَثَ في المرحلة التالية التي قَدَّم لها بحرفِ العطف (ثـمَّ) أيضًا : ﴿ ثُمَّ **جَعَلَ** نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ " 7 السجدة".

إذا قبلنا هذا التفسيرَ ـ من باب الجدل فقط ـ كاحتمالٍ لمعنى هذا الجزء من الآية موضوعِ النقاش: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} الذي ورد بلغة الهدهد الفلسفية، فسنجدُ أنفسَنا نصطدمُ بالجزء الثاني منها: ﴿ ...وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٍ ... ﴿٦﴾ ﴾ وهو تصويرٌ بلغة الغراب يُوحي بأنَّ الإنسانَ كان واقفاً ينظر إلى الأنعام نازلةً من السماء، من غير أن يدريَ ما هي ... وجاء الوصفُ في الآية كأنَّه جملةٌ اعتراضية. و نلاحظ هنا عدداً من الحقائق المدهشة:

1- أنَّ الله لم يصف كيفية "خلق" الأنعام، و إنَّما وصف كيفيةَ وجودها على الأرض، وهو الإنزال في شكل ثمانية أزواج. و المعروف في اللغة أنَّ كلمة "أنزل" هي كلمة ميكانيكية تفيد النزولَ إلى الأرض من السماء، كما ينزل المطر من السحاب، وكما أنزل القرآنَ من السماء، و كما أنزل الحديدَ من خارج الغلاف الجوي. أي أنَّ الأنعام ما خُلقت على الأرض، و إنَّما نزلت مخلوقة في شكل ثمانية أزواج.

2- استعمل حرف العطف "الواو" للربط بين "خلقِ النفس الواحدة" و "نزولِ الأنعام"، والواو تدل على مطلق الإشتراك فى الحكم الذى ربما يرمز هنا للتساوي بين شيئين أو حدوثهما معًا، فهل هذا يعني أنَّ نزول الأنعام تمَّ في ذات الوقت الذي بدأ فيه الخلق في الأرض من نفس واحدة؟ أم أنَّ الله - جلَّ جلاله - يربط بصورةٍ متساويةٍ بين قانونِ وجودِ الأحياء في الأرض والأصلُ فيه الخلقُ من نفس واحدة، وقانونِ وجود الأنعام على الأرض والأصلُ فيه نزولها من السماء في شكل ثمانية أزواج جاهزة، و الخالق هنا وهناك واحد؟.

3- النص يقول :﴿ ...وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ ... ﴿٦﴾ ﴾ ، ولم يقل " و أنزل لكم ثمانية أزواج من الأنعام...." فهل يمكن أن يوحيَ هذا السياقُ بأنَّ الله أنزل لنا من مجتمع الأنعام ثمانية أزواج؟ أي أنَّ الأنعام مخلوقاتٌ موجودةٌ في عالمٍ آخرَ تشكِّلُ مجتمعًا قائمًا بذاته، فأنزل منها إلى الأرض ثمانيةَ أزواج؟ لا أحدَ يمكنه أن ينفي أو يثبت، ولكنْ ربَّما ننتظرُ يومَ يهبِطُ مسبارُ فضاءٍ في كوكبٍ غير الأرض، فيهلل الناسُ لاكتشاف الأنعام هناك ونحن نحمل القرآن كما يحمل الحمارُ أسفارا.

نحن نظنُّ - والله أعلم- أنَّ الجزء الثاني الخاصَّ بنزول الأنعام، إنَّما وُجد في هذه الآية جملةً اعتراضيةً؛ ليدفعَنا للتدبُّر في سرِّ الجزء الأول منها، وهو هُوِيَّة النفس الواحدة التي خُلقت ثمَّ جُعل منها زوجها . فلو افترضنا أنَّ النفس المقصودة هي نفسُ أولِ بشرٍ أو حتى الخلية الأولى التي خُلق منها، فإنَّ وجودَ نزول الأنعام معطوفة بحرف "الواو" يخلق إشكالًا فنيًّا في مقارنة الشيئين؛ لأنَّ الأرض مليئةٌ بالأحياء التي خُلقت فيها وليس الإنسان وحده، فلماذا يكون المقصودُ من الجزء الأول هو قانونَ خلق الإنسان من نفس واحدة، ثم تُستثنى الأنعام وحدها من ذلك؟ بمعنىً آخرَ لو كانت هذه النفسُ الواحدةُ هي نفسَ أول إنسان لَأمكَنَ الاستغناء عن الجملة الاعتراضية، وأمكن أن يكونَ السياقُ كما يأتي: "﴿ ... ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا ... ﴿١﴾ ﴾'' ﴿ ... يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ .....﴿٦﴾ ﴾ ؛ لأنَّ الحديثَ هنا يكونُ متَّسِقاً مع لغة الهدهد في وصف مراحل مختلفة لخلق الإنسان من نفس واحدة. و لكنَّ الواقع أنَّ الجملة الاعتراضية المجسمة أُقحمت بلغة الغراب في السياق ليصعُبَ هذا التفسير. و نحن نظنُّ أنَّ التفسيرَ المنطقيَّ لهذه الآية هو أنَّها تصفُ كيفية وجود "الأحياء" عموماً على الأرض، و كأنَّها تقول لنا: إنَّ كلَّ الأحياء على الأرض خُلقت من نفس واحدة، تطورت عن طريق انقسامها على نفسها، ثمَّ حدث تغييرٌ وظيفيٌّ في نواتجها أدى إلى ظهور الزوجين، الذكر والأنثى، في كلِّ نوع لتخرجَ منها أزواجُ كلِّ الأحياء، ما عدا أزواجَ الأنعام فهي منزلةٌ على شكل أزواجٍ ثمانية، أي أنَّها لا تشترك مع بقية أزواج الأحياء التي وُجدت على الأرض في أصل الخلق.

و ما يجعل هذا التفسيرَ أقربَ إلى سرِّ الآية، أنَّها بعد أن اعترضت السياقَ بإدخال نزول الأنعام و كأنَّها إنَّما ذُكرت للاستثناء من أصل الخلق من نفس واحدة، عادت الآيةُ لتواصلَ مراحل التطور التي نتجت من تكوُّنِ زوجٍ متميزٍ من تلك النفس الأولى الواحدة وهو الإنسان:

﴿ ... يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ .....﴿٦﴾ ﴾. هنا نلاحظ أنَّ اللغة الفلسفية عادت من جديد في سياق الآية، إذ إنَّها ركزت على تطور خلق الإنسان في الرحم، و أضافت معلوماتٍ ما كان الإنسانُ ليعرفَها عن ظلماتِ الرحم والغشاء البروتوني والسائل الأموني كما يظنُّ علماءُ النساء والتوليد في تفسير هذه الظلمات الثلاث، ونلاحظ أيضاً أنَّها أفصحت عن علم تطور الأجِنَّة في تَكرار " خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ "

و حتى يتضحَ المعنى أكثرَ لا بُدَّ أن نقرأ الآية مقرونةً بالآيتين اللتين سبقتاها "5-6 الزمر" لنستخلص هذه الحقائق:

1- الآية الأولى وصفت خلقَ السماوات والأرض بالحقِّ وصفاً عامًّا، ثمَّ انتقلت إلى تفاصيلَ أدقَ تخصُّ الأرض، فوصفت كرويةَ الأرض، وشكلَ الليل والنهار مكوَّرين على بعضهما كآيةٍ من آياتِ الله التي ما كان للإنسان أن يفهمها، قبل أن ينفذ من أقطار الأرض بسلطان العلم ويصورها من الفضاء. فكأنَّ السياق هنا يبدأ بوصفِ كلياتِ خلقِ الكون، منتقلاً من وصفٍ عامٍّ واسعٍ إلى وصفٍ أدقَ و أكثرَ خصوصية للأرض بسرعة فائقة وكلماتٍ بسيطةٍ بليغةٍ معجزة.

2- انتقل الوصفُ من خلق الأرض إلى خلق الأحياء على الأرض متَّبعاً ذاتَ الأسلوب وهو التعميم أولاً، فوصفت الآيةُ كلَّ الأحياء بأنَّها خُلقت من نفسٍ واحدةٍ أو خليةٍ واحدة "جعل منها" زوجها ولم يقل "خلق منها"، وهذا يوحي بحدوث تغييرٍ وظيفيٍّ في هذه النفس الواحدة، و لمَّا كان هذا الوصفُ فيه استثناءٌ فقد جاء الجزءُ الاعتراضيُّ من الآية ليستثنيَ أزواجَ الأحياء التي لم تشترك في أصل الخلق العام من نفس واحدة.

3- هذه الأحياءُ المستثناةُ هي الأنعام، غيرَ أنَّه لمَّا كان مضمونُ الآية هو خلقُ أزواج الأحياء على الأرض وليس الأنعام، فقد دخل ذِكْرُ الأنعام بلغةٍ تصويريةٍ بلفظ "أنزل"، و لكنَّه لم يتطرق إلى كيفية خلقها بلغة فلسفية كما فعل مع خلق بقية الأحياء.

4- الآيةُ وضَّحتْ أنَّ الله أنزل من الأنعام ثمانية أزواج؛ ممَّا يدللُ على أنَّ الأنعام لا تشتركُ في أصل الخلق من نفس واحدة مع بقية الأحياء على الأرض، و أيضاً توحي الآيةُ بأنَّ الأنعامَ مخلوقاتٌ موجودةٌ في مجتمع مستقل في مكانٍ ما خارج الأرض، وعلينا أن نبحث في ذلك، إذ إنَّها آيةٌ وشعيرةٌ من شعائر الله المحرمة.

5- وَصْفُ طبيعة وجود الأنعام على الأرض بلغة الغراب، يوحي لنا أنَّ نزولها ارتبط بزمن ما كان الإنسان يفهم فيه إلَّا لغة المجسمات، لذلك لم تدخل الآية في "خلق" الأنعام، و إنَّما فقط أشارت إلى نزولها المجسَّم.

6- عاد السياقُ إلى لغة الهدهد الفلسفية، و لكنَّه انتقل من وصف خلق أزواج الأحياء عموماً إلى خلق الإنسان على وجه الخصوص، داخلَ ظلمات الرحم الثلاث، بلغةٍ فلسفيةٍ علميةٍ تستفزُّ عقولَنا لمزيدٍ من البحث، وما كانت لِتُفهمَ قبل زماننا. ولا يخفى على كلِّ ذي ذوق مدى روعةِ اللوحةِ الفنيةِ التي رسمتها هاتان الآيتان؛ لتنقلَ إلينا معانيَ خطيرةً جدًّا مرتبطةً بقوانين خلق الكون و الأحياء في الأرض.

فالآيةُ الأولى وصفت خلقَ الكونِ عمومًا ثمَّ بعض خصوصيات الأرض، والآية الثانية وصفت خلقَ الأحياء عمومًا ثمَّ دخلت في خصوصياتِ خلقِ الإنسان، و لكنَّها -بطبيعة الحال- استثنت الأنعامَ من عموم خلق الأحياء على الأرض، لا لشيءٍ إلَّا لأنَّها ليست من مخلوقاتِ الأرض، و إنَّما أُنزلت من مكانٍ ما للإنسان الأول.

هناك آيةٌ أخرى في كتاب الله يمكنُ أن ينطبق عليها ذاتُ التأويل، نسوقُها هنا باختصارٍ شديدٍ؛ لتعضدَ ما ذهبنا إليه من أنَّ الأنعامَ تُمثِّلُ سُلَّمًا موازيًا في الخلق للسُلَّم الذي خُلقت فيه **جميعُ الأحياء** في الأرض:

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ **جَعَلَ** لَكُم مِّنۡ **أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا** وَمِنَ **ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا** يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ

لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴿١١﴾ ﴾ " 11 الشورى" .

ما لا يخفى على أيِّ متدبِّرٍ أنَّ هذه الآية جاءت بعد آياتٍ كثيرةٍ من بداية سورة الشورى، تتحدثُ عن كلياتِ الخلق وليس تفاصيله. و الآية نفسُها وصفت فطْرَ السماوات والأرض في ثلاث كلمات فقط، ثمَّ انتقلت لتصف **" جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا** " ، الشيء الذي يُفهم - بطبيعة الحال- أنَّه إشارة لطبيعة تناسل الإنسان دون غيره، و لكنَّ الآية مضت وبصورةٍ إعجازية لتقحمَ الأنعامَ بنفس اللفظ ونفس المستوى، وكأنَّ الأنعامَ لها نفسُ القيمة في قانون الوجود كقيمةِ وجودِ الإنسان: " **وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا** " . لا بُدَّ أن نلاحظ هنا أنَّ الآية استعملت لفظ "جعل" التي تشيرُ إلى الاختلافِ الوظيفيِّ بين الزوجين، الذكر والأنثى، أي أنَّ المقارنة هنا ليست في الخلق، و إنَّما في وجود زوجين، **ذكر وأنثى**، في سلالةِ الإنسان علمًا بأنَّ الأنعام - أصلا- نزلت في حالة ثمانيةِ أزواج (ذكرانا و إناثا)، ولم تمرَّ بمراحلِ خلقٍ و تطورٍ مماثلةٍ للإنسان في الأرض. من المدهش في لغة الآية أنَّها تتطلب قراءةً بتدبُّرٍ و حذر؛ لأنَّ مَن لا ينتبه ربَّما يفهم -على عجلٍ- أنَّ الإنسان يتزوج الأنعام، أي يفهمها " جعل لكم من أنفسكم و من الأنعام أزواجا".
هذا التداخلُ السريعُ الذي لا يوجد فيه وقفٌ في التلاوة يدعو المتدبِّرَ لوقفةٍ طويلةٍ لفهم بعضٍ من أسرار الآية.
كما ذكرنا بإسهابٍ في نقاش آية إنزال الأنعام نواجه ذاتَ الإشكال الفنيِّ هنا، و هو أنَّنا لو فهمنا أنَّ الجزء الأول يشيرُ إلى الإنسان فقط "**من أنفسكم**" لأصبحنا في حَيرةٍ من مقابلة الإنسان وحده مع الأنعام المنزلة. فإذا افترضنا أنَّ الأنعامَ غيرُ منزلةٍ وهي مخلوقاتٌ من مخلوقات الأرض، ليس لها ما يميِّزُها في أصل الخلق، فينبغي أن نسألَ أنفسَنا إذنْ: لماذا يقابل أزواج الإنسان بأزواج الأنعام، وليس أزواج القطط أو الكلاب أو الغزلان أو الحصين أو... أو... أو ...؟ و إذا قبلنا أنَّ الأنعام منزلة، ولذلك هي متميزة في خلقها، فسنواجه ذات المشكلة، و هي: لماذا وضع أزواج الإنسان من دون بقية مخلوقات الأرض مقابلةً لأزواج الأنعام المنزلة؟ علماً بأنَّ ختام الآية وصف انتشارَ هذه المخلوقات "**يَذْرَؤُكُمْ**" في الأرض بوصفها آيةً من آيات تفرُّدِ الله بالخلق.

نحن نظنُّ أنَّ هذه الآيةَ وصفت سُلَّمَي التطور لجميع الأحياء على الأرض، و إنْ كانت روحُ الخطاب موجهة للإنسان في وصف سُلَّم التطور الذي صَعِدَتْ عليه كلُّ مخلوقات الأرض؛ لأنَّه هو المخاطبُ بالقرآن، ولأنَّه هو الوحيدُ العاقلُ بينها، ولكنَّها لا تعني أنَّ خلقَ الإنسان استثناءٌ في الخلق على الأرض، و وصفت من ناحية ثانية أزواجَ الأنعام التي أنزلت وانتشرت في الأرض بصورةٍ مشابهةٍ لمخلوقات الأرض. أي أنَّ : "**جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ** "

تشيرُ إلى كلِّ الأحياء من نباتٍ وحَيَوانٍ وإنسان، وليس الإنسان وحده**.** فكلا هاتين المجموعتين المتباينتين انتشرت سلالاتُهما على الأرض رغم أنَّ أحدَهما فُطر في السماء والآخر في الأرض، و إنَّما يُفهم أنَّ الخطابَ موجَّهٌ للإنسان؛ لأنَّه هو العاقلُ المخاطبُ من بينها، وهو يمثِّلُ رمزاً للأحياء التي خُلقت في الأرض. هاتان المجموعتان من المخلوقات، أي أزواج الإنسان و أزواج الأنعام هما اللتان حملهما نوحٌ في السفينة؛ لأنَّهما يمثلان سُلَّمَي التطور، أحدهما وهو الإنسان قد تطور في الأرض، و الآخر مُنزلٌ من السماء.

وما يجعل الإنسانَ متميِّزاً بين مخلوقات الأرض أنَّه خُلق بيد الله: ﴿ قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ .... ﴿٧٥﴾ ﴾ " 75 ص". و الأنعامُ أيضاً عُمِلت بيد الله: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَـٰمًا فَهُمۡ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ "71يس". و لمَّا كانت الأنعامُ -أصلاً- قد نزلت لخدمة الإنسان،

فإنَّها لم تكن موجودةً إلا في المِساحة الجغرافية التي سكنها الإنسان، و التي كانت موقعَ الطوفان ممَّا استدعى حمايتها من الغرق من دون بقية مخلوقات الأرض، التي انتشرت في مساحات واسعة من اليابسة لم يكن الطوفانُ ليؤديَ إلى انقراضها. و حتى لا يتركَ القرآنُ لنا أيَّة فرصةٍ لافتراض أنَّه ربَّما تكون هناك عَلاقة أخرى بين الإنسان والأنعام غير التوازي في الخلق الذي افترضناه، فقد ركَّز القرآنُ مرارًا على أنَّ الإنسان هو صاحبُ العقل الوحيد بين المخلوقات الأرضية، و أنَّ الأنعام على النقيض من ذلك هي أكثرُ المخلوقات غباءً كما سنناقش ذلك بالتفصيل لاحقاً.

نحن نعلم أنَّ افتراضَ أنَّ جميعَ الأحياء على الأرض من نبات و حَيَوانٍ و إنسانٍ، نبتت من الأرض نباتاً، وبدأت من أصل واحد، أنَّه افتراضٌ يسببُ إزعاجاً للكثيرين، ليس لأنَّه جديدٌ فحَسْب، وإنَّما لكونه أيضاً ينطبقُ مع رأي علماء الأحياء في هذا العصر الذين حكمت عليهم الكنيسة بالكفر، ثمَّ تبعهم المسلمون من غير تفكُّرٍ أو تدبُّرٍ في آياتِ الله. هذا الرفضُ غيرُ العلميِّ لا يعكس جهلاً من المسلمين فقط، و إنَّما يشكِّلُ تشكيكاً في عقيدةِ مَن يرفض حقائقَ علميةً عليها أدلةٌ شبهُ مؤكدةٍ من القرآن، لا لشيءٍ إلا لأنَّ الفكرة جديدة فقط. عقيدةُ المسلمين تقوم على الإيمان المطلق بأنَّ الله يخلُقُ ما يشاء كيف يشاء، ويفعل ما يشاء متى ما يشاء؛ و لذلك حينما جاء المشركون لأبي بكر الصديق في صبيحة ليلة الإسراء والمعراج يسخرون ممَّا يقوله الرسول - صلى الله عليه وسلم- ، كان ردُّه مبنياً على مدى صدق الرواية عن رسول الله، و ليس على مدى قدرته على استيعابها أو مدى منطقيتها "إنْ كان قال فقد صدق". و من هذا المنطلق فإنَّ المسلمَ يجبُ عليه أن يجادل في مدى سلامة هذا التأويل، وليس في مدى استساغته المعلومةَ نفسَها، علماً بأنَّ هذا التأويلَ أكثرُ علميةً ومنطقيةً و واقعية، و يوفق بين آيات الله القرآنية والكونية توفيقًا سلسًا أكثرَ حكمةً من قصة خلق آدم

من تمثالٍ من طين، التي روَّج لها اليهود سنين عددا، و التي تسببت في أن يفهمَ المسلمون أنَّ "النفس الواحدة" هي نفسُ آدمَ أينما وردت في القرآن.

إنَّ حقيقة نزول الأنعام لَهي من الغيبيات التي لم يعلمْها الإنسانُ قبل الوحي، ولكنْ لأنَّ الله - تعالى- أراد أن يكشف لنا سرًّا خطيرًا من أنباء الغيب، ذكر إنزالَ الإنعام باللفظ في هذه الآية، و لعلَّ خطورة هذا السرِّ على عقيدة الإنسان وعلاقته بخالقه كانت بينةً للشيطان بيانَ الشمس في وضح النَّهار، يوم رفض السجود لآدم فحدَّدَ مباشرة في ماذا يبذل كلَّ جَهده ليضلَ الإنسان: ﴿ ... وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ... ﴿١١٩﴾ ﴾، كما سنناقش ذلك لاحقاً.

ولمَّا كان متفقاً عليه أنَّ أصلَ خلق كلِّ الأحياء من ماء، فمن الضروري ونحن نبحث في سرِّ الخلق أن نعطيَ علاقة الماء بالخلق في القرآن قدراً من البحث.

المـاء و سرُّ الخلق:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾ " 48-50 الفرقان".

الطهر: هو النقاءُ و التنزُّهُ عن كلِّ نقصٍ و دنسٍ و قبح، أي الكمال، ولله الكمال وحده.

الماء من أشهر المركَّبات الكيميائية، إذ إنَّ كلَّ من درس مادة الكيمياء في المدارس يعلمُ أنَّ جزيءَ الماء يتكون من ذرتي هيدروجين وذرة أوكسجين "H_2O"، و ترتبط هذه الذراتُ الثلاثُ مع بعضها بعضاً برابطتين تساهميتين تُشكِّلان فيما بينهما زاوية قدرها 105 درجات، ممَّا نتج عن ذلك أنَّ جزيءَ الماء له قطبان كهربائيان يحمل أحدُهما شحنتين موجبتين، ويحمل الآخرُ شحنةً سالبة واحدة مكافئة. ويُعدُّ الماءُ أشهرَ مذيب يعرفه الإنسان، و يدخل في كلِّ الأنشطة الحيوية في الخلية الحية في الحَيَوان والنبات. هذه معلوماتٌ بسيطةٌ يعرفها كلُّ من درس أصولَ الكيمياء، ولكنْ ربَّما لا يعلم الكثيرون أنَّ العلماء فشلوا إلى اليوم في صناعة الماء من هذين الغازين، إذ إنَّ الرابطَ الكيميائيَّ بينهما فيه سرٌّ لا يعلمه إلا الله. وقد باءت كلُّ محاولاتِ تركيب الماء في المعمل بالفشل، وما أدَّت إلا إلى تكوين جزيءِ ماءٍ سامٍ؛ نتيجةَ وجودِ خللٍ في الأيونات والشحنات الكهربائية التي تنتج عن ارتباط الغازين في الماء المُصنَّع. هنا نفهم أنَّ الماءَ الذي أودع الله - تعالى- فيه سرَّ الحياة هو **ماءٌ طهور**، أي كامل الخَلق وليس بالضرورة أنَّه طاهرٌ بالمفهوم الشرعي، و لمَّا كان الكمالُ لله وحده فلن يستطع الإنسانُ أن يخلُقَ ما خَلَقَ اللهُ وجعل فيه سرَّ الحياة المطلق.

نلاحظ من هذه الآيات الربطَ المباشرَ بين الماء الطهور وإحياء الأرض الميتة، واستمرار الحياة في الإنسان والأنعام والنبات. و نلاحظ أيضًا أنَّ الأنعام، وهي تشملُ البقرَ والإبل والضأن والماعز فقط دون سائر المخلوقات، دائما تأتي مرتبطةً بالإنسان حينما يكونُ الحديثُ عن سرٍّ من أسرارِ الخلق. و نلاحظ أيضاً أنَّ الله وصف شرابَ أهل الجنة سواء كان ماءً أم غيرَ ماء بكلمة "طهورا" ممَّا يعني أنَّ الطهر من صفات الكمال، التي لا يستطيع الإنسان الوصولَ إليها في خلقِ الماءِ في المعمل كما في الآية الآتية:

﴿ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ "

21 الإنسان".

كما قلنا من قبل، فإنَّ القرآن يفسرُ بعضُه بعضا، وكما افترضنا في آية "خلقكم من نفس واحدة" - أعلاه- أنَّ هذه الآية أجملت خلقَ الإنسان من نفس واحدة أو خلية واحدة مع بقية الأحياء باستثناء الأنعام المنزلة، فإنَّ ذلك الإجمالَ يشابه إجمال الإنسان في كون أصله من ماء مع بقية الأحياء كما في هذه الآية:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ " 30 الأنبياء".

ممَّا لا شك فيه أنَّ الإنسان كغيره من الأحياء يحتوي تكوينُه على حَوالَي 71% ماء في الإنسان البالغ، و93% ماء في الجنين في شهوره الأولى. وقد اتفق كلُّ علماء التفسير في العصر الحديث على صحة هذا التفسير للآية، و أنَّ الإنسان هنا مجملٌ من ضمن "كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ" و إنْ لم يُذكر بالاسم، بل و عدّوها معجزةً علميةً سبق بها القرآنُ علماء الطبيعة بقرون كثيرة. ولكنَّنا نجدُ نفسَ العلماء يتحرجون من قَبول تفسير الآية أعلاه "﴿ ... ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... ﴿١﴾ ﴾ أنَّها تشير إلى إجمال كلِّ الأحياء في أصل الخلق من نفسٍ واحدة، وما ذلك إلا لأنَّ هذا التفسيرَ يتعارضُ مع الفهم المتعارف عليه أنَّ تلك النفس الواحدة هي نفسُ "آدم"، الذي خُلق في شكل تمثالٍ نفخت فيه الروح، و أنَّ زوجه خُلقت من ضلعه. ونحن بتفسيرنا للآية - أعلاه- و أنَّها تشير إلى خلقِ كلِّ الأحياء من خليةٍ واحدةٍ باستثناء الأنعام المنزلة- و الذي يبدو منطقيًّا وعلميًّا جدا- لا نسعى للبحث عن أدلةٍ من القرآن نؤكِّدُ بها اجتهاداتِ علماء الطبيعة، وإنَّما فقط أردنا أن نعطيَ كتابَ الله حقه من البحث والتدبُّر بعيدًا عن تفاسير الإسرائيليات.

وكما اعتاد المسلمون على تفسير"نفس واحدة" أينما وردت في القرآن على أنَّها نفس "آدم"، نجدُ أنَّ عَلاقةَ الخلق بالماء دائماً تُفهم أنَّه "ماء الرجل". و كما رأينا أنَّ الألفاظ التي استعملها القرآن في وصف الخلق من نفس واحدة اختلفت من آيةٍ إلى أخرى، نجدُ أنَّ وصف خلق الإنسان من ماءٍ اختلف في كثير من الآيات؛ ممَّا يوحي بأنَّ عَلاقة

الماء بالخلق أكثرُ عمقاً وغموضًا من السائل المنوي. فالقرآنُ حينما قصد السائلَ المنويَّ صرَّحَ به و أعجز في وصف خصائصه:

﴿ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ " 37-39 القيامة".

في هذه الآية جاء اللفظُ صريحًا عن "المني" وهو ماء الرجل، ثمَّ وصف خاصيَّةً من خصائصه ما فُهمت إلا حديثا، وهي اختصاص المني بتحديدِ نوع الجنين من ذكرٍ أو أنثى، إذ إنَّ الأمشاج في الحيوان المنوي تحمل نوعين من الجينات تعرف بـ (XY)، و تحمل الأمشاجُ في بويضة الأنثى (XX)، وأنَّ تبادل هذه الأمشاج عندما تتكوَّن الخلية الملقحة وَفْقاً لعلم الوراثة، هو الذي يحدِّدُ نوعية الجنين. و ظاهرٌ من شكل هذه الجينات أنَّ الحَيَوانَ المنويَّ هو الذي يختص بجنس الجنين؛ لأنَّ بمقدوره إعطاء نوعين من الجينات بينما تكوين أمشاج الأنثى ثابت في كلِّ الحالات. هذه الآية لا يختلف اثنان على أنَّها تصف ماءَ الرجل أو "المني"، ولكنْ لا يُشترط أنَّه كلَّما وردت كلمة "ماء" في القرآن كان المقصود هو المني. فإذا نظرنا إلى قول الله ـ تعالى- في الآية التالية -مثلاً- فسنجدُ الماءَ يدلُّ على مدلولٍ مختلفٍ تماماً عن المني:

فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗا:

﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا فَجَعَلَهُۥ نَسَبٗا وَصِهۡرٗاۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرٗا ﴿٥٤﴾ ﴾ "53-54 الفرقان".

اتفق أهلُ التفاسير على غموض معنى الآية الأولى من حيث وجود " بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا " بين الماء العذب والماء المالح، ونحن نحمد الله ـ تعالى- أن جعلنا ممَّن يرى العلم يُثبت وجودَ حواجزَ كيميائيةٍ تمنع اختلاط ماء البحرين، الشيء الذي ما كان للمفسرين القدامى أن يهتدوا إليه بخيالهم؛ لذلك أجمعوا ـ اجتهادًا منهم- على أنَّ الحاجز هو الفاصل الأرضي. و لكنَّ هؤلاء المفسرين اختلفوا من قديم في تفسير "الماء" في الآية السابقة، فمنهم من ظنَّ أنَّه السائلُ المنويُّ للرجل ومن هؤلاء الطبري وابن كثير، ومنهم من ظنَّ أنَّ الآية تتحدث عن عموم خلق الإنسان من ماءٍ كما في ﴿ .... وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ ... ﴿٣٠﴾ ﴾ ومن هؤلاء القرطبي وصاحبُ تفسير فتح القدير، والاختلاف هنا يفيد أنَّ في فهم الآية متسعًا للتدبُّر.

لو رجعنا إلى الآيات السابقة لهذه الآيات في سورة الفرقان، لوجدنا أنَّ ذِكْرَ الماءِ المطلق قد تكرر في أكثرَ من موضع، و كأنَّ الأصل في هذه الآيات هو الإشارة إلى أسرار الماء وليس خصوصية خلق الإنسان. وعليه نظن أنَّ الماءَ المقصودَ هنا هو **الماءُ الطهورُ** الذي خُلقت منه الحياةُ عموماً وليس السائل المنوي، فضلاً عن أنَّ الآية السابقة لهذه الآية دخلت في سرٍّ غامض من أسرار مياه البحار والأنهار ما كان للإنسان أن يهتديَ إليه من غير سلطان علم الكيمياء في زماننا هذا.

أولى الملاحظات على نصِّ هذه الآية هي أنَّ الله خَلَقَ مِن الْمَاءِ بَشَرًا، و لم يقل خلق البشر من ماء. إذنْ فالنصُّ يصف العَلاقة الغامضة بين الماء عموماً وما خُلق منه، و ما يزيد الآيةَ غموضاً أنَّه جعله " نَسَبًا وَصِهْرًا"، و نظنُّ أنَّ "جعله" هنا معطوفة على الماء وليس البشر كما يظنُّ الكثيرون. لمَّا فهم الناس أنَّ الآية تعني أنَّه "خلق البشر من ماء" فهموا أنَّ "نسباً وصهرا" هنا تشير إلى العَلاقات الاجتماعية في حياة البشر. قضية الأنساب والمصاهرة بمعناها من "أخوال" و"أعمام" قضيةٌ اجتماعيةٌ بسيطةٌ يعرفها مَن يسكن الغاباتِ ومن يسكن ناطحاتِ السحاب، ولكنَّ مَن يتدبَّرُ الآياتِ السابقةَ و التاليةَ لهاتين الآيتين من سورة الفرقان، يلاحظُ أنَّ الله ـ تعالى- يُبرز كثيرًا من آياته الإعجازية عميقة المعاني، كدليل على قدراته الخارقة بوصفه خالقاً مطلقاً للوجود، الشيء الذي يجعل فهم "نَسَبًا وَصِهْرًا" هنا بالفهم البسيط الذي يشيرُ للعَلاقات في الأسرةِ فهماً نشازاً، مقارنةً بالمفاهيم العميقة التي طرحتها السورة، وكلُّها احتاج إلى بحوث علمية متخصصة لفهمها، عِلماً بأنَّ الآية انتهت بـ:﴿ .... وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ إشارةً إلى أنَّ سرَّها فيه

دليلٌ على قدرة الله. و نحن نعلم أنَّ الله ـ تعالى- حينما يختم الآية بالإشارة لقدرته إنَّما ينبهنا إلى علمٍ لم يكن يعلمه إلا الله، وبذا فإنَّ مضمونَ الآية ليس من ضمن ما يمكنُ للبشر أن يعلمه من غير بحثٍ دقيقٍ أو وحي من الله. و حتى نعطيَ الآية حقَّها لا بُدَّ أن نفهم ماذا تعني كلمات "بشرا"، " نَسَبًا" و"صِهْرًا" في اللغة:

بشر: تعني في اللغة ظهور الشيء مع حُسنٍ وجمال، ومنها "البِشرة" وهي ظاهرُ الجلد الذي يعكس حُسْنَ المظهر. ومنها "البشائر" وهي أوائل الأخبار الحسنة، ومنها "البشير" الذي يبشِّرُ بالخير. فكلمة "بشر" ـ أصلاً- لا تعني "إنسان"، وإنَّما هي مستعارة لتعني ذلك؛ لكونِ الإنسان مخلوقاً بارزاً في الوجود وأحسن المخلوقات مظهراً وخَلقا.

نسب: لها معنًى واحدٌ، وهو اتصال شيءٍ بشيء . هذا الاتصال يمكن أن يكون ماديًا أو معنويًا، كأنْ تقول: "نُسب إلى فلان أنَّه قال كذا". إذنْ فالنسبُ ليس بالضرورة "الأعمام والأخوال" و إنَّما وجود صلة بين شيئين.

صهر: لها معنيان في اللغة: الأول هو قربى، والثاني هو إذابة الشيء. القربى نتيجة اختلاط الدماء في التزاوج، أمَّا الإذابة فهي فقدانُ الشيء لطبيعته الأصلية كأنْ تقول "صهرتُ الحديدَ أي أذبته فتغيرت طبيعته"، وكما في قوله:

﴿ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ ﴾" 20 الحَج".

نلاحظُ من لغة الآية أنَّ الله ـ تعالى- ربطَ بين الماءِ الذي خلق منه بشرًا و جَعْلِهِ نسبًا وصهرًا بحرف العطف "الفاء"، وهو يدل على اتصال مباشر بين المعطوف والمعطوف عليه، و لكنَّ الواقع في قضية الأنساب والأصهار الاجتماعية أنَّها لا تتمُّ مباشرةً بعد خلق الإنسان، و إنَّما تتمُّ بعد سنواتٍ من نُضْجه، وقد لا يتزوج الإنسانُ ـأصلاً- و قد

لا يُنجب؛ ممَّا يجعل العطف بحرف "الفاء" و ما يدلُّ عليه من اتصالٍ مباشرٍ بين خلقِ البشر و جَعْلِهِ نسبًا وصهرا، لا ينطبقُ على التفسير الاجتماعي لهذه الألفاظ؛ لأنَّ ذلك يخضع لعواملَ اجتماعيةٍ تختلف من إنسان إلى آخر.

وإنـَّا لَنَظُنُّ - والله أعلم- أنَّ مضمونَ الآية يشير إلى أنَّ الأصلَ في الخلق هو الماءُ، ويمكنُ لكلمة "بشر" هنا أن تعني الإنسان، حتى لو أنَّها ربَّما تعني بشائر الخلق جميعاً وعلاقتهم في ذلك الأصل مع بقية المخلوقات التي اشتركت في نفس الأصل من ماء، و ما استعمال لفظي "نسباً وصهرا" إلا إشارةٌ إلى مراحل تطور الخلق من الأصل الواحد وهو الماء، وهنا يكون لفظ "جعل" منسوباً إلى الماء لا إلى البشر. بمعنىً آخرَ: إنَّ الخلق -عموماً- بدأ من ماءٍ فجعل الماء بعد ذلك يقوم بوظيفة "**التناسب**" أو الاتصال، و وظيفة الذوبان والتغيير في الخلق وهو "**الانصهار**"، وهذا اللفظ ربَّما يكون إشارة لما يعرف بـ "**الطفرة**" في علم الجينات، أي الذوبان أو التغيير في طبيعة الجينات الذي يقود إلى تغيير في الخلق. نفهم من ذلك أنَّ بعضَ ذلك الماءِ اتصل في بعضِ بشائرِ الخلق طَوال تطورها، و بعضه انصهر وذاب وتغيَّرَ إلى شيءٍ آخرَ في سُلَّم التطور، ممَّا نتج عن هذه المتغيرات ملايينُ المخلوقات التي يرجع أصلها إلى الماء، و لكنْ اختلفت في أشكالها و وظائفها نتيجة الانصهارات التي مرت بها عبر ملايين السنين.

و ما يقومُ به الأطباءُ اليومَ من اختباراتٍ في عملية "الاستنساخ" لخلق مخلوقاتٍ معدلةٍ خارج مسار الطبيعة، ليس إلا عمليةَ "صهر" للمكونات الجينية للمخلوق قبل أن تتزاوج أو تنقسم خليته الأولى، و هو أمرٌ يثيرُ جدلاً خُلقياً ودينياً شديداً في الغرب والشرق سواءً بسواء. إذنْ فالآية التي لا تتحدث - أصلاً-عن السائل المنوي من قريب أو بعيد، ربَّما لا تتحدث أيضاً عن عَلاقات الأسرة والأنساب والمصاهرة التي نفهمها في أسرة الإنسان بعد ملايين السنين من مرحلة النسب والصهر التي ارتبطت بالماء الأصلي للخلق، و ربَّما لا تتحدثُ عن الإنسان أصلاً؛ لأنَّ "بشرا" يمكنُ أن تكون إشارةً إلى بشائرِ كلِّ المخلوقات التي خُلقت من ماءٍ على الأرض الميتة وليس الإنسان وحده.

هذا التفسيرُ لا يتفق مع اكتشافات العلم الحديث في قضية التطور فحَسْب، وإنَّما يعضده سياقٌ غريبٌ في القرآن ما زال يُحيِّرُ المفسرين طَوال القرون:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ " 45 النور".

هذه الآية فيها أسرارٌ أدَّت إلى اختلاف المفسرين بصورة ظاهرة، و نظنُّ أنَّ ما فيها من أسرار قُدرَةِ الله أكبرُ من أن نعرفه نحن الآن. ونلاحظ أنَّها انتهت بالتأكيد على "قدرة الله" تماماً كما أكَّدت الآية في سورة الفرقان أعلاه، وكأنَّ الأسرار التي توحي بها الآيتان إنَّما ذُكرت لتحدي العقل للبحث في قدرات الله. فموضوع الخلق هنا هو "كل دابة" وليس الناس، على أنَّ لفظ التبعيض الذي استُعمل ثلاثَ مراتٍ هو "فَمِنْهُمْ"، وهذا اللفظ يُسْتَعملُ فقط للإنسان العاقل.

الدبيبُ في اللغة هو الحركةُ بصورةٍ أقلَ من المشي، وأشهر استعمالاتها هو دبيبُ النمل الذي لا نكاد نحس به. إلا أنَّ الدوابَّ عموماً تُطلق على الحيوانات دون الإنسان.

فإذا افترضنا أنَّ الإنسان داخِل ضمن "كلِّ دابة" هنا، فسنواجهُ إشكالاً لغويًّا؛ لأنَّ الإنسان العاقل لا يُشارُ إليه بلفظ دابَّة، و لكنَّ هذا الإجمال يحل الإشكالَ اللغويَّ الآخرَ في استعمال " فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي" التي تُستعمل مع الإنسان العاقل فقط. أمَّا إذا افترضنا أنَّها تشيرُ إلى عامَّة الدوابِّ دون الإنسان، فسنواجه الإشكال الآخر وهو استعمال "فَمِنْهُمْ" التي تُستعمل مع الإنسان العاقل فقط . و قد تعجَّب الطبري من لفظ "فَمِنْهُم" هنا، إذ إنَّه فسَّر الدوابَّ كما نعرفها من حَيَوانات. أمَّا القرطبيُّ فقد رأى أنَّ الإنسان مجمل، ولذلك ظنَّ أنَّ الله عمَّمَ لفظ "فَمِنْهُم"؛ لأنَّ العاقل يُعَمَّم على غير العاقل، و هذا ليس إلا اجتهادًا منهم - رضي الله عنهم- .

و قد اختلف المفسرون أيضًا في هُوِيَّة "الماء" المقصود هنا، فمنهم مَن قال: إنَّه ماء الذكر، ومنهم من قال: إنَّه الماء الذي وُجدتْ منه الحياةُ عمومًا. وقد ذكر صاحب تفسير البغوي أنَّ الله خلق أولَ ما خلق الماء، ومنه خلق كلَّ الأحياء بما فيهم الملائكة والجن، فخلق من الماء الريحَ ومنها خلق الملائكة على حدِّ قوله، وخلق منها النارَ التي خلق منها الجن؛ وبذلك أجمل كلَّ الخلق تحت هذا "الماء". ونحن الآن نعلم - بفضل الله- أنَّ الماءَ يتكون من ذرتي هيدروجين مشتعل ومن ذرة أوكسجين ضرورية للاشتعال، ممَّا يجعل عَلاقة الماء بالنار والنور وطيدة جدا، الحقيقة العلمية التي يمكن بها أن يسوغ خلق الملائكة والجن أيضاً من أصول الماء كما ألمح البغوي. غيرأنَّا إذا تدبرنا في الآية فسنجدُ أنَّها تخلق إشكالاً آخرَ في وصفها لطبيعة "فَمِنْهُم" من يمشي على بطونهم واثنتين وأربع، ممَّا يلمح بأنَّها تصف فصيلاً محدداً من المخلوقات لا كلَّ الأحياء، إذ إنَّ الملائكة والجنَّ لا يمكن أن تُجمل في طبيعة المشي مع أيٍّ من مخلوقات الأرض.

هناك حقيقة علميةٌ مهمةٌ لا بُدَّ أن نتفكرَ فيها ونحن نحاول تأويلَ هذه الآية، وهي أنَّ المخلوقاتِ التي تمشي على اثنتين بجانب الإنسان محدودة جداً، وتقتصر على الطيور وبعض الحيوانات التي يمكنها أن تمشيَ ببطء على اثنتين كالقردة و إنْ كانت تمشي عموماً على أربع. إذنْ فالمخلوق الوحيد الذي يمشي مطلقاً على اثنتين فقط هو الإنسان العاقل، وقد مَنَّ الله عليه في القرآن بهذه الصفة المتميزة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ " 6-7 الانفطار" .

و نحن نظنُّ - والله أعلم- أنَّ الآية تشيرُ إلى مرحلةٍ أوليةٍ من مراحل التطور بعد أن تزاوجت الخلايا الحية و انقسمت على نفسها ملايين المرات، ثمَّ تطورت إلى مخلوقاتٍ منها مَن زحف، ومنها من مشى على اثنتين، ومنها من مشى على أربع، و ربَّما كان أسلاف البشر منهم. و ربَّما تصف الآية مراحلَ تطور أسلاف البشر فقط، وذلك قبل أن يتمَّ تطويرُهم إلى إنسان عاقل، ولذلك جاء إجمالهم بلفظ "كل دابة"؛ لأنَّ ذلك كان شأنَهم قبل العقل، و لكنَّه خصَّصَ وصفَ مشيهم بلفظ يُستعمل مع الإنسان فقط حتى يلمح لصلة هذه الدواب بالبشر باعتبار ما سيكون. ومهما يكنْ من أمرٍ فإنَّ هذه الآية تحتاجُ لتدبُّرٍ وبحثٍ، ربَّما من أجيال قادمةٍ يتيحُ اللهُ لها مزيداً من العلم بأسرار الكون لا يُتاح لنا الآن.

وتفسير البغوي لافت للنظرِ لِمَا فيه من بعدِ نظرٍ سابقٍ لزمانه، إذ إنَّه تجاوز الإصرارَ على ماء الرجل، وتجاوز حتى تعميم الماءِ على المخلوقاتِ الحية التي نراها، فأدخل الملائكةَ والجنَّ في مضمون الآية. وهذه لفتةٌ بارعةٌ منه فيها بُعد نظرٍ سابقٍ لزمانه، و هو الذي مات سنة 510 هجرية قروناً طويلة قبل أن يكتشف الإنسان أنَّ مكوناتِ الماء من هيدروجين و أوكسجين شديدة الاشتعال ويمكن أن تكون مصدراً للنار والنور.

و لعلَّ هذا يدعونا للبحثِ في ناموس الكون؛ لنلقيَ الضَوء على بعض الآيات التي طالما اختلف الناس في فهمها؛ لأنَّها تدخل في وصف خواصِّ الملكوت الأعلى وعلاقة الله بالخلق قبل بدء أي خلق في الوجود، و ذاك أنَّا نظنُّ كما يظنُّ البغوي أنَّ خلق الملائكة والجن من ماء يمكن أن يدخل في تأويل مثل هذه الآيات.

ناموس الكون:

تَرِدُ بعضُ الألفاظ في كتب الدين مشيرةً إلى غموض قدرات الله، و لكن لا يدري معظمُ الناس معناها اللغوي. و من أشهر تلك الألفاظ لفظ "ناموس". و أصل الكلمة من "نمس" و تعني الستر والخفاء، الناموس في المعجم هو صاحبُ ستر الإنسان. و"ناموس الكون" تشيرُ إلى القوى الخفية التي تحكم الكون. هذا اللفظ لم يرد في القرآن ولكنَّ الناسَ قد درجوا على استعماله و أصبح متعارفاً عليه، و نحن نظنُّ أنَّ الله قد ميَّز ناموسَ الكون في القرآن بالعرش والكرسي، وهما أداتا حكم الوجود اللتان صرحَّ بهما القرآن.

عرشُ الرحمن:

تصفُ أشْهَرُ آيات العرش في القرآن كيف فَرَضَ اللهُ سلطانَه المطلق على الكون كلِّهِ بصورةٍ رهيبةٍ مهيبة. إحدى هذه الآيات تصفُ كيف فرض الله - تعالى- سلطانَه على الماء ليكونَ سرَّ الوجود المطلق، ولكنْ حتى يسهل فهمُها نرتِّلُها مع آيةٍ أخرى مشابهةٍ حتى تفسرَ إحداهما الأخرى:

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلاً ۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ ﴾ " 1-2 الملك".

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلاً ۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٌ مُّبِينٌ ۝٧ ﴾ " 7 هود".

أورد الأمامُ القرطبيُّ في تفسير هذه الآيةِ حديثاً رواه البخاريُّ عن عمرانَ بنِ حصين قال: كنت عند النبيِّ - صلى الله عليه وسلم- إذ جاءه قومٌ من بني تميم، فقال: {اقبلوا البشرى يا بني تميم} قالوا: بشرتنا فأعطنا "مرتين" فدخل ناس من أهل اليمن، فقال: {اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم} قالوا: قبلنا، جئنا لنتفقه في الدين، ولنسألك عن

هذا الأمرِ ما كان؟ قال: {كان الله ولم يكن شيء غيره، **و كان عرشُه** على الماء، **ثمَّ** خلق السماوات والأرض وكتب في **الذكر** كلَّ شيء}.

هذه الآيةُ وما نُسِبَ إلى النبيِّ - صلى الله عليه وسلم- في تفسيرها تحملُ سرّاً لا يستطيعُ البشرُ فهمَه تمامًا؛ لأنَّها - بطبيعة الحال- تصفُ أمرًا لصيقًا بالملَكوت الأعلى الذي يعجز خيالُنا عن فهمه، ولكن إذا فهمنا كلمة **عرش** بمعناها المجازي فسيكونُ للآية مفهومٌ أقربُ إلى صفات الله وأسمائه الحسنى.

"عرش": في اللغة تعني السقف، وتُستعملُ أيضًا لتصفَ سريرَ الملك أو كرسيَّه، وتُستعمل أيضًا بديلاً لمفهوم السلطان المطلق والمُلك، كأنْ تقول مثلاً: "كلَّف العرشُ فلاناً ليكون وزيراً". إذا أخذنا معناها الحرفي المجسَّم، وهو مجلس الملك، فسنكونُ بذلك قد جعلنا لله جسدًا ومقعدًا يجلس عليه، ويلبس علينا ذلك أنَّ الله كالمخلوق الذي كان مجلسه على سطح الماء في يوم ما، فنُخضع الله بذلك إلى محوري الزمان والمكان، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. أمَّا إذا أخذناها بالمعنى المجازي، وهو "السلطة العليا"، فسيكونُ معنى الآية أسهلَ للفهم، وهو أنَّ أولَ ما خلق الله من الوجود كان الماء، و فيه نفذت سلطته المطلقة، فخلق منها كلَّ الوجود أي "وكان سلطانه أولاً على الماء".

وإذا تدبَّرنا الآيتين معًا فسنجدُ أنَّ هنالك رابطًا لغويًّا رائعًا يجمعهما، و يؤكد تفسيرَنا ويوحي بمزيد من العلم. فالآيةُ الأولى في سورة المُلك أفصحت بلفظ {بِيَدِهِ الْمُلْكُ}، ثمَّ انتهت بالتأكيد على قدرة الله المطلقة، ثمَّ مضت الآية التالية في سورة الملك - أعلاه- تصف خلقَ الله للموت والحياة، و أبرزت الحكمةَ من ذلك بـ {لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا}. وهذه الجملة ما وردت في القرآن كلِّه بهذه الصيغة إلا في آية الملك و آية هود . إذنْ ففي آية "الملك" عبَّرَ الله عن أنَّ الملك بيده، وأنَّه خلق الموت والحياة ﴿ ...لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلاًۚ ... ﴾ في آية هود استبدل {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} بلفظ {وَكَانَ عَرْشُه} ليفيد السلطة التنفيذية المطلقة في الخلق، أي أنَّه لفظٌ أكثرُ تخصيصاً لمفهوم السلطان من لفظ "الملك"؛ ولذلك كان موضع نفوذ تلك السلطة أيضاً أكثر تخصيصاً، وهو تحديد موضع نفوذها في الخلق وهو الماء {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ}. ولأنَّ عرشَه أو سلطتَه على الماء هي التي خَلقت الموتَ والحياةَ فقد أتت الجملةُ التاليةُ منطبقةً حرفياً على ما عبَّر عنه بلفظ {بِيَدِهِ الْمُلْكُ}، وليس عرشه على الماء كما في الآية الأولى ﴿ ...لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلاًۚ ... ﴿٢﴾ ﴾. نلاحظ أنَّه هنا في آية هود لم يُفصح عن خلق الموت والحياة كما في الآية الأولى، ولكنَّه ذهب أبعدَ من ذلك، فدخل في قانون خلق الموت والحياة وهو سلطته المطلقة على الماء؛ لنفهمَ أنَّها هي التي تحمل سرَّ الموت والحياة، وكان ختام الآية متسقاً جدا مع هذا المعنى، وهو أنَّه مضى لمرحلةِ ما بعد

الموت والحياة إلى البعث بعد الموت بسلطته على الماء أيضًا: ﴿ ... وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ .

بمعنًى آخرَ لمَّا وصف اللهُ خلق الموت والحياة في سورة الملك من غير تفصيل لسرِّ الخلق، استعمل مفهومَ {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} وكأنَّه تعبيرٌ عام، ولكنَّه لمَّا وصف السرَّ المباشرَ في خلق الموت والحياة وهو "الماء"، استعمل مفهومًا أكثرَ تخصيصًا للملك وهو {وَكَانَ عَرْشُهُ}، و"كان" هنا من "كون" أي أنَّها تعني "فرض عرشه أو سلطته"، ثمَّ ربط بين الآيتين بالحكمةِ الواحدةِ من خلق الموت والحياة من الماء وهو ﴿ .... لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ... ﴾ و لمَّا كانت آيةُ العرش أكثرَ تفصيلا فقد أتى بتفاصيلَ أكثرَ، اشتملت على أنَّ في الماءِ أيضًا سرَّ البعث بعد الموت الذي يبدو كالسحر للكفار، والله أعلم.

حديثُ الرسول - صلى الله عليه و سلم- ينطبقُ على المعنى ويبسطه؛ لأنَّ تلك حكمة الحديث. ففيه يصف الرسول - صلى الله عليه و سلم- أنَّ الله كان وما كان معه شيءٌ، و فَرَضَ سلطانَه على الماء، أي فرض عليه أن يتغيَّر إلى أشكالٍ كثيرةٍ أدت إلى خلق السماوات والأرض بعد خلْق الماء، ثمَّ بعد ذلك صمَّم القوانينَ التي تحكم الوجود "كتب في الذكر" بما فيها قوانينُ الموت والحياة و وجود كلِّ شيء، وترجع كلُّ الأصول في الخلق إلى كون سلطانِ الله المطلق فُرِضَ أولا على الماء ليبدأ منها الوجود.

و لعلَّ مزيدًا من التشريح اللغوي والعلمي لمصطلح "عرشُه" يزيد معنى الآية روعةً و رهبة، فالعرشُ هو السقفُ أي قمة البناء، وإذا افترضنا أنَّ "عرش" هنا تعني "سلطة وقدرة" فإنَّها تعني قمة القدرة ومنتهاها. و لمَّا كانت قدرة الله - تعالى- لا سقفَ لها، فإنَّ معنى الآية يمكنُ أن يوحي بأنَّ الماءَ هو الذي نال قمة السلطة من الله مقارنة ببقية الخلق، و ليس أنَّ الله استعمل أقصى سلطته مع الماء؛ لأنَّ قدرات الله لا نهاية لها. بمعنًى آخرَ فإنَّ نصيبَ الماء من تدخل قوانين الله المباشرة كان أعظمَ ممَّا نالت بقيةُ المخلوقات، أي قمَّتها و سقفها وعرشها. هذا التأويل يمثل حقيقة علمية لا جدالَ حولها، فقد ثبتَ أنَّ كلَّ ما يمكن أن يخطِرَ على بال الإنسان يدخلُ فيه الماءُ بصورةٍ أو أخرى، إذ إنَّ كلَّ نباتات الأرض وما صُنِعَ من خشب أو نواتج النبات كان الماءُ سببًا فيه، و كلَّ ما ارتبط بإنسان وحيوان كان الماءُ جزءًا منه، فضلًا عن أنَّ أحدث الاكتشافات العلمية تشير إلى أنَّ كلَّ الكون كان من ماءٍ في بداية خلقه. و ما لا يختلف عليه العلماءُ اليومَ أنَّ غاز الهيدروجين هو أكثرُ عنصر في الوجود، ويليه غازُ الهيليوم، وتتكون معظمُ كتلة النجوم من هذين الغازين، علمًا بأنَّ الهيليوم يتكون بالتحام أربع نَوَيات هيدروجين، وهو المكون الأساسي للماء. فضلًا عن أنَّ كلَّ الطاقات التي تتحكم في حركة الكون من كهرباء، و مغناطيس، وحرارة، وضوء، كلها تنتج من تفاعلات مكونات الماء. إذنْ فلو وضعنا كلَّ الخلق في وضعٍ تنازليٍّ من حيثُ دخولُ تفاصيل القوانين النوعية المباشرة التي تمثل قدرة الله - تعالى-، لكان **عرشُ ذلك** التدخُّل وقمته بين كلِّ مخلوقات الكون هو الماء. و لعلَّ هذا الفهمَ الواسعَ لعَلاقةِ الماء بخلق كلِّ الكون يدفعُنا للنظر بعينٍ فاحصةٍ لهذه الآية التي طالما فهمها الناسُ فهمًا مجازيًّا:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ " 33 الأنبياء".

بناءً على فهمنا العلمي أنَّ الماءَ هو أصلُ كلِّ الكون، فمعنى هذه الآية يكون حرفيًّا - إذن- وليس مجازيًّا، أي أنَّ الشمسَ والقمرَ وما ينتجُ من الشمس من نورِ النَّهارِ وظلام الليل كلها تسبح في ماء الكون. نحن الآن نعلمُ أنَّ الماء له ثلاثةُ أشكال فيزيائية، هي: السائل، والغاز، والثلج. ولكن لمَّا "كان عرشه على الماء" تعني أنَّ الماءَ له الحظُّ الأعلى من تدخل قدرات الله، فإنَّ أشكال وجود الماء لَهي أكبرُ من الغاز والثلج، إذ إنَّ كلَّ الطاقات الكهرومغناطيسية التي تتحكم في حركة الكون ليست إلا من نواتج الماء، وما يتحرك بها وبينها فهو - بلا شك- يسبح في ماء الكون بشكلٍ أو بآخرَ من أشكاله، التي لا يعلمها إلا الذي كان عرشُه عليه. ومن هنا يمكننا أن نمدَّ أيدينا عبر القرون لنشدَّ على يدي الإمام البغوي في جَراءَتِه في وصف خلق الملائكة والجنِّ من ماء.

هذا الفهمُ يحلُّ إشكالا كبيرًا للمفسرين، إذ إنَّ هناك أسئلةً لا إرادية تطرأ على نفس القارئ حينما يفهم "العرش" بمعنى مجلس الملك أو الكرسي، و هي التفكير في مكان عرشه قبل أن يكون على الماء، وأين ذهب عرشه بعد الماء، ممَّا يطيش بالخيال في متاهات تهدِّدُ عقيدة الإنسان؛ لأنَّه يبدأ في تخيُّلِ الله وعرشه بصورة مجسدة مادية، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا. و ليس سرًّا أنَّ الكثيرين قد فُتنوا بالمعنى المجسد لهذه الآية في مراحلَ مختلفةٍ من التاريخ الإسلامي، وما زالوا يُفتنون. فَهْمُ العرش بمعنى السلطة والقوة يجعلُ فهمَ كلِّ الآيات التي ورد فيها لفظ "العرش" منطقيًّا و سهلًا جدا، مثل هذه الآية:

﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ "20 التكوير".

فـ "ذي العرش" هنا تعني ببساطة صاحب السلطان الأعلى والقوة التي ليس فوقها قوة.

الكُرسي:

و لمَّا كان الحديثُ عن العرش - ولا شك- سيجرُّ إلى الذاكرةِ آيةَ الكرسي التي تسبب إشكالاً كبيراً للكثيرين، نظنُّ أنَّه من واجبنا أيضاً أن نشرحَها بذات الطريقة وبفضل آذان الأنعام علينا، والذي دلَّنا على فهم لغة الغراب، ومن ثَمَّ فهْم كلِّ الآيات - أعلاه- بصورةٍ جديدة؛ لنستقيَ منها علوماً مذهلةً عن طبيعة الكون التي ما كان لها أن تُفهم قبل زماننا هذا:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ

عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ

﴿٢٥٥﴾ " 255 البقرة".

لا غرابةَ أنَّ المفسرين قد اختلفوا اختلافاتٍ كثيرةً في تفسير مفهوم "الكُرسي"، و قد وجدنا أقربَ تلك الآراء إلى ما ذهبنا إليه من تفسير العرش بالسلطة المطلقة، هو تفسير ابن عباس الذي أورده ابنُ كثير في تفسيره وهو أنَّ **الكرسي يعني العلم.** أغلب الظنِّ أنَّ مصدر كلمة كرسي في اللغة هو من" **كَرْسٍ"**، وهي تعني تلبُّد الشيء حتى لا توجد فيه فراغاتٌ وتجاويفُ، ومنها كلمة "الكُراسة" التي يكتب عليها التلاميذ، وقد سُمِّيتْ "كُراسة" لتلبُّد صفحاتها و تداخلها، ومنها " كَرَّسَ" جهده، أي بذل أقصاه من غير تساهل أو تراخٍ و كأنَّه ضغطه ضغطاً. والكرسي الذي نجلس عليه يسدُّ الفراغ بين الجسد والأرض تماماً ويجعله متصلاً بالأرض.

الآية تُعَدُّ أعظمَ آيةٍ في كتاب الله كما ورد في الأحاديث، وهي تصفُ سيطرة الله المطلقة على كلِّ شيءٍ في الوجود، وإحاطة علمه بكلِّ خبايا الكون. هذا المعنى العام لا يختلف عليه اثنان، و لكنَّ روعة القرآن تكمنُ - دائماً- في تطويع اللغة العربية؛ لتقومَ بتوصيل المعاني المجردة بصورةٍ مجسمَةٍ يسهل فهمُها، وفي نفس الوقت تكشفُ حقائقَ علميةً عن طبيعة الكون غالباً ما تكون خافية على العامَّة. فإذا قبلنا مفهوم "الكرسي" بأنَّه مشتقٌ من التلبُّد والتداخل من غير فراغات وتجاويف، فسنجدُ الآية ترسمُ لوحةً فنيةً مذهلةً عن حقيقة الكون. إلى عهدٍ قريبٍ كان مفهومُ الهواء غائباً عن فهم الإنسان الذي يظنُّ أنَّ الكوب الذي لا ماءَ فيه فهو فارغ، ولكنْ بتطور العلوم اكتشف الإنسانُ أنَّه لا توجدُ فراغاتٌ في الكون. فكلُّ شيءٍ في الأرض موجودٌ داخِلَ مِساحةٍ من الهواء، الذي يتكون من غازات أشهرُها على سطح الأرض، هي: غازات الأكسجين، وثاني أكسيد الكربون، والنيتروجين. هذا يعني أنَّه بينك وبين أقربِ جسمٍ إليك، سواء كان منضدةً أم حائطًا لا يوجد فراغ، و إنَّما كلُّ خلية في جسدك الآنَ على اتصال تامٍّ بكلِّ ما حوله عن طريق الغازات التي تكوِّنُ الهواءَ غيرَ المرئي؛ ولذلك فإنَّ كلَّ الموجودات على الأرض إنَّما هي موجودةٌ وسط **مُكَرَّس**، يحيطُ ويلتصقُ بها من كلِّ جانب، تمامًا كما لو تخيلنا أنَّنا نسكن وسط البحر وتلتصق بنا مياهُه من كلِّ مكان. إذا صَعِدْنا في السماء فإنَّ نوعية الغازات تتغيَّر، ولكنْ لا توجدُ فراغاتٌ، وإنَّما تحلُّ محل الغازات تدريجيًّا طاقاتٌ خفيةٌ غيرُ مرئية من طاقاتٍ مغناطيسيةٍ، وأشعة، وموجاتٍ صوتيةٍ، وضوئيةٍ، وغيرها من أسرار الكون التي لا يعرفها إلا اللهُ - سبحانه و تعالى- . إذنْ فكلُّ الكون مُكَرَّسٌ و متصلٌ ببعضه اتصالًا مباشرًا، من أدنى ذرةٍ في أيِّ مكانٍ في الأرض إلى أعلى مكان في السماوات العُلا. استعمال لفظ "الكرسي" والذي يعني نظام التلبُّد والاتصال من غير فراغاتٍ الذي صمَّمه الله، يوحي بأنَّ الله خلق كلَّ هذا الوجودِ متداخلاً و متصلاً ببعضه بعضا، وإنْ كنَّا لا نرى القوى الكهرومغناطيسية التي تحافظ على الكواكب والنجوم في مداراتها، كما لا نرى الهواء الذي يملأ المِساحة بيننا بعضنا مع بعض ومع ما حولنا من مجسمات، ولكنَّنا نعلم أنَّ الله وصف السماواتِ بأنَّها مرفوعةً بعَمَدٍ لا نراها، وأنَّها متصلة من غير فروج:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ "3 الملك" .

و آية الكرسي تشير إلى أنَّ اللهَ متحكِّمٌ في كلِّ هذا الوجود، بسماواته وأرضه، بصورةٍ مباشرةٍ ماديةٍ متصلةٍ مع بعضها بعضاً "ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم". إذنْ فالكرسي الذي وسع السماوات والأرض ليس مقعداً ذا أرجلٍ أربعة كما يخطِرُ في خيال الإنسان من طبيعة استعمالنا لكلمة كرسي في حياتنا اليومية، إنَّما هو وَصْفٌ لكرس الوجود، وعدم وجود فراغات في أي مكانٍ في الكون؛ لأنَّ الكون خلق مكرَّساً أي مُتَلَبِّدا ومتصلاً من أقصاه إلى أقصاه، وخلق الله فيه قوانين نوعية تتحكم في كلِّ ذرة وما يليها، و يخضع كلُّ الكون لنظام الكرسي الذي صمَّمه الله -تعالى-. ولأنَّ هذا الوصفَ يثيرُ في النفس رهبةً وقشعريرةً في الجسد من مجرد محاولة تخيُّلِ عظمة الكون، فقد كانت بدايةُ الآية و نهايتُها منطقيةً جداً، وهي أنَّ الله لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم ولا يرهقه التحكم فيه وهو العلي العظيم.

من المهم جداً أن نذكر هنا أنَّ القرآنَ لم يصف في أيِّ آيةٍ أنَّ الله خَلَقَ العرش أو الكرسي، أو صنعهما، أو أي شيءٍ من هذا القبيل الذي يجعلهما جسداً أو مادةً، كما وصف أنَّه بنى السماء وجعلها سقفاً. هذا يؤكِّدُ أنَّ ألفاظ "العرش" و "الكرسي" ليست إلا ألفاظاً تصفُ النظام الذي يحكم الكونَ و تسهل على عقل الإنسان التدبُّر في قدرات الله، كما نتدبر في صفاته: الرحمن الرحيم الملك الحكيم العليم ... من غير أن يصف صفاتِه بأنَّها مخلوقة؛ لأنَّها صفاتٌ ومفاهيمُ مطلقةٌ وليست مجسدات.

إذنْ فلا العرش عرشاً كما فهمنا، ولا الكرسيُّ كرسيّاً، وبطبيعة الحال يصبح استواؤه على العرش ذا مدلولٍ جديرٍ بالبحث. ولا يخفى على النَّاس أنَّ الاختلاف في فهم آية: ﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ "5 طه"

قد أدَّى إلى أن يكفِّرَ بعضُ المسلمين بعضَهم الآخر، وقد اشتُهر عن الإمام مالك - رضي الله عنه- قوله :"الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة"، ونحن نحمدُ الله أن يسَّرَ لنا أن نأخذَ برأي الإمام مالك نفسِه حينما قال: "كلُّ ابنِ آدمَ يؤخَذ ويرد في كلامه إلا صاحب هذا القبر" مشيرًا إلى قبر النبيِّ - صلى الله عليه وسلم- . ونحسب أنَّنا قد وُفِقنا في الوصول إلى فهمٍ يُخرج المسلمين من الحرج في محاولة فهمِ هذه الآية. وسنقوم بتفسيرِ ذلك بعد أن نفسِّرَ سرَّ القلائد ومقاليد السماوات والأرض، وأسرار البيت العتيق، و خلْق السماوات والأرض، و سدرة المنتهى، في آخر هذا الكتاب بإذن الله.

و لعلَّ فهمنا لآية الكرسي بهذا المعنى يفسِّرُ لنا كثيراً من الظواهر الكونية الخفية، التي قام عليها نظامُ انتقال الصوت والضوء و الموجات الكهرو مغناطيسية، والتي بدورها أدت إلى اختراع "التليفزيون" والمذياع والهواتف المحمولة والشبكة العنكبوتية "الإنترنت" و أجهزة المراقبة "الرادارات" وأجهزة التحكم البعيد، إذ إنَّها جميعاً تبدو و كأنَّها غيرُ متصلةٍ مع مصدر إرسال المعلومات، و لكنْ في حقيقة الأمر فالكون كلُّه متصلٌ؛ لأنَّ كرسيَّه وسع السماوات و الأرض. و أيضاً يمكن للإنسان البسيط - إذا فهم آية الكرسي كما فسرنا- أن يفهم أنَّ الطائراتِ لا تطير في

فراغ، وإنَّما تنتقل عبر وسطٍ سميكٍ قادرٍ على حملها رغم ثقلها المتناهي، فقط عندما يفهم الإنسانُ تلك القوانينَ التي تحكم كلَّ وسط ثمَّ يسخرها لخدمته، كما فُهمت الجاذبيةُ الأرضية من "تفاحة نيوتن". و لعله من المفيد أن نذكر أنَّ كلَّ هذه القوانين المتصلة ببعضها بعضاً، هي "الملائكة" أو الرسل التي سجدت وأخضعت لعقل آدمَ حين طوَّره الله لإنسان عاقل، فأصبحَ في مقدوره اكتشافُها والتحكمُ فيها كما هو حالنا اليوم.

و لعلَّ آيةَ الكرسي تفسِّرُ بكلِّ بساطةٍ ظاهرةَ المدِّ والجزر التي تتعرض لها كلُّ المسطحات المائية، بل وحتى تركيزُ الماء في خلايا جسم الإنسان، بحركةِ القمر وبقية الكواكب في الفضاء. فكثيرٌ من الناس يُصابون ببعض الاضطرابات النفسية عند اكتمال القمر؛ نتيجةً لاضطرابِ التركيز الكيميائي في خلايا أجسادهم. هذا ليس إلا دليلاً على أنَّ نظامَ الكرس الذي يتحكم في الكون يعني اتصال كلِّ الموجودات مع بعضها بعضا، وإنْ كنّا لا نستشعر ذلك الاتصالَ إلا بوصفه نتيجةً لحركة الأجرام الضخمة في الفضاء كالقمر.

نحن لا ندَّعي أنَّ تفسيرَنا هذا هو عينُ ما عناه الله، ولكنَّنا فقط أردنا أن نطرح رأياً يدفع الناسَ - في زماننا ومن بعدنا- لفهْمِ الكون فهماً صحيحاً، و محاولةِ فهم آيات خالق الكون بقدر ما علَّمنا الله بالقلم في أيِّ عصر من العصور. قصدنا أن نُبرز المعانيَ الخفية لهاتين الآيتين؛ لأنَّ فهمَ الخلقِ لا يستقيم إذا كان الإنسان يعاني من تشويشٍ في فهمه لقدرات الخالق المطلقة في الخلق. فلعلَّ الكرسيَّ والعرشَ ليسا إلا مصطلحاتٍ سُخِّرت لتعكسَ أبعاداً لقدرات الله يصعب على الإنسان استيعابها إذا وُصفت بألفاظ بسيطة.

من هنا نفهمُ أنَّ سلطات الله المطلقة لا تحدها حدودٌ ولا يستوعبها خيال، و لكنَّه -سبحانه- بدأ خلق الوجود بنظامٍ دقيق يمكننا أن نتدبَّرَ فيه، ونكتشفَ تلك القوانينَ التي تتحكم فيه ونطوِّعُها لخدمتنا، وقد خلق الله الماءَ قبل خلق السماوات والأرض، ثم نفذت إرادتُه فيه، ومنه أوجد الوجودَ، وبطبيعة الحال جعلَ من الماء كلَّ شيءٍ حيٍّ بصورةٍ مطلقة.

و المعروفُ من علماء الطبيعة أنَّ الأرض لما خُلقت كانت مغمورةً بالماء، ثمَّ بدأت قيعان البحار تتشققُ فانسابَ إليها الماءُ لتظهرَ اليابسة، وكان أول ما ظهر من تحت الماء هو موقع البيت العتيق كما سنناقش ذلك في باب "سدرة المنتهى" من أسرار بكة. ولكنْ ما يمكنُ أن نخلُص إليه هنا أنَّ سرَّ ارتباط الحياة بالماء أكبرُ بكثيرٍ من أن نفسِّرَ كلَّ آيةٍ ذُكر فيها خلق الإنسان و الحياة من "ماء" بأنَّها تشيرُ إلى ماء الرجل أو السائل المنوي.

إنَّ فهمَ أئمةِ السلف لكثيرٍ من آيات القرآن لم يعكس إلا حظَّهم المتواضعَ من فهْمِ الظواهر الكونية آنذاك، غيرَ أنَّه لا يعقلُ - لا منطقاً ولا ديناً- أن نُصِرَّ في زماننا هذا، بعد أن وقف الإنسان على كَمٍّ هائلٍ من آيات الكون، على رفضِ الاستلهام بالحقائق العلمية في إعادة فهم ما كان غامضاً من القرآن و تفسيره. لا يُعقل أن نردِّد أنَّ القرآنَ صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، ثمَّ نُصِر أن نفهمه فقط بمنطق الإنسان الذي عاش قبل مئات القرون، ظنّاً منَّا أنَّ في ذلك عبادةً لله و اتباعاً للسلف. و إنَّه لجهلٌ عظيمٌ أن يتحدث خطيبٌ من الشرق الأوسط في التلفاز، ويحاور على الهواء مباشرة شخصاً في إندونيسيا، وآخر في أمريكا ليفتي بأنَّ اكتشافات العلماء غيرِ المسلمين لا يُؤخذُ بها في فهم القرآن، علماً بأنَّ المناظراتِ التليفزيونيةَ التي نراها يومياً ليست إلا شرحاً عملياً لكيفية سَعَة كرسي الله للسماوات والأرض، و كل الأجهزة التي نستعملها تخضعُ لنظام الكرس، و أنَّها كلها تتحرك وتتصل عن طريق رسل أو ملائكة أُخضعت لعقل آدم، ولم يكن اكتشافُها إلا آياتٍ من آيات الله الكونية التي يهب العلم بها لكلِّ مجتهدٍ وإنْ لم يكن مسلماً. مثلُ هذا

التصرف ليس براءةً من اكتشافاتِ غيرِ المسلمين، وإنَّما إنكارٌ لآياتٍ كونيةٍ وقف على صحتها المسلمُ وغيرُ المسلم من الناس، بنو آدم، البشر الذين خاطبهم اللهُ في القرآن بحُجَجٍ كثيرةٍ من غير اشتراط إسلامِهم للوقوف على آيات الله وقَبول حُجته، ومثل هذا المنطق لن يؤديَ إلا إلى إماتة ديننا، فنصبح كالحمار يحمل أسفارا.

ونختم تفسيرَنا لآية " خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا... " وهي الأصل في كلِّ هذا الحوار بأن نقول: إنَّ تفسيرَنا لها كما سبق لا يؤكِّدُ تفاسيرَنا السابقة في قصة آدمَ فَحَسْب، و إنَّما يفتحُ باباً واسعاً لتزاوج العلم الحديث مع القرآن، بل و يرفعُ من شأن القرآن الذي سبقَ العلماءَ في وصف أصل الخلق وقوانين الطبيعة. فقد ظنَّ علماءُ الطبيعة منذ مُدةٍ من الزمن أنَّ بشائرَ الحياة بدأت من الماء بظهور خلية حيةٍ واحدةٍ بصورةٍ ما، ثمَّ بدأت تتزاوجُ و تنقسمُ بذات الطريقة التي تنقسم بها الخلايا اليومَ إلى أن تكونت كائنات من ملايين الخلايا، ولأنَّ كلَّ خلية فيها حمضٌ نووي "أمشاج" قابلٌ لِأَنْ يطْفَرَ فقد بدأت هذه الكائناتُ تأخذ أشكالاً مختلفة عبر ملايين السنين، متأثرةً بظروف الطبيعةِ وخاضعةً لإرادة العليِّ القدير للتغيير، فمنهم مَن ظلَّ منتسباً إلى أصله في سُلَّم التطور، ومنهم ما انصهر وتغيَّر إلى أشكال أخرى، إلى أن امتلأت الأرضُ بالكائنات الحية التي استمرت في التطور إلى أن كوَّنت الأحياء والمخلوقات التي تذخر بها الأرضُ اليومَ من إنسانٍ و نباتٍ و حَيَوان.

و قد نشر في مجلة الطبيعة العلمية في مايو 2006 أنَّ آخرَ اكتشافاتِ العلماء، وهم يحللون الحمضَ النوويَّ لما يُظنُّ أنَّها عظام أسلافِ الإنسان وأسلاف الشيمبانزي، وهو من أقرب الحيوانات إلى الإنسان شكلًا ومن أقربهم في تركيبه الجيني، اكتشفوا أنَّ الطفرة أو انصهار الجينات أو الأمشاج بدأت تظهر قبل أربعة ملايين وأربعمائة ألف سنة، واستمرت في التغيُّر تدريجيًّا إلى أن أصبح لكلٍّ حمضُه النوويُّ المميز قبل حوالَي مليون ومائتي ألف سنة، ومن ذلك الحين صَعِدَ كِلا المخلوقين سُلَّمًا مختلفًا من سلالم التطور، إلى أن طفر الله بالبشر بأن نفخ فيه من روحه ونقله إلى إنسان عاقلٍ قبل نحو سبعة آلاف سنة، كما وصفنا في باب " قصة التطور" و "قصة الخلق"و"الحلْقة المفقودة" سابقا.

و لا بُدَّ أن ننوهَ هنا إلى أنَّ هناك فرقًا كبيرًا بين قول الله - تعالى- : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ .... ﴿١٣﴾ ﴾ " 13 الحجرات"، و ما تشيرُ إليه هذه الآية من إجمال الخَلق. ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ البشريةَ اليومَ تنحدرُ من آدمَ المصطفى نبيِّ الله الأولِ - عليه السلام- كما ناقشنا ذلك في قصة اصطفاء الرسل في باب "سفينة نوح"، بل إنَّ البشرية تنحدرُ أيضًا من أبٍ ثانٍ وهو نوح - عليه السلام-، والذي كان من ذرية آدمَ المصطفى. إنَّ وصف الناس بأنَّهم خُلقوا من ذكرٍ وأنثى هما آدم وحواء، لا يتعارض مع وصْفِ الأصل الذي خُلق منه آدمُ نفسُه من خلية "ازدوجت" في بداية التطور قبل ملايين السنين حين لم يكن الإنسانُ شيئًا مذكورًا، سبقت عملية جعْلِ الذكر والأنثى الذي نتج منه مؤخرًا الزواجُ بين آدمَ وحواءَ بعد أن جَعَلَ الله جنسَ آدمَ خليفةً في الأرض.

ولا يخفي علينا بعد أن أكرمنا اللهُ بالوقوف على كلِّ أسرار الخلق والتطور هذه، أنَّ الحكمةَ الإلهيةَ اقتضت أن يكون مفهومُ التطور قانونًا فرديًّا يمرُّ به كلُّ إنسان جديد، ابتداءً من تكوُّنِه من خلية تمرُّ بمراحل الانقسام الأولى قبل أن يتكون الجنين، مرورًا بالمراحل المختلفة للحركة من زحف على بطنِه إلى حبوٍ على أربع قبل أن ينشأ الطفل ويتمكنَ

من المشي على اثنتين. وبالطبع فإنَّ اكتساب العلوم رحلةٌ طويلةٌ تبتدِئُ منذ تكوُّنِ الجنين، الذي تلتقط حواسُّه كثيرًا من الأحداث المحيطة به، ويستمرُّ في رحلة تعليم مستمرةٍ إلى اكتمال العقل سنواتٍ بعد ميلاده. على أنَّ التكليف الشرعيَّ الذي يتزامنُ مع النضج التام للعقل يرتبطُ ارتباطًا وثيقًا ببلوغ الحلم، أي النضج الجنسي ليتزامَنَ بَدءُ تكليف كلِّ إنسانٍ عاقلٍ مع مرحلة تكليف آدمَ حينما كان أولُ تشريع لهم على الإطلاق هو اجتناب الشجرة.

لقد أسهبنا في إبداءِ رأينا في شرح تفاصيل هذه الآية المذهلة؛ لأنَّها تفتح بابًا جديدًا لا حدودَ له من البحث العلمي، إذ إنَّ افتراضَ العلماء أنَّ "كلَّ شيء حي" يرجع إلى أصلٍ واحدٍ، هو خلية واحدة خرجت من الماء ثمَّ انقسمت إلى زوج، هذا الافتراض يمثِّلُ نقطةَ خلافٍ فاصلةٍ بين الدين والعلم في الغرب والشرق سواء بسواء. ونحمد الله الذي هدانا لهذا التحليل؛ لأنَّ الآية هنا لا تشيرُ إلى احتمال تأكيد هذا الافتراض العلميِّ فحَسْب، و إنَّما تصحِّحُ علماءَ الطبيعة في أخطائهم ممَّا يجعلُ القرآنَ - دائمًا- سابقاً لاكتشافات الإنسان، وذلك **باستثنائها للأنعام** من قانون الخلق هذا، ليظلَّ السرُّ الذي أودعه الله في آذانها كنزًا من العلوم، يجعلُ من القرآن معجزةً تتجدَّدُ كلَّ يوم في حياة العلماء والإنسانية جمعاء. و حتى يسهلَ على القارئ استيعابُ كلِّ ما ذكرنا إلى الآن في أمر الخلق، يستحسنُ التدبُّر في لوحة "الخلق والتطور" في آخر هذا الكتاب.

لو كان ذكْرُ نزولِ الأنعام في القرآن فقط في تلك الجملة الاعتراضية بلغة الغراب لكفتنا، ولكنَّ قصةَ نزول الأنعام فيها أسرارٌ كثيرةٌ، و يبدو أنَّها ارتبطت بكلِّ جوانب حياة الإنسان الأول و بعقيدته وبعَلاقته مع الشيطان أيضا؛ ممَّا يستوجب دراستها بمزيدٍ من التفصيل.

رأينا كيف ربط الله - سبحانه وتعالى- بين الأنعامِ و التحذيرِ من الشرك في مناسك الحَجِّ عندما تدبرنا آياتِ الحَجِّ، ثمَّ رأينا كيف ربط الله - تعالى- بين خلقِ كلِّ الأحياء و نزولِ الأنعام بصورةٍ غامضة، و سرُّ الأنعام في القرآن أكبرُ من أن نعطيَه حقَّه من البحث مهما اجتهدنا، و لكنَّنا سنحاولُ هنا أن نلقيَ بعضَ الضَوء على خلقها من ناحية، وعلى الفوائد العلمية من فهم خلق الأنعام من ناحيةٍ أخرى.

خلقُ الأنعام:

بعد أن رأينا أنَّها خُلقت خارجَ الأرض ونزلت مخلوقة، وجدنا أنَّ القرآنَ قد وصف أنَّ خلق الأنعام كان متميزًا جدًّا:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ "71يس".

في تفسير هذه الآياتِ اجتنبَ الإمامُ ابنُ كثير والإمام الطبري والإمام القرطبي الإشارةَ بأيِّ شكل من الأشكال إلى "....مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ..." ، و مضَوا مباشرةً لشرح الجزء الأخير من الآية، أمَّا صاحبُ الجلالين و البغوي فقد وصفا أنَّ المقصود هو "أنَّنا خلقناها بلا شريك ولا معين"، وهذا التفسيرُ ليس فيه جديدٌ، إذ إنَّ الله - تعالى- خلق كلَّ شيءٍ بلا شريك أو معين. على أنَّ صاحبَ تفسير فتح القدير انتبه إلى مفهوم "**..** عَمِلَتْ أَيْدِينَا**..**"، فقال: إنَّ عملَ اليدِ فيه

تخصيصٌ في الإبداع، وهذه لفتةٌ قيمةٌ منه، إذ إنَّ وصْفَ خلْقِ الأنعام بأنَّها من عمل يد الله فيه دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ فيه استثناءً مقارنة ببقية الخلق، ولم يردْ في القرآن ما يشابهُ الأنعامَ في أنَّه خُلق بيدي الله إلا الإنسان كما في قوله:

﴿ قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ ﴾ " 75-76 ص".

نلاحظ تشابهَ الإنسان والأنعام في أنَّ يدَ الله كانت العاملَ المباشرَ في خلقهما، و لكنَّ الفرقَ أنَّ القرآن وصف الأنعام بأنَّها ما "..عَمِلَتْ أَيْدِينَا.." ، بينما وصف خلْقَ الإنسان بـ " **..**خَلَقْتُ بِيَدَيّ.. ".

عمل: تعني كلَّ فعلٍ يُفعل، أي أنَّ معناها معنىً عامٌّ في تنفيذ الفعل.

خلق: لها أصلان: الأول تقدير الشيء، والثاني مَلاسة الشيء، ومنها صخرة خلقاء يعني ملساء.

من هنا نفهم أنَّ القدرة الإلهية قد تدخلت مباشرةً لخلق الإنسانِ والأنعامِ بصورةٍ متميزةٍ خارجةٍ عن قانون الطبيعة الذي صَنَعه الله، ففي حالة الأنعام وصفت الآية أنَّها خُلقت بعملِ يد الله، وعمل اليد أقل تخصيصاً من "خلق اليد"، إذ إنَّ لفظ "خلق" يحمل مدلولاً أعمقَ في الإجادة والتخصيص من العمل. و لمَّا كنَّا نعلم -الآنَ- أنَّ الله تدخَّلَ مباشرة، ونفخ في الإنسان ناقلاً إياه إلى مخلوقٍ عاقلٍ خارجَ سُلَّم التطور الذي صَعِدَ عليه من مخلوقٍ أدنى كبقية المخلوقات، فإنَّ سرَّ الأنعام يصبحُ أكثرَ تعقيداً للفهم. فهي أولاً خُلقت خارجَ الأرض، ونزلت في شكل ثمانيةِ أزواج، وهي ثانياً "عُمِلت" بيد الله مباشرةً كالإنسان، ولكنَّه جَعَلَ خلقها أدنى درجةً من خلق الإنسان، إذ إنَّ الله وَصَفَه بأنَّه عَمَلِ اليد وليس خَلْقِ اليد، وهي أيضاً تدخل في استمراريةِ الحياة و الخلق لكلِّ إنسان جديدٍ يعتمدُ في غذائه على لحومها وألبانها.

و حتى يزيدَ الأمرُ غموضاً و روعةً فيما يخصُّ الأنعامَ المستثناةَ من قانون خلق الأحياء على الأرض، يدعونا القرآنُ إلى التدبُّرِ في خلق إحدى تلك الأنعام التي أُنزلت:

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ﴿١٧﴾ ﴾ " 17 الغاشية".

الغريبُ في هذه الآية أنَّها الآية الوحيدةُ التي أشارت إلى مخلوقٍ حيٍّ في كلِّ سورة الغاشية، التي أشارت إلى رفْعِ السماء وتسطيح الأرض ونصب الجبال، و كأنَّ خلْقَ الإبل أو الأنعام قد تمَّ بنظامٍ يختلفُ عن بقية الأحياء على الأرض أشبه بخلق الجمادات. هي آيةٌ تستجدي علماءَ المسلمين للبحث في طبيعة خلق الإبل، و حتماً سيكتشفُ الإنسانُ شيئاً غريباً يجعلُ من "آذان الإبل" بحراً من علوم الدين والدنيا.

ونحن نظنُّ أنَّ العلم الذي وقف على كثيرٍ من خصوصيات خلق الإنسان، لا بُدَّ أن يكتشفَ يوماً أنَّ خلْقَ الأنعام فيه اختلافٌ كبيرٌ عن بقية مخلوقات الأرض الأخرى، وهذا يوحي بشيءٍ من التشابه أو التكامل بين خلق الإنسان والأنعام ، حتى و لو لم نستطعْ نحن أن نكتشفَ أوجه التشابه، إذ إنَّ ذلك - ربَّما- يكونُ في الروح وسرِّ الحياة وليس في الجسد.

بهيمة الأنعام و الشرك

ممَّا سبق يمكن أن نفهمَ الحكمةَ من تَكرار التحذير من الشرك كلما ذُكرت الأنعامُ في القرآن، إذ إنَّ الشيطانَ كان حريصاً منذ وجود الإنسان العاقل أن يجعل من الأنعام مادةً دسِمَةً لشركه. وهنا لا بُدَّ أن نلفت الانتباه إلى أنَّ الآياتِ -أعلاه- التي وصفت أنَّ الأنعامَ خُلقت ممَّا عملت أيدي الله، أكدتْ على التحذير من الشرك، و كأنَّ الإنسانَ كلما اقترب من معرفةِ أسرار الأنعام أوشكَ أن تختلط عليه الأمورُ بين الخالقِ والمخلوق. و حتى نفهمَ تلك الصِّلةَ بين الأنعامِ و شركِ الإنسان بها، نفضِّلُ أن نقسمها إلى خمسِ مراحلَ وَفْقاً لتسلسلها التاريخي:

1- آذان الأنعام.

2- النعاج الحُمَّــل.

3- البلاء المبيـن.

4- العجل الذهبي والبقرة الصفراء.

5- ملكة جمال الهند.

1- آذان الأنعام:

لاحظنا الصِّلةَ الوطيدةَ بين الأنعامِ و مناسكِ الحَجِّ حينما درسنا مناسكَ الحَجِّ، ولكنَّنا هنا نراجعُ بُعداً آخرَ لنفس الآيات؛ للبحث في سرِّ الأنعام:

﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى

ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ " 28-34 الحَج".

هذه الآياتُ ارتبطت بوصف الحَجِّ في عهد إبراهيمَ - عليه السلام-. و من الملاحظات الغريبة فيها أنَّها تكرِّرُ ذكْرَ الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام مراتٍ عديدةً هنا، و كأنَّ الإنسانَ يسافرُ من أقاصي الأرض إلى مكةَ ليذكرَ اللهَ فقط على بهيمة الأنعام. بل إنَّ الآياتِ تكاد لا تذكر أيَّةَ نعمةٍ أخرى من نِعَمِ اللهِ على الإنسان والتي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، غير بهيمةِ الأنعام وما ارتبط بها من منافع. والملاحظة الثانية أنَّها كثَّرت من التحذير من الشرك، علماً بأنَّ مَن يذهبُ إلى الحَجِّ يُفترضُ أنَّه غيرُ مشرك أصلاً، فما السرُّ في علاقة الأنعام بالبيت العتيق من ناحية، و بالشرك من ناحية أخرى؟

لفكِّ غموض هذه الآيات لا بُدَّ أن نركِّزَ على الألفاظ التي استعملها اللهُ -تعالى- في الإشارة إلى الأنعام؛ لأنَّ فيها اختلافاً ذا مدلولاتٍ كبيرة:

أ- نلاحظ أولاً أنَّ لفظ "**بَهِيمَةِ**" ورد في الآية الأولى التي ارتبطت بأيَّام الحَجِّ، ثمَّ بالآية الأخيرة والتي أيضاً ارتبطت بمناسك الحَجِّ، و نلاحظ أيضاً أنَّ كلمة "بهيمة" أتت مسبوقةً بلفظ "رَزَقَهُمْ" في الموضعين.

ب- في الآية الأخيرة يتضحُ أنَّ مناسكَ الحَجِّ هذه هي التي مُورِست في عهدِ إبراهيم؛ لأنَّها جعلت لكلِّ أمَّةٍ منسكا، ممَّا يدلُّ على أنَّ لفظ "بَهِيمَةِ" يأتي مقترناً بالأنعام حينما ترتبط بحَجِّ قوم إبراهيمَ و مَن قبلهم فقط، إذ إنَّه لفظٌ يدلُّ على لغةٍ تصويرية قديمة، أي أنَّ لفظ بَهِيمَةِ في القرآن ليس إلا من مصطلحاتِ "لغة الغراب".

جـ - عندما وُصفت الأنعامُ بأنَّها من حُرُمات الله جاء وصفُها بـ "وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ" وليس "بهيمة"، وهنا حذَّر الله من الرجس من الأوثان، و حذَّر من الشرك تحذيراً مُغلَّظاً، و كأنَّه هنا يطلقُ حكماً عاماً وتحذيراً من الشرك مرتبطاً بالأنعام، وليس مرتبطاً بأُمَّةٍ محددة، أي أنَّ لفظ "الأَنْعَام" وحدَه من مصطلحات "لغة الهدهد"؛ لأنَّ الله يستعمله إذا كان الخطابُ موجَّهاً إلى أمَّةٍ متأخرةٍ لا إلى الإنسان الأول. و من هنا يمكنُ أن نستخلصَ أولَ مِفتاحٍ نفسرُ به غموضَ السرِّ في آذان الأنعام .

بهيمة: الأصل فيها "بهم"، وهو الشيءُ الغامضُ الذي لا يعرف الناسُ كيف يتعاملون معه، ومنها "أمرٌ مُبهم"، والصخرة الملساء التي لا خرق فيها تُسمَّى البُهمة بضم الباء. و"البهيم" أيضًا هو اللون الصافي الذي لا يشوبه لونٌ آخرُ، و مِن ذلك الليل البهيم أي حالك السواد.

أنعام: أصلها من نعم، وهو طيب العيش والرفاهِيَة. ومفرد أنعام هو "نِعَم"، وسُمِّيت الأنعام بهذا الاسم لأنَّها ارتبطت بالخير للإنسان والترف.

نلاحظ من اسم الأنعام أنَّه اسم "عملي"، أي أنَّه صفةٌ يطلقُها من استفاد من نعمةِ الأنعام بركوبها، ولحومها، وألبانها، ومشتقات ألبانها من جبن وسمن وغيرها من الفوائد. أمَّا مَن لا يعرفُ فوائدَها أو لا يحتاجُ إليها ففي الغالب سيطلقُ عليها أسماءَها المختلفة للتمييز فقط، وهي الإبل والبقر والضأن والماعز، تماماً كما نسمِّي الكلبَ والقطَّ والفأرَ وغيرَها. أمَّا من لم يرَ هذه الأنعامَ من قبلُ مطلقاً، و لم يسمع بوجودها في الأرض فهي في نظره "بهيمة"، بمعنى

"غامضة وغير مفهومة" و ربَّما تكون "بهيمة بهيمة" إذا كانت غامضةً و كان لونُها واحداً صافياً، كأن تكون صفراءَ فاقعاً لونُها مثلاً.

من هنا يمكنُنا أن نفهم أنَّ الأنعام لمَّا نزلت، نزلتْ في زمانٍ لم يكن الإنسانُ يعرفُ فيه ماهيتها؛ و لذلك وَصَفَها بأنَّها غامضةٌ أو مخلوقٌ مبهم. و من هنا أيضاً نستنتجُ أنَّ الله - تعالى- يصفها بـ **بهيمة الأنعام** حينما يربطها بمناسك الحَجِّ، ليخبرَنا أنَّ هذه الأنعامَ نزلت لأولِ أناسٍ سكنوا حول هذا البيت، و كانت في نظرهم مخلوقاً مُبهماً غامضاً، وهذا ما نعنيه بأنَّ لفظ "بَهِيمَةِ" في القرآن يشيرُ إلى "لغة الغراب"، أي أسلوب تعبير الإنسان الأول و فهمه. و لكنَّه حينما يحلها لبني آدمَ عموماً فإنَّه يصفها باسمها المعلوم وهو الأنعام؛لأنها - وبمجهود الشيطان- أصبحت حَيَواناً مألوفاً لنا وليست بهيمة، إذ إنَّه أنْسَانا أنَّها مخلوقاتٌ سماوية منزلة.

و استعمالُ كلمة " بَهِيمَةِ" على لسان حالِ الإنسانِ الأولِ يحُلُّ لغزاً كبيراً للإنسانية جمعاء في قصة آدم والجنة، فالبهيمُ هو الغريبُ الغامض، وإذا كان الإنسان على الأرض قد رأى الأنعامَ وحدَها "بَهِيمَةِ"، فهذا يعني أنَّها كانت الشيءَ الغريبَ الوحيدَ في عالمه، ولكنَّه لم يرَ الغراب بهيماً - مثلاً- فقد كان مألوفاً لديه. وإذا كان هذا الإنسانُ لم يُعرف عنه أنَّه استغرب وجودَ أيٍّ من المخلوقات التي على الأرض، ما عدا الأنعامَ، فهذا يعني أنَّه كان معتاداً على كلِّ ما في الأرض باستثناء الذي نزل بنصِّ القرآن. من هنا نستنبط دليلاً إضافياً على أنَّ مجموعة آدم - أصلاً- ما نزلت من السماء، وإنَّما كانت في الأرض قبل أن يُطوِّرَها الله إلى إنسان عاقل، و كانت معتادةً على مخلوقاتِها و حَيَواناتها، يفترسُ و يصارعُ بعضُهم بعضا، فلمَّا أُنزلت لهم مخلوقاتٌ جديدةٌ من السماء لخدمتهم كانت "بهيمةً" في نظرهم؛ لأنَّها هي الغريبة على الأرض و ليسوا هم الغرباء .

و أبلغُ من ذلك مدلولاً أنَّ وصف الأنعام بلفظ "بَهِيمَةِ" ربَّما يُحدَّدُ الجيل الذي نزلت له من بني البشر. فالأنعامُ ظلت أقربَ صديقٍ إلى الإنسان من كلِّ عالم الحَيَوان منذ أن نزلت، فهي أليفةٌ وديعةٌ ومذللةٌ للإنسان وتعتمد عليه في حياتها، ولا يكاد مجتمعٌ إلى اليوم يستغني عن فوائد الأنعام من لبنٍ ولحومٍ في البلدان المتطورة، وجلودٍ و ظهورٍ في بقية بلدان العالم. هذه الصِّلةُ الوطيدة تدلُّ - بطبيعة الحال- على أنَّ الأنعامَ كانت غامضةً وبهيمةً فقط في نظر الجيل الإنساني الأول، الذي عاصر طَورَ ما قبل "النفخ" وما بعده، وعاصَرَ نزولَ بهيمة الأنعام. أمَّا أبناءُ الجيل الأول من الإنسان العاقل فقد نشأوا والأنعامُ صديقُ الإنسان الأقرب من حيوانات الأرض، وعليه فإنَّها لم تكن غامضة عليهم. إذنْ، فالتسمية بـ "بَهِيمَةِ" يمكن أن تنطبق فقط على الجيل الذي نزل من جنة المأوى إلى وادي المزدلفة، وليس على أبنائه الذين وُلدوا من ذرية مجموعة آدم بعد التطور. هذا المعنى يكون أكثرَ وضوحًا إذا ضربنا مثلا بجيل الآباء في يومنا هذا، الذين ما أُتيحت لهم فرصةٌ للتعامل مع "الكمبيوتر" و"الإنترنت" في صغرهم، والذين يتعاملون معهما بحذر؛ لأنَّها غامضةٌ في نظرهم أو "بهيمة"، على عكس أبنائهم الذين يتعاملون معها و كأنَّها من ضرورات حياتهم اليومية.

هذا الافتراضُ تؤكِّدُه لنا آيةٌ أخرى من آيات القرآن، وهي غامضة جداً، و لكنَّنا إذا فهمنا سرَّها فربَّما تحدِّدُ لنا بالضبط أين ومتى نزلت أولُ ثمانية أزواج من الأنعام، وتكشف لنا لِمَ صبَّ إبليسُ جامَ غضبه و حقدِه على "آذان الأنعام":

﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ "116-120 النساء".

الظاهرُ أنَّ هذه الآياتِ ربطت انحرافَ عقيدة الإنسان إلى الشرك بالله، ببقية الحوار الذي دار بين اللهِ والشيطانِ حينما تمرَّدَ إبليسُ على الله و رفض السجودَ لآدم؛ فطُرد من رحمة الله، فتوعد باحتناك مَن يستطع من ذرية آدم. و المعروف أنَّ القرآن ما نقل حوارًا بين اللهِ - تعالى- و إبليسَ إلا ما تمَّ قبل طرده من رحمة الله عند رفضِهِ السجودَ لآدم؛ ممَّا يؤكِّدُ لنا أنَّ هذا ليس إلا امتدادًا للحوار الذي ارتبط بقصة السجود لآدم. إذنْ من المنطقي جدًّا أن نفترضَ أنَّ إبليسَ الذي لا يعلم الغيب، كان قد رأى نزولَ الأنعام لخدمة و هدي الإنسان؛ لذلك جعل من أول أهدافه أن يُلْبِسَ على الإنسان في عَلاقته بهذا المخلوق البهيم الذي أُنزل له. و لمَّا كان الحوارُ حول السجودِ لآدمَ، وما أدى إليه من تمرُّدِ إبليسَ وطردِهِ من رحمة الله، قد دار بين إبليسَ و ربِّ العرش العظيم حينما كانت مجموعةُ آدمَ ما زالت في "منى"، ولم تسكن بعد الجنة في عرفات كما رأينا ذلك في "باب الحج"، لمّا كان ذلك فإنَّنا نفترض - والله أعلم- أنَّ الأنعامَ كانت قد نزلت هناك وفي ذاك الحين؛ لذلك نجدُ أنَّ إبليسَ قد جعل من أول أهدافه أن يفتنَ الإنسانَ في فهمه لها وتعامله معها. و ربَّما تكون هنا أيضاً إشارة مدهشة إلى ارتباط الضحية بمنى؛ لأنَّ يوم عيد الأضحى، وهو يوم رمي الجمرات، يحينُ عندما يصل الحجيج إلى "منى". إذ إنَّه من المنطقي جداً أنَّ الإنسان الأول ذَبحَ أولَ بهيمة له في "منى" حيث نزلت وبدأت ترعى، وهو في طريقه إلى البيت العتيق، فأصبحت سُنة في الحَجِّ الذي ليس إلا تقليدًا لحال الإنسان الأول في أولى خُطُواته على الأرض خليفةً لله فيها كما رأينا.

وقد رأينا في باب الحَجِّ أنَّ القرآنَ أحيانًا يوحي بأمرٍ من غير التصريح به، و لا يدلُّ عليه إلا الموسيقى والألفاظ التي انتقاها الله في النص، فكما كان قولُ الله - عز وجل- لموسى: ﴿ ۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ﴿٨٤﴾ ﴾ " 83-84 طه" فيه إشارةٌ ضمنيةٌ إلى أنَّ قومَه قد عبدوا **العجل** بعد أن تعجَّل عنهم موسى، فإنَّ وعيدَ الشيطان بالأماني ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ .... ﴿١١٩﴾ ﴾، ثمَّ تحذيرَ الله من ذلك الوعيد ﴿ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ .... ﴿١٢٠﴾ ﴾ فيه إشارةٌ موسيقيةٌ إلى أنَّ الحوار والحدث قد وقعا في

الوادي الذي يحملُ اسم "**مِنى**" وفيه يُرجَمُ الشيطانُ إلى اليوم، وعندما يصل إليه الحَجيجُ تُذبح الأنعام في مشارق الأرض ومغاربها في سُنة الأضحى إلى اليوم. وقد ناقشنا عَلاقة مِنى بخلق الإنسان و تطوره من جوانبَ عديدةٍ في باب الحَجِّ.

و اشتملتْ هذه الآياتُ في وعيد الشيطان على لفتةٍ لغويةٍ فنيةٍ رائعةٍ - ربَّما- خفيت على الناس طَوال القرون من بعد آدم، وما هي إلا دليلٌ على أنَّ هذا القرآنَ ما كان ليفترى من دون الله، تلك هي جملة : ﴿ ... وَلَآمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ .... ﴿١١٩﴾ ﴾، و التي استوجبت أن يصف اللهُ الشيطانَ بلفظ "المريد"، وتعني الذي تجرَّد من كلِّ خير. و حتى نستوعب المعنى الرائعَ من هذا المفهومِ الغامضِ "آذان الأنعام"، والذي اخترناه اسمًا لكتابنا وعنواناً لنظرية الخلق والتطور التي اقترحنا، يستحسنُ أن نلخص ما وصفنا من هيئة الإنسان الأول النفسيةِ والعقليةِ في ذلك الحين:

طوَّرَ الله - تعالى- بفعل "كُن" مخلوقاتٍ أدنى كانت ملائمةً للتغيير "آدم" إلى إنسان عاقل، ثمَّ أوى ذاك الإنسان إلى جنَّة المأوى القريبة منه. كان أولُ نهي صدر لهم من ربِّهم موصوفاً وصفًا حركيًّا ميكانيكيًّا: ﴿ ....وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ .... ﴿٣٥﴾ ﴾ ممَّا يدلُّ على عدم قدرتِهم على فهم المفاهيم المجردةِ كالجماع أو العملية الجنسية. خالف الإنسانُ أمرَ ربِّه فكان التعبيرُ عن ندمه أيضاً جسدياً: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ .... ﴿٣٧﴾ ﴾ فكانت تلك الكلماتُ حجارةً طرحها و رصَّها في شكل جبلَي الصفا والمروة، وعندها مارَسَ أولَ صلاةٍ وكانت أيضًا حركاتٍ جسديةً، هي التطوف "السعي" بين قطع حجارة الصفا والمروة. في أوَّلِ مواجهةٍ له مع الشيطان ملَّكه اللهُ رجومَ الشياطين المادية التي أنزلها له من الشهب والكواكب في المزدلفة؛ لأنَّه ما كان له عزمٌ حينها، وما كان قادراً على استيعاب مفاهيمِ الاستعاذةِ والتحصينِ الروحية، التي تتطلبُ تطوراً في العقل والفهم لم يكن قد وصل إليه. و مضى القرآنُ يحدِّثُنا أنَّ الإنسانَ ظلَّ بسيطاً حتى الجيل الأول من بني آدم، كما يتضحُ جليّاً من قصة الغراب الذي أراه كيف يَحْفِرُ الأرضَ بصورةٍ عمليةٍ.

لآمُرَنَّهُم: من أمر، ومن معانيها: الدهشة والعجب، كما في قوله : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ ﴾ "71 الكهف".

فإذا وضعنا كلَّ تلك الحقائق عن الإنسان الأول نُصْبَ أعيننا ثمَّ رجعنا إلى كلِّ الآية، فسنجدُ أنَّ الألفاظ التي عبَّرت عن خطاب إبليسَ مع الله جاءت فلسفيةً واسعةَ المعاني، إذ إنَّ الضلال والأماني الزائفة لا حدودَ لمدلولاتها

وتطبيقاتِها في حياة الناس ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ .... ﴿١١٩﴾ ﴾ و الإضلالُ والوسوسة بالأماني لا يُشترط أن

يكون الإنسانُ منتبها لهما، فلمَّا اشتمل التعبير على ﴿... وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ.... ﴿١١٩﴾ ﴾، أي كأنَّه أدخل الإنسانَ في لغة

الخطاب، وكأنَّه مصابٌ **بالدهشة والعجب**، تحولت الألفاظ إلى ألفاظٍ مجسمةٍ ميكانيكيةٍ من ألفاظ "لغة الغراب" التي

تناسبُ فهمَ الإنسان المقصود بها آنذاك ﴿ .... وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ..... ﴿١١٩﴾ ﴾ و حتى

يسهل فهمُ المعاني العميقةِ لوعيد الشيطان في كلِّ كلمة، نسوقُ مثالاً بأنَّ الناسَ اليوم في المدنية الحديثة ما زالوا غارقين في أمانٍ وأحلامٍ زائفةٍ وضلالٍ بعيد، ويلهثون وراءَ الأموال والسلطان والشهوات، وكلُّها ممَّا توعد الشيطان به ونفذه بذكاءٍ ومكرٍ شديدين على مر العصور. و لكنَّ نَزْعَ آذان الأنعام - فيما يبدو- شيءٌ بدائيٌّ مرتبطٌ بالرعاة وما شابههم، و حتى بينَ هؤلاءِ لا نكادُ نجدُ معنىً لِأنْ يبذلَ الشيطانُ جَهداً في أن يأمر أحداً بأن ينتفَ آذان الأنعام عصياناً لله، ممَّا يجعل الأمرَ غامضًا جدا.

من المعروف أنَّ الله - تعالى- قد أمر إبراهيمَ بالأذان للحَجِّ :﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ ..... ﴾ وهذا

استعمالٌ نادرٌ لكلمة أذِّن أي "نادي"؛ لأنَّ الأذانَ قد ارتبط في أذهان المسلمين عموماً بالدعوة إلى الصلاة وليس بقية العبادات. و حتى الأذان بالحَجِّ يُفهم -عموماً- على أنَّه استعمالٌ مجازيٌّ، إذ إنَّه لا يُعرفُ أنَّ مؤذِّناً يقفُ سنوياً ليؤذِّن في الناس بالحج كما يُؤذَّن للصلاة، ولا ندري كيف أذَّنَ إبراهيمُ - عليه السلام- بالحَجِّ، ولكنْ كلُّ الذي نعرفه أنَّ إبراهيم قد أسس لعبادة للحَجِّ.

والآذان في اللغة من "إذَن" أي العلم بالشيء، و سُمِّيت الأُذنُ التي نسمع بها أُذناً لأنَّها هي الأداة الأولى التي يُؤخذ

عن طريقها العلم. و آذان جمع أذن - أداة السمع- أمَّا أذان فتعني النداء أو الإعلام ﴿..... ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا

ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ " 70 يوسف".

و"آذان الأنعام" هنا لها مضمونٌ عميقٌ جداً يرتبطُ بقيمة حُرمة الأنعام، و أنَّها من "شعائر الله"، و ترتبط أيضاً بمستوى فهم الإنسان الأول ولغةِ خطابه. من هذا كلِّه يمكن أن نخلُص إلى أنَّ الله - تعالى- لو أراد أن يرسل مُؤذِّناً يؤذِّن للإنسان الأول، لَمَا كان ذلك المؤذِّنُ إلا مجسماً يراه فيذكِّره بالله، و ليس كلمات بليغة يُنادى بها كما هو الحال في أذان بلال للصلاة الذي نعرفه، إذ إنَّ مَن يتعلم من الغراب بالمشاهدة كيف يحفِرُ الأرضَ لا بُدَّ وأن يكون فاقداً لكثيرٍ من مَلَكَاتِ التعبير والتفكير العلمي والمنطقي، و بذلك فإنَّ فهمَه للأمور محدودٌ و يعتمدُ على الحركات والمَشَاهِد أكثر من المصطلحات والألفاظ.

وقد جعل الإسلامُ لكلِّ شيءٍ أذاناً، و إنْ لم يربط المسلمون هذا اللفظَ إلا بالصلاة، وأذانِ إبراهيمَ بالحَجِّ كما أشرنا. و لعلَّ هذه اللوحةَ الإلهيةَ الرائعةَ التي روت بلغة المجسماتِ خُطُواتِ الإنسان الأول، و كيف تعامل مع الدين والدنيا

ببدائية و بساطة، ما كان لها أن تكتمل إلا أن ينزل اللهُ للإنسان الأول إشارةً و دليلاً يذكِّره بوجود خالقه و عظمته حتى لا ينسى، أي آية حية من آيات الله المجسمة التي تُذكِّرُه بوجود الله دائماً. فكان نزولُ الأنعام لتكونَ أذانا للإنسان الأول هو تلك اللمسةَ الفنيةَ الأخيرةَ؛ لتكمل هذه الرائعة من روائع بديع السماوات والأرض.
بقي أن نذكِّر أنَّ الله ـ تعالى- ما تعلَّمَ اللغةَ العربية من امرِئ القيس أو المعلقات العشرة كما تعلمناها نحن، فهو الذي خلق الإنسان وأنطقه وعلَّمه البيان، و ما كان يحتاجُ إلى مرجع من أشعار العرب يجيزُ له أن يجمع "أذان" بمعنى النداء الواحد إلى "آذان" لتحملَ مدلولاً أكبرَ صدىً يدوي عبر العصور؛ لينبهَ الإنسانَ إلى سرِّ الأنعام التي تنادي بوجود خالق الأزواج كلِّها،ممَّا تنبت الأرض ومن أنفسهم وممَّا لا يعلمون، فكان أن جمع أذان" إلى "آذان" الأنعام لتكونَ جمعاً فريداً وابتكاراً لُغويًّا يجري مجرى اللغة، وإنْ لم يكن عليه دليلٌ من أشعارهم التي اندثرت، تمامًا كما ابتكر اسم "القرآن" الذي لم يكن له مثيلٌ قبل نزول القرآن من قبل و لكنْ ما استغربه أحدٌ منهم. فالأصلُ في أذان و آذان هو من أذن وهو الانتباه والإخبار والنداء.

فالأنعامُ بهيمةٌ غامضةٌ من مخلوقات السماء، ولكنَّها تسكنُ في بيوت الإنسان في الأرض وترعى بين أقدامهم ومن بين أيديهم ومن خلفهم. فكان أن انتبه الشيطانُ إلى أنَّ سرَّ نزول الأنعام هو أن تكونَ آذاناً للإنسان إلى يوم القيامة مهما اختلفت لغاتُه حتى لا يضل، إذ إنَّها منزلةٌ من الله بجانبه طَوال الوقت. وقد رأينا في بابِ الحَجِّ أنَّ كلمة "**الْهَدْي**" التي استعملت مجازاً للأنعام التي تُذبح كفَّارة لصغائر الأمور في عبادة الحَجِّ، ما سُمِّيت "هدياً" إلا لأنَّ الأنعام ـ أصلاً- ما نزلت إلا لتكونَ آذاناً يهدي إلى الله، وهي دعوة للإنسان أن يتفكَّر ويتدبَّر في سرِّ وجودها وسرِّ خلقها، إذ إنَّ فيها سراً يهدي إلى الله أو أذاناً دائماً ملازماً للإنسان. لمَّا كان هذا سرَّ آذان الأنعام فقد عزم الشيطانُ أن يطمثَ هذه الحكمةَ و يلهيَ الناسَ عن التفكُّر في سرِّ خلق الأنعام، و حقيقة أنَّها مخلوقاتٌ سماوية تمشي على الأرض، و أنَّها نزلت لحكمةٍ علميةٍ خطيرة، وهكذا توعَّدَ بأن ينزع ذلك الآذان، أي ينزع صلتها بالله وبالسماء من عقولهم، و يلبس عليهم شأنها فلا تصبح آذاناً لله و دليلاً على وجوده، و لكن يضلهم عنها و بها، ويجعلهم يعبدونها هي، فتنقطع صلتهم بالله بعد أن يتحول الآذانُ نفسُه إلى وثن رجس يُعبد من دون الله. واستعمال كلمة "يُبَتِّكُنَّ " هنا ليس إلا لأنَّها من مصطلحات "لغة الغراب"، التي تفيد أنَّ المقصودَ هو الإنسانُ الأولُ الذي لا يفهم إلا الألفاظَ الحركيّةَ، وهي أيضاً تفيدُ الإشارة إلى الإصرار على استئصال الصِّلةِ بين الأنعامِ واللهِ من أذهانهم تماماً، وهو تعبيرٌ عن حقدٍ وعداءٍ مبين؛ لذلك قابَلَه اللهُ بلفظ "شيطاناً مريداً" أي مجرداً من الخير.

المدهش في هذه الآية أنَّ الشيطان ما قال (فليبتكن آذان بهيمة الأنعام)، وإلا لَمَا عبد اليهودُ العجل، وما عبد الهنود البقرة، وما أشركت أجناسٌ عديدة باللهِ الأنعامَ؛ لأنَّ اللفظ كان سيحدِّدُ وعدَ الشيطان بإضلال الجيل الأول من الإنسان العاقل الذي رأى في الأنعام "بهيمة". عَزْمُ الشيطانِ أن يجعل من الأنعام ـ مطلقاً- وسيلةَ إضلالٍ إلى آخر الزمن فيه دليل على أنَّها لم تكن أذاناً واحداً مؤقتاً للإنسان الأول، ولكنَّ فيها أسراراً تكون آذاناً للإنسانية جمعاء في كلِّ الأزمان؛ لِمَا في خلقها من أسرارٍ وحقائقَ علميةٍ يمكن أن تهديَ كلَّ الناس في أيِّ زمن.

استعمال لفظ "فَلَيُبَتِّكُنَّ" يشبهُ إلى حدٍ كبيرٍ استعمالَ لفظ {**يَنْزِعُ** عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا}، إذ إنَّ "**نزع**" لفظ حركي

عنيف، ولا ينطبق لغةً على إزالة البهاء، وحاجز النور الذي ذهب المفسرون القدامى في اجتهادهم إلى أنَّه كان الحاجزَ الذي حَالَ بين آدمَ وحواءَ من أن يرى كلٌّ منهم عورةَ الآخر قبل المعصية، و اللفظ أيضاً حركيٌّ وعنيفٌ ولا ينطبقُ

على ما ذهبنا إليه من تفسيرٍ بأنَّ "الباسهما" تعني إلتباسهما في التمييز بين الذكر والأنثى. إذنْ فلفظ **ينزع** لفظٌ غريب مهما كان التأويل لـ " لِبَاسَهُمَا"، ولم نجد تفسيراً منطقياً لاستعماله إلا ما ذهبنا إليه من تأويل من أنَّه لفظٌ يفيدُ مستوى فهمِ الإنسان المقصود بهذه العملية، ومحدودية الألفاظ التي يتعامل بها وطبيعتها، من "نزع" لباسهما أو "ليبتكن" آذان الأنعام. و سنرى قريباً أنَّ الإنسان الأول ما كان له أن يستوعب مفهومَ بناءِ البيوت، فرأى أولَ بيتٍ قد "وُضع" لهم لا بُني لهم. وقياساً على ذلك يمكنُنا أن ننتبهَ إلى أنَّ كُتُبَ السلف - مثلاً- تحتوي على تعابيرَ ،مثل: "هلك أبي وهو في الثمانين من عُمُره"، إذ إنَّ لفظ "هلك" ما عاد مستساغاً ولا مقبولاً أدبياً في ذوق مجتمعاتنا، ولكنَّه كان مقبولاً للسلف.

و حتى نفهمَ خطورةَ هذا النسيان علينا أن نتخيلَ لو أنَّ سفينة فضاءٍ أتت بحجارة من المريخ، فطُرحت للبيع في مزادٍ علني لتسابقَ الناسُ على شرائها بملايين الدولارات، لا لشيءٍ إلاّ لأنَّ امتلاكَ مجسَّمٍ من مجسمات السماءِ أمرٌ نادرٌ وله رهبة وهيبة في النفس التي تتوق لامتلاك العجيب النادر. و لعلَّ كثرة الأفلام الوهمية التي تحكي قصصاً عن مخلوقاتٍ من الفضاءِ الخارجيِّ تنزلُ إلى الأرض مثل قصة فيلم " أي. تي" المشهورة، دليلٌ على مدى تأثير مخلوقاتِ الفضاء على سكان الأرض. فما بالنا نغفل عن مخلوقاتٍ نزلت من السماء حقيقةً و تسكن بيوتَنا ولا نلقي لها بالاً. ولا يخفى علينا بعد هذا الفهم أنَّ أبلغَ وصفٍ لغفلةِ الإنسانية عن حقيقة آذان الأنعام تلك ،هو لفظ "فَلَيُبَتِّكُنَّ"

إنَّ إدراكنا لمفهوم آذان الأنعام - كما أسلفنا- هو الذي قادنا إلى أن نفهم الكثيرَ من ألفاظ القرآن، وَفْقاً للظرف الاجتماعي أو العلمي الذي يرد فيه اللفظ بعيداً عن مدلولاتها المتعارف عليها في المجتمعات العربية المتأخرة، وبذاك أعاننا على الاجتهاد في كلِّ التـأويلات التي اشتمل عليها هذا الكتابُ، و التي - بطبيعة الحال- خَلقت فهماً جديداً للكثير الغامض من آيات القرآن، و أفرزت علماً ما كان لنا أن نصل إليه قبل استيعابنا لمفهوم آذان الأنعام.

و حتى ندللَ على خطورة السرِّ في آذان الأنعام للدرجة التي تجعل منه هدفاً أساسياً للشيطان منذ يوم نزولها، نسوقُ معلوماتٍ مدهشةً عن خلق الإنسان و تطوره لا يمكن فهمُها - لأنَّها من عالم الغيب- إلا بفحص آذان الأنعام، تلك هي حقائق مفهوم ﴿ ... لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا ...﴿٧٩﴾ ﴾ "غافر79"، وتحديد تاريخ النفخ في آدم، والوصف التشريحي لمخِّ البشر قبل أن ينفخ اللهُ فيه، و حقيقة أنَّ المسيح قد كلَّم الناسَ كهلاً رغم أنَّه رُفع في عُنْفُوان الشباب، وأيضاً تعداد مجموعة آدم، العنصر الذي تطور إلى إنسانٍ عاقل، إذ إنَّ هذه الحقائقَ لا توجد في كلِّ العالم وكلِّ الحضارات إلا في القرآن.

فحصُ آذان الأنعام:

من أوجه قصور تدبر المسلمين لآيات القرآن أنَّهم لم يلتفتوا إلى الآيات الكثيرة التي جمع اللهُ فيها الأنعام مع أسرار الخلق في الآية الواحدة؛ لأنَّها ظلت في نظرهم "بهائم"، أي حَيَوانات غبية على مر العصور بالفهم الخاطئ للفظ بهيمة، و لكنَّنا هنا نريدُ أن نكشف بعضَ أسرارِها البهيمةِ أي الغامضة بعد أن أوضحنا أنَّ آذانها يدعو لوجود الله.

رَكوب الأنعام:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَـٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٩ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٨٠ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ۝٨١ ﴾ "79-81 غافر".

خَلَطَ بعضُ المفسرين بين الأنعام والخيل حتى يجدوا تفسيرا لرَكوبها؛ لأنَّهم فهموا "لتمتطوا ظهورها" كما يفهمُها أغلب الناس اليوم، رغم أنَّ النصَّ" لِتَرْكَبُوا مِنْهَا" وليس(تركبوها أو تركبوا عليها). و ربَّما يفوتُ على كثير من الناس أنَّنا ـ أصلاً- لا نركب من الأنعام إلا الإبل، أمّا الضأن والمعز والبقر فلا. فكيف إذنْ يكِّررُ اللهُ ركوبنا الأنعامَ في آيتين متتاليتين، إذا كان ـ أصلاً- لا يركب منا إلا سكانُ الصحراء، ولا يركبون إلا واحدةً منها وهي الإبل؟
كلمة "تركبوا" هنا مأخوذة من الأصل "ركب"، و من معانيها "الأصل والمنبت" كما ناقشنا ذلك في {حَبًّاً مُتَرَاكِباً}، وتعني الحَب الذي يحملُ خواصَّ الإنبات. و قد أورد ابن فارس في معجم (مقاييس اللغة) قولاً للفراء يفيدُ أنَّ المُركَّب تعني عانة الرجل أو المرأة، أي الأعضاء التناسلية. فإذا عُدنا بعقل متفتح لنفحصَ الآياتِ أعلاه، فسنجدُ أنَّ الآية الأولى جمعت بين الرَكوب والأكل بوصفها آياتٍ كونيةً في الأنعام، و الآية الثانية جمعت بين الأنعامِ و الفلكِ في أنَّ الإنسانَ يُحمَلُ عليهما إلى أماكنَ بعيدةٍ. فإذا افترضنا أنَّ أكلَ الأنعام يشيرُ إلى لحومها فإنَّ "لِتَرْكَبُوا مِنْهَا" تعني ليتمَّ توالدُكم وتكاثرُكم منها، وقد يرتبط سرُّ الإنباتِ هذا باللبن الذي لا غنى لأيِّ إنسان عنه حتى النباتيين من المهد إلى اللحد. وهذا التفسيرُ ينطبقُ أيضاً على آية: ﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ۝٧٢ ﴾ "72 يس". نلاحظ هنا أنَّ اللفظَ جاء بفتح الراء لا بضمها، وأيضاً أنَّ السياق ليس "ليركبوها" كما في وصف: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨ ﴾ " 8 النحل". إذنْ ففي { لِتَرْكَبُوا مِنْهَا - و- فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ } الـ "مِن" هنا ليست للتبعيض لتشيرَ للإبل التي تُركب من بين الأنعام؛ لأنَّ "الرَكوب منها" بفتح الراء لا يعني امتطاء ظهورها، و إنَّما يعني : أنَّنا نأخذ منها شيئاً يدخل في الجهاز التناسلي والإنجاب، وهذا السرُّ ليس فيما يُؤكل منها؛ لأنَّه في الآيتين قد أتت "وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ" كأمرٍ منفصل عن الرَكوب.

أمَّا الـ {حَاجَةً في صُدُورِكُمْ} التي نبلغها بالأنعام يمكن أن نستنبطها من بقية الآيات:

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ۝٨٠ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ۝٨١ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ

يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ "80-82غافر".

الحاجة التي في صدور كلِّ الناس التي يرمي إليها اللهُ - ربَّما- نستنبطها من وصفه للذين كانوا قبلنا كما في الآية، فقد كانوا:

أَكْثَرَ مِنْهُمْ {العدد}، وَأَشَدَّ قُوَّةً {البنية} وَآثَارًا {الحضارة}. من هذا يمكن أن نخلُصَ إلى أنَّ الحاجة التي في صدورنا المقصودة هي: زيادة تعداد السكان، وامتلاك القوة الجسدية والصحة، وبناء حضارات تترك آثاراً عظيمة ... فكيف إذنْ نبلغ تلك الحاجة بالأنعام؟

إنَّ التناسلَ والتكاثرَ - كما قلنا سابقاً- أصلُه من مكوناتٍ تأتي من الأنعام، و أيضاً قوة البنية أصلُها من منتجاتِ الأنعام أكلاً وشرباً. أمَّا الحضارة فهي نتاج "العدد" مع الصحة و"البنية". ولمَّا كانت مقوماتُ التكاثر والشدة من مكونات الأنعام، أي أنَّها "محمولة" في أجساد الأنعام، فقد قادنا هذا إلى التأكيد أنَّ كلَّ متطلباتِ الناس من توالدٍ وتعدادٍ وقوةٍ وصحةٍ و حضارة محمولةٌ على الأنعام.

كلمة "يحمل" لا تعني - بالضرورة- الحملَ المجسَّدَ على الظهر، وإنَّما تُستعمل للإشارة إلى علاقة وطيدة بين شيئين أو اعتماد أحدهما على الآخر. ومن هذا المعنى نقول: يحمل هذا اللفظ أو الحكم أو الفتوى على أنَّه يعني كذا ...

أمَّا الفُلك، فهو كلُّ ما يدور في فَلَك، وهو الاستدارة في الشيء، فالمركب "فُلك"؛ لأنَّه يسبح في فَلَـك البحر الذي يسبح مع الأرض في فلكها، ومادامت الأرضُ تسبح في فَلَكٍ فهي أيضاً "فُلْك". والسيارة تسير على سطح الأرض الدائري وتسبح مع الأرض في فلكها. و"السرير" الذي نرقد عليه يسبح مع "فُلك" الأرض التي تسبح في "فَلَكِها"،

﴿ .... وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ " 40 يس"

وبهذا يكون معنى ﴿ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ " المؤمنون 23" شاملاً كلَّ الناسِ بتعدادهم وقوة

أجسادهم وحضاراتهم، فكلُّ الكون يدور في أفلاك متداخلة، والله أعلم.

تشريح المخ والعقل:

وصل علماءُ الطبيعةِ إلى أنَّ جمجمة الإنسان كانت صغيرةً لدرجةِ أنَّها لا تحتوي على المخِّ العاقل، و لكنَّها انتفخت تدريجياً وأصبح حجمُها كافياً لاحتواء مخِّ الإنسان العاقل، لكنَّهم وجدوا أنَّ العقلَ ظهر فجأةً في بعض فصائل البشر، بينما ظلت الفصائلُ الأخرى غيرَ عاقلةٍ رغم أنَّ حجم الجمجمة في الفصيلين كان متساوياً. و قد ظهر العقلُ في مُدَّةٍ زمنيةٍ وجيزةٍ جداً مقارنةً بملايين السنين التي انتقل فيها البشرُ من المشي على أربع إلى المشي على اثنتين، فسمَّوا هذه الطفرةَ بالحلْقةِ المفقودةِ في نظرية التطور لداروين. و قد ناقشنا ذلك في باب الحلقة المفقودة، واقترحنا أنَّ هذه الطفرة تمت بتدخل ربانيٍّ خارجٍ على نظام التطور، وهي ما أشار إليه القرآن بحادثة النفخ. و رغم ظنِّنا أنَّ العقل في

القلب، وهو أمرٌ بدأ العلم الحديث يبحث فيه ويؤكده، إلا أنَّ المُخَّ هو خِزانة الملفات التي يتعاملُ بها ومعها العقلُ. ما لا يمكنُ لعلماءِ الطبيعة الحصولُ عليه هو عينةٌ من مُخِّ الإنسان قبل أن يصل إلى حالة النضج، التي جعلته قابلاً لاحتواء متطلبات العقل من أدوات تغذيةٍ بالمعلومات من سمعٍ وبصرٍ وذاكرة وغيرها. إذ إنَّ كلَّ ما توفِّرُه الحفريات هو جماجمُ ذلك الإنسان، و لكنْ يستحيلُ وجودُ مخٍّ كاملٍ من تلك الحِقْبَةِ لدراسته. ونحن نظنُّ - بحمد الله- أنَّ السرَّ في آذان الأنعام يقدِّمُ خيطًا لدراسة هذه الحقيقة العلمية. وحتى نستنبطَ هذه العلاقةَ المعقدةَ نحتاجُ أن نُرتِّل هذه الآيات معًا:

﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ " 22الملك".

هذه الآيةُ كانت تعني أنَّ الضالَّ يمشي مطأطِئَ الرأس مُهاناً في الأرض، مقارنةً بالمؤمن الذي يمشي مرفوعَ الرأس. هذا المعنى المجازي كان كافيًا لقرون طويلة حينما كانت للمسلمين عزةٌ وكانت رؤوسُهم مرفوعة، و لم يكن بمقدور الإنسان أن يفهم أنَّ الله - ربَّما- يعني حقيقةَ الكلمات. الآن نقول:إنَّ فكرة طأطأة رأس الكافر ليست واقعية، إذ إنَّ الكفرَ غالبًا ما يرتبط بكثير من الغرور والاختيال والفخر وعزة النفس الزائفة، ولا يُشترط فيه أن يمشيَ كلُّ كافرٍ مطأطئَ الرأس. فضلاً عن أنَّنا - وبكلِّ أسف- نعيشُ في زمن طأطأ فيه أغلبُ المسلمين رؤوسَهم. وعليه نظنُّ أنَّ المقصودَ هو المعنى الحرفي للكلمات، وهو أنَّ مَثَلَ مُخِّ الضالِّ اليومَ من ناحيةٍ وظيفيةٍ كمثل مخ البشر قبل النفخ حينما كان يمشي مُكِبَّاً على وجهه كالأنعام؛ لأنَّ مُخَّه لم يكن بعد قد عُدِّل لدرجةٍ تحفظ توازنَه ليمشيَ معتدلاً على صراط مستقيم. الأطباء ورجال الشرطة في البلاد الإسلامية يعلمون أنَّ أبسطَ الاختبارات التي تجري على من يُظَنُّ أنَّه مخمور، هي أنَّه يُؤمرُ بأن يمشيَ خُطُواتٍ متلاصقةً على صراطٍ مستقيم حيث لا يستطيع؛ لأنَّ الخمر يؤثر تأثيراً مباشراً في جهاز "السرابيلام" الذي يحفظ التوازنَ في الإنسان، ويجعله قادراً على أن يمشيَ في صراط مستقيم. ونضيف حقيقةً علميةً أخرى، هي أنَّ الأذنَ الوسطى تؤدي دوراً مباشراً في حفظ توازن الإنسان ليمشيَ معتدلاً، وما كان للإنسان قبل وجودِ خاصيَّة السمع الوظيفية إلا أن يمشيَ مُكِبّاً على وجهه كالأنعام؛ لأنَّه يحتاج إلى أكثرَ من ساقين لحفظ توازنه. و لعلَّ كثيراً من الناس قد تعرضوا لالتهاباتٍ في الأُذن تؤدي إلى انسدادٍ في قناة السَّمْعِ، ومرُّوا بتجْربةٍ عمليةٍ في فُقْدان التوازن إذا اختلت وظيفة الأذن. تأويلنا أنَّ الآية تشير إلى عصرٍ كان الإنسان يمشي فيه على أربعٍ، يجعلها منسجمة مع آيةِ الإنشاءِ و"السمع والبصر" التي تليها في سورة الملك:

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

" 23 الملك".

هذه الآية تشيرُ إلى "إنشاء" الإنسان وليس خلقه، ليمشي معتدلاً بعد أن كان يمشي مُكباً على وجهه في الآية التي سبقتها، ولا يمكنُ فهمُها إلا في إطار التطور. هنا يصف اللهُ - تعالى- مرحلتين من مراحل التطور: إحداهما شكلية والأخرى وظيفية. المرحلة الشكلية: هي مرحلةُ تطوُّرِ مشي الإنسان، من المشي على أربعٍ إلى **الإنشاء** أي المشي على اثنتين. والمرحلة الوظيفية: هي مرحلةُ إعطاءِ الإنسان العقلَ وأهمَّ أدواتِ تغذيته بالمعلومات في المخ، وهما خاصية **السَّمْع** وخاصية البصر. والسمع والأبصار خواص تتطلبُ وجودَ العقل؛ ليفسِّرَ الأصوات التي تلتقطها الأذن

والأضواءَ التي تراها العين، فليس كلُّ صوت تلتقطه الأذن له معنى، و ليس كلُّ منظرٍ يسقط على العين له مدلول، بدليل أنَّ الإنسانَ النائمَ تلتقط أذناه الأصوات من حوله، لكنَّه لا يتفاعلُ معها لغياب العقل، و بعضُ الناس يفتحون أعينهم أثناء النوم، ولكنَّهم لا يبصرون طالما كان العقلُ نائماً. و مثل ذلك تأثيرُ الخمور على حواسِّ الإنسان، إذ إنَّ الخمر يخامرُ العقلَ؛ فيفقد الإنسان القدرة على أن يَعقلَ ما يسمع أو يرى رغم أنَّ أذنيه موجودتان و تلتقطان الأصوات، و عينيه مفتوحتان وتلتقطان الأضواء.

هذه الآية تدلُّ على أنَّ الإنسان قبل أن يمنحه اللهُ **السمعَ** والبصر، كانت له أذنان لا يسمعُ بهما وعينان لا يبصر بهما، إذ إنَّ الآية وصفت أنَّ الله "جعل" له السَّمْعَ والبصرَ والفؤادَ، و لم تقل "خلق" ممَّا يدلل على أنَّ الأذنين والعينين والمخَّ و القلبَ كانت جميعاً موجودة، غيرَ أنَّه حدث فيهم تغيُّرٌ تشريحي من ناحيةٍ و وظيفي من ناحية أخرى. هذا التغيُّرُ - بطبيعة الحال- تمَّ حينما "سوَّاه" و "نفخ" اللهُ في الإنسان من روحه وسَعته وفضَّله كما فهمنا من قوله - تعالى-

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ " 9 السجدة".

هذه الآية ناقشناها في باب الحلقة المفقودة، فهي تصف اللحظةَ الحاسمةَ في تاريخ الإنسان التي نقلته إلى إنسان عاقل، و لكنَّنا هنا نودُّ أن نُجريَ عن طريقها عمليةَ تشريح افتراضي لمخِّ البشر قبل النفخ و بعده. وحتى نفهم الآية فهماً صحيحاً من حيثُ قواعدُ اللغة نعيدُ كتابتَها كما يأتي:

{ **ثم:** سواه ونفخ فيه من روحه و جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة..}.

"ثم" تعطفُ كلَّ ما يليها على ما قبلها، أي أنَّ التسوية والنفخ و السمع والبصر والفؤاد كلها ربما وقعت معاً في ذات اللحظة و بأمرٍ واحد؛ لأنَّها جميعها تمَّ عطفُ بعضها على بعض بحرف العطف الواو الذى يفيد مطلق الإشتراك فى الحكم. نلاحظ أنَّ الله لم يحدثنا عن خلق المُخِّ ولا خلق الآذان ولا خلق الأعين ولا الفؤاد، و إنَّما أخبرنا عن حدوث تغيير تشريحي و وظيفي عام اشتمل على عملية "تسوية" و"نفخ"، ونتج عن هذا التغيير التشريحي تغييرٌ وظيفيٌّ ظهرت بموجبه خواصُّ السمع والبصر والعقل معاً. هذا - بطبيعة الحال- يدلُّ على أنَّ الإنسانَ قبل التسوية والنفخ كانت له أذنان وعينان ومُخٌّ وقلب، و إلَّا لمَا قال "جعل" وهي تفيد تغييراً في وظيفةِ عضوٍ موجودٍ وليس خلقه من عدم.

هذا التغييرُ الوظيفيُّ قابلٌ لآنْ يتعطل عند أيِّ إنسان، حتى و إنْ كانت أعضاءُ المُخِّ والسمع والبصر فيه سليمة، وذلك إذا كان يتجاهلُ الحقائقَ الكونيةَ ومن ضمنها حقيقة خلقه هو نفسه وخلق السماوات والأرض، ولذا فلا يربط بين هذه الحقائق وحقيقة وجود الخالق المطلق. مثل هذا الإنسان يمكنه أن يسمعَ كلامَ الله فلا يحرِّكُ فيه ساكناً، كأنَّه قد فَقَدَ وظيفة العقل، وبالتالي السمع والبصر فأصبح كالأصم الأبكم الأعمى:

﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ " 18 البقرة". الإرجاعُ هو مقارنة المخزون من العلم مع ما يراه ويسمعه الإنسانُ حتى يكتملَ فهْمُ الأمور المستجدة و عقلُها. إلى هنا والآيات تصف التغييرَ الوظيفيَّ في أدوات السَّمْعِ

والبصرِ والعقلِ من غيرِ ذكر تلك الأعضاءِ صراحة، على أنَّنا إذا رتَّلنا هذه الآيات مع آيةِ الأنعام فسنصلُ إلى نتيجة مدهشة:

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ " 179 الأعراف".

هنا نلاحظ أنَّ الله وصف كلَّ عضوٍ و وظيفتَه في حال غياب العقل، وهو الحال الذي ينطبقُ افتراضاً على حال البشر قبل أن يسويَه الله وينفخَ فيه، لأنَّه يصف تلك الأعضاء في حال الضلال وهو عدم القدرة على إرجاع المعلومات و عقلها. نلاحظ من الوصف أنَّ الضالِّين لهم آذانٌ وأعينٌ و قلوبٌ، و لكنَّ ما ينقصهم هو وظائف تلك الأعضاء، وهي السمع والبصر والعقل. وقد ذكرنا - سابقا- أنَّ القلب هو العضو الذي يتحكم عصبياً في تقليب المعلومات في الألباب والذاكرة الموجودة في المُخ، و من ثَمَّ التفكُّر والعقل. إلى هنا و نحن لا ندري الشكلَ التشريحيَّ لدماغ مخلوقٍ له آذانٌ لا يسمع بها، و أعينٌ لا يبصرُ بها، وقلبٌ لا يفقه به، و لكنَّ اللهَ تكرَّم على علماء الطبيعة بإعطائهم مثالاً لذلك الدماغ والقلب ليبحثوا فيه، ويمكنُنا استنباط ذلك من التدبُّر في هذه الحقائق التي تبرزُها الآيات:

1- قبل النفخ كان للإنسان قلبٌ وأذنان وعينان، و لكنْ لم تكن لها وظائف، فالتسويةُ والنفخُ أَوجدا وظائفَ السمعِ والبصرِ والعقل بلفظ "جعل"، الذي يفيد تغييراً وظيفياً في العضو الموجود وليس إيجاده من عدم.

2- بعد التسوية والنفخ أصبح الإنسانُ قادراً على أن يسمعَ بأذنيه ويري بعينيه ويقلب بقلبه ما خزن مخُّه من علم فيعقل الأمور، فسُمِّي إنساناً عاقلاً.

3- لمَّا كانت خصائصُ السَّمْعِ والبصرِ والعقلِ خصائصَ مضافةً للأعضاء التشريحية، فهي قابلة أن تزول فيصبح الإنسان ضالاً. من هذا نفترضُ أنَّ زوالَ هذه الخواص يجعلُ من وجود مكوناتِ المُخِّ من الآذان التي لا يسمع بها، و الأعين التي لا يبصر بها، والقلب الذي لا يعقل به، شبيهةً بحال البشر قبل العقل.

4- شبَّه الله - تعالى- هذا الوضعَ بحال الأنعام التي لها آذانٌ لا تسمع بها و أعين لا تبصر بها وقلوب لا تفقه بها، فهل في ذلك إيحاءٌ بأنَّ الوضعَ التشريحيَّ لآذان الأنعام و أعينها و مخِّها و قلبِها - الآن- يشابه حالَ هذه الأعضاء في البشر قبل النفخ؟! هذا الوضع توحي به قراءةُ نفس الآية بعد إزالة الخواص الوظيفية، حيث يتبقي لنا بعد إزالة الخواص: **لهم قلوبٌ ولهم أعينٌ و لهم آذانٌ كالأنعام** ...سؤالٌ لا نجيب عنه، وإنَّما نطرحُهُ للأجيال القادمة لتبحث فيه.

هنا لا بُدَّ من إيرادِ سؤالٍ منطقيٍّ يطرحُ نفسَه بعد أن كشفنا آذان الأنعام، وهو التناقض الظاهري بين كونِ الأنعام تُسمَّى بنص القرآن "هَدْياً"، وتُعَدُّ آيةً من آيات الله - تعالى- و شعيرةً من شعائره المحرمة من الزوال، و بين هذه الآية التي اختارت من دون مخلوقاتِ الله الأنعامَ؛ لتجعلَ ضلالها مثالاً لضلال الغافلين. إذ كيف يُنزل الله - تعالى- للناس آيةً

يسميها الْهَدْي، ثمَّ يضربُ بها مثلاً لا شبيه له في الضلال؟ ممَّا لا شك فيه أنَّ هذه المقارنة لا تحدث عبثاً أو سهواً في القرآن، و إنَّما تكشف سراً آخرَ خطيراً جداً من أسرار آذان الأنعام.

كثيرٌ من الناس يطلق كلمةَ "بهيمة" على كلِّ الحَيَوانات ظنَّاً منهم أنَّها صفةُ غباءٍ تشتركُ فيها كلُّ الحيوانات غيرِ العاقلة، ولكنَّنا ـ بحمد الله وبفضل لغة الغراب- أوضحنا أنَّ كلمةَ بهيمةٍ كانت من ألفاظ الإنسان الأول، وتعني الغموض وليس الغباء، وهذا لا ينفي عنها الغباء بالطبع، و لكنَّ لفظة بهيمة تعني الغموض فقط.

المعروف عن الأنعام أنَّها مخلوقاتٌ وديعةٌ خاضعةٌ للإنسان، بل مذللةٌ له بنصِّ القرآن ﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ "72 يس". والمعروف عن الأنعام أنَّها من الغباء بحيث إنَّها لا تربط بين الأسبابِ والمسبباتِ إلا فيما يخصُّ غرائزَ الجوع والعطش عندها، بدليل أنَّها تظلُّ هادئة ساذجة والجزارُ أمامها يحمل السكين لذبحها؛ لأنَّ الله خلقها بهذه الفطرة الخاضعة تماماً للإنسان. و ممَّا يدللُ على عدم قدرة الأنعام على الربط بين الأسباب والمسببات، أنَّ الإنسانَ ـ وعبر تاريخه الطويل في التعامل مع مخلوقات الأرض- قد نجح في ترويض الكثيرِ جدا من الحيوانات، حتى المتوحشة منها؛ ليخلقَ معها عَلاقةً فيها قدرٌ من الذكاء، مثل: الكلاب والقطط، والخيل والأسود، والنمور والفيلة، التي تؤدي ألعاباً معقدة في السيرك وغيرها، بل وحتى الثعابين و الدلفين في البحر الذي يُروض ليتعلمَ كيف يلاعب الأطفالَ والكبار، و لكنَّ الماعز والخراف والبقر والإبل لا تؤدي إلا وظائفَها التي فُطرت عليها. هذا السلوك يدللُ على أنَّ آذانَ الأنعام وأعينَها ومخَّها وقلوبَها محدودةُ الوظيفة لدرجةٍ تستحقُ الوصفَ بأنَّها صماءُ وبكماءُ رغم أنَّ لها آذاناً وأعيناً وقلوبا. و لمَّا كان اللهُ قد قارن وظيفياً بين آذانِ الأنعام أعينِها و قلوبِها من ناحية، و الإنسانِ في حالة الضلال مِن ناحيةٍ أخرى، فإنَّ في هذا إشارةً إلى أنَّ هناك تشابهاً ما بين مكونات العقل (مخ وقلب) في الأنعام من دون بقية المخلوقات، وما يقابلها في البشر قبل أن يصبحَ عاقلاً و يجعلَ اللهُ له خواصَّ السمع والبصر والعقل بأن سوّاه ونفخ فيه. بالإضافة إلى أنَّ الله جمع بين الإنسان والأنعام فقط في أنَّهما خُلقا بيد الله كما رأينا، فإذا كانت يد الله قد تدخلت مباشرةً لتعدِّل من مُخِّ الإنسان وتمنحه العقل، فإنَّ يد الله هي التي جعلت من الأنعام مخلوقاتٍ ذليلةً لا تتطور ولا تفهم؛ حتى يتمَّ التكامل بين عقلِ الإنسانِ المتطورِ على مرِّ الزمن ومُخِّها الذي حُرِم التطورَ مهما طال الزمن. هذه الحقيقةُ العلميةُ تنفي نفياً قاطعاً أنَّ الأنعام ـ أصلاً- من مخلوقات الأرض؛ لأنَّها لو كانت منها لكانت قد تطورت بحكم معاشرتها للإنسان، و لتعلمتْ مع السنين كيف تحمي نفسَها من قاتلها الأول. إذنْ فالعَلاقةُ عَلاقة تكاملٍ متوازٍ وليست علاقة تطورٍ مشابهٍ لتطور بقية مخلوقات الأرض، وهذا التكاملُ ـ ربَّما- يكون هو موضعُ الحكمة من استعمال يد الله في خلق الإنسان والأنعام فقط. لا أحدَ يستطيع ـ بالطبع- أن يثبت أنَّ هذا هو مدلولُ هذه الآيات، ولكنَّه ليس من حقِّ أحدٍ أن ينفيَ أنَّ هذا ليس مدلولها. هي آياتٌ تلمح بسرٍّ و تدعو الإنسانَ لتدبُّرٍ عميقٍ، و تستجدِي علماءَ البيطرة والطبيعة والأحياء لإجراءِ بحوثٍ في هذا المجال، قبل أن يكتشفَ علماءُ غيرُ مسلمين حقيقةً مذهلةً تجمع بين مكونات عقل الأنعام والإنسان؛ فنأتي ونهلل أنَّها مذكورة في القرآن.

في إطار بحثنا في هذا الأمر وقفنا كثيراً على ألفاظ "الفؤاد" و "العقل" و "الألباب" و "الروح" و "النفس" ، و لكنَّ كتابَنا لم يتسع إلا لمناقشة الروح والنفس كما أسلفنا. نسأل الله أن ييسرَ لنا نشرَ بحثٍ آخرَ ـ قريباً بإذن الله- ندرسُ فيه أسرارَ الموت والحياة في القرآن، والتي ترتبط بالمدلولات العميقة لهذه الألفاظ.

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ في الْمَهْدِ وَكَهْلًا:

كما كان خلقُ الأنعام غامضاً ونزولُها إلى الأرض أشدَّ غموضاً، فإنَّ الله - سبحانه وتعالى- شاء أن يكونَ المخلوقُ الأولُ الذي نَجَحَ الإنسانُ في نسخِ الحياة فيه، هو إحدى هذه الأنعام متمثلة في الخروف "دولي" الذي وُلد في المختبر بعد نسخه من أمِّه سنة 1996 في اسكتلندا وعاش ستَ سنوات. و على الرَّغم من أنَّ العلماءَ -عادةً- ما يُجرون التجارِبَ المختبرية على الفئران والأرانب وغيرهما من الحيوانات إلا أنَّ نسخَ أول حياة كان من نصيب الأنعام. ما أثار الدهشة في تلك التجْرِبةِ التي أثارت جدلاً خُلقياً و دينياً واسعاً، وأدخلت الرعبَ في كثير من الأنفس، أنَّها ألقت كثيراً من الضَوء على نواتج نسخ الحياة من مخلوقٍ موجودٍ أصلا، الشيء الذي ربَّما يقدِّم تفسيرًا لآيةٍ في كتاب الله ظلت موضعَ خلاف منذ أن نزلت قبل أربعةَ عشرَ قرناً.

نُسِخَ الخروفُ "دُولّي" من خلايا أمِّه، وذلك بتعريض البويضة إلى صعقات كهربائيةٍ محسوبةٍ إلى أن بدأت في الانقسام تماماً كما يحدث حينما تُلَقَّح بحيوان منوي. بعد حملٍ ظاهرُه طبيعي، وُلد الخروفُ "دولي" بكثير من الأمراض، و لكنَّ من أغرب ما أصابه أنَّه أُصيب بروماتزم المفاصل في عمر صغير جداً، وهو مرضٌ من أمراض الشيخوخة في البهائم كما هو الحال عند الإنسان. وقد اكتشف العلماءُ أنَّ "دُولّي" ظهرت عليه كلُّ أعراض الشيخوخة التي كانت قد أصابت أمَّه، و كأنَّ عمره الفسيولوجي والوظيفي قد نُسخ من عُمُرِ أمِّه أيضاً. بمعنىً آخرَ: وُلد المخلوقُ المنسوخُ في سنٍّ مساويةٍ لسنِّ الأمِّ التي نُسِخ منها، ومات بأمراض الشيخوخة رغم أنَّ عُمُرَه كان ستَ سنوات، و لكنَّه كان في حالة جسديةٍ مشابهةٍ لحالةِ أمِّه التي كانت في الخامسةَ عشرةَ من عُمُرِها.

هذه الحقيقةُ المثيرةُ التي ليس لها مثيلٌ حتى الآن لتأكيدها، دفعتنا للتدبُّر في معجزة المسيح في أنَّه:

﴿ .. إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ... ﴿١٧١﴾ ﴾

" 171 النساء".

رأينا في باب {في وادي المزدلفة} أنَّ **كلمة** الله تعني أنَّها آيةٌ من آيات الله خارقةٌ لنظام الخلق المألوف. و رأينا أيضاً أنَّ من معاني "لقي" هو التساوي والتوافي بين شيئين أو شخصين، كأنْ نقولَ - مثلاً-: "يلتقي النيلان الأبيض والأزرق في الخرطوم". فإذا كان المسيحُ آيةً أو **كلمةً** من الله، أي خُلِقَ خارجَ نظام الخلق المألوف، وهذا أمرٌ متفقٌ عليه، فكيف: **أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ؟** هل يشير لفظ "ألقاها" إلى تلاقي أي تساوي بين مريمَ وابنِها في أمرٍ ما كجزءٍ من الآية الإعجازية نفسِها؟ هذا الافتراضُ ربَّما يشرحُ هذه الآيةَ التي حيَّرت الناسَ طَوال القرون:

﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ " 46 آل عمران".

فقد وُلد المسيحُ - عليه السلام- من أمٍّ فقط كما هو معلوم، وقد كانت مريمُ -عليها السلام- في الثامنةَ عشرةَ من عُمُرها حينما أنجبته، وقد كلَّم المسيحُ الناسَ في مهده مدافعًا عن أمِّه الطاهرة، ممَّا كان إعجازاً ربانياً ينطبقُ مع الجزء الأول من نصِّ الآية أعلاه. إلا أنَّ المسيحَ - عليه السلام- تلقَّى الإنجيلَ في الثلاثين من عُمُره، ثمَّ رُفع في الثالثة والثلاثين وهو في عُنْفوان الشباب. هنا أصبحَ الجزءُ الأخيرُ من الآية مصدرَ إشكالٍ للمفسرين، إذ إنَّ المسيحَ لم يكلِّم

الناس كهلاً كما تنبأت الآية. وقد حاول الكثيرُ من المفسرين تأويلَ ذلك بأنَّ كلامَه - كهلاً- سيكون حينما يعودُ إلى الأرض. هذا التأويل لكلمة "كهل" والتي تخلط في مضمونها بين قوة الشباب والنضج في الحياة، والتي عادةً ما تشيرُ إلى الرجل في سنِّ آخر الأربعينات، ليس إلا اجتهاداً لملءِ فراغٍ في تـأويل الآية، غيرَ أنَّه لا تسنده أدلةٌ قرآنيةٌ أو من السنة، إذ إنَّه لا أحدَ يدري في أيِّ سنٍّ سينزل المسيح - عليه السلام- . ونظنُّ من ناحيةٍ منطقيةٍ أنَّ المسيح - عليه السلام- سينزل في ذاتِ العُمُرِ الذي رُفع فيه؛ ليكملَ رسالتَه من حيثُ توقفت، ولكنْ ليس هناك منطقٌ يجعله ينزل وعمره فقط ثمانية عشره سنة أكبر ممَّا رُفع. بيد أنَّ الآية تشير إلى معجزتين نظنُّ أنَّ تحقيقهما كان من ضمن معجزات المسيح التي تحققت جميعاً في حياته في الأرض، ممَّا يجعلُ كلامَه للناس - كهلاً- قد تحقق كما تحقق كلامُه في المهد قبل أن يُرفع، رغم أنَّه رُفع سنوات قبل سنِّ الكهولة. هذا بالإضافة إلى أنَّ كلام أيِّ رضيع في المهد يكونُ معجزةً بلا شك، و لكنَّ كلامَ الكهل ليس فيه إعجاز، اللَّهم إلا إذا كان مفهومُ الكهولةِ هنا فيه غموضٌ أرادنا الله أن نتدبَّرَه، حتى تكون الآيةُ معجزةً موقوتةً تكتسب قيمة جديدة حينما يستطيعُ الإنسانُ فهمها.

ما أثبتته عمليةُ نَسْخِ الأنعام - التي ذكرنا سابقاً- من أنَّ المخلوقَ المنسوخَ يولد في سنٍّ مساويةٍ أو "**ملاقية**" لسنِّ أمِّه التي نُسخ منها ربَّما يفسِّرُ تلك المعجزة. بمعنى أنَّ المسيح - عليه السلام- وُلد وكلَّم الناسَ في المهد كما علِمنا، فكانت تلك معجزةً لقومه؛ لأنَّهم بطبيعة البشر يظنون أنَّ كلَّ مَن كان في "المهد" يكون صبياً، ولكن إذا أمعنَّا في ألفاظ الآيات :

﴿ فَأَشَارَتۡ إِلَيۡهِۖ قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ "29 مريم"

فسنلاحظُ أنَّ هذا كان لفظهم و لكنَّ اللهَ وصفه فقط بأنَّه "وَيُكَلِّمُ النَّاسَ في الْمَهْدِ وَكَهْلا"، ولم يصفْهُ حينها "بالصبا" كما وصف يحيى عليه السلام بأنَّه آتاه الحكم صبيا:﴿ ... وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ ﴾ " 12 مريم".

فالمسيح - إذنْ- كان في "المهد" وهو فراشُ الطفل، ولكنْ لمَّا كانت خلاياه تحمل سنَّ أمِّه، فإنَّه حينما وُلد فقد كان في سنٍ **تتلاقى** مع سنِّ أمِّه وهو الثامنة عشرة؛ لذلك فقد كلَّم الناس في "المهد"، و لكنَّه لم يكن في مهده صبياً كما ظنَّ قوم مريم، إذ إنَّ اللهَ قد حذف وصف المسيح بالصبي الذي أثبته في وصف يحيى عليه السلام. و بعد ثلاثين سنةً من مولده كلّم الناسَ بالإنجيل، ولكنَّه كان حقيقة **كهلاً** في الثامنة والأربعين من حيثُ عُمُر الخلايا التي خُلق منها، وهو العمر الذي **يلاقي** عُمرَ مريمَ حينها. و يكون القرآن بذلك قد طرح معجزةً خفية أخرى، ما كان لنا أن نكتشفها إلا بفضل السرِّ في آذان الأنعام الآن. نحن نعلم أنَّ الخوضَ في هذه الحقيقةِ العلميةِ المرعبةِ لكثيرٍ من الناس ربَّما يكون سابقاً لأوانه، و لكنَّ العلوم تبدأ بفِكَرٍ وافتراضات، ورأينا أن نطرح افتراضاً علمياً جديداً يدفع الناس للتدبُّر في آذان الأنعام.

تـعداد آبـاء الإنـسانـية:

من الملاحظات اللافتة للنظر في آية نزول الأنعام أنَّ الله حدَّد باللفظ عددَ الأنعام التي نزلت :{وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ}، من غير أن يوضِّح في أيِّ موضعٍ لماذا كانت ثمانية ولم تكن سبعة أزواج أو تسعة مثلاً، ولماذا حدَّد الرقم؟ إذ كان من الممكن أن يشير إلى أنَّه أنزل الأنعام من غير تحديد للعدد، إلا إذا كان في هذا الرقم حكمةٌ تفيد الإنسان في زمن من الأزمان. ما يزيد الأمرَ غرابةً أنَّ القرآن يستعمل الأرقامَ الفرديةَ للإشارات الرمزية وللمبالغة في التعبير، و أنَّ السنة ارتبطت بالأرقام الفردية في كثير من أوجهها، و ما تحديدُ عدد أزواج الأنعام بثمانية إلا استثناءٌ نادرٌ.

إذا افترضنا أنَّ الأنعام حينما نزلت كان لها قيمةٌ غذائيةٌ وتعبُّديَّةٌ، فإنَّ العدد الذي نزل لا بُدَّ وأن يكون مكافئاً من حيثُ الفائدةُ وإحداثُ الاكتفاء العادل بين كلِّ مجموعة آدمَ الأولى، رغم وجودِ فرق كبير بين أحجام الأنعام و فوائدها باختلاف أنواعها. و لكنَّ السنةَ جاءت لتعطيَ كلاًّ من الأنعام قيمةً رقميةً تعبديةً في منسك الحَجِّ حينما يجب على الحَاج "**هدي**"؛ ممَّا يزيد سرَّ عددِ الأنعام التي نزلت غرابة. ففي غزوة الحديبية عندما اضطر المسلمون للرجوع قبل دخول مكةَ أمَرَهم الرسولُ - صلى الله عليه و سلم- أن يتحللوا من إحرامهم ويذبحوا الهدي كفارة لذلك، حينها جعل النبي قيمةً لكلِّ بهيمة تُذبح، وهي أنَّ الناقة تكفي لسبعة أشخاص. وقد ذَبح الصحابةُ مائتي ناقة لأنَّ عددَهم كان ألفاً وأربعمائة حَسْبَ أشهر الروايات. وقد ذهب الفقهاء إلى أنَّ البقرة تكفي لسبعةٍ أيضاً، رغم أنَّ العرب لم تكن ترعى الأبقار كثيراً لطبيعة الصحراء. و ذهبوا إلى أنَّ الشاة و الخروف يكفي كلٌّ منهما لشخص واحد في الهَدي. بالطبع فإنَّ العَلاقة هنا ليست علاقةَ كَمَّ ولكنَّها علاقة كيف، إذ إنَّ الناقة - ربَّما- تطعم مائة، والخروف يمكن أن يطعم عشرين، ولكن جعلت السُّنة قيمةَ الناقة سبعة والخروف واحداً لحكمةٍ يعلمها اللهُ وحدَه.

فإذا أعطينا لكلٍّ من أزواج الأنعام قيمتَه الرقميةَ في عدد الذين يَجزي عنهم في الهدي، فربَّما نستنتجُ أنَّ عددَ الذين أنزلت لهم ثمانية الأزواج مساوٍ لذلك العدد. بمعنىً آخرَ فالأنعامُ التي نزلت كانت اثنين من الإبل واثنين من البقر واثنين من الضأن واثنين من الماعز، فلو تمَّ توزيع هذا العدد للحجيج ليؤدّوا به ما عليهم من هَدْي لكفت الإبل أربعةَ عشرَ، والبقر أربعةَ عشرَ، والخراف اثنين، والمعز اثنين، ليكون المجموعُ اثنين وثلاثين شخصاً فقط يمكن أن تجزي عنهم أزواجُ الأنعام الثمانية التي نزلت بنصِّ القرآن. فهل يكون هذا هو عددَ المجموعة التي نفخ اللهُ فيها من روحه وسكنت عرفاتٍ وهبطت لتسكنَ البيتَ العتيقَ أولَ مرة، ثمَّ لم يَعُد الحَجُّ في كلِّ مناسكه إلا تمثيلاً لأحداث أيامهم الأولى؟ الله وحده أعلم، ولكنَّ السرَّ في عدد الأنعام التي نزلت يظلُّ مجال بحثٍ وتدبُّرٍ.

لمَّا عرضنا رأينا على أهل العلم ذُهلنا من أنَّ علماء هندسة الجينات قد وصلوا إلى أنَّ هذا العدد هو العددُ الأدنى الذي يمكن أن يبدأ به مجتمعٌ إنسانيٌّ معافىً. فالمعروف أنَّ التزاوج من الأقرباء يؤدي إلى تراكم الجينات، و ظهور الأمراض الوراثية في الذرية، وقد نصح الرسول - صلى الله عليه و سلم- بزواج الغرباء، بقوله: "اغتربوا تصحوا". ففي البحوث التي نُشرت على "الإنترنت"، أشار العلماءُ إلى أنَّ أصغرَ عددٍ يمكنه أن يحافظ على تكاثرٍ معافىً للجنس الإنساني، لا بُدَّ أن يبدأ بتزاوج أبناءِ مجموعةٍ بين خمسةٍ وعشرين إلى ستةٍ وثلاثين زوجاً؛ حتى **تستقرَّ** الصفاتُ الحسنةُ و تطغى على الصفات **المستودعة** غيرِ المرغوب فيها في الأجِنَّة. وقد سُمِّي هذا الرقم بـ "رقم دنبار" نسبة للعالم البريطاني " روبين دنبار" الذي توصل إليه (Dunbar Number)، و بناءً عليه فإنَّ العلماءَ يفترضون أنَّ

الجنسَ البشريَّ لا بُدَّ وقد ابتدأ بعد التطور من مجموعةٍ تقع بين الرقمين، و إلَّا لكان الإنسانُ العاقلُ قد انقرض منذ آلاف السنين، ويمكن مراجعةُ بحوثِ "دنبار" تحت اسمه على الشبكة العنكبوتية.

لو صحَّ هذا الافتراضُ فإنَّ هذا العدد، أي اثنين وثلاثين زوجًا، لا بُدَّ وقد عانى تزاحماً في البيت العتيق الذي - ربَّما- يتسعُ لمثل هذا العدد بصعوبةٍ شديدة، ممَّا يجعل حالهم فيه **بُكىً** كما سنرى في باب "سدرة المنتهى".

إنَّ آذان الأنعام بهذا المعنى لَهو أولُ آذان يَصدحُ في الأرض بوجود خالقِ السماوات والأرض، ولمَّا كان آذانُ الأنعام قد صَدَحَ مُكبِّراً الله في كلِّ الناس حينها، قبل أن يجعل اللهُ منهم شعوباً وقبائلَ، فقد صدح بلغةٍ يفهمُها الإنسانُ الأولُ، ويفهمُها كلُّ الناس مهما اختلفت لغاتُهم ومستوياتُ علمهم على مرِّ الزمان. و آذان الأنعام هو الآذان الوحيد الذي يتحدى العقلَ قبل العاطفة والروح، ويخاطب المسلمَ والكافرَ، وينادي بوجود الخالق في أرقى المحافل العلمية، ولكنَّ المسلمين في نومهم يعمهون.

يَوْمُ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ

من كلِّ ما سبق يمكنُنا أن نرى بُعداً جديداً في مفهوم "يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ" في هذه الآية:

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُواْ فِى ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٍ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِى ٱلۡكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡ ۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـًٔا وَلَمۡ يُظَـٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾ " 1-4التوبة".

جملةٌ تهتزُ لها القلوبُ، وتقفُ العقولُ حائرةً أمامها. فما جعله اللهُ أذاناً سيظلُّ صدى صوتِه يتردَّدُ في أطراف الكون إلى يوم القيامة، وما جعله اللهُ كبيراً فهو- بلا شك- كبير، وما جعلهُ اللهُ "الأكبر" فمن المؤكَّد أنَّه "الأكبر". ولكنْ، كيف يكون يومٌ يمكن تجاوزُه عند الضرورة من غير أن يفسد الحج – حسب معظم المذاهب الإسلامية – الأكبرَ في أيام الحج؟ أوَلم يكن الأجدر أن يُوصفَ يومُ عرفة بأنَّه يومُ الحج الأكبر؛ لأنَّ من فاته عرفة فلا حَجَّ له؟

موضوعُ الآيات باختصارٍ شديدٍ - حَسْبَ ما ورد في كتب التفسير- هو وضعُ نهايةٍ لمعاهدةٍ كانت بين المسلمين وبعض قبائل المشركين قبل الفتح. فالآياتُ الأولى والثانية والرابعة تدورُ في هذا الإطار، مع اختلافاتٍ بين المفسرين في تحديد تلك القبائل، وتفاصيل نهاية المعاهدة، وبراءة الله ورسوله منهم. وهذا ليس موضوعَ بحثنا.

أمَّا الآية الثالثة فقد اشتملت على موضوعٍ أوسعَ يتجاوز ذلك الظرفَ الزمانيَّ والمكانيَّ؛ ليرسخَ قاعدةً دائمةً في عَلاقة الإنسان بربِّه ما دام الإنسان في الأرض. و لكنْ لأنَّ الألفاظ تشابهت، فقد طغى فهمُ الآيات التي ارتبطت بظرفٍ زمانيٍّ ومكانيٍّ محددٍ على الآية الثالثة، التي بقيت كأنَّها تحمل سراً ينتظر يوماً ينتبه فيه الإنسانُ إليه، لتكونَ الآية شاهداً على أنَّ هذا القرآنَ ما كان أن يُفترى من دون الله.

إذا أمعنَّا النظر في الآية الأولى والرابعة، فسنلاحظ أنَّ المشركين هنا قد تمَّ تحديدُهم: (الذين عاهدتم من المشركين) كما في الآية الأولى و(الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقضوا عهدتهم...) في الآية الرابعة.

إذنْ فهاتان الآيتان تشرِّعان لعَلاقةٍ مع فئتين محددتين من المشركين.و كذلك فإنَّ البراءة المحكومة بالزمان هذه كانت الى:" الذين عاهدتم من المشركين..."

لكنَّ الآية الثالثة اختلفت اختلافاتٍ جذريةً، وإنْ تشابهت بعضُ الألفاظ لتغطي على المعنى الذي ما كان يحتاجُ المسلمون في ذلك الزمان حتى للانتباه إليه، تمامًا كاختفاء مفهوم "نزول الأنعام" وسط أجزاءٍ أخرى من الآية استرعت الانتباهَ أكثر، فظلَّ سرُّ نزول الأزواج الثمانية من الأنعام إلى يوم أراد الله له أن يظهرَ وكأنَّه وحيٌ جديد. قبل أن نناقشَ آية "يوم الحَجِّ الأكبر" هذه يستحسنُ أن نستخلصَ منها أسئلة:

السؤال الأول:

ابتدأت الآية بإطلاق "أذان" وليس فقط إعلان براءة.

أذانُ - كما ناقشنا كثيرًا- هي نداء وإخبار داوٍ يُقصدُ منه إيصالُ الخبر إلى أبعد مسافة ممكنة، فالمستمعُ للأذان - عادةً- غيرُ محدَّد. و عليه، لماذا كانت هذه البراءة الثانية أذاناً؟

السؤال الثاني:

المقصودُ بالأذان هنا هم "الناس" بصورة مطلقة وليس المشركين، بَلْهَ الحديث عن فئة محددة زماناً ومكاناً منهم. ولفظُ الناس - كما ناقشنا كثيراً- يأتي في القرآن حينما يكون الحكم عامًّا لكلِّ البشر، ويكونُ فيه دعوةٌ لهم للإيمان بالله والانتباه لآياته الكونية وإقامة الحُجَّةِ عليهم. على سبيل المثال لا الحصر نمثل بقوله - تعالى- :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١ ﴾ "1 الحج".

والأمثلةُ كثيرةٌ جداً على أنَّ الخطاب الموجَّه "للناس" حكمٌ عامٌّ، يدعو اللهُ فيه المسلمَ والكافرَ في كلِّ زمان للتدبُّر في محتوى الآية.

السؤال هو: ما مضمونُ هذا الأذان الموجَّه للناس كافة، مسلمِهم و مشركِهم، لا كما كان براءةً فقط من المشركين المذكورين في الآية الأولى والرابعة؟

السؤال الثالث:

هذا الأذانُ الذي تبرَّأُ فيه الله ورسولُه من المشركين لم يخصِّص المشركين - موضوع هذه البراءة- لكنَّه خصَّصَ زمانَ الأذان و مكانَه بـ : يوم الحَجِّ الأكبر:

و نكرِّرُ ما سألنا من قبلُ : كيف يكون يومُ النحر - وهو ما اتفق عليه المفسرون- يومَ الحَجِّ الأكبر، بينما عرفة هو أكبرُ يوم من أيام عبادة الحَجِّ؟

السؤال الرابع:

حينما يخاطبُ اللهُ - تعالى- الناسَ من غير تخصيص فإنَّ الخطاب يأتي منه وحده - رب الناس- لكلِّ الناس، بمن فيهم الرسولُ - صلى الله عليه وسلم- كما في المثال أعلاه، فلماذا شملت هذه البراءةُ المتضمنةُ في هذا الأذان الرسولَ - صلى الله عليه وسلم- ؟ علمًا بأنَّها براءةٌ من المشركين من غير تخصيص زمانٍ أو مكانٍ، وهي ماضية إلى ما بعد موت النبيِّ إلى يوم القيامة؟

سلامةُ الأسئلة و منطقيتُها - دائمًا- هي المدخلُ السليمُ للبحث عن الإجابة. إذ إنَّه لا إجابةَ من غير سؤال، وليس هناك بحثٌ علميٌّ أو فكريٌّ في العالم يقومُ من غير سؤال؛ لذلك فإنَّ التدبر في منطقية هذه الأسئلة هو مِفتاحُ الإجابة.

نعيدُ النظرَ في مكونات الآية التي أفرزت الأسئلة:

أذان:إخبارٌ عامٌّ من الله ورسوله: يفيد أنَّ للرسول - صلى الله عليه وسلم- دورًا في تبليغ ذلك الأذان لكلِّ الناس على امتداد الزمان.

يوم الحَج الأكبر: تسميةٌ غريبةٌ على مناسك الحَجِّ جعلت يومَ النحر أكبرَ من يوم عرفة. فهل يمكن أن تبدأ الإجابةُ من هنا؟

إذا عدنا إلى آيةٍ شبيهةٍ - فالقرآنُ يفسِّرُ بعضُه بعضًا - فسنمسكُ بطرفَي الخيط للإجابة:

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ ﴾

"27الحج".

أوَّلْنا هذه الآيةَ بأنَّ الأذانَ بالحَجِّ ليس دعوةً لكلِّ الناس، مسلمِهم وكافرِهم، لأداء عبادة الحج، وإنَّما لفظ الحَجِّ هنا من الحُجَّة والمحاججة وإقامةُ الدليل الدامغ على كلِّ الناس. وكان هذا مدخلَ تأويلنا إلى أنَّ الحَجَّ عبادةٌ للمسلمين لكنَّه يمثل حُجَّة على كلِّ الناس.

فإذا أعدنا ذات النظرة وفهمنا أنَّ لفظ الحَجِّ هنا يأتي بمدلوله اللغوي وهو القصد وأيضاً إقامة الدليل والحُجَّة، فإنَّ "يوم الحج الأكبر" لن يكن اليومَ الأكبرَ؛ لأنَّ هذا أصلاً لا ينطبق على يوم النحر، وإنَّما هو يوم الحُجَّة الكبرى التي أقامها الله على كلِّ الإنسانية، كما في قوله ـ تعالى- :

﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ

عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ ﴾ " 83 الأنعام".

بمعنى آخر:

يوم عرفة هو "اليوم الأكبر" في أيام ركن الحَجِّ، ومن فاته عرفة فقد فاته الحَجُّ. لكنْ لمَّا كان الوقوف بعرفة منسكاً يخصُّ المسلمين الذين يجبُ عليهم ركنُ الحَجِّ ويسمح لهم زيارة مكة أصلاً، فإنَّ يوم عرفة - على كبره- يخصُّ المسلمين وليس الناس.

لكنَّ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ- وهو يوم النحر- يحتوي على أحداث تقيم حُجَّة الله الكبرى على كلِّ الناس وتضع حداً منطقياً وعلمياً فاصلاً بين التوحيد والشرك الذي لا يبرئ الله وحده من المشركين، وإنَّما يبرئ الله ورسوله الذي علمنا كيف نؤدي مناسكنا في ذلك اليوم من الشرك إلى يوم القيامة.

فما يحدث في يوم الْحَجِّ الْأكبرِ "يوم النحر" ولا يحدث في اليوم الأكبر في أيام عبادة الحَجِّ "عرفة"، يمكن أن يكون أذاناً للناس جميعاً من سنن سنها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم- ، وليست مذكورة بالتفصيل في القرآن، فيها إقامة الحُجَّة على كلِّ الإنسانية، وفيها حُجَّة دامغة كبرى على كلِّ المشركين إلى يوم القيامة.

يوم عرفة:

في تأويلنا لأسرار الحَجِّ في نظرية آذان الأنعام قلنا: إنَّ عرفة هي موقعُ الجنة التي آوى إليها آدم " العنصر المتغير"، وفيها تمت معصية الشجرة، وفيها تمت توبة الله على الإنسان. هذه الأحداث تهمُّ المسلمين ولا يمكنُ لا تصديقُها ولا الاستفادة منها من ناحية تعبُّدية إلا بعد قبول الإسلام، وهى بذلك لا تقيم حُجَّة على غير المسلم؛ لأنَّها تعكس تاريخاً نصدقه من مصدره - القرآن و السنَّة- الذي نؤمن به أصلاً، و لن يصدق ذلك التاريخ من لا يؤمن بهذين المصدرين؛ لذلك فيوم عرفة هو أكبرُ أيام الحَجِّ عند المسلمين فقط، ولا حُجَّة فيه تقام على على غير المسلم.

يوم الْحَجِّ الْأَكْبَرِ:

حَسْبَ تأويلنا في نظرية آذان الأنعام، فإنَّ يوم النحر يمثل العودة إلى مِنى لأداء مناسكَ مختلفةٍ تمثلُ أحداثاً وقعت في حياة الإنسان الأول. تلك الأحداثُ قابلةٌ للبحث العلمي وتصلح - حين إثباتها- لإقامة أكبرِ حُجَّةٍ على البشرية جمعاء بأنَّ للكون خالقاً وأنَّ هذا الخالق واحد. ولذا فإنَّ أحداث هذا اليوم تمثلُ الحُجَّة الكبرى على المشركين، وتعلن "أذان" البراءة الفاصلة من الشرك بصورةٍ مطلقة. تلك الأحداثُ باختصار هي:

* مِنى كانت أولَ بقعة خرجت من تحت الماء عندما اكتمل خلقُ الأرض.

* منى كانت أولَ بقعة خرجت فيها الحياةُ من الماء.

* في منى تطورت الحياة وتشعبت ومنها انتشرت إلى باقي الأرض، فخرجت كلُّ أزواج الأحياء في الأرض.

* حولها تطور البشرُ إلى إنسان قابل لِأنْ يتغيرَ إلى إنسان عاقل.

* في مِنى جمع اللهُ فصيلاً من البشر الملائم للتغيير "آدم"، ونفخ فيهم من روحه فكان الإنسان العاقل.

* فيها علَّم اللهُ تلك المجموعة - آدم - الأسماءَ كلَّها .

* فيها سخرت قوانين الكون لعقل آدم .

* فيها رفض إبليسُ أن يدخل في ذلك التسخير لعقل الإنسان.

* فيها نزلت ثمانية الأزواج من الأنعام؛ لتكونَ شاهداً على تطوُّرِ غيرها من الخلق في الأرض، وشاهداً على وحدانية خالق الأزواج كلِّها.

*فيها توعد الشيطان ليأمرنهم فليبتكنَّ آذان الأنعام، ويجعل منها مصدرًا للشرك.

وقلنا: إنَّ تجمع الحجيج في مِنى في يوم التروية، الثامن من ذي الحجة، يرمز إلى بَدء الخلق و إلى جمع البشر قبل العقل للنفخ، ومن ثَمَّ التكليف بعد العقل. من هناك أمرهم الله ليسكنوا الجنة، ثمَّ هبطوا منها ليقضوا ليلتهم الأولى في المزدلفة حيث أمرهم اللهُ أن يجمعوا حصى منزلاً من المصابيح التي جعلها رجوماً للشياطين؛ لدفعِ شيطان الجنِّ بها يوم النحر – يوم الْحَجِّ الْأَكبرِ- في زمان ما كان لآدمَ فيه عزم بعد.

يعودُ الحجيج إليها ليعيدوا ذكرى علو كلمة الله وسلطان خليفته على كلمة الشيطان الذي توعد ههنا ليأمرنهم فليبتكنَّ آذان الأنعام.

ولأنَّ قصة التطور كان يمكن أن تكون مصدراً للإلحاد، وقد كان، ولأنَّ نزول الأنعام كان أيضاً مصدراً للشرك، و ما زال، فإنَّ سلوك الحجيج ههنا تأكيدٌ على قصة الخلق والتطور، وعلى نزول الأنعام من خالق الأزواج كلِّها، الأمر الذي يثبت أنَّ الخلق لم يكن عشوائياً، وأنَّ التطور لم يكن تلقائياً، وإنَّما كان تصميماً من خالق السماوات والأرض، وأنَّ خالق كلِّ الأزواج في الأرض هو خالقُ الأنعام و منزلها. إنَّ ما يجري ههنا في يوم النحر فيه براءةٌ من الله الواحد الأحد، وبراءةٌ من رسوله الذي وصف سنن الحَجِّ، و إقامة أكبر حُجَّة على الناس إلى يوم القيامة.

ولأنَّ مجموع هذه الأحداث كلها يمثلُ تمثيلاً دقيقاً أحداث الخلق والتطور كما كانت منذ بَدء الخلق، فإنَّنا نفهم أنَّ قولَ النبيِّ - صلى الله عليه وسلم - تأكيدٌ لهذا المفهوم:

(إنَّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض).

بأسلوب أبسط: "يوم الحج الأكبر" يسلطُ الضَوءَ على أمرين يمكنُ البحث فيهما؛ ليكونَ الحُجَّةَ الكبرى على البشرية:

1- الأنعام: طبيعة خلقها وحقيقة اختلافها مع مخلوقات الأرض. وهذا أمرٌ أفرد القرآنُ فيه جوانبَ كثيرةً للبحث تحدَّى بها الإنسان.

2- حجارة المزدلفة: هذه الحجارة جمرات منزلة من المصابيح التي ترجم الشياطين. (مسألة بحث علمي).

إذنْ فأذان يوم الحَجِّ الأكبرِ هو تحدٍ للعقل البشري بوقائعَ كونيةٍ تثبتُ وجود الله ووحدانيته، وبالتالي يطلق براءة مطلقة من الله ورسوله عن الشرك والمشركين متى و أينما كانوا.

خاطر أخير ربَّما يطرأ:

لماذا ورد اللفظ هنا كـ "أذان" مفرد، بينما توعد إبليس أن يبتكن "آذان" الأنعام، والتي قلنا سابقاً إنَّها لفظ فريدٌ يجمع لفظ "أذان"؟

الإجابة بسيطة: الأمرُ عند الله كلُّه مفرد:

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ " 28لقمان".

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ "يس29 ".

مهما تعددت تفاصيلُ الخلق أو الكوارث، فكلُّها عند الله فعل (كُن) أو حدث واحد.

أمَّا في نظر المخلوقات فكلُّ حدث له مقوماته؛ لذلك كان عزم إبليس أن يجعلهم يضلوا بكلّ مقومات الأنعام، وكأنَّ كلَّ من أسرارها أذان مستقل: (نزول الأنعام أذان – طبيعة خلقها أذان – إثباتها للأصل المشترك لبقية الخلق أذان وهكذا.) والله أعلم.

2- النعـــاج الحُـــمَّل:

في كتابِ اللهِ آياتٌ تجعلُ القارئَ يبكي رقةً وعطفاً، وفيه آياتٌ تجعلُ القارئَ يرتعشُ خوفاً، وفيه آياتٌ تثير الدهشةَ لِمَا تحويه من علومٍ وحقائقَ كونيةٍ، وفيه آياتٌ تجعلُ ضعافَ النفوس يغالبون الضحك؛ لِمَا فيها من غرابةٍ في اللغةِ والمحتوى الذي غالباً ما يكون بعيداً جداً عن خيال الإنسان مثل آية {فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ }، التي أصبح - الآنَ- لها معنىً مذهلٌ لقومٍ يتفكرون. وحتى نفهمَ ما نرمي إليه بـ { النعاج الحُمَّل} لا بُدَّ لنا من عودةٍ إلى مجموعةِ آدمَ في عيد الإنسانية؛ لنرى كيف تعاملوا مع بهيمةِ الأنعام، و كيف أمَرَهم الشيطانُ أن يبتِّكوا آذانها أولَ مرة.

من الطبيعي جداً أن نفترض أنَّ تلك المجموعةَ من البشر كانت لا تتعاملُ مع الحَيَوانات إلا في حالةِ صيدٍ وافتراس؛ لأنَّ كلَّ الحيوانات ما عدا الأنعامَ لا يمكنُ ترويضُها بسهولة. و من الطبيعي - إذنْ- أنَّ البشرَ قبل التطوُّرِ لم يكن يدري كيف تتكاثرُ هذه الحيوانات، إذ إنَّه كان يصطادُ الحيواناتِ المتوحشةَ ولا يقتربُ منها إلَّا و هي ميتة. و لقد رأينا كيف استدرجهم إبليسُ للاقتراب من شجرةِ الخُلد بأنْ أبهَرَهم باكتشاف الفوارق بين الذكر والأنثى، بتفاصيلَ كثيرةٍ ذكرناها في "جنة المأوى" حتى نَسِي آدمُ تحذيرَ ربِّه فغوى. من المنطقي - إذنْ- أنَّ أولَ تجارِبِهم مع رعاية البهائم، كان فيها من الاكتشافات المذهلة ما يجعلهم ينزلقون مرةً أخرى ويسقطون في حبائل الشيطان.

عمليةُ الحمل عمليةٌ مثيرةٌ للفضول لمن يعاصرُ أنثى في شهورِ تطورِ حملها، و لكنَّ عمليةَ الولادة تجْرِبةٌ مدهشةٌ لِمَن يراها لأول مرة. بالتأكيد فإنَّ مَن يرى نعجةً تضع صغارَها واحداً تلوَ الآخر، أو يرى ناقةً تصارع المخاضَ فيخرج من رحمها عددٌ من صغار الإبل، سيصابُ بذهولٍ من هذه العملية البيولوجية التي لا تتاح مشاهدتُها للكثيرين في زماننا فضلاً عن الإنسان الأول، الذي - أصلاً- كان حائراً في شأن هذا المخلوق الأليف **المبهم** الذي نزل له.

صرَّح القرآنُ أنَّ الله ﴿ .... وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ .... ﴿٦﴾ ﴾ ، و فَصَّل في الآيات التي سنناقشها أنَّ تلك الثمانية كانت اثنين من كلٍّ من الإبل والبقر والضأن والماعز. من المنطقي جداً أنَّ اللهَ أمَرَهم أن يذبحوها بالتدريج بادئاً بالذكور قبل الإناث، وما ذلك إلا لأنَّ الإناث هي التي تحملُ الأجنَّة، وتُخرِجُ الجيلَ الثاني

وتحافظُ على النوع، وهذا هو سلوكُ الرعاة و المزارعين و كلِّ من يرعى الأنعام إلى اليوم، إذ إنَّ الرعاة يحتفظون بعددٍ قليلٍ جداً من الذكور في كلِّ قطيع للتلقيح، و لكنَّهم يحافظون على الإناث بقدر ما يستطيعون.

فلنفترض أنَّ الله أذِنَ لهم بذبح ذكَرِ الضأن أولاً بعد أن حملت النعجة، ثمَّ بعد أن نَفِدَ طعامُهم أذن لهم بذبح ذكَرِ الماعز، ثمَّ الإبل وأخيراً الثور، حَسْبَ ترتيب ورودها في الآيات التالية. هذا تصرُّفٌ منطقيٌّ لقومٍ يمتلكون في كلِّ هذه الدنيا زوجين فقط من كلِّ نوع. و لكنَّ من المؤكَّد أنَّ الحكمة من هذا التدريج والتمييز بين الذكر والأنثى، كانت غائبةً على مَن كان قبل قليلٍ يشعر بالبهجة في مِهْرجان اكتشاف الفرق بين الذكر والأنثى في نفسِه على يد الشيطان في الجنَّة، وهو الذي تعلَّم جيلُه الثاني من الغراب كيف ينبشُ الأرض.

في مِهْرجان رؤيةِ النعاج والمواعز والنياق والأبقار الحُمَّل وهي تلد صغارَها لأول مرة، ربَّما جاء إبليسُ في شكل رجلٍ حكيم، و ربَّما جلس القرفصاء بين أولئك البسطاء، واستغل ذهولهم من مشاهدة ولادة البهائم، فزلقهم في منعطفٍ جديدٍ، وهو الشركُ هذه المرة كما توحي هذه الآيات:

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ "142-144 الأنعام".

لغةُ هذه الآياتِ توحي بأنَّها تتحدثُ عن قومٍ في غاية البساطة والسذاجة، وهو ما يجعلُها تنطبق على عقلية الإنسان الأول، علماً بأنَّها تتحدثُ بالنصِّ عن ثمانية الأزواج التي نزلت. مضمونها يوحي بأنَّ التباساً قد وقع في حكمةِ تحريم ذبح ذكورها والحفاظ على إناثها وأجنَّتها. و يبدو أنَّ الشيطان في ذلك المِهْرجان قد وسوس إليهم أنَّ الإناثَ و ما في بطون الإناث محرَّمةٌ من باب التقديس؛ لأنَّها ملائكةٌ أو ترتبطُ بالملكوت الأعلى، فضاعت الحكمة من الحفاظ على الإناث وما في بطونها لاستمرارية النوع، فأصبحت من المقدسات، ومِن ثَمَّ فَتح لهم أولَ بابٍ للشرك بهذا المخلوقِ البهيمِ الذي نزل من السماء، وتذللَ لهم وسمح لهم ليحلبوا لبنه من غير خوفٍ، ويذبحوا بعضَه من غير صيد، وها هو الآنَ يخلق حياةً جديدةً مثيرة جداً لنا، فضلاً عمَّا أحدثته لهم.

ومن هنا يمكنُنا أن نفهمَ من أين أتت فكرةُ عبادةِ الإناث:

﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴿١١٧﴾ ﴾ "117 النساء".

﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا ...... ﴿١٩﴾ ﴾ "19 الزخرف".

إذنْ نفهمُ أنَّ الإنسانَ الأول انحرف فألبس الشيطان عليهم حكمةَ نزول الأنعام، و بدل أن يذكروا الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، استأصل الشيطانُ تلك الحكمة من عقولهم، وتحول "آذان الأنعام" إلى أوثان ورجس من الشيطان، عُبِدَ من دون الله بكامل أُذنيه على رأسه.

وقد اختلف المفسرون في تفسير الآياتِ السابقة، وظنوا أنَّها تأنيث للَّات والعُزّى، وما ذلك إلا اجتهادٌ؛ لأنَّ المفسرين القدامى دائمًا يربطون معظمَ آياتِ الشرك بمشركي مكةَ قبل البعثة مباشرة، ولكنَّ الواضحَ من ربط القرآن للحَجِّ بالأنعام والتحذير من الشرك أنَّه، أي الشرك، قديمٌ قِدَم البيت والإنسان والأنعام وحقد الشيطان على الإنسان. و لعلَّ في تحديد العدد بثمانيةٍ في هذه الآيات تأكيداً على أنَّ بداية هذا الشركِ كانت بأولِ ثماني أنعام نزلت للإنسان الأول، آلاف السنين قبل مشركي مكة والبحيرة والسائبة التي ظنَّ المفسرون أنَّ الآياتِ تشير إليها، والله أعلم. الطريفُ في الأمر أنَّ تقديسَ إناث الأبقار مع إهانة الثور، ظلَّ إلى اليوم جزءًا من عقيدة الهندوز كما سنشير إلى ذلك لاحقا.

3- البلاء المبين:

في إطار المتابعة لأحداث الجنة، من المنطقي جدًّا أن نفترض أنَّ الأكل من "شجرة الخلد" قد أدى إلى حمل بعض الإناث من مجموعة آدم، ومن الطبيعي أن تشعر مجموعةُ آدمَ بالخيبة من هذا الحمل الذي ما قاد إلا إلى طردهم من الجنة. هنا نفترض أنَّ الشيطانَ ما كان ليتركَ هذه الفرصةَ لتضيعَ من يده. فبعد أن تسبب في الحمل غيرِ الشرعي، لا بُدَّ وأن يعودَ لينصَحَهم كيف يتخلصون من الأبناء غيرِ المرغوبِ فيهم. و هذا الافتراضُ ليس وهمًا، و لكنَّ الشيطانَ - إلى اليوم وإلى يوم القيامة- هو الذي يستدرجُ الشباب نحو الزنا، فإذا ما وقع الحملُ عاد ليستدرجَهم إلى ما هو أسوأ وهو قتل أبنائهم سفهًا. على أنَّ الشيطانَ - مطلقًا- لا يدعو الإنسانَ إلى ارتكابِ معصيةٍ أو جريمةٍ بصريح اللفظ، وإنَّما يزيِّنُ لهم المعاصيَ فتبدو حلالا، ويزينُ لهم الجرائم فتبدو حقا، ويزين لهم الظلمَ فيبدو عدلا.

لا بُدَّ لنا أن نتذكر - دائمًا- أنَّ الشيطان لا يعلم الغيب؛ ولذلك لم يكن من ضمن وعيده أمام ربِّ العالمين إلا العبث بآذان الأنعام؛ لأنَّه رأى نزولَها و فَهِمَ خطورتَها، وما سوى ذلك سيتركه للظروف وتطوُّرِ الإنسانِ نفسِه.

و كان منطقياً - إذنْ- أن تكون خُطُواتُه متوافقةً مع بساطة الإنسان الأول نفسِه، ولذلك كان قتلُ الأولاد واستئصالُ آذان الأنعام هما أولَ ما يمكن أن ينزلقَ فيهما الإنسانُ فورَ هبوطه إلى الأرض. هذا الافتراضُ يفسِّرُ لنا آياتٍ كثيرةً في القرآن وجد المفسرون صعوبةً في أن يربطوها بعصرٍ محددٍ أو ممارسةٍ في مجتمعٍ معين، ونحن نظنُّ أنَّها تحكي علاقةَ الشيطان بالإنسان عموماً، ولكنَّها ابتدأت مع الإنسان الأول. و لا غرابةَ أيضاً أنَّ هذه الآياتِ أتت في سورة الأنعام بعد الآيةِ التي ناقشناها في بداية باب "قصة التطور" وهي:

﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم

مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ "133 الأنعام".

وقد رأينا أنَّ الإنشاءَ هو الوقوف في المشي بعد أن كان أسلافُ الإنسان يمشون كما تمشي الحيوانات منحنية.

مضت سورة الأنعام تحكي قصة الإنسان مع الأنعام ومع البنين:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ **وَٱلۡأَنۡعَٰمِ** نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا

كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا

يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ **قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ**

لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ

أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ **وَأَنۡعَٰمٌ** حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا **وَأَنۡعَٰمٞ** لَّا يَذۡكُرُونَ

ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ

ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ

وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ **قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ** وَحَرَّمُواْ **مَا رَزَقَهُمُ**

ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ "136-140 الأنعام".

نلاحظ هنا أنَّ الله وصف الأنعام بأنَّها **رزقٌ من الله،** وهذا التعبير ما جاء مرتبطاً بالأنعام إلا حينما وصفها الله بأنَّها بهيمة: ﴿ .... مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ .... ﴿٣٤﴾ ﴾ " 34 الحَج" كما ناقشنا ذلك سابقاً، ممَّا يخلُقُ

رباطاً لفظياً بين ماهيةِ الأنعام التي تتحدث عنها الآيات، وهي البهيمة، والإنسانِ المقصودِ بالشرك وهو الإنسانُ الأولُ

الذي كانت الأنعام في نظره بهيمةً غامضة. ممّا لا شكَّ فيه أنَّ الشرك قديمٌ في الأرض قِدَم الإنسان، وأخذ أشكالاً مختلفةً حَسْبَ تطورِ الشعوبِ والأممِ و ظروفهما؛ ولذلك من الصعوبة أن تُنسَبَ آياتٌ عامة تصفُ حال المشركين إلى أمَّةٍ معينة، إلا إذا كان في الوصف ما يخصِّصُ ذلك الشرك بتلك الأمَّة. والمعروف عن الجزيرة العربية أنَّ الشركَ استمرَّ فيها آلاف السنين بعد إسماعيل - عليه السلام- إلى أن بعث اللهُ خاتمَ الأنبياءِ والمرسلين. وقد اختلفت آراءُ المفسرين في مَن تشيرُ إليه هذه الآيات، وليس غريبًا أن تغلبَ الآراءُ على أنَّها تصف حالَ المشركين قبل البعثة، إلَّا أنَّ هذا ليس ضرورةً و حتما. ما يهم في هذه الآيات أنّها ربطت الشركَ باللهِ وعبادةَ الشيطانِ بعَلاقة الإنسانِ ببهيمةِ الأنعام التي رزقه اللهُ بها، وأنَّها كرَّرت جريمةَ قتل الأبناء مرتين في آيتين مختلفتين. ونحن نظنُّ أنَّ وصفَ قتلِ الأبناء في: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ .... ﴿١٣٧﴾ ﴾ " الانعام 137 " يتوافقُ أكثرَ مع سلوكِ الجيلِ الأول من مجموعة آدم، إذ إنَّ الوصفَ هنا ليس قتلًا بسبب الفاقة والجوع وإنَّما التباس في دينهم، أي أنَّ قتل الأبناءِ أصبح من الدين في فهمهم، وهذا يمكن أن يكون منطقَ الشيطان حينما نَصَحَ مجموعة آدمَ أن يقتلوا أولادَهم تخلصًا من المعصية، وتعبيرًا عن الندم حتى ينالوا رضاءَ ربِّهم. ولعلَّه من المنطقي أن نفترض أنَّ مفهومَ ذبْحِ الأنعام تقربًا إلى الله كان مصدرًا للالتباس، ممَّا جعلهم ينزلقون في نُصْحِ الشيطان بذبح ما هو أغلى من الأنعام وهو أبناؤهم، ظنًّا منهم أنَّ في ذلك عبادةً أسمى، وقربى أعظم، وتوبة خالصة.

ولا يخفى علينا أنَّ في ذكر بهيمةِ الأنعام والشركِ مقترنين بالحج، تذكرةٌ للحجيج بأهم مزايا ما كان حول البيت في غابر الزمان، وهو ما بوَّأه اللهُ لإبراهيمَ حينما أعاد بناءَه والله أعلم، ممَّا يجعلُ من الحَجِّ رحلةً سياحيةً خاصَّةً، تنقُلُ الإنسانَ إلى الزمان الغابر حيث لم يكن حول البيت إلا بهيمة الأنعام، التي أشرك بها الإنسانُ بعد أن ألبس الشيطانُ عليه أمْرَها.

لمَّا كنا قد خلصنا إلى أنَّ الإنسانَ الأولَ انزلق في منزلق الشيطان، وبتك آذان الأنعام، فأشرك بها مُبكرا، كان منطقيًّا جدًّا أن نفهم أنَّ الله - جلَّ وعلا- اصطفى آدمَ -عليه السلام- على ذلك الجيل أو على الجيل الثاني من بعدهم، وبعثه إليهم بوصفه أولَ رسول في الأرض من الجنس البشري.

و لأنَّ الشركَ بالله عند البيت بالأنعام، ثمَّ ذبح الأبناء قربانًا لله، كانا من أكبر المعاصي التي ارتُكبتْ حوله؛ فإنَّه ليس مستغْرَبًا أن يشغرَ هذين الحدثين جزءٌ مهمٌ من رحلةِ إبراهيمَ الاستكشافيةِ لأرض آباء الإنسانية. ومن هنا نظنُّ أنَّ قصةَ الفداء وذبح إسماعيل لم تكن إلا امتدادًا لقصة سابقة، وليست حدثًا مبتورًا في حياة النبيين. ما نودُّ مناقشته هنا هو عَلاقةُ الأنعامِ بقصة الفداء، إذ إنَّنا نظنُّ أنَّ هذه القصةَ قُصِدَ منها تأسيسُ عَلاقةٍ جديدةٍ بين الإنسانِ و ربِّه من ناحية، وبين الإنسانِ والأنعام من ناحية أخرى. ولأنَّ الحدث كان بشعًا فقد رواه الله لنا بصورةٍ من أبلغ الصور التي رسمتها كلماتُ القرآن في أذهان المسلمين، كما رسمتها التوراةُ في أذهان اليهود والنصارى من قبل، وهي رؤيا إبراهيمَ - عليه السلام- وهو يهمُّ بذبح ابنه، و التي ناقشناها سابقًا، ولكنَّنا سننظرُ إليها من زوايا مختلفة هنا.

من أبرز الملاحظات في تلك الآياتِ من سورة الصافات، أنَّ إبراهيمَ لم يقل إنَّه رأى وإنَّما قال: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ...﴿١٠٢﴾ ﴾ " الصافات 102 " وكلمة "أرى" تعني تكرار الرؤيا و استمراريتها، ممَّا يدللُ على أنَّ الله ـ ربَّما- أرى إبراهيمَ كلَّ ما دار حول البيت في الزمان الغابر مرارًا وتكرارًا. و لعلَّ من ضمن ما رأى هو ممارسةَ أولئك البشر لعبادةِ ذبْحِ أبنائهم عند **السعي** وهو قطع حجارة الصفا والمروة، ممَّا جعل إبراهيمَ يظنُّ أنَّها كانت عبادة، وأنَّ تَكرار الرؤيا ليس إلا أمرًا له ليسيرَ على خطاهم. هذا يفسِّرُ لنا البساطةَ التي تمت بها استجابةُ إبراهيمَ و إسماعيلَ للرؤيا، والتي تتناقض ـ ظاهريًّا- مع ما أبرَزَهُ القرآنُ من شخصيةِ إبراهيمَ المجادلِ التي ناقشناها بالتفصيل في باب "ملة إبراهيم" و"المثابة" "والحج". فقد جادل إبراهيمُ بنصِّ القرآنِ والتوراة في قوم لوط، و شفع لهم إلى أن أخبره الله أنَّ قضاءَه قد نفذ فيهم، فكيف به يرضى من غير جدالٍ أو استرحامٍ أو استفهامٍ أن يذبح ابنَه الوحيدَ الذي انتظر مجيئَه طَوال عُمُرِه؟ هذه الاستجابة إمَّا أن توحيَ لنا بأنَّ إبراهيمَ كان معتادًا على قضية ذبح الأبناء تقربًا إلى اللهِ في مجتمعه، وربَّما كان يُعَدُّ نوعًا من الشهادة في سبيل الله، فيقبل الآباءُ عليه بثباتٍ و جَلَدٍ، و يستسلمُ الأبناءُ له راجين عند ربِّهم حياةً أفضلَ من حياتهم، و إمَّا أن توحيَ بأنَّه كان يعلم أنَّ ما يقومُ به ليس إلا تمثيلًا لأمرٍ ما، و أنَّ اللهَ سينقذ ابنَه من الموت.

كلماتُ القرآن توحي بأنَّ استجابة إبراهيم كانت سريعة، و أنَّ قدر الله في الفداء كان سريعًا أيضا، على غير ما صوَّرت الإسرائيلياتُ من أنَّ إبراهيم ظلَّ يُمرِّرُ السكينة على عنق إسماعيل مرارًا قبل أن يتمَّ الفداء:

﴿ فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾" الصافات 103– 105".

نلاحظ هنا أنَّ الله ناداه فورَ استلقاء إسماعيلَ على الأرض؛ لأنَّ الحدثَ قد عُطف على ما قبله بحرف "الواو"، الذي ربما يفيد وقوع المعطوف والمعطوف عليه في نفس اللحظة. هذا يدعونا للتدبُّرِ في أنَّ الحدث عند الله لم يكن إلا تمثيليةً تصويريةً تشابهُ ذبْحَ الأبناء، غيرَ أنَّه لم يكن فيه شروعٌ في الذبح؛ لأنَّ الرؤيا قُصِدَ منها البلاءُ وليس الابتلاء.

و عليه، فالحكمةُ من وراء التقليد و التمثيلية كما أراد اللهُ ـ تعالى- لها أن تكون لم تكن عبادة، إذ إنَّ الله ما جعل قتلَ الأبناء عبادة، ولكنَّه قصد أن تكون تصويرًا لحدثٍ بليغٍ يمحو هذه الجريمةَ من أذهان الناس و قلوبهم تمامًا. فلما صدَّقَ إبراهيمُ الرؤيا أي نفذها كما رآها وهو لا يدري ـ بالطبع- كيف ستكون النهاية، تحققت الحكمةُ من التمثيل؛ ففدى الله إسماعيلَ فورًا بذبحٍ عظيم يحل محلَ ذبح الابن في التقرب إلى الله، و وصف استجابة إبراهيم بـ {إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ}، أي النهاية الواضحة التي ترسخ في أذهان الناس تلك المعصية في قتل الأبناء. **فالبلاء** هنا هو النهايةُ والزوال كما في قوله: ﴿ ..... قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ " 120 طه"

أي لا يزول. وقد صدق الله العظيم، إذ إنَّ اليهودَ والنصارى والمسلمين جميعًا يعرفون قصة الذبح والفداء هذه، لا

لشيءٍ إلا لأنَّها تمت بمشاهدَ قصصيةٍ تصويريةٍ تعلق بالأذهان حتى للذين لا يؤمنون بمضمون الكتب السماوية، فكانت بلاءً مبينًا حقًا أي محوًا بليغًا لفِريَةِ التقرب إلى الله بذبح الأبناء. ونحن نظنُّ أنَّ بشاعة الصورة التي تتركها التمثيلية في أذهانِ مَن لم يعتادوا على ذبح أبنائهم، قد أدت إلى أن يخلط الناس بين البلاء والابتلاء. فضلاً عن أنَّ الآياتِ التي تصف "الابتلاء" تنتهي بما يدلُّ على شدةِ المعاناة، كقول الله:

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾ "11 الأحزاب".

وحتى حينما يرد البلاءُ بمعنى الابتلاء وشدة المعاناة نجدُهُ يصفه بـ العظيم: ﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ "141الأعراف"، و لكنَّ هذه الآية انتهت بـ: ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ " الصافات 106 "، **والمبين** تفيدُ الوضوحَ الذي لا يخفى على أحد، وكأنَّ الحكمة منها ليس الابتلاء، وإنَّما المحو الواضح لتلك البدعة، وقد كان. ومضت الآية تصفُ إبراهيمَ بالإحسان لا بالصبرِ كما يتوقعُ القارئُ من تجربةٍ مرعبةٍ كهذه: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ " 110 الصافات". و هذا يدللُ على أنَّ إبراهيمَ قد عَبَدَ الله كأنَّه يراه وهو معنى الإحسان، وأدى ما عليه من دورٍ في تمثيلِ ذلك الحدث كما رآه، ولكن لم يكن هناك ذبح ولم يوصف بالابتلاء، ولم يوصف إبراهيمُ بالصبر، والله أعلم.

على أنَّ المتدبِّرَ في الآيات التي وصفت قصة الرؤيا، لا بُدَّ وأن يلاحظ ملاحظةً غريبةً جداً، تزيد من آذان الأنعام غموضاً وروعة:

﴿ **وَفَدَيْنَـٰهُ** بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾:

فدى في اللغة: تعني أن تَجْعَلَ شيئاً مكانَ شيءٍ حمايةً له، وهي غالباً ما تُستعمل لفداء الأسير. مفهوم فداء الأسير يتضمن حقيقةً لا جدالَ حولها، وهي أنَّ الذي يفدي لا يملك أن يحرِّر الأسيرَ إلا باستجابته لشروط الفداء. هذا المعنى يثيرُ تساؤلاً غريباً، إذ إنَّ الله ـ تعالى- هو الذي أرى إبراهيمَ الرؤيا، و إنَّه هو الذي قدَّر لإسماعيلَ أن يتعرض لذلك الموقف، والله لا يحتاجُ أن يحميَ إسماعيل من الذبح بكبش؛ لأنَّه هو الذي أمر بتمثيل الذبْحِ، وهو الذي يمكن أن يُلغيَ الأمر. بمعنىً آخرَ، لمَّا كان كلُّ الأمر من الله، فلماذا لم يقل اللهُ لإبراهيمَ "لقد صدقت الرؤيا فلا تذبحه وينتهي الأمر"؟ وهو الذي عطَّل ناموسَ الكون وأمَرَ النَّارَ أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم من غير فداء. لنفهم هذا التعبير الغريب، لا بُدَّ أن نقومَ بترتيب كلِّ قصةِ إبراهيمَ مع البيت ترتيباً منطقياً، يشرحُ كلَّ التعابير التي استعصى فهمُها منفردة. فقد

بدأت القصة بـ : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ....﴿١٢٤﴾ ﴾ " 124البقرة"، وكان ذلك بأن

كَشَفَ اللهُ له قصةَ الجبلين زمناً قبل مجيئه إلى البيت، فاستنتج إبراهيمُ بقية القصة. تبع ذلك:﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ

مَكَانَ ٱلْبَيْتِ .... ﴿٢٦﴾ ﴾ "26 الحج"، أي قصَّ عليه كلَّ الأحداث كما هي من غير تحديدِ ما يُباح وما لا يُباح.

تبع ذلك أن أمَرَه أن يؤسِسَ لعبادة الحج التي تروي قصةَ الإنسان الأول ﴿ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ .... ﴿٢٧﴾ ﴾

"27 الحج"، ولمَّا كان تمثيلُ الحَجِّ يشتملُ فقط على الحقائق المباح تمثيلُها، فقد تمَّ استثناءً التطوفُ بين الصفا والمروة بلفظ لا "جناح": ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن

يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ......﴿١٥٨﴾ ﴾ "158 البقرة" إشارةً إلى أنَّ هناك جُناحاً و إثماً فيما حدث من شركٍ وقتلٍ للأبناء

في هذا الموقع؛ و لذلك كثَّرَ اللهُ من التحذير من الشرك. و لمَّا كانت فِرْيَة قتلِ الأبناء جزءاً أساسياً من تمثيليةِ الحَجِّ أراد الله لها أن تُمثَّل، فقد أراها لإبراهيمَ في ذاتِ الموقع كما هي: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى

ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ .... ﴿١٠٢﴾ ﴾ "102 الصافات"، ممَّا يوحي بأنَّ الإنسان الأول ربط بين التطوفِ بين قطع حجارة

الصفا والمروة "السعي" الذي كان عبادتَه الأولى، وبين ذبحِ أبنائه توبةً إلى الله في ذات الموقع في عصر القرابين. و لمَّا اقتضت ضرورةُ تمثيل كلِّ أحداث حياة الإنسان الأول، بما في ذلك تمثيل ذبْح الأبناء حيثما حَدَثَ وكيفما حدث، ولكنْ مع استحالة ذبح إسماعيل، فقد استعملَ لفظ {وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ} إشارةً إلى أنَّ هذا الدورَ وحدَه يستدعي أنَّ يقوم به اللاعبُ الحقيقيُّ الذي كان يجبُ أن يذبح في القصة الأصلية، ليضعَ الأنعام في وضعها الطبيعي الذي كان يجب أن يكون، و يفدي أبناءَ المسلمين من بعد إسماعيلَ من أن يُذبحوا، وفي ذات الوقت تكتمل القصةُ تمثيلاً حرفياً، و يكون الحَجُّ حُجَّة على الإنسانية جمعاء. أي أنَّ ضرورة تمثيل الدور هي التي اقتضت استعمال لفظ الفداء، و ليس ذلك لأنَّ اللهَ لم يكن قادراً على إنقاذه من غير فداء، بل لأنَّ التمثيلية اقتضت أن يُذبحَ أحدٌ هنا فكان الفداء وذبح الكبش، واستقام المعنى منطقاً و لغةً وعقيدةً.

و هكذا فإنَّ قصة ذبح الكبش التي تمت عند البيت فداءً لإسماعيل، أصدرتْ حكمَ الله المبين في جريمة ذبح الأبناء، و أعادت وضعَ الأنعام إلى الوضع الطبيعي الذي كان يجب أن يكون، وهي أنَّها منزلةٌ من الله لمصلحةِ الإنسان في أكله ومشربه وملبسه وترحاله وليست للعبادة، وأنَّها آيةٌ من آيات الله وآذانٌ منه للناس؛ ليذَكَّروا حكمة الله في خلقها الغامض، وحكمتَه في إنزالِ مخلوقٍ من السماء يسكن البيوت،و يحمل من الأسرار ما نتركه للأجيال القادمة للبحث

فيه. فضلاً عن أنَّ القصة أكملتْ لنا مذكراتِ الإنسانِ الأولِ كما كانت، من غير الوقوع في ما كان فيه جُناح في عصر القرابين.

4. العجل الذهبي و البقرة الصفراء:

إنَّ " آذانَ الأنعام" الذي ربطه اللهُ - تعالى- بالبيت العتيق أعظمُ من أن يكتشف الإنسانُ كلَّ أسراره في زمن واحد، بل هو آذانٌ يظلُّ يصدحُ بوجود الله وقدرته في الخلق حتى بين الذين لا يؤمنون به، وما هذه الآيةُ إلا دليلٌ على ذلك:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ " 66 النحل".

تحدَّث المختصون في "الإعجاز العلمي في القرآن" كثيراً عن أسرار ألبان الأنعام وكيفية خلقها. و المعروف أنَّ أشهرَ فوائدِ الأنعام اليومَ هي ألبانُها التي لا يخلو بيتٌ من بيوت سكان الغابات أو القصور منها و من منتجاتها من جبنٍ وسمنٍ وغيرهما، و كأنَّ آذانَ الأنعام صادحٌ في كلِّ مكان، ولكنَّ الشيطانَ نجح في أن يُغفلَ الناسَ عنه و عن التدبُّرِ في خلقه و خالقه. و ممَّا لا يتفكَّرُ الناسُ فيه أنَّ الإنسانَ لا يشربُ إلا ألبانَ الأنعام، رغم أنَّ كلَّ الثدييات تطعم صغارَها من ألبانها من حميرٍ وحُصُنٍ وقِردة وخنازير، و لكنَّ ألبانَ الأنعام بقيتْ دليلاً على أهمية آذانها، الذي ألبسه الشيطانُ على الناس طَوال القرون من بعد آدم. و رغم أنَّ الاكتشافاتِ العلميةَ الحديثةَ قد لفتت الأنظار للحكمة من آية الألبان هذه، إلَّا أنَّ الناسَ ما زالوا أبعدَ ما يكونون عن التدبُّر في حقيقة هذه المخلوقات السماوية على الأرض. الغريب في الأمر أنَّ هذه المجموعةَ التي تحمل اسماً واحداً هو "الأنعام" لا تربط بينها صلةٌ بيولوجية، إذ إنَّها لا تنتمي لفصيلٍ واحدٍ من الحيوانات كفصيل القط -مثلاً- الذي ينتمي إليه القط والفهد والنمر والأسد. هذه المجموعةُ لا يربط بينها إلا أنَّها خُلقت ممَّا عملت يدُ الله، وأُنزلت لتكون مستعبدةً ومسخرةً للإنسان، يُطعمها ويَطْعَم منها ويذبحها ويأكلها، وفوق ذلك كلِّه فهي آيةٌ كبرى من آيات الله و لكنَّها غامضة.

و اجتهاداتُ الشيطان في أن يبتِّكَ آذانَ الأنعام أخذت أشكالاً مختلفةً على مرِّ العصور، ومن أشهرها قصةُ العجل الذي عبده بنو إسرائيل في عهد هارونَ، ثمَّ البقرة الصفراء الغامضة التي أحيا اللهُ ببعضها الموتى وجَعَلَ منها اسماً لأطولِ سورةٍ في القرآن. و حتى نفهمَ تلك القصةَ لا بُدَّ لنا أن ننظرَ في عجالةٍ إلى **ألوان** بني إسرائيل عبر العصور إلى عهد موسى و هارون.

اجتمعت أولُ أسرةٍ من بني إسرائيل في مصرَ في عهد يوسف الصديق - عليه السلام- . و كان يوسف هو ابن إسرائيل الحادي عشر، و إسرائيلُ هو نبيُّ الله يعقوبُ بنُ إسحاق بنِ إبراهيمَ -عليهم السلام جميعا-. إذنْ، فيوسفُ الصدِّيقُ كان نبياً ابنَ نبي ابن نبي ابن نبي الله وأبي الأنبياء إبراهيم. لمَّا ألقاه إخوتُه في غَيابة الجب والتقطه بعضُ السيّارة شروه بثمنٍ بخس في مصر، واشتراه عزيزُ مصرَ ليتخذه ولداً، فنشأ يوسفُ الصدِّيقُ في قصر الملك، وكان ما كان من قصته المشهورة إلى أن ورث الملكَ، وحمل أبويه على العرش وخروا له سجداً. وهكذا سكن إسرائيلُ - عليه

السلام- وبنوه مصرَ، ويوسف ملكٌ عليها، بعد أن ورث الملك ممَّن تبناه. بعد موت يوسفَ انتقل الملك إلى الفراعنة من جديد، و ظلَّ توالد بني إسرائيلَ في مصرَ ضيوفاً على أهلها.

و لأسبابٍ كثيرةٍ ليست موضعَ بحثٍ في هذا الكتاب، اضطهدهم الفراعنةُ وانحدروا إلى مستوىً أشبهَ بالاستعباد، إلى أن بعث اللهُ موسى في عهد رمسيس الثاني كما يظنُّ المؤرخون، بعد حَوالَي أربعةِ قرون من عهد يوسفَ -عليه السلام-، و كان فرعونُ يعلَمُ أنَّ بني إسرائيلَ لهم أسرارٌ عَقَدِيَّة ترهبه؛ لأنَّه يؤمن أنَّ نبوءاتِهم تكون حقيقة، ممَّا يسوِّغُ سعيَهُ إلى قتْلِ كلِّ الأولاد في زمان ميلادِ موسى عندما علم من بني إسرائيل أنَّه سيُنهي ملكَه؛ لذلك ابتدع فرعونُ **الختان الفرعوني** للنساء حتى لا تلد أيُّ امرأةٍ من بني إسرائيل إلا بعلم عيونِه، فيُقتل المولود لو كان ولدًا ذكَرًا، و لكنَّ اللهَ حفظ موسى الذي أسقط عرش فرعون و نجا ببني إسرائيلَ إلى سيناء.

ما نلاحظه من قصة موسى في القرآن، أنَّه لمَّا كُلِّف بالرسالة أرسله اللهُ إلى فرعونَ أولًا قبل أن يعيدَ تربيةَ بني إسرائيل و تعليمَهم أصولَ دينِهم. و قد كان هؤلاءِ قد انحدروا في جاهليةٍ اختلط فيها ما توارثوه من آبائهم الأنبياء مع تأويلاتهم وأساطيرهم و ربَّما أساطير الفراعنة، فأصبح كلُّ شيءٍ عندهم له أصلٌ من الصحة و كثير من اللَّبْس والجهل. ولكنَّ دعوة موسى ابتدأت أولًا بإسقاط عرش فرعون، وإخراجِ بني إسرائيل إلى سيناء. عندها فقط ذهب موسى - عليه السلام- للقاء ربِّه، وهو اللقاءُ الذي أُعطِيَ فيه التوراةَ مكتوبةً على الألواح.

في طريقهم في سيناء كشف بنو إسرائيل عن قابليتهم للشرك في وجود موسى:

﴿ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ "138 الأعراف".

استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارونَ، وعلى الرغم من ذلك فقد وقعت قصة العجل التي يصْعُبُ على الكثيرين فهمُها، و التي نسوقُ أولاً آياتِها من القرآن:

﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا **فَكَذَٰلِكَ** أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ **فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ** ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ

إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ **قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى** ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

" 86-98 طه".

احتوت كتب التفسير على متاهاتٍ فكريةٍ وعَقَدِيَّةٍ ولُغوية لا حصر لها في تفسير هذه الآيات وآيات البقرة الصفراء، ممَّا يؤكد غموضَها وعدمَ وجودِ تفسير قطعي لها من الرسول - صلى الله عليه و سلم- . و تجاوزت الخلافاتُ الخلافَ في المضمون إلى خلافٍ في إعراب الكلمات وحتى في قراءة بعضِها، إذ قرأ بعضُ الأئمة {فَقَبَضْتُ قَبْضَةً} بـ { فقبصت قبصة } وعنى "خطفت خطفة" سريعة. وبدل نقل تلك الخلافات هنا، ننصح بالاطِّلاع على كلِّ التفاسير للوقوف عليها.

أمَّا ملخصُ القصة من تلك التفاسير فهو: أنَّ بني إسرائيلَ حملوا معهم جواهرَ الفراعنة و زينتَهم، فلمَّا وصلوا إلى سيناء حرَّمها عليهم هارونُ و حَفَرَ حفرةً ليحرقها فيها. وكان السامريُّ من عظماء بني إسرائيل الذين نجَوا مِن قتلِ فرعونَ بعد أن وضعته أمُّه في كهف، و كان جبريلُ يطعمه عسلاً ولبناً إلى أن كبر حَسْبَ التفاسير، فرأى في صباه مِن جبريلَ ما رأى، وأصبح بمقدوره التعرف إليه. ولكنَّ السامريَّ كان فاجراً و أراد أن يعبث بعقيدة القوم؛ لأنَّه ما كان يريد اتباعَ موسى كعادة عظماءِ بني إسرائيل وتمرُّدِهم على الأنبياء. فلمَّا كانَ ما كان من أمر الحُلي والذهب الذي انصهر في الحفرة لمَّا ألقاه هارونُ فيها، قام السامريُّ بخلق إلهٍ في شكل عجلٍ ذهبي، و كان السامريُّ قد رأى جبريلَ

على جواده في البحر حينما انشق، فسوَّلت له نفسُه أن يأخذ من أثر حافره تراباً لِمَا يظنُّ أنَّه يمكنُ أن يكون فيه سرٌ، فلمَّا خَلَقَ العجلَ الذهبيَّ ألقى عليه الترابَ راجياً أن يكون عجلاً كما سوَّلت له نفسُه، فكان فتنةً من الله، وأصبح عجلاً ذهبياً له خوار، فقال لبني إسرائيل: إنَّ هذا هو إلهُ موسى لكنَّه نسي أن يأخذه معه، فخر بنو إسرائيلَ له ساجدين كما تشيرُ الآياتُ رغم محاولاتِ هارونَ أن يثنيهم عن شركهم.

هذا تلخيصٌ لِمَا ورد في التفاسير من أمر هذه القصة، ونحن نظنُّ أنَّ معظمَ هذه الروايات من تأويلات الإسرائيليات، إذ إنَّ القصة أعمقُ بكثيرٍ من هذه الآراء التي لا ترتبط منطقياً ببعضها، فضلاً عن أنَّ سرَّ "آذان الأنعام" سرٌّ غامضٌ يجب أن نعطيَه حقَّه من التدبُّرِ، بالذات في قصةٍ كهذه يرويها لنا القرآنُ ارتبطت بعودة عبادة البقرة.

وقبل أن نجتهد في فهم هذه القصة الغريبة، هناك أسئلةٌ مشروعةٌ لا بُدَّ من طرحها، وهي: لماذا ينحدرُ اليهودُ، وهم ذرية الأنبياء والمرسلين، في عبادةٍ وثنيةٍ في ظلِّ وجودِ نبيَين من أعظم أنبيائهم؟ ولماذا أخذت تلك الوثنية شكلَ عبادةِ "العجل"، وليس الأسد أو الفيل أو تلك الحيوانات ذات الهيبة والرهبة، أو الأصنام الضخمة المهيبة التي اكتظت بها مصر آنذاك؟ وكيف نجح القومُ في استضعاف نبيِّ الله هارونَ، الذي عَجَزَ عن ردهم عن عبادة "العجل" إلى أن رَجَعَ إليهم موسى؟ لنستطيعَ الإجابة عن هذه الأسئلة لا بُدَّ أن ننسى قليلاً روابطَ "الود" التي تربطنا ببني عمِّنا، ونتدبَّرَ الحدثَ تدبُّراً عقلانيًّا بعيدًا عن العواطف والاستخفاف.

هناك مفاتيحُ لا بُدَّ للباحث المتدبِّرِ أن يستعملَها في فكِّ طلاسم أيَّة رواية تاريخية، إذ إنَّ الشعوبَ والأمم لها خصوصياتٌ تختلف في العصر الواحد، وتختلفُ عبر العصور من جراء تطور تفكير الإنسان وإمكانياته العقلية والمادية. بنو إسرائيل كانت لهم خصائصُ تميِّزُهم، أهمُّها: الاحتفاظُ بآثار الأنبياء والرسل، ومذكراتهم، وصحفهم، لدى الكهنة الذين يستنبطون منها ما شاءوا في سنين لاحقة. هذه الخصوصيةُ يؤكِّدُها أمران في القرآن: أولهما أنَّ موسى - عليه السلام- نفسَه تسلَّم التوراةَ من الله مكتوبةً على الألواح:

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ " 145 الأعراف".

أي أنَّ التوراة لم تكن وحيًا يُوحَى كالقرآن الذي نزل بلسان حال العرب الذين كان من خصوصياتهم قرضُ الشعر وحفظُه، و إنَّما نزلت كتاباً مكتوباً؛ لأنَّ ذلك كان خصوصية بني إسرائيل. والأمر الثاني هو قصة التابوت الذي فيه بقية ممَّا ترك آلُ هارون تحمله الملائكة، والذي أُعيد إلى بني إسرائيل كآية ملك طالوت الذي حكم اليهود قبل داودَ - عليه السلام- كما ورد في سورة البقرة:

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ ﴾ " 248البقرة".

هذان الدليلان يؤكِّدان أنَّ بني إسرائيل اعتادوا الاحتفاظَ بأسرار الأنبياء والرسل و آثارهم مكتوبةً. و لعلَّ بني إسرائيل كانوا قد ورثوا بعضاً من صحفِ إبراهيمَ كما يدللُ عليه قول الله - تعالى-، رابطاً صحفَ إبراهيمَ و موسى معًا:

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ " 18-19الأعلى".

وقد اشتملت سورة الأعلى في بدايتها على ذكْرِ الخلق والمرعى من ضمن ما أشار الله إلى أنَّه في صحفِ إبراهيمَ وموسى باختصار شديد:

﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ "1-5 الأعلى".

والمعروف أنَّ بني إسماعيل انقطعت صلتُهم باللهِ من بعدِ إسماعيلَ إلى بعثةِ النبيِّ الخاتمِ - صلى الله عليه و سلم- ، و لكنَّ بني إسرائيل توارثوا آثارَ الرسل إلى قرون بعيدة، و لعلَّ ضمن ما ورثوا - حينها- بعضًا من صحف إبراهيم -عليه السلام-. و حتى نُعيدَ فهمَ هذه القصةِ لا بُدَّ من الاستعانة بمعاني ألفاظها:

"**حليهم**": من "حلو"، والحلو هو كلُّ شيءٍ طيبٍ تميلُ إليه النفس. إذنْ، فالحلي تشملُ كلَّ غالٍ ونفيس، وحلي الرعاة تشمل قطعان الماشية.

جسد: تعني تَجَمُّع الشيءِ واشتداده، و من معانيها في المعجم: اليابس والهزيل. وقد وردت في القرآن في عدةِ آياتٍ كلُّها تشيرُ إلى جسدٍ هزيلٍ أو عليل:

﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ﴾ "8 الأنبياء".

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾ " 34 ص".

خوار: من خور، وهي إمَّا صوتُ البقر، و إمَّا تعني الضعف "خائر القوى".

و نحن نظنُّ أنَّ بني إسرائيل لمَّا خرجوا إلى سيناء كانوا قد أخذوا معهم ذَهَبَ الفراعنة و مجوهراتهم "**مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ**" من ضمن ما أخذوا، و هذا ما حرَّمه عليهم هارونُ حينها. و لكنَّ الوصفَ القرآنيَّ يبيَّنُ أنَّ السامريَّ أخرج العجلَ "**مِنْ حُلِيِّهِمْ**" وليس من زينة القوم، وهذا ما كرَّره القرآنُ في موقعٍ آخرَ:

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ " 148 الأعراف".

نقف هنا على كلمة خوار: إذا افترضنا أنَّ المقصودَ في الآية أنَّه عجلٌ له "صوت العجل"، فإنَّ السياق يصبح غريباً؛ لأنَّ كلَّ العجول لها خُوار وليس لها نباحٌ أو صهيل مثلاً. ما يزيد الأمرَ غرابةً أنَّ هذا العجلَ وُصف بـ {..أَلا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلا} و {لا يُكَلِّمُهُمْ}، فهل هنالك عجلٌ - أصلاً- يكلمُ الناس ويرجع لهم قولاً، أي يحاورهم؟ وهل إذا تكلم "ذلك" العجل بطلاقةِ هدهدِ سليمانَ فسيستوفي صفاتِ الإله ، أم أنَّ الله يوحي إلينا هنا أنَّ "ذلك" العجل كان أبكمَ ؟!

هذا الافتراضُ يدفعنا للتدبُّر في المعنى الثاني لكلمة خُوار: وهو أنَّه خائرُ القوى. على ضَوء هذا الافتراض يمكنُ أن نفهم "لا يُكَلِّمُهُمْ" بأنَّها تعني أنَّ العجلَ كان خائرَ القوى، ولا يستطيع الاستجابةَ لسيِّدِه بالتذلل المعروف في الأنعام التي تطلق أصواتها تعبيراً عن الاستجابة، وهذا أيضاً يشرحُ لنا المقصودَ من كلمة "جسد"، إذ إنَّها تعني أنّه هزيلٌ وعليل. فإذا جمعنا كلَّ تلك الصفات فسنفهم من أين أتى به السامريُّ:

"جسد": هزيل ... "له خوار": ضعيف وخائر القوى ... "لا يكلمهم": أبكم. هذه الصفاتُ تجعل منه عجلاً بخساً قليلَ القيمة، وهذا يجلّي لنا حقيقةَ أنَّ السامريَّ إنَّما أخرجه من قطعانهم {فَأَخْرَجَ لَهُمْ} {مِنْ حُلِيِّهِمْ}، وليس من زينة القوم (الذهب)، إذ إنَّ حليهم هنا تعني ثروتهم، واليهود لن يُخرجوا من ثروتهم إلا أبخسَ الأشياء و أقلها ثمناً "عجل أبكم، هزيل، خائر القوى".

إذنْ، فالعجلُ كان حقيقياً وليس ذَهَبًا، لأنَّ القرآنَ - أصلا- ما نصَّ على ذلك، و إنَّما ذلك تأويلُ اليهود في التوراة، و الآية الأخيرة تؤكِّدُ أنَّهم اتخذوه بأنفسهم إلهاً ولم يصنعْهُ لهم السامريُّ. هذه الحقيقة تقودُنا لمحاولةِ فهم دور السامريِّ في انتقاء هذا العجل:

"**أثر الرسول**": نظر السامريُّ في حاجاتِ القوم فوجد صُحُفًا أو آثارًا من الرسول ما كان متاحًا له الاطلاعُ عليها قبل الخروج من مصر، فاطلع عليها على عَجَلٍ، وعرف منها قدراً من قَصصِ الإنسان الأول، و من ضمن ما عرف هو أنَّ الله أنزل الأنعامَ من السماء، وأنَّ الإنسانَ الأولَ عبد "ما في بطون الأنعام"، والعجل هو ابن البقرة، ولذلك استغل رغبةَ قومِه في أن يكونَ لهم إلهٌ وثنٌ، فكان اختيارُه للعجل مرتبطاً بما استوحاه من أثر الرسول، وبالطبعِ من وحي الشيطان و إضلاله له. الرسول هنا ليس جبريل، وأثرُ الرسول ليس أقدام جبريل، وإنَّما الآثارُ التي وجدها في متاع القوم ممَّا توارثوه من الرسل، واحتفظوا به سرّاً طَوال سنواتِهم في مصر.

هذا التفسيرُ أسهلُ فهماً وأكثر منطقاً، إذ إنَّ قصةَ رؤية السامريِّ الفاجرِ لجبريلَ قصةٌ لا يمكن استساغتُها، إذ كيف يمكن ببساطةٍ للسامريِّ - على فجوره- أن يبصِرَ جبريل "الرسول" وهو الروح الأمين، ويأخذ تراباً من تحت أقدامه وسط البحر، ثمَّ يبعث به حياةً في عجل ذهبي؟ علمًا بأنَّ جبريلَ كان يتنزل على النبيِّ - صلى الله عليه و سلم- طَوال رسالته، ولكن لم يَرَهُ الصحابةُ على عدالتهم إلا نادرًا. أغلب الظنِّ أنَّ قصةَ العجل الذهبي كلَّها من نَسْجِ الشيطان، و أنَّ هذا التأويلَ مصدرُه الإسرائيلياتُ التي لا تؤكِّدُها أحاديثُ صحيحةٌ من السنة، وأنَّ تضخيمَهم لقصةِ العجل الذهبي وقدرات السامري الخارقة، ليس إلا إمعاناً في الشرك الذي انطلى على كثيرٍ من المسلمين لغرابةِ القصة.

و لمَّا كانت الأنعامُ -أصلاً- منزلةً من السماء بنصِّ القرآن، فإنَّ حُجةَ السامريِّ التي وجدها في أثر الرسول كانت -بالطبع- أقوى من حُجةِ هارونَ الذي كان ما زال في انتظار نزول التوراة على موسى، وهذا يشرح لنا استضعاف القومِ لهارون:

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ **ٱسۡتَضۡعَفُونِي** وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥٠ ﴾ " 150 الأعراف".

إذنْ فاستضعافُ القوم لهارونَ هنا لم يكن إلا استضعافَ حُجَّة، إذ إنَّ هارونَ كان أفصحَ لساناً من موسى، بل إنَّ موسى نفسَه قد طلب من الله أن يشدَّ عَضُدَهُ به كما ورد ذلك في سورة القصص:

﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ٣٤ ﴾

" 34 القصص".

الاستضعافُ هنا نتج من أنَّ السامريَّ كان معه ما فَهِمَ القومُ أنَّه وحْيٌ من أثر الرسول، أي ما ترك من آثارٍ و وثائقَ وليس أثر أقدامه، فقبلوا حُجَّة السامريِّ واستضعفوا حُجة هارونَ أنَّ "ربهم الرحمن"، التي لم تكن بعد قد رسخت في أذهانهم؛ لأنَّ التوراة ما كانت بعدُ قد نزلت. وما كان من موسى إلا أن قطع العجل وحرقه، ثمَّ نشره في البحر حتى يزولَ تماماً؛ خوفاً عليهم من استمرار الشرك، وهذا ما توحي به "لَنَنْسِفَنَّهُ" أي يزيله من الوجود تماماً، إذ إنَّ "النسف" تعني الإزالة والإخفاء، و ليس النسف بالمتفجرات كما نفهمُها الآن. والمبالغة في إزالته هنا تشابهُ عزمَ عمرَ بنِ الخطاب - رضى الله عنه- حينما اجتث شجرة البيعة خوفاً من أن يتخذها الناس معبداً في المستقبل.

ولعلَّ فى حرْقِ موسى للعجلِ ونسفِه في اليمِّ نسفاً، دليلاً إضافياً على أنَّه لم يكن ذا قيمة. فلو كان عجلاً من ذهب لوزن عشرات الكيلوجرامات و لكان اليهودُ الفقراءُ أولى بقيمته، كما جعل الصحابةُ آلهتَهم الخشبيةَ وقوداً، لكنَّ تخلصه منه يدلُّ على أنَّه كان عجلاً بخساً لا قيمة له تذكر، حياً أو ميتاً.

قصةُ العجل بهذا المعنى تتضحُ لنا أكثرَ حينما نفهم قصة البقرة الصفراء، ولكنَّ ما يهمنا أن نفهمه - إلى الآن- هو صفاتُ العجل الذي أخرجه لهم السامريُّ من القطيع، وكانت حُجَّته قوية في نظرهم أنَّه إله موسى: "عجلٌ أبكم هزيل خائر القوى".

و لأنَّ القصةَ لها عَلاقةٌ مباشرةٌ مع سرِّ إحياء البقرة للموتى، فإنَّنا نطلبُ من القارئ هنا أن يتدبَّر بشدةٍ لفظَ "كذلك" في {**فَكَذَٰلِكَ** أَلْقَى السَّامِرِيُّ} و{**وَكَذَٰلِكَ** سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي}، لأنَّ في هذه التوليفة من الكلمات شفرة مهمة ترتبطُ بتناسخ الأرواح الذي تتداخل فيه الألوان "الفاقعة" مع "الخوار الداوي" كما سنرى قريبًا!

يبدو من تاريخ أولئك القوم أنَّ الشرك كان متمكناً منهم رغم اتِّباعِهم السياسي لموسى، و يبدو أنَّ عقيدتَهم في البقر قد أَدخلتْ في نفوسهم رهبةً وخوفاً من ذبح البقر، إلى أن جاء اليوم الذي أمَرَهم اللهُ فيه أن يذبحوا بقرة، أيَّة بقرة، فوقعت قصة البقرة المشهورة في القرآن. وحتى نستوعبَ تلك القصةَ الغريبةَ التي ما زالت تُدخِلُ رهبةً في نفوس الناس، والتي اختلفت آراءُ المفسرين فيها اختلافاتٍ متباينةً، لا بُدَّ أن نُذَكِّر بأصناف "التعبير النفسي" في القرآن التي أشرنا إليها سابقا: فسورة مريم احتوت على لغةٍ عاطفيةٍ رقيقةٍ تربط شعورَ القارئ مع مريم الأنثى الضعيفة. وسورة التوبة لا تبدأ باسم الله لِمَا فيها من آيات الحرب. و قصة إبراهيم فاضت بألفاظ المحاججة واللفتاتِ التي تستفزُّ العقولَ؛ لأنَّ تلك "ملة إبراهيم"، أمَّا قصة الإنسان الأول فقد اشتملت على الألفاظ الحركية التي تُوحِي بعجز الإنسان المقصود عن كثيرٍ من ملكات التعبير. في قصة البقرة الصفراء كان الأسلوبُ - و بلا شك - هو أسلوبَ السخرية والازدراء من عقول تلك الفئة التي أساءت لبني إسرائيل والنبيين بشركها: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ "15 البقرة"، وهذا ما نحتاج لأنْ نستحضره ونحن نحاولُ فهمَ ألفاظها الغريبة.

مضمونُ القصةِ أنَّ الله أراد أن يستأصل من عقولهم تلك العقيدةَ الفاسدةَ و الرهبةَ من البقر بمشهدٍ تصويريٍّ بليغ، كمشهد ذبح إسماعيل - عليه السلام-، فأمَرَهم أن يذبحوا أيَّة بقرة، إذ إنَّ القصدَ هو الإقدامُ على الذبح وليس هُوِيَّة البقرة. وقبل أن نفكَّ شفرة إحياء الموتى في "**ذلك**" الحوار، يستحسنُ أن نسوق قصة البقرة من التفاسير أولاً:

وردت رواياتٌ مختلفةٌ في تفسير هذه القصة، أشهرُها أنَّ رجلاً من بني إسرائيل قتل قريباً له ليَرِثه، فتستَّر القومُ على القاتل، وطُرِحت الجريمةُ على موسى - عليه السلام- ليحلها، فأمَرَهم أن يذبحوا بقرة، أيَّة بقرة ، فظنَّ القومُ أنَّه يستهزئ بهم من غير أدب أو احترام لنبي الله، وظلوا يحاورونه في صفة تلك البقرة، حتى حدَّدَ لهم مواصفاتٍ تنطبقُ على بقرةٍ واحدةٍ في المدينة فقط، ممَّا اضطرهم لشرائها بضِعْفِ ثمنها ذهباً. وقد اختلفت الرواياتُ في مالكِ تلك البقرة ،فقد قيل: إنَّها لمسكينة كانت عائلَها الوحيدَ، و قيل: إنَّها كانت لغلامٍ يتيمٍ بارٍ بوالدته المُسنَّة فأراد الله أن يكرِمَه بثمنٍ باهظ لبقرته، وقيل: إنَّ البقرة تكلمت معه ذاتَ يوم وأخبرته أن لا يبيعها إلا إلى موسى. و من المؤكَّدِ أنَّ هذه الرواياتِ إسرائيلياتٌ، ولا يخفى على أحد أنَّها زادت من غموض تلك البقرة الأسطورية، خاصة و أنَّه بعد ذبحها أحيا بها اللهُ ميتاً بصورةٍ غامضة، و جَعَلَ منها اسماً لأطول سورة في القرآن.

ممَّا لا شك فيه أنَّ القصد من ذبح البقرة كان لاستئصالِ عقيدتِهم الفاسدةِ، وخوفهم من ذبح الأبقار، وهذا يتضح من كونِ وصفِ البقرة جاء أولاً بصيغةِ النكرة:

﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوٗاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ " البقرة 67"

فنلاحظُ هنا صفاقة هؤلاءِ القوم الذين يصفون اللهَ، في شخص نبيه، أنَّه يسخر منهم لأنَّه يريد أن يخرجَهم من شركهم. و عليه، فلنا أن نفترض أنَّ الله الذي يعلَمُ مرضَ قلوبِهم قد بدأ يستهزئُ بهم حقيقة؛ لأنَّ هذا ما يستحقون:

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ " البقرة 68 "

البكر: التي لم تنجب. **الفرض**: التأثير بالشيء كالحَزِّ. **العوان**: هو الشيء الظاهر الجلي.

نلاحظ هنا أنَّهم يتظاهرون بالغباء، والله يعلمُ أنَّهم مشركون؛ لأنَّهم بصريح اللفظ قالوا لموسى: "ادْعُ لَنَا رَبَّكَ" و كأنَّ ربَّه ليس ربَّهم. ولا شكَّ أنَّ الله يعلم صفاتِ العجل الراسخة في ذاكرتهم و الذي كان مصدرَ شركهم، و لكنَّه ـ تعالى- سخِرَ من تعقيدهم للأمر البسيط، فأجابهم إجابةً أكثرَ تعقيداً، وما ذلك إلا تحقيرٌ لهم. هذه السخريةُ الربَّانيَّةُ تشابهُ قولَ رجلٍ طلب من ابنه أن ينادي حُسَيناً أخاه، فأجاب الابن بوقاحة: "من حسين؟" فرد الأب: { حسين الذي إن كان مستعجلاً مشى على عجلٍ، وإنْ كان جائعاً أكل العجل ... نادِ حسين يا وقح!.} فقد وصف الله البقرة بأنَّها: ليست بكراً، و رغم أنَّها ولدت من قبل لكنَّ ذلك لم يترك أثراً واضحًا على جسدها، وبهذا الوصف فهي بقرة بيِّنةٌ و واضحةٌ فاستجيبوا للأمر بلا وقاحة ... بمعنىً أبسط: الأمرُ أمرٌ من ربِّكم فاذبحوا أيَّة بقرة. و لكنَّهم أصرُّوا على الوقاحة، واستعملوا في سؤالهم هذه المرة كلمةً ذاتَ أكثر من معنى، فأجابهم الله إجابةً ذاتَ معانٍ وألوان، جعلتْ منهم مسخرةً على مر العصور، في أغربِ حوارٍ في القرآن:

﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ " البقرة 69 ".

لون: المراد الألوان من أحمر و أخضر ... و لكنَّها تعني أيضاً "سنحة وهيئة وحالة"، و من هذا المعنى يقولُ أهلُنا في الشام والخليج: {إيش لونك، وتعني كيف حالك} وهذا استعمال عربي صحيح لكلمة لون. السؤال عن "اللون" هنا يشابهُ وقاحة بعضهم في مناداة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم- بـ {راعنا} التي تعني "ارعَ حقوقنا"، ولكنَّها تعني أيضًا "أحمق"، وقد زجرهم الله عليها في القرآن. إذنْ، فقد ازدادوا هنا وقاحة بالسؤال عن "لونها". و قبل أن نتدبَّرَ كلماتِ السخرية الإلهية في الرد عليهم، لا بُدَّ أن نتدبَّر كيف يُدْخِلُ **اللونُ الأصفرُ** السرورَ في أعين الناظرين. فقد استعمل اللهُ اللون الأصفر في هذه المعاني:

أولاً- هو لونُ المجاعة وهلاك الأرض:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي) "21 الزمر".

ثانياً- لونُ قيام الساعة:

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ **مُصْفَرًّا** لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ " 51 الروم".

ثالثاً- هو لونُ الجحيم:

﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ ﴾ ﴿ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ **صُفْرٌ** ﴿٣٣﴾ ﴾ "32-33 المرسلات".

إذنْ ففي كلِّ مواقعه في القرآن جاء اللونُ الأصفرُ دليلاً على البؤس والكوارث. أمَّا اللونُ الذي يُدْخِلُ البهجةَ و السرورَ في النفس حقيقةً، فهو لونُ الجنان الخضر و لونُ لباس أهل الجنة:

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ **خُضْرٍ** وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ " 76 الرحمن".

﴿ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ **خُضْرٌ** وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ "

21الإنسان".

هذه استعمالاتُ القرآن، أمَّا رأيُ الطبِّ فإنَّ اللونَ الأخضرَ هو أكثرُ الألوان راحةً للنفسِ والعين، واللونين الأصفرَ والأحمرَ هما أكثرُ الألوان إثارةً للأعصاب وإيذاء للبصر. من هنا لا بُدَّ أن نستلهم بـ "خُوار" العجل الذي لا خوار له، لعلَّنا نفهمُ كيف يسرُّ لونُ البؤس والكوارث عيونَ الناظرين:

تسر: من سرَّ، وهو الغموض والخفاء، و"تسر الناظرين" ربَّما تعني: توحي بأنَّ وراءَها سرٌّ مرعب. وعلى عكس ما يفهم أغلبُ العرب اليوم، فإنَّ اللونَ "**الفاقع**" هو اللونُ الخافتُ الضعيف. كلمة فاقع تعني ذليل "رجل فَقِع"، ومنها "الفقاعة" وهي انتفاخٌ في سطح الماء سرعان ما يزول من هزاله وضحالته. و وصف ابن فارس في معجم مقاييس اللغة أنَّ "اللون الأصفر الفاقع" يشير إلى سوء الحال.

والآن نعود لنقرأ صفاتِ البقرة التي كانت مجرد بقرة، نكرة، فتحولت إلى أشهرِ بقرة في التاريخ؛ لأنَّهم أرادوا السخرية من الله، فجعلهم سخرية و هُزاً للبشرية:

"قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ" : الاصفرارُ يدلُّ على الشحوب والإعياء في الإنسان والحَيَوان. "فَاقِعٌ لَوْنُهَا": أي بائس حالُها. "تَسُرُّ النَّاظِرِينَ": أي تُدْخِلُ في النفس رهبةً و كأنَّ وراءَها سرًّا عظيمًا ...

إلى هنا نفهمُ أنَّ اللهَ أتى لهم ببعض صفاتِ العجل الذي أشركوا به، وهي "الإعياء والضعف"، و لكَّنه زادهم ضلالًا بأن أضافَ إليها صفةَ "الغموض"؛ ليزيدَهم رهبةً ويغرقَهم في متاهةٍ جزاءَ تعقيدِهم للأمر{اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ..} ... إذ كان المطلوبُ - فقط - أن ينتهوا عن الوقاحة ويُقدِمُوا على ذبح أيَّة بقرة. ولكنَّهم ما زالوا في شركهم وعنادهم:

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ

لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ "البقرة 70 ".

﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ " البقرة71 ""...

شية: من "شوي" وتعني الشيء القليل، ومنها: الشواء وهو قطع اللحم الصغيرة. و لا شية فيها: أي قليلة اللحم. وكلمة "شوية" المستعملة في العامية كلمة فصحى وتعني "قليل". نقرأ الآية مرة أخرى:

لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ: لا تتذلل لنداء سيِّدها، ربما صماء، وبذا فلا تحرث الأرض.

وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ: لا تقوى على السقاية لخُوار قواها وضعفها.

مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا: جسدها سليم، لكنه قليل اللحم، هزيلة.

إلى هنا نلاحظ أنَّ الله - جلَّ جلاله- أتاهم أخيرًا بصفات العجل الذي أشركوا به، والذي يظنون أنَّه ربُّهم، وقد كانت صفاتُه{جسدٌ، أبكمُ ،هزيلٌ ،خائرُ القوى} والبقرة {صماء، شاحبةٌ، بائسٌ حالها، تخيفُ الناظرين}، عندها فقط زعموا أنَّ موسى قد جاء بالحق. فأي حقٍ أتى به؟ فهموا أنَّ "ربَّ موسى" هو نفسه العجل الذي ما زال راسخاً في قلوبهم المريضة، ولكنْ ... لأنَّ اللهَ استهزأَ بهم وأدخلهم في متاهة، فقد انصاعوا للأمر وهم في حالة تردد { فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ }.

من هنا نفهم أنَّ الحقَّ الذي كانوا يلهثون وراءَه هو عينُ الباطل، و كأنَّهم كانوا يستدرجون موسى و ربَّه أن يؤكِّدَ لهم شركهم لا أن يعالجَه؛ لذلك يقول الله عنهم تأكيداً لِمَا ذهبنا إليه من تأويل في أنَّ عقيدتهم في العجل كانت راسخةً على علمٍ وعناد:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ " 93 البقرة".

وقد وصفتهم التوراةُ - حينها- بالعنادِ وتصلُّبِ القلب:

{ فأمر الربُّ موسى "قم وانزل فإنَّ الشعب الذي قد أخرجته من ديار مصر قد فسد. إذ انحرفوا سريعاً عن الطريق الذي أمرتهم به، فصاغوا لهم عجلا وعبدوه وذبحوا له الذبائح هاتفين: هذا هو إلهك يا إسرائيل الذي أخرجك من ديار مصر". وقال الربُّ لموسى: لقد تأملت في هذا الشعب، وإذا به شعبٌ عنيدٌ متصلبُ القلب. و الآن دعني وغضبي المحتدم فأفنيهم، ثمَّ أجعلك شعبًا عظيمًا"}" سفر الخروج: 32: 7-11". ولولا ابتهالُ موسى لله ليغفرَ لهم لأفناهم اللهُ حينها كما ورد في التوراة.

إلى هنا ولا يوجد رباط مباشر بين قصة البقرة التي قصد اللهُ منها تطهيرَ قلوبهم من مخلفات الشرك بالعجل فأبوا إلا الشرك فزادهم اللهُ مرضاً، وقصة إحياء الموتى ... و لكنْ، ليمدَّهم اللهُ في طغيانهم جاءت حادثة القتيل:

﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ "البقرة 72"

فشاء الله أن يستهزأ بهم أكثرَ من ذلك ويزيدَهم كفرا: ﴿ ... وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ "البقرة 15"،

فأمرهم أن يضربوا الميت ببعضها تحقيرًا لهم:﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ "73 البقرة".

من الملاحظات المهمة في هذه القصة أنَّ الأمرَ بذبح البقرة قد سبق قتل النفس التي أحياها اللهُ بها، ممَّا يجعلُ معظمَ تلك الأساطير التي وُصفت بها البقرة ليست إلا افتراءً على الله وعلى البقرة نفسِها، و هذا ما أسهب فيه صاحبُ "فتح القدير" في شرح الآية، و لكنَّه لم يُوفق في فهم القصة الغريبة. و نحن نظنُّ أنَّ ذبح البقرة كان المقصودُ منه استئصالَ الشرك من قلوبهم، فلمَّا استهزؤوا بالله رب موسى استهزأ الله بهم، وأتاهم بمواصفات الإله الباطل الذي علم أنَّه في قلوبهم، فلمَّا سمَّوا ذلك حقّاً زادهم الله طغياناً بأن رسَّخَ عقيدتَهم في البقرة، التي ربَّما كانت قد تعفنت عندما قُتل القتيل. و دليلٌ على أنَّ القصدَ من أن يضربوه ببعضها ليس إلا الاستهزاءَ بعقولهم، هو أنَّ اللهَ ترك لهواهم اختيارَ الجزء الذي يضربونه بها، و ربَّما تقدم إبليسُ حينها و نصحهم أن يضربوه بآذانها.

ختامُ آية إحياء الميت فيه مفتاح لُغوي مهمٌ يؤكِّدُ تأويلَنا وهو{لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}، إذ إنَّ مثل هذه النهاية في مثل هذه القصص غالباً ما تعني: الله يحيي الموتى كيف يشاء، و لكنْ يا ليتكم تعقلون، كما في قوله :﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾"67 الأنبياء". نلاحظ أنَّ الآيات التي أحيا الله فيها الموتى في قصة إبراهيم انتهت بـ ﴿ .... أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾" 259 البقرة" في الآية التي كسا فيها العظامَ لحماً... و بـ ﴿ ..... وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ "260 البقرة" في آية إحياء إبراهيم للطير. أمَّا نهاية {لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} فدليلٌ على أنَّ كلَّ الأمر كان سخرية من عقولهم؛ لأنَّ اللهَ يحيي الموتى كيف يشاء، وليس بجيفةِ بقرةٍ صماءَ، شاحبةٍ بائسِ حالُها، خائرةِ القوى، ماتت قبل أيام. و لمزيد من التأكيد على أنَّ القصة لم تكن إلا استهزاءً بعقولهم وليزيدَهم ضلالاً، نلاحظ أنَّ موسى ـ عليه السلام- في بداية عهدهم بالشرك قد نسف العجلَ، و أزاله من الوجود على أمل أن لا يعودوا إلى شركهم، ولكنْ لمَّا تجاوزت وقاحتُهم كلَّ حدود، فقد أراد الله أن يزيدهم ضلالًا على ضلالهم؛ لذلك جاءت قصة إحياءِ الميت للسخرية من عقولهم لا ليريَهم آيةً كونيةً في قدرات البقر، والله أعلم.

قلنا إنَّ قول السامريِّ كان فيه شفرة، وهذه الشفرة اتخذ الله منها موضوعًا للسخرية في مواقعَ مختلفةٍ في هذه القصة. فقد قال السامري لموسى:﴿ ..... وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴿٩٦﴾ ﴾ "طه 96 "، فإنْ كان السامريُّ

يقصد أنَّ نفسَه سولتْ له القيامَ بذلك العمل، فكان الأسلم أن يقول {وهكذا سولت لي نفسي }؛ لأنَّه يتحدث لحظة الحدث. ونظنُّ أنَّ "وكذلك" تعني: "وقد سولت لي نفسي أن أجعل لهم إلهاً **كذلك** الإله". ونلاحظ من آيات العجل والبقرة الصفراء أنَّها اشتملت على ألفاظٍ توقف عليها المفسرون كثيرًا، ممَّا يوحِي بأنَّ الله - سبحانه وتعالى- إنَّما روى الحوارين مقتبسًا كثيرًا من ألفاظِهم و لهجتهم، ممَّا جعل أسلوبَ الخطاب يبدو غريبًا على لغة القرآن. و لأنَّ أساليبَ الازدراء والسخرية في علم النفس تكون بتَكرار القول السخيف أو الساذج الذي يتفوه به مَن تسخر منه، فإنَّ الله في استهزائه بهم اقتبس جملة السامريِّ بعد أن أوهمَهم أنَّ جيفة البقرة المدهشة هي التي أحيت الميت، فقال: ﴿ .... كَذَٰلِكَ يُحۡيِ ٱللَّهُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ... ﴿٧٣﴾ ﴾ فالحقيقة أنَّ الله لا يحيي الموتى بجيفةِ بقرةٍ متعفنة، وإنَّما **ذلك** وهمُهم

وعقيدتُهم في "**ذلك**" الإله، أمَّا وصفه لقدرته في إحياء الموتى حقيقةً فقد كان: إنَّ الله على كلِّ شيءٍ قدير كما أسلفنا. ونلاحظ أنَّ الله اقتبس هذا اللفظَ سخرية منهم أيضاً في الآية التالية مباشرة :﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗ ..... ﴿٧٤﴾ ﴾ " 74 البقرة"، فـ "ذلك" هنا وهناك تشير إلى "ذلك" الإله الذي

اقتبس السامريُّ قصتَه من ذلك الإله الذي عبده الإنسان الأول في مكة، وكان ذلك الإله بقرة.

إذنْ فقصةُ البقرة الصفراء و لونها الفاقع التي حيَّرت الناس آلاف السنين، لم تكن إلا تأكيداً لقول الله في ضلال تلك الفئة المشركة:﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ "15 البقرة".

روعةُ هذا التأويل - الموَفَّق بإذن الله- تكمنُ في أمرين مهمين : أولهما- أنَّ الله قد حقرهم حينما عبدوا العجل، ثمَّ استهزأ بهم في حوارهم حول هُوِيَّة البقرة، ثمَّ سخر من عقولهم بأن أوهمَهم أنَّها تحيي الموتى، ثمَّ قصَّ على بني عمِّهم العرب قصتَهم في هذا الحوار الممتع بكلماتٍ تعلق بالآذان، وأصبحت جزءًا لا يتجزأ من الأدب العربي. ولا شكَّ أنَّ الله يعلم أنَّ العرب سيصعب عليهم فهمُ تفاصيلِ ذلك الحوار، ولا شكَّ أنّه يعلم أنَّ بعضَ اليهود الذين جاوروا المسلمين في المدينة سَيُدْلون بدلوهم في تأويلٍ خاطئ للآيات؛ لأنَّ البقر ما زال متشابهًا عليهم، و لكنْ كما أوهمهم أنَّ ضرب الميت ببعض جيفةِ البقرة هو الذي أحيا الميت، فقد وصف القصةَ بكلمات جعلت للعجل الذهبي خوارًا داويًا، وللبقرة بريقاً يخطفُ الأبصار، ممَّا أدخل في نفوسهم السرورَ والبهجة ردحًا من الزمن، وجعلهم يجعلون لها ضعف ثمنها ذهباً، رافعين من قدرها وقدر السامري الفاجر من قبلها. والأمر الثاني- أنَّ بريقَ البقرة المدهشة و خُوار العجل الأبكم، قاما بدور مهم في إثارة الحَيرة عبر العصور في نفوس المسلمين؛ لغموض سرِّ هذه المخلوقات في أزمنة ما كان للعقل البشري أن يستوعبَ أمرَ نزول الأنعام، فلما اقتربَ الإنسان من اكتشاف أصلها خارج أقطار الأرض، فاجأ

اللهُ الناسَ بأن ألهم أضعف خلقه ليستدركوا الناس ... أيَّها الناس: إنَّ العجلَ في حقيقة الأمر كان أبكمَ هزيلاً خائرَ القوى، وإنَّ البقرة كانت شاحبةً صماءَ بائساً حالُها خائرةَ القوى تخيفُ الناظرين. فتتجدد السخرية من الذين عبدوا العجل في الوقت الذي خَفَتَ فيه بريقُ البقرة، وصمت خُوارُ العجل، ولكنَّ آذانَ الأنعام رُفع دويَّاً في مشارق الأرض ومغاربها وبين الكواكب والنجوم، ينادي بوجود خالق الكون ومصمِّمِ قانون التطور كما صدح أول مرة في عصر آدم، في الوقت الذي ظلت فيه كلماتُ الله كما هي لا تتغير، ولكنَّها توحِي وحياً جديداً مدهشًا كأبلغ دليلٍ على أنَّه لو كان البحر مداداً لكلمات ربِّنا لنَفِدَ البحرُ قبل أن تنفد كلمات ربِّنا ولو جئنا بمثله مددا.

أمَّا "إبليسُ" الذي عزم أن يجعل من نزول الأنعام وسيلة إضلال، فقد خسر الرهان الذي ابتدأه منذ عهد "النعاج الحُمَّل" بعد أن جعل الله الإكثار من ذبح الأنعام والهَدْي في الحج وعيد الأضحى شعيرة، وكأنَّه - سبحانه- يكرِّرُ للحجيج خاصة والمسلمين عامة : ﴿ ..... إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ ..... ﴿٦٧﴾ ﴾، حتى لا يجدَ الشيطانُ منفذًا بسهامه لقلوبهم، وهم يعبدون الله وحده حيث نزلت الأنعام وبدأ الشرك بها. فقد هيمنت عقيدة الإسلام على أرض الخلق والتطور و أرض الأنبياء والمرسلين في الشام، فحزم إبليسُ أمتعته، وهاجَرَ ببقرتِه الصفراء وبريقها الذي يخطف الأبصارَ وعجله الذهبي إلى أقاصي الشرق علَّه يجدُ من يصدقه أنَّ "ذلك" العجل حقيقة له "خُوار".

5. ملكة جمال الهند:

لا نظنُّ أنَّنا نذيع سرّاً لو قلنا: إنَّ أتباع الديانات السماوية الذين يُفترض أنَّهم يعبدون الله، وهم "المسلمون واليهود والنصارى"، يمثلون أغلب سكان الأرض اليوم، يليهم البوذيون تعداداً، و لكنَّ الديانة البوذية تقوم على فكرة تكرار الحياة و تناسخها من دون إلهٍ يُعبد. يلي ذلك من حيثُ التعداد "الهندوس" الذين يتخذون من البقرة رمزاً للإله، ممَّا يجعل البقرةَ ثاني معبود في الأرض بعد اللهِ - تعالى-. وعلاقة البقرة بعقيدة الهندوس مثيرةٌ جداً للدهشة، إذ إنَّ توثيقَ عقيدتِهم يرجِعُ إلى خمسة آلاف عام، أي إلى عهد إبراهيمَ - عليه السلام- تقريبًا. أمَّا أصلُها فيرجِعُ بالضبط إلى عهد آدم، إذ إنَّهم يعتقدون أنَّ عقيدتَهم هي عقيدةُ الإنسان الأول، ومن بعدها انحرف بنو آدم وعبدوا آلهة وهمية. و قد تكونت العقيدة بتراكم أفكارِ فلاسفةٍ مختلفين يسمُّونهم "فيدارز"، فليس لديهم رسل، و إنَّما كانت البقرة رسولاً من الإله إليهم. وقد جُمعت آراءُ أولئك الفلاسفة في كتابهم المقدس، و يسمُّونه "بهاجوات جيتا". وتقوم عقيدتُهم على وجودِ عددٍ غيرِ محدودٍ من الآلهة وزوجاتهم وبناتهم وأولادهم، على أنَّ أكبرَ ثلاثة آلهة هم: "**براهما**" وهو إله الخلق، يليه "بيشنو" وهو الإله الحفيظ، و"شيفا" وهو الإله المدمر. أمَّا موضع البقرة في هذه المعادلة فيكمنُ في اعتقادهم أنَّ الإله "براهما" حينما خَلق الإنسانَ أنزل له البقرة، ونزل معها ليريَه كيف يحلبها ويركبها ويذبحها، فلمَّا تحول مِهْرجان "النعاج الحمَّل" إلى مدرسة عَقَدِيَّة أصبحت البقرةُ رفيقَ إله الخلق "براهما" في نظرهم، ويؤمنون اليوم أنَّه قد أنزلها من السماء لتهب الحياة للإنسان، ويسمُّونها " كلياترو" في لغتهم، وتعني رفيق الإله. هنا لا تخفى علينا الصِّلةُ الوثيقةُ بين حقيقة نزول بهيمة الأنعام من عند إله الخلق إلى الإنسان الأول، ومفهوم أنَّها "رفيق الإله" عند الهندوس. ولعلَّ قليلاً من التركيز في تاريخ توثيق العقيدة، وهو عصر إبراهيم - عليه السلام- واسم إله الخلق عندهم "**براهما**"، يوحِي بمصدر التحريف واختلاط الأمور، و كأنَّ قصةَ **إبراهيم** أو بعضًا من صحفه قد وصلت هناك، ثمَّ تحريف اسمه إلى

"براهما"، و مِن ثَمَّ تأليهه وربط قصة البقرة المنزلة به كما فعل السامري بين العجل وأثر الرسول. و لعلَّ كلَّ من زار الهند أو عرف عنها شيئاً لا تخفى عليه مكانة البقرة السامية هناك، إذ إنَّها تعامل كملكة جمال يتذللُ العامَّةُ والخاصَّةُ أمامها في كلِّ الطرقات، بينما يضربون الثور ويذلونه أيَّما إذلال، و كأنَّ سلوكهم تطبيقٌ حرفي لسوء فهم الإنسان الأول للحكمة من ذبح ذكور الأنعام الثمانية والإبقاء على إناثها، كما ناقشنا ذلك في مِهْرجان" النعاج الحُمَّل" أعلاه. وبالتأكيد فإنَّ المتهمَ الأولَ في هذا اللَبس هنا وهناك هو إبليسُ، وأنَّ الدليل هو{وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأنْعَامِ}. كلُّ هذه القرائن تؤكِّدُ أنَّ في هذه الأنعام أسرارًا غامضة توارثها بنو آدم من آبائهم فاختلطت بالجهل والأوهام بين الشعوب التي وجد فيها الشيطانُ ضالته، لتحويلِها من آذان يدعو إلى الله إلى وثن يُعبد من دون الله.

نختتم هذا الباب بمناقشة سرٍّ آخرَ من أسرار حرمات الله حول البيت التي ارتبطت بالحَجِّ والأنعام، و لكنَّ هذه الحرمةَ - كما نظنُّ- فُهمت خطأً أنَّها من الأنعام، إذ إنَّ سرَّها أكبرُ من ذلك بكثير، وهي "القلائد".

المقاليد والتقليد والقلائد:

القلائدُ أمرُها غريب، فقد ذُكِرت مرتين فقط في القرآن الكريم، و كلاهما في سورة المائدة. وقبل أن نخوضَ في أمرِ القلائد و نحاولَ فهمَ عَلاقتِها بالحَجِّ والبيتِ الحرام والأنعام، نسوقُ الآيات التي وردت فيها:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢ ﴾

" 1- 2المائدة".

نلاحظ أنَّ هذه الآية انتهت بتحذيرٍ شديدٍ من الاستهانة بحرمات الله، ممَّا يدللُ على أهمية هذه الحرمات في العقيدة الإسلامية. أمَّا الآية الثانية فقد لفتت الأنظار إلى علم الله الذي لا حدودَ له، و كأنَّها توحي بأنَّ في هذه القائمة من الحُرُماتِ أسراراً عظيمة:

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ "97 المائدة".

في سورة المائدة -عمومًا- وفي هاتين الآيتين نلاحظُ المعالم المهمة الآتية:

1- الربط الوثيق بين شعائرِ الله و الكعبةِ البيتِ الحرام، والشهر الحرام، والهدي، **والقلائد**، واشتراكهم جميعاً في التحريم بذات الدرجة. فإذا كان سنامُ الحرمات في الإسلام هو بيت الله الكعبة، فإنَّ القلائد والْهَدْي لهما حرمة الكعبة.

2- سورة المائدة هي السورة الوحيدة في كلِّ القرآن التي ذُكر فيها اسم "الكعبة" كما في هذه الآية، والآية الأخرى التي سبقت هذه الآية وارتبط اسم الكعبة فيها بالْهَدْيَ.

3- لا يخفى علينا أنَّ الأنعامَ هنا ذكرت على لسان حال الإنسان الأول، إذ إنَّها وصفت بـ "بهيمة الأنعام"، وهي الموقعُ الأخيرُ في القرآن الذي ذُكرت فيه كلمة "بهيمة" غير الآيات التي ناقشناها في أعلى هذا الباب تحت عنوان نزول بهيمة الأنعام. و لعلَّ وصفَها بأنَّها بهيمةٌ هنا فيه إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ الأولَ كان أولَ من حرَّمها لمَّا التبس عليه أمرُها، و الله هنا يحِلُّها وكأنَّه يأمرُنا أن لا نحرِّمَها كما حرَّمَها مَن كانت في نظرهم بهيمة.

الفهمُ السائدُ هو أنَّ "القلائد" هي الْهَدي التي يقلدونها بالحلي والعقود كنوعٍ من الإجلال قبل ذبحها عند الكعبة قربانًا لله. وقد كان هذا التقليدُ سائدًا قبل الإسلام و بعده، و لكنَّه ارتبط بطبيعةِ البدو، وسُرعان ما اختفى بعد أن تغيَّرت تقاليدُ الناس، إذ إنَّه لا توجد قلائدُ اليومَ، ولا يمارسُ هذه العادة أيَّ أحدٍ عند البيت الحرام. هذا التفسيرُ يثيرُ في النفس حَيْرةً، إذ كيف يرفع الله - تعالى- عادةً بدويةً بسيطةً سادت قبل الإسلام ثمَّ بادت بعد الإسلام إلى مرتبة حرمة الكعبة وشعائره المحرمة رغم علمِه بزوالها؟ نحن نظنُّ أنَّ ربطَ حرمةِ القلائدِ بحرمة الكعبة أكبرُ من أن يكون إشارة إلى أهميةِ تقليدٍ اجتماعيٍّ بدويٍّ ساد بين المشركين قبل الإسلام ثمَّ باد. و حتى نستطيعَ فَهْمَ سرِّها لا بُدَّ لنا من عودة للأصل اللغوي:

قلَّد: في اللغة لها معنيان: الأول هو تعليق شيءٍ على شيء و لَيِّهِ به كالعقد والحلي، والثاني هو الحظ والنصيب. ولأنَّ الاستعمال الأول كان غالبًا نسبةً لارتباطه بالحلي والعقود وتقلد السيف وغيرها، فقد تطور استعمال اللفظ إلى "التقليد" وهو التشبه، كأنْ يتشبهَ أحدٌ بأحدٍ في سلوكه أو ملبسه أو أسلوبه، واشتُهر أنَّ "المقلدين" من الأئمة هم الذين يتبعون السلف من غير اجتهادٍ أو تجديد، وهو عكس "المجددين" و "المجتهدين" في الفقه. والأصل في التقليد بمعنى التشبُّهِ، أنَّ أصلَ الكلمة يوحي بتقلُّدِ الإنسان علامةً تشبهه بشخص آخرَ فسُمِّيَ مقلدًا.

أمَّا المعنى الثاني وهو الحظ والنصيب، فقد عبَّرت عنه كلمة **مقاليد** التي وردت في القرآن مرتين فقط نسوقهما هنا:

﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ **لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ " 62-63 الزمر".

﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١١﴾ **لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ**ۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٢﴾ ﴾ "11-12 الشورى".

نلاحظُ في فاتحة الآيتين إشارةً إلى قدرة الله في الخلق، و أنَّ ختام الآيتين يحذِّرُ من الكفر بآيات الله في إحداها، ويذكِّرُ بعلم الله المطلق في الأخرى.

و قد أوَّلَ المفسرون كلمة "مقاليد" هنا بأنَّها خزائنُ السماوات والأرض؛ لِمَا فيها من حفظِ كلِّ شيء. و لمَّا كان الله لا يحتفظ بخزائن بالمعنى المُجَسَّد، وليس له مخازن في السماء يحتفظ فيها بالأرزاق، فإنَّ كلمات "مقاليد وخزائن" حينما ترد إنَّما تفيدُ و تعني أسرار الخلق و قوانينه والإيجاد من عدم. فالله - تعالى- لا يخزن القوت لأنَّ من يخزن قد تنفد خزائنه، و إنَّما يقول له: كن فيكون. ولا رادَّ لأمره ولا حدودَ لقدراته في الخلق؛ لذلك فخزائنه لا تنفد، وقدراته مطلقة، وتلك مقاليد السماوات والأرض. أي كأنَّها تعني أنَّ الله يمتلك المفاتيح أو الشفرة الأصلية التي بموجبها يوجد كل موجود، ولذلك لا نهاية لقدراته في الخلق. ولعله لا يخفى على أحدٍ أنَّ الآية ذكرت أزواج الإنسان وأزواج الأنعام كآية من آيات الله، ومثالاً لمقاليد السماوات والأرض، أي "مساري التطور والخلق" ما خُلق في السماء وما خُلق وتطور في الأرض.

فإذا أردنا أن نوفِّقَ بين تلك الحرمات لنستنتجَ ماذا تعني "القلائد" هنا لتكونَ من الحرمة بمستوى حرمات الله العظيمة الأخرى، فلا بُدَّ أن نلقيَ نظرةً سريعة على المدلول العميق لهذه الحرمات:

شعائر الله: تشيرُ إلى المجسمات التي نزلت من السماء كآياتٍ من آياتِ الله، وأدلَّةٍ عينيةٍ على وجوده، وتشمل حجارةَ الشهب والكواكب التي ترجم الشيطانَ المنزلة في المشعر الحرام وجبلي الصفا والمروة، والبدن والأنعام من شعائر الله، وأيضاً الحجر الأسود والكعبة.

الشهر الحرام: إنَّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم. وحرمة الشهر الحرام تأتي من أنَّه الشهر الذي بدأ فيه أول الخلق كما قال النبيُّ - صلى الله عليه و سلم- في حجة الوداع. ومناسك الحَجِّ تتم في ذات الفترة التي دارت فيها كلُّ أحداث بَدء الخلق والتطور تلك.

الكعبة البيت الحرام: أول بيت وضع للناس وبدأ عنده خلقُ الأحياء وتطوُّرُها وتناسبُها وانصهارُها في سُلَّمِ التطور في الأرض، ونقلت عنده مجموعة آدم من مخلوق أدنى إلى إنسان عاقل، و كُلِّفَ عنده ليكونَ خليفةً لله في الأرض، وفوق ذلك هو أولُ بقعة ظهرت من تحت الماء عند بَدء خلق الأرض، وفيه وحدَه على الأرض يتطابقُ الشمال الجغرافي على الشمال المغناطيسي، ويمثل وسط الكرة الأرضية من حيث توزيع الكتلة، ويمثل مركز توازن الكون حيث تتقاطع أقطار السماوات الأرض كلها، كما سنناقش ذلك في باب "سدرة المنتهى".

الْهَدْيَ: لفظ مجازي يُطلقُ على الأنعام التي تمثل الأحياءَ الوحيدةَ على الأرض التي لا تنتمي إلى الأرض في أصل خلقها، ونزلت بنصِّ القرآن من السماء؛ لتكونَ آذانا ينادي الإنسان الأول بوجود الله ويهديه إلى معرفة خالقها و تذَكُّرِهِ،

وتنادي إلى يوم القيامة بني آدمَ ليكتشفوا أسرارَها، ويستجيبوا لآذان الأنعام الذي كان الهدف الأساسي للشيطان أن يستأصلَه ويضلَّ الناس عنها وبها.

إذا كانت هذه بعض معاني حرمات الله التي اشتركت القلائد معها في الحرمة، فهل يمكن أن نقول إنَّ "القلائد" هي البهيمة التي كان البدو يقلدونها بالحلي قبل ذبحها عند البيت؟ ما وزن هذا المعنى مقارناً بالمعاني الرهيبة - أعلاه- من قائمة حرمات الله التي تشترك معها القلائد في الحرمة؟ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ تقليدَ البهائم التي كانوا يسمُّونها القلائدَ، دليلٌ على أهمية آذان الأنعام التي ورثت في الجزيرة العربية آنذاك، و لمَّا كانت هذه العادةُ ليست إلا من تقاليد القبائل فقد كان بديهياً أن تزول سريعًا، علمًا بأنَّ القلائد التي كان العرب يقلدونها هي نفسُها من الأنعام على أيِّ حال.

لاحظنا من دراستنا لكثيرٍ من آيات القرآن في هذا الكتاب، أنَّ الله يبتكر اصطلاحاتٍ تحتملها قواعدُ اللغة العربية؛ ليوحيَ لنا بمعانٍ جديدةٍ ما كان العربيُّ البسيطُ ليعرفَها في حياته اليومية، و ما ذلك إلا لأنَّ القرآنَ احتوى على أسرار الكون كلِّها في لغة العرب، الشيء الذي توقف عنده المفسرون القدامى كثيرا، إذ إنَّهم لاحظوا غرابةَ اللغة في كثيرٍ من الآيات التي ذكرنا بعضَها في هذا الكتاب، و لكنَّ المعنى غاب عنهم؛ لأنَّه كان يحتاجُ إلى تطورٍ أكثرَ في عقل الإنسان وعلمه بأسرار الكون. من هذا المنطلق نظنُّ أنَّ كلمة **قلائد** ليست إلا أحدَ تلك الاصطلاحاتِ القرآنيةِ المدهشةِ التي يحتملها أصلُ اللفظ، و لكنَّها ابتُكِرتْ لتوحيَ بمعنًى جديدٍ لم يكن متداولاً بين العرب، وإنْ كان يجري مجرى اللغة العربية.

استعمل العربُ كلمة "التقليد" على وزن " تفعيل" لتفيدَ أن يتشبه الإنسان بشخصٍ آخرَ أو يقلِّدَ صناعة أخرى، واستعمل القرآنُ كلمة "مقاليد" على وزن "مفاعيل" و" مفاتيح"، ليشيرَ بها إلى شفرة خلق كلِّ شيءٍ في السماوات والأرض، والتي تمثل خزائن الله التي لا تنفد. و نظنُّ هنا أنَّ الله - سبحانه تعالى- قد ابتكر مصطلح **القلائد** على وزن **" فعائل"** و **" شعائر"**؛ ليشيرَ إلى نوعٍ من التقليد الرباني لمقاليد الخلق و مفاتيحه، وهي بذلك تشمل كلَّ ما ظللنا نبحثُ فيه في هذا الكتاب من آثار الخلق والتطور، والتي يستنبطها الإنسانُ من تقليده للإنسانِ الأولِ في إحرامٍ بكلِّ هيئته التي يقلد فيها الإنسانَ الأولَ، ومبيتٍ بمِنى حيثُ جُعِلَ الإنسانُ خليفةً لله، و وقوفٍ بعرفة كما وقف آباؤنا طالبين الغفران، و نزولٍ إلى المزدلفة كما دلفوا، وجمع الجمرات من شهب السماء عند المشعر الحرام، و رجمِ الشيطان الذي توعَّدَ بأن يبتّكَ آذان الأنعام بمنى، وذبح الْهَدي الذي ما نزل إلا ليكون هديًا إلى وجود الله، وتطوفٍ بين الصفا والمروة وهي عبادة الإنسان الأول، ثمَّ طواف بالبيت العتيق الذي فيه بدأت أسرارُ الخلق ودارت عنده أسرارُ التطور و ربَّما يتوازن عنده كلُّ الكون.

لمَّا كانت كلُّ هذه العبادات **والشعائر** ليست إلا تقليدًا، ولكنَّه تقليدٌ صمَّمه صانعُ المقاليد، ولا يعلم أسرارَ ما نقلِّدُه إلا هو، فقد كان منطقيًّا جدًّا أن لا تُسمَّى التقليد وإنَّما **القلائد؛** لتكون مجموع **الشعائر و** حرمات الله - سبحانه و تعالى- التي تحكي أسرارَ الخلقِ وعظمة الخالق.

وختاماً، فما قصدنا من طرح هذه القضايا الشائكة في "آذان الأنعام" إلا تحريرَ الإنسانِ من سجن الأساطير إلى حريةِ التفكيرِ والتدبُّرِ في آيات الله، واحترامَ العقل الذي وهبنا الله، والعلم الذي نتعلمه عن أسرار الكون والخلق حتى نعبدَ الخالقَ حقَّ عبادته، لأنَّ الله يعلمنا بالقرآن كما يعلمنا ببحوثنا، وكلها تقود إلى وجود الله و وحدانيته وتعظيمه بما يستحق من تعظيم. فنحن نؤمن أنَّه لا يوجد شيءٌ اسمه "علوم دنيا"، إذ إنَّ كلَّ ما في الدنيا ليس إلا آياتٍ من آياتِ الله -

تعالى- ، بعضُها أخبرنا بها، وكثيرٌ منها ألهمنا إلى اكتشاف أسرارها من غير وحي مباشر. ونظنُّ أنَّ من يصفُ آياتِ اللهِ الكونيةَ بأنَّها علومُ دنيا إنَّما يهرب من الاعتراف بقصور فهمه لخلق الله، وسعيًا منه أن يجعل من دين الله قائمة من المحللات والمحرمات والأحكام الشرعية، لا عَلاقة لها بالتفكُّر في خلق السماوات والأرض وآياتِ اللهِ الكونيةِ التي ذخر بها القرآن. و ذلك فصلٌ للدين عن الدنيا، و هو أكبرُ ضررًا و أقربُ إلى الكفر من فصل الدين عن الدولة.

و لعلَّ الشيطانَ نجح في أن يصمت آذانَ الأنعامِ زمنًا طويلًا، كما عزم في وادي "منى" يومَ طُردَ من رحمة الله، ولكنَّ الله غالبٌ على أمره، و نظنُّ أنَّ آذانَ الأنعام بدأ يصدح من جديد، فكلُّ مَن يقرأُ هذا الكتابَ لن ينظرَ - بإذن الله- إلى الأنعام بعدَ اليوم على أنَّها بهيمةٌ؛ لأنَّها ما كانت بهيمةً إلا على الإنسان الأول، فهي مخلوقاتٌ نزلت من السماءِ ولا عَلاقةَ لها بأصلِ الخلق في الأرض، ولم تتسلق سُلَّمَ التطور الذي تسلقته مخلوقاتُ الأرض، و ما هي إلا آذانٌ ينادي بوجود الله، وينادي الخلق ليذكُرُوا عظمة الخالق. ونحن الفقراء إلى الله نسأل كلَّ من يتذكرُ أنَّ الأنعامَ مخلوقاتٌ سماويةٌ منزلةٌ وآيةٌ من آيات الله تمشي على الأرض، و كلَّ من يعلم سرًّا عنها لا نعلمه، و كلَّ من يبحث في أسرارها أن يدعوَ لنا اللهَ بالغفران، فهو الذي هدانا لِأنْ نرفع آذان الأنـعام، و ما كنا لنهتديَ إليه لولا أن هدانا الله.

و لمَّا كان كلُّ شيءٍ قد بدأ عند البيت العتيق هناك، فإنَّنا نظنُّ أنَّ أسرارَ الكون كلَّها تحلُّ لو درسنا أسرارَ بكةَ وموضع البيت العتيق، لنرى بعضاً من آيات ربِّنا الكبرى عند "**سدرة المنتهى**" وعندها جنَّة المأوى، وهو موضوع الباب الأخير في هذا الكتاب بإذن الله - تعالى- .

البـــــاب الثاني عشر

سِـــــدْرَةُ الـْمـُنــْـتَهَى

لا شكَّ أنَّ كلَّ المسلمين يعلمون أنَّ أولَ ما ابتدأ به نزولُ القران كان الدعوةَ إلى العلم، بل جعل الله تعليمَه للإنسان حُجَّة عليه من أول آيات القرآن:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ "1-5 العلق".

التعليم بالـقلم:

القلم معناه تسويةُ الشيءِ عند بريه وإصلاحه، ومنه تقليم الأظافر أي مساواتها. وسُمِّي القلمُ قلماً لأنَّ به تُسوَّى المعلومات والأفكار، أي أنَّه أداةٌ يتمُّ بها ترتيبُ الفِكَرِ بكتابتها والتدبُّرِ فيها، ومراجعتِها وتصحيحِ ما كان ناقصاً أو خطأً فيها. من هذا نفهم أنَّ التعليم بالقلم خلافُ التعليم بالحفظ و التلقين؛ لأنَّ تدوين المعلومات بالقلم يتيح فرصة مراجعتها وبحثها وتصحيحها، كما قيل : " ما حُفظ فرّ ، و ما كُتب قرّ"... و هكذا . فمن أهمِّ العلوم ما أنزله اللهُ على الأنبياءِ والنبيِّ الأمِّيِّ الخاتم وجعل منه معلمَ البشريةِ الأول. هذا العلم لا دورَ للقلم فيه، إذ إنَّه مُنزلٌ من العليم الخبير الذي يعلم ما خلق ولا يحتاج إلى بحوثٍ تكشف له أسرارَ الخلق، فعلمُه كاملٌ ولا يحتاجُ إلى تصحيحٍ أو مراجعة.

و لعلَّ كثيراً من الناس لا ينتبهون لمفهوم "القلم" في هذه الآية التي نزلت على النبيِّ الأمِّيِّ الذي ما كان القلمُ شيئاً فاعلاً في حياته. فمن العلوم ما يتعلمه الإنسانُ بالتجْرِبَةِ العشوائية أو التراكمية، وذلك بأن يعتادَ الإنسانُ على نمطٍ معينٍ من الحياة تتوارثُه الأجيال وتضيف عليه تجارِبَها، فيصبح علماً ينتقل من جيلٍ إلى جيل، كما هو الحال عند المزارعين والرعاة والتجار، الذين يمارسون المهنةَ بصورةٍ تقليديةٍ لا يعتمدون فيها أسلوباً علمياً مدروساً. هذا العلمُ المتوارثُ من غيرِ مراجعةٍ و دراسةٍ لا دورَ للقلم فيه، و لذا فلم يؤدِّ دوراً في تطور البشريةِ بصورةٍ محسوسةٍ، فلمَّا دخل القلمُ إلى مهنهم نتجت علومُ الزراعة و البيطرة والاقتصاد، التي نقلتْ هذه الحِرَفَ نقلةً نوعيةً إلى مؤسساتٍ علميةٍ تتعاملُ بها الشعوبُ و الأُمم.

التعلُّمُ بالقلم هو الدراسةُ المنهجيةُ والبحثُ بصبرٍ في أسرار ما خلق الله في هذا الوجود، و تدوينُ الحقائق لمراجعتِها وربطِها مع بعضها واستنباطِ الجديد من العلوم. والتعليمُ بالقلم هو التعليمُ الذي ينتقلُ بين الشعوب والأمم، ويقودُ إلى نهضةِ حضاراتٍ وتبادلِ خبراتٍ ما كان لها أن تورث. وقد يؤدي التعليمُ بالقلم دوراً أساسياً في بسط نفوذ الإنسان في الأرض كخليفة لله، وذلك حينما يفهم قوانين الطبيعة و يُسخِّرها لمنفعة الناس إذا أحسن التعامل معها، أو ضررِهم أيضاً إذا عصى اللهَ فيها. هذه القدرةُ تجعل من الإنسان مخلوقاً متميزاً في الأرض بخيرِه وشرِّه، إذ إنَّ الخلافة أتت بشرطِ حريةِ الاختيار، إمَّا شاكراً و إمَّا كفورا. و قد كان للقلم دورُه الفعَّال في نقل علوم الإسلام بين الشعوب،

وحفظ القرآن والحديث و تدوينهما بصورةٍ ما كان لها أن تتمَّ من غير تعليمٍ منهجيٍّ بعد أن مضى عصرُ النبوة والتلقين والحفظ، خاصة بعد أن انتشرَ الإسلامُ في بلادٍ غيرِ عربية. إذنْ فقد جعل اللهُ الدراسةَ المنهجيةَ بالقلم أساسَ تطوُّرِ الإنسان، و جعلها من أولى فضائله التي كُرِّمَ بها الإنسان، وجعلها سببًا من أسباب الوصول إلى اللهِ بالتدبُّرِ في خلقِهِ وآياتِهِ البينةِ محققا بذلك معنىً عملياً لقوله:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ "28 فاطر".

و التعليمُ بالقلم هو الذي تنطوي تحته العلومُ التطبيقية التي ترتبط باكتشافات الإنسان لخلق الله، من كيمياء وفيزياء وأحياء ورياضيات وجغرافيا وتاريخ وفلك وجيولوجيا وغيرها، إذ إنَّ هذه العلومَ لا تورَّثُ، وإنَّما تحتاجُ لباحثٍ يجمع الملاحظاتِ ويجري التجارِبَ و يدوِّنُ النتائجَ ويتفكرُ فيها؛ ليصلَ إلى اكتشافٍ جديدٍ في أسرار ما خلق الله، ثمَّ تحتاجُ لمعلِّمٍ يعلِّمُ التلميذَ الذي يكتبُ الدرسَ بالقلم فيراجِعُه ويتدبَّرُه وهكذا. ولعلَّ إشارةَ الله في سورة العلق لحقيقةٍ علميةٍ من هذا النمطِ، تؤكِّدُ تفسيرَنا، إذ إنَّ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ عَلَقٍ ليس إلا حقيقةً طبيةً مجهريةً ما كان للإنسان أن يصلَ إليها إلا بعلوم القلم. والملاحظ أنَّ أغلبَ هذه الآياتِ التي تشيرُ إلى قدرة الله الخفية في الخلق وفي تسيير شؤون الكون ما فسَّرَها النبيُّ - صلى الله عليه و سلم- ، وكأنَّ اللهَ أراد للإنسان أن يبحثَ في أسرار الكون فيصل كلَّ يوم إلى اكتشاف جديد على البشرية، لكنَّه قديمٌ قِدم القرآن؛ ليكونَ ذلك آيةً جديدةً من آيات الله، وكأنَّ القرآنَ ينزل كلَّ يوم ولا تنتهي معجزاته أبداً.

ولعلَّ أهمَّ علومِ القلم التي تهمنا هنا هي علومُ الأرض والفلك، التي ذَخَرَ بها القرآنُ أكثرَ من أيِّ كتابٍ نُسبَ إلى الخالق في أيِّ ديانةٍ من الديانات. و نظنُّ أنَّ أهلَ مكةَ ما كانوا يعرفون من أسرار البلدةِ التي يسكنون وشعابها أكثرَ من أنَّ اللهَ قد جعلها قبلة للبشرية، بأن وَضَعَ بها أولَ بيتٍ وُضِعَ للناس. ولكنَّ التعليمَ بالقلم جاء ليكشفَ بعد قرونٍ طويلةٍ أنَّ اللهَ الذي خلق هذا الكونَ بالحقِّ ما وضع بيته عشوائيًّا في بكة، وما كانت كلُّ تلك الأسرار التي طرحناها ودارتْ حولَ مكةَ إلا قطراتٍ من بحرِ علومٍ وأسرارًا تنتظرُ بحوثَ الباحثين في أسرارِ البلدِ الأمين، ليرفعوا آذانَ الأنعام عاليًا ويؤذِّنوا في الناس بالحَجِّ، الذي جعله اللهُ حُجَّةً على الناس كافة لا على المؤمنين فحسب.

أولُ بيت وُضِع للناس:

ولمَّا كان بحثُنا هذا قد أوصلنا إلى أعتاب البيت العتيق ونحن نخطو على خُطى الإنسان الأول، فمن الحكمةِ أن نستكشف أسرارَ ذلك البيتِ والبلدِ الذي وُضِعَ فيه؛ لتكتملَ لنا الصورةُ وليكونَ آذانُ الأنعام مرتبطاً بأقوى حُجَّة لله على الناس، كلِّ الناس، ومنطلقًا من أهمِّ بقعةٍ في كلِّ الكون.

ما دمنا قد فهمنا أنَّ **القلائدَ** هي تقليدٌ صمَّمه الحكيمُ الخبيرُ ليسهِّلَ على الإنسان فهمَ "المقاليد"، فإنَّنا سنستعملُ ما ألهمنا الله أن نفهم من أسرار القلائد لفهم أسرار البيت العتيق ومن ثَمَّ الكون. ونحن نعلم حقَّ العلم وعلمَ اليقين أنَّه ليس في وسع أيِّ إنسان أن يعطيَ بيتَ الله الحرام حقَّه من البحث وكشف الحقائق، ولكنَّنا فقط نجتهدُ في أن نُرسيَ بعضَ اللَّبِنِ لربطِ خلقِ الأحياء -عمومًا- في الأرض، بخلقِ الإنسان و تطورِه حول البيتِ العتيق، ومن ثَمَّ ربط كلِّ ذلك بنظام

الكون، ذلك المجهول. ولعلَّ أفضلَ ما نَلِجَ به هذا الموضوع هو التأكيدُ على أنَّ موقعَ الكعبة لا يمثِّلُ حقيقةً دينيةً فحَسْب، وإنَّما يمثِّلُ حقيقةً تاريخيةً مهمةً ارتبطت بتطور الإنسان الأول في أولِ أيامه بعد أن صار إنسانًا عاقلاً:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ " 96-97 آل عمران".

وقبل أن نحاول فهمَ هذه الآيةِ نحتاجُ أن نفهم هذه الألفاظَ من معجم مقاييس اللغة:

وُضِعَ:من " وَضَعَ" بمعنى: خَفَضَ الشيءَ وحطَّه. نلاحظ أنَّ فعلَ "الوضع" في الآية جاء مبنياً للمجهول، أي أنَّ الله قصد أن لا يصرِّحَ بمن وضعه. ونعلم أنَّ إبراهيم قد رفع القواعد من البيت وإسماعيل، ولكنَّهما لم يضعاه ولم يبنياه من عدم، وإنَّما كانت القواعدُ موجودةً منخفضةً وقاما برفعها.

بيت: المأوى والمآبُ ومجمعُ الشَّمْل، ويقال لبيت الشِّعر بيت؛ لأنَّه مجمعُ الألفاظ و الحروف والمعاني.

ناس: من نوس وتعني التذبذب و الاضطراب، والناس: المتذبذبون أو المضطربون.

بَكَّ: بتشديد الكاف معناها يدلُّ على التزاحم والمغالبة، وقد ظنَّ الناسُ أنَّها سميت **بَكَّة** لأنَّ الناس يبُكُّ بعضُهم بعضاً في الطواف. ونحن نظنُّ أنَّ في هذا التعليل لاسم بكة قصوراً كبيراً؛ لأنَّ التزاحمَ في الطواف لم يسبق الاسم، فلم يكن الطواف -أصلا- قد بدأ إلا بعد آلاف السنين من وصف بكة بهذا الاسم.

كعب: نتوء وارتفاع في الشيء، وكعب الرجل هو النتوء في مؤخرة القدم، والمكعَّب هو شكلٌ هندسيٌّ ذو أربعة أضلاع، أي مربع الجوانب ولا يُشترطُ تساوي الأضلاع كما نفهم المكعب في المفهوم الهندسي الحديث. والكعبةُ هي نتوءٌ في شكل مكعب.

مَكَّ : تعني انتقاء العظم أي إخراج مُخِّه. وقيل: إنَّ **مَكَّةَ** سميت بذلك لقلة الماء فيها، وكأنَّ ماءها قد امْتُكَ أي امتُصَّ امتصاصاً. و قيل - كما ورد في لسان العرب-:سمِّيتْ بذلك لأنها تنقص الذنوب، أو تفنيها أو تهلك من ظلم فيها .

لقد تكونت في أذهاننا حتى الآن فكرةٌ واضحةٌ عن الإنسان الأول منذ أن نفخ اللهُ فيه من روحه ونقله إلى إنسان عاقل، ثمَّ هبط من الجنة التي أوى إليها في عرفات، إلى أن رمى الشيطانَ بالجمرات في مِنى، والآن نقترب مع خُطى الإنسان الأول من البيت العتيق. من المهم جداً أن نتذكرَ أنَّ الإنسانَ إلى هذا الحين بل إلى الجيل الثاني منه، لم يفهم إلا لغةَ التجارة البكماء أي المجسمات والألفاظ الحركية فقط أو "لغة الغراب" كما اصطلحنا عليها في هذا الكتاب. ليس منطقياً - إذنْ- أن نظنَّ أنَّ هذا الإنسانَ كان قادرًا على أن يتعلم فجأة كيف يبني بيتاً يأويه ويشعر فيه بالأمن في هذا العالم الجديد عليه. ولا بُدَّ أن نتذكرَ أنَّ عالمَ الأرض هو عالمُه، ولكنَّه عاش فيه من قبلُ حيواناً يصارع الحيوانات والطبيعة، ولا يشعر بأخطارها أبعد ممَّا تشعر به الحيوانات، ولكنَّه الآنَ له آذانٌ يسمع بها وأعينٌ يبصر بها و عقلٌ

يفكر به، ويرى من الأخطار ما لم يكن يرى من قبل، ولكنَّه لا خبرةَ له في التعامل معها بهذا العقل الذي لا تجارِبَ له بعد. ليس غريباً إذنْ أن "يضع" الله لهؤلاء الناس أولَ بيتٍ كما "أنزل" لهم الأنعام من قبل.

ومن هنا نفهم أنَّ قوله: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ .... ﴿٩٦﴾ ﴾ "ال عمران96 " إنَّما تحتوي على لغةٍ تصويريةٍ تدلُّ على هُوِيَّةِ هؤلاءِ الناسِ الذين وُضع البيتُ لهم. فكلمة "وضع" تختلف عن كلمة "بنى" التي تتطلب معرفةً بقواعدِ البناء والتخطيط الهندسي، وجمع مواد البناء وغيرها من الضروريات، التي تحتاج لعلم وخبرة ما كانت متاحةً للإنسان المقصود بـ"الوضع". وهي أيضاً تختلفُ عن نحتِ البيوت كما وصف الله أصحاب الحجر: ﴿ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ " 82 الحجر"، إذ إنَّ النحتَ فنٌ يتطلبُ خبرةً طويلةً ودرايةً بأنواعِ الصخور التي تُنحت والمكانِ الذي ينحتُ فيه، والآلاتِ التي تُستعملُ في النحت وما شابه ذلك. إذنْ فكلمة " وُضِعَ" ليست إلا مصطلحاً آخرَ من مصطلحات لغة الغراب. ولعلَّ من الحكمة أن نتدبَّرَ في ما يمكن أن تدلَّ عليه، إذ إنَّنا فهمنا إلى الآن أنَّ الإنسانَ الأولَ كان محدودَ الألفاظِ وملكاتِ التعبير، وأنَّ الله - تعالى- يستعيرُ ألفاظه كلما كان الحديثُ عنه حتى يوحيَ إلينا بهُوِيَّتِهم، ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ الحدث وقع بصورة ميكانيكية كما رآها الإنسانُ الأولُ وعبَّرَ عنها. فمثلًا تعبير{يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا} لا يعني أنَّ إبليسَ وقف أمامهم ونزع بقوةٍ الالتباسَ من عقولهم، وإنَّما كان هذا ما بدا لهم وكانت تلك مقدرتَهم في التعبير لوصف الحدث، أمَّا ما حدث فعلاً هو أنَّ إبليسَ قد قام باستدراجهم وشَرَحَ لهم بكلماتٍ معسولةٍ كلَّ ما يمكن أن يزيلَ ذلك اللَّبْسَ من عقولهم. أمَّا تعبير "وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الآنْعَامِ" فلا غرابةَ في أنَّها نزلت تحملها الملائكة، أو ألقى بها إلى الأرض؛ لأنَّ الحدث هنا حقيقةً حدثٌ ميكانيكيٌّ، فيه انتقالُ الأنعام من عالم السماء إلى عالم الأرض وهو ما رآه الإنسانُ الأول. و قد رأينا أنَّ " وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ" كان تطبيقُها العمليُّ إلباساً والتباساً مستمراً ومتغيرَ الأشكال عبر العصور في فهم الإنسان و تعاملِه مع الأنعام، إلا أنَّه - بطبيعة الحال- لم يكن هناك انتزاعٌ أو نتفٌ لأذنَي أيٍّ منها. من ذلك نفترضُ أنَّ الملائكة يمكن أن تكون مَن بنى البيتَ العتيقَ أمامهم. ولكنْ، لمَّا لم يكن لدى الإنسان الأول ألفاظٌ مرنةٌ يمكن أن يصفَ بها ما رأى، فقد وصف اللهُ وجودَ البيت من وجهة نظرهم، و هو أنَّه لم يكن موجوداً في لحظةٍ ثمَّ فجأةً "وُضِعَ" حَسْبَ فهمهم؛ لأنَّهم لم يستوعبوا خُطُواتِ بنائه. مثلُ هذا التعبيرِ يُسمَّى في علم النفس"التفكير المتحجر"، وهو يشيرُ إلى حالةٍ يفتقدُ فيها الإنسانُ القدرةَ على التمييز بين مراحلَ مختلفةٍ متدرجةٍ لحدوث الحدث، ويرى فقط البدايةَ والنهايةَ كما لا يستطيع - مثلاً- التمييزَ بين ألوانِ الطيف فلا يرى إلا أسودَ وأبيضَ، وبذلك تكون مقدرتُه على وصفِ الأحداث مستوحاةً ممَّا يفهم ويرى. إذنْ يمكنُنا أن نفترضَ أنَّ الأرضَ كانت ملساءَ في لحظةٍ أمامَ عينَي الإنسان الأول، وفجأةً وجد البيتَ أمامه "وُضِعَ" من غير أن يلحظَ خُطُواتِ بنائه التي ربَّما تمت أمامه. فلفظ "وُضِع" لا يشرحُ كيف وُجد البيتُ وإنَّما يعكس عقليةَ الناس الذين رأوه أول مرة.

مهما يكن من أمر، فإنَّ لفظ "وُضِعَ" جاء مبنياً للمجهول؛ لأنَّ اللهَ أراد أن يخفي مَن وَضَعَه أو بناه، ولكنَّ كلَّ ما يمكنُ أن نفهمَه هو أنَّ هذا البيتَ هو أولُ بيتٍ وُجد على الأرض على الإطلاق، لأنَّه ليس من المنطقي أن يكون أولُ بيت مِن صنعِ غيرِ البشر. وهو أيضاً تأكيدٌ على أنَّ "الناس" الذين وُضع لهم لم تكن لديهم القدرةُ على البناء بأنفسهم. و وَضْعُ البيت لهم يوضح عَلاقةَ ذلك الإنسانِ بربِّه الذي كان يعلم أنَّه لا يستطيع التعايشَ مع الطبيعة الجديدة بعد. وهذا

اللفظُ أيضاً يوضِّحُ أنَّ الظروف التي وُضِعَ فيها تختلف تماماً عن الظروف التي رَفَعَ فيها إبراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ بعد آلاف السنين، إذ إنَّ رفْعَ القواعدِ معلومٌ ويعبِّرُ عن لغةٍ فلسفيةٍ تفيد أنَّ الذي يرفع القواعدَ كان يجيدُ البناءَ والعمران.

وقد وردت اختلافاتٌ كثيرةٌ في تفسير هذا الجزءِ من الآية ممَّا يدلُّ على أنَّ النبيَّ - صلى الله عليه وسلم- لم يفسِّرْها، ولذا نجدُ فيها متسعًا للاجتهاد كما اجتهد الأولون. لنا أن نلاحظَ أيضاً أنَّ البيتَ وُضع "للناس" وليس للمؤمنين فقط. ولفظُ الناس هنا له ثلاثُ دلالاتٍ منطقية:

1- أنَّهم مجموعةٌ من البشر وليسوا شخصًا واحدًا أو شخصين.

2- أنَّ اللفظَ يدلُّ على اضطرابٍ وتذبذبٍ، وهي صفةٌ ملازمةٌ للإنسان حين الخوف ومواجهة المجهول، إذ كان من الممكن أن يسمِّيَهم البشرَ أو الأنسَ أو الإنسانَ، ولكنَّه اختار لفظاً يشيرُ إلى بشريَّتِهم وإلى حالتهم النفسية في نفس الوقت.

3- أنَّ البيتَ ما وُضِع للمؤمنين فقط في أيِّ ديانة، وإنَّما هو عَلاقةٌ بين الناسِ و ربِّ الناس، ممَّا يفسِّرُ لماذا تردُ دعوةُ الحجِّ - دائماً- للناس وليس للمؤمنين فقط.

إذنْ فكأنَّ هؤلاءِ الناس الذين وُضِعَ البيتُ لهم كانوا قد نزلوا ضيوفاً في بيت الله. ومِن هنا نستوعب مفهومَ "بيت الله" كما نفهم وصفَ "ناقة الله" الذي ارتبط بالناقة التي أنزلها اللهُ آيةً لقوم صالح، فنسبتُها إلى الله دليلٌ على أنَّها لم يكن لها مالكٌ في الأرض. وناقةُ صالح ناقة منزلةٌ لتكون آيةً أخرى من آيات آذان الأنعام لقوم صالح. وبيت الله بيتٌ لم يكن له مالكٌ غيرَ الله الذي وضعه، إذ إنَّ الناس لم يبنوه، وكانوا أبعدَ من أن يفهموا كيف يبنون مثله، بل ولم يكن بمقدورهم التعبيرُ عن خُطُوات بنائه، ولكنَّهم فقط رأوه موجوداً وقد "وُضِعَ" أمامهم على شكلِ كتلةٍ واحدة. فاللهُ بناه و وضعه لهم ليشعروا بالأمن فيه، ولمَّا كان بيتًا صغيرًا لحكمةٍ أرادها اللهُ فكان حالهم فيه **بَكًّا**، أي تزاحُمًا، فكانت **بَكَّةُ** هي الموضعَ الذي وُضع فيه أولُ بيت، وهو البيتُ الوحيدُ في زمانه **فبَكَّ** الناس فيه **بَكًّا**. وقد كان لهم أيضًا هُدىً كما كان آذانُ الأنعام هُدىً، ولكنْ... لأنَّ البيتَ ثابتٌ لا يتحرك، فما كان يمكنُ أن يكونَ آذانًا ملازمًا للإنسان أينما حل؛ ولذلك فهو حُجَّة يُستدعى للتدبُّرِ فيها كلُّ من استطاع إليه سبيلا، وليس آذانًا يتحركُ حيثما حلَّ الناسُ كآذان الأنعام.

هذا وصفٌ لحالِ البيت حينما بُني أولُ مرة أو "وضع" حَسْبَ فهم الإنسان الأول، ولكنَّ الله - سبحانه وتعالى- جعله مثابةً للناس بعد قرونٍ طويلةٍ من هجره، أي رجوع ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ..... ﴿١٢٥﴾ ﴾

. ولأنَّ الناسَ الذين يثوبون إليه ما عاصروا وضعه، فقد أبرز اللهُ في هذه الآية ما في البيتِ من آياتٍ بيِّناتٍ، أي علامات وجود الله الظاهرة للناس اللاحقين. وقد اختلف المفسرون في قراءة الآية ومحتواها، فأورد الطبري قولا يفيد أنَّ الآية تعني: أنَّ فيه آياتٍ بيِّناتٍ منهنَّ الحجرُ الأسودُ والصفا والمروةُ وغيرُها من الآيات في المسجد الحرام، ومنهنَّ "مقامُ إبراهيم". وأشار إلى اختلاف الآراء حول "المقام"، فمنهم من قال: إنَّه موضعُ قدم إبراهيم، ومنهم من قال: إنَّ الحرمَ كلَّه مقامُ إبراهيم. و أبرز القرطبيُّ رأيًا لقتادة يقول فيه: إنَّ "وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا" آيةٌ من تلك الآيات أيضًا. ونحن نظنُّ أنَّ ظاهر الآية يستقيمُ كما يأتي:

فيه آياتٌ بيِّناتٌ، منها: "مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ" ومنها أيضاً "وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا". وقد تقدم رأيُنا في مفهوم "مقام إبراهيم" باستفاضة في باب "الحج"، وهو يعني عزمه وانتصابه على البحث والتدبُّر الذي قاده لفهم كلِّ الحقائق التي دارت

حول البيت، وأعاد إبرازَه للناس بكلِّ ما فيه من آيات بينات، وليس بالضرورة موضع قدمه فحسب. وأيضاً من آياته البينات حقيقةٌ تاريخيةٌ مهمةٌ جدًّا تهم الناسَ كافةً وليس المؤمنين فحسب، وهي أنَّ "من دخله من الناس حين وُضِعَ لهم كان آمِناً من الخوف والاضطراب الذي كان يواجهه". وهنا لا بُدَّ لنا من ملاحظة أنَّ الحديثَ عن البيت "الكعبة" فقط ،وليس عن المسجد الحرام كلِّه. لا بُدَّ لنا أيضاً من ملاحظة أنَّ وصفَ "من دخله" وصفٌ تاريخيٌّ لا ينطبق على حال البيت منذ أن رَفَعَ إبراهيمُ قواعدَه، إذ إنَّ البيت لم يكن مفتوحاً للدخول فيه، لا في عهد النبيِّ ولا قبله ولا بعده. إذنْ فكلمة "كان" هنا ليست إلا فعلاً ماضياً، و لذا فمن دخله لا تعني "من يدخله سيكون آمنا"؛ لأنَّ هذا لم يكن من العبادة في أيِّ عصرٍ من العصور، وإنَّما هي فعلٌ ماضٍ" الذين دخلوه أول مرة"، أي أنَّ الآية البيّنة التي تشير إليها الآيةُ هي أنَّ الذي دخله أول مرة كان حينئذٍ آمناً. وهؤلاء هم "الناس" الذين وُضع لهم حينما كانوا في حالة اضطراب ورعب. ولمَّا كان أصلُ البيت قد وُضِعَ على الأرض فإنَّه - بطبيعة الحال- يُعَدُّ آيةً مجسمةً من آيات الله، هدى بها الإنسانَ الأولَ لمَّا كان وجودُه إعجازًا في نظرهم حينها، ويهدي به كلَّ الناس بعد المثابة إليه؛ لأنَّه يقف آيةً ماديةً لتاريخ البشر وخلقِهم وتطورِهم. و لمَّا كان أولئك الناسُ الأوائلُ هم أسلافَ كلِّ الناس، وأنَّ العَلاقةَ كانت علاقةً بين كلِّ الناس آنذاك و ربِّ الناس، فقد كان منطقياً أن تكون حُجَّة الحجِّ - دائمًا- موجهةً للناس وليس للذين آمنوا منهم فقط.

ظلَّ البيتُ منذ أن رَفَعَ إبراهيمُ قواعدَه وإسماعيلُ بيتاً يطوف الناسُ حوله من باب العبادة، ولكنْ لا يدخله إلا القليلُ منهم للنظافة وغيرها. ومنذ عهد النبيِّ - صلى الله عليه وسلم- أصبح دخولُ البيت قصرًا على سَدَنةِ البيت ومَن يقوم على أمره، ولكنَّه ما جعل دخولَه عبادةً، ناهيك من أن يكون آيةً من آياتِ الله البيِّنات. إذنْ فمن دخله هنا لا يمكن أن تعني "ومن يدخله" كما يُفهم؛ لأنَّه لا أحد يدخل البيت إلا نادرًا. وقد أورد الطبريُّ أنَّ أحد الملاحدة قال لأحد العلماء: "لقد دخلناه وفعلنا كذا وكذا فلم يأمن مَن كان فيه" فأجابه أنَّ القصدَ هو مَن دخله طائعاً لله مؤمناً به. ونحن نظنُّ أنَّ في هذا التفسير مبالغة، فتاريخ البيت يؤكِّدُ أنَّ دخولَه ما كان يومًا عبادةً مطلوبة، هذا بالإضافة إلى إنَّ اللهَ سمح لعوامل الطبيعة أن تهدم البيتَ مراتٍ عديدةً ممَّا استدعى أن يرفع إبراهيمُ قواعدَه أولا، ثمَّ هدمه السيلُ فأعادت بناءَه قريش قبل بعث النبيِّ - صلى الله عليه وسلم- حينما حقن دماءَ قريش و وَضَعَ الحجرَ الأسودَ في موضعه بيديه، ثمَّ هُدم في العهدِ الأمويِّ فأُعيد بناؤه. إذنْ فالبيتُ ليس إلا رمزًا يُعبَدُ اللهُ فيه؛ لِمَا فيه من آيات بيِّنات، ولكنْ لا يُقدَّسُ حجرُه، وإنَّ ﴿ ... وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ ...﴿٩٧﴾ ﴾ " ال عمران97" ليست إلا آيةً من آيات الله، تشيرُ إلى حالِ مَن دخله أولَ مرةٍ حينما وُضع لهم ليوفِّرَ لتلك المجموعة أولَ مفهومٍ للأمن يعرفه الإنسانُ منذ أن أصبح عاقلا، ولكنَّها ليست دعوةً للناس أن يُعاودوا دخولَه على أنَّه من العبادة؛ لأنَّ هذا لم يحدث في عهد النبي - صلى الله عليه و سلم- ولا بعده.

ولا يخفى علينا ملاحظةُ تَكرار ذكْرِ "الناس" وليس المؤمنين في باقي الآية: ﴿ ... وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ۚ .... ﴿٩٧﴾ ﴾ " ال عمران 97" والمعروف أنَّ الخطابَ للناس في القرآن يكون

حينما يخاطبُ اللهُ الإنسانيةَ بحقيقةٍ يشترك فيها المؤمنُ والكافرُ سواءً بسواء كما في قوله: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ... ﴿١٥٨﴾ ﴾ " 158 الأعراف". بينما نجد الخطاب في أمور العبادات يُوجَّهُ للمؤمنين كما في قوله:﴿ .... إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾ " 103 النساء".

فالخطابُ إلى الناس أو عن الناس عامَّةً لا يستقيمُ معه أن يكون خطاباً بركنِ عبادةِ الحجِّ الذي لا يستجيبُ له إلا المؤمنون أصلاً، وإنَّما خطابُ الناس بالحجِّ هنا يكون أكثرَ استقامةً لو أخذنا كلمة "حج" بمعنى **الحُجَّة** كما أوردنا ذلك بإسهاب في مقدمة باب الحجِّ في هذا الكتاب. ويكون المعنى هنا أنَّ اللهَ جعل **حُجَّة** البيت حُجَّة على الناس كافةً؛ لأنَّ فيه آياتٍ بيِّناتٍ تخصُّ الناسَ جميعًا، وفيها دعوةٌ لهم وحُجَّة عليهم بوجود خالقِهم وآثارِ آبائهم. فمن قصد التدبُّرَ في أمر البيت وما دار حوله سيصلُ إلى الله، ومَن كفر، أي رفض وجحد، فعليه كفرُه، واللهُ لا يحتاج إلى برهان من الناس على وجوده.

لو قلنا إنَّ استعمالَ لفظ "الناس" هنا إنَّما هو استعمالٌ مجازيٌّ يُقصَدُ به المؤمنون، لاختلَّ معنى كلِّ الآيات في القرآن التي يردُ فيها الخطابُ إلى الإنسانية جمعاء بلفظ "الناس". وبالطبع، إنَّ وجوبَ عبادةِ الحجِّ على كلِّ الناس، مسلمِهم وكافرِهم، أمرٌ غيرُ منطقيٍّ؛ لأنَّ القرآنَ يخاطب المؤمنين فقط بالعبادات. إذنْ فدعوةُ {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ} تعني قصده والتدبُّر في أسراره والأحداث التي دارت عنده، وهذا أمرٌ لا يتطلبُ الزيارة، إذ إنَّ كلَّ العالم يدرسُ تاريخ الفراعنة ويتدبرُ عظمةَ الأهرام من غير أن يتطلب ذلك زيارةَ مصر. وبناءً عليه فإنَّ هذه الحُجَّةَ تلقي على أكتاف المسلمين مسؤوليةَ وصفِ مكةَ وتاريخِها؛ لأنَّ هذه المسؤوليةَ جزءٌ لا يتجزأ من عهد الله لإبراهيمَ وإسماعيلَ بكلِّ مسؤوليةِ بيته، وهي مسؤوليةٌ تساوي مسؤوليةَ تبليغ رسالةِ الإسلام لكلِّ البشر.

و على هذا، يمكنُنا أن نخلصَ إلى أنَّ البيتَ العتيقَ أو "الكعبة" كان أولَ مأوى لَمَّ شَمْلَ أولِ فوجٍ من الناس حين وصلوا إلى تلك البقعة، وربَّما كان الحجرُ الأسودُ هو أحدَ الحجارة الباقية من البناء الأصلي، وجده إبراهيمُ يومَ رفع القواعدَ من البيت، فأمره اللهُ أن يضعَه هناك بوصفه آيةً تثبت أنَّ أولَ بيتٍ سكنه الإنسانُ كان بناؤه من خارج إطار معرفة الإنسان.

فكانت **بَكَّةَ** يومَ **بَكَّ**، أي تزاحم، أولُ ناسٍ في بيتهم الأول الذي وُضع فيها، فلمَّا **مَكَّت** أي امتصت مياهها، هجرها أهلُها فأصبحت **مَكَّةَ**. وهنا نُذكِّرُ بحديث الرسول - صلى الله عليه و سلم- :" لا تقوم الساعة... حتى تعودَ أرض العرب مروجًا و أنهارا " (رواه البخاري).

نلاحظ أنَّ "بكَة" و "مكَّة" أسماءٌ اشتُقت من عَلاقةِ الإنسان بتلك البقعة من الأرض،أمَّا "أم القرى" فلها مدلولٌ آخرُ خطيرٌ جداً، فيه آية من آيات الله الكبرى؛ نظرًا لأنَّه يحددُ موقعَ البيت العتيق من الكرة الأرضية، ثم موقعَ الأرض من الكون كلِّه، الشيء الذي ما كان ليُعرفَ قبل عصرنا هذا، وما كنا لنفهمَه من غير التعلُّم بالقلم، فسبحان الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم.

الكـون ذلك المجــهول:

إنَّ الحديثَ عن الكون في زماننا يتطلب ـ بالضرورة- أن يكون المسلمُ مُلمَّاً بكلِّ ما وصل إليه البشرُ من علمٍ عن حجمِ الكون اليومَ و أسرارِه، و إلا فإنَّ فهمَنا للغامض من آيات القرآن لن يكون أفضلَ من فهم الذين مشوا على الأرض وكانوا يظنونها مسطحة، وهذا التجاهلُ منَّا لن يرضيَ الله ـ سبحانه وتعالى-. وحتى نتخيلَ ماذا يعني الكون من حيث الحجم، ننقلُ أحدث الحقائق العلمية التي وصل إليها علماءُ الفلك فيما استطاعوا أن يصلوا إليه من اتساع المدار الحلزوني فقط، وهو ـ بطبيعة الحال- ربَّما يكون أصغرَ بلايين المرات من حجمه الحقيقي، بَلْ ربما لن يستطع الإنسان أن يتخيل حجمَ الكون الذي يحتوي على بلايين المجرات، في حجم مجرتنا التي تعرف بالمدار الحلزوني أو الطريق اللبني. فقد نشرت صحيفةُ الجارديان البريطانية، في عددها يوم 2 يونيو 2005، ملخصًا لِمَا توصَّلَ إليه العلماءُ من تجميع خريطةٍ ضوئيةٍ للكون داخلَ جهاز "كمبيوتر" سمَّوها "مجمع الألفية"، أنَّ بروفيسور فرانك من جامعة دارهام قال: إنَّ المجمع حوى مِساحةً تمتدُ إلى اثنين بليون سنة ضوئية من جانب إلى آخر، وقال إنَّهم وجدوا في وسط المدار الحلزوني أكثرَ من مائة بليون نجم، منها الشمس التي تدور حولها الأرض. وفي وسط هذا الكم الهائل من النجوم، يوجدُ ما يعرف بالثقب الأسود الذي يمتد حجمُه إلى أكثرَ من مائة مليون نجم في حجم الشمس.

والثقوبُ السوداءُ ـ كما يعرِّفُها بروفيسور زغلولُ النجار، عالمُ علومِ الأرض المصري المشهور، الذي نشر كتباً ومقالاتٍ كثيرةً في هذا المجال على الشبكة العنكبوتية- عبارةٌ عن نجومٍ في مرحلةِ شيخوخةٍ، وعلى وشك أن تنفجرَ وتعودَ مادتُها إلى غبار السدم. وتتميزُ الثقوبُ السوداء بقدرتها الفائقة على ابتلاع كلِّ ما تمرُّ به أو يدخل في نطاق جاذبيتها، من مختلف صور المادة من: غبارٍ كوني، وكواكبَ، ونجومٍ، وغازاتٍ. وحتى الضَوء لا يستطيع الإفلاتَ من جاذبيتها، رغم أنَّ سرعته تبلغ ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية. وقد سُمِّيت بالثقوب السوداء؛ لابتلاعها كلَّ ما يقع في مجالها، ولأنَّ الضَّوءَ لا ينعكس منها فتبدو داكنة. وقد قدَّم هذا الوصفَ في مقال يظنُّ فيه أنَّ الثقوبَ السوداءَ هي ﴿ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ ﴾ " 16 التكوير" التي أقسم اللهُ بها في القرآن.

هذه الأرقامُ الفلكيةُ التي تقشعِرُ منها الأبدان، ليست إلا قدْرًا ضئيلًا ممَّا استطاع العلماءُ تحديدَه من حجم المدار الحلزوني، والذي لا يمكن للإنسان ـ حقاً- رؤيتُه كاملاً من الأرض؛ لأنَّه حلزونيُّ الشكلِ، وما يظهر منه ليس إلا الجزءَ المقابلَ للأرض. إذنْ فالحديث عن السماوات أمرٌ مهيبٌ ورهيب، ولا يعرف حجمَها إلا اللهُ ـ سبحانه وتعالى- . وصدق اللهُ العظيم حين قال:

﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧ ﴾ "

57غافر".

الأرضُ مركزُ الكـون:

من الملاحظات التي لا يغفل عنها أيُّ متدبِّرٍ للقرآن، أنَّ مفهوم "السموات والأرض" قد ورد في القرآن أكثرَ من مائة وثمانين مرة. هذا التكرار يوحي بأنَّ للأرضِ ـ على صغرها المتناهي- وضعَ النِّد والتساوي في نظام الخلق مع

السماوات السبع على ضخامتها المتناهية. تكرار مفهوم" السموات والأرض" يستدعي أن ننظرَ فيه من ناحيةٍ منطقيةٍ قبل أن نرى ماذا يرى علماءُ الفلك في تفسيره. ليس من المنطقي أبداً أن يجيب إنسان إذا سألناه: كم ديناراً في جيبك؟ فيقول: "لا أدري، أ دينارٌ واحدٌ أم ستمائة وخمسون ألف مليون دينار". من يجيب بهذه الطريقة إمَّا أن يكون مختلَّ العقل، و إمَّا أنَّه يرمز لشيءٍ آخرَ بلفظ "دينار واحد" يصلح لِأنْ يكونَ قريبَ الشبه من الرقم الخرافي الذي قارنه به. المقارنةُ بين شيئين ليس بينهما مساواةٌ لا في الحجم ولا في القيمة، لا تكون منطقيةً إلا إذا كانت هناك قيمةٌ وظيفيةٌ متشابهةٌ ومتساويةٌ بين الشيئين، ومثال على ذلك "مقارنة السيارة و مفتاحها". فعلى الرغم من صغرِ حجم المفتاح مقارناً بحجم "السيارة" الهائل، إلا أنَّ الحديثَ عن "السيارة ومفتاحها" حديثٌ منطقيٌّ، إذ إنَّ السيارة مهما كبرت في حجمها وتعقدت في تركيبها إلا أنَّها لا قيمة لها بدون المفتاح مهما تناهى فى الصغر. من هنا نستنبط أنَّ مفهوم "السموات والأرض" يجعل من عَلاقة السماوات بالأرض شيئاً أشبه بالسيارة الضخمة ومفتاحِها الصغير الذي لا قيمة لها بدونه.

مستنيرين بعلوم القلم الحديثة التي أثبتت أنَّ الأرض كروية الشكل، وأنَّها تواجه السماء الدنيا من كلِّ جوانبها؛ فإنَّنا يمكن أن نستنبط أنَّ السماواتِ تأخذ شكلاً كروياً يحيط بالأرض من جميع نواحيها، أي أنَّ الأرضَ تقع في مركز مجموع السماوات السبع التي تحيط بها من كلِّ ناحية في سبع طبقاتٍ متناهيةِ البعد، ولكنْ لأنَّ الأرض هي المركزُ فقد كان مفهومُ "السموات والأرض" مطابقاً لمفهوم "المحيط والمركز". هذا المدلولُ العلميُّ و الإعجازي ما كان لِيُفهمَ قبل أن يصل الإنسانُ إلى كروية الأرض، ليفهم أنَّ السماوات تحيط بالأرض من كلِّ جانب. و كذلك ما كان ليفهمَ قبل أن يكتشف الإنسانُ المفهومَ الهندسيَّ للدائرة أو الكرة، وأنَّ المحيط مهما كبر فهو يُعرف بنسبته إلى مركز الدائرة أو الكرة.

ما رأينا من وصف حجم الكون ما هو إلا وصفٌ للجزءِ المرئيِّ من المجرة التي تنتمي إليها الأرض، وفي السماوات بلايين مثلها. ورغم الصغر المتناهي للأرض مقارنةً بالكون، نلاحظ أنَّ القرآن الذي وصف الشمس عشراتِ المرات ووصف القمرَ وغيرهما من أجرام السماء، ما وصف أيّاً منها بهذه الصورة " السماوات والشمس" أو "السماوات والقمر" كما يرتبط وصف "السموات والأرض" معاً.

أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ:

فإذا كان هذا حجمَ السماوات مقارناً بحجم الأرض الذي نعرفه الآن، فإنَّ تكرار السماوات مقابلاً للأرض في أكثرَ من مائة وثمانين مرة في القرآن لا يدلُّ إلا على أنَّ الأرضَ هي المركز، ومحاطةٌ بالسماوات من كلِّ ناحية، إذ إنَّ العَلاقةَ لا يمكن أن تكون علاقةَ تساوٍ في الحجم، وإنَّما هي عَلاقةُ محيط الدائرة أو الكرةِ ومركزِها. وهذا الافتراض يؤكِّدُه قول الله ـ سبحانه وتعالى- :

﴿ يَـٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ " 33الرحمن".

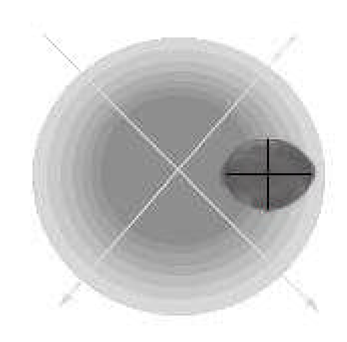
نلاحظ في هذه الآية أنَّ " أَقۡطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ " وُصفتْ وهي منطبقةٌ على بعضها كأنها شيءٌ واحدٌ؛

لأنَّ النصَّ - كما هو واضح- لا يعني " أقطار السماوات وأقطار الأرض"، وإنَّما " أَقۡطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ "

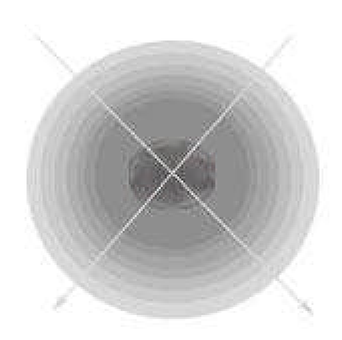
أي أنَّ الأقطار مشتركةٌ بين السماوات والأرض. هذه الآية تتحدى الجنَّ أولاً والإنس ثانياً، إذ إنَّ الجنَّ من طبيعتهم الانطلاق في الفضاء، وقد رأينا في باب "عيد الإنسانية" كيف أنَّ الجنَّ كانت تتصعَّدُ إلى السماوات وتتنصَّتُ على الملأ الأعلى، قبل أن يسلط اللهُ عليها الشهبَ التي ترجمها؛ أمَّا الإنسانُ فقد ابتكر، بسلطان العقل والعلم حديثاً، الوسائلَ التي تعينه للصعود إلى السماء في حدود ضيقة. ولعلَّ الآيةَ التي لم تجعل خروجَهم من أقطار السماوات والأرض مستحيلاً وإنَّما جعلته مشروطاً، ربَّما تنبَّأت بعهد الانفلات من جاذبية الأرض، والطيران في الفضاء ومركبات الفضاء التي تحط على الكواكب الأخرى، وكان السلطانُ هنا هو سلطانَ العلم وفهمَ نظام الكون وتسخيرَه لمصلحة خليفة الله في الأرض، والله أعلم.

المعروفُ هندسياً أنَّ أقطار شكلين دائريين أو كرويين لا يمكنُهما أن يتطابقا، إلا إذا كانت الدائرةُ الصغيرةُ تقع في مركز الدائرة الكبيرة حتى يشتركَ الاثنان في المركز. تشبيهُ هذه الحقيقة بعَلاقة السماوات بالأرض ليست ممَّا يصل إليه الإنسانُ بعلمه القاصر، إذ إنَّه ما زال متعثراً في اكتشاف بعض جوانبِ مجرةٍ واحدةٍ من مجرات السماء، ولكنَّها من صنف العلوم التي نأخذها من العليم الخبير. على أنَّ فهمَ مدلول الآية تطلب فهمَ كروية الأرض أولاً، ثمَّ فهمَ مفهوم الدائرة الهندسي وعلاقة المحيط بالمركز، حتى استطعنا أن نفهم أنَّ أقطار السماوات تنطبقُ على أقطار الأرض. وبذلك تصبح هذه الآية آيةً إعجازيةً ترسمُ لوحةً هندسيةً للكون، مكونةً من سبع دوائر تحيط واحدة بالأخرى، وتقعُ الأرضُ كنقطة صغيرة في المركز، حيثُ تنطبق أقطارُ الدوائر السبعة الخارجية التي تمثل سبعَ سماواتٍ طباقاً على أقطار الأرض في المركز. هذا المفهومُ الهندسيُّ يتضح لنا أكثرَ إذا قارنَّا اللفظَ القرآنيَّ " أَقْطَار السَّمَوَاتِ وَالآرْضِ" مع الفهم الخاطئِ للآية حينما نظنُّ أنَّها تعني "أقطار السماوات وأقطار الأرض" كما في هذه اللوحة:

أقطار السماوات وأقطار الأرض – خطأ:



{أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ}



وهذا المفهومُ يشرحُ كذلك قبضةَ الله على السماوات والأرض يوم القيامة:

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ " 67 الزمر"، إذ إنَّ القبضَ على الأرضِ متناهيةِ الصغر مقارنة مع السماوات، يعكسُ مركزيةَ وضعها في شكل الكونِ الهندسيِّ؛ لأنَّ الإمساك بالمركز والمحيط يعني الحفاظ على الشكلِ الكُرَويِّ للكون.

فإذا كانت الأرضُ هي مركزَ الكون، ذلك المجهول الرهيب، فإنَّ وَسَطَ الأرض يكون مركزاً للكون كلِّه. والثابت أنَّ شكلَ الأرض بين الكُرَويِّ والبَيْضِيِّ، بالإضافة إلى أنَّ توزيع الكتلة على السطح يختلفُ عن توزيعها في قيعان البحار. و قد أشار العالمُ المصريُّ النجارُ إلى أنَّ الانحرافات المغناطيسية عند مكة تؤول إلى الصفر، ممَّا أمكن أن نقسم الأرضَ اليابسةَ شرقَ مكة و غربَها إلى قسمين متساويين، وهذا يجعل مكة تتوسط الأرض اليابسة. هذه الاكتشافاتُ الحديثةُ تزيدُ موقعَ البيت العتيق رهبةً، وتجعلُ منه حُجَّةً على الإنسانية، وتجعلُ من التدبُّر فيه حُجَّةً على

الناس جميعاً، مسلمهم وكافرهم، و هو يفسِّرُ لنا الحكمة من أنَّ الدعوة إلى الحجِّ تجيءُ في القرآن مقترنةً بالناس وليس بالمؤمنين. فالقرآنُ هنا إنَّما يطرح آيةً أو آياتٍ من آيات الكون الرهيبة، وفيها دعوةٌ لكلِّ الناس للتفكُّر والتدبُّر في هذه الحقائق التي لا تتطلَّب الذهابَ إلى مكة، ولكنَّها تقود كلَّ الناس للإيمان بخالقهم.

بكة تتوسط اليابسة:

ولندللَ على أنَّ مكةَ تتوسط اليابسة؛ ننقلُ ملخصاً لإحدى مقالاتِ عالم علوم الأرض الداعية البروفيسور زغلول النجار بعد أن استأذناه شفاهة، أطال الله عمره وبارك فيه و جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً، ومقالاتُه كثيرةٌ في هذا المجال:

{ذكر الهروي في غريب الحديث أنَّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: {كانت الكعبةُ خاشعةً على الماء فدحيت منها الأرض} وقد ذكر الحديثَ الإمامُ الزمخشري في الفائق في غريب الحديث أيضاً، وربَّما كانت غرابته هو أنَّ الأئمة السابقين ما كان لهم أن يستوعبوا مضمونَه الذي نفهمُه الآنَ بفضل الاكتشافات العلمية. وقد أخرج الطبرانيُّ والبيهقيُّ في الشعب عن ابنِ عمرَ ـ رضي الله عنهما- حديثاً موقوفاً، يصفُ فيه أنَّ البيت الحرام كان أولَ ما ظهر على وجه الماء عند خلق السماوات والأرض زَبْدةً "بفتح الزاي أي في شكل كتلة من الزبد" بيضاء، فدحيت الأرضُ من تحته}.

ظلت هذه الحقيقةُ غيرَ مفهومةٍ إلى أن جاء العلم الحديث ليفسِّرَ ذلك السرَّ العجيبَ كما أورد بروفيسور النجار:

{بعد مجاهدة طويلة استغرقت آلافاً من العلماء، عبْرَ عشراتٍ من العقود، ثبت لنا في منتصف الستينات من القرن العشرين أنَّ أرضنا في مرحلةٍ من مراحل خلقِها كانت مغمورةً بالماء غمراً كاملاً. ثمَّ فجر اللهُ ـ تعالى- قاعَ المحيط الغامر بثورةٍ بركانيةٍ عنيفةٍ، ظلت تلقي بحممها التي تراكمت فوق بعضها بعضاً مكونةً سلسلةً جبليةً في وَسَطَ المحيط الغامر. وظلت هذه السلسلة في النمو والارتفاع حتى ظهرت قمتُها فوق سطح الماء، مكونةً أولَ جزءٍ من اليابسة على شكل جزيرة بركانية، مثل: الجزر البركانية المنتشرة في محيطات اليوم، كما في جزر اليابان وإندونيسيا والفلبين وغيرها. واستمر نمو هذه الجزيرة البركانية إلى أن تحولت إلى قارة كبيرة تُعرف باسم القارة الأم أو "بانجيا". هذا النمو تمَّ على مراحلَ وعملياتٍ متكررةٍ للمدِّ والبسط والإلقاء، وهذه العملياتُ تنطبق حرفياً على تعريف كلمة "دحو"، والتي تصف وصفاً دقيقاً مراحل تكوُّنِ الأرضِ اليابسةِ كما ورد في قول الله ـ تعالى- : ﴿ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ ﴾ "30 النازعات".

بعد أن تكونت القارةُ الأمُّ، قامت إرادةُ الله بتمزيقها، وذلك بواسطة شبكة هائلة من الصدوع العميقة التي شكلت خسوفًا أرضية غائرة فصلت تلك القارة الأم إلى القارات السبعة المعروفة اليوم. وكانت هذه القاراتُ في القديم أشدَ تقارباً إلى بعضها بعضاً، ثمَّ بدأت في الزحف والتباعد حتى وصلت إلى مواقعها الحالية والتي ما تزال في حركة دائبة إلى اليوم. هذه الظاهرة التي يتحول فيها المحيط إلى يابسة أو تنشق الأرض اليابسة لتحوي محيطاً، تُعرف بدورة المحيط واليابسة. ويتمُّ تحول المحيط إلى يابسة بواسطة الثورات البركانية كما ذكرنا، إلى أن تخرج الجزرُ البركانية

إلى السطح، بينما تقوم التصدعات بفصل أجزاء من تلك القارة إلى كتلتين يفصلهما بحر طولي شبيه بالبحر الأحمر، ويظل يتسع إلى أن يصبح محيطاً.

أمَّا توسط مكة للأرض فقد فسر هذه الآية، والتي أثبتها العلماءُ حديثاً أيضاً:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ۝ ﴾ " 7 الشورى".

فأمُّ القرى كانت تُفهم مكة وما حولها من القرى، ممَّا دفع بعض المستشرقين في الماضي للزعم أنَّ القرآن جاء لأهل مكة والقرى المجاورة لها. ولكنْ لأنَّ كلَّ الدلائل تشير إلى أنَّ مكة هي وسط الأرض فإنَّ المعنى الأشمل ربما يكون هو أنَّ الله - عز وجل- وصف الوسط " أم القرى" وما حوله مشيرًا إلى الأرض كلِّها، ومشيرًا أيضًا إلى هذه الحقيقة العلمية التي ما كان للناس أن يفهموها قبل أن يثبتها علماءُ المسلمين حديثا.

ففي محاولة علمية جادة لتحديد الاتجاهات الدقيقة إلى القبلة "أي إلى الكعبة المشرفة" من المدن الرئيسية في العالم باستخدام الحاسوب، ذكر الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين - رحمه الله برحمته الواسعة- الذي شغل درجة الأستاذية لمادة المِساحة بكلية الهندسة في عدد من الجامعات والمعاهد العليا، أنَّه لاحظ تمركز مكة المكرمة في قلب دائرة تمرُّ بأطراف جميع القارات. أي أنَّ اليابسةَ على سطح الكرة الأرضية موزعةٌ حول مكة المكرمة توزيعًا منتظمًا، وأنَّ هذه المدينة المقدسة تُعَدُّ مركزاً لليابسة، مصداقاً لقول الله - تعالى- في الآية السابقة : ﴿ ...أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ۝ ﴾.

أضاف الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين - رحمه الله رحمة واسعة- في بحثه القيِّم المعنون بِـ "إسقاط الكرة الأرضية بالنسبة لمكة المكرمة"، والمنشور في العدد الثاني من المجلد الأول لمجلة البحوث الإسلامية الصادرة بالرياض سنة1395/1396 هـ {الموافق1975/1976 م}، أنَّ الأماكن التي تشترك مع مكة المكرمة في نفس خط الطول {817،39 شرقا} تقع جميعها في هذا الإسقاط على خط مستقيم، هو خط الشمال الجنوب الجغرافي المار بها، أي أنَّ المدن التي تشترك مع مدينة مكة المكرمة في خط الطول يكون اتجاهُ الصلاة فيها إلى الشمال أو الجنوب الجغرافي تماماً، والمدن التي تتجهُ في الصلاة إلى الجنوب الجغرافي تبدأ من القطب الشمالي للأرض إلى خط عرض مكة المكرمة {437 و21 شمالًا}، وأمَّا المدن التي تقع على خطوط العرض الممتدة من جنوب مكة المكرمة إلى القطب الجنوبي، فإنَّ اتجاه القبلة فيها يكون ناحية الشمال الجغرافي تماما.

وكذلك الحال على خط الطول المقابل لخط طول مكة المكرمة، وهو خط الطول المرقم {183 و140 درجة غربا}، فإنَّ المدن الواقعة عليه تصح الصلاة فيها نحو الشمال الجغرافي أو الجنوب الجغرافي تماماً حَسْبَ موقع خط عرض كلٍّ منها بالنسبة إلى خط عرض مكة المكرمة. فالمدن الواقعة إلى الجنوب من خط العرض المقابل لخط

عرض أم القرى، أي من خط عرض 21و437 جنوباً إلى القطب الجنوبي تتجه في صلاتها إلى الجنوب الجغرافي تماما، والمدن الواقعة شمالًا من خط العرض ذلك إلى القطب الشمال تتجه في صلاتها إلى الشمال الجغرافي تمامًا.

أمَّا المدينة الواقعة على خط الطول المقابل لمكة المكرمة تمامًا وعلى خط عرضها تمامًا، فإنَّ الصلاة تجوز فيها نحو أيٍّ من الشمال أو الجنوب الجغرافيين تمامًا، كما تجوز في كلِّ الاتجاهات الأخرى، شرقًا وغربًا، وذلك لوقوع تلك المدينة على امتداد قطر الكرة الأرضية المار بمكة المكرمة. معنى هذا الكلام أنَّه لا يوجد انحرافٌ مغناطيسي عند خط طول مكة المكرمة، وعند جميع الخطوط الموازية له، باستثناء حالة واحدة. والسبب في ذلك أنَّ قطبَي الأرض المغناطيسيين في تجوال مستمر حتى يتم انقلابهما فيصبح القطب الشمالي جنوبًا والقطب الجنوبي شمالًا، وعند ذلك تحدث الكثير من الكوارث الطبيعية واندثارات الحياة، وقد ثبت حدوث مثل هذه الانقلابات المغناطيسية عدة مرات في تاريخ الأرض.

وتعلل المغناطيسية الأرضية بوجود مجال مغناطيسي كبير يمرُّ بمركز الأرض، ويميل محورُه حاليًا بمقدار (11.5 درجة) بالنسبة للمحور القطبي الجغرافي للأرض، ويُعتقد بأنَّ هذا المجال المغناطيسي ناتج عن لبِّ الأرض المائع مع دوران كوكبنا حول محوره. وعلى ذلك فإنَّ الاتجاه المغناطيسي الذي يحدد بالبوصلة أو بغيرها من الأجهزة المساحية التي تستخدم الإبرة الممغنطة، يختلفُ عن الاتجاه الحقيقي بزاوية تعرف باسم زاوية الانحراف المغناطيسي، وهي تحدد على جميع أنواع الخرائط؛ لكي يحسب الاتجاه الحقيقي بمعرفة كلٍّ من الاتجاه المغناطيسي و زاوية الانحراف المغناطيسي.

ومن الثابت تاريخيًا أنَّ خط طول جرينتش قد فرضته بريطانيا إبان هيمنتها على العالم سنة 1884 م أثناء مؤتمر عقد في واشنطن / كولومبيا لتحديد خط طول الأساس، وكان اختيارًا سيئًا؛ لأنَّ زاوية الانحراف المغناطيسي في الجزر البريطانية كما قيست سنة 1972 كانت في حدود 8.5 درجة إلى الغرب من الشمال، وهذه القيمة تتناقص بمعدل نصف درجة تقريبًا كلَّ أربع سنوات تقريبًا إذا بقيت تلك المعادلة ثابتة.

يظهر ذلك خصوصية خط طول مكة المكرمة بانطباق الشمال المغناطيسي على الشمال الحقيقي، ومن هنا كان اختيار الأستاذ الدكتور حسين كمال الدين - رحمه الله- لخط طول مكة المكرمة كخط طول أساسي للكرة الأرضية، وإعادة إسقاط خطوط طول الكرة الأرضية بَدءً منه، أي بالنسبة إلى مكة المكرمة، لتماثل خطوط الطول حول خط طول تلك المدينة المقدسة تماثلاً مذهلاً. وتذكر المراجع العلمية أنَّ هناك خطاً من خطوط الطول يمرُّ بمدينة سنسناني أوهايو تتضاءل عنده زاوية الانحراف المعناطيسي إلى قرابة الصفر، ويُعرف باسم خط انعدام زاوية الانحراف المغناطيسي، وعلاقة هذا الخط بخط طول مكة المكرمة لم تدرس بعد.

إذن فالاستقراءُ لآيات القرآن الكريم ولأحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله عليه وسلم - يوضِّحُ بجلاء توسط مكة المكرمة بين السماوات السبع و الأرضين السبع، وهي حقيقة غيبية لا يمكن للعلم الكسبي أن يصل إليها بدون وحي من الله، وذلك لأنَّ الإنسان لا يستطيع أن يرى من فوق سطح الأرض إلا شريحةً صغيرةً من السماء الدنيا، وبالتالي لا يمكنه أن يحدد موقع الأرض من الكون}.

وممَّا أورده العالم زغلول النجار -أعلاه- يمكنُنا أن نلخِّصَ هذه الحقائقَ في النقاط الآتية :

1- ورود ذكر الأرض في مقابلة السماوات في أكثرَ من مائة وثمانين آية في القرآن، ممَّا يوحي بعَلاقةٍ متميزةٍ للأرض على ضآلتها من دون الكواكب والنجوم، مقارنة بالسماوات على ضخامتها المتناهية.

2- إشارة القرآن إلى البينية الفاصلة للسماء أو السماوات عن الأرض في عشرين آية صريحة، وهذه البينية لا يمكن أن تتم مع تناهي الأرض في الضآلة وتناهي السماوات في الضخامة إلا إذا كانت الأرضُ في المركز بين السماوات السبع، وأنَّ السماءَ الدنيا تحيط بالأرض من كلِّ جانب في شكل دائري. مثال لذلك:

﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ ﴾ "5 الملك".

3- إشارة القرآن في سورة الرحمن إلى مفهوم أقطار السماوات والأرض كمفهوم هندسي واحد، وقطرُ أيِّ شكلٍ هندسيٍّ هو الخط الواصل بين طرفين من أطرافه مرورًا بمركزه. إذا كانت أقطار السماوات والأرض واحدة، فلا بُدَّ وأن تكون أرضُنا في المركز من السماوات.

4. توافر حقائق علمية تؤكِّدُ أنَّ مكة تتوسط الأرض اليابسة، وتؤول عندها الانحرافات المغناطيسية إلى الصفر.

من ذلك كلِّه تتضح ومضةُ الإعجاز القرآني في قول الله ـ تعالى- مخاطبًا خاتمَ أنبيائه:

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ **أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا** ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ " 92 الأنعام".

كما رأينا فإنَّ العلم الحديث أثبت وسطية أمِّ القرى لكلِّ الأرض اليابسة، ومن هنا يكون المُنذَرون هم جميعَ أهل الأرض بلا استثناء، ويتضح وضعُ الكعبة المشرفة في وَسَط الأرض اليابسة، ويحيط بذلك كلِّه سبعُ سماوات، ويقابل الكعبةَ المشرفةَ من فوق سبعِ سماواتٍ طباقٍ البيتُ المعمورُ الذي لا يعلم سرَّه إلا لله.

بكة في التوراة:

و لمَّا كان هذا حالَ البيت وكونه حُجَّةً على الإنسانية وليس المسلمين الذين اتبعوا محمدًا فقط، فكان منطقياً جداً أن يكون ذكره في الكتب السماوية السابقة قد ورد محدداً باسم " **بَكَّةَ**"، الذي يشير إلى حال الإنسان الأول كما رأينا، وقد سعى اليهودُ إلى تحريفه كما حرَّفوا الكثير، ليُخفوا عَهْدَ الله لإبراهيمَ وإسماعيلَ به، ولكنَّ الله غلبهم إذ استعمل اسم "**بَكَّةَ**" الذي لا يعرفه إلا العربُ، فبقي في ما بقي من الزبور باللغة الإنجليزية رغم محاولة تحريفه في الكتاب المقدس المعرَّب:

{ما أحلى مساكنك يا ربَّ الجنود. تتوق بل تحن نفسي إلى **ديار الرب**. قلبي وجسمي يترنمان بفرح الله الحي. **العصفور** أيضًا وجد له وكرًا، **واليمامة** عثرت لنفسها على عش تضع فيه **فراخَها** بجوار **مذابحك** يا رب الجنود. يا ملكي و إلهي. طوبي لمن يسكنون في **بيتك** فإنهم يسبحونك دائما. طوبي لأناس أنت قوتهم. المتلهفون لاتباع طرقك المفضية إلى **بيتك المقدس**. وإذ يعبرون في **وادي البكاء الجاف**، يجعلونه **ينابيعَ ماء**، ويغمرهم المطر الخريفي بالبركات}" المزامير 84:1-7".

في الزبور الإنجليزي نجد كلمة {young} بدلاً من فراخها، و {valley of Baca } التي ترجمت إلى "وادي البكاء"، وقد كتبت بالحروف الكبيرة ممَّا يدلُّ على أنَّها اسمُ مكان، وليست صفةً لمكان كما يوحي التعديل إلى وادي البكاء. إلا أنَّ الخلاف ليس بين النسخة العربية والإنجليزية فقط، ولكنَّ هناك خلافاً مهماً بين التوراةِ التي يحتويها كتابُ النصارى والتوراةِ المعتمدة لليهود واسمه {TANAKH The Holly Scriptures JPS 1985} فإنَّ النصَّ الذي يقابل " المتلهفون لاتباع طرقك" ورد كما يلي باللغة الإنجليزية في توراة اليهود: { Happy is the man who finds refuge in you، whose mind is on the pilgrim highways. They pass through the valley of Baca}.

وهذا يمكن ترجمته - حَسْبَ تقديرنا- إلى الآتي: {طوبي للذي يشعر بالأمان عندك، وعقله مشغول **بالحَج** وهم يمرُّون خلال وادي بكَّة}.

هذه المقاطعُ من الزبور تصفُ حالَ هاجرَ حينما وصلت إلى موقع البيت مع صغيرها إسماعيل -عليهما السلام-، وقد رُمِزَ إليهما مجازًا باليمامة وصغيرها، إذ إنَّ الزبور عبارة عن أناشيدَ وفيه من المجازات الكثير. أمَّا العصفورة المذكورة فهي العصفورةُ ذاتُها التي ورد ذكْرُها في الحديث الصحيح {صحيح البخاري، الجزء الرابع، حديث رقم 583}، الذي ذكر أنَّ هاجر بقيت تشرب من زمزم أربعين يومًا إلى أن مرت إحدى قبائل جرهم بوادي مكة، فلاحظوا عصفورًا صغيرًا يطيرُ ففهموا أنَّ في الوادي ماءً لم يكن معروفاً لهم، فجاءوا وسكنوا مكةَ مع هاجرَ وإسماعيلَ. أمَّا ينابيعُ الماء فهي -بلا شك- زمزم، و"وادي البكاء الجاف" هو وادٍ وهميٌّ في وهْمِ مَن حاولوا تحريفَ الاسم بعد أن فوجئوا أنَّ الكتابَ المقدسَ انتشر باللغة الانجليزية قبل أن يُحذف منه اسمُ "**بَكَّة**" أو يُحرَّف لأنَّ الأوروبيين ما فهموه، فسارعوا في تغييره في الكتب العربية التي تُرجمت مؤخراً إلى "وادي البكاء" المجهول، رغم أنَّ الآياتِ تصف بيتاً لله يؤُمُه الآلاف وفيه هذه الآيات البيِّنة التي تحويها الكلمات، علماً بأنَّ كلَّ القواميس التي تفسِّرُ ألفاظ الكتاب المقدس أشارت إلى أنَّ وادي البكاء وادٍ مجهولٌ يُظنُّ أنَّه في فلسطين.

سألت "ترى" القسيس الذي اعتنق الإسلام قبل أسابيع من موته، والذي ذكرتُ قصتَه في مقدمة هذا الكتاب، ماذا يظنُّ في هذه الآيات. فأجابني بكلِّ ثبات: "لا أشك أبداً أنَّ محمداً هو النبيُّ الذي ظللت أبحثُ عنه طَوال عمري، وهأنذا أعرفه وأنا على فراش الموت"، وفاضت عيناه من الدمع ممَّا عرف من الحق، ومات -عليه رحمة الله وعلينا- بعدها بأسابيعَ قليلة، وترك وصية أن أصليَ عليه، فصليت عليه صلاة الجنازة وحيداً في قريته النائية في غرب بريطانيا يوم 25-8-2005، واستأذنتُ أسرَته أن أخلِّدَ ذكراه في أول مكتوب أقدمه للناس.

بيت الله:

ممَّا سبق، يتضحُ لنا أنَّ خلق العلي القدير ليس فيه حدثٌ عشوائي، بل إنَّ كلَّ قوانين الطبيعة ومقاليد السماوات والأرض تتداخل فيه، من هندسة وفلك وأحياء وكيمياء وغيرها، في لوحةٍ فنيةٍ باهرةٍ ومعجزةٍ لتقفَ حُجَّةً على كلِّ من يبحثُ في أسرار هذا الكون وتقودُه إلى الله ـ تعالى- . ولعله يتضحُ الآنَ للقارئ أنَّ كون مكةَ هي مركزَ الكون وأنَّها أولُ بقعة تخرج من تحت الماء، كلُّه يزيد من منطقية أنَّ خلْق "الأحياء" كلِّها قد بدأ في البقعة التي انحدرتْ منها المياهُ أولاً، وأنَّ عملية التطور إلى أن وصل الخلق إلى الإنسان العاقل قد تمت حول البيت. هذه التداخلات في قوانين الطبيعة حول البيت تجعل من الحج رمزاً لكلِّ قوانين خلق الكون و نظامه ومقاليد السماوات والأرض، ويجعل من تعظيم شعائره تدبُّراً في تلك "المقاليد"، و من المشي على خُطى الإنسان الأول في تلك البقاع تقليداً من تصميم صانع المقاليد أو "قلائد"، وأنَّه بذلك يكون حُجَّةً على الناس جميعًا بقدرة الخالق ومنزِل القرآن، وليس على المسلمين فقط. ولذلك فالقرآن ما ناقضَ نفسَه بأنْ جَعَلَ هذه الحُجَّةَ العلمية والتاريخية والجغرافية والكونية التي تهز كلَّ البشرية موجهةً للمؤمنين فقط، وإنَّما أعجز في اختياره للألفاظ بتوجيه الحُجَّة لكلِّ الناس.

ولمَّا كانت مِنطقةُ مكةَ مليئةً بالآيات التاريخية والعلمية والكونية، فإنَّه ليس غريبًا أن يكون الخطابُ القرآنيُّ انتقائيًّا جدًّا للألفاظ التي يصفُ بها تلك البِقاعَ التي تحمل بين وُديانها المقدسة هذا الكمَّ الهائلَ من الأسرار المذهلة. وسنحاول هنا استنباطَ العَلاقة بين تلك المدلولات المختلفة والحكمةِ من اختيارها في الآيات التي وردت فيها.

البيت:

يأتي هذا اللفظ منفردًا في آيات القرآن؛ ليعكسَ وظيفةَ البيت بوصفه مبنى، وليبيِّنَ عَلاقتَه بالإنسان عبر العصور- عمومًا- وليس علاقته التعبدية بأمَّة معينة، وكأنَّه لفظٌ يُستعمل عند ذكر قصة البيت من ناحيةٍ تاريخيةٍ وما دار حوله من أحداث أو ارتبط به من مفاهيم:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ " 96 آل عمران".

هنا نلاحظ أنَّ العَلاقةَ كانت علاقةَ بيتٍ عاديٍّ وُضع لإيواء أول ناس سكنوا الأرضَ في زمانٍ ما كان الإنسان بعدُ قادرًا على البناء. ثمَّ تهدَّم البيت كأيِّ بيتٍ آخرَ حينما هجره أولئك الناس، وتعرض لعوامل الطبيعة العادية كأيِّ مبنىً آخرَ. ولمَّا كانت للبيت قيمةٌ أخرى عند الله، فقد تفضل على إبراهيمَ وإسماعيلَ بمعرفةِ موقعِه وموضع قواعده، وكلَّفهم برفعها:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ..... ﴿١٢٧﴾ ﴾ " 127 البقرة".

هنا نلاحظ أنَّ دور إبراهيم وإسماعيل كان رفعَ قواعد البيت بوصفها مبنىً في زمانٍ ومكانٍ ما كان يمكن له أن يكون مأوى لأيِّ إنسان؛ لأنَّه حينها كان في وادٍ غيرِ ذي زرع لا يقطنه أحد. إذنْ فرفعُ قواعدِه تمَّ لحكمةٍ أخرى غيرِ الحكمة التي وُضع لها أول مرة:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ..... ﴿١٢٥﴾ ﴾ " 125 البقرة".

كما أسلفنا فإنَّ الله قدَّرَ أن يكون هذا البيتُ "مثابة" أي مرجعًا ومكانَ عودةٍ للناس ويكون أيضًا أمنًا، و لفظ الأمن في اللغة له معنيان: الأول هو ضد الخيانة، والثاني هو التصديق أي الثقة أنَّ ما قيل ليس إلا حقًا، كما في قول الله - سبحانه وتعالى- على لسان حال إخوة يوسف: ﴿ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ " 17 يوسف"، أي لا نظنُّ أنَّك تصدِّقُ ما نقول. من المهم أن نلاحظ أنَّ استعمال كلمة "أمنا" في هذه الآية يصفُ حالةَ تصديق من ثاب إليه في متأخر الزمن، وهذا يختلف عن استعمال اللفظ نفسِه في الآية السابقة :{وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا}، والتي تصف حالَ من دخله ونال الأمن داخله في غابر الزمن. ومن هنا نقول: إنّه ليس من المنطق أن يأتيَ أحدٌ من الناس من الصين أو أمريكا - مثلا- فقط ليشعرَ بالأمن "أي الاطمئنان وعدم الخوف" في هذا البيت، علمًا بأنَّ الوصول إليه عبر العصور ارتبط بأخطارٍ كبيرةٍ تزداد مع طول الرحلة وتعقُّد وسائل السفر، وما زال موقعاً لأحداث موتٍ كثيرة؛ نتيجةً لازدياد المستجيبين لأذان إبراهيم - عليه السلام- . إذنْ فـ "أمنا" هنا تُفَسِّرُها كلمة" مثابة" أي الرجوع للتصديق.

من أكثر الأمور التي تجعل الناسَ يعيشون في قلقٍ وحَيرةٍ في حياتهم، مهما آتاهم الله من المالِ ومتع الحياة، هي القضايا الغيبيَّةُ المرتبطةُ بأصلِ الحياةِ والحكمةِ منها والمصير بعد الموت. هذه الغيبيَّاتُ لا يستطيعُ الإنسانُ أن يشعر بأمنٍ في حياته معها إلا إذا فهمها فهماً واضحاً وموثقاً لا يداخله شك. من هنا يتضح لنا أنَّ المثابةَ المقصودةَ ليست "مثابةً" أو "عودةً" ليسكنوا في البيت الذي لا يدخله أحدٌ أصلا، وإنَّما هي رجعةٌ فكريةٌ ونفسيةٌ بكلِّ الوجدان والمشاعر والعقل لبيت الآباء، وبه يكون فهم قصة الخلق كلِّها وعَلاقة الإنسان بربِّه التي تغمر القلب بذلك الأمن، وهو التصديق المطلق لحقيقة خلق الإنسان و تطوره وعلاقته بربِّه منذ بَدء الخلق. هذه المثابةُ الفكريةُ المتاحةُ لكلِّ مَن يبحث عن الحقائق، تحقِّقُ التصديقَ المطلقَ في القضايا التي تجعل معيشةَ الإنسان ضنكا، و إنْ سكن قصوراً وحرسته دروعٌ مدرعة. فلعلَّ هذه هي الحكمةُ التي من أجلها رفع إبراهيمُ القواعدَ من البيت، الذي ما عاد مأوىً لأحد ولكنَّه موقعٌ يتمُّ فيه التصديقُ بالحقائق التي لا تصدق بسهولة.

على أنَّ البيت نفسَه ظلَّ كما هو بيتاً تعاملت معه مختلفُ القبائل التي سكنت عنده وَفْقاً لرؤياها وفهمهما:

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾ ﴾ " سورة قريش".

نلاحظ هنا أنَّ الدعوة الموجهة إلى قريش ما كانت لِأنْ يتعبدوا في البيت، وإنَّما كانت تذكيراً لهم بأن يعبدوا ربَّ البيت الذي تفضل عليهم بفضائلَ أخرى لا عَلاقةَ لها بالبيت. ونظنُّ أنَّ الحكمة من هذه الآية هي إفاقةُ قريش من

شركها وضلالها، ودعوتُهم ليثوبوا أي يرجعوا فكريًّا لحقيقةِ أنَّ ربَّهم هو ربُّ هذا البيت، وهو الذي يتحكم في كلِّ جوانب حياتهم، وليست الأوثان التي دنَّسوا بها البيت. إذ إنَّه في عهد قريش ما كانت العبادة عند البيت إلا نفاقا:

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

" 35 الأنفال".

ومهما كان حالُ الناس عند البيت عبر العصور، فقد ظلَّ البيتُ مملوكًا لمالكه الذي وضعه للناس أول مرة، وظلت له قيمٌ أخرى وإنْ نسيها العربُ حينًا من الزمن، قدَّرَ اللهُ لها أن تعودَ إليه بعد أن اكتملت رسالةُ الإسلام وأكمل اللهُ دينَ الناس وأتمَّ عليهم نعمتَه وارتضى لهم الإسلام ديناً، وهذا ما تمَّ بعد فتح مكة حينما طهَّر النبيُّ الخاتمُ - صلى الله عليه وسلم- بيتَ الله من الأوثان مع نهاية الوحي ونزول آية اكتمال الإسلام. هنا فقط أصبح البيتُ مركزًا مهمًا للتشريع الإسلامي؛ ولذلك نجد أنَّ الآيات التي تصفه من منطلق تشريعي وليس تاريخي فقط، تشير إليه بألفاظ ذاتِ مدلولاتٍ أعمقَ من كونه بيتاً فقط.

البيت العتيق:

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾ " 28 الحج"

عتيق: هو الشيء الضارب في القدم، وأيضًا تَجْمعُ كلَّ معاني الكرم خَلقاً وخُلقاً. ومن استعمالاتها: عتْقُ العبدِ أي تحريرُه من الاستعباد؛ لأنَّ في ذلك إعادة كرامته. وتوصف الخمرُ بـ "المعتقة" أو "العتيقة" أي قديمة في التخمير، وهي إشارةٌ للجودة والتركيز. وقد اختُلِف في تسمية "البيت العتيق"، فمن قائلٍ: إنَّه أعتق من الغرق أيامَ الطوفان فَرُفِعَ عن الأرض، ومن قائلٍ: إنَّه أعتق من الحبشة في عام الفيل، ومن قائل: إنَّه لا يدعيه أحد إلا الله - جلَّ جلاله- . والاختلافُ في التفسير لا يدلُّ إلا على غموض المعنى. ونحن نظنُّ أنَّ كلَّ هذه المعاني تتفق وحالَ البيت، على أنَّنا نعتقدُ أنَّ أبلغها هو أنَّه ضاربٌ في القِدم إلى أبعدَ من أن يصل إليه خيالُ الإنسان. فهو أولُ بيتٍ وُضِعَ للناس، وهو أولُ بيت اجتمع حوله جنسُ آدمَ والإنسانُ الأول، وهو أولُ موقعٍ بدأت البشريةُ تتطور حوله، و ربَّما هو الموقعُ الذي بدأت فيه الحياةُ مطلقاً. وهو - بلا شك- أولُ بيتٍ مارسَ عنده خليفةُ الله في الأرض سلطاتِه الأولى.

نلاحظُ أنَّ الآية هنا لا تتعامل مع البيت من ناحيةٍ تاريخيةٍ أو كونه مبنى، وإنَّما من ناحيةٍ تعبُّديَّةٍ لِمَا فيه من علاقةٍ بين الخالق والخلق، وما فيه من آيةٍ بينةٍ من آيات خلق الأرض وخلق الإنسان. ولذلك فإنَّ موضوعَ الآيةِ هو عبادةُ الطواف، والطوافُ لا يتمُّ حول أيِّ مبنىً أو أيِّ بيتٍ، وإنَّما حول البيت الوحيد العتيق، لذلك كانت الصِّلةُ بين "البيت العتيق" والإنسانِ هنا هي "الطواف" والعبادةَ وليس السكن فيه أو حوله كما سكنت قريش أيام جاهليتها.

هذه الآية توحي بأنَّ الطوافَ -على ما فيه من عبادة- مرتبطٌ بالحقيقة الجغرافية والتاريخية الكونية لموقع البيت وكرم أصله وموقعه. والطوافُ حول البيت يتمُّ في اتجاه عكس عقارب الساعة المعروفة، أي مع حركة دوران الأرض حول الشمس، و ربَّما يكون في ذلك علاقةٌ بدوران الكواكب في السماء، أو سرٌّ من أسرار نظام الكون، أو طواف الملائكة حول البيت المعمور، وكلُّها معانٍ غامضةٌ لكنَّها ترتبط بكون البيت عتيقًا. ونلاحظ أنَّ كلمة "عتيق"

وردت في القرآن مرتين فقط في موقعين تعبُّديين ذوَي مدلولاتٍ أبعدَ من أن يوفيها الإنسانُ بعلمه القاصر حقَّها، كانت الأولى في الآية أعلاه، والثانية في هذه الآية الغامضة جدًّا:

﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ ﴾ "31-33 الحج".

ذكر القرطبيُّ ثلاثةَ أوجهٍ لإعراب كلمة "ذلك" في هذه الآية في محاولةٍ لفهم ماذا تشير إليه، ممَّا يدلُّ على أنَّ قراءة الآية نفسها فيها غموض، وأجمل القرطبيُّ أنَّها ترجع إلى "شعائر الله" وهي علاماتُ دينه البينة، ثمَّ مضى يشرحُ الجزءَ الأكثرَ غموضاً من الآية فقال:

((قوله - تعالى- : " ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ " يريد أنَّها تنتهي إلى البيت، وهو الطواف. فقول:

"محلها" مأخوذٌ من إحلال المحرم. والمعنى أنَّ شعائر الحج كلَّها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق. فالبيت على هذا التأويل مرادٌ بنفسه؛ قاله مالك في الموطأ. وقال عطاء: ينتهي إلى مكة. وقال الشافعي: إلى الحرم. وهذا بناءً على أنَّ الشعائر هي البُدن، ولا وجه لتخصيص الشعائر مع عمومها وإلغاء خصوصية ذكر البيت. والله أعلم)) . وقد أورد ابنُ كثير قولًا جامعًا لشعائر الله: ((وقال محمد بن أبي موسى: الوقوف ومزدلفة والجمار والرمي والحلق والبدن من شعائر الله. وقال ابن عمر: أعظم الشعائر البيت.)).

من هذه الاختلافات نشعرُ أنَّ الآية -أصلا- لم يرد فيها رأيُ مَنْ لا تجوز مخالفته - صلى الله عليه و سلم-، وإنَّما كان فهمُها بِناءً على فهم المتقدمين البسيط للأحداث التي ارتبط بها البيت العتيق. ولمَّا كنَّا قد وقفنا على أسرارٍ أكبرَ وأحداثٍ أكثرَ عمقاً في علاقة الإنسان بهذا البيت العتيق، وعلاقةِ هذا البيت بالكرة الأرضية، وعلاقةِ الأرض بالكون، فإنَّ فهمنا لها لا بُدَّ أن يأخذ مفهوماً أشملَ ليعبِّرَ عن تلك المعاني مجتمعة. من الغريب أنَّ أغلبَ المفسرين فهموا أنَّ "مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ" ترجِعُ إلى "البَدَنَة"، علمًا بأنَّ هذه الآية -أصلا- ما وصفت "البَدَنَة" ولا حتى الآيات التي سبقتها التي حذرت من الشرك، وإنَّما ذكرت البَدَنَة وأنَّها من شعائر الله بعد آيتين من هذه الآية، ولذلك لا نجدُ مسوِّغًا لتفسيرهم غيرَ أنَّ الآية كانت غامضةً عليهم فاجتهدوا في ربطها بالبدنة.

ونحن نظنُّ أنَّ تعظيم شعائر الله في هذه الآية التي جاءت بعد آيةٍ أخرى تحذِّرُ من الشرك بالله، إنَّما تشملُ كلَّ الشعائر الموجودة في البلد الحرام من المشعر الحرام إلى البيت العتيق، وتعظيمُها هنا يأتي ضد الشرك ممَّا يدللُ على المعاني العميقة في هذه الشعائر، وليس الحجارة التي لا تُعبَدُ أصلا، كما قال عمرُ بنُ الخطاب: "والله يا حجر إنِّي أعلم أنَّك لا تنفع ولا تضر، ولولا أنِّي رأيت رسولَ الله - صلى الله عليه و سلم- يقبلك لمَا قبلتك". هذه المعاني في الشعائر الحرام قد وقفنا عليها، وهي تحكي كلَّ قصةِ الخلق والتطور وموقعَ البيت العتيق من الأرض ومن الكون ومن تاريخ الخلق. هذه المعاني مجتمعةً تحكي قصةَ الحياة الدنيا كلَّها، وبهذا نظنُّ أنَّ " لَكُمْ **فِيهَا** مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى" لا ترجِعُ

إلى البَدَنَة التي لمَّا تُذكرْ بعدُ في الآيات، وإنَّما ترجعُ إلى الحياة كلِّها. وكلمة "**محلها**" قد لا تعني وصول البدنة إلى البيت العتيق كما ظنَّ المفسرون، إذ إنَّ هذا كان في زمنٍ مضى ولم يكن شرطاً لصحة عبادة الحج و صحة الْهَدْي، بدليل أنَّ الْهَدْيَ الآنَ يُذبح على بُعد أميال من الحرم، ولا ينتقص ذلك شيئًا من الأجر فيه، والله أعلم. إذنْ فكلمة "محلها" لا بُدَّ وأن تكون لها صلةٌ بمجموع المعاني التي ترمزُ إليها الشعائرُ الحرامُ والبيتُ العتيق.

أورد صاحبُ مقاييس اللغة معنىً لـ" محله" ما وجده إلا في بيت شعر لسيبويه، وهي تعني الغور، وهو "خفوض في الشيء وانحطاط وتطامن". ونحن نظنُّ أنَّ في هذا إشارةً إلى أحد أسرار البيت العتيق، من استقراره في موضع تتطامنُ عنده هيئةُ الأرض، و تنخفضُ فيه القوانينُ التي تحكم حركة الأرض، وتؤولُ المجالاتُ المغناطيسيةُ عنده إلى الصفر كما رأينا ممَّا اكتشف حديثاً من أسرار أمِّ القرى، وتتطابق عنده أقطارُ السماوات والأرض. فهذه آيةٌ إضافيةٌ إلى معاني "شعائر الله" التي تحكي كلَّ قصة الحياة الدنيا -التي لنا فيها متاعٌ إلى أجل مُسمَّى- من خلق الإنسان و تطوره، وعلاقته بربِّه، و علاقته بالبيت عبر العصور، وليس "البدن"، والله أعلم.

الكعبة:

الكعبة لفظ تجسيمي للبيت، إذ تعني البروز والنتوء فوق الأرض، وربَّما يكون أصلُ اللفظ من لغةِ أولِ ناس سكنوا البيت، وقد وصفها الرسولُ - صلى الله عليه وسلم- بـ " خشعة" وتعني قطعة من الأرض غلبت عليها السهولة، و هي حالةُ أرضِه حين خرجت من تحت الماء. و قد ورد لفظ الكعبة في القرآن مرتين :الأولى- ارتبطت بآذان الأنعام وهو الْهَدْي:

﴿ ..... يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ....﴿٩٥﴾ ﴾" 95 المائدة".

هنا نفهم أنَّ النية في هذا الْهَدْي تكون خالصةً مجردةً لله، ممثلا في الكعبة المشرفة لِمَا لها من دلالاتِ قدرةِ الله في خلق الكون كلِّه، وما الكعبةُ إلا أعظمُ شعائر الله كما ورد في تفسير الطبري أعلاه. نلاحظ أنَّ ذكْرَ الكعبة هنا مرتبطٌ بتوحيد الخالق، وهو قيمةٌ تعبُّديةٌ بحتة. الموضع الثاني- ورد فيه لفظ الكعبة أيضًا في آيةٍ جمعتْ كلَّ شعائر الله وأبرزتها دليلًا على علم الله الذي يعلم ما في السماوات والأرض، وكأنَّها إشارةٌ إلى أنَّ ما نعلمه من أسرار ليس إلا قليلًا جدًّا:

﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ

أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ﴾ " 97المائدة".

وقراءة الآية حَسْبَ ما يوحيه المعنى هي: "جعل الله الكعبة البيت الحرام، والشهر الحرام، والهدي والقلائد، قيامًا للناس" أي أنَّ كلَّ هذه الشعائر قيام للناس.

أورد الطبريُّ في تفسيره أنَّ قياماً أصلها "قواما" وإنَّما قلبت الواو ياءً، وكذلك قال غيرُه. والقوامُ هو الذي يقوم على أمر الناس ويصلح به حالهم، كالملك القوام الذي يحقُّ الحقَّ ويبطلُ الباطلَ.

ونحن نفهم أنَّ هذه الآيةَ جمعت كلَّ شعائر الله المحرمة في صياغة واحدة، وهي الآيات المنزلة التي تمثلُ رمزاً لخلق الأرض وخلق الكون وخلق الحياة و تطورها عمومًا والإنسان خصوصا، وعلاقة الإنسان بربِّه منذ الأزل،

وعلاقته بالشيطان عدوِّه الأول والأزليِّ أيضًا، وعلاقته بالأنعام التي أنزلت من ربِّه لخدمتِه وهدايتِه لوجود خالقه. ونظنُّ أنَّ مدلولَ هذه الآية أنَّها تجمعُ أخطرَ العلوم التي يبحث عنها الإنسانُ في أمور أصل الإنسان والحياة والكون، وبالتالي ما بعد الموت. إنَّها تجمعُ كلَّ ما كتبنا في هذا الكتاب من معانٍ وعلوم، ولا غروَ - إذنْ- أنَّ الله لم يجعلْها قيامًا للمسلمين أو المؤمنين فقط، وإنَّما جعلها قيامًا "للناس"،مسلمهم وكافرهم، إذ إنَّها مجموعُ الحُجج التي جعل الله بها الحجَّ حُجَّةً لله على الناس، كلِّ الناس، إلى يوم الدين.

ونلاحظ أنَّ البيتَ قد ذُكِر بكلِّ أسمائه " الكعبة البيت الحرام" لتجتمعَ كلُّ معانيه، ما نعلمُه وما لا نعلمُه في هذه الآية الجامعة؛ ليكونَ قيامًا إلى مدرسةٍ تُصلِحُ حالَهم وتهديهم إلى كلِّ الحقائق الكونية، ويكونَ حُجَّةً على الناس كلِّهم. وما علينا نحن - المسلمين- في هذا إلا البلاغ.

القِبْلَــة:

أمرُ اختيار البيت ليكونَ قبلةً للمسلمين في صلاتهم وذبائحهم وكلِّ عباداتهم التي يرجون فيها وجهَ الله، أمرٌ غامضٌ أخذه الفقهاء في الماضي على أنَّه أمرٌ توقيفيٌّ اختاره اللهُ لحكمةٍ يعلمُها هو وما علينا إلا الطاعة. على أنَّ اختيارَ المسجد الأقصى ليكونَ قبلةً مؤقتةً، قبل تحوُّلِ القبلةِ إلى الكعبة إلى يوم القيامة، أمرٌ أثبت العلمُ الحديثُ ارتباطَه بأسرارٍ يمكن للإنسان أن يتدبَّر فيها، وإنْ كنا لا ندري بعدُ تفاصيلَ تلك الأسرار، إلا أنَّ النظرَ فيها يزيد المؤمنين إيمانًا. فقد ثبت علميًّا أنَّ الطاقاتِ المغناطيسيةَ الكامنةَ حول المسجد الأقصى أعلى من أيِّ موقعٍ آخرَ في الأرض ما عدا المسجدَ الحرام. فربَّما تكونُ هناك عَلاقةٌ بين موقعِ البيت والطوافِ حوله والتطوفِ بين الصفا والمروة، بما فيها من طاقاتٍ غامضةٍ وعبادةِ التوجه إلى ذلك الموقع بوصفه قبلةً للمسلمين. فإذا كان تحليلُنا لأصلِ حجارةِ الصفا والمروة والحجر الأسود أنَّها من خارج الأرض، وأنَّها ذاتُ صلةٍ بالجمرات التي أُنزلت من خارج الأرض، ولها خاصيةُ طاقةٍ كامنةٍ تدمِّرُ الطاقةَ الناريةَ التي خلقت منها الجن- فربَّما يكون في عبادة الطواف حول مركز الأرض، الذي تنعدم عنده الانحرافاتُ المغناطيسية والتطوف بين الصفا والمروة، فيهما سرٌّ تبادل طاقات بين جسم الإنسان المشحون بالطاقات المغناطيسية والكهربائية والطاقات الكامنة في هذه الحجارة وهذه المواقع. ربَّما يكون في هذه العبادات إعادةُ توازنٍ لطاقاتِ جسدِ الإنسان، خصَّ اللهُ بها المؤمنين من عباده الذين يؤدون هذه العبادات ولا يعلمون لها سرًّا.

في زماننا هذا، نعلمُ أنَّ أجهزة الاستقبال في "التلفاز" والمذياع والهاتف الجوال تحتاجُ لتوجيهٍ نحو موقع الإرسال أو الاستقبال؛ حتى يكونَ الاتصالُ واضحاً و صحيحاً. فربَّما يكون التوجُّه نحو القبلة فيه نفسُ الخاصية من الاتصال الروحي بموقعٍ خصَّهُ اللهُ بطاقاتٍ تجعل اتصالَ روح الإنسان بخالقه أكثرَ صفاءً ونقاءً، تمامًا كما يحتاجُ الاستقبالُ والإرسالُ في أجهزة "التلفاز" إلى توافق في علاقة المرسل والمستقبل. لا شكَّ أنَّ الدعاء إلى الله يكون برفع الأكف نحو السماء، ولكنَّ العباداتِ الجسديةَ تتمُّ بتوجهِ الإنسان نحو القبلة، ممَّا يفتح باباً للتدبُّرِ في هذا التخصيص، والله أعلم. ونحن هنا لا ندعي كشفَ أسرارِ البيت العتيق التي لا يمكنُ لنا أن ندعيَ معرفتَها كلَّها، ولكنَّنا فقط نجتهدُ في أن نفتحَ البابَ أمام جيلٍ جديدٍ من المفكرين الذين لهم درايةٌ بعلوم الكون ليبحثوا في هذه الأسرار.

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ ﴾ "طه 5"

ولعلَّنا الآنَ وبعدَ أن ربطنا **المقاليدَ** في السماء مع **القلائدِ** في الأرض، وألقينا بعضَ الظلال على أسرارِ وسطِ الأرض ومركزِ الكون عند البيت العتيق، يسهلُ علينا أن نعرُجَ مرةً أخرى لتأويل بعض آياتِ العرش التي آثرنا تأجيلَ تأويلها حتى تتضحَ الرؤيا لنا في فهم نظام الكون كلِّه؛ لأنَّها تصفُ تَحَكُّمَ الله - تعالى- في ناموس الكون بصورةٍ منتظمةٍ وحكيمةٍ، لا يشوبها تقلبات، ولا تخضعُ لمزاج أحدٍ أو تغيُّر الظروف. ورد مفهومُ "الاستواء على العرش" في سبعِ آياتٍ مختلفةٍ في القرآن، كلُّها تتفقُ مع المعنى الذي نطرحُهُ من خلال مناقشةِ موقعين منها:

الاستواء على العرش:

في سورة السجدة ارتبط الاستواءُ على العرش بظواهرَ كونيةٍ عظمى:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ **ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ** مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٤ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِى يَوۡمٍ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٦ ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٩ ﴾ " 4-9 السجدة".

نلاحظ أنَّ الاستواءَ على العرش هنا :

1- تلا اكتمالَ المراحل الستة في خلق السماوات والأرض، وقد قدم إليه بحرف العطف "ثـــمَّ".

2- تبعه وصفٌ لحجم الكون وسرعة الضوء، ومفهوم النسبية في الزمان والمكان، ثمَّ تفاصيل خلق الإنسان و تطوره عبر مراحل التطور من الطين، مرورًا بالتناسل الجنسي منتهيًا بالعقل.

من هذا يمكنُنا أن نفترضَ أنَّ مفهوم "الاستواء" يرتبط بالقوانين الإلهية التي تحكم الكون، وبمقدور الإنسان دراستها وفهمها والتعامل معها.

وفى سورة طه بُعدٌ آخرُ للاستواء على العرش، يشرحُ لنا الحكمةَ من الاستواء على العرش، وبذا تشرحُ هذا المفهوم الغامض:

﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾ " 4-8 طه".

لا يخفى علينا أنَّ هذه الآيات قد فتنت الكثيرين على مرِّ العصور، وما زالت تسبب حرجاً كبيراً للعلماء والعامة، إذ إنَّ اجتماع لفظ "استوى" مع لفظ "العرش" يزيدُ من التصوير التجسيمي الذي يناقض الصفاتِ الإلهيةَ. ولكن استعصى على المسلمين فهمُها في الحِقَب التي كان فهمُ ناموس الكون فيها مستحيلا، فظلت مصدرَ إشكالٍ كبيرٍ في التأويل. وقد تعامل معها المفسرون بحذرٍ شديدٍ لِمَا تسببه من فتنة للإنسان، ولعلَّ أبلغَ ما قيل في أمرها هو قولُ الإمام مالك - رضى الله عنه-: {الاستواءُ معلومٌ والكيفُ مجهولٌ والسؤالُ عنه بدعة}. ونحن نحمدُ اللهَ - سبحانه وتعالى- أن جعلنا نعيشُ في زمانٍ تكاثر فيه علمُ الإنسان بقوانين الكون التي كانت غيبًا على هؤلاء الأئمة. وهذا يشملُ علَمَنا بكُرَويَّةِ الأرض ودورانِها حولَ نفسِها وحول الشمس، وتوسطِ الشمسِ للمجرة الحلزونية، وحركةِ الكواكبِ والنجوم والمجرات في الفضاء، وقدرة الإنسان على التعامل مع قوانين الطبيعة والطيران عكس الجاذبية الأرضية فوق السحاب بسرعة أسرع من الصوت... كلُّ هذه الحقائق الكونية أصبحت من المسلَّمات عندنا، ولكنَّها كانت غيباً على أولئك المفسرين الأفذاذ. ونظنُّ أنَّه ليس من حقنا أن نعيد تفسيرَها بما آتانا الله من علمٍ فحَسْب، بل هو واجبٌ شرعيٌّ تقتضيه أمانةُ العلم الذي علمَّنا اللهُ إياه بالقلم وما كان متاحًا لغيرنا.

طه: اختلف المفسرون اختلافاتٍ كثيرةً في مدلول هذه الحروف، ولسنا بصدد نقل آرائهم، ولكنَّ لدينا من العلمِ بكيفيةِ عملِ أدوات السَّمْع التي تلتقط الأصوات، والألبابِ التي تصنفُها وتحفظُها، ما يجعلنا نظنُّ أنَّ هذه الحروف لها مدلولٌ صوتيٌّ يؤثِّرُ على مراكزَ محددةٍ في المخ، فيقود إلى استشعارٍ وهيئةٍ نفسيةٍ تجعله أكثرَ تقبلًا لِمَا يتبعها من كلام مفهوم.

وفي هذه الحقيقة العلمية يشترك المسلمُ والكافرُ، وما قولُ اللهِ - تعالى- ﴿ ... إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ " لقمان19 " إلا تأكيدٌ على أنَّ غيرَ المفهوم من الأصوات فيه الحسنُ الذي يريحُ النفس، مثل: زقزقة العصافير، وهديل الحمام، و تغريد البلابل وغيرها، وفيه المرعب، مثل: نباح الكلاب، وزئير الأسود. وفيه المنكر الذي يؤدي للاشمئزاز كصوت الحمير. إذا تدبَّرنا موضوعَ الآيات فسنشعرُ أنَّ لفظة "طه " فيها مِفتاحٌ موسيقيٌّ

لمراكز الشعور بالرأفة والرحمة والرقة، التي تنسجمُ مع ما سيأتي بعدها من قولٍ رقيق ليس على قلب النبيِّ فحَسْب، وإنَّما كان فيه مفتاحٌ لقلبٍ من أقسى قلوب العرب على النبيِّ وهو عمر بن الخطاب - رضي الله عنه-. وتمضي الآياتُ وكأنَّها تُرَبِّتُ على كتف النبيِّ بكلِّ رأفةٍ وحنانٍ كان أحوجَ ما يكون إليهما:

﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ﴾ "طه 2-4".

ولعلَّ في وصف نفسِه بأنَّه مَنْ خَلَقَ الأرض والسماواتِ العُلى تمهيدًا للتصريح بحقيقةٍ كونيةٍ ارتبطت بظروف الآية التي كانت تُهوِّن على النبي، وتزيدُ من عزيمته وصبره على ما كان يعانيه، وهو ينتظرُ رحمة الله وتيسيره، الذي لو شاء لجعل كلَّ الناس مؤمنين من غير معاناة، ولكنَّ إرادتَه اقتضت أن يُبْتَلَى المؤمنون ويُزلزلوا زِلزالًا شديدًا قبل أن يأتيَهم نصرُ الله. ونلاحظ أنَّ خلق الأرض جاء قبل خلق السماوات هنا، رغم أنَّ القرآنَ في كلِّ آياته التي وصف فيها خلْقَ السماواتِ والأرض، قدَّمَ السماواتِ إلا في هذه الآيةِ وآيةٍ أخرى اقتضت صياغةُ الوصف فيها تقديمَ الأرض لاختصاص الأمر- كما هو الحال هنا- بالأرض. هذا التمهيدُ يؤكِّدُه أنَّ الآية التالية تصفُ عَلاقةَ العرش بأحداثٍ في الأرض، و تُصرِّحُ بأنَّه رغم أنَّ اللهَ مالكُ كلِّ شيء، إلا أنَّ رحمته لا تأتي عفوًا أو عشوائيًا؛ لأنَّ قانون الكون اقتضى استواءَه على العرش:

﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ "طه 5".

كلمة **اسْتَوى** أصلُها من (سوي)، وتعني الاستقامة والاعتدال بين شيئين. سَوَّى تعني عدَّل ونفَّذ الشيءَ باستقامةٍ وحكمة. واستوى على قياس "افتعل" من ذات المعنى، وتدلُّ على تأكيدٍ وإحكامٍ في التسوية.

وقد رأينا أنَّ لفظ "**عرش**" حينما يرتبط بالذات الإلهية لا يعني مجلس الملك، إنَّما قمة السلطة والقدرات المنتظمة المتناسقة في الخلق والتحكم فيه وتسيير الأمور وَفْقَ نظامٍ محكمٍ لا يتبدل، وهو ناموسُ الكون الذي يصعب على الإنسان فهمُه مهما أوتي من علم. ورأينا في تفسير آيات سورة الملك أنَّ لفظ العرش يَرِدُ بالتحديد حينما تكون السلطة الإلهية مرتبطةً بنظام الخلق والمقاليد وليس الإرادة الإلهية المطلقة. فـ "كان عرشه على الماء" تعني أنَّه فرض على الماء أعلى قدر من القوانين النوعية التي جعلته يتغيَّرُ إلى أشكالٍ مختلفة، ويدخل في خلق كلِّ الكون بصورٍ متباينةٍ وبنسبٍ ثابتة.

ولفظ "**على**" يفيد أنَّ اللهَ له إرادةٌ مطلقةٌ و حرةٌ في التعامل مع الوجود من غير قانون أو نظام، ولكنَّه جعل تلك الإرادةَ الحرةَ تعلو على القانون الذي قدَّره "العرش" وجَعَلَ من شأنه تسيير نظام الكون، وأنَّه قادرٌ على تعطيلِ القانون الذي صنعه، وتغييرِه أو إلغائه أو إزالة كلِّ الوجود بإرادته التي تعلو عليه. فهو الذي خلق النار الحارقة، ولكنْ حينما شاء أمَرَها أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم، فكانت كذلك؛ انصياعاً لأمره المطلق الذي يعلو على قوانين النار النوعية.

ثمَّ رأينا في آية الكرسي، أنَّ الكونَ جسمٌ واحدٌ متداخلٌ ومتصلٌ من أقصاه إلى أقصاه، وكلُّ موجودٍ فيه أودعه اللهُ قوانينَ تحكمُه وتتحكمُ فيه وتتداخلُ مع ما حوله من الموجودات الملتصقة به وَفْقَ نظامٍ ثابتٍ منتظمٍ لا تخبُّطَ فيه ولا عشوائية، ويتحكم الله فيه بصورة مطلقة.

تفسيرُ لفظ "العرش" هنا بمعنى السلطة العليا في قوانين الكون و ناموسه، يحلُّ الإشكال في فهم كيفية الاستواء عليه. فالعرش بهذا المعنى ليس مجلساً وإنَّما نظامٌ دقيقٌ محكم. وبمجرد إبعاد صفة المجلس عن لفظ العرش، يصبحُ السؤال عن كيفية الاستواء مشروعًا جدًّا؛ لأنَّنا هنا نبحث في نظامٍ تسيرُ عليه الأمورُ، وليس تجسيدًا لهيئةِ الذات الإلهية. فالاستواءُ عليه في هذه الآية لا يمكن فهمُه إلا من مدخلٍ يشملُ كلَّ ما نعرف عن نظام الكون، من قوانينِ فلك وطاقاتٍ كهربائيةٍ ومغناطيسيةٍ تحددُ مسارَ المجرات والكواكب والنجوم، وقوانين نوعية تحدِّدُ خواصَّ وتفاعلاتِ المواد الكيميائية والفيزيائية والهواء والغازات التي تملأ الكون، وقوانين الطبيعة التي تتحكم في الأحياء وكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ تخضعُ لناموس الكون المحكم. بمعنًى آخرَ فإنَّ إرادة الله المطلقةَ تعلو على ناموس الكون الذي خلقه، ولكنَّ ذلك العلو تمَّ باستواءٍ وتوازنٍ وليس علوَّ تسلطٍ فوضوي.

وعليه فإنَّ استواءَ الله على ناموس الكون الذي صمَّمه، تشيرُ إلى أنَّ الحكمة الإلهية اقتضت أن يحترمَ اللهُ ذلك النظامَ الذي صنعه ويتحكم فيه. فهو الذي خلق نظامَ الخلقِ والسلطة العليا التي تدير الكون، وهو الذي جعل كلَّ شيءٍ موزونًا و متزنًا ومتناسقاً مع النظام الكوني، وهو أولُ من يحترم تلك القوانينَ التي صَنَع، رغم أنَّه لو شاء لغيَّر كلَّ الكون وجَعَله يسيرُ وَفْقَ إرادته المطلقة من غير نظام؛ لأنَّ إرادته تعلو على النظام نفسِه، ولا يستطيع أحدٌ أن يعترض أو يتمردَ عليه. هذا المفهومُ، مفهومُ الاستواءِ على العرش أو التعامل باستقامة سويَّةٍ مع ناموس الكون، يرتبطُ ارتباطًا وثيقًا بموضوع الآيات وهو التخفيف عن النبيِّ الذي كان يعاني ما يعاني، ويعلم علمَ اليقين أنَّ الله قادرٌ على أن ينصره في أقل من طرفة عين. هنا يخبره اللهُ - تعالى- له أنَّه قادرٌ، ولكنَّ حكمتَه اقتضت أنَّ كلَّ شيءٍ يقعُ وَفْقَ نظامٍ وأسباب وليس أهواء وعواطف، وما عليه إلا الصبرُ حتى تكتملَ أسبابُ النصر فيتحول الصبر انتصارًا والشقاءُ نعيمًا. وهذا المعنى يفسِّرُ لنا أيضاً لماذا تقع الكوارثُ ولا يتدخل اللهُ بقدرته لإيقافها، إذ إنَّ كلَّ شيءٍ يقع نتيجةً لتداخل قوانين الطبيعة التي خلقها اللهُ وسمح لها أن تتداخل وَفْق النظام الذي صمَّمه. ويفسِّرُ لنا لماذا لم ينتقم اللهُ من إبليسَ ويقتله من أول يوم، وما ذلك إلا لأنَّه - سبحانه وتعالى- إذا أعطى الحرية لأحدٍ من خلقه، فإنَّه يتعاملُ مع تلك الحرية بحكمةٍ ثابتةٍ لا تخضعُ لتغيُّر الرأي و العواطف و الانفعالات التي يتعامل بها البشر. ومن رحمة الله على المخلوقات التي لا تعلم الغيب، أنَّ الله استوى على ناموس الكون، ومن ثَمَّ فيمكنُنا أن نضع مخططاً يقوم على أيَّةِ حقيقةٍ كونيةٍ ثابتةٍ من دون خشيةِ أنَّ هذه الحقيقةَ ربَّما تتغيَّرُ بعد سنوات. فنحن نخططُ بناءَ المدن ونقيمُ المشاريع الزراعية وَفْقًا لحسابنا لحركة الشمس وشروقها من المشرق وغروبها في المغرب، رغم أنَّ الله لو شاء لجَعَلَ هذه الظواهرَ الكونية عشوائيةً لا يمكنُ حسابُها والتعاملُ معها، ولكنَّ رحمته اقتضت الاستواءَ عليها، أي التحكم فيها من غير خرقٍ للنظام الذي صمَّمه. الماءُ ينساب من أعلى إلى أسفل والليل يعقب النهار، ليس لأنَّنا نعلم الغيب، ولكنْ لأنَّنا نعلمُ أنَّ الخالق لهذا الناموس والمتحكم فيه قد استوى عليه ولا يغيِّرُه بصورة عشوائية. إذنْ فهو الذي صنع النظام، وهو الذي يحافظ عليه ويتحكم فيه بصورةٍ سويةٍ مستقيمةٍ يمكنُ للإنسان أن يدرسَها ويفهمَها ويتعاملَ معها بما فيه مصلحته بحرية مطلقة. وهذا المعنى يدلُّ على رحمة الله التي لا حدودَ لها على الخلق و على كلِّ الكون، إذ إنَّ كلَّ شيءٍ، إنسانًا كان أو حيوانًا، يمكنُ أن يفهم ماذا سيحدث غداً،ما دام يعلمُ النظامَ أو العرش الذي كرس اللهُ به السماوات والأرض. فالنملُ والنحلُ تخطط

لحياتها وَفْقًا لتغيُّراتِ المُناخ، وتدَّخرُ قوتها للخريف، وما ذلك إلا لعلمها أنَّ الرحمن على العرش استوى. وما الكَمُّ الهائلُ من الاكتشافات العلمية في هذا العصر سواء على يد المسلم أم على يد الكافر إلا ضربٌ من ضروب استوائه على ناموس الكون أو العرش. فالفرصة متاحةٌ للجميع للتدبُّر والبحث، ومن جدَّ وجد، ومن بحث اكتشف، ومن ألقى بنفسه إلى التهلُكة فسيهلك مهما كان إيمانه بالله، ومن قاد سيارةً من غير فرامل فسيصطدم، ومن لمس سلك كهرباءٍ مكشوفٍ فسيصعق، ومن سلك سبيل السلامة في التعامل مع الظواهر الكونية في هذه الدنيا فسيسلم حتى وإنْ أنكر وجودَ الله وهكذا. فاللهُ خلق النظام و استوى عليه، ولا يعدله إرضاءً لأحد، ولا حتى لاستعجال النصر لنبيه الذي أحب. ومن هذه الآية نفهم لماذا خَلَت حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم- من المعجزات التي تعجِّلُ بالنصر، رغم أنَّ الله كان قادرًا على أن ينصر دينه من أول يوم، وما ذلك إلا لأنَّ الله أراد لنا أن نعلم أنَّ النجاحَ الباهرَ الذي حققه النبيُّ وأصحابُه لم يكن فيه خرقٌ لناموس الكون، وإنَّما جرى وَفْقَ نظامٍ قائمٍ وباقٍ إلى يوم القيامة، ومن مشى على خُطى الحبيب محمدٍ فسيصلُ إلى ما وصل إليه - بلا شك- من غير معجزات؛ لأنَّ ما تمَّ في حياة النبي تمَّ وَفْقاً لناموس الكون الذي استوى عليه الرحمن وليس خرقاً له. هذه الآية تحتاجُ إلى مجلَّداتٍ لشرح تفاصيلِ منظومةِ الكون، وكيف أنَّ كلَّ تلك القوانين ثابتةٌ ومنطقيةٌ ومفهومةٌ لمن يبحث فيها، ومن ثَمَّ يطوعها لمصلحة الإنسانية من غير علمٍ للغيب. ولكنْ، إيماناً بأنَّ الذي صمَّم هذه القوانينَ لا يخضع للتقلباتِ كما تتقلبُ أمزجة البشر وتتعدلُ قوانين حياتهم حَسْبَ الأهواء. ولمَّا كان استواؤه على العرش وتَحَكُّمُه السوي بناموس الكون رحمةً بكلِّ الموجودات، كان منطقياً جداً - إذنْ- أن يختار من كلِّ أسمائه الحسنى اسمَ **الرحمن** للاستواء على العرش.

نلاحظ أنَّ اسم الرحمن من دون أسمائه الحسنى ارتبط بالاستواء على العرش، و هذا يؤكِّدُ تأويلَنا:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَـٰنُ** فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾ " 59 الفرقان".

أمَّا بقيةُ الآيات التي ورد فيها مفهوم "الاستواء" فقد ارتبطت باسم الله المطلق أو "الملك"، ممَّا يؤكِّدُ أنَّ المفهومَ يرتبط بحكمةِ مالكِ الملك في حفظ توازن الظواهر الكونية والقوانين التي تحكمها، و ما ذاك إلا رحمةٌ بالخلق.

هذا التفسيرُ الذي لا حرج فيه ولا بدعة في فهم كيفيته، ينطبق على كلِّ آيات العرش في القرآن بعد إزالة اللَبس التجسيمي منها، وفهمه على أنَّه منظومةٌ يتحكمُ بها الله في الكون وليس كرسي الملك:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ **ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ** عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ " 54 الأعراف".

فعلى غيرِ المتداولِ بين بعض المفسرين أنَّ الله خلق العرش أولًا وكأنَّه كرسيُّ الملك، ثمَّ خلق الكون، فهذه الآيةُ توحي بأنَّ الإرادة المطلقة أوجدت السماوات والأرض في ستِ مراحلَ مختلفةٍ، وبوجودها وُجِد نظامُ حركتها وهو العرش وآلة التحكم، **ثـــمَّ** اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون الإرادةُ الحرة متوازنةً ومتزنةً في استواءٍ مع ناموس الكون ونظام التحكم الذي أودعه في السماوات والأرض، فهي مُسخَّرةٌ لإرادة الله، لكنْ وَفْقَ نظام ثابت يخضع لأمره وحده "عرش"، غير أنَّه لا يتبدلُ ولا يتقلب "استواء". فالاستواء على العرش تمَّ بعد أن وُجِدَ العرشُ، وهو نظامُ إدارة السماوات والأرض أو منظومة التطور التلقائي.

وتتكررُ الآيات التي يَرِدُ فيها مفهومُ الاستواء على العرش؛ لتؤكدَ أنَّها إنَّما تشيرُ لتحكمه في نظام الكون، الأمر الذي يُوصف دائمًا بأنَّه إنَّما تمَّ بعد اكتمال الخلق، وذلك يبدو من توظيف حرف العطف " ثـــمَّ":

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ " 2 الرعد"

من الآية - أعلاه- نفهم أنَّ تسخيرَه للشمس والقمر لمصلحةِ المخلوقات، إنَّما تمَّ رحمةً منه بتحكمه في ناموس الكون بصورةٍ ثابتةٍ تتيحُ للأحياء الاستفادةَ من الشمس والقمر، وكأنَّهم يعلمون الغيبَ وإنْ كانوا لا يعلمون.

ولعلَّ من الأمانة أن نشيرَ إلى أنَّ مفهومَ استوائه **على** العرش - ربَّما- يختلفُ عن مفهومِ استوائه "**إلى** السماء" الذي ورد في آيتين في القرآن:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ **إِلَى** ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ " 29 البقرة".

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ **إِلَى** ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ " 11 فصلت".

بالطبع لن يستطع أحدٌ أن يدَّعيَ معرفتَه بتأويل القرآن الذي لا يعلم تأويلَه إلا الله، ومع ذلك يجوزُ لنا أن نبديَ ملاحظاتٍ على صيغةِ الآياتِ التي يختلف فيها مفهومُ الاستواء من "**على**" إلى "**إلى**".

نلاحظ في هاتين الآيتين أنَّ الاستواء "**إلى**" قد ارتبط بهذه الحقائق:

1- الاستواء "إلى" في الحالتين كان إلى السماء بلفظ المفرد وليس السماوات.

2- أنَّ ورودَ الاستواء "إلى" تمَّ في مرحلةٍ سابقةٍ لاكتمال خلق السماء، ففي آية البقرة -أعلاه- تمَّ الاستواء {إِلَى

ٱلسَّمَآءِ } قبل إكمال تسويتهن سبعَ سماوات، في حين أنَّه في آية سورة فصلت تمَّ الاستواء {إِلَى ٱلسَّمَآءِ } في

حالتها الدخانية، وقبل أن يتمَّ إدخالُها والأرض في منظومة العرش وإخضاعهما لناموس الكون. إذنْ ففهم كيفية الاستواء "إلى" تتطلب - بطبيعة الحال- فهمَ طبيعة المستوى إليه وخصائصه حينذاك، وهو أمرٌ غيبيٌّ لا يمكن للإنسان الوصول إليه. فالاستواء {عَلَى ٱلْعَرْشِ} أتى في كلِّ آيات القرآن بعد اكتمال الخلق ونظام التطور التلقائي الذي

يحكمه، لكنَّ الاستواء "إلى" يتطلب فهمُه العلمَ بحقائقَ غيبيةٍ سابقةٍ لاكتمال الخلق لا يمكنُنا الوصولُ إليها.

قَسَمُ الله بالبلد:

بعد هذه الدراسة المبسطة لأسرار لا يعلمها إلا اللهُ في البلد الحرام، بكة ومكة وأم القرى، في تاريخِه وطبيعةِ خلقِه وعلاقةِ أرضِه بكلِّ الأرض والكون، وعلاقتِه بالإنسان الأول وخلق الإنسان وتطوره، ونزولِ الأنعامِ وتمرُّدِ الشيطان وما دار حوله من أحداثٍ عظام، لا نشكُّ أنَّ الآياتِ التي يقسمُ فيها اللهُ - تعالى- بالبلد الأمين، ستحملُ معانيَ جديدةً وعميقةً ما كان للناس أن يفهموها، ما لم يعرفوا أسرارَ هذا البلد الحرام. ومن هذه الرحلة الطويلة جدًّا عبر التاريخِ البشري وتاريخِ الكون التي دارت كلُّ أحداثِها في أرض أمِّ القرى، ربَّما نفهمُ سبب قسم الله بالبلد وليس بالبيت؛ لأنَّ في البلد جمعًا لكلِّ تلك القلائدِ و الأحداثِ وتاريخِ الخلق والإنسانيةِ المدهش:

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى

كَبَدٍ ۝٤ ﴾ " 1- 4 سورة البلد".

نحن نظنُّ أنَّ القسمَ بهذا البلدِ الآنَ يكتسبُ بهاءً جديدًا، إذ إنَّ هذا البلدَ ليس مقدساً لأنَّ الله اختار منه نبيَّه وجعل فيه بيتًا رمزًا للعبادة فحَسْب، الأمر الذي يخصُّ المسلمين فقط، ولكنَّ قسمَ اللهِ - عز وجل - يشتمل على حقائقَ كونيةٍ رهيبةٍ تهزُّ كلَّ مَن له عقل، وهو أنَّه يقسم بمركز الكون كلِّه، ويقسم أيضًا بالبقعة من الأرض التي بدأت فيها الحياةُ مطلقاً، ويقسمُ أيضًا بالأرض التي وُجِدَ فيها الإنسانُ، خَلْقًا وتطورًا، وتوالد مكونًا كلَّ الجنس البشري "والد وما ولد". هذه الحقائق ملك "للناس"ليس للمؤمنين فقط، فمَن آمنَ فلنفسه ومن كفر فعليها، ولكنَّ الخطابَ القرآنيَّ في أمر البيت الحرام والحَجِّ هو أنَّه حُجَّةٌ على الناس باختلاف دياناتهم وألسنتهم. لا يخفى علينا أنَّ هذه الآياتِ تربطُ البلدَ بخلق الإنسان وبَدءِ توالده، وهو تلخيصٌ لكلِّ ما حاولنا التدليلَ عليه من بداية هذا الكتاب.

ويتكرر القسم بالبلد مرتبطًا بخلق الإنسان، ولكنْ بألفاظٍ أكثرَ عمقًا وإعجازًا:

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٨ ﴾ " سورة التين".

طور: معناها في المعجم: امتدادُ الشيء في الزمان أو المكان. وما آية "وخلقكم أطوارًا " التي ناقشناها في بداية باب التطور إلا من هذا الأصل، وتعني الامتداد في الزمن. والطور يمكن أن تُستعمل للجبل بافتراض امتدادِه طولًا وعرضًا.

سينين: من "سن" وهو جريانُ الشيءِ واطرادُه في سهولة. والحمأ المسنون منها كأنَّه يُصب صبًا.

ورد في تفسير هذه الآية أنَّه أُهدي للنبي - صلى الله عليه وسلم - تين، فقال: كلوا التين ، فلو قلت : إن **فاكهة** نزلت من **الجنة بلا عجم** لقلت : هي التين ، و إنه يذهب بالبواسير ، و ينفع من النقرس "".(حديث ضعيف رواه الألباني في السلسلة الضعيف برقم 165). وعن معاذ: أنَّه استاك بقضيب زيتون، وقال: سمعت النبيَّ - صلى الله عليه وسلم - يقول: "نعم السواك الزيتون من شجرة مباركة، يطيب الفم، ويذهب بالحفر، وهي سواكي وسواك الأنبياء قبلي".(رواه الطبراني في الأوسط و أبو نعيم في كتاب السواك له.و رواه الألباني في السلسلة الضعيفة ، برقم 5360 و قال: هو ضعيف)

وقال - عليه السلام- : " كلوا الزيت وادهنوا به فإنَّه من شجرة مباركة".(رواه أحمد و الترمذي أيضًا من طريق أبي أسيد - رضي الله عنه-. و الحديث صححه الألباني بمجموع طرقه)

وقال أبو علي في تفسير القرطبي: "سينين" فعليل، فكررت اللام التي هي نون فيه، كما كررت في زحليل: للمكان الزلق.

هذه الآياتُ ربَّما يكون فيها سرٌّ ينتظر الاكتشاف، ولكنَّنا نحس ببدايته وإنْ لم يكن المعنى واضحًا تمامًا. فقد وردت اختلافاتٌ كثيرةٌ وجوهريةٌ في تأويل "التين والزيتون"، وأشهرُها اختلافُ الآراء في أنَّ الشجرتين تُشيران إلى جبالٍ في الشام، وقد قيل: إنَّ كلمة سينين تعني الجبل في السريانية كما أورد القرطبي. واشتهر نسب تفسير الآية بآية في التوراة جمعت بين الإشارة إلى موسى وعيسى ومحمد - صلى الله عليهم أجمعين-، ونظنُّ أنَّ تلك الآية المقصودة هي:

{وهذه هي البركة التي بارك بها موسى، رجل الله بني إسرائيل قبل موته، فقال :" أقبل الربُّ من سيناء وأشرف عليهم من سعير، وتألق في جبل فاران، جاء محاطاً بعشرات الألوف من الملائكة وعن يمينه يومض برقٌ عليهم}" سفر التثنية 33:1-3". فكلمة "سعير" هنا تقابل طور سينين، وجبل فاران هو اسمٌ قديمٌ لجبال غرب الجزيرة العربية ويشير إلى جبال مكةَ وغارِ حراء.

ولم نجد عند أهل التفسير رأي من لا يُخالف، على أنَّ اختلاف الآراء يدلُّ على غموض المعنى. ونحن نظنُّ أنَّ سرَّ الآية أعمقُ بكثير من ذلك؛ لأنَّها مرتبطةٌ بأسرار خلق الإنسان. فعبارة "طُور سينين" تشيرُ إلى عمليةٍ مستمرةٍ متصلة، وكأنَّه استعمل مترادفين في المعنى، هما: "طور" التي تفيد امتداد الشيء. و "سينين" التي اشتقها من كلمة "سن" لتأكيد الاستطالة عبر ملايين السنين، ثمَّ عطفها على البلد الأمين الذي وقع فيه الأمرُ المقسم عليه عبر ملايين السنين. ولا نُفاجَأ - بالتأكيد- حينما نرى أنَّ الأمرَ المقسمَ عليه هو خلقُ الإنسان في أحسن تقويم، وأنَّه خُلِقَ بقابليةِ أن يُردَّ إلى أسفل سافلين، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ...

المهمُ في الآية هو ارتباطُ خلق الإنسان، عبْرَ مدةٍ طويلةٍ متصلةٍ من الزمن، بهذا البلد الأمين. وربَّما كان في ذكر "التين والزيتون" إشارةٌ إلى زيت الزيتون الذي لا يعرف سرَّه إلا الله، ولكنَّه أنقى أنواع الزيوت وأكثرُها نفعاً للإنسان، وسُكر التين الذي وصفه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنَّه من شجر الجنة. وربَّما تكون هناك إشارةٌ إلى الحمض النووي أو الأمشاج التي تتكون - أصلا- من سُكر بالإضافة إلى مكوناتٍ أخرى ربَّما يكون زيتُ الزيتون غنيًّا بها. إذ إنَّ الحمضَ النوويَّ هو الذي حفظ سرَّ الحياة وتطورَها في الأمشاج عبر ملايين السنين، وهو أساسُ بحثِ العلماءِ في قضايا الخلقِ و التطور، والله أعلم. ما لا خلاف حوله أنَّ الآياتِ تُقدم بالقسم بسكر وزيت، ثمَّ تصف فترةً طويلةً جداً من الزمان ارتبطت بالبلد الأمين، وكان موضوعُ القسم هو آيةَ خلق الإنسان.

النـفخ في الـصـور وانفجار الكون:

رأينا في باب "الحلقة المفقودة" أنَّ مفهومَ النفخ في القرآن غالبًا ما يوحي بمعنًى حرفيٍّ للانتفاخ، الشيء الذي ما كان ليُفهمَ قبل فهمِ طبيعة الكون التي نعرفها الآنَ بفضل التطورِ المذهلِ في العلوم كافة، و التدبُّرِ المستمرِ في خلق السماوات والأرض. مِن وصْفِ الكون - أعلاه- يمكنُنا أن نتخيلَ بَدء خلق الكون في شكلِ ثمرةِ فاكهةٍ، تتوسطها بذرةٌ صُلبةٌ، وتحيطُ بها الثمرةُ الطريَّةُ من كلِّ مكان. ويمكنُنا أن نتخيلَ عمليةَ فتق السماوات عن الأرض كعملية انتفاخٍ بطيء في جسم الثمرة كما ينتفخ البالون المطاطي. هذا الانتفاخُ يمثل عمليةَ فتق الرتق بين السماوات والأرض من ناحية، ويمثل المراحلَ الستةَ لخلق السماوات السبع كما وصف القرآن. على أنَّ القرآن وَصَفَ استمرارَ عمليةِ اتساع السماوات حتى بعد اكتمال خلق السماوات السبع واستواء الرحمن على العرش ونظام حكم الكون و إدارته، كما تنصُّ هذه الآية التي أكَّدها علمُ الفلك الحديث:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَـٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ " 47 الذاريات".

من هنا يمكنُنا أن نفترض أنَّ نظرية الانفجار العظيم فيها قصورٌ؛ لأنَّها افترضت أنَّ البدايةَ حالةُ انفجار، لكنَّ الوصفَ القرآني وَصَفَ حالةَ فتقٍ وتوسيعٍ، وكلُّها عملياتٌ بطيئةٌ محكمةٌ وليست انفجارًا صاعقًا كما ظنَّ علماء الفلك. على أنَّنا إذا تخيلنا عمليةَ الاتساع المستمرة للكون كبالون مطاطي ينتفخ تدريجياً مع نفخ الهواء داخله، فربَّما يمكننا أن نتكهن بإحدى نهايتين لهذا الاتساع المستمر: النهاية الأولى- أن يتوقفَ الانتفاخُ ويبدأ انكماشٌ بطيءٌ كما لو أنَّ الهواء تمَّ تسريبُه من داخل البالون إلى أن ينكمشَ تمامًا ويعودَ إلى حجمه الأول. هذه النهاية الافتراضية لانكماش الكون تتطلبُ - بطبيعة الحال- استمرارَ استواءِ الرحمن على العرش، وتحكمِه في ذات القانون الذي نفخ الكون أولاً، وهذا ما لم يصفْهُ القرآن.

النهاية الافتراضية الثانية- يمثلها استمرارُ اتساع الكون أو الانتفاخ إلى درجة الانفجار، كما ينتفخ البالون إلى أن يفوق حجم الهواء الداخل على قدرة البالون المطاطي على الاتساع؛ فيحدث حينئذٍ تمزقٌ في جداره فينفجر وينهار. هذه النهاية تأتي بصفتين هندسيتين لا خلافَ عليهما: الأولى- أنَّه لن يكون هناك عمليةُ تسريبٍ للهواء معاكسة للنفخ الأول، وإنَّما استمرار الانتفاخ أو الاتساع إلى لحظة الانفجار. الصفة الثانية- هي أنَّ الانهيار هنا سيحدثُ بصورةٍ مفاجئةٍ مدمرةٍ، تقعُ كوقوع الصاعقة وليس كحركة تسريب الهواء البطيئة من البالون. هذا الاحتمالُ الأخير، وهو احتمالُ الانفجارِ الكونيِّ العظيم، هو الذي يصفه القرآنُ في وصفه لحدوث الساعة. وهذا الاحتمال وحدَه هو الذي يشرحُ لنا، هندسياً وفيزيائياً، مفهومَ النفخ في الصور مرتين عند قيام الساعة:

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ **فَصَعِقَ** مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ " 68 الزمر".

من هذه الآية نفهمُ أنَّ الكون الذي بدأ بعملية فتقٍ و انتفاخٍ، وظلَّ في حالةِ اتساعٍ مستمرةٍ محكمةٍ ومتناسقةٍ مع متطلبات استقرار الكون واستمرار الحياة، سيزداد اتساعُه فجأة عند النفخة الأولى في الصور و قيام الساعة لدرجةِ الانفجار. اختلف المفسرون اختلافاتٍ كثيرةً في تأويل "الصور"، وذهب أغلبُهم إلى وصفه بأنَّه قرنٌ من نور؛ لأنَّه وردت أحاديثُ تشبِّهُه بذلك، ولكنَّنا نظنُّ أنَّه إنْ صحت تلك الأحاديث، فالنبيُّ - صلى الله عليه وسلم - إنَّما أراد أن يبسط للناس مفهوماً كونياً كان يصعب عليهم استيعابُه إلا بالتشبيه البسيط بملكٍ ينفخ في قرن. وقد أورد القرطبيُّ آراء مختلفة لتفسير "الصور"، منها: أنَّه جمع "صورة"، ومنها: أنَّ "الصور" يشيرُ إلى الخلق استناداً إلى المعنى اللغوي لكلمة صور وهو الشكل أو الخلق. ولعلَّ هذا الرأيَ الأخيرَ هو أقربُ الآراء إلى حقيقة الكون التي نعرفها الآن. من هنا يمكن أن نفهم أنَّ النفخ في الصور يمكن أن يكون إشارةً إلى ازديادٍ مفاجئ في سرعة اتساع الكون، و يؤدي - بطبيعة الحال- إلى انهيار القوانين التي تحكمه "العرش"، وبذا تنطبقُ السماوات على الأرض في شكل انهيارٍ صاعقٍ عظيم، وتحدث كلُّ الأوصاف المرعبة لقيام الساعة، من تفجيرِ البحار وانتشارِ الكواكب وغيرها ممَّا وصف القرآن. ومن هنا أيضًا يمكننا أن نفهم أنَّ النفخة الأخرى إنَّما هي إعادةُ بناءِ الكون كما بُني أولَ مرة، أي نفخُه من جديد بعد أن انطبقت السماواتُ على الأرض، ولكنْ - بطبيعة الحال- ستكون القوانينُ التي تحكمه حينها قوانينَ ونُظماً جديدة:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ "48 إبراهيم".

نلاحظ هنا أنَّ استواءَ الله على العرش تمَّ باسم **الرحمن،** في حين قبضتُه على الوجود تتمُّ باسم **القهار.** و لفظة (القهر) تفيد الغلبة والسيطرة المطلقة، ممَّا يوحي باختلافٍ جذريٍّ في علاقة الله بالكون قبل النفخ في الصور و بعده. ومن هنا يمكنُنا أيضًا أن نفهمَ لماذا استبدل الله - تعالى- مفهومَ "استوائه على العرش" الذي حدث عندما اكتمل خلقُ السماوات والأرض، إلى مفهوم قبضةِ الإرادةِ الإلهيةِ المطلقةِ بعد الانفجارِ الكونيِّ العظيمِ عند قيام الساعة:

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ

سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ " 67 الزمر"

إذ إنَّ هذا الوصفَ يوحي بأنَّه لن يوجد قانونٌ تلقائيٌّ يحكم الكونَ حينها، وإنَّما القبضة الإلهية المباشرة. وبتغيُّر القانون التلقائي الأعلى الحاكم للكون، يمكنُنا أن نفهمَ كيف يزولُ مفهومُ الزمان والمكان يوم القيامة ويبدأ مفهوم الخلود، وكذلك يمكنُنا أن نفهمَ كيف أنَّ الخلود في النار لا يقتل لأنَّ مفهومَ الموت نفسه ينتهي، وأنَّ أهلَ الجنة لا يكبرون لأنَّ مفهومَ الحياة كلَّه يتغير، إذ إنَّ كلَّ القوانين التي تحكم حياتَنا ومماتَنا في الدنيا إنَّما هي من مكونات "العرش" الذي يحكمُ الحياةَ الدنيا، ولكنَّ إرادة الله المطلقة قد علت عليه باستواءٍ بعد أن اكتمل خلقُ السماوات السبع، إلى أن يُنفخ في الصور فيحدث الانفجار الكوني العظيم، وتزول كلُّ تلك القوانين التي صُنعت رحمةً بكلِّ المخلوقات، ويصبح الوجودُ في قبضة الله المطلقة، ولن تكون الرحمةُ حينها إلا لمن شاء الله.

ولمَّا كانت الأحداثُ التي دارت حول البيت، والآياتُ التي ارتبطت به من: نفخ الكون عند مركزه، وبدء الخلق عنده، ثمَّ النفخ في البشر لنقلهم إلى حالة العقل؛كلُّها تثيرُ الدهشة وتزيل كثيراً من الحَيْرة في فهم أسرار الكون الغامضة، وتُولِّدُ حَيْرةً جديدة لأنَّ الإنسانَ ما إنْ يكتشف سرًّا إلا وتتزايد الأسرارُ التي يتوق لمعرفتها – فقد كنَّا نظنُّ أنَّنا سنختم عند "حيرة" أو سدرة المنـتـهـى

سـدرة المـنـتهى عندها جنة المأوى

آثرنا أن يكون ختام كتابنا عند سدرة المنتهى، وذلك بتفسيرِ الآيات الأولى من سورة النجم، وما ذلك إلا لأنَّ فهمَها - كما نفهمُها- تطلَّبَ هضمَ كلِّ ما قدمنا في هذا الكتاب من تفسيرٍ جديدٍ للكثير من آيات القرآن التي ترتبط بقضايا الخلق والتطور، وتطلَّبَ أيضاً معرفةً كافيةً بالكثير من الحقائق الكونية التي تعرضنا لها. آياتُ سورة النجم تصف أنَّ الرسولَ - صلى الله عليه وسلم - رأى بفؤاده مَن اختلف المفسرون عليه اختلافًا كبيرًا، هل هو اللهُ - جل وعلا - أم جبريلُ - عليه السلام- . فقد كانت الرؤية الأولى عند غار حراء في بَدء الرسالة، وكانت الثانية في ليلةِ الإسراء والمعراج عند سدرة المنتهى. ونحن نظنُّ أنَّ المقصودَ في الآيات هو اللهُ الذي لا إله إلا هو وليس جبريل. قد ينزلُ هذا الرأيُ على الكثيرين نزولَ الصاعقة، ولكنَّ من الحكمة أن نقدمَ أنَّه ليس رأيًا جديدًا، وإنَّما اشتملت عليه كتبُ المفسرين وإنْ لم يأخذوا به. وقد أورد الإمامُ القرطبيُّ في تفسير الآية قولًا لابن عباس أنَّ محمدًا - صلى الله عليه وسلم - رأى ربَّه مرتين، و روى كذلك حديثًا عن محمد بن كعب، قال: قلتُ يا رسولَ الله، هل رأيت ربَّك؟ فقال النبي: " رأيته بفؤادي مرتين". وقد وردت خلافاتٌ كثيرةٌ جداً في تفسير هذه الآيات وتفسير آيات سورة الأنعام ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ ﴾ "103الأنعام"، لسنا بصدد نقلِها لأنَّ الرؤية المعنية هنا رؤيا

بالفؤاد، لا نظرَ فيها ولا بصر، ونحتاجُ إلى فهمها على ضَوء ما نعرف من حقائقَ كونيةٍ ومعانٍ جديدة لمفهوم الكرسي والعرش والاستواء عليه.

لقد رأينا في هذا الكتاب كيف تطوَّرَ العقلُ والوعيُ البشريُّ منذ عهد آدمَ الذي تعلَّم جيلُه الثاني من الغراب أبسطَ مظاهر فهم الطبيعة والتعامل معها، مروراً بعهد نوحٍ الذي وعظه الله أن يكون من الجاهلين حينما استفسر عن أمرٍ نظنُّ أنَّه ما كان لنوحٍ أن يستوعبه. ثمَّ رأينا كيف طَفَرَ العقلُ البشريُ في عصر إبراهيمَ -عليه السلام -، وكيف تطوَّرَ الخطابُ الربانيُّ للإنسان حينما أجاب استفسارَ إبراهيمَ عن كيفية إحياء الموتى بدرسٍ عملي، ثمَّ كشف له أحداث الماضي، ممَّا يدللُ على أنَّ الإنسان حينها أصبح قابلًا لأنْ يفهم قضايا كونيةً كبيرةً، وقابلًا لأن يميِّزَ بين الماضي والحاضر والمستقبل تمييزًا علميًّا. ثمَّ رأينا كيف تطوَّرَ الخطابُ الربَّانيُّ في عهد موسى الذي كلمَّه اللهُ تكليماً، كأول نبيٍّ يصرح القرآنُ بأنَّه نال هذا الشرف. ثُمَّ رأينا كيف أنَّ الله - تعالى- استجاب لطلب موسى أن يراه ولكنْ بشرط استقرار الجبل مكانه، ممَّا يوحي بأنَّ الإنسان حينها كان قابَ قوسين أو أدنى من أن يتفضل الله عليه بأن يراه، إذ إنَّ الله تجلَّى للجبلِ أمام موسى فخرَّ موسى صعقا، وعَلِمَ عِلمَ اليقين أنَّه بتكوينه البشريِّ المحدودِ غيرُ قادرٍ على رؤية الله لأسبابٍ موضوعيةٍ فيزيائيةٍ بحتة، وليس لأنَّ السؤالَ حرامٌ أو لأنَّ الرؤية محرمة.

من هذا السرد السريع نفهمُ أنَّه من المنطقي جدًّا أنَّ ما سمعه و رآه خاتَمُ الأنبياء والمرسلين، لا بُدَّ وأن يكون أكثرَ ممَّا رآه مَن سبقه من الأنبياء الذين كانوا أقلَ منه مكانةً عند الله - تعالى-، وكانت رسالاتُهم أقلَ شمولًا من الرسالة الخاتمة المحفوظة إلى يوم الدين. ونحن لا نفرق بين أحدٍ من رسله، ولكنَّ أولئك الرسلَ فضَّلَ اللهُ بعضَهم على بعض، وكان أفضلَهم عند الله محمدٌ - صلى الله عليه وسلم- .

الدارسُ لسيرة النبيِّ يعلم أنَّ رؤية الرسول - صلى الله عليه وسلم - لجبريل غيرُ محدودة بمرتين، وإنَّما كانت من المظاهر المتكررة في نبوته. بل إنَّ جبريل - عليه السلام- ظهرَ في صورة بشرٍ شديدِ بياض الثياب واللون، وسأل النبيَّ أسئلةً كثيرةً أمام الصحابة الذين تعجبوا من أسلوبه قبل أن يعرفوا أنَّه جبريل. صحيح أنَّ من فسَّرَ آيات سورة النجم بأنَّها تشير إلى أنَّ النبيَّ رأى جبريل ظنَّ أنَّ ذلك تمَّ بصورته الملائكية، ولكنَّنا نظنُّ أنَّ الله - تعالى- حينما يتطرق إلى قضية مثل هذه القضايا، فإنَّ علمه بنظام الكون وقوانين الطبيعة التي خلق لا بُدَّ وأن يكون جزءًا من المعلومة التي تتضمنها الآيات مهما جهلها البشر. وعليه، نظنُّ أنَّ رؤيةَ النبيِّ والصحابة والأنبياء من قبلُ لجبريل، سواء كان في صورة بشرٍ أم ملك، لا يغيِّرُ كثيرًا من أنَّ نزول الملائكة إلى الأرض ليس ظاهرة كونية فريدة من نوعها كما أوحت به الآياتُ التي وصفت الرؤية في سورة النجم.

وقبل أن نجتهدَ في تفسير الآيات، لا بُدَّ أن نذكر أنَّ الحذر الشديد الذي اتسم به عهدُ الصحابة في تفسير الآيات التي - ربَّما- يُفهم منها أنَّها تصفُ الذات الإلهية، كان له أسبابٌ كثيرةٌ من أهمِّها قربُهم من عهد الشرك وعبادة الأوثان، الذي كان من شأنه أن يُحدث لبسًا في عقيدتهم. وأيضًا لأنَّ مثل هذه الآيات عادةً ما ترتبط بظواهرَ كونيةٍ كان علمُهم عنها محدودًا جدًّا، إنْ لم يكن معدومًا تمامًا. ولكنَّنا نظنُّ أنَّ الحذر الذي يتجاوز الحدودَ التي وضعها الله للخيال البشري - ربَّما- يقودُ إلى نتيجةٍ عكسيةٍ في زمانٍ كزماننا الذي غلب على أهل الأرض فيه إنكارُ وجود إلهٍ على الإطلاق، لا مرئي ولا غير مرئي. فكما أنَّ التفريط في التحريم يقودُ إلى فتنةٍ مساويةٍ للتفريط في الأخذ بالرخص، فإنَّ التفريط في التحذير من فهم ما وصف الله به نفسَه في القرآن يقودُ إلى حالةٍ أشبهَ بإنكار وجود الله مطلقاً. ونظنُّ أنَّ الوضعَ الأمثلَ هو الالتزامُ بحدود ما صرَّح به القرآن، علماً بأنَّ الرغبة في رؤية الله ومن ثمَّ التساؤل عن إمكانية رؤيته، لم تكن ممَّا

عاب الله على نبيٍّ عظيمٍ مثل موسى، بل وجعلها الله من ضمن ما بَشَّر به المؤمنين في الجنة الذين سيتمتعون برؤية وجه ربِّهم الكريم. إذنْ فمسألة أنَّ الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد رأى الله أو أنَّه لم يره يجبُ أن تُؤخذَ في إطار مدى صحة التفسير للآيات المعنية، لأنَّ الله الذي كلّم موسى تكليمًا حرٌّ في مشيئته أن يُريَ نفسَه للنبيِّ أو لا، وما علينا إلا أن نفهم الرواية القرآنية في حدود ما صرَّحتْ به من غير تفريط أو إفراط:

﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ** ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ **وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ** ۝١٣ عِندَ **سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ** ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ **مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ** ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ **ٱلۡكُبۡرَىٰٓ** ۝١٨ ﴾ " النجم 1-18".

﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ ... هذه الآية فيها معانٍ كان من المستحيل على أيِّ إنسان عادي أن يستوعبَها في عهد نزول الآية. فالنجوم في نظر الإنسان قبل ألف عامٍ لم تكن إلا كمصابيحَ صغيرةٍ لا يزيدُ حجمُها عن اليد الواحدة؛ لأنَّ مفهوم الأرقام الفلكية والسنوات الضوئية لم يكن معلوماً لأيِّ إنسان. فمن غير المنطقي أن نفترض أنَّ أيّاً من المفسرين القدامى، قبل عهد اكتشاف الفضاء، كان يفهمُ أنَّ أصغرَ نجم يساوي في حجمه مرات عديدة حجم الأرض. ربَّما لا نكون مخطئين لو افترضنا أنَّ فهم الإنسان العادي لسقوط النجم في ذلك الزمان لم يكن إلا كسقوط حجرٍ صغيرٍ إذا سقط في بيت الجيران فلا يضيره. من هنا يمكنُنا أن نفترضَ أنَّ القسمَ الذي قدم الله به لهذه الآيات ما كان لأحدٍ أن يستوعبه قبل زماننا، وبالتالي لم يكن بمقدورهم استيعابُ رهبة المُقسم عليه.

الشمسُ هي النجمُ الذي تدور الأرضُ في فلكه، وتساوي كتلتُها أكثرَ من ثلاثمائة ألف مرة كتلة الأرض. النجومُ عبارة عن كتلةٍ ملتهبةٍ من الغازات شديدةِ الاشتعال التي تصلُ درجةُ حرارتها إلى آلاف الدرجات المئوية، وتفوقُ الطاقة المدمرة التي تقذف بها ملايين االقنابل النووية في كلِّ ثانية. النجوم لها توابعُ، وغالبًا ما تكون مركزًا لمجراتٍ تدورُ حولها كواكبُ وتوابعُ وأقمارٌ وغيرُها من أجرام السماء، وكلُّها مترابطةٌ ببعضها بقوى شدٍّ وطردٍ فوق خيال الإنسان. إذا سقط مذنَّبٌ على الأرض أو شهاب، وهما عبارة عن صخور سايبة لا يتجاوز طولُها عدة كيلومترات،

فإنَّه من الممكن أن يدمِّرَ قارةً من قارات الأرض بأسرها من شدة الارتطام والاضطراب الذي يسببه في ثبات الأرض واستقرار البحار والمحيطات. ويظنُّ علماءُ الطبيعة أنَّ الديناصور انقرض قبل أكثرَ من ستين مليون سنة نتيجةَ ارتطام الأرض بمذنب من الفضاء، أدى إلى تغييرِ مُناخ الأرض وإبادةِ كثيرٍ من الأحياء فيها. إذنْ فسقوطُ النجم - ربَّما- يعني اضطراب كلِّ الكون؛ لأنَّ النجم إذا هوى فستهوي معه الكواكبُ والأقمارُ التي تدور حوله، وربَّما تسقطُ مجرةٌ كاملةٌ يفوق حجمُها حجمَ الأرض بلايين المرات.

بقي أن نذكر أنَّ مفهوم السقوط لا يتمُّ إلا على الأرض، ليس لأنَّ الأرضَ لها جاذبية، ولكنْ لأنَّ الأرض هي مركزُ الكون الذي تتقاطع عنده أقطارُ السماوات كما رأينا. وفي المفهوم الهندسي للدائرة أو الكرة فإنَّ السقوط يمكن أن يتمَّ فقط من أيِّ نقطةٍ من المحيط إلى المركز الذي يمثِّلُ أدنى نقطة في ذلك الشكل الهندسي. من هنا نفهم أنَّ الله يقسم بحدثٍ جللٍ، لو وقع لكان نهايةَ الكون الحتمية وليس الأرض فقط؛ لأنَّه يؤدي إلى نسف كلِّ المنظومة الكونية. ومن هنا أيضاً نفهم أنَّ المقسم عليه إنْ وقع ولم ينسف الكون، فلن يكون ذلك إلا إذا فرض اللهُ سلطته العليا على نظام الكون والعرش، ليبقى منتظماً في مكانه بأمرِ خالقه الذي استوى عليه، رغم الحدث الجلل. ومن هنا نفهم أنَّ ذلك الحدثَ أعظمُ ملايين المرات من نزول جبريل - عليه السلام-، والذي ظلَّ يتنزلُ على الأنبياء والمرسلين منذ عهد آدمَ إلى آخرِ حياة النبيِّ من غير خلل في المنظومة الكونية، ولم يصف القرآنُ نزولَ جبريل على أيٍّ من الأنبياء وصفاً مهيباً كهذا الوصف الذي مهَّد له بهذا القسم، الذي يدكُّ الكونَ وليس جبلاً فحَسْب. فقد وصف القرآنُ ظهور جبريل لمريمَ في صورةِ بشرٍ بكلماتٍ بسيطةٍ لا يمكنُ مقارنتُها بنجمٍ يهوي فينسف الكون: ﴿ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧ ﴾ " 17 مريم". إذنْ فالقسمُ بالنجم إذا هوى قسمٌ لو تعلمون عظيم، وهذا يدلُّ على عظمة النبأ الذي يؤكِّدُه القسم. وقبل أن نواصل تفسير الآيات لا بُدَّ أن نذكر أنَّ هذه الحقائقَ الكونيةَ عن النجوم والكون، لو كانت مفهومةً للمفسرين القدامى لاختلف تأويلُهم لهذه الآيات - بلا شكٍّ- اختلافًا كبيرًا. ولنجعلَ أهميةَ هذا القسم أكثرَ وضوحاً نضربُ مثالاً بأنَّنا لو استطعنا إرجاعَ الزمن إلى يومِ بدرٍ وأخبرْنا مشركي مكة أنَّ محمدًا - صلى الله عليه وسلم - يمتلك القنبلة النووية، لسأل ذاتُ المشركين عن عدد الخيل التي يملك والبعران التي في جيشه وعدد السيوف، ولَمَا غيَّر ذكرُ القنبلة النووية في تقييمهم لمقياس القوة قيدَ أنملة؛ لأنَّها ما كانت لتكونَ مفهومةً لديهم وإنْ حرصنا على شرحها. بالمنطق ذاتِه فإنَّنا نظنُّ أنَّ من لم يكن في وسعه فهم "﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ فلن يمكنه أن يستوعب هيبة الأمر الذي يقدَّمُ له بمثل هذا القسم. وتمضي الآياتُ بعد القسم:

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ ﴾ . هذه الآياتُ لا جديدَ في تفسيرها غير أنَّها تؤكِّدُ أنَّ ما سيأتي أمرٌ يحتاج إلى التأكيد على ثبات عقل النبي - صلى الله عليه و سلم - و حكمته، وأنَّ ما يقولُه - مهما كان غريبًا- فليس إلا وحيًا من خالق الكون الذي يعلمُ ما لا نعلم. بعد هذه الآيات بدأ النصُّ القرآنيُّ يصف حدثين مختلفين، أوحى إلينا في آخر الآيات بأنَّهما "**نزلتين**"، كلُّ نزلةٍ منهما وصفت بألفاظ

تتفق مع ظاهرةٍ كونيةٍ مختلفة، وكلتا الظاهرتين ترجحان أنَّ الذي رآه النبيُّ - صلى الله عليه و سلم - ما كان يمكنُ أن يكونَ إلا الله - تعالى-.

في المجتمع الإنساني، إذا أراد الوالدان شرْحَ أمرٍ معقدٍ لطفلٍ صغير، فإنَّ من الطبيعي أن ينزلا بمستوى الخطاب إلى مستوى استيعاب الطفل؛ لأنَّ الطفل لا يستطيعُ - وإنْ حرص- أن يرتقيَ بعقله إلى مستوى وعي الوالدين. و في علم الفيزياء الذي يشرحُ آياتِ الله في الكون، إذا أراد الفيزيائيون دمْجَ نظامين للصوت أو الضوء أو الكهرباء يعملان بطاقاتٍ أو ذبذباتٍ مختلفة، فليس أمامهم لإكمال ذلك الاندماج من غير وقوع كارثة إلا إجراءُ تعديلٍ، إمَّا برفع طاقة النظام الأضعف ليقاربَ قدرات النظام الأقوى و إمَّا بخفضِ النظام الأقوى لمستوى يحتمله النظام الأضعف، وهذا ما يُعرفُ في عالَم الكهرباءِ بنظام "التوافقية".

إذا رجعنا إلى الآية التي وصفت كيف تجلَّى الله للجبل أمام موسى، فسنفهم أنَّ الله - تعالى- أراد إخبارَ موسى بصورةٍ عمليةٍ لماذا لا يستطيعُ البشرُ في طبيعته العادية أن يراه. وقد أوصل اللهُ تلك المعلومةَ إلى موسى، وإلينا أيضًا، بأن تجلَّى للجبل من غير تغييرٍ في طبيعته أو في نظام الكون، فجَعَلَ الجبلَ دكاً. وكانت المعلومةُ التي وصلتنا من اختيار الله لجبلٍ مكونٍ من معادنَ وصخورٍ وليس شجرة أو حَيَوان، هي أنَّ الجبل تعرَّض لطاقةٍ جبارةٍ مدمرةٍ لا إلى انهيار عاطفي أو رعب. وكلمة **"تجلى"** أصلُها من جلو وتعني الظهور والانكشاف. إذنْ فقد أزال الله - تعالى- في تلك الآية ما بينه وبين الجبل من حواجزَ وموانعَ طبيعيةٍ فاندكَّ الجبل. و كذلك تلك الآية اشترطت تلك شرطًا لتحقُّقِ الرؤية وهو استقرار الجبل مكانه. وهذا يفيدُ أنَّ الله بمقدوره أن يحقِّقَ الشرطَ فتتحقق الرؤية متى ما شاء.

فإذا افترضنا جدلًا أنَّ النبيَّ كان قد رأى الله في هاتين النزلتين ولم يُصبْ بأذى، فإنَّ من الطبيعي أن نفترض أنَّ الله - سبحانه وتعالى- لم يتجَلَّ له بالطريقة ذاتِها التي اندكَّ لها الجبل. وهنا يمكنُ أن نفهمَ أنَّه تمَّ بإحدى طريقتين، إمَّا أن يُريَ اللهُ نفسَه لعالَم النبيِّ البشري، بعد التحكم في منظومة الكون إلى حدودٍ تحتملُها بشريتُه، و إمَّا أن يغيِّرَ الله الطبيعةَ البشريةَ للنبيِّ ويجعلها قادرة على احتمال رؤية الله من غير تغييرٍ في قانون الكون، وهذا ما اتفق عليه المفسرون في تأويل رؤية المؤمنين لوجه ربِّهم الكريم في الجنة، إذ إنَّ الجنة لا شيخوخةَ فيها ولا أمراضَ ولا موت، ممَّا يدللُ على أنَّ طبيعة الإنسان تتغيَّرُ في الجنة. وكلا الظرفين يمكن أن يُشار إليهما بالاستواء على منظومة الكون، أي التحكم في القوانين الفيزيائية التي دكت الجبل، وهذا التحكمُ بيد الله الذي خلق القوانينَ وصمَّمَ منظومةَ العرش واستوى عليها.

فإذا درسنا وصْفَ القرآن لهاتين النزلتين، فسنجدُ تأكيدًا لِمَا وصفنا في كلِّ حالة، ممَّا يرجِّحُ أنَّ النبيَّ رأى الله - جلَّ وعلا - وليس جبريل - عليه السلام -.

النزلة الأولى:

هذه النزلةُ لا خلافَ على أنَّها تمتْ عند بَدء الرسالة عند غار حراء، وقد ابتدأ وصْفُ النزلة الأولى بمضمونها والإطارِ الذي تمت فيه وهو تعليمُ النبيِّ أمورًا عظيمةً جديدةً عليه:

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦﴾:

هنا بدأت الآياتُ تصف المقصودَ بما سيأتي من وصفٍ في هذا الحدث الجلل. ممَّا لا خلافَ عليه أنَّ القرآن ما وصف جبريلَ بأنَّه يعلِّمُ النبيَّ، وإنَّما يوحى إليه ما يأمرُه به الله. إذنْ فالذي يُعلِّم هو اللهُ - تعالى- وليست الملائكة. اختلف

المفسرون فيمَن هو شديد القوى، و قد ذهبت الآراءُ - بطبيعة الحال- إلى الإشارة إلى جبريل - عليه السلام- ؛ لأنَّ فهمَهم - أصلا- كان يقوم على أنَّ المقصودَ في كلِّ هذه الآيات هو جبريل. و قد دللَ بعضُ المفسرين على أنَّ هذا الوصفَ يشبه وصفَ اللهِ لجبريل بـ ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ " 20 التكوير"، ولنا في هذه

المقارنة نظرات بعيدة. هنا نلاحظ أنَّ قوة جبريل قد وُصِفتْ بصورةٍ نكرة، فهي "قوة" وليست "القوة". وهذه الآية كذلك ميَّزت بين قوةِ جبريلَ النسبيةِ المكتسبةِ وقوةِ اللهِ الأصليةِ المطلقةِ؛ لأنَّه يمكنُنا في اللغة أن نصفَ أضعف الخلق بأنَّه ذو قوة مادامت تلك القوة تفوق قوةَ غيره. ولعلَّ قوة جبريل في هذه الآية لا تأخذ حجمًا مهيبًا إلا من الجزء الأخير من الآية، فقد نُسبت قوتُه إلى أنَّه مكينٌ عند مالك العرش والسلطة العليا. أمَّا في آية النجم، موضوع النقاش، فالوصفُ قد جاء بلفظ "القوى" جمع قوة، معرفًا بالألف واللام {شَدِيدُ الْقُوَى}، وهذا في تقديرنا لا يستقيمُ إلا مع الله - تعالى- . ثمَّ مضت الآيةُ تصفه بأنَّه ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وقد أوَّلَ المفسرون كلمةَ "مِرَّةٍ" بأنَّها تعني جزيل الرأي وحصيف العقل. وفي مثل هذه الأوصاف التي تشيرُ إلى كلِّ معاني الحكمة يكون المقصود هو الله، إذ إنَّ الملائكة لا رأيَ لهم -بطبيعة خلقهم- وهم لا يعصون الله ما يأمرهم ويفعلون ما يُؤمرون؛ ولذلك لا يصفهم اللهُ بصفاتٍ يتميَّزُ بها هو وحدَه. أمَّا مفهومُ الاستواء فهو مفهومٌ خاصٌّ بالله وحده، وهو مالك الملك، و مقدِّرُ نظام العرش ومنظومة الكون، والمتحكم فيها من علٍ، وقد ورد لفظُ الاستواء في آيات كثيرة ارتبطت بالعرش ونظام الملكوت الأعلى، وكلُّها تشيرُ إلى استواء الله على ناموس الكون وليس غيره.

وقد بيَّنا أنَّ الاستواء يعني التحكمَ مع الاتزان والاستقامة، وهذا بيد الخالق وحده. ونلاحظ أنَّ مفهوم الاستواء هنا جاء غامضًا جدًّا، إذ إنَّه لم يستوِ على العرش، ولا إلى السماء كما في باقي الآيات التي ذكرت الاستواء، وإنَّما تركه استواءً فقط؛ ليزيدَ من خصوصية الحدث للتأكيدِ على أنَّه استواءٌ فريدٌ مغايرٌ لاستوائه على منظومة الكون التي استوى عليها منذ أن اكتمل خلْقُ السماوات والأرض إلى النفخةِ الأولى في الصور. و لأنَّ النبيَّ لمَّا يكنْ مدركاً بعدُ لنبوته، وكان علمُه بالله نفسُه محدودًا جدًّا لم يتجاوز الفطرة السليمة فقط، فقد تمَّ التعديلُ حين النزلة الأولى في منظومة الكون، وليس في طبيعة النبيِّ حتى لا يشكَّ النبيُّ أنَّه أصابه شيء:

﴿ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ ﴾ .

هنا نلاحظُ وصفًا إجماليًّا لحركة اقترابٍ محكمةٍ بطيئةٍ ومحسوبة. كلمتا (**دَنَا، فَتَدَلَّى**) لهما مدلولٌ فلكيٌّ وفيزيائيٌّ إعجازيٌّ في هذا الوصف، إذ إنَّ اجتماعَهما يرسم لوحةً فيها حركة على محورين متعامدين بمفهوم فيزيائي هندسي. فالدنو يعني الاقتراب بصورة أفقية كما يفهم العرب، أمَّا التدلي فكلمةٌ مركبة تعني النزول بحساب دقيق ورفق. وأشهر استعمالاتها عند العرب هو: "أدليت الدلو" أي أرسلته في البئر. ومَن يدلي الدلو يعلم أنَّ هذه العمليةَ تتطلبُ حذراً في التحكم في الدلو من أعلى الحبل والحفاظ عليه؛ حتى لا يصطدمَ بجدار البئر فينقطع الحبلُ أو ينكفئَ الإناء أو يهدم جدار البئر. إذنْ، فكأنَّ اللهَ - تعالى- قد طوَّع ألفاظ اللغة العربية ليصفَ لنا عمليةَ الاستواء، تلك التي مكنت النبيَّ من رؤيته من غير أن يصيبَه أو يصيبَ الأرضَ ما أصاب الجبلَ حينما وصف ظهوره أمامه بلفظ واحد هو "تجلَّى". الآياتُ توحي إلينا باقترابٍ أفقيٍّ بطيءٍ من الأفق الأعلى ونزول محكم من علٍ، راعى فيه الحفاظَ على منظومةِ الكون والقوانين التي تحكم الطبيعة. ومن هذا الوصف نستنبط أنَّ النبيَّ في هذه النزلة كان بكاملِ طبيعته البشرية، إذ إنَّ الله

هو الذي استوى على منظومة الكون، ودخل في محيط قدرة النبيِّ - صلى الله عليه و سلم- على الرؤية من غير تغيير في طبيعة النبيِّ.

لا بُدَّ أن ننوه إلى أنَّ تطويعَ الألفاظ العربية هنا ليس إلا لتقريب المعنى لعقل الإنسان، لكنَّ الظاهرةَ تبقى غيبًا لا يمكنُ استيعابُه كما حدث. وهنا أضربُ مثالًا بنظر الإنسان إلى كوكبٍ بعيدٍ من خلال التلسكوب. إنَّ تحريكَ العدسة - في هذه الحالة- يجعلُ الكوكبَ كأنَّه يكبر في حجمه ويقترب نحو الإنسان، إلا أنَّه في الحقيقة ثابتٌ في مكانه ومحتفظٌ بكلِّ خواصِّه، وأنَّ الذي تغيَّرَ هو الوسطُ الذي تتمُّ فيه معاينة الكوكب من خلال العدسات.

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَـٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

اجتهد المفسرون في تأويل هذه الآية؛ لأنَّهم -أصلا- قد قرروا أنَّ المقصودَ بهذا النزولِ المحكمِ إلى محيط رؤيةِ النبيِّ هو جبريلُ - عليه السلام- . ولكن التصريح بأنَّه أوحى إلى عبده ما أوحى أحدث إشكالًا كبيرًا في تأويلهم؛ لأنَّ النبيَّ ليس عبدًا لجبريل وإنَّما هو عبدٌ لله. وقد اجتهد الطبريُّ والقرطبيُّ في تأويل الآية بأنَّها تعني:"و أوحى جبريلُ إلى عبد الله محمد ما أوحى". ونحن نظنُّ أنَّ في هذا التأويل تجاوزاً لحدود اللغة؛ لأنَّ القرائن التي تشيرُ إلى أنَّ "شديد القوى ذو مرة" فاستوى ثمَّ دنا فتدلى هو الله، أكثرُ من القرائن الافتراضية التي قام عليها تأويلُ أنَّ المقصودَ هو جبريل. إذنْ فليس هناك مسوِّغٌ ليتم التعديلُ في الصياغة اللغوية في هذه الآية، التي يصف اللهُ فيها أنَّه أوحى إلى عبده محمدٍ، حتى نجعلَ مصدرَ الوحي جبريل. ومضت الآيات تؤكِّدُ ما ذهبنا إليه من أنَّ هذه الرؤية لم تشمل تعديلًا في طبيعة النبيِّ ليستطيعَ تلك الرؤية المتحكم فيها من أعلى الأفق، فتؤكِّد أنَّ ما رآه فؤادُه كان حقًا وليس وهمًا. وهنا نلاحظ أنَّ الإشارة تمت إلى فؤاد النبيِّ، وهو العضو الذي يعقل ما يبصره الإنسان، ولكنَّها لم تشرْ إلى طبيعة بصره حين الرؤية، ممَّا يدللُ على أنَّ إبصارَه هنا كان طبيعياً، ولذلك ركزت الآيةُ على أنَّ ما عقله كان حقيقة وليس وهمًا أو جنونًا.

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الحدثَ كان جللًا و عظيمًا جدًّا على النبيِّ في أول يومٍ في نبوته، إذ إنَّ معرفته بالله نفسَها كانت محدودة وإنَّ الوحي جاءه من غير ميعاد. هذا بالضرورة أدخل في نفسه الرعبَ الذي روته كتبُ السيرة، وعبَّرتْ عنه قصة المزمل والمدثر. هنا وقع حدث مهم جدًّا في تأكيد تأويلنا، وهو شهادة ورقةَ بنِ نوفل الذي كان موحدًا على ملة إبراهيم وعالمًا بالكتب السماوية السابقة، وهو ابنُ عمِّ خديجة الفاضلة- رضي الله عنها- . فقد روت كتبُ السيرة أنَّ خديجة ذهبت مع النبيِّ - صلى الله عليه و سلم- إلى ورقةَ وقصَّ عليه النبيُّ القصة، فقال له ورقة: إنَّ هذا لهو الناموس الذي أتى موسى. والمعروفُ أنَّ جبريل أتى كلَّ الأنبياء قبل محمدٍ، من آدمَ إلى عيسى -عليهم السلام جميعًا-، ولكنَّ الذي أتى موسى - بنصِّ القرآن- كان الله. فقد كلَّم اللهُ موسى تكليمًا عند جبل الطور من غير واسطة جبريل، هذا بالإضافة إلى أنَّ القرآن أوحى في مواقعَ كثيرةٍ أنَّ الله ظلَّ يكلم موسى مباشرةً بما في ذلك قصة الجبل الذي اندكَّ، ونحن نظنُّ أنَّ رغبة موسى في أن يرى الله ما كانت إلا نتيجةَ أنَّ اللهَ كان يكلمه تكليمًا فظنَّ موسى أنَّ من سمع يمكن أن يرى. فإنْ كان الوصفُ الدقيقُ الذي قدَّمه النبيُّ إلى ورقةَ ابن نوفل شبيهًا بوصف الناموس الذي أتى موسى، فهذا يرجِّحُ أنَّ النبيَّ قد رأى اللهَ الذي كلَّم موسى.

هذا التأويلُ - بطبيعة الحال- لا يتعارضُ مع كون جبريل هو الذي أيقظ النبيَّ وقال له "اقرأ" ثلاثَ مرات، قبل أن يرى اللهَ في الأفق المبين ويوحي إليه أولى كلمات القرآن مباشرة.

النزلة الأخرى:

"وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ "

في النزلة الأولى كان النبيُّ في أول عهده بالنبوَّةِ؛ لذلك تحكَّمَ اللهُ في منظومة الكون من غير تغيير في طبيعة النبي، أمَّا النزلة الأخرى فقد تمت في ليلة الإسراء والمعراج بعد أن ثبت قلبُ النبيِّ ونما علمُه، وأصبح من الطبيعي أن يتقبل من غير رُعبٍ أو شُعورٍ بالجنون إذا غيَّر اللهُ في طبيعته البشرية حتى يمكِّنَه أن يرى ما لا يرى الإنسانُ العادي.

هنا نلاحظ أنَّ الآيات أولاً أكَّدت أنَّ هذه هي المرة الثانية التي يراه فيها. ولا بُدَّ أن نتوقفَ قليلاً عند ذكر لفظ "نَزْلَةً". لا يختلف اثنان في هذا الزمن على كُرَويَّة الأرض، ولا يختلف اثنان على أنَّ السماء فوق القطب الشمالي تماماً كما هي فوق القطب الجنوبي، رغم أنَّ هذين القطبين متعاكسان من حيثُ وضعُهما في الأرض. في المفهوم الهندسيِّ للكرة أو الدائرة، يتمُّ السقوطُ من المحيط إلى المركز من كلِّ الاتجاهات. و استعمال لفظ سقوط هنا لا يفيد إلا تبسيط المعنى لخيال الإنسان، فلا يفيدُ العلو أو الهبوط؛ لأنَّ الدائرة لا بدايةَ لها ولا نهاية، والكرة ليس فيها أعلى وأسفل. من هذا التصوُّر نقول: إنَّ استعمال الله للفظ " نَزْلَةً" لا يفيدُ بالضرورة أنَّ الله ينزل أو يصعد، ولكنَّه فقط يقرِّبُ المعنى إلى خيال الإنسان، تمامًا كما قرَّبَ إلينا كثيرًا من المعاني باستعمال لغةِ الغراب في وصف الأمور من منظور الإنسان الأول كما رأينا مرارًا في هذا الكتاب. ولمَّا كانت الكرةُ الأرضية هي مركزَ كلِّ الكون الذي تتقاطع عنده أقطارُ السماوات والأرض، فقد كان مفهومُ النزول هنا يشيرُ إلى أنَّ الحدث، أي الرؤية، تمت عند مركز الكون وهو مكة. من هنا نفهم أنَّ النزلة الأخرى أيضاً كانت في الأرض وفي مكانٍ ما من مكةَ مركزِ الكون. وتمضي الآياتُ تصفُ لنا ذلك المكانَ وصفاً يربط كلَّ ما ظللنا نشيرُ إليه في هذا الكتاب، من وقوع الخلق والتطور عند عرفات:

﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ﴿١٦﴾﴾

السدر: لها معنىً واحدٌ يدلُ على شبه الحَيْرة واضطراب الرأي.

التغشية: تغطية الشيء بشيء.

قيل ما قيل عن موقع سدرة المنتهى في أعلى السماء السابعة، وأنَّها النقطة الأخيرة التي فارق فيها جبريلُ النبيَّ قبل إن يصعد وحدَهَ إلى عرش الرحمن. ولكنْ، ليس هناك حديثٌ صحيحٌ يؤكِّدُ ما تعارفنا عليه من أمر سدرة المنتهى ممَّا تناقلته كتبُ المفسرين. وممَّا علمنا إلى الآن من موقع مكةَ بوصفها مركزَ توازنٍ لكلِّ الكون، فإنَّها تكون بموضع الدينامو لماكينة الوجود، إذ تتوازنُ عندها كلُّ القوى المغناطيسية التي ترتكز عليها السماواتُ السبعُ التي رفعها الله بعمدٍ لا نراها. وهنا تنصُّ الآية على أنَّ سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، الشيء الذي يفرضُ علينا مراجعةَ فهمِنا للآيات على ضَوء ما نفهم من نظام الكون اليوم. فإذا كان الأمرُ أمرَ نزولٍ وليس صعود، والنزولُ في نظامٍ كُروي الشكل يتمُّ عند المركز، فإنَّ سدرة المنتهى تكون في مكة. وهنا نجدُ موافقةً تفسيرنا أنَّ جنة المأوى التي أوى إليها جنسُ آدم كانت في عرفات أي في مكة. ولعلَّ ذكْرَ جنة المأوى هنا قُصد منه التأكيدُ على أنَّها في الأرض وليست في السماء؛ لأنَّ مركزَ الكون في الأرض، والنزول إلى مركز الكون يكون إلى مكة بالتحديد. ولعلَّ من المفيد أن نذكر أنَّ

أعلى الجنان هي جنةُ الفردوس الأعلى. فإن كانت سدرةُ المنتهى - حقيقة- موقعاً فوق الجنان وفوق السماوات السبع كما كنا نفهم، فقد كان الأَوْلى أن تُوصفَ بأنَّها عند جنة الفردوس الأعلى، علماً بأنَّ هذا الموقعَ هو الموقعُ الوحيدُ في القرآن الذي ذُكرتْ فيه جنةُ المأوى بصورة مفردة، وهو موقعٌ ينطبق على مكةَ من ناحيةٍ كونيةٍ ومنطقيةٍ وليس أعالي السماء.

لا أحدَ يستطيعُ أن يفهمَ بالضبط ما هي سدرة المنتهى، غير أنَّه ممَّا عرفنا عن أسرار هذا الموقع من الكون تكونت لدينا من **الحَيرة** ما تكفي أن نصفَها بأنَّها أكثرُ موقعٍ مثيرٍ للحَيرة في الوجود. أو لعلَّها كانت الموقعَ الذي انتهت عنده حَيرة البشرية في شخص النبيِّ - صلى الله عليه وسلم-. وبالطبع فإنَّ ما يغشى السدرة يظلُّ معلومًا لله وحدَه، وهو الذي يعلم أسرارَ ذلك الموقع الذي يرتكز عليه الكون.

وتمضي الآياتُ ترجِّحُ ما ذهبنا إليه من أنَّ في هذه النزلة كانت بشريةُ النبيِّ هي التي تمَّ تعديلُها، وتمَّ رفعُه لمستوى قدرةٍ تمكِّنُه من رؤية ربِّه و آياتِ ربِّه التي لا يمكنُ للبشر أن يراها ببصرٍ عادي:

﴿ مَازَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

إذا قارنا وصف النزلة الأولى فسنجدُ أنَّ الآياتِ وصفت تعديلا في ظواهرَ كونية، ولكنَّها لم تُشر إلى بصر النبي، غيرَ أنَّنا هنا نجدُ وصفاً مدهشاً لحال بصر النبيِّ، وكأنَّه يؤكِّدُ لنا أنَّ ما رآه النبيُّ في تلك الليلة كان أكثرَ من حدثٍ واحد، ممَّا احتاج إلى أن يتغيَّر النبيُّ وليس منظومة الكون.

زاغ: تعني مال أو انحرف. **وطغى**: تعنى تجاوز الحد.

هذان اللفظان يشابهان الحركةَ على المحورين السيني والصادي التي رأيناها في "دَنَا فَتَدَلَّى"، إذ إنَّه يصفُ هنا التحكمَ في قدرة إبصار النبيِّ على محورين أيضًا، وهما عدم الانحراف وعدم التجاوز، وهذا يتطلبُ إلقاءَ بعض الضَوء على علم البصريات وخصائص الإبصار.

من المُسلَّمات في زماننا هذا أنَّ الإنسانَ لا يبصرُ الأشياءَ إلا إذا سقط عليها الضوءُ وانعكس على عين الإنسان. ومن المعروف أيضاً أنَّ الضَوءَ ينطلقُ في خطوطٍ مستقيمةٍ ممَّا يخلق ما يُسمَّى بخداع البصر؛ لأنَّ الضوءَ الذي ينعكس أو ينكسرُ يجعلُ الإنسانَ يرى الأشياءَ في غير حجمِها وفي غيرِ موضعِها. وأبسطُ مثال لذلك هو ما نبصره حينما ننظرُ في المرآة، فنتوهم أنَّنا نرى ما هو خلفنا كأنَّه أمامنا. ومعروف علمياً أنَّ الضوءَ الذي يراه الإنسانُ محدودٌ بموجاتٍ ذاتِ طول محدد، والإنسان لا يستطع أن يرى موجاتٍ ضوئيةً أعلى منها أو أدنى منها، ومن أشهر تلك الأشعة غيرِ المرئية هي أشعةُ إكس التي لا تنعكسُ إلا إذا اصطدمت بموادَّ محددةٍ، كالتي تدخل في تركيب العظام ولذلك تُستعمل في صور الأشعة. ومعروف من علم أمراض العيون أنَّ بصر الإنسان يعمل بالتحكم في بُعد الأجسام المرئية بتحريك عدسات العين حتى يمكنَ للجسم أن يقع في بُعدٍ محددٍ يمكن رؤيته، وأشهرُ الأمراض تطرأ على صحة النظر إذا حدث خلل في هذه الخاصية، هي أمراض طول النظر و قصره.

في هذه الآيات يخبرُنا الله - تعالى- أنَّ بَصَرَ النبيِّ - صلى الله عليه وسلم- ظلَّ على طبيعته، رغم أنَّه تعرض لحدثٍ خارق. و لعلَّ في هذا السياق إعلاماً من الله لنا أنَّ الأمرَ أمرُ رؤيا تتمُّ بالفؤاد، ولا عَلاقةَ لها بطبيعة البصر - أصلا- لأنَّه لا تدركه الأبصار. كذلك ربَّما توحي بأنَّه مع رؤية ربِّه - بالفؤاد- فقد أبصر ببصره الطبيعي من آياتِ الكون ما لا يبصرُه البشر؛ لأنَّ رؤية الآية الكبرى - بطبيعة الحال- تفهم معها رؤية ما هو أدنى منها و إبصاره:

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ .

ولعلَّ كتابتنا ألفاظَ الآية بصورةٍ أبسطَ، يتضح لنا من خلالها ماذا رأى:

"ولقد رأى الآية الكبرى من آيات ربِّه": وليس هناك آية من آيات الله أكبر يمكن أن توصف بأنَّها "الكبرى" إلا رؤية الله الذي لا إله إلا هو. ولعلَّ الآياتِ التي تلت هذه الآية فيها إشارةٌ أو تلميحٌ إلى المقارنة بين ما رآه النبيُّ و هو الإله الحق، و ما يراه المشركون في وهمهم ظنَّاً منهم أنَّها آلهة:

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ "النجم 19-20".. ومهما يكن من أمر، فالآياتُ من صنف المتشابه الذي يحتمل التأويلات، ولا يعلم تأويلَها إلا اللهُ تعالى.

قصةُ الإسراء والمعراج من القصص التي وردتْ فيها اختلافاتٌ كثيرةٌ جداً، في التوقيت وفي تفاصيل القصة. ونظنُّ أنَّ في هذا دليلاً على أنَّ مجتمعَ الصحابة،على سُموه و أنَّهم خيرُ أمَّةٍ أُخرجت للناس، إلا أنَّهم كانوا بشراً محدودي القدرات والعلوم كبقية البشر في زمانهم، وأنَّ فهمَهم لقوانين الطبيعة وتعاملَهم معها لم يكن فيه إعجازٌ، ولم يكن يتجاوزُ فهمَ الرجل العادي في أيِّ مكان في ذلك الزمان. فقد كانوا يمشون على الأرض شهورًا على ظهور الإبل ويظنون أنَّها مسطحة، بل ما كان لأحدهم أن يُصدِّقَ لو قيل له إنَّ الأرضَ كُرَويةٌ، أو إنَّ الليل والنهار مجتمعان على ناحيتين من الأرض في نفس اللحظة. هذه الظواهرُ الكونيةُ كان فهمُها من المستحيلات في زمانهم، وهذا لا ينتقصُ من فضلهم ولا علمهم ولا أمانتهم في نقل القرآن والسنة حرفياً رغم أنَّ الكثير في القرآن والسنة لم يكن مفهومًا لهم.

طبيعيٌّ - إذنْ- أن تكونَ الآراءُ حول قصة الإسراء والمعراج كثيرةً عند المفسرين، ومتباينةً نسبةً لغرابتها وصعوبةِ فهمها. ويكفينا دليلاً على ذلك أنَّ عدداً من المسلمين ارتدَّ يوم سمع بقصة الإسراء، وقد قال أبو بكر الصديق قولته المشهورة حينها: " إنْ كان قال فقد صدق".

من أهم دروس الإسراء والمعراج أنَّنا يمكنُ - قياساً عليها- أن نفهمَ لماذا لم يفسِّر الرسولُ صلى الله عليه وسلم الكمَّ الهائلَ من الآيات التي تصف الكون في القرآن، وما ذلك إلا لأنَّ المجتمعَ الإنسانيَّ كان عليه أن يواصل مسيرةَ التطور لقرون طويلة قبل أن يكون قابلًا لاستيعابها، وبالتالي تكون من إعجازات القرآن لأجيالٍ قادمةٍ وليس لجيل الصحابة. فهؤلاء كان دورُهم حفظَ القرآن كما نطق به رسولُ الله - صلى الله عليه وسلم- من غير تحريفٍ حتى وإنْ كان غامضاً عليهم وقد فعلوا .

ومن تلك الدروس أيضًا أنَّ النبيَّ - صلى الله عليه وسلم- ما قَصَّ عن الإسراء والمعراج تفاصيلَ كثيرة، وذلك لأسباب عدة، منها: أنَّ التجربة كانت من الله للنبيِّه وليست للناس عامة، فضلاً عن أنَّ القصة نفسَها ليست من أحكام التشريع التي تهمُّ الناس، وإنَّما كانت من الفضائل التي تكرَّم بها اللهُ تعالى على النبيِّ في محنته تلك ليثبِّتَ بها فؤاده.

وقد كشف اللهُ لنبيه تلك الأسرارَ لتنتهيَ حَيْرَتُه، إذ إنَّ رحلة الإسراء والمعراج تلك كانت رحلةً خارجَ إطار الزمان والمكان ليرى من آيات ربِّه الكبرى في الأرض قبل السماء، ونظنُّ أنَّ حكمةَ الله التي كشفت للنبيِّ أسرارَ السماوات حتى يكون استيعابُه لكلِّ الوجود متكاملاً، لا بُدَّ وأن يكون قد قدم لها بكشف أسرار الأرض أولا، إذ إنَّ مَن لا يعلمُ أنَّ الأرض كُرويةٌ وليست مسطحة لا يمكنُ أن يستوعبَ كليات خلق السماوات والأرض. ولأنَّ خلق الله كلَّه منسقٌ

ويجري وَفْقَ قوانينَ وسننٍ محكمةٍ، فمن المنطقي - إذن- أن يكون قد قدَّم لكشف أسرار السماء والآخرة للنبيِّ - صلى الله عليه وسلم- بكشف أسرار الأرض والماضي.

ولعلَّ النزلة الأخرى - التي كانت عند سدرة المنتهى- قد كشف اللهُ له فيها ما كان من حال الإنسان الأول وسكنه عند جنة المأوى، لذلك جاء ذكرها هنا، وهي - كما قلنا- الجنة التي أوى إليها جنسُ آدمَ بعد التطور في وادي عرفات، فكانت نهايةً لحَيرته - صلى الله عليه وسلم- ليكونَ إيمانه بالله صُلبًا لا تشوبه شائبة وعلمه عن أحوال الكون وأحوال من سبق كاملًا مكتملًا، تمامًا كما بوَّأ اللهُ لإبراهيمَ من قبلُ ما كان حول البيت ثمَّ جَعَله للناس إمامًا. وهنا لا بُدَّ أن نلفت الانتباه إلى أنَّ الأرض جزءٌ من الكون، ذلك المجهول، بل هي مركزه، وإنَّ خلْقَها مرتبطٌ بعظمة خلْقِ السماوات والكون كلِّه، الشيء الذي لا يتطلب - بطبيعة الحال- أن تكون آياتُ ربِّه التي رآها النبيُّ محصورةً فقط في السماء. مَن يظنُّ ذلك الظنَّ فكأنَّه يفهم أنَّ الأرض مِن صُنع الإنسان وليست من آيات الله الكبرى مقارنة بالسماء، وهذا فهمٌ مغلوطٌ فيه من السذاجة والجهل ما لا يغتفر.

ولعلَّ ممَّا يضفي على قصة الخلق والتطور والأرض التي جرت فيها كلُّ تلك الأحداث التي احتوى عليها كتابنا هيبةً ورهبةً، أنَّ الله تعالى نزل فيها دون سواها مرتين، وما زال ينزلُ من غير أن يراه أحدٌ في كلِّ يوم عرفات؛ ليعيدَ التاريخَ نفسَه إلى يوم القيامة ... وبذلك يجتمع الخلقُ والخالقُ وتاريخُ الخلق ونظامُ التحكم في الكون في بؤرةٍ واحدة عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، ثمَّ جعل تلكما النزلتين قرآناً يُتلى إلى يوم القيامة، لقومٍ يتفكرون.

ويمكنُنا هنا وفي ختام هذا البحث أن نخلصَ إلى أنَّ أمَّ القرى، بكة ومكة أو البلد الأمين والبلد الحرام..كلُّها تشيرُ إلى أقدس بقعةٍ في الأرض، وهي تمثِّلُ وسط الأرض من ناحيةٍ جغرافيةٍ ومغناطيسيةٍ وفلكية، ومن ناحيةٍ بيولوجيةٍ أيضاً إذ إنَّها كانت أولَ بقعةٍ خرجت يابسةً من تحت الماء عند بَدء الخلق، وإنَّها كانت المكانَ الذي بدأ عنده خلقُ كلِّ أشكال الحياة في الأرض، والمكان الذي تطورت فيه وحوله جميعُ الأحياء إلى أن انتشرت لتعمَّ الأرض. وعندها أيضاً تطور الإنسانُ عبر ملايين السنين، و وصل إلى حالٍ أقربَ إلى حال الإنسان العاقل قبل أن تتدخل القدرةُ الإلهيةُ فتنقله إلى إنسان عاقل في وادي مِنى. وعندها نزل آذان الأنعام، وهي مخلوقاتٌ سماويةٌ تمشي بين أقدامنا وتسكنُ بيوتنا بوصفها آيةً من آيات الله الحية. ثمَّ إنَّ الأراضي المقدسة بعد ذلك شهدت أولى خُطُوات الإنسان العاقل منذ سكنه جنةَ المأوى في عرفات إلى أن أوى إلى أول بيت وضع للناس، ومن ثمَّ بدأ انتشار بني آدم في الأرض خلفاء لله إلى اليوم.

ولعلَّ علماءَ الطبيعة والآثار اليومَ، والذين يبحثون عن آثار الإنسان الأول غير بعيد عن مكة، وذلك لأنَّ معظم الأنظار موجهة إلى منطقة أثيوبيا وشرق أفريقيا، لعلهم لو عرفوا هذه الحقائقَ لاكتملت في أذهانهم قصة الخلق والتطور، وربَّما يأتون البيت العتيق رجالاً وعلى كلِّ ضامر يأتين من كلِّ فج عميق، ليس من باب البحث والفضول فقط، وإنَّما من باب الإيمان والتصديق بالله؛ لأنَّ مثل هذه الحقائق لهي أبلغُ وسائل الدعوة التي تنقلُ الإسلام من دينٍ ارتبط فقط بسلوك الشعوب المسلمة اليومَ - والذي لا يسر- إلى دين يحوي كلَّ أسرار الكون والخلق والخالق التي تهزُّ كلَّ مكابر، ويبهت أمامها كلُّ مَن كفر، ولا يمكن أن ينكرها إلا كفَّارٌ عنيد.

إنَّ البشرية اليومَ وصلت إلى أسوأ حالةٍ من الاحتقان والحَيرة في تاريخها، وإنَّ الماديات قد فشلت في إسعاد الإنسان وفشلت في خلق نظامٍ عالميٍّ يجتمعُ حوله كلُّ الناس برضا واطمئنان وتصديق، وكأنَّ لسانَ حالهم يبحثُ عن دين جديد ولا دينَ بعد الإسلام، وعن نبيٍّ جديد ولا نبيَّ بعد أحمدَ، وعن ربٍّ جديد ولا إلهَ إلا الله. ولكنَّ في دين الله الذي ارتضاه لكلِّ الناس وفي مسك الختام في مسلسل رسائل الإسلام، كلَّ ما تبحثُ عنه البشرية من علمٍ وتصديقٍ

وحقائقَ منطقيةٍ تربطهم بربِّهم بالعقل قبل العاطفة. وما دورُ المسلمين هنا إلا أن يُؤذِّنوا في الناس بالحج؛ لتنتقل لغة الخطاب من لغة الصراعات الحزبية والقبلية والعنصرية إلى لغة العودة والمثابة لبيت الآباء الذي بدأت عنده كلُّ الحياة وتطورت حوله الإنسانية. وهذه الرجعة أو المثابة ليست إلا مثابةً فكريةً وعلميةً أولاً قبل أن تكون رحلةً جسديةً لمن توافرت له الظروف والإمكانات، ونسألُ الله أن نكون قد استطعنا إلى ذلك سبيلا، و وضعنا الأمانة على عاتق كلِّ مَن يقرأ هذا الكتابَ أن يؤذِّن في الناس بالحُجَّة والدليل الدامغ ويؤِّذن فيهم بالحَجِّ.

ونرجو في ختام كتابنا هذا أن يأجُرَنا اللهُ عليه أجرين إنْ أصبنا، وأجراً إن أخطأنا، إذ إنَّه يزيلُ كثيراً من حَيرة الناس في فهم أسرارٍ من أسرارِ الخلقِ والكونِ والقرآن، وإن كانت أسرارُ الكون لا تنتهي، وما من حَيرة تنتهي بمجهودِ البشر إلا لتبدأ حَيرةٌ جديدة. فسدرةُ المنتهى انتهت من حَيرة النبيِّ، ولكنْ مهما اجتهدنا أن نفهم تفاصيلَ تلك الأحداث فلن نصل إلى ما رأى، ولن نرى الآياتِ الكبرى التي رأى؛ لذلك تظلُّ حَيرتنا ويظلُّ البحثُ والتدبُّر.

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ " 189- 194 آل عمران".

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا

وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ

وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

" 285-286البقرة".

و آخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين

نظرية آذان الأنــعام في الخـلق والتـطور

النظرياتُ العلميةُ والفلسفيةُ تعكس أفكارًا و فِكَرًا توصل إليها الباحثُ بِناءً على معلوماتٍ توافرت لديه، تفسِّرُ ظاهرةً كونيةً في أيٍّ من مجالاتِ الحياة المادية أو الاجتماعية أو الفكرية. مهما تعامل الناسُ مع مصداقيةِ النظريةِ في أيِّ وقتٍ من الأوقات، فإنَّها تظلُّ افتراضاً فكرياً يخضعُ للدراسة والمراجعة كلما اتسعت دائرةُ المعرفة في المعلومات التي قامت عليها النظرية؛ وبذلك تكون النظرية دافعاً للبحث من أجل المزيد من المعرفة وليس نهايةً له، حتى وإنْ أدت البحوث اللاحقة لإثبات أخطاء فيها، فهي تكون قد وضعت الأساسَ لتفكيرٍ وبحثٍ منهجي في الاختصاص الذي طُرحت فيه. بعد دراسة هذا الكتاب، فإنَّنا نقترحُ **نظرية آذان الأنعام** في الخلق والتطور بِناءً على ما هدانا اللهُ إليه من فهمِ آياتِ كتابه الذي لا يعلم تأويلَه إلا هو. تقومُ النظرية على ركنين متكاملين:

أ- خلق الكون من الماء وتطوره.

ب- خلق الحياة من الماء وتطورها.

أ- خلق الكون من الماء:

"كان اللهُ ولم يكن شيءٌ غيره، وكان عرشه على الماء، **ثم** خلق السماواتِ والأرضَ وكتب في **الذكر** كلَّ شيء" صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم- .

هذا الحديثُ يطرح حقيقةً منطقيةً، وهي أنَّ وجودَ الله قبل وجود المادة لا يمكنُ أن يخضع لبحوث العقل البشري الذي لا يمكنه إلا دراسة عالم المادة. وجودُ الله وصفاته وقدراته لا يمكن الوصولُ إليها إلا بالإخبار من الله نفسِه. دورُ العقل البشري في هذا المجال ينتهي بالتأكُّد من مصداقية المصدر الذي يروي عن الله، وفي هذا البحث فالمصدرُ هو القرآن.

يرتِّبُ هذا الحديثُ مراحلَ الوجود كما يأتي:

1- وجود الله في عالم الغيب وليس معه شيء.

2- خَلَقَ اللهُ الماءَ و فرض سلطانَه عليه.

3- ثـمَّ خَلَقَ السماواتِ والأرضَ وكتب القانونَ والنظامَ الذي يسيرُ عليه الكون.

ولمَّا كان مصطلح "عرش" يفيد القدرة الإلهية العليا في التنظيم والتحكم في شؤون الكون، فقد كان الحديثُ يوحي بأنَّ اللهَ فَرَضَ سلطانَه الأعلى أولاً على الماء ليخلقَ منها كلَّ الوجود لاحقاً. ولمَّا كانت كلمةُ (عرش) تعني القمة والسقف أيضاً، كان ذلك يوحي بأنَّ الماءَ خُلق أولاً، ثـمَّ نال النصيبَ الأعلى من القوانين النوعية والتفصيلية التي جعلت منه المادةَ الأولى في الكون، التي دخلت في خلقِ كلِّ شيءٍ لاحق، بما في ذلك السماوات والأرض. نلاحظ في الحديث أنَّ حرفَ العطف "ثمَّ" يفيد أنَّ خلق السماوات والأرض تمَّ بعد مدَّةٍ من خلق الماء، وحرف العطف "و" ربما يفيد أن **الذِكر** أو نظام تسيير الكون و تطوره كتب متزامناً مع خلق السماوات والأرض.

الماءُ المقصودُ هنا هو الماءُ الطهورُ الذي عَجَزَ الإنسانُ -إلى الآن- عن تركيبه، رغم اكتشافه أنَّ الماءَ يتكون من ذرتي هيدروجين شديدِ الاشتعال وذرةِ أكسجين ضرورية للاشتعال، ويحمل جزيءُ الماء شحنتين كهربائيتين سالبتين في أحدِ قطبيه وشحنةً موجبةً مكافئةً في القطب الآخر. الهيدروجين هو أكثرُ عنصر في الوجود، ويليه غازُ الهيليوم الذي يتكون من التحام أربع نَوَياتِ هيدروجين. الآيات التالية توحي بطبيعة الماء ودوره في الخلق:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ " 7 هود".

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ " 30 الأنبياء" {الباب الحادي عشر}

هاتان الآيتان تطرحان الحقائقَ الآتية:

1- أنَّ فَرْضَ سلطانِه المباشر على الماء كان سبباً في خلق السماوات والأرض.

2- أنَّ السماواتِ والأرضَ خُلقتا في شكل كتلة واحدة، مكوناتُها ملتصقةٌ مع بعضها وإنْ كانت مختلفة في خواصها، لأنَّ الرتق يفيدُ الالتصاق بين أشياء مختلفة. تبع ذلك انفصالٌ بطيءٌ لكتلةِ السماوات عن كتلة الأرض، لأنَّ الفتق يختلف عن الانفجار ويفيد الانفصالَ الهادئَ البطيءَ. هذان اللفظان " رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا" يفسران وجودَ ستةِ مراحلَ من التطور أدَّت إلى اكتمال تكوين السماوات السبع من ناحيةٍ والأرضِ من ناحيةٍ أخرى.

وحتى نفهمَ شكلَ السماوات والأرض وعلاقتهما ببعض نتدبَّرُ هاتين الآيتين:

﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ " 33الرحمن".

﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ ﴾ " 4 المعارج".

لمَّا كان القُطرُ هو الخط الذي يصل بين نقطتين على المحيط مرورًا بمركز الدائرة أو الكرة، ولمَّا كان العرج هو الصعود بميل، فإننا نستنتج من مثل هذه الآيات ما يأتي:

1- أنَّ السماواتِ والأرضَ شكلهما كُرَوي.

2- أنَّ الأرضَ، وهي الكرة الصغيرة، توجدُ في مركز مجموع السماوات؛ لأنَّ انطباقَ أقطار السماوات والأرض على بعضهما يقتضي اشتراكهَما في المركز الذي تتقاطع عنده تلك الأقطار.

3- كلما صَعِدَ إلى السماء تبع مساراً منحنياً مع تقوس وانحناء الكون.

ولمَّا كان في مفهوم الكرة أنَّ النزولَ يفيدُ الاقترابَ من المركز، والصعودَ يفيدُ الابتعادَ عن المركز نحو المحيط في أيِّ اتجاه، فقد كان الارتفاعُ يعني التحرك من المركز تجاه المحيط. إذا أضفنا إلى هذه النتائج آياتٍ أخرى، فإنَّه يمكنُنا أن نتخيلَ عمليةَ بناء السماوات والأرض أكثرَ وضوحًا:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ " 2 الرعد".

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَـٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ " 47 الذاريات".

نفهم من ذلك كلِّه أنَّ كتلة السماوات والأرض وُجدتْ ملتصقةً، ثمَّ ابتعدت السماواتُ عن المركز، وهو الأرض، في حركةٍ بطيئةٍ لتتسع إلى سبع سماوات، وتكون الأرضُ هي المركزَ الذي يدور حوله مجموعُ السماوات، وهي في حالةِ اتساعٍ مستمر. نلاحظ أيضاً أنَّ عملية رفعِ السماوات و بنائها اكتملت قبل استوائه على العرش، ممَّا يدللُ على أنَّ بَدء الخلق خضع للإرادة الإلهية المطلقة، ثمَّ بعد ذلك انطلق قانونُ التطور أو التحكم التلقائي الذي استوى عليه الرحمن. ولمَّا كان اتساعُ الشكل الكُروي متماثلاً في كلِّ الاتجاهات، فقد كان الكونُ -إذنْ- في حالةِ انتفاخ بطيءٍ و محكم. كلمة "عمد" تفيد أنَّ السماواتِ ظلت مرتكزةً بقوىً خفيةٍ طاردةٍ وجاذبةٍ على مركز الكون وهو الأرض. ولمَّا كانت مكة تتوسط كتلةَ الأرض ويتمُّ عندها تلاشي الانحراف المغناطيسي، فقد كان جديراً أن نتصور أنَّ مجموع السماوات - ربَّما- يكون مرتكزاً على مركز الكون وهو الأرض، وبالتحديد على وسط الأرض وهو مكة، وربَّما تكون عبادةُ الطواف عكس عقارب الساعة حول الكعبة ليست إلا تمثيلاً لحركة كلِّ الكون حول هذا المركز، وتبادل الطاقات بين أجساد العباد وطاقات الأرض الكامنة. {الباب الثاني عشر}

هذا الفتقُ أو الانفصالُ البطيء المحكم والاتساع المستمر للسماوات لم يخلق فراغاً وتجاويفَ؛ لأنَّ الكون ظلَّ متصلًا ومكرَّسًا، تصل بين كلِّ ذرَّاته من أعلى السماوات إلى أدنى الأرض غازاتٌ وطاقاتٌ كهرو- مغناطيسية وضوئية وقوًى مجهولةٌ تجعلُ منه جسمًا واحدًا متماسكًا ومتصلًا ممَّا يفسِّرُ آية الكرسي:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ "255 البقرة".

فالكَرْسُ هو التلبُّدُ والتداخلُ والالتصاقُ من غير فراغاتٍ وتجاويفَ، و "كُرْسِيُّهُ" تصف نظامَ خلقه في كَرْسِ كلِّ الوجود. {الباب الحادي عشر}.

ولمَّا كان هذا التداخلُ والالتصاقُ بين كلِّ مكونات الكون خاضعاً لنظامٍ وقانونٍ نوعيٍّ دقيق هو "العرش" أو السلطة العليا التي تديرُ ناموسَ الكون، فقد شاءت الإرادةُ الإلهيةُ أن يكون ذلك القانونُ والنظامُ ثابتاً لا يتغير وَفْقَ أهواءٍ أو انفعالاتٍ أو تقلبِ مزاجٍ، رحمةً بكلِّ الخلق، وهو ما يفسر آية الاستواء على العرش:

﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ ﴾ " 5 الرحمن". { الباب الثاني عشر}.

فاستواءُ الرحمن على العرش وثباتُ ناموس الكون، هو المسؤول عن ثبات الظواهر الكونية، من مثل: تعاقب الليل والنهار، وحركة الرياح والمياه، والقوانين النوعية التي تحكم الأحياء، وكل تفاصيل الكون التي لا تتغير، ممَّا يتيحُ الفرصة لعقل الإنسان لدراسة منظومة الكون واكتشافِ قوانينها النوعية والتعاملِ معها بما فيه مصلحته.

الانفجارُ الكونيُّ العظيمُ:

بدأ الكونُ بعملية انتفاخٍ فتقت السماواتِ عن الأرض، وما زال في حالةِ انتفاخٍ محكمٍ بطيء. في نهاية عمر الكون سيحدثُ ازديادٌ مفاجئٌ هائلٌ في سرعة الانتفاخ، تؤدي إلى انفجارٍ صاعقٍ للكون عند قيام الساعة، وهذا ما عبَّرَ عنه القرآنُ بالنفخة الأولى في الصور:

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ

فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝ ﴾ " 68 الزمر".

النفخة الأولى تؤدي إلى انفجار الكون، أمَّا النفخة الأخرى فتؤدي إلى إعادة بنائه ليوم القيامة. ولكنْ، حينها ستتغيرُ قوانينُ الوجود ونظامُ العرش، فينتهي مفهومُ الزمان والمكان ويبدأ مفهومُ الخلود والأبد:

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝ ﴾ " 48 إبراهيم".

نلاحظ أنَّ استواءَ الله على العرش في هذه الحياة الدنيا تمَّ باسم "الرحمن"، في حين أنَّ تحكمَه في الكون بعد النفخة الثانية في الصور تمَّ باسم القهار. القهر هو الغلبة والتحكم المطلق، ممَّا يوحي بأنَّ الكونَ - الآنَ- يسيرُ وَفْقَ قوانينَ يمكن فهمُها والتعاملُ معها رحمةً بالخلق، ولكنَّه يومَ القيامة سيخضعُ للإرادة الإلهية المطلقة التي لا تخضع لنظامٍ، ولن تكونَ رحمتُه إلا لمن شاء. " انظر لوحة تطور الكون".

ب. خَلْقُ الحياةِ من الماء:

الأحياءُ المرئيةُ الماديةُ تشملُ الإنسانَ والحيوانَ والنباتَ، أمَّا الحياةُ غيرُ المرئية فتشملُ الملائكةَ والجنَّ. وقد سبق خلقُ الملائكةِ والجنِّ خلقَ بقيةِ الأحياءِ المادية.

الملائـكةُ و الـجنُّ:

عن عائشةَ - رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : " خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارجٍ من نار، وخُلق آدمُ ممَّا وصف لكم".(أخرجه مسلم في صحيحه – كتاب الزهد و الرقائق- باب في أحاديث متفرقة ، ص 2294).

كان الإنسانُ يعلم أنَّ شُربَ الماء ضروريٌّ للحياة، ثمَّ تطور علمُه ليكتشفَ أنَّ الماءَ يدخلُ في تكوين وظائف الخلايا الحية للنبات والإنسان والحيوان، ممَّا جعل المفسرين يفهمون بصورةٍ أوسعَ هذا النصَّ الذي يؤكِّدُ هذه الاكتشافات:

﴿ ... وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾. " الأنبياء 30" فكان في فهمهم أنَّ "كلَّ شيء حي" تشمل الإنسانَ والحيوانَ والنباتَ فقط. إلا أنَّ تطوُّرَ العلم واكتشافَ أنَّ النارَ والنورَ ينتجان من مكونات الماءِ من احتراق الهيدروجين في وجود الأكسجين، يفتحُ البابَ لتوسيعِ معنى الآية لتشملَ كلَّ شيءٍ حيٍّ مرئيٍّ وغيرِ مرئيٍّ، فيدخل في ذلك الملائكةُ من نورِ النار والجنُّ من سمومها، كما نصَّ الحديثُ -أعلاه- وهذه الآية:

﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ " 27 الحجر". {الباب الحادي عشر}.

الحياة المادية:

الأحياءُ المرئيةُ خضعَ خلقُها لمنظومةِ العرش الثابتةِ باستواء الرحمن عليه، وذلك بعد ظهور اليابسة على الأرض وتوافر المُناخ الملائم للحياة عند مركز الكون في مكة. وقد بدأ خلْقُ كلِّ الأحياء المادية في شكل نباتٍ نبتتْ من الأرض:

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾ "17 نوح". {الباب الأول}.

إنْ كان الإنسانُ العاقلُ قد نبت في أول الخلق من الأرض، فإنَّ بقية الحيوانات تشترك معه في ذات الأصل وكذلك النباتات. على أنَّ تطور الخلق بين النبات والإنسان العاقل مرَّ بمراحلَ كثيرةٍ كان العاملُ الأساسيُّ فيها هو سرَّ الحياة في الماء، وكون عرشُه على الماء، أي تعرُّض الماءُ لأكبر قدرٍ من القوانين الإلهية التي طورته لأشكالٍ متباينةٍ في الخلق:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾

لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ ﴾

" 48-49 الفرقان". {الباب الحادي عشر}.

والماءُ الطهورُ هو ماءُ الطبيعةِ الذي لم ولن يستطيعَ الإنسانُ تركيبَه في المعمل. خضع الماءُ الطهور للإرادة الإلهية ليحتويَ على القوانين التي تحكم الأحماضَ النوويةَ التي تسببت في تطور الخلق و اختلافه عبر ملايين السنين:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾ 54 الفرقان". {الباب الحادي عشر}.

خُلقت بشائرُ الخلق من أصول الماء، فأودع اللهُ في ذلك الماء قوانينَ تجعل بعضَه يحافظ على طبيعته فينتسب متصلًا بأصله، وبعضَه ينصهرُ ويتحولُ إلى أشكال أخرى في سُلَّم التطور.

ونتج أيضًا من قوانين الماء قانونُ الصفات الوراثية، التي تعطي كلَّ مخلوقٍ صفاتِه **المستقرةَ**، وتودع في جيناتِه صفاتٍ **مستودعةً** لتظهر في أجنته:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ " 98 الأنعام". {الباب الحادي عشر}.

ولأنَّ عملية التطور استغرقت ملايين السنين، فقد أتى على أسلاف الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن لهم وجودٌ ملموسٌ في الأرض:

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾ " 1 الإنسان". { الباب الأول}.

وقد وصف القرآنُ المراحلَ المختلفةَ لتطور خلق الإنسان من الطين، الذي ينتج من اختلاط الماء بتراب الأرض :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ " 12المؤمنون". {الباب الثاني}.

ثمَّ وَصَفَ مراحلَ تطورِ هيئةِ الحيوانات، ومن ضمنها الإنسان، في هيئته ومشيته من مخلوقاتٍ بُدائيةٍ إلى مخلوقٍ يمشي معتدلًا على قدمين:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ ﴾ " 45 النور". **{**الباب الحادي عشر}.

وقد كان الإنسانُ حيناً من الدهر يمشي مُكِبًّا على وجهه قبل أن يتطور إلى إنسان عاقل:

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ " 22الملك".

ثمَّ تكرَّمَ اللهُ عليه فأنشأه من انحنائه، وآتاه العقل:

﴿ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ " 23 الملك". {الباب الحادي عشر}.

وقد وصف أنَّ تصويرَ الإنسان في صورتِه الحاليةِ تمَّ في مرحلةٍ لاحقةٍ بعد خلقِهِ في صورة أدنى:

﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ....﴿١١﴾ ﴾ " 11 الأعراف" { الباب الثالث}.

ظلَّ الإنسانُ في هيئته الدنيا - ربَّما- لملايين السنين، وكانت جمجمته صغيرة لا تسعُ الحجمَ الحاليَّ لمخِّ الإنسان العاقل، ولذلك فإنَّ سلوكَه الظاهرَ كان فساداً وسفكاً للدماء، ممَّا أثار استغرابَ الملائكة:

﴿ ..... قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ .... ﴿٣٠﴾

"31 البقرة".

تطور الإنسان:

كان الله - تعالى- يعلم أنَّ تدخُّلَ إرادتِه الإلهيةِ لتنفخَ من روحه في الإنسان، وتعدلَ في مخِّه ليتضخمَ وتظهرَ فيه خواصُّ السمع والبصر والعقل، ستجعلُ منه ذلك الخليفة. وقد فصَّلَ القرآنُ مراحلَ خلق الإنسان و تطوره، إلى أن أصبح عاقلًا، في سورة السجدة كما يأتي:

1- طورُ الخلقِ من ترابٍ وماءٍ وهو الطين، وهذا هو طورُ الإنبات من الأرض: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ﴾ " 7 السجدة"{الباب الثالث}. كان تكاثرُ أسلاف الإنسان في تلك المرحلة تكاثرًا لا جنسيًّا، إذ إنَّ القرآنَ وصف أصلَ الخلقِ من نفسٍ واحدةٍ، التي - ربَّما- تعني خلية واحدة خلق منها زوجها، أي حدث فيها ازدواجٌ ذاتيٌّ أو انقسام:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ "1 النساء"، فكلمة "خلق" تعني الإيجاد من عدم. { الباب الحادي عشر}.

2- الطور الثاني بعد ملايين السنين عندما بدأت خاصيةُ التكاثرِ الجنسيِّ بين الذكر والأنثى: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾ " 8 السجدة"{الباب الثالث}. وهذا - بطبيعة الحال- اقتضى تميُّز أسلاف الإنسان إلى ذكر وأنثى الذي وصفته هذه الآية:

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ..... ۝٦ ﴾ " 6 الزمر"، فلفظة "جعل" تفيد تغييرًا في وظيفةِ مخلوقٍ موجودٍ من قبل، ممَّا يفيد ظهور الذكر والأنثى، على أنَّ حرف العطف "ثـمَّ" يفيد وقوع هذا التغيير بعد مدَّةٍ طويلةٍ من الزمن كان الإنسان فيها أحاديَّ الجنس {الباب الحادي عشر}.

3- الطور الأخير وهو طورُ تسويةِ المخِّ والنفخ فيه من روح الله و سعته، ونقله إلى إنسان عاقل ليصبحَ خليفةً لله في الأرض:

﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩ ﴾ " 9 السجدة". تمت مناقشة تلك الأطوار في باب الحلقة المفقودة {الباب الثالث} .

آبـــاءُ الإنسانية:

1- جمع اللهُ اثنين وثلاثين فردًا من العنصر البشري، كانوا قد تطوروا إلى مستوى جعلهم ملائمين للتغير "آدم" إلى إنسان عاقل، وتمَّ ذلك الجمعُ من مِساحةٍ ضيقةٍ ربَّما تحدِّدُها حدودُ الإحرام المكانية.

2- نفخ اللهُ فيهم من روحه فتطوَّرَ المخُّ والقلبُ إلى مخ إنسانٍ عاقلٍ و قلبه " الحلقة المفقودة"، وأغلبُ الظنِّ أنَّ ذلك تمَّ في وادي "منى".

3- طوَّع اللهُ لهم القوانينَ النوعيةَ لكلِّ المخلوقات في الأرض، وما تمرَّدَ على ذلك إلا فصيلٌ من الجنِّ على رأسه إبليس.

4-أنزل لهم الأنعامَ لتكونَ الحَيَوانَ الأقربَ في حياتهم وذللها لهم، وجعلها آذانًا و آيةً تذكِّرُهم بربِّهم.

5- أسكنهم اللهُ في جنةِ عرفاتٍ القريبةِ لمدةٍ تأهيلية، وحرَّمَ عليهم التداخلَ الجنسيَّ بين الذكور والإناث.

6- استدرجهم إبليسُ للوقوع فيما حُرِّمَ عليهم، بإغرائهم بتواصل النسل والخلود في الأرض.

7- هبط الرعيلُ الأولُ من عرفاتٍ في طريقهم لبيتهم الأول، وفي المشعر الحرام ملكهم اللهُ حجارةً ترجمُ الجنَّ حمايةً لهم.

8- سكن الجيلُ الأولُ من الإنسان العاقل في البيت العتيق أولَ ما سكن. { الأبواب من الثالث إلى العاشر}.

إثبات النظرية:

ولمَّا كانت كلُّ الأحياء المادية على الأرض تشترك في أصل الخلق وفي أنَّها نبتت من الأرض نباتا، وتطورت عبر ملايين السنين - كما أسلفنا- إلى مخلوقاتٍ متميزةٍ ومتباينةٍ، فقد كان ممكنًا للإنسان أن يثبت تلك الحقائقَ بالبحث المعملي حينما تتوافر له الإرادةُ و الإمكانات العلمية. على أنَّ هناك استثناءً في أصل الخلق، وهو أنَّ الأنعامَ من إبلٍ وبقرٍ وضأن وماعز قد نزلت من السماء، ولا تشتركُ مع أحياءِ الأرض في أصل الخلق:

﴿ ..... زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ..... ﴿٦﴾ ﴾ " 6 الزمر". وقد أكَّدَ اللهُ أنَّ خلقَ الأنعام فيه سرٌّ، إذ إنَّه أفردها بتدخُّل يده مباشرةً في خلقها:

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ "71 يس". {الباب الحادي عشر}.

والفائدةُ العلميةُ من استثناء الأنعام في أصل الخلق من مخلوقات الأرض و وصفها بأنَّها أُنزلت، يمكنُ تلخيصُها في النقاط الآتية:

1- إثبات مفهوم التطور الذي صَعِدَتْ عليه كلُّ أزواج الأحياء في الأرض من أصلٍ واحد باستثناء الأنعام.

2- نفي مفهوم التطور التلقائي لمخلوقات الأرض، وإثبات أنَّ نظام التطور الذي صَعِدَتْ عليه الأحياءُ في الأرض قد تمَّ بإرادة الله خاضعًا لمنظومة العرش.{ انظر لوحة التطور}.

3- التأكيد على وجودِ حياةٍ ماديةٍ مكملةٍ لحياةِ الإنسان خارجَ إطار الأرض " مجتمع الأنعام".

4- إنَّ الخالق هنا وهناك واحد.

الجوانبُ التالية في النظرية تحتاجُ لبحوث علماء المسلمين:

1- اكتشافُ الفوارق في الخلق بين الأنعام وبقية الأحياء على الأرض، وذلك استجابةً لقول الله:
{أَفلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}" 17 الغاشية".

2- تحديدُ تاريخ وجود الأنعام في الأرض، الذي يمكنُ أن يحدِّدَ تاريخَ نقل الإنسان إلى إنسان عاقل.

3- البحثُ في الأسرار الفلكية والجيولوجية لشعائر الله المحرمة في أرض مكةَ، من الحجارة في وادي المزدلفة والصفا والمروة، إلى الحجر الأسود؛ لإثبات أنَّ أصولها من خارج الغلاف الجوي.

4- البحثُ في آثار الإنسان الأول في أرض الخلق والتطور حول مكة؛ لإبراز حُجَّةِ الله على الإنسانية التي دُعي إليها بنو آدمَ في عبادة الحج.

وما توفيقنا إلا بالله، عليه توكلنا، وإليه أنبنا، وإليه المصير.

عماد وعلاء الدين محمد بابكر حسن.

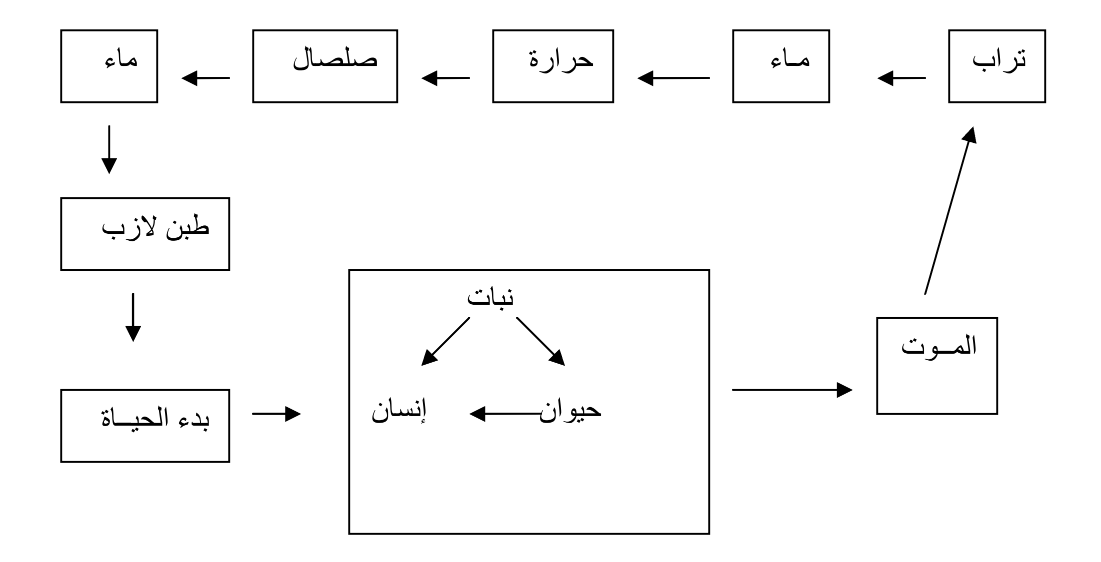
الخرطوم في الأول من يناير 2007 ميلادية

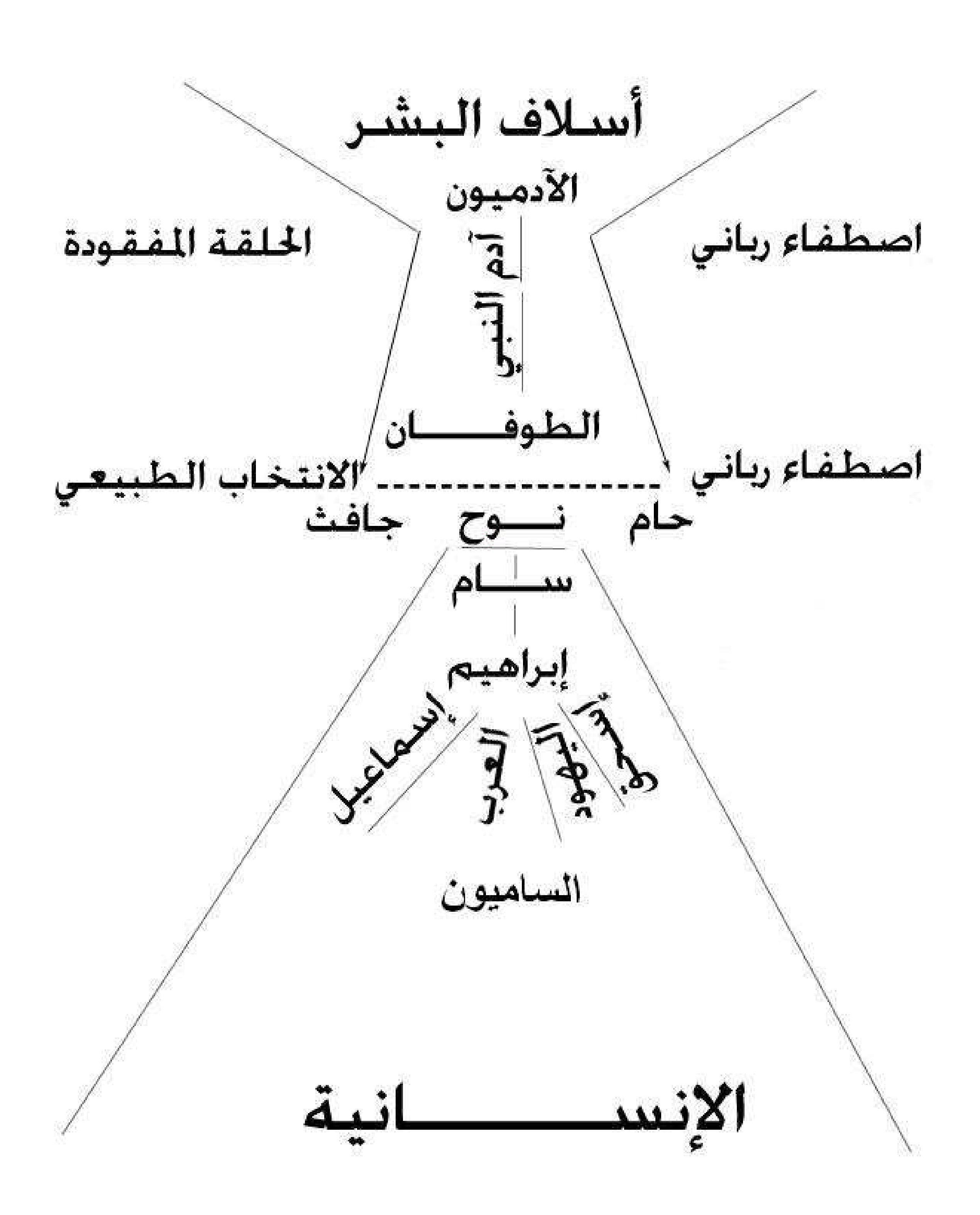
العاشر من ذي الحجة 1427 هجرية

*　　　*　　　*　　　*

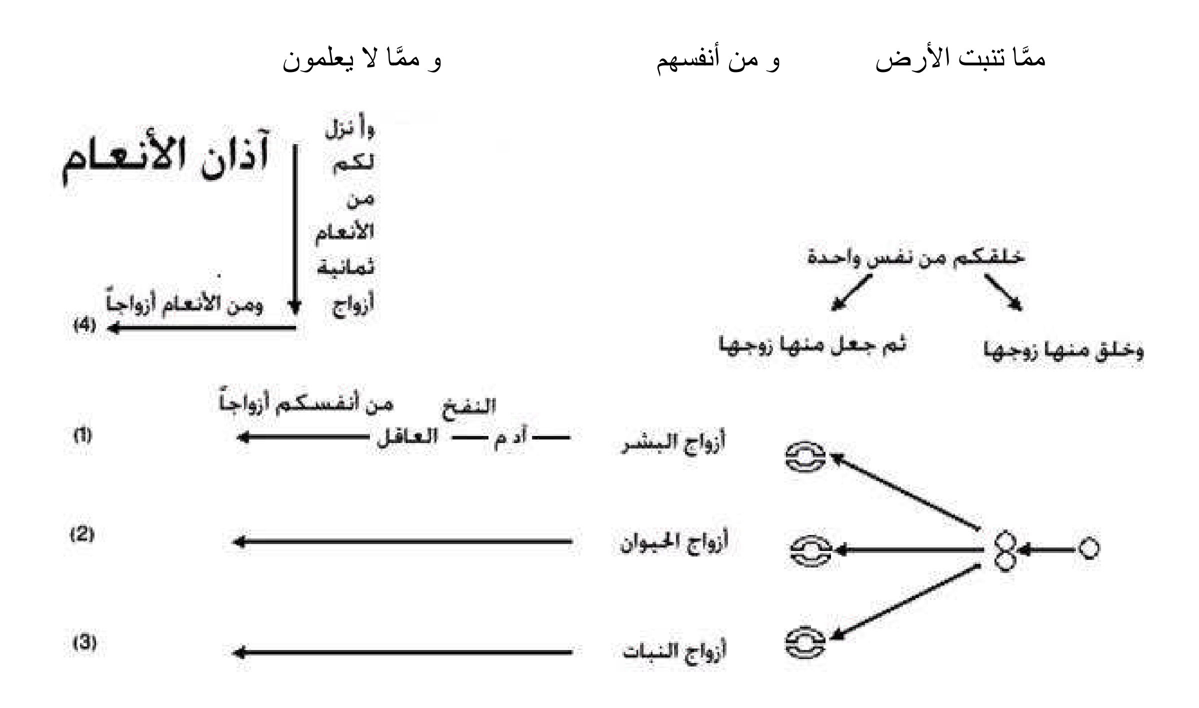
نُشرتْ هذه النظريةُ في الطَبعة الأولى من "آذان الأنعام" عن طريق دار عزة للنشر في الخرطوم في بداية شهر فبراير 2007.

دورةُ الموت والحياة وعلاقُتها بالتراب والطين





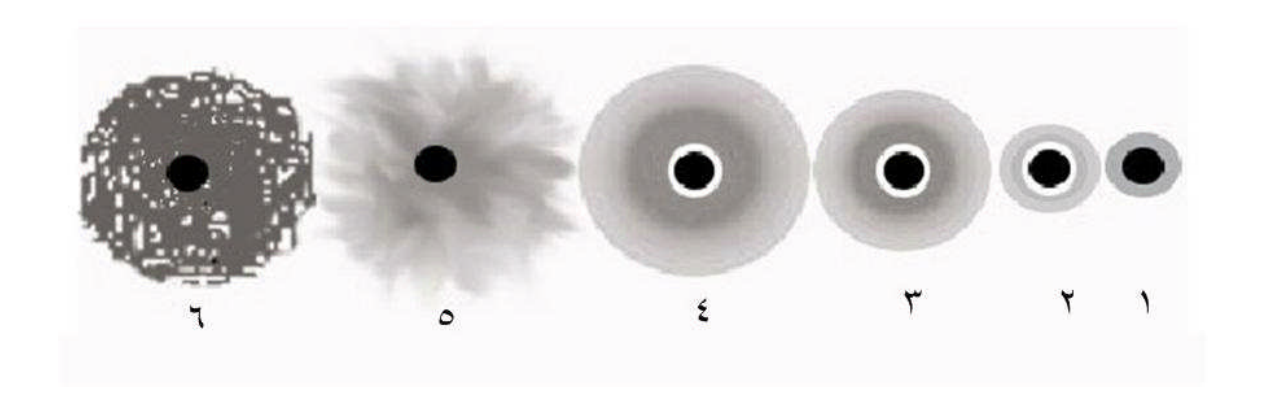
لوحة انحدار البشر



لوحة تـــطور الحــياة

وصل العلماءُ إلى أنَّ أصلَ الخلق في الإنسان والحَيَوانِ والنباتِ واحدٌ من متابعتهم لسلالم التطور 1، 2 و 3 التي انتهت إلى خلية واحدة، فظنوا أنَّ التطورَ تمَّ بصورةٍ تلقائيةٍ، و عليه خلص الملحدون منهم إلى إنَّه لا يوجد إله. ولكنْ بالنظر إلى هذه اللوحةِ القرآنيةِ نجدُ أنَّ متابعة سُلَّم تطور الأنعام رقم" 4" لا يؤدي إلى نفس الأصل لأنَّها منزلة، ولذا يصبح " آذان الأنعام" الذي توعد إبليسُ أن يزيله هو المِفتاحَ الذي يؤكِّدُ مفهومَ التطور في الأرض، ولكنَّه يثبتُ أنَّ اللهَ هو خالقُ الأزواج كلِّها: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦ ﴾ " 36 يس".

لوحة الانفجار الكوني العظيم



2-1. عند بدء الخلق: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ .... ﴿٣٠﴾ ﴾ " 30 الأنبياء".

3. اكتمال خلق السماوات السبع:﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ " 29 البقرة".

4. ظلَّ الكونُ في حالةِ انتفاخٍ مستمر:﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ "47 الذاريات".

5. ازدياد الانتفاخ بصورة مذهلة تؤدي إلى انفجار الكون وقيام الساعة:﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ .... ﴿٦٨﴾ ﴾ " 68 الزمر"، وينتج عن ذلك سقوط السماوات على الأرض، وتشرح كلَّ أوصاف قيام الساعة المرعبة.

6. النفخة الثانية ليوم القيامة :﴿ .... ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨ ﴾، وحينها لن تكون السماوات والأرض التي نعرفها:﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨ ﴾ "48إبراهيم". ولن يكون القانونُ الذي يحكم الكونَ إلا قبضةَ الله المباشرةَ التي تعلو العرشَ :﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧ ﴾ " 67 الزمر".

المراجع

القرآن الكريم

المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: محمد فؤاد عبد الباقي

تفسير ابن كثير

تفسير الطبري

تفسير القرطبي

تفسير فتح القدير

تفسير الجلالين

تفسير البغوي

في ظلال القرآن: سيد قطب

فتح الباري في شرح صحيح البخاري

صحيح مسلم

سيرة ابن هشام

البداية والنهاية: الحافظ ابن كثير

جلاء الأفهام: ابن قيم الجوية

قصص الأنبياء: ابن كثير

معجم مقاييس اللغة : أحمد بن فارس بن زكريا الرازي

معجم لسان العرب:ابن منظور

الحج: مسيرة الإنسان الأول من جنة عرفات إلى بيته المحرم:مهندس علاء الدين محمد بابكر حسن

الكتاب والقرآن " بتصرف": د. مهندس محمد شحرور

كيفية الحج والعمرة: عبده غالب أحمد عيسى

آدم عليه السلام: خلق أم تطور أم ميلاد: مهندس سامي صالح محمد

مقالات د. زغلول النجار

مقدمة ابن خلدون

عقلة المستوفز لابن عربي

كتاب الحياة: عربي / إنجليزي

New International version 1998

توراة اليهود:

TANAKH The Holly Scriptures JPS 1985

تفسير التوراة:

The Soncino Chumash: Exposition of the five books of Moses with Haphtaroth، based on the classical Jewish
commentaries. Edited by the Rev. Dr. A. Cohen 1962

مختصر الأديان العالمية:

Looking for God: Steven Sadler

مجلة الطبيعة الإنجليزية:

NATURE

الخلق والتطور:

Creation and/or Evolution by: T O Shanavas

أميرة مصر وذلك النبي الغامض: دكتور عماد محمد بابكر حسن:

The Princess of Egypt and That Mysterious Prophet: Dr Imad Hassan

كتاب تشارلس داروين:

1- The Origin of Species by means of natural selection

2- The Descent of man

الفـــــهــرس